

مؤتمر

مسيرات يوسف

عليه السلام

الجزء الأول

مطابع دار الفكري بدمشق



مؤتمِر

تفسير سورة يوسف

عليه السلام

وفيه

بيان طبائع الصهيونيين

وأن طبائع الآباء موروثه في الأبناء، وكشف حال اليهود وعبرة أهالي فلسطين

يا أهالي فلسطين! وبأيها العرب والمسلمون! اقرأوا هذه المحاضرات
على سورة يوسف، تعرفوا ما أنطوى عليه الصهيونيون بما ورثوه من أصولهم

بقلم كاتب المؤتمر

الأستاذ العلامة

الشيخ عبد الله العلمي الغزني الدمشقي

أستاذ دروس التفسير في الجامع الأموي بدمشق سابقاً

تفهمه الله برحمته ورضوانه

١٢٧٩ هـ (١٨٦٢ م) - ١٣٥٥ هـ (١٩٣٦ م)

قدم له فضيلة الأستاذ العلامة

محمد حجة البطار الدمشقي

عضو مجمع اللغة العربية بدمشق

حقوق الطبع والنقل والترجمة

محتفظ بها لورثة المؤلف

الطبعة الأولى : مطابع دار الفكر بدمشق

١٣٨١هـ - ١٩٦١م

اهراء الكتاب

إلى ملوك الاسلام ورؤسائه وأمرائه وعلمائه
الأحياء منهم والذين عند ربهم يرزقون

« المؤلف »

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

كلمة سماحة المفتي العام للاقليم السوري

الدكتور محمد أبو اليسر عابدين

الحمد لله الذي نور قلوب المؤمنين بنور اليقين والإيمان ، وشرفهم بكتابه العزيز فيه هدى للناس وبينات من الهدى والفرقان . والصلاة والسلام على من أرسله الله رحمة للعالمين أشرف إنسان. وعلى آله وصحبه ما تقاب الموان .

أما بعد فلما كان أفضل ما يشتغل به المؤمن من العلوم علم الدين والقرآن ، وكان ممن عني بتفسير سورة يوسف على شكل عجيب من البيان . الاستاذ الملامة التحرير الشيخ عبد الله العلمي الشهير . وقد التمس مني أن أدقق بهذا التفسير ، فوجدته حوى من الفوائد ما فتح كل عسير . وهو حري بالنشر ليفوح منه طيب العبير . فأسأل الله تعالى أن يجزيه الثواب العظيم يوم لا ينفع مال ولا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم . ولنا وله ولكل المسلمين آمين .

دمشق في ١٣٨١/١/٩ و ١٩٦١/٦/٢٢

المفتي العام للاقليم السوري

الدكتور محمد أبو اليسر عابدين،

هذا التفسير

بقلم ابن المؤلف الدكتور عبد الحليم العلي

لقد شغف والدي - نعمده الله برحمته - بكتاب ربه منذ نشأته العلمية والدينية وخاصة بعد تخرجه في الأزهر الشريف في عام ١٣٠٢ هـ ، فصرف كل وقته وجهده في الدرس والتحجيص عن مكنونات القرآن الكريم ، والبحث والتنقيب عن دقائمه ، ولما اختمرت آراؤه ونضجت أفكاره ، شرع في عام ١٣٤٤ هـ (١٩٢٥ م) في تدوين تفسير آيات القرآن التي له فيها رأي وفهم خاصين ، فجاء فيما يقارب ال ٤٠٠٠ صفحة مخطوطة من القطع المتوسط . ولما أتى على سورة يوسف عليه السلام ، رأى أن يضع لها تفسيراً جامعاً كاملاً من ألفها إلى يائها ، لما جاء في قصة يوسف من تصوير لشتى العواطف والنوازع الإنسانية ، فأحلام الشباب ، ونظام الأسرة ، وعلاقة الأخ بإخوته ، وطبيعة المرأة ، وأخلاق الملوك والأمراء والحكام ، وسمو الأنبياء ، كل ذلك مصور فيها تصويراً فذاً رائماً حكماً ، كما أن فيها دروساً نفسية تعالج كثيراً مما نعانيه اليوم في حياتنا الخلقية والاجتماعية من المشاكل ومن السيئات ، كما أن بطلي القصة ، الملك ويوسف يمثلان نوعين من الحضارة والثقافة أحدهما يمثل الثقافة والحضارة الفرعونية وثانيها يمثل الثقافة والحضارة العبرية .

والأقاصيص الأخرى ، كقصص موسى وفرعون ، وموسى وهرون ، وهود وعاد ، وصالح وثمود ، وإبراهيم والكلدانيين والفلسطينيين و ... الخ ، لم تجمع من العظات والعجائب ، مثلما جمعتها قصة يوسف (ع) ، ولم تتضمن قصة من

القصص ، من المبكى والمنكى ، والمدهشات والمنعشات ، والتطورات والانتقالات ، ونصب الأحاييل ، والحب والمفة ، والاسترقاق والملك ، والذل والعز ، والتلاقي والفراق ، والرحلات والانتصارات ، واللذة والمبرة ، والمقدمات والنتائج ، والصبر والفرج ، والحكم والعبر ، والفوائد النافعة في الدين والدنيا ، كسير الملوك والماليك ، وحسن السياسة وتدير الملك وإقامة العدل ، ونظام الدولة ، ومكر النساء وتمثيل طبائهن ، والاصطبار على الأذى ، والعفو عن المجرمين ، لم تتضمن هذه الأمور قصة كمثل ما تضمنته قصة يوسف (ع) .

(وعدا ذلك فالقصة تعطينا صورة طبق الأصل لدرس حياة الشعب الاسرائيلي وما فيه من قسوة عند اللزوم ، ورقة حين الاقتضاء ، وحب واساءة واحسان ، وتملنا أن النتيجة أو الغاية عند اليهود تبرر الوسطة مها كانت منحطة ، وهو شأنهم من القديم ، وحال سلالهم الصهيونيين اليوم في فلسطين ، وقد قص الله علينا مفاوضة الاخوة في قتل أخيهم يوسف : (اقتتلوا يوسف أو اطرحوه أرضاً يخل لكم وجهه أيكم) يوسف ٩ ، ليوقفنا على بعض طبائع الاسرائيليين التي منها اجماعهم على شر الشرور لكي نعتبر ونكون دائماً على حذر من سلالهم - أبناء المم !! - الصهيونيين الذين كأنما قانون الوراثة قد ظهر فيهم بأجلى أمثلته ، وليعلمنا أن الدم الذي كان يتمشى في عروق هؤلاء الأجداد ، هو الدم الذي يتمشى اليوم في عروق السلائل اليهودية الصهيونية الذين يريدون قتل أبناء عمومتهم العرب ، الواقفين أمامهم في جبهة فلسطين ، يريدون قتلهم معنوياً بسلب موطنهم وأرضهم ، وتدمير اقتصادياتهم ومرافق حياتهم ، وكل أسباب عيشهم ، كما أنهم يريدون طرح أبناء عمومتهم العرب أرضاً لكي يكونوا أكثرية في فلسطين فيشكلوا دولتهم

الصهيونية الخيالية !! ويكونوا من بعد هذا كله (قوماً صالحين) تصلح لهم أمور دولتهم، ويفرضون على بقايا العرب الذين سيحتالون في بقائهم في فلسطين أن يكونوا محتطي حطب ومستقي ماء لكل جماعة). (١)

وأما السورة فقد جعلها الله تعالى سبباً من الأسباب التي يظهر فيها حكمه ، ووسيلة من الوسائل التي يرشد الناس بها للمبرة والمظة ، والرجل العاقل لا يقرأ هذه السورة لما فيها من التاريخ فحسب ، بل لما حوته من العظات ، وما اشتملت عليه من الحكم ، وما تضمنته من الأمثال وعجيب التدبير الإلهي ، والمسائل الاجتماعية والعبر الربانية ...

وقد أطلق المؤلف - رحمه الله - على هذا التفسير اسم « مؤتمر تفسير سورة يوسف » لأنه ألفه على لسان مؤتمر (٢) مفترض عقده في المسجد الأقصى من بيت المقدس ودُعي إليه عدد كبير من علماء المسلمين والمسلمات الاعلام، من شتى البلاد والأمصار ، ومن مختلف الأجناس والألوان والهيئات والاختصاصات ، للاشتراك في تفسير هذه السورة الكريمة . وافترض لأعضاء المؤتمر أسماء رمزية منسوبة إلى بلادهم أو اختصاصاتهم أو غير ذلك ، وجعل المؤلف نفسه سكرتيراً أو رئيساً للمؤتمر بحيث أنه يقرأ هو الآية على الأعضاء ، فيقوم أحدهم ويذكر لها تفسيراً ، وهذا التفسير إما أن يكون مذكوراً في كتب التفسير أو في غيرها فيُعزى عندئذ لصاحبه ، وإما أن يكون غير مذكور أو يكون من مفهوم ورأي الرئيس - المؤلف - فيرمز إليه بقوله :

« خذ ما آتيتك » أو « وإليك البيان وهو من مواهب الرحمن » أو « ونحن

(١) من اقوال المؤلف قبل ست وعشرين سنة

(٢) كما كان يقول المؤلف ذلك .

نقول ، أو « فافهم ، فافهموا » ، وإذا اختلف أعضاء المؤتمر في تفسير آية ما ، فصل الرئيس في الموضوع ، إما بمشاطرة قائله ، أو بالتعليق عليه ، أو برده بالحجة والبرهان . هذا ولم يضمن المؤلف حق المرأة في هذا المؤتمر ، بل أشركها فيه لبيان رأيها في الآيات التي تخص بنات جنسها خاصة ، وكلتي الجنسين عامة ، مراعيًا بذلك مكانة المرأة المسلمة العاملة ، ومعيداً به ما كان يجري في عهد الرسول ﷺ ، وعهود خلفائه الراشدين رضي الله عنهم .

ولم يقتصر هذا المؤلف على التفسير البحت لسورة يوسف (ع) بل تضمن مباحث تاريخية وأدبية ولفوية وأخلاقية واجتماعية ، وتضمن تحقيقات علمية ودينية وتفسيرية شتى ، وتضمن ردوداً على مفتريات دعاة النصرانية على الدين الإسلامي والقرآن الكريم .

فانظر إلى مقدمة التفسير ، تجده قد ذكر لك نبذة تاريخية عن حياة كل من إبراهيم وإسحاق ويعقوب عليهم السلام .

وذكر فيما بعدها تحقيقات شتى عن الناسخ والمنسوخ والمتشابهات في القرآن ، ثم جمع القرآن ، لزوم تعلم المسلمين اللغة العربية ، ترجمة القرآن ، اللغة العربية لغة العلاقات بين الدول الإسلامية ، مقابلة بين آيات قصة يوسف في القرآن وفي التوراة ، قصص التوراة ، الوحي ، ضرر تعدد الزوجات ، حال التاريخ قبل الإسلام وبعده غلط اليهود في تاريخهم ووقوع الزيادة والنقصان في التوراة ، الاسترقاق ، رد على زعم دعاة النصرانية بشأن تحرير الرقيق في الإسلام ، المرأة وفضليات النساء في التاريخ ، عقيدة الإيمان الكاملة بالله ، أركان الإيمان الستة ونصوص عقيدة التوحيد في الإنجيل ، التثليث عند شتى الأمم ، فرق النصرانية الشهيرة ، وجود المسيح (ع) من غير أب آية على وجود القيامة ، الرد على النصرانية في اعتقادهم بالوهية المسيح ، الدين والعلم أخوان ، التوسل ، الدين الإسلامي والسمي في الدنيا ، التصوف في

الإسلام ، التزهيد والبراءة من الدنيا في الشريعة المسيحية ، عقيدة الصلب والفداء ، قدر الله ، من تاب غفر الله له والمغفرة في التلمود والانجيل ، أنواع الادعية في القرآن ، الإسلام دين جميع الرسل ، الأصل في دعوى المسيح وموسى التوحيد المطلق ، الدين الإسلامي قام بالحجة لا بالسيف والقوة ، محمد (ص) مؤسس أمة وامبراطورية وديانة ، القرآن مصدق لما قبله من أمور التوحيد وأصول الدين وكتب التوحيد والكتب السماوية الأصلية ، شواهد من التوراة الحالية على أن فيها زيادة وأنها كتبت بعد السبي .

وعلى ذلك فالكتاب والحالة هذه ، يعد أهم مرجع للعلماء والمهتدين والخطباء والوعاظ والمدرسين والأدباء والمرشدين ، ويعد خير معلم لطلاب العلم والدين المشتغلين في البحث والدرس لا سيما دروس الدين وأصول التفسير والجدل الديني .

وقد انتهى المؤلف - رحمه الله - من تأليفه هذا قبيل وفاته (عام ١٣٥٥ هـ و ١٩٣٦ م) بقليل ، أي قبل أربع وعشرين سنة ونيّف ، ولم يكن من التيسر لنا نشره آنذاك لأسباب عدة ، ولعل من توفيق الله أن تهباً الفرصة الآن لنشره في هذه الفترة من الزمن ، التي تطورت فيها الروح العربية ، واتجه فيها تفكير المثقفين إلى المباحث الدينية على أسلوب علمي ، كان المؤلف رحمه الله ، يلتزمه في كل مباحثه ودراساته .

وأخيراً ها هو الكتاب الآن بين يديك ، ومنه تتعرف على المؤلف ، إذ ليس من حقي أن أطري هذا الأثر الديني العلمي أكثر من ذلك ، لأنه من آثار أبي ، بل إنني أقدمه للقراء وقد جاء فيه طابع مؤلفه ، وجاءت فيه قوة روحه وإيمانه ، وجاء فيه مبلغ كفاجه في إعلاء شأن كلمات ربه وكفى .

تقديم الكتاب

لفضيلة علامة الشام الأستاذ محمد بهجة البيطار الدمشقي
عضو المجمع العالمي العربي بدمشق

عرفت فقيد الإسلام الكبير العلامة الجليل الأستاذ الشيخ عبد الله العلمي الغزي ثم الدمشقي (رحمه الله تعالى) منذ حل ربوع دمشق في عام ١٣٣٥ هـ (١٩١٨ م) ، فعرفت من علومه ومعارفه ، ومن مزاياه وخصائصه ، ما كان به نسيج وحده . كان رحمه الله شيخ العلم والكرم ، فلم يتفق لي أن زرته مرة خلال هذه المدة الطويلة ، إلا ورأيت علمه وكرمه يتجاربان ، وإن أدري أيها كان يسبق الآخر ، ولكنها كانا فرسي رهان .

لفقيدنا العظيم مؤلفات مخطوطة ومطبوعة ، ولكن أجل ما شرفني بالاطلاع عليه من مخطوطاته هو تفسيره الكبير لسورة يوسف عليه السلام ، فقد قرأت له نحواً من خمسين كراساً في تفسير هذه السورة ، كل واحد منها يبلغ نحو أربعين صفحة بالقطع المتوسط ، وهو لعمرى آية من آيات إبداعه وشغفه بكتاب ربه ، وصرفه كل ما يملك من وقت وعلم في هذه السبيل ، وقد رتبته رحمه الله ترتيباً غريباً خالف فيه أسلوب المفسرين ؛ ذلك بأنه عقد ليوسف وأبيه واخوته عليهم السلام مؤتمراً في بيت المقدس من أرض فلسطين موطنهم وموطن المؤلف الأول ، ودعا إليه مئات العلماء من أقطار العرب والإسلام .

وطريقته في التفسير أنه يورد الآية ثم يعرضها على أعضاء المؤتمر في الجلسة المنعقدة لتفسيرها ، وبعض ما يورده معروف في كتب التفسير ، ومعزواً إليها أو مشهور

فيها ، وبعضه مما استفاده المفسر من مطالعته في غيرها ، ومنها ما هو من تحقيقاته وآرائه الخاصة ، فإذا اختلف مفسرو الأقطار الحاضرون في المؤتمر في تفسير آية كان للاستاذ رئيس المؤتمر القول الفصل في الموضوع ، فهو تارة ينصر بعض هذه الأقوال على بعض ، وتارة ينفرد عنهم بقول آخر ، وهو يوجه القول ويعززه بالدليل والبرهان .

ولما تكلم عن امرأة العزيز ونسوة المدينة، أخذ يردد أقوال مندوبات الأقطار، وهن يذكرن من أطوار النساء وأخلاقهن ما فيه العظة والمبرة .

ومن مباحثهن في تفسير الآيات المتعلقة بهن ما يعيد لك عهد المفسرات المحدثات في عصور الإسلام الذهبية، ولنورد مثلاً من هذا الحوار في معاني الآيات الكريمة، وهو يمثل لك هذا التفسير العجيب أصدق تمثيل ، وينفي عن الإطالة في وصفه :

(طلب ملك مصر ليوسف عليه السلام)

سورة يوسف الآية ٥٠ :

« وقال الملك ائتوني به ، فلما جاءه الرسول ، قال : ارجع إلى ربك فاسأله ما بال النسوة اللاتي قطعن أيديهن ، إن ربي بكيدهن عليم ، افتتحت الجلسة ، وتليت الآية الخمسون ، فقامت السيدة إنصاف الدمشقية وقالت :

(القصر يطلب يوسف)

كان رئيس السقاة قد رجع من عند يوسف ، حاملاً عبارة الرؤيا ، وهو يطوي الطريق طياً ، حتى حضر بين يدي الملك ، فاقصص الملك منه القصة ، وكان ينتظره وهو على أحر من الجمر ، فحكها له كما سمع ، فأعجب الملك بذلك ، وأحب يوسف « والأذن تعشق قبل العين أحياناً » (وقال الملك) الريان بلهفة : مرحى !! اذهبوا

حالاً ، و (اثتوني به) أي ييوسف ، فإن له رأياً سديداً وحزماً ، وإن لي منه خير مشير ، لا سيما في الشؤون الاقتصادية .

فأض رئيس السقاة ليوسف (فلما جاءه الرسول) مندوب الملك الذي اسمه « نبو » ، أخبره بما كان من الملك ، وطلب منه أن يخرج من السجن ، فتأني يوسف وتثبت في إجابة الملك ، و (قال) للمندوب : إني سوف لا أخرج إلا بعد النظر في التحقيق عما نسب إليّ ، لذا أرجوك (ارجع) ثانية (إلى ربك) جلالة الملك الريان (فاسأله) يا للمعجب !! (ما بال النسوة) المصريات الخمس ، عقيلات بعض أمراء البلاط (اللاتي) كن (قطعن أيديهن) يوم ما دعين في بيت سيدي العزيز ؟ (إن ربي الله سبحانه وتعالى (بكيدهن عليم) كيدهن الذي سبق لي منهن منذ بضع من السنين ، والذي أرجو بفضل البحث والتحقيق أن يرتد في محورهن . »

« وقد قدم سؤال النسوة ليظهر براءة ساحته عما قرف به وسجن به ، لثلا يتسلق به الحاسدون إلى تقييح أمره عند الملك ، أو يجعلوه سلماً إلى حط منزلته لديه ، ولثلا يقولوا : ما مكث في السجن بضع سنين إلا لأمر عظيم ، وجرم كبير ، حتى به أن يسجن ويعذب ويستكشف أمره ، ولأنه لو خرج قبل أن يعلم الملك والعزيز بشأنه ، لما زالت في نفسها يقولان فيها : هذا الذي كان راود سيدته ، فأشفق من أن يرى مشكوكاً في أمره ، فأحب أن يزول عنه كل ريب فطلب التحقيق ، وفيه دليل على أن الاجتهاد في نفي التهم واجب وجوب اتقاء الوقوف في مواقفها ، ففي الحديث : « من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فلا يقفن مواقف التهم » ا هـ .

أكتفي بهذا القدر اليسير من تفسير هذه الآية الكريمة الذي استغرق صفحات وفيه من الفوائد الدينية والأخلاقية والأدبية والعلمية والتاريخية الشيء الكثير .
بهذا الأسلوب الشائق قد فسر رحمه الله سورة يوسف كلها ، وهو الأسلوب القصصي الذي جرى عليه ثلة من أرقى كتاب العصر ، وسبق إليه الكتاب العزيز

كما تراه في ما قص الله علينا من محاورات الرسل عليهم السلام مع أقوامهم ؛ وكتاب الله يمتاز بإيراده أحسن القصص وأصدق وأعفه ، ﴿ نحن نقص عليك أحسن القصص بما أوحينا إليك هذا القرآن ﴾ ، ﴿ إنه لقول فصل وما هو بالهزل ﴾ ، وباجتنابه القصص الخيالي والغرامي المفسدين للآداب والأخلاق الطيبة .

أنفق فقيد الإسلام الأستاذ العلمي رحمه الله في هذا التفسير شطراً كبيراً من وقته وعمره ، وأودعه خلاصة علمه وتحقيقه ، وكانت أوقاته معمورة بالتدريس والتأليف ، وقد استفادت المدارس من أفكاره الدينية وأخلاقه الحميدة ، ولا سيما مدارس الإناث ، كما استفاد الطلاب والطالبات بل المعلمون والمعلمات ، من دروسه الخاصة التي كان يلقها في داره على الصنفين - كل على انفراد - إيماناً واحتساباً .

كان رحمه الله يأخذ على دمشق الشام اشتغالها بالحديث أكثر من التفسير ، ويقول : « إن كتاب الله هو الأصل الأصيل ، وإن أنظار الأمم وأفكارها متجهة إليه وحائمة حوله أكثر ، فلم لا تتوفر على دراسته والدعوة إليه ودفع المطاعن عنه ، ونجمل السنة - كما جعلها الله تعالى - مبينة له ، لا مستقلة عنه ، فندرسها دراسة تطبيقة على كتاب الله تعالى . »

إن أفضل عمل تقوم به خدمة للكتاب العزيز ؛ ووفاء للمراحل الكريم ، رحمه الله ، هو أمران : (الأول) أن يقوم رجال من ذوي الغيرة بطبع مؤلفاته المخطوطة ، (الثاني) أن نخصص عشرة من أبنائنا وعشرنا من بناتنا (كل مستقل عن الآخر) لدراسة علم القرآن والحديث ، وما يحتاجان إليه من سائر العلوم العربية والشرعية وغيرها ، فيجددون لنا علم الدين ، وعهد أئمتنا السابقين ، ويحققون رجاء فقيد الأمة الشيخ العلمي في تفسيره ، فيصبح أقطاب مؤتمره التفسيري اليوسفي أعلاماً لمفسرين ومفسرات ، هم في عالم الحس والحقيقة ، بمد أن كانوا في عالم الغيب والخيال .

التعريف بمؤلف الكتاب

الفضيلة الاستاذ الشيخ محمد علي عمار الدمشقي

الشيخ عبد الله العلمي الغزي الدمشقي : هو الأستاذ الإمام ، المفسر الكبير لكتاب الله تعالى ، والمجتهد الخطير ، وصاحب الآراء الحرة السديدة ، والتأليف النافعة المفيدة ، الاخصائي الفريد في علم الجدل والمناظرة ، والمجدد لأفكار سلف الأمة الصالح ، ورابع المصلحين الذين ظهرت كواكبهم في سماء الاصلاح الديني ، وانبعثت منهم روح النهضة الإسلامية في مصر والشام ، وفي مقدمتهم الأستاذ العلامة الحكيم الشيخ جمال الدين الأفغاني ، ثم الأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده ثم فضيلة عالم الشام الإمام الشيخ جمال الدين القاسمي ثم فضيلة أستاذنا المعرف به رحمه الله تعالى ؛ فهو لاء بلا شك ، هم عظماء الأمة الإسلامية في القرن العشرين .

ولادته ونسبه : ولد رحمه الله في سنة ١٢٧٩ هـ (١٨٦٢م) في بلدة غزوة هاشم من أعمال فلسطين ، في بيت من بيوتات المجد والشرف ، ومن أسرة مشهورة بالعلم والصلاح .

وأبوه محمد بن صلاح الدين بن مصطفى بن صلاح الدين بن مصطفى بن سعد الدين بن نور الدين من آل (العلمي) الكرام وهو نسب يرجع في الأصل إلى قبيلة عربية من قبائل المغرب منسوبة إلى الإمام الحسن بن علي رضي الله عنها ، ولذا يلقب (بالعلمي الحسني) .

نشأته ودراسته : بعد أن تعلم القراءة والكتابة ومبادئ اللغة والعلوم في مدارس غزوة الابتدائية ، رغب في طلب العلم فشرع يقرأ على علمائها الأعلام .

كالشيخ سليم العلمي والشيخ عبد اللطيف الخازندار والشيخ عبد الوهاب العلمي وأخيه الشيخ حسن العلمي وشيخ مشايخ غزة الشيخ راشد المظلوم .

ولما بلغ السادسة عشرة من العمر سافر إلى مصر في سنة ١٢٩٥ هـ (١٨٧٨ م) والتحق بالأزهر الشريف ، ومكث فيه يتلقى العلم مدة سبع سنوات فاق فيها أقرانه حتى لقبوه (بالشيخ) ، قبل أن ينهي دراسته ، وجعلوه علماً عليه ، وهو تلميذ بعد . وقد روي عن أحد زملائه المعاصرين له خلال الدراسة في الأزهر ، وهو العالم الصوفي ، الأستاذ الشيخ عبد الخالق الشبراوي المصري المتوفي سنة ١٣٥٣ هـ أنه قال : (كنا في كل عام قبل حلول موعد العطلة الصيفية الأزهر نتسابق إلى دعوة الشيخ العلمي ، حينما كان تلميذاً فيه ، إلى بلادنا خارج القاهرة للانتفاع من علمه) .

هذا وقد قرأ الاستاذ الفقيه في الأزهر على الشيخ شمس الدين الاشعوني ، والشيخ شمس الدين الأنباري (شيخ الجامع الأزهر إذ ذاك) ، والشيخ محمد البجيرمي ، والشيخ شمس الدين البجيرمي ، والشيخ شهاب الدين أحمد الرفاعي ، والشيخ إبراهيم الظواهري ، والشيخ شمس الدين الجيزاوي (شيخ الجامع الأزهر آنثذ) .

وفي عام ١٣٠٢ هـ (١٨٨٤ م) رجع إلى بلده غزة فنال حظوة عظيمة من أهلها وعد من كبار العلماء فيها ، وبدأ يقوم بهضة علمية فيها واسعة النطاق ، فانهال عليه طلاب العلم من كل حذب و صوب ، فكون أزهرأ صغيراً في الجامع العمري الكبير في غزة ، وقرأ عليه كثيرون . وكانت دروسه أشبه بالمجالس النياية إذ كان يطلب من كل تلميذ أن يبدي رأيه في الموضوع بحسب الشرع والعقل ، ثم يبين ويشرح للمصيب إصابته وللمخطيء خطأه بالدليل والبرهان ، فعود بذلك تلاميذه على التفكير والاستنباط في كل مسألة ، وبذا نبغ على يده علماء فطاحل ، كان

ولا يزال الحى منهم نبراس الهداية الإسلامية وركناً من أركان الهيئة الاجتماعية وأساساً للنهضة الفكرية التحررية ، وكل ذلك دون مقابل مادي، بل إيماناً واحتساباً لوجه الله تعالى مع فقره واحتياجه ، إذ كان ينفق عليه إذ ذاك والده السيد صلاح الدين رحمه الله ، إلى أن توفاه الله فالتجأ عندها الشيخ إلى العمل الحر والاشتغال بالتجارة حيث افتتح له « دكان عطارة » فاستن بذلك سنة طيبة لعلماء غزة ، وهي سنة العمل والاشتغال والكسب الحلال، بعرق الجبين لترفع عن الصدقات والتبرعات والمساعدات .. واستغلال العلم للمادة .

تقلده المناصب : لقد اسندت الحكومة إليه في غزة عدة وظائف كان له فيها أثر ظاهر من التحسين والاصلاح والاخلاص ، ثم سافر إلى بيروت حيث عين فيها استاذاً للغة العربية في إحدى مدارسها ثم مدرساً لتفسير القرآن الكريم في جامع المجيدية فيها ، وكان يحرر باب التفسير في مجلة « الروضة » البيروتية لصاحبها السيد محمد علي القباني ؛ ثم عاد إلى بلده غزة حيث عين فيها في وظائف حكومية أخرى؛ وفي أواخر الحرب العالمية الأولى سنة ١٣٣٦ هـ (١٩١٨ م) هاجر بأسرته إلى دمشق قبيل احتلال الانكليز إلى بلده غزة ، فعينتته الحكومة مدرساً للتفسير في جامع بني أمية ومدرساً للعلوم العربية والدينية في مدارس الاناث التابعة لوزارة المعارف إلى أن دخل في سن التقاعد ، واستمر هكذا يدرس التفسير الشريف في داره أو في مجالس العلم الأخرى إلى أن توفاه الله إلى رحمته تعالى .

أخلاقه ومزاياه العلمية : كان رحمه الله على جانب عظيم من الأخلاق العالية والصفات السامية ، يحترم أي شخص يجيء إليه ويكرمه غاية الاكرام ، وكان وفياً جداً لا يخلف وعداً ولا يؤخر موعداً ولا ينقض عهداً ولا موثقاً ، وكان

محبا للناس عموماً لا يفرق بين عظيم وحقير ولا بين صغير وكبير ، وكان متواضعا حتى بين تلاميذه كأنه واحد منهم لا فرق بينه وبينهم ، وكان بشوشاً جداً لافتارقه الابتسامة عند لقاء أي انسان ، وكان رحمه الله حسن المعشر وحلو الحديث يسر بمجلسه العطاء ويستأنس به الفقراء ويستفيد من مذاكراته العلماء وتتنبه بمعاشرته عقول الجهلاء .

كان رحمه الله يحث تلاميذه على البحث والاستقلال الفكري ليكون لديهم المراس الكافي للاستنباط والتفكير الصحيح ، كما كان رحمه الله متمسكاً بالاسلام الصحيح بعيداً عن البدع والأوهام ، مناهضاً لاجمود بلسانه وقلمه وشعره ونثره وقد لقي من جراء ذلك العنت الكثير من لاخلق لهم من مدعي العلم المتطفلين عليه . فكانوا يشاغبون عليه حينما كان يلقي دروس التفسير في الجامع الأموي ، بل كانوا يشتمونه ويلقبونه بشتى الألقاب والنموت التي منها كلمة « وهابي » مثلاً .

كان بحثاً في كل شيء دؤوباً على المطالعة والدرس والتمحيص لا يكمل ولا يعمل قوي الذاكرة ، وكان إذا استفناه أحد يجب سائله بما يناسب استعداده واستطاعته لا يتقيد بمذهب واحد تيسيراً على المسلمين إذ كان يقول : « نفتيهم بالأسهل من أقوال الأئمة لئلا يقعوا في الترك ، لأن النبي ﷺ هكذا كان يفعل » . وله رحمه الله آراء خاصة في التفسير خالف فيها جمهور المفسرين وله فيها دلائل وبراهين ضما في طيات تفسيره الكبير الذي اشتغل فيه ما يربو على العشر سنين .

وقد تخصص رحمه الله في تفسير القرآن الكريم وفي مجادلة من يسمون « بالمبشرين » من الديانات الأخرى ، وقد درس لأجل ذلك التوراة والأنجيل وتفسيرهما وشروحها على علماء اليهود والنصارى ، كما درس على المتخصصين من العلماء علوم الجغرافية والتاريخ والرياضة والفلك وعلوم المواليد الثلاثة والفلسفة

الطبيعية ليفهم القرآن حق الفهم ليفهمه للناس بلغة سهلة مسيطرة للعقل والعلم والتاريخ وليبرزه أمام العالم أنه هو الكتاب الحق الواجب اتباعه .

كان رحمه الله مرجعاً للعالم والنخاص عند حل المشكلات ودفع الشبهات عن كتاب الله تعالى وعن سنة نبيه ﷺ ، وكان طيلة حياته ينشر العلم الصحيح ويحارب البدع ويستنبط من كتاب الله الكنوز الثمينة المدفونة من حين وفاة الرسول ﷺ ، كما كان الحصن الحصين لكتاب الله وسنة رسوله من شبهه « المبشرين » والملاحدين ، وقد اعطاه الله صدرأً واسماً وحكمةً بليغةً ، ولساناً نطوقاً ، وافكاراً نيرةً ، أعطاه الله هذه المواهب هبة خاصة له لم نرها في غيره من العلماء المعمرين ، وقد ترك من آثاره العلمية ردوداً مفعمة على « المبشرين » من رجال الاديان الاخرى ، وعلى الملاحدين من غيرهم ، كما ترك تحقيقات وفوائد على كثير من الآيات القرآنية مما خلد ذكره ، ويوجب على الامة الاسلامية ان تدعوا اليه بالرحمة والمغفرة وان يجعل روحه مع النبيين والصديقين والشهداء والصالحين ، هذا عدا عما ترك لنا من العلماء الحقيقيين في غزة وفلسطين ثم في سورية ، وحق علينا أن نعزي به المسلمين والاسلام أولاً وانفسنا ثانياً .

شعره : للاستاذ العلمي رحمه الله تعالى ، شعر رقيق ونظم رشيق يعد في الطبقة الثانية ، وقد قال اكثره في العلوم والحكم والقضايا الاجتماعية والاخلاقية ، فمن شعره قصيدته الاجتماعية المشهورة التي كان القاها في احدى محاضراته في المجمع العلمي العربي بدمشق والتي عنوانها « الطلاق ومساوئه » ، ومنه ايضاً قصيدته الاخلاقية التي عنوانها « تأوهات ابن العلمي »

مؤلفاته المطبوعة :

١ - رسالة (البصيرة على بيتي الجبيرة في مذهب الامام الشافعي) وهي

رسالة جامعة لجميع صور الجبيرة مع ما يتعلق بها من الاحكام ، طبعت في مصر سنة ١٣١٣ هـ .

٢ - رسالة (الاملا عى بيتي الرضاع فى مذهب الامام الشافعى «رض» ، وهى رسالة تشرح بيتى الرضاع للامام جلال الدين القونوى ، وقد تكفلت بذكر جميع الاشخاص التى يتعلق بها حرمة الرضاع من الاصول والفروع والحواشى . والقواعد المتعلقة بذلك . طبعت فى مصر سنة ١٣١٧ هـ .

٣ - رسالة (البرق الوامض فى شرح متن الفرائض المشهور بالزحبية) طبعت فى مصر سنة ١٣١٨ هـ .

٤ - رسالة (الحديقة فى مولد خير الخليفة) وهى قصة منشورة للمولد النبوى . طبعت فى القاهرة سنة ١٣٢٣ هـ .

٥ - رسالة (صبح الدجى فى شواهد صور المحاسن الشبيهة بحروف الهجاء) وهى مقطوعات شعرية غزلية طبعت فى القاهرة سنة ١٣٢٣ هـ .

٦ - رسالة تشتمل على أربع منظومات : الاولى تسمى (زورق البحور فى علم العروض المشهور) والثانية باقة الرياض الغزلية فى مدح خير البرية ومدح الخلفاء الأربع والامام الحسين الأرفع) والثالثة (الكوثرية فى مدح خير البرية) والرابعة (مدح المعجوز بالقدح الرموز) وهى عبارة عن قصيدة منظومة فى الدنيا على طريقة السادة الصوفية اشارة الى ان الدنيا تظهر صورها القبيحة فى صور جميلة حتى خدعت ذوبها وغرت محببها . طبعت فى مصر سنة ١٣١٧ هـ .

٧ - رسالة (النور دجة فى قصة المولد الأربعة) وهى قصة المولد النبوى معمولة على كيفية نظم المزدوجة بحيث جعل الناظم الصراع الثالث من كل تخميسة آية قرآنية بدون تغيير للفظها بحيث تناسب المقام ، وقد التزم ذلك من اول المولد .

لآخره مع غاية المناسبة والانسجام بحيث يخيل للقاريء كأن الآية القرآنية سبقت ونزلت لأفادة المعنى الذي حاوله الناظم بعد الاقتباس ، وهذا هو السحر الحلال ، ومثاله :

الحمد لله بليغ الحكمة جاد بمولد النبي نعمة
لكل شيءٍ وهدى ورحمة يرحم عرب خلقه وعجمة
بيمن نور المصطفى من فهر

وقد طبعت في القاهرة في سنة ١٣٣٥ هـ ثم أعيد طبعها في دمشق في سنة ١٣٥٠ هـ . بعد ان أجرى المؤلف تنقيحاً بسيطاً فيها ثم غير اسمه باسم (الموردي في قصة المولد المحمدي) .

٨ - رسالة (الابهاج في قصتي الاسراء والمعراج) وهي نظم مخمس كل ثالث مصراع منه آية قرآنية ، كرسالة المولد السالفة الذكر ، ومثاله :

بسم الذي أسرى بطنه مكرماً ثم عليه بالعروج أنعم
(والله واسعٌ عليمٌ إنما) دعاه عنده الى اعلا سما
لأنه أدعى لمعنى الفخر

وقد طبعت في بيروت سنة ١٣٢٤ هـ

٩ - كتاب (الحرية والمبعوثان من تعاليم القرآن) وهو كتاب يثبت مشروعية مجالس المبعوثين (مجالس النواب) في القرآن الكريم ، كما يبين ان المساواة والحرية من تعاليم الكتاب الحكيم ، وان الاسلام وجد وبجانبه سلطة مقيدة بالآيات القرآنية ، وذلك بمناسبة اعلان السلطان العثماني عبد الحميد ، دستور البلاد العثمانية إذ ذاك ، وتساؤل البعض عن شرعية مجلس المبعوثين الشوروي ، وعن الحرية وهل هي موافقة للشرع ، ثم رداً على ما كان يقوله البعض الآخر بأن الحرية تنافي روح

القرآن وان الاسلام وجد وبجانبه سلطة مطلقة .. والخ طبع في بيروت في سنة ١٣٢٦ هـ .

مؤلفاته المخطوطة :

١ - رسالة (الوعظ والارشاد) وتتضمن الدروس الدينية والاخلاقية التي كان يلقيها المؤلف رحمه الله على المستمعين لدروسه في جامع بني امية بدمشق حينما كان أستاذ دروس التفسير فيه .

٢ - رسالة (مختارات العلمي من صحيح البخاري وصحيح مسلم « رض ») وتتضمن بضع مئات من الاحاديث النبوية التي اختارها المؤلف من صحيحي البخاري ومسلم .

٣ - قصيدة (أذان المؤذن أو تأوهات ابن العلمي) وهي قصيدة تشخص الامراض الاجتماعية والاخلاقية والاقتصادية والدينية والسياسية للمسلمين وتدعو حكامهم الى تطبيقها .

٤ - كتاب (الشيخ وقسيس) وهو كتاب جدل ديني يتضمن نقاشاً دينياً بين شيخ وقسيس يستند الشيخ في اقواله وردوده على ما جاء في التوراة والانجيل .

٥ - رسالة (تحقيقات في حوادث تاريخية ودينية) تتضمن ذكر الوقائع التاريخية والدينية للاديان الثلاثة مع ذكر سنة وقوعها منذ آدم (ع) حتى القرن التاسع عشر .

٦ - كتاب (سوانح تفسيرية) لبعض آيات القرآن الكريم ويبحث في فهم المؤلف الشخصي ورأيه الخاصين في بعض آيات القرآن الكريم .

وفاته : توفي رحمه الله تعالى في يوم الأحد في التاسع من شهر جمادى الاولى

سنة ١٣٥٥ هـ (٢٦ تموز سنة ١٩٣٦ م) اثر سكتة قلبية عن عمر يناهز السبعين والخمسة أعوام ودفن في مقبرة الأسرة بجي المهاجرين بدمشق .
 هذا وقد اقامت له جمعية التمدن الاسلامي الدمشقية حفلة تأبين في قاعة محاضرات المجمع العلمي العربي بدمشق بمناسبة مرور اربعين يوماً على وفاته ، وقد القى في هذه الحفلة عدد غير قليل من العلماء والاساتذة كلمات عددوا فيها مآثره وفضله وعلمه ومزاياه ، رحم الله الفقيد رحمة واسعة واسكنه فسيح جناته ورضوانه .

دمشق في ٢٧ جمادى الآخرة سنة ١٣٥٥

الموافق ٩ ايلول سنة ١٩٣٦

محمد علي عمار اللمشقي

ايضاح الرموز الواردة في التفسير

الرمز	ايضاحه
ق . هـ	قبل الهجرة
ق . ن	قبل نبينا محمد ﷺ سنة شمسية
ق . م	المسيح عليه السلام
ب . م	بعد
آ	آية قرآنية
ع	عدد آية قرآنية
١١ : ٤	هذان الرقمان أو أمثالهما عند استعمالهما لكلمات من القرآن يرمز الرقم الأول منها الى عدد السورة منه ويرمز الرقم الثاني الى عدد الآية من تلك السورة .
	وعند استعمالهما لكلمات من الإنجيل أو التوراة يرمز الرقم الأول منها الى عدد الاصحاح ويرمز الرقم الثاني الى عدد الآية من ذلك الاصحاح .
تك	سفر التكوين من التوراة
تث	التثنية
٢ صم	صموئيل الثاني من التوراة
مز	المزامير من التوراة
أش	أشعيا
مي	ميتخا
٢ مل	الملوك الثاني من التوراة

الرمز	ابضاحه
١ مل	سفر الملوك الأول من التوراة
خر	= الخروج من التوراة
لا	= اللاويين =
يش	= يشوع =
إر	= ارميا =
يون	= يونان =
عد	= العدد =
حز	= حزقيال =
١ أي	= الايام الاول من التوراة
٢ أي	= الثاني =
جا	= الجامعة من التوراة
قض	= القضاة =
صف	= صفنيا =
مت	= متى من الانجيل
لو	= لوقا =
أع	= أعمال الرسل من الإنجيل
يو	= يوحنا من الانجيل
مر	= مرقس =
رو	= رومية =
غل	= غلاطية =

الرمز	ايضاحه
١ بط	سفر بطرس الأول من الإنجيل
٢ بط	الثاني = =
أف	أفسس من الإنجيل
كو	كولوسي = =
تي	تيطس = =
رؤ	رؤيا يوحنا من الإنجيل

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الباب الأول

وفيه مقدمة تحتوي على سبعة فصول

الفصل الأول

في رفع شبهة العبارة على سورة يوسف عليه السلام

افتتحت الجلسة الأولى من جلسات مؤتمر التفسير فقام أول متكلم وهو
الشيخ أمين البئر سبعي^(١) وقال :

اسمحوا لي أيها السادة الأكارم أن أذكر كلمة عن شبهة وردت على هذه
السورة الكريمة ، سورة يوسف ، قبل أن ندخل في تفسير آياتها :

كان قوم يسمون « العَجَارِدَة » ينسبون إلى « عبد الكريم بن عَجَرَد »
كانوا في أواخر المئة الأولى من الهجرة ، أنكروا أن سورة يوسف من القرآن
الكريم !!! قالوا « لأنها قصة حب وغرام ، ولأنها من السور الطويلة التي الشأن
فيها نزولاً نجومياً !! »

(١) بئر سبع بلدة في فلسطين

هذا هو التعبير الذي عبر به بعض المفسرين، وهو تعبير يَوْمُ أَنْ بَعْضُ الْمَجَارِدَةِ
 فرقة من الفرق الإسلامية ، وإن إنكار بعض سور القرآن كان مذهباً من مذاهب
 الإسلام ، مع أن كلمة «عجاردة» عبارة عن «حماد بن عجرد» ، واثنين آخرين
 معه ، وكانوا معروفين بالإلحاد والزندقة والمروق من الإسلام (انظر بن خلكان
 والشهرستاني وغيرهما تزدد علماء) . وجوابنا عن هذه الشبهة الواهية : ان الشق
 الأول من هذا الانتقاد منظور فيه لبداية حادثة الحب والغرام ، دون العاقبة
 والنتيجة ، ودون ما تخللها من الحكم والمبرر والمغزات ، وأما من نظر لمجموع ما وقع
 لامرأة الغريز والنسوة المصريات ، وما وقع على رؤوسهن ، أي من أحاط خبراً
 بمقدمات ذلك الحب وتنتججه علم أن الحب والغرام شؤم على صاحبه ، وأن الأفضل
 التبعاد عن أسبابه ؛ وأما الجواب عن الشق الثاني فإن سورة «الأنعام» هي من السور
 الطويلة ، وانها (١٦٥) آية ، وهي مكية ، ونزلت على النبي ﷺ جملة واحدة على
 الصحيح ؛ وكذا سورة (الكهف) هي نظير سورة يوسف في أنها مكية و(١١١)
 آية ، ونازلة مرة واحدة ؛ وثالثاً سورة (التوبة) هي (١٣٠) آية نزلت كاملة مرة
 واحدة بالمدينة ؛ وهؤلاء «المجاردة» الجهلاء لم يقولوا في هذه السور الثلاث :
 « انها ليست من القرآن » ، وأيضاً فالذي سنقرره سبباً لنزولها يقتضي أن تنزل على
 النبي ﷺ مرة واحدة ، وإليك البيان ، وهو من مواهب الرحمن :

علم الله تعالى أن قريشاً ستكيد للنبي ﷺ وتناوته ، وتعمل معه أعمال
 رؤساء الأسباط مع أخيه « يوسف » ؛ فأُنزل عليه « وهو بمكة » هذه السورة
 كاملة مرة واحدة ليحيط علمه بما سيقع له من قريش ، فكأن الله تعالى يقول
 لنبيه : « أيها النبي الكريم ، ها أنا ذا أنزلت عليك هذه السورة ، لتعلم ماذا صنع
 رؤساء الأسباط مع أخيه يوسف ، فتقيس أحوال قريش على أحوال هؤلاء
 وتقيس شخصك على شخص أخيه ، فيوسف الصديق هو كان يوسف إخوته

الأسباط ، وأنت اليوم يوسف قريش ، فكن يا يوسف اليوم على حذر ، واعتبر ،
فالتاريخ عبرة لمن اعتبر .

أقول : والمناسبة بين نبينا محمد ﷺ مع قريش وبين يوسف الصديق مع إخوته
من وجوه ، وإليك البيان :

يوسف « محمد » قبائل قريش	يوسف يهود فلسطين
(١) - خيار من خيار من خيار ، كما في الحديث الصحيح .	(١) - كريم ابن كريم ابن كريم كما في الحديث الصحيح .
(٢) - اسم أبيه « عبد الله » مركب تركيباً إضافياً ، وآخره « الله » مرادف « ايل » .	(٢) - اسم أبيه « اسرائيل » مركب تركيباً إضافياً ، وآخره « ايل » ومعناه الله .
(٣) - أمه « آمنه » كانت غريبة وكان أبوها « وهب » وثنياً ، وماتت وهي مسافرة بين مكة والمدينة ، وهي من صميم قريش لأنها زهرية .	(٣) - أمه « راحيل » كانت غريبة وكان أبوها « لابان » وثنياً وماتت وهي مسافرة في طريق « بيت لحم » وهي من صميم العشيرة التي منها إبراهيم ، لأنها ناحورية .
(٤) - ماتت أمه وهو صغير ، فحضنته جاريتها « بركة الحبشية » أم أيمن .	(٤) - ماتت أمه وهو صغير ، فحضنته جاريتها « بله »
(٥) - رعى الغنم على قراريط لأهل مكة من أهليه وذويه فقط	(٥) - رعى الغنم « تك ٣٧ : ٢ » أي غنم أهليه وذويه فقط

يوسف « محمد » قبائل قريش	يوسف يهود فلسطين
(٦) - أول ما بدىء به من الوحي الرؤيا الصالحة ، فكان لا يرى رؤيا إلا جاءت كفلق الصبح ، كما في البخاري ومسلم وغيرها من الصحاح .	(٦) - أول ما بدىء به من الوحي الرؤيا الصالحة التي جاءت كفلق الصبح وكما ثبت من القرآن الكريم .
(٧) - حسده أقرباؤه من قريش وتألبوا عليه	(٧) - حسده اخوته وتألبوا عليه .
(٨) - بشر بمستقبل باهر بلسان « ورقة بن نوفل » .	(٨) - 'بشر' بمستقبل باهر بلسان أبيه
(٩) - تأمر أقرباؤه قريش وألصق الناس به من ذوي قرابه فمن مشير بقتله ومن قائل بأثباته ومن قائل <u>باخراجه</u> .	(٩) - تأمرت إخوته على قتله أو طرحه أرضاً أو إخراجـه من فلسطين وكنعان
(١٠) - اضطره أقرباؤه قريش للمهاجرة من وطنه ، فهاجر مضطراً بسبب إخوته قريش وتوفي غريباً في مهجره .	(١٠) - اضطرته إخوته للمهاجرة من وطنه ، فهاجر مضطراً بسبب إخوته وتوفي غريباً في مهجره .
(١١) - اتهم زوراً بعشق امرأة عبد « زيد » ، ثم برأه الله تعالى .	(١١) - اتهم زوراً بعشق امرأة عبد « العزيز » ، ثم برأه الله تعالى .
(١٢) - لما سجّن نفسه في غار	(١٢) - لما سجّن دخل معه في

يوسف « محمد » قبائل قريش	يوسف يهود فلسطين
<p>« ثور » إلهاء وقهراً دخل معه في غار اثنان ، تقي موحد ، وهو أبو بكر ، وشقي مشرك ، وهو دليلها الذي كانا استأجراه بالدرهم واسمه عبد الله بن أريقط .</p>	<p>سجنه قتيان ، تقي وشقي ، وهما الساقى والحجاز .</p>
<p>(١٣) - أشاع أعداؤه أنه قتل في غزوة أحد ، ثم تبين كذب تلك الاشاعة .</p>	<p>(١٣) - أشاع أعداؤه أنه قتل باقتراس الذئب إياه ، ثم تبين كذب ذلك .</p>
<p>(١٤) - وقع في الحفرة في غزوة أحد التي حفرها له اقرباؤه من قريش</p>	<p>(١٤) - البقي في الجب بيد اخوته من الأسباط .</p>
<p>(١٥) - كان يوجد جماعة يستهزؤن به كثيراً حتى سماوا بالمستهزئين ﴿ إِنَّا كَفَيْنَاكَ الْمُسْتَهزِئِينَ ﴾ (١٥ : ٩٥)</p>	<p>(١٥) - كانت إخوته تستهزئ به ، وتقول : « هذا صاحب الأحلام » سخريه منه .</p>
<p>(١٦) - المستهزؤن بالنبي كانوا ثمانية اشخاص ، وهم : أبو جهل ، أبو لهب عقبة بن أبي معيط ، العاصي بن وائل السهمي ، الأسود بن المطلب الأسدي ، الوليد بن المغيرة ، النضر بن الحارث العبدي .</p>	<p>(١٦) - المستهزؤن بيوسف كانوا ثمانية أنفار ، وهم : شمعون ، لاوي ، دان ، نفتالي ، جاد ، أشير ، يثساكر ، زبولون ، على عدد مواد المكيد المذكورة في هذه السورة . وأما رآوين ويهوذا وبنيامين فلم يكونوا كذلك .</p>
<p>(١٧) - « أم جميل » امرأة عمه</p>	<p>(١٧) - « ليثة » امرأة أبيه</p>

يوسف «محمد» قبائل قريش	يوسف يهود فلسطين
أبي لهب ، «والعم أب» وهي من ذوي رحمه ، لأنها من قريش - كانت تكرهه وتحرض عليه .	وهي من ذوي رحمه ، لأنها خالته - كانت تكرهه وتحرض عليه .
(١٨) - لم تعترف العرب بنبوته	(١٨) - لا تعرفه العرب نبياً تقليداً لليهود يثرب .
(١٩) - كذلك حرفاً بحرف .	(١٩) - أوّني النبوة والرسالة ورأسة بيت المال ، والاجتباء والحكم والعلم .
(٢٠) - حاز في عقباه إكليل النصر ، وخلق الله له من ضعفه قوة ، وواتد له من ذله عزّاً .	(٢٠) - كانت عاقبة أمره الانتصار الباهر ، والعز بعد الذل والقوة عقيب الضعف .
(٢١) - أم أبيه عبد الله غريبة .	(٢١) - أم أبيه يعقوب غريبة
(٢٢) - اعترف اقرباؤه قريش امامه بالخطء فعفا عنهم .	(٢٢) - اعترف اخوته له بالخطء فغفر لهم .
(٢٣) - اضطهد وشرد عن وطنه مكة للمدينة ، ثم قفل اليها متوجاً بتاج العز وإكليل النصر ، ثم عاد الى المدينة وبها توفي .	(٢٣) - اضطهد وشرد عن وطنه فلسطين لمصر ، ثم رجع اليها معزراً مكرماً ، ثم قفل راجعاً لمصر وبها توفي .
(٢٤) - أبوه عبد الله مات غريباً	(٢٤) - أبوه يعقوب مات غريباً .

[ايقاف النبي ﷺ على طبائع يهود المدينة]

إذا تقرر هذا فلننتقل بالقارىء العزيز من قريش مكة إلى يهود المدينة فنقول:
 علم الله تعالى أن النبي ﷺ سيدارح مكة للمدينة المنورة ويتخذها مهجراً له طيلة
 بقية عمره ، وبالتالي علم سبحانه أن النبي سيجاور اليهود الذين فيها ، ويكون بينه
 وبينهم تماس وتحاكك ، فأراد أن يوقفه على طبائع أسلافهم الأقدمين ، ليعرف
 طبائع المتأخرين لأنهم سلائهم ، فهم طبعاً يمثلونهم ، كيف لا ودم هؤلاء من
 دم أولئك ، وغرائزهم موروثه من غرائزهم وأخلاقهم تمثل أخلاقهم ، فلذلك أراد
 الله تعالى أن يعلم نبيه أن الأكثرين في اليهود ظلمة ، مكرة ، يسوا بأصحاب وفاء
 في اليهود ، وليس عندهم شرف في الوعود ، بل هم أهل غدر وأصحاب خيانة ،
 لا يَرَقِبُونَ في مؤمن إلا ولا ذمة ، ولا يصلح لهم من معاملة النبي إياهم إلا كمثل
 ما عمل معهم أخوهم يوسف ، لا يتقيد معهم بذيء إلا حسب ما تقتضيه المصلحة ،
 ويستدعيه الرأي ، وبالجملة فهذه السورة هي ظل حياة اليهود ، وصورة صادقة من
 أخلاقهم ، فمن أراد أن يقف على الكثير من ميولهم وشيمهم ! فليمعن في التدبر في
 مراعي هذه السورة اليوسفية وبعبارة أخرى : أراد سبحانه وتعالى أن يُعلم نبيه
 أن نسبة الصالح منهم لغير الصالح في أولاد الأنبياء الصلبيين إنما هي كنسبة اثنين
 لاثني عشر !! فما بالك فيما إذا لم يكونوا من أصلاب الأنبياء !!؟ لعمرى
 لا يسعك إلا أن تقول : إن الأثرية الساحقة فيهم 'طغاة' قساة ، بؤورة كذب ،
 ومنايع ختل واحتيال ، وأمثلة غدر بالوعود واليهود ، ويمثلوا الدعارة والخيانة ،
 و .. و .. لحج اللهم إلا قليلاً ، ويمكنك أن تفسر هذا القليل بأنه واحد في الألف !!!
 قلنا : أراد الله أن يطلع نبيه ﷺ على غوامض طبائعهم النجسة ... وخوافي

شماثلهم الدينية!... ليكون على بصيرة من الأمر ، وليعرفه أنه وإن تكن اليهود أبناء عم للعرب ، لكن يوجد بين الشعبين فرق كبير ، وكبير جداً ، أستغفر الله ، بل يوجد بينهما فروق ، كما بين الثرى والثريا ، أو كما بين الظلمة والنور ، فلذلك قص عليه هذه القصة التي تمثل غرائز أسلافهم تمثيلاً ، وكان الظروف الآتية هي من أمثلة فن الحفر على المعدن (زنكو غراف) ستخرج إلى الملائمة صورة طبق الأصل عن تلك الخلائق « الحميدة »!... والشيم « الشريفه »!... التي من رآها علم صحة القول المأثور « خبت المؤمن في نسله » ، وصدق كلام القائل : « نعم الجدود ، ولكن بشما نسلوا » .

فكان الله تعالى يقول : أنظر أيها النبي العظيم ، أنظر ماذا عمل رؤساء الأسباط من الكيد والختل والغدر مع يوسف ، فإن سلائهم يهود يثرب سوف يعملون معك ما يقاربه ، ها أن يوسف الصديق هو يوسف الأسباط قديماً ، وأنت ستكون يوسف سلائهم الجديد ، فيهود المدينة كما سبق أن أجدادهم عملوا تلك الفظائع مع يوسف العتيق ، فسوف يعملون نظيرها معك أنت يا يوسفهم الجديد ، وعليه وبالنتيجة ينبغي لك أن تعاملهم بدأً وغاية ، معاملة سلفك لأسلافهم بدأً وغاية .

أقول والمناسبة بين نبينا ﷺ مع اليهود ، وبين يوسف الصديق مع إخوته ظاهرة من شتى الوجوه ، وإليك البيان :

يوسف « محمد » يهود يثرب	يوسف يهود فلسطين
(١) - حسده يهود يثرب كما قال	(١) - حسده إخوته ﴿ إذ قالوا
تعالى ﴿ أَمْ يَحْسُدُونَ النَّاسَ عَلَى	لِيُؤْسَفُوا وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَى آيِنَا مِنَّا
مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ ﴿ (٤: ٥٣)	وَنَحْنُ عَصَبَةٌ ﴿ (٨٤)

يوسف « محمد » يهود بثرب	يوسف يهود فلسطين
<p>قيل : الناس سيدنا محمد، وقيل : العرب، بسبب كون بعثته نبياً منهم .</p>	<p>(٢) - أنكر اليهود نبوته (٣) - باغترابه في أرض مصر تمكن فيها كما قال تعالى :</p>
<p>(٢) - أنكر اليهود نبوته .</p>	<p>﴿ وكذلك مكثنا ليوسف في الأرض ، يتدبأوا منها حيث يشاء ﴾ (ع ٥٦)</p>
<p>(٣) - بذهابه للمدينة تمكن في</p>	<p>(٤) - الذين عادوا يوسف عداً ، شديداً كانوا ثمانية فقط، وهم : شامون، لاوي ، دان ، نفتالي ، جاد، أشير، يساكر ، زبولون ، وأما رأوبين ويهوذا فكان عداؤهما ليوسف ضعيفاً جداً ، أما بنيامين فأمره ظاهر .</p>
<p>أرضها وصارت الناس تدخل في دين الله أفواجاً .</p>	<p>(٥) - إخوته تفاوضوا في شأن قتله .</p>
<p>(٤) - إن طوائف اليهود الذين</p>	<p>(٦) - قال إخوته : ﴿ وإننا له لناصحون ﴾ ، ﴿ وإننا له لحافظون ﴾ ، ﴿ لئن أكلت الذئب إننا إذا ﴾</p>
<p>هاجر النبي لجهتهم وتعرف إليهم وعادوه عداً شديداً ثم ثمانية أيضاً ، وهم :</p>	<p>﴿ لئن أكلت الذئب إننا إذا ﴾</p>
<p>يهود تسيما ، يهود فدك ، يهود وادي القرى ، يهود خيبر ، وبنو بهدل ، هذه خمس ، وفي المدينة ثلاث قبائل وهم : بنو النضير ، بنو قينقاع ، بنو قريظة .</p>	<p>(٦) - قال إخوته : ﴿ وإننا له لناصحون ﴾ ، ﴿ وإننا له لحافظون ﴾ ، ﴿ لئن أكلت الذئب إننا إذا ﴾</p>
<p>(٥) - بنو النضير هموا بقتله بعد المفاوضة بينهم .</p>	<p>(٦) - قال إخوته : ﴿ وإننا له لناصحون ﴾ ، ﴿ وإننا له لحافظون ﴾ ، ﴿ لئن أكلت الذئب إننا إذا ﴾</p>
<p>(٦) - بنو قينقاع عقدوا عهداً مع النبي مقتضاه ترك محاربهه وأذاه وأن لا يعينوا عليه أحداً ، ثم عند الظفر</p>	<p>(٦) - قال إخوته : ﴿ وإننا له لناصحون ﴾ ، ﴿ وإننا له لحافظون ﴾ ، ﴿ لئن أكلت الذئب إننا إذا ﴾</p>

يوسف « محمد » يهود بئر	يوسف يهود فلسطين
<p>يبدرو ، نبدوا ما عاهدوا عليه المسلمين ، وأظهروا مكنون ضمائرهم فبدت البغضاء من أفواههم ، فكانوا أول من غدر ..</p>	<p>لخاسرون ﴿﴾ ، ثم ما عتموا أن أخلفوا الوعد ونقضوا العهد .</p>
<p>وكذا بنو النضير - كانوا عاهدوا النبي يمثل معاهدة بني قينقاع ثم نكثوا العهد باجتماع سيدهم « سلام بن مشكم » واتحاده مع أبي سفيان ، ثم إن عظيمهم كعب بن الأشرف ، أخلف العهد أيضاً بكونه صار يحرص قريشاً على محاربة النبي ويهجوهم بالشعر ، ويشير الشقاق بين المسلمين ، وهكذا أبو عفك كان في الشر وينبذ العهد ، وكذا فعل بنو قريظة وغطفان من اليهود نقضوا العهد واشتركوا مع الأحزاب في غزوة الخنديق ..</p>	<p>(٧) - يهود فلسطين قالوا : ﴿ ونحن عصبية ﴾ فكانوا أقوياء أشداء وكانوا يفتخرون بذلك ثم</p>
<p>(٧) - يهود بني قينقاع ، كانوا أشد اليهود بأساً ، ولذلك كانوا أول من غدر ، وتصدوا الحرب النبي جبراً ،</p>	

يوسف « محمد » يهود يثرب	يوسف يهود فلسطين
ثم عفا هو عنهم بتوسط « عبد الله بن أبي » .	تصدوا لحرب يوسف جبراً بإيذائه وإلقائه في الجب وتشريده ، ثم عفا هو عنهم .
(٨) - كذلك حرفاً حرفاً .	(٨) - كانت عقباؤه انه ظفر بالانتصار عليهم والنفوذ والسطوة .

إذا علمت هذا الذي قررناه عرفنا وجه الحكمة الحكيمة في إزال هذه السورة على النبي ﷺ جملة واحدة ، وفي مكة أيضاً قبل المهاجرة إلى المدينة ، ولعل هذا أحسن من كل ما قاله جميع المفسرين ، فخذ ما آتيتك وكن من الشاكرين ، ومع ذلك فتأمل ، فلعلك أثقب فهماً ، وأوسع علماً واطلاعاً ، فإن الخير مفرق بين العباد ، هدايا الله وإياك لسبيل الرشاد .

أصوات من الجميع
(مرحى مرحى)

الفصل الثاني

قام العلامة سليم الخانيونسي (١) وقال :

في هل اخوة يوسف أنبياء

الذي عليه الأكثر سلفاً وخلفاً أن إخوة يوسف لم يكونوا أنبياء ، أما السلف فلم ينقل عن أحد من الصحابة أنه قال بنبوتهم ، ولا يحفظ ذلك عن أحد من

(١) خان يونس بلدة في فلسطين

التابعين أيضاً ، وكذا أتباع التابعين إلا « ابن زيد » وتابعه شِرْذمة قليلة ، وأما الخلف فالفسرون فرّق ، فمنهم من قال بقول « ابن زيد » كالبغوي ، ومنهم من بالغ في رده كالقرطبي وابن كثير ، ومنهم من حكى القولين بلا ترجيح كابن الجوزي ، ومنهم من لم يتعرض للسألة ، ولكن ذكر ما يشعر بعدم كونهم أنبياء ، كأبي الليث السمرقندي والواحدي ، وقد تمسك القائلون بنبوتهم بأدلة رأوها تشهد لهم ، وأهم تلك الأدلة أربع ، وإليك بيانها كما يلي :

(١) - استدلوا على نبوتهم برؤية يوسف لهم « كواكب » والكواكب يهتدى بأنوارها ؛ وردّ بأن رؤيتهم كواكب يهتدى بأنوارها بمزل عن أن يكون دليلاً على نبوتهم ، وإنما يكون دليلاً على أن يكون مصيرهم إلى كونهم هادين للناس ، وهو مما لا يلزمه النبوة ، ولو دلّت رؤيتهم كواكب على أن مصيرهم للنبوة لكانت رؤية أمّه قرأ أدل على ذلك ، ولا قائل به ، على أنه ليس كل الكواكب مضيئة ، كما أثبتته علماء الهيئة ، وعلى أن نور الكواكب مستفاد من نور الشمس ، فأنوارهم ليست منهم حقيقة ولكنها من أبيهم الذي هو الشمس ، وعلى أن دلالة « الوحي » على النبوة أقوى من دلالة كلمة كواكب ، وقد قال تعالى : ﴿ وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى الْحَوَارِيِّينَ ﴾ (٥ : ١١٤) ، وقال تعالى ﴿ إِذْ أَوْحَيْنَا إِلَى أُمِّكَ مَا يُوحَى ﴾ (٢٠ : ٣٨) ، وقال تعالى ﴿ وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا : شَيَاطِينِ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ ، يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ ﴾ (٦ : ١١٢) وقال تعالى ﴿ وَأَوْحَى رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ ﴾ (١٦ : ٦٨) ، وقال تعالى ﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ أَوْحَى لَهَا ﴾ (٩٩ : ٥) ، ولا قائل بأن الحواريين ، أو يوحاندا - أم موسى - ، أو شياطين الإنس والجن ، أو النحل ، أو الأرض ، أنبياء ، فإذا لم تدل كلمة (الوحي) من الله على أن الموحي إليه نبيّ فبالأحرى كلمة « كوكب » لا تدل على النبوة ، فهذا الاستنتاج في غاية الضعف .

(٢) - استدلووا على نبوتهم بكلمة « الأسباط » في قوله تعالى : ﴿ قولوا آمناً بالله وما أنزل إلينا وما أنزل إلى إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط ، وما أوتي موسى وعيسى وما أوتي النبيون من ربهم ، لا نفرق بين أحد منهم ، ونحن له مسلمون ﴾ (٢ : ١٣٦) ، قالوا : « فالأسباط ، أولاد يعقوب ، والانزال اليهم يدل على نبوتهم ، ونحن نقول في مقابلة ذلك : الحمد لله رب العالمين حقاً إن هذه بشرى عظيمة لنا ، لأن الإنزال الى الأسباط إذا كان يقتضي نبوتهم فنحن أمة محمد جميعاً أنبياء ، بحكم قوله تعالى ﴿ وما أنزل إلينا ﴾ فلنا الفخر ولنا الفرح العظيم ، وظاهر أن هذا واضح البطلان ، فإذا لم تدل عبارة « وما أنزل إلينا » على نبوتنا فلا تدل عبارة الإنزال الى الأسباط على نبوتهم ، وإنما معنى ﴿ أنزل إلينا ﴾ أنزل فينا ، لأن القرآن أنزل فينا بسبب نبينا سيد الوجود (ﷺ) على أن لفظ « الأسباط » ليس معناه أولاد يعقوب لصلبه ، بل ذريته ، كما يقال لهم بنو إسرائيل ، وكما يقال لسائر الناس بنو آدم ، وقوله تعالى ﴿ وقطعناهم اثنتي عشرة أسباطاً أمماً ﴾ (٩ : ١٥٩) ، صريح في أن الأسباط هم الأمم من بني إسرائيل ، وكل سبط أمة ، وقد صرحوا بأن الأسباط من بني إسرائيل كالتبائل من بني إسماعيل ، فحمل الأسباط في الآية على بنيه لصلبه غلط لا يدل عليه اللفظ ولا المعنى ، ومن ادعاه فقد أخطأ خطأ بيناً ، ويكون قد أخطأ لغةً ايضاً ، لأن السبط في اللغة ليس هو الابن الصلي ، بل هو ابن الابن أو ابن البنت ، وأما ما قاله بعضهم من أنهم سموا أسباطاً بالنسبة لإسحاق ، أي أنهم أسباط لإسحاق وأبناء يعقوب ، فهذا مما لا ينبغي أن يلتفت إليه ، إذ لم نسمع أحداً قط سماهم أسباط لإسحاق ، وإنما الناس دائماً يقولون : أسباط إسرائيل أو أسباط بني إسرائيل .

ونظير آية البقرة السابقة آية آل عمران وهي قوله تعالى ﴿ قُلْ آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ عَلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ ۖ وَالْأَسْبَاطِ ۖ وَمَا أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَالنَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ ۚ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ ۖ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ ﴾ (٣ : ٨٤) ، ونظيرهما آية النساء وهي قوله تعالى ﴿ إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَىٰ نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِنْ بَعْدِهِ ۚ وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ ۖ وَالْأَسْبَاطِ ۖ وَعِيسَىٰ وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَارُونَ وَسُلَيْمَانَ ۖ وَآتَيْنَا دَاوُدَ زَبُورًا ﴾ (٤ : ١٦٢) ، ونقول : إن الله تعالى يريد بهذه الآيات الثلاث أن يحاجّ بني إسرائيل أعني يهود المدينة وسواهم ، وإنما يحاجهم بما هو معروف عندهم ، والمعروف عندهم أن كلمة « أسباط » هي إسم للقبائل الإثني عشر المتناسلين من أبنائه الإثني عشر الصليبيين ، هذا هو المعروف عند كافة اليهود ، خاصتهم وعامتهم ، المفسرين منهم والمؤرخين ، وعلماء الشريعة والفقهاء ، وسواهم ، وهذا أيضاً هو المعروف عند جميع علماء ومفسري النصارى بدون أدنى خلاف ؛ إذا تقرر ذلك فمعنى الوحي أو الإيزال للأسباط أو على الأسباط ، أن الله تعالى أوجد من بين هؤلاء الأسباط أنبياء أوحى إليهم كتباً ، وأنزل عليهم أسفاراً ، مثلاً - كان من سبط « اللاويين » موسى وهرون وفينحاس على قول وهو حفيد هرون و (عالي) على قول وإرميا وزكريا ويحيى عليهم السلام ، وكان من سبط « اليهوديين » إسماعيل وصفتنيا وعوبديا ودانيال وحزقيال وعيسى المسيح وداود وسليمان وحجتي عليهم السلام ، وكان من سبط « الجاديين » الياس المدعو في بعض الأسفار « إيليا » (١ مل ١٧ : ١) عليهم السلام ، وكانت من سبط « الزبوليين » يونس المدعو في بعض الأسفار « يونان » (٢ مل ١٤ : ٢٥) ، وكان من سبط « أفرايم » بن يوسف (م) يشوع بن نون عليه السلام ، وكذا

(أُلْقَانَةٌ) على قول وهو أبو صموئيل ، وابنه صموئيل المعني بقوله تعالى : ﴿ إِذْ قَالُوا لِنَبِيِّ لَهُمْ ابْعَثْ لَنَا مَلِكًا ﴾ (٢ : ٢٤٦) ، ولا بد لي من التنبيه على أنبياء آخرين هم من سلائل « الأسباط » ولكني لأعلم طريق نسبة كل واحد إلى سبطه ، وذلك مثل « أَخِيَا الشَّيْلُونِي » و«ملاخي» و «مِيخَا بن يَمَلَّة» و« ميخا » المورشي و«ناتان» و« ناحوم » و« عاموس » و« هوشع » و« ياهو » و« يوثيل » و« عِدْو » و« يَمَعْدو » و« عزرياهو » و« عُوْدِيد » و« شَمْعِيَا » و« حَنَانِي » و« حَبَقُّوق » و« أُوْرِيَا » وغيرهم وغيرهم ، فهؤلاء الأنبياء جميعهم من علمهم منهم سبطه ومن لم يُعلم ، كلهم داخلون في كلمة « أسباط » ولا يخفى أنه لو أريد ذكر أسمائهم جميعاً ، كل واحد بمفرده لطال الحال وكثر الكلام جداً ، فلذلك اقتصر كتاب الله تعالى على التصريح بأسماء المشهورين منهم ، واكتفى بالإشارة لغير المشهورين منهم ، بكلمة « أسباط » .

ولنا أن نجيب بجواب ثان عن معنى الإيزال أو الوحي للأسباط أو عليهم ، بأن نقول : إن معنى ذلك أن الوحي أنزل لأجلهم ، أي لأجل منفعتهم ، قال تعالى : ﴿ أَفغيرَ اللَّهِ أَتَبغي حَكَمًا ؟ وَهُوَ الَّذِي أَنْزَلَ إِلَيْكُمُ الْكِتَابَ مُفَصَّلًا ﴾ (١١٤ : ٦) ، وهذا على إرادة القول ، أي قل أيها النبي : أفغيرَ اللَّهِ أَطَلب حاكماً يحكم بيني وبينكم أيها المشركون ، ويفصل الحق من الباطل ، ﴿ وَهُوَ الَّذِي أَنْزَلَ إِلَيْكُمُ الْكِتَابَ ﴾ ، أي أنزل لأجلكم القرآن (مُفَصَّلًا) أي مبيناً ، وفيه الفصل بين الحق والباطل ، والشهادة لي بالصدق وعليكم بالافتراء ، وقال تعالى : ﴿ وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ ﴾ (٤٤ : ١٦) ، وقال تعالى ﴿ إِتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ ، وَلَا تَتَّبِعُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ ، قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴾ (٢ : ٧) ، وقال تعالى : ﴿ وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُم آيَاتِ اللَّهِ

يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا ، فَلَا تَقْعُدُوا مَعَهُمْ ، حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ ، إِنَّكُمْ إِذَا مِثْلُهُمْ ﴿ (١٣٩:٤) ، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿ يَسْأَلُكَ أَهْلُ الْكِتَابِ أَنْ تُنزِلَ عَلَيْهِمْ كِتَابًا مِنَ السَّمَاءِ ﴾ (١٥٢:٤) ، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿ وَلَنْ نُؤْمِنَ لِرِقِيِّكَ حَتَّى تُنزَلَ عَلَيْنَا كِتَابًا نَقْرَؤُهُ ﴾ (٩٣:١٧) وَقَالَ تَعَالَى ﴿ مَا يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ أَنْ يُنزَلَ عَلَيْكَ مِنْ خَيْرٍ مِنَ رَبِّكُمْ ﴾ (١٠٥:٢) وَالْخَيْرُ هُوَ الْوَحْيُ ، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿ يَحْذَرُ الْمُنَافِقُونَ أَنْ تُنزَلَ عَلَيْهِمْ سُورَةٌ تُنَبِّئُهُمْ بِمَا فِي قُلُوبِهِمْ ﴾ (٦٥:٩) وَقَالَ تَعَالَى: ﴿ وَاذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ ، وَمَا أَنْزَلَ عَلَيْكُمْ مِنَ الْكِتَابِ وَالْحِكْمَةِ ﴾ (٢:٢٣١) ، إِلَى غَيْرِ ذَلِكَ مِنَ الْآيَاتِ الْكَثِيرَةِ ، الَّتِي لَوْ أُتَيْنَا بِهَا لَأُطْلِنَا عَلَى الْقَارِئِينَ وَالسَّامِعِينَ .

(رجعتنا لما كنا فيه) :

ونظير كلمة أسباط ههنا كلمة « بني إسرائيل » في نحو قوله تعالى : ﴿ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ ﴾ (٢:٤٧) وقوله : ﴿ وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ ﴾ (٢:٨٣) وقوله : ﴿ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ ﴾ (٥:٧٥) فكما أن كلمة « بني إسرائيل » يراد منها قبائل إسرائيل فكذلك كلمة « أسباط » يراد منها القبائل التي تناسلت من أبناء يعقوب ، ولم يقع في القرآن الكريم كلمة تعني أولاده الصليبيين إلا قوله : ﴿ أَمْ كُنْتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ جَضَرَ يَعْقُوبَ الْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ : مَا تَعْبُدُونَ مِنْ بَعْدِي ؟ ﴾ (٢:١٣٣) فهذا التعبير وأمثاله يراد منه في الدرجة الأولى الأبناء الصليبيون وقد يشمل مع ذلك أبناءهم أيضاً ، وأما لفظ « أسباط » فلا يشمل

الأبناء الصليبيين قطعياً ، لا لغة ولا شرعاً ، ولا عرفاً ، ولا في تعبير من عبارات اليهود ولا النصارى ولا الإسلام .

هذا ما اطلعت عليه نقلته إليك ، فتنبه له وإلا فالسلام عليك .

(٣) - استدلوا على نبوة إخوة يوسف بقوله تعالى : ﴿ وَيَتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَعَلَى آلِ يَعْقُوبَ ، كَمَا أَتَمَّهَا عَلَى أَبَوَيْكَ مِنْ قَبْلُ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ ﴾ (ع ٦) قالوا : النعمة هي النبوة التي كانت في إبراهيم وإسحاق ، وآل يعقوب ههنا هم أولاده الإثني عشر ، وحينئذ فيجب أن يكونوا أنبياء .

ونحن نقول : لا دليل على أن إتمام النعمة هو بالنبوة خاصة ولادليل على أن المراد « آل يعقوب » أبناء الصليبيين ، والتشبيه في قوله : كما أتمها .. لـخ لا يقتضي أن يكون المعنى الجامع بين طرفي التشبيه هو خصوص النبوة ، فهذا الدليل لا يثبت المدعى .

(٤) - استدل بعض الطلبة على نبوتهم بقوله تعالى في سورة المؤمن ﴿ وَأَوْزَرْنَا نَبِيَّ إِسْرَائِيلَ الْكِتَابَ (٤٠ : ٥٣) ، وهو استدلال في غاية الضعف ، إذ لم يقل أحد من المفسرين أن المقصود من كلمة (نبي إسرائيل) هنا أبناء يعقوب الصليبيون الإثني عشر ، بل المراد أن الكتاب كان في سلالة يعقوب ، وقد أجمع المفسرون والمحدثون والمؤرخون وغيرهم من المسلمين والنصارى واليهود أن الله تعالى لم ينزل كتاباً على أبناء يعقوب الصليبيين ، حتى ولا على يوسف الذي هو نبي عندنا نحن المسلمين ، فهذه الآية لا تدل لمدعي هذا الطالب ، كيف وقد قال تعالى في سورة فاطر : ﴿ ثُمَّ أَوْزَرْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا ، فَمَنْ ظَلَمَ لِنَفْسِهِ ، وَمَنْ مَقْتَصِدٌ ، وَمَنْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ بإِذْنِ اللَّهِ ، ذَلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ ﴾ (٣٥ : ٣٢) ، فهؤلاء الذين أوزروا الكتاب هم أمة محمد ﷺ ورثوه بمدالمتين

قبلهم ، اليهود والنصارى ، فهذه الآية ، في فاطر ، إذا لم تقتضي نبوة كل فرد من أفراد الأمة المحمدية ، فكذلك آية سورة المؤمن لا تقتضي ذلك البتة .

وأما الجمهور ، وبعبارة أصح الأكترية الساحقة من المسلمين فإنهم لا يعترفون بنبوة واحد من آباء الأسباط هؤلاء الأحد عشر ، ولهم على ذلك عشرة أدلة ، إليك بيانها :

١ - قوله تعالى : ﴿ إِنَّ الشَّيْطَانَ لِلْإِنْسَانِ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴾ (٥٤) يفيد أن القوم كانوا بحيث يمكن أن يكون للشيطان عليهم سبيل ، وأنه يفعل فيهم ويؤثر عليهم ، وهذا ينتج أنهم لم يكونوا أنبياء ، لأن الأنبياء وإن لم يكونوا معصومين من الوسوسة فهم معصومون من العمل بها ، ولكن أخوة يوسف عملوا بها ، فكادوا له كيداً ؟

٢ - القول بنبوتهم لم يحكه القرآن ولا ثبت في حديث ، ولا نقل عن أحد من الصحابة ، ولا روي من أحد من التابعين وكذا لم يقله أحد من تابعي التابعين إلا « ابن زيد » وتبعه البغوي وشرذمة قليلة ؛ وأما نحن فنقول : لا عبرة بألف عالم مثل ، ابن زيد والبغوي ، أثبتوا لشخص نبوة بدون برهان نقلي صريح من كتاب أو سنة أو على الأقل من تاريخ معتبر ، وإن إثبات نبوة أحد بدون دليل شرعي محظور شرعاً ، بحيث لا يقل في الاقتيات على الله عن إنكار نبوة أحد ممن ثبتت نبوته ، فهذا محظور وهذا محظور على حد سواء .

٣ - كلمة « أسباط » التي اتخذوها دليلاً لهم على القول بنبوة هؤلاء هي بذاتها دليل لنا على عدم نبوتهم لأن لفظ سبط هو ابن الابن أو ابن البنت ، وليس هو الابن الصلي ، فلو أراد تعالى النص على نبوة أبناء يعقوب لصلبه لقال : « آباء الأسباط » وقد سبق لنا بسط القول في هذه الكلمة ، وما بالمهد من قدم .

٤ - إن الله سبحانه لما أراد أن يذكر الأنبياء من سلالة إبراهيم قال : ﴿ وتلك حججنا آتينها إبراهيم على قومه ، نرفع درجات من نشاء ، إن ربك حكيم عليم ، ووهبنا له إسحق ويعقوب ، كذلك هدينا ، ونوحاً هدينا من قبل ، ومن ذريته داود وسليمان وأيوب ويوسف وموسى وهرون وكذلك نجزي المحسنين ، وزكريا ويحيى وعيسى وإلياس ، كل من الصالحين ، وإسماعيل واليسع ويونس ولوطاً وكلاً فضلنا على العالمين ﴾ (٦ : ٨٣ - ٨٦) فذكر يوسف ومن معه ، ولم يذكر واحداً من إخوته ولو كان إخوة يوسف قد نبئوا كما نبئوا ، ولذا كانوا كما ذكر ، خصوصاً وإن المناسبة قوية جداً ، فلما لم يذكر وواع قوة المناسبة دل على أنهم ليسوا بأنبياء ، فتخصيص يوسف بالذكر دون إخوته يدل على عدم نبوتهم .

٥ - إن الله تعالى ذكر للأنبياء عليهم السلام من المحامد والثناء ما يناسب النبوة وإن كان قبلها ، وأما هم فلم يذكر لهم شيئاً من هذا القبيل ، وجاء في الحديث : « أكرم الناس يوسف بن يعقوب بن إسحق بن إبراهيم ، نبي من نبي » ، فلو كانت إخوته أنبياء لكانوا قد شاركوه في هذا الكرم ، ولذا كانوا في القرآن ولو بمحمدة واحدة ، وتقول الحكماء : « البدايات دليل النهايات » ويقول الشاعر :

وإذا رأيت من الهلال نموه أيقنت أن سيكون بديراً كاملاً

وتقول العامة : « الديك الفصيح من البيضة يصيح » ، وقد قالت خديجة (ض) لما فجأ الوحي النبي ﷺ وخاف من ذلك : « كلا والله لا يخزيك الله أبداً ، إنك لتصل الرحم ، وتصدق الحديث ، وتحمل الكل ، وتكسب المدوم ، وتقري الضيف ، وتعين على نوائب الحق » ، وأرجوكم أن لا تنسوا « هرقل » واستدل به بما استدله في حديث أبي سفيان المشهور ، لما سأل عن صفات النبي ﷺ .

٦- ذكر أهل السير أن إخوة يوسف كلهم ماتوا بمصر ، وهو أيضاً مات بها ، لكن أوصى بنقله إلى الشام ، فنقله موسى عليه السلام ، ولم يذكر في القرآن الكريم أن أهل مصر قد جاءهم نبي قبل موسى وهرون غير يوسف ، ولو كان منهم لذكر ، قال تعالى : ﴿ ولقد جاءكم يوسف من قبل بالبينات ، فما زلتم في شك مما جاءكم به ، حتى إذا هلك قلتم لن نبعث الله من بعده رسولا ﴾ (٣٤:٤٠) ، ونحن نعلم أنه كان لإخوة يوسف حياتان ، الحياة الأولى حياة جرائم وكذب وختل وعقوق ، وهذه في فلسطين ، وإذن لم يكونوا أنبياء في فلسطين ، والحياة الثانية حياة استقامة وطاعة وتوبة وأوبة ، وهذه كانت في مصر وهم في مصر لم يكونوا أنبياء ، كما تعلمه من القرآن الكريم ، ولم يثبت أنهم رجعوا من مهجرهم مصر إلى فلسطين حتى يتنبأوا فيها ، بل ثبت تاريخياً أنهم ماتوا بمصر ، وإذن لم يكونوا أنبياء أصلاً ، لافي فلسطين ولا في مصر ، وأما ما هو مشهور عند جهلة المسلمين من أن « رأوين » مدفون حوالى « يافا » على شاطئ البحر ، وإن « شمعون » مدفون في محلة « الشاغور » من دمشق الشام وفي صيدا أيضاً ، فكل ذلك نتيجة الجهل بالتاريخ ، وكذا ما ذكره العلامة ابن طولون في كتابه « اللغات البرقية » من أن « لاوي » مدفون في قرية يقال لها « قرية لاوي » و « بظهر الحمار » قرية بها قبر « بنيامين » « وباربد » أربعة من أولاد يعقوب عليه السلام وهم : دان ، يساكر ، زبولون ، جاد ، وفي « رومة » قبر يهوذا بن يعقوب ، وفي « مدين » قبر إثنين من أولاده وهما أشير وفتالي ، فكل هذا وهم لا أصل له .

٧ - كثرة مانسب إليهم من حسدهم ليوسف وتضليل أبيهم (ع ٨) ، ومن إرادتهم قتله أو طرحه أرضاً (ع ٩) ، ومن إجماعهم على إبقائه في غيابة الحب (ع ١٠) ،

ومن ختلهم لأبيهم وحلفهم إنهم ناصحون وحافظون ، ثم خلف هذا الوعد قصداً من أول الأمر (ع ١١٤-١٥) ، ومن بكائهم كذباً، وإخبارهم كذباً ، ومن سلبهم أخاهم قميصه واستعمالهم التشليح ، ومن تلطيفهم القميص بالدم كذباً (ع ١٦٤-١٨) ، ومن أنهم شر مكاناً (ع ٧٧) ومن الجهل الذي هو خلاف العلم أو خلاف الحلم ، ومن الوقوع في المعصية عمداً الذي هو معنى قولهم ﴿تالله إن كنا لسخاطئين﴾ (ع ٩١) ، الأمور المدهشة الحاوية للعقوق والجور والأقوال السافلة الى أخط دركات الخسة ، الأحوال التي يتزده عنها مقام النبوة ﴿الله أعلم حيث يجعل رسالته﴾ (١٢٤:٦) ، وقولهم ﴿لقد آثرك الله علينا﴾ (ع ٩١) لأن الشرير لا يكون نبياً ، إنما الذي أوثر على غيره هو النبي دون الغير . هذا رأيي ، فما ترون ؟ صوت من الجميع «موافق موافق» .

الفصل الثالث

وهنا قلم الشيخ محمود الخليلي^(١) وقال :

في شيء عن حياة إبراهيم واسحق ويعقوب عليهم السلام

قال تعالى: ﴿واذكر عبادنا إبراهيم وإسحق ويعقوب أولي الأئدي والأبصار ، إننا أخذناهم ببخالصة ذكري الدار ، وإنهم عندنا لمن بالمصطفين الأخيار﴾ (٣٨ : ٤٥-٤٧) ، وعليه وبمناسبة ذكر هؤلاء

(١) الخليل : بلد في فلسطين

الأنبياء الكرام في هذه السورة ، ومناسبة كونهم آباء لبطل هذه القصة ، وموضوع هذه السورة ، وهو يوسف عليه السلام - يجدر بنا أن نأتي على شيء من تاريخ حياة هؤلاء الشيوخ الكبار الثلاثة عليهم الصلاة والسلام فنقول :

(في شيء مما جباة إبراهيم عليه السلام)

ولد إبراهيم سنة (٢٦٢٠) ق.هـ. وأبوه هو « آزر » المدعو في سفر التكوين بلفظ « تارح » ، الذي معناه في اللغة العبرانية « متكاسل » قلت ولعله لأجل ذلك عدل القرآن الكريم عن هذا الاسم المشعر بالكسل إلى الاسم الأول ، وإبراهيم هو العاشر من نسل « سام » ولد في أور الكلدانيين (١) ، وقد كان نبياً ورسولاً من الله تعالى للكلدان ، كما يعتقد كذلك سائر المسلمين ، وقد دعاه سفر التكوين نبياً (تك ٢٠ - ٧) لكن أهل الكتاب رغماً عن هذا التصريح لا يعتقدون نبوته ، ولذلك فسروا « النبي » هنا بالناسك ؛ وقد امتحن بأن ألقى في النار ، فكانت عليه برداً وسلاماً كما في القرآن الكريم ، ولكن أسفار العهد العتيق الذي بيد اليهود والنصارى اليوم لا تذكر شيئاً من هذه الحادثة العظيمة ولا تشير إليها ، وإنما بعض أهل التفسير عندهم مثل صاحب « مِذْراش رَبَّاه » تعرض لها وذكرها بصراحة ، وكذلك ذكرت في التلمود ، وعلى كل الأحوال فالقرآن الكريم الذي نزل مهيمناً على الكتب السابقة أخبرنا عن الله تعالى بهذه الحادثة ، وهو أصدق الكتب السهاوية الذي لم يطرأ عليه أدنى تحريف ولا زيادة ولا نقصان ، وأما أهل الكتاب فقد ﴿ نَسُوا حَظًّا مِمَّا ذُكِّرُوا بِهِ ﴾ (٥: ١٤ و ١٥) ، ولذلك فيجب علينا في مثل هذه المسائل الرجوع لكلام الله المتين

وبعد حادثة إلقائه في النار ونجاته منها، إقتضت الظروف والحكمة الإلهية أن يهاجر من بلاد الكلدان ، فأمره الله بالهجرة ، فامثل أمر ربه قائلاً ﴿ إني مهاجرٌ إلى ربي ﴾ (٢٩: ٢٦) ، فرحل من أور الكلدانيين إلى « حاران » وهي بلدة فيما بين النهرين (١) ، ثم منها إلى فلسطين ، فقد هاجر هجرتين ، أو هجرة موزعة لموضعين ، وربما لهذا يقال له « العبراني » الذي يمكن تأويله « بالسائح » أو « المهاجر » ولكن المشهور أن سبب تسميته بذلك عبوره نهر الفرات ، ولقد روَى لنا التاريخ أن إبراهيم عليه السلام إجتاز سورية وفينيقية وبلاد العرب ، وأنه أتى لدمشق وأقام فيها مدة نحو سبع سنوات ، وأنه ذهب الى الحجاز ومصر ، وقد وصفه القرآن الكريم بأنه كان صديقاً نبياً ، وأنه كان كريماً مطبوعاً على الأكرام الضيوف يقدم لهم الحنيد ، أي اللحم المشوي بالرّضف (٢) في الأخدود ، ويختاره لهم من سمان الحيوان ، وقد دعتني في الحديث بأنه خليل الرحمن ، وورد في القرآن ﴿ واتَّخَذَ اللهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلاً ﴾ (٤: ١٢٤) ، وقد هاجر مع إبراهيم زوجته « ساراي » بنت آزر أو تارح ، فهي أخت إبراهيم انما من اخيه فقط فليست اذن بشقيقة له ولذلك جاز له ان يقترن بها عندهم ، وكان معه ايضاً ابن اخيه « لوط » عليه السلام ، ثم سكن لوط شرقي الأردن ، الى ذلك السهل الخصب حيث كانت سدوم وعمورة ، وبقي عمه ابراهيم غربي نهر الأردن ، يتردد بين « شكيم » التي يقال لها اليوم « نابلس » و « بيت ايل » التي يقال لها اليوم « بتّير » ، و « قرية اربع » التي صارت يقال لها « حبرون » ، ثم في العهد الإسلامي صارت يقال لها « خليل الرحمن » ، « بئر سبع » التي يقال لها اليوم « بئر السبع » ، و « جرّار » التي

(١) دجلة والفرات

(٢) الرضف الحجارة المحماة

يقال لها اليوم «خربة أم جرار»، و«شور» و«قادش» على تخم مصر، ومكة المكرمة والحجاز وما بين ذلك كله من البلاد المأهولة في ذلك العصر، ونزلت عليه عشر صحف كما قال تعالى: ﴿صُحُفٍ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى﴾ ، وكان محيط إبراهيم غارقاً في عبادة الأوثان، سواء أكان في العراق أو شرقي الأردن أو «آرام» أي دمشق أو فلسطين أو مصر أو الحجاز، ولكن الله تعالى آتاه رشده، وعلم منه أحوالاً بديعة وصفات مرضية منذ الصغر، كما قال سبحانه ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا إِبْرَاهِيمَ رُشْدَهُ مِن قَبْلُ، وَكُنَّا بِهِ عَالِمِينَ﴾ (٢١: ٥١)، وأما ماورد في سورة الأنعام في قوله ﴿فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ رَأَى كَوْكَبًا، قَالَ هَذَا رَبِّي، فَلَمَّا أَفَلَ، قَالَ لَا أَحِبُّ الْآفِلِينَ، فَلَمَّا رَأَى الْقَمَرَ بَازِعًا، قَالَ هَذَا رَبِّي، فَلَمَّا أَفَلَ، قَالَ لئن لم يَهْدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ، فَلَمَّا رَأَى الشَّمْسَ بَازِغَةً، قَالَ هَذَا رَبِّي، هَذَا أَكْبَرُ، فَلَمَّا أَفَلَّتْ، قَالَ يَا قَوْمِ إِنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ﴾ (٦: ٧٦-٧٨) فإنما هو قول من ينصف خصمه مع علمه بأنه مبطل، فيحكي قوله كرجل غير متعصب لمذهبه، وليس هو من قبيل النظر والاستدلال لنفسه، فقد قال عليه السلام، أثناء ذلك الحوار: ﴿لئن لم يَهْدِنِي رَبِّي، لَأَكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ﴾ (٦: ٧٧)، وقال: ﴿يَا قَوْمِ إِنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ﴾ (٦: ٧٧) فاعترف وصرح بان له رباً ليس هو الكواكب، ثم أعلن البراءة من شرك قومه، لا من شرك نفسه حاشاه، فدل على أنه لم يكن فيه شرك، كيف وأن الأنبياء معصومون من مثل ذلك قبل النبوة كما بعدها، وكان اسم إبراهيم منذ الصغر «أبرام» كما سماه به أبوه، ومعناه «أب مرتفع» أو «أبو العلاء» ولكن الله فيما بعد سماه «إبراهيم»، ومعناه «أبو جمهور عظيم» وكذلك كان اسم زوجته «ساراي» أي أميرتي فغيّره الله تعالى إلى «سارة» أي «أميرة»، وكانت

سارة عاقراً ، وكان لها أمة مصرية اسمها « هاجر » فوهبتها لإبراهيم فدخل بها فرزق منها « إسماعيل » عليه السلام ، ثم لما صار عمره مئة سنة وعمر زوجته سارة تسعين سنة ولد منها « إسحق » وكان إسماعيل حين ولد لإسحق ابن (١٤) سنة ، ثم إن الله تعالى أمر إبراهيم أن يأخذ هاجر وإسماعيل إلى مكة ليسكننا هناك ، وماتت سارة ولها من العمر مئة وسبع وعشرون سنة ، وكان عمر إبراهيم إذ ذاك (١٣٧) سنة فابتاع إبراهيم « مغارة المكفيلة » وهي ما يقال لها « الغار الشريف » من بني حث لتكون مدفناً لزوجته ومن يموت بعدها ، ثم بعد موت سارة تزوج إبراهيم زوجة اسمها « قطورة » وهذه أيضاً كانت جارية له ، فولدت له ستة أولاد ، وهم زمران ، يقشآن ، مدان ، مديان ، يشباق ، شوحا ، وانتقل إبراهيم إلى رحمة الله وله من العمر (١٧٥) سنة ودفنه إسماعيل وإسحق في حبرون ^١ ، في ذات المغارة التي دفنت فيها زوجته ساره ، وكانت أملاكه متسعة جداً ، وعديدة ، وكان زيادة على نبوته ورسالته أميراً في الأرض شجاعاً متفناً في أساليب الحرب وحيلها ، وكان عنده عدد عديد من الحشم والبيد ، وبينهم (٣١٨) عبداً من الذين يحملون السلاح ، وقبل الختام نقول : إن إبراهيم حصل في غربته على اعتبار عظيم حيثما توجه ، واشتهر بدمائه أخلاقه حتى ورد في شأنه قول الله ﴿ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّاهٌ مُنِيبٌ ﴾ (١١ : ٥٥) وما زال ولا يزال اسمه مقروناً بالاحترام عند أهل الملل سوا اليهود والنصارى والمسلمون ، فجميعهم يحبونه ويحترمونه ويدكرون اسمه مقروناً بالإكرام والإجلال ولذلك ورد عندنا « اللهم صل على محمد كما صليت على إبراهيم » ، وأمرنا بتكرار هذه الصيغة الدعائية في صلواتنا دائماً ، حيث معنى هذه الجملة الدعائية : اللهم عظم محمداً في نفوس جميعه

الطوائف وكل أصحاب الملل كما عظمت كذلك إبراهيم ، واجعل محمداً مباركاً كافي
نظر كافة العالم كما أن إبراهيم هو مبارك في نظر العموم ، فكأننا ندعو لئبينا بأن
يكون معظماً محبوباً مقبولاً عند كل أهل الملل كما كان إبراهيم كذلك ، وبالتالي
كأننا نطلب من الله في صلواتنا أن يؤمن بئبينا جميع الناس وبصير الكل من أتباعه
وعلى دينه ، وهذا الذي زجوه من الله تعالى في مستقبل الأيام ﴿ لِيُظْهِرَهُ عَلَى
الدِّينِ كُلِّهِ ﴾ (٩ : ٣٤) ، ﴿ سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّى
يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ ، أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ؟ ﴾
(٤١ : ٥٣) وقد ذكر إبراهيم في هذه السورة مرتين ، مرة في مقام أن الله
تعالى أتم نعمته عليه (ع ٦) ، ومرة في مقام بيان أن ملة إبراهيم هي التوحيد .
(ع ٣٨) والواقع أن إبراهيم هو رئيس مدرسة التوحيد ، وأن التوحيد الموجود
في اليهودية والنصرانية والإسلام أصل منبعه إبراهيم عليه الصلاة والسلام .

وتابع الشيخ محمود الخليلي قوله :

في سمي ، عن حياة إسحق عليه السلام

إن معنى كلمة « إسحق » الحرفي « يَضْحَكُ » كما فهموه من الأصل العبراني ،
وعليه فهو فعل مضارع ، أو معناها « إِضْحَاكُ » أي « ضحك » كما سمعناه من
أحد الحاخامين ، وعليه فهو مصدر ، والسبب في تسميته بذلك هو أن الملك لما
جاء بالبشارة به ، ضحكت « سارة » لأنها عجوز ، إذ كانت وقت البشارة به بنت
(٩٠) سنة ، وكان زوجها ابن مئة ، وكانوا في ذلك الوقت يسمون بأسماء الحوادث .
تذكراً لها فلذلك سمي « إسحاق » .

ولد إسحاق في مدينة من مدن فلسطين كان اسمها « جرار » واقعة الى الجنوب الشرقي من غزة ، وربما هي المكان المعروف اليوم بـ « خربة أم جرار » ، وما زال إسحق يرعى غنم أبيه في مراعي كنعان اليانعة الخضرة الى أن بلغ الأربعين ، وكان أبوه مهتماً بزواجه بواحدة من بنات عشيرته بين النهرين ، لأنه كان يفضلهن على بنات الكنعانيين ، ولذلك أرسل عبده « عازار » الدمشقي إلى ما بين النهرين ليختار له زوجة من هناك ، (وذلك بعد أن توفيت سارة) ، فسار العبد والعناية الإلهية تصحبه حتى جاء إلى « حاران » « في فدان آرام » فوقح اختياره على « رفقة » بنت « بتوئيل » بن « ناحور » أخي إبراهيم ، فتكون بنت ابن شقيق إبراهيم ، فعاد بها إلى ابن سيده فاقترن بها ، ولما كان إسحاق ابن ستين سنة رزقه الله عيسو ويعقوب في بطن واحد ، وكانت سكنى إسحاق بعد وفاه أبيه في « أَحْيَى رِيّ » ويقال لها اليوم « عين مويلح » ، وتارة في « جرار » مولده . وحيناً في « مَمْرَا » وهي غابة بقرب حبرون ، ثم توفي وله من العمر (١٨٠) سنة ، وكانت وفاته بعد عياب حفيده يوسف بمصر باثنتي عشرة سنة ، ودفنه إبناه عيسو ويعقوب في الغار الشريف حيث دفن إبراهيم وزوجه سارة ، وحيث دفنت رفقة امرأة إسحق .

وكان إسحق حليماً محباً للسلام ، امتاز بالبرقة والأنس ، وأما وصف « الغيور » الذي يصفه به أهل فلسطين ، فلا يقتضي خلاف ما ذكرنا ، فقد وُصف الله تعالى في الحديث بالغيور وكذا نبينا ﷺ ، وقد كان النبي أحلم العلماء وأرق من النسيم وكان إسحق نبياً ومرسلاً موحى إليه ، قال تعالى : ﴿ قُولُوا : آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ ﴾ (٢ : ١٣٦) وقال تعالى : ﴿ وَبَشَرْنَا بِإِسْحَاقَ نَبِيًّا مِنَ الصَّالِحِينَ ﴾ (٣٧ : ١١٢) ، وبارك الله على إسحق

في جوار « لَحَيِّ رَيْي » ، وأكثر ماله ونمت فيه المعارف الآلهية ، قال تعالى : ﴿ وباركنا عليه وعلى إسحق ﴾ (٣٧ : ١١٣) ، وقد ذكر إسحق في هذه السورة اليوسفية مرتين ، مرة في مقام إتمام النعمة (ع ٦) ومرة في مقام التوحيد (ع ٣٨) .

هذه عقيدتنا في إسحق عليه السلام ، وأما أهل الكتاب فليس هو عندهم بنبيّ ، مع أنه يوجد في أسفارهم ما يصرح بأن الرب ظهر له وكلمه وأمره ونهائه وأوصاه بوصايا وبشره ببشائر حسنة ، وأعطاه مواعيد جميلة (تك ٢٦ : ٢ - ٦ و ٢٨ : ٣ و ٤) وكلا هذا كان بدون واسطة فهو ونحوه يستدعي أنه نبيّ ، كما هو عندنا .

واستمر الشيخ التحليلي يقول :

في شيء عن حياة يعقوب عليه السلام

اشتق إسم « يعقوب » من الحادثة التي وقعت عند ولادته ، لأنه خرج من بطن أمه ويده قابضة بعقب أخيه « عيسو » لأنه توأمه الذي خرج بعده ، وقد كان يظن أن يكون بين ولادة أحد التوأمين والآخر ساعة أو أكثر ، لكن يعقوب ولد على أثر عيسو بلا تأخر ، وهذا معنى أنه ولد ويده قابضة على عقب أخيه ، أي ولد كأنه ماسك بعقبه ، حتى لم يكن بين المولدين زمان يذكر ، فالعبارة من قبيل الكناية أو التمثيل ، وعلى كل سواء أكان هذا الكلام حقيقة أو تمثيلاً فمضى الكلمة « يعقوب » بمسك العقب أو يعقب أو يتعقب أو عاقب أو متعقب كما أفاد ذلك كله صاحب « السنن القويم » .

ويعقوب هو أحد الآباء الثلاثة الكبار للebraانيين ، وهو ابن إسحاق من زوجته « رفقة » ، وكان أبوه حين ولادته ساكناً عند بئر « لَحْي رُئِي » التي يقال لها اليوم « عين موبلح » ، ولأسباب جرت من يعقوب على رأس أخيه عيسو خاف يعقوب من أخيه عيسو أن يقتله فرحل إلى « حاران » في « فدان آرام » عند خاله « لابان » أخي « رفقة » ، وهو ابن « ناحور » ، وقد أراه الله عند « بيت إيل » في نومه رؤيا مجيدة ، ووعده بأن يعطيه الأرض التي هي أرض الميعاد فتكون له ولنسله ما داموا مستقيمين ، وبيت إيل هذه هي التي تدعى اليوم « بيتين » بين القدس و نابلس ، وبعدهما وصل إلى خاله « لابان » زوجته بنته الكبرى « ليثة » ثم أعطاه أختها الصغرى « راحيل » فاجتمعا عنده معاً ، لأن هذا الجمع كان جائزاً في شريعتهم ، وخدم يعقوب خاله لابان عشرين سنة ، ثم رحل قافلاً إلى فلسطين ، فسكن في « شكيم » حيث اشترى أرضاً هناك ، ثم أتى بإلهام السهي إلى « بيت إيل » ، وهناك ظهر الملك وغير اسمه من يعقوب إلى « إسرائيل » الذي معناه كما مر « أمير الله » أو « قوي الله » أو « مجاهد الله » ، ثم أتى « إفراة » التي دعيت « بيت لحم » فولدت راحيل بنيامين ، وماتت هناك ، ثم ارتحل إلى حبرون حيث أبوه إسحاق فيها ، ثم إلى سيلون وفيها سكن إلى زمن حادثة ولده يوسف ، ثم رحل لمصر وبها توفي بعد (١٧) سنة ، ومن أغرب الصدف أن ابنه يوسف أقام عنده في فلسطين في صغره (١٧) سنة ، ثم بالمقابلة أقام أبوه يعقوب عنده بمصر (١٧) سنة ، ثم توفي عن (١٤٧) سنة ، وحنط أطباء مصر جثته وجاء بها يوسف وإخوته إلى حبرون ودفنوها في القار الشريف ورجعوا لمصر حيث عيالهم ومعيشتهم .

وكما نعلم أن إسم « عدنان » أو « قريش » مثلاً يطلق على كامل القبيلة المدنانية

أو القرشية ، فكذا إسم يعقوب وإسرائيل كان يطلق على كامل أمته (تث ٣٣ : ١٠ ، مز ١٤ : ٧ و ٢٢ : ٢٣ و ١٠٥ : ٦ و ١٣٥ : ٤ واش ١٤ : ١ و ٤٤ : ٢ ومي ٧ : ٢٠) وهلم جرأ . ومن هذا القبيل ما في قوله تعالى ﴿ كَلِّئِ الطَّعَامَ كَانَ حِلاً لِبَنِي إِسْرَائِيلَ إِلَّا مَا حَرَّمَ إِسْرَائِيلُ عَلَى نَفْسِهِ مِنْ قَبْلِ أَنْ تُنَزَّلَ التَّوْرَةُ ﴾ (٣ : ٩٣) ، فقوله « إِلَّا مَا حَرَّمَ إِسْرَائِيلُ » يريد منه الشعب ، أي كانوا سبباً في التحريم كما قال تعالى ﴿ قَبِضْطَلْمٍ مِنَ الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَاتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ ﴾ (٤ : ١٥٩) .

وقد كان المحيط والعصر الذي فيه يعقوب بل وأبوه إسحق وجده إبراهيم - محيطاً ملوئاً بالتوثن وعصراً من عصور الشرك في فلسطين وسورية ومصر والكلدان وأشور وغيرها رغم شدة اجتهاد هؤلاء الأنبياء الكرام في تخفيف وطأة التوثن وهداية الخلق للتوحيد ، ولهذا الذي قلنا يظهر لك سر قوله تعالى ﴿ أَمْ كُنْتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ الْمَوْتُ ، إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ : مَا تَعْبُدُونَ مِنْ بَعْدِي ؟ - قَالُوا نَعْبُدُ إِلَهَكَ وَإِلَهَ آبَائِكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِلَهًا وَاحِدًا ، وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ ﴾ (٢ : ١٣٣) وههنا أتذكر ، والشئ بالشئ يذكر ، أن مُسْرَجَمَنَا كما سمي يعقوب ثم إسرائيل ، فقد سمي أيضاً « هِبَّة » و « نَافِلَةٌ » قال تعالى : ﴿ وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ نَافِلَةً ﴾ (٢١ : ٧٢) ، وإنما سمي هو وأبوه « هِبَّة » لأنها جاء بمد شيخوخة وهرم إبراهيم وسارة وعقرها ، إذ كانت عمر إبراهيم (١٠٠) سنة وعمر سارة (٩٠) سنة ، وكل ما جاء على غير السنن المعتادة يقال له هبة ، كأنه بلا تعب أو بلا سبب ، وإنما سمي يعقوب نافلة ، لأنه عطية تطوع من الله بلا سابقة سؤال أو لأنه تابع في الهبة لأبيه الموهوب ، كالنافلة التي تكون

بمد الفريضة ، وقد عاش الموهوب الأول وهو إسحق مع أبيه إبراهيم (٧٥) سنة ، كما أن الموهوب الثاني وهو يعقوب عاش مع جده إبراهيم (١٥) سنة ، وبذلك ظهر جلياً وجه المنة على إبراهيم بهذه النافلة المباركة ، على أن وجه المنة لا تتوقف على شيء من ذلك ، فقد امتن الله على آدم بخلق نبينا ﷺ من سلالة ، ثم بهذا الذي قررناه هنا يظهر الجواب عن سؤال قرره مبشروا البروتستانت خلاصته : إن القرآن يقول : ﴿ وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَكُلًّا جَعَلْنَا نَبِيًّا ﴾ (٤٩ : ١٩) ، ويقول : ﴿ وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِ النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ ﴾ (٢٧ : ٢٩) ، ويقول : ﴿ وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ نَافِلَةً ﴾ (٧٢ : ٢١) ، فقد تعرض القرآن للابن الصلي وابن الإبن وامتن بهما على إبراهيم ولم يذكر في هذا المقام ، مقام المنة إسماعيل مع انه ابن صلي ، فما ذلك إلا لكونه أحط في المنزلة جداً من أخيه وابن أخيه ، أو لكونه ليس أهلاً في الفضل بحيث يمتن به على أبيه ، هذه هي خلاصة جهالة مبشري البروتستانت ، وأما جوابنا على ذلك فإن هذا السؤال ناشئ عن عدم الوقوف على سائر آيات القرآن الكريم ، وإلا فقد قال تعالى في سورة الأنعام : ﴿ وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ - إلى أن قال - وإسماعيل ﴾ ، وقال إبراهيم في مقام الثناء على الله تعالى بهذه الهبة : ﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي وَهَبَ لِي عَلَى الْكِبَرِ إِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ ، إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعُ الدُّعَاءِ ﴾ (١٤ : ٣٩) ، فاستدلال البروتستانت على أن إسحق بل ويعقوب في نظر القرآن أهم من إسماعيل إنما هو نتيجة جهل بآيات القرآن الكريم .

ويعقوب عندنا نبي ورسول بحكم الآيات الكريمة والأحاديث الصحيحة ، وليس هو كذلك عند أهل الكتاب ، مع أن أسفارهم تصرح بأن الرب ظهر له وكله وبشره ووعدته بمواعيد جميلة (تك ٢٨ : ١٢ - ١٥) وكان هذا كله بدون

واسطة ، وهذا المقدار يدل على نبوته ، وقد ولد يعقوب سنة (٢٤٠٧ ق.ن) (١) وتوفي سنة (٢٢٦٠ ق.ن) فيكون عمره (١٤٧) سنة ، وهاجر لمصر هو وعائلته سنة (٢٢٧٦ ق.ن) .

الفصل الرابع

وقام تقي الدين المقدسي (٢) وقال :

في زوجات يعقوب عليه السلام

إن يعقوب رحل من « حبرون » الى « حاران » بين نهري العراق ليعيش عند خاله « لابان » وتزوج من هناك ، فوصل حاران وكان في طريقه على طرفها بئر وهناك ثلاثة قُطْمان غنم رابضة عند البئر ، لأنهم كانوا يسقون القطمان من تلك البئر التي في الحقل ، وكان على فم البئر حجر كبير فكانت جميع القطمان تجتمع هناك فيدحرجون الحجر عن فم البئر ويسقون غنمهم ، ثم يردون الحجر الى مكانه ، فقال يعقوب للرعاة : « يا إخوتي من أين أنتم ؟ » - قالوا : « نحن من حاران » ، - فقال لهم « هل تعرفون « لابان » بن « بتوئيل » بن « ناحور » ؟ » فقالوا : نعم ، - فقال لهم : « هل هو سالم بخير ؟ » - فقالوا : « هو سالم ، وهاهي « راحيل » ابنته آتية مع الغنم » - فقال : « لماذا لاتسقون غنمكم ؟ » - قالوا :

(١) ق . ن أي قبل النبي محمد صلى الله عليه وسلم سنة شمسية

(٢) نسبة الى بيت المقدس

« لا تقدر حتى تجتمع جميع رعاة القطعان ويدحرجوا الحجر عن فم البئر ، فمتى اجتمعوا رفعوا الحجر وسقى كل منهم قطيعه في نوبته » - وبينما هم يتحاورون أنت « راحيل » مع غنم أبيها « لابان » ، لأنها كانت ترعاها ، ولم تزل عادة العرب ونحوم من أهل البر الى اليوم ، وكان لما أبصر يعقوب بنت خاله لابان ، وغنم خاله لابان ، أن تقدم ودحرج الحجر عن فم البئر وسقى غنم خاله لابان ، وأعلن يعقوب لراحيل أنه ابن عمها « رفقه » وسلم عليها ، وسر سروراً عظيماً لما لقي من التوفيق بعد طول سفره وتعبه ، وأما راحيل فركضت وأخبرت أباه ، فما كان من لابان حينما سمع بخبر مجيء ابن أخته إلا أن ركض للقائه وعانقه وقبله وأتى به الى بيته ، فإنه كان تقضى عليه (٧٠) سنة لم ير في يوم منها أخته رفقه ، وحدث يعقوب خاله لابان بجميع أحوال الأسرة الإبراهيمية في كنعان ، وبكل ماجرى له وعليه ، فقال له خاله لابان : « لا تخف ، لقد نجوت ، إنما أنت عظمي ولحمي » ، فأقام عنده شهراً من الزمان ، ثم قال لابان لابن أخته يعقوب : « : الأناك قربي تخدمني مجاناً؟! أخبرني ما أجرتك؟ » ، تكلم لابان بذلك لأن يعقوب في مدة ذلك الشهر كان يخدم خاله لابان خدمة نافعة ، فلم يرد أن يذهب تبعه باطلاً ، فاستعد أن يعطيه الأجرة التي يريد ، وكان للابان ابتان ، اسم الكبرى « ليئة » واسم الصغرى « راحيل » ، وكانت عينا ليئة ضعيفتين ، وأما راحيل فكانت حسنة الصورة وحسنة المنظر ، وكان ضعف العينين في الشرق يُعد عيباً عظيماً ، وجمال العيون وصحتها من أحسن أنواع الكمال الخَلِيقِي ، وأحب يعقوب راحيل ، فقال : « أخدمك سبع سنين براحيل ابنتك الصغرى » ، فقال لابان : « لأن أعطيك إياها أحسن من أن أعطيها لرجل آخر ، فأقم عندي على هذا الوجه » ، - فخدمه يعقوب براحيل سبع سنين ، ثم قال يعقوب للابان : « أعطني امرأتى لأدخل بها ،

لأن أيامي المفروضة عليّ قد كملت ، - فجمع لابان جميع أهل المكان وضع وليمة حسب السنة المألوفة من قديم ، وكان في المساء أنه أخذ ليثة ابنته وأتى بها إليه ، وأعطاهها جارية من عنده لتخدمها اسمها « زلفة » ، وعندما عرف يعقوب أن هذه الزوجة هي ليثة وليست براحيس ، قال للابان : « ما هذا الذي صنعت بي ؟ ! أليس براحيل خدمت عندك ، فلماذا خدعتني؟! » - فقال لابان : « لا يفعل هكذا في مكاننا ، أن تعطى الصغيرة قبل البكر ، بل العادة أن تزوج الكبرى قبل الصغرى ، وإلا كان ذلك عاراً على الكبرى ، أكمل أسبوع هذه فنعطيك تلك أيضاً بالخدمة التي تخدمني بها أيضاً وهي سبع سنين آخر » - سمع يعقوب هذا الجواب من خاله فعذره ومالت نفسه لموافقته ، لأنه كان أحب راحيل ، لأنها أصغر وأجمل من أختها ، ولأنه كان رآها منذ أتى حاران ، قبل أن يرى أختها فحلت منه في المحل الأول .

ف فعل يعقوب ما أشار عليه خاله ، فأكمل أسبوع ليثة ، فأعطاه راحيل ابنته زوجة له ؟ وأعطاهها جاريته « بلاهة » جارية لها لتخدمها ، فدخل على راحيل أيضاً وأحبها أكثر من ليثة ، وعاد فخدم عنده سبع سنين آخر ، وبذلك يكون يعقوب قد عدد الزوجات ، جريباً على طريقة جده إبراهيم الذي كان تزوج هاجر فسارة فقاطورة ، أو على سنة عمه عيسو الذي كان تزوج باثنتين حشيتين ، ثم بثالثة هي بنت عمه إسماعيل واسمها « محلة » أو « بسمة » .

الفصل الخامس

وتابع المقدسي خطابه قائلاً :

في أبناء يعقوب

عما لا ريب فيه أن يعقوب لم يكن يحب «ليثة» بل كان يكرهها من حين تزوجه
براحيل ولم يكن يحبها، لكن الله تعالى أقام سبباً عادياً لمحبة زوجها لها بأن جعلها
ولوداً، وأما راحيل فكانت في مقابلة ذلك عاقراً، فجعلت ليثة وولدت ابناً
ودعت اسمه «رأوين» ومعناه «هوذا ابن» أو «ابن» أي انظر ابناً، تريد بذلك
وترجو أن زوجها ينظر لابنها فيحبها؛

ثانياً — جعلت أيضاً وولدت ابناً دعت «شتمون» ومعناه «الستمع» أو
«سَمْعاً» أو «سمعان» قائلة إن الله سمع دعائها .

ثالثاً — جعلت وولدت ابناً دعت اسمه «لاوي» ومعناه «مقتنرين» أو
«اقتران» راجية أن زوجها سيقترن بها بسبب هذا الولد .

رابعاً — جعلت وولدت ابناً دعت اسمه «يهوذا» ومعناه «حمْد» أو أحمد
الرب» ، وسمعت من بعض اليهود أن حقيقته العبرية الأصلية «يهودا» بالبدال المهملة،
ومعناه «الرب مشكور» لأن «يهو» معناه رب و «دا» معناه مشكور ، قال
ومنه اشتق الكلدانيون كلمة «يهود» على من كان في الأسر البابلي؛ ثم توقفت ليثة عن
عن الولادة وقتياً .

وأما راحيل فأنها لما رأت نفسها عاقراً غارت من أختها فقالت ليعقوب : « هب لي بنين ، وإلا فمن لا ابن له ميت ممن خلف ما مات » — فحمني غضب يعقوب على راحيل وقال : « أَلَمْ لَمِّي مكان الله الذي منع عنك ثمرة البطن ؟ ! ! » وهاج جداً ، لأنه كان يحبها ، ويجب إرضاءها ، ولكنه ماذا يصنع وقد سأله ما لا يستطيعه غير الله ؟ ، فقالت : « هذه جاريتي » بلهته « أدخل عليها ، فتضع ابناً أضعه على ركبتي ، ويكون كأنه ابن لي » ، فأعطته بلهته جاريتها زوجة له ، فدخل عليها ، فجلت وولدت له ابناً ، فقالت راحيل : « قد قضى لي الله وسمع صوتي وندائي وأعطاني ابناً من جاريتي » ، لذلك دعت اسمه « داناً » أي « قضاءً » أو « قاضٍ » ، ثم جلّت بلهته أيضاً وولدت ابناً ثانياً ليعقوب ، فدعت اسمه « نفتالي » ومعناه « مُصارعتي » ، قائلة : إني صارعت أختي وغالبتها ..

ونعود بالكلام الى ليثة ، لما رأت ليثة نفسها أنها توقفت عن الولادة ورأت أختها راحيل ما ذا صنعت ، أخذت جاريتها « زلفة » وأعطتها زوجة ليعقوب ، فولدت ابناً سمته ليثة « جاداً » ومعناه « طالع حسن » أو « جدّ » أو « توفيق » أو « إقبال » ، ثم ولدت زلفة ابناً ثانياً ليعقوب ، فدعته ليثة باسم « أشير » ومعناه « سعادة » أو « سعيد » .

— استطراد —

أقول : ومن هذا نعلم انه وجد في أبناء يعقوب من جاريتيه أربعة بنين ، وهم دان وفتالي من الجارية بلهته ، وجاد وأشير من الجارية زلفة ، وهؤلاء الأربعة هم من آباء الأسباط الإثني عشر ، وكثيراً ما نقرأ في كتب الجدل من أقلام المبشرين البروتستانت ، وكثيراً ما نسمع من أفواههم حين حوارهم معنا أنهم يقولون لنا : « أتم معشر العرب الإسماعيليين من أبناء هاجر الجارية ، وأما معشر الإسرائيليين

فأبناء ساراي الحرة.؛ وأذكر أنني مرة سمعت مبشراً كان يجادلني ويقول لي هذا القول: «إن أبناء الجارية أنزل وأحط من أبناء الحرة، وبالتالي فسلالة يعقوب أعلى وأشرف من سلالة إسماعيل» فقلت له: «وهل الأسباط الأربعة أعني الدانيين والنفتالين والجاديين والأشيريين إلا أولاد يعقوب من جاريته؟ فكيف تكون هذه الأسباط الأربعة، وهم أولاد الجواري، أعلى وأشرف من القبائل التي تفرعت عن إسماعيل؟»، على أن الله تعالى يقول: ﴿إِنْ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ اتَّقَاكُمْ﴾ (٤٩ : ١٣) ، فلما سمع جوابي انقطع وبُهِتَ كأنما ألجم حجراً .

— رجع وانعطاف —

قلنا : إن ليته إذا انقطعت عن الولادة مؤقتاً ، ولم تكن قد بلغت زمن الإياس فكانت عليها غير المقم ، ولذلك ولدت ولداً خامساً دعت «يساً كرم» وتفسيره «أجرة» أو «يأتي بأجرة» أو «توجد أجرة» ثم ولدت ولداً سادساً دعت «زبولون» وتفسيره «منزل» وقال بعضهم: معناه «خلاص الليل أو صدق حسن» وقال آخر: معناه «صدق ليلة أو مهر ليلة» وقال ثالث: معناه «مسكن» وبهذا ظهر أن أولاد يعقوب من ليثة ستة ، ثم أن راحيل دعت ربها أن يرزقها بالذرية ، فسمع الله لها واستجاب دعائها ، فولدت ابناً ، فدعت اسمه «يوسف» ومعناه «زيادة» أو «سيزيد» ولد سنة (٢٣١٦ ق . ن) وتوفي سنة (٢٢٠٦ ق . ن) فيكون عمره (١١٠) سنين ، وكان منذ نعومة أظفاره محبوباً لأبيه ، وفي الحديث « قيل : يا رسول الله من أكرم الناس؟ — قال أتقاهم — فقالوا : ليس عن هذا نسألك — قال فيوسف نبي الله بن نبي الله بن نبي الله بن خليل الله — قالوا : ليس عن هذا نسألك — قال: فمن معادن العرب تسألون؟ — قالوا : نعم — قال : فخيارهم في الجاهلية، خيارهم في الإسلام إذا فقهوا.» ، رواه البخاري في صحيحه ، وروي أيضاً : (الكرم

ابن الكريّم ابن الكريّم يوسف بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم .
ويوسف هو محور هذه الحكاية اللطيفة ومرجع القصة العجيبة ، وبطل هذه
الرواية اللذيذة ، وموضوع الحديث .

التشاؤم والتفاؤل مع اسم يوسف

قريء « يُؤَسَف » بالهمز وفتح السين المهملة ، وعليه فقد قيل : إنه منقول من
الفعل المضارع المبني للمجهول بعد تخفيفه بحذف الهمزة منه ، أي يُؤَسَفُ لأجله ،
وقريء « يُؤَسِف » بالهمزة وكسر السين ، وعليه فقد قيل : إنه منقول من الفعل
المضارع بعد حذف همزته تخفيفاً ، والمعجب أن حالة يوسف كانت في بدآءها مؤسفة
جداً ، فهذا غريب الاتفاق ، وهو انطباق الحادثة في الخارج على ما يشعر به
الإسم ، كما في قول الشيخ عمر بن الوردى :

قد قلت لما مر بي مفرطق يحكى القمر
« هذا أبو لؤلؤة منه خذوا ثأر عمر »

وقوله في صديق له صدّ عنه بعد توليته منصب الحكم :

« يا من تولى قاضياً هذا قضاء أم قدر »
« عذرك في هجراننا أن القضا يعمي البصر »

وبعد ؛ فالصحيح أن يوسف اسم أعجمي عبراني معناه « سيزيد » وليس بعربي
حتى يصح القول بما سبق ، ولكننا على كل حال نقول : كثيراً ما يتشأم الناس أو
يتفاءلون بالأسماء ، فقد روي أن الحسين (ض) لما انتهى الى طرف الكوفة قال
لبعض أصحابه : « ما تسمى هذه القرية ؟ » وأشار إلى المقبر فقالوا له : « اسمها

« المعقر » - فقال الحسين : « نعوز بالله من المعقر » ثم قال : « فما اسم هذه الأرض التي نحن فيها ؟ » - قالوا : « كربلاء » - فقال : « أرض كرب وبلاء » ، وأراد الخروج منها فمنع ، كما هو مذكور في قصة مقتله رضي الله عنه حتى كان ما كان . وقال الراوي في غزوة خيبر : إن الدليل انتهى برسول الله ﷺ إلى موضع له طريق إلى خيبر ، فقال « يارسول الله إن لها طرقاً تؤتي منها كلها » - فقال ﷺ : « سمها لي » ، وكان يجب الفأل والأسم الحسن ، ويكره الأسم القبيح ، - فقال الدليل : « لها طريق يقال له (حزن) - قال لا نسلكها » - « قال لها طريق يقال له (شاس)^(١) - قال لا نسلكها » - « قال لها طريق يقال له (حاطب)^(٢) - قال لا نسلكها » - قال بعض رفقاتهم : مارأيت كالليلة أسماء أقبح من أسماء سميت لرسول الله ﷺ » فقال لها طريق واحدة ولم يبق غيرها يقال لها (مرحب) - فقال ﷺ نعم نسلكها » - فقال عمر (ض) ألا سميت هذه الطريق أول مرة ؟

ثم قام نعمة الله الجنيني^(٣) وقال :

التشاؤم والتفاؤل من الأسماء

بمناسبة ما ذكره أخونا تقي الدين المقدسي ، زيد ههنا أن نذكر فلسفة في اسم (يوسف) وأبيه (يعقوب) وأمه (راحيل) وشقيقه (بنيامين) وبلده (حبرون)

(١) أي قليل

(٢) أصل الحطب القطع ، والأحطب الشديد الهزال أو المشؤوم

(٣) نسبة إلى جنين من أعمال فلسطين

نستخرج من مجموعها فالأحسناً ورجاءً مستملحاً لمستقبل يوسف، ولكن لا بد أن تقدم قبل ذلك نادرة عثرنا عليها في بطون التواريخ، عليها نبي كلامنا هنا فنقول : ذكر صاحب (الطرق الحكمية) قال مالك عن يحيى بن سعيد إن عمر بن الخطاب قال لرجل : « ما اسمك ؟ - قال جمرة - قال ابن من ؟ - قال ابن شهاب - قال تثنى ؟ - قال من الحُرْقَة - قال ابن مسكنك ؟ - قال بَحْرَة النار ! - قال أيها ؟ - قال بذات لظى ؟ !! - فقال عمر : أدرك أهلك فقد احترقوا ، فكان كما قال ، وقد قال الشاعر الحكيم :

وقلما أبصرت عينك من رجلٍ

إلا ومعناه في اسم منه أو لقبه

وقيل : لكل اسم من مسماه نصيب ، وقال الشاعر (١) :

ألا قد هاجني فازددت وجداً

بُكاءٍ حماتين تجاوبان

تجاوبتا بلحن أعجمي

على غصنين من غَرْبٍ وبان (٢)

إلى أن قال :

فكان (البان) أن بانت سليمي

وفي (الغرب) اغتراب غير داني

إذا تمهد هذا (فيوسف) اسم بطل هذه القصة لفظ عبراني معناه (سيزيد)

أو (زيادة) ، و (يعقوب) اسم أيه معناه (يمسك العقب أو (يعقب) أو

(١) هو جحدر بن مالك

(٢) الغرب والبان نوعان من الشجر

(يتعقب) أو (عاقب) أو (متعقب) خلاف بين المترجمين ، و (راحيل) اسم أمه
معناه (شاة) ، و (بنيامين) اسم شقيقه معناه (ابن القوة) ، و (حبرون) اسم
بلده و بلد أسلافه لفظ عبراني معناه (معاهدة) أو (مخالفة) ، وعلى هذا فلوفرض
وقدر أن يوسف سئل عما ذكر وأراد أن يجيب بألفاظ عربية لكانت الأسئلة
والأجوبة هكذا :

س - ما اسمك ؟

ج - سيزيد .

س - ما اسم أبيك ؟

ج - عاقب .

س - ما اسم أمك ؟

ج - شاة (والغم غنيمة) ؟

س - ما اسم شقيقك ؟

ج - ابن القوة .

س - ما اسم بلدك و بلد أسلافك ؟

ج - معاهدة أو مخالفة

وعليه فيكون تعليقنا على هذه الأجوبة أن نقول له : « حقاً إن لك مستقبلاً
باهراً ، فستزيد وتكون عاقباً كأبيك ، ونقاعاً كأمك ، وذا قوة كأخيك ،
وحليفاً لأولياء الأمور ، والعجيب أن كل هذا قد صار ، بتقدير اللطيف الخبير .

ثم إن يعقوب بمد ما كان سا كناً عند خاله لابان فيما بين النهرين في حاران
اشتاق إلى فلسطين وأهله فيها فقام من حاران بزوجاته وأولاده الأحد عشر ، وجاء .

فلسطين بعد عشرين سنة أقامها فيما بين النهرين ، وكان رجوعه لفلسطين بأمر من الله تعالى ، ثم ولد له (بنيامين) من زوجته راحيل ، وكانت ولادته قرب « بيت لحم » ، ومعنى بنيامين (ابن اليمين) أو (ابن القوة) أو (ابن يميني) وكان لطيفاً مطيعاً ومحبوباً من أبيه ومُعزّياً له في شيخوخته ولا سيما مدة غيبة أخيه يوسف وكل من قرأ قصة يوسف يرى محبته الغريبة لأخيه الصغير فإنه ألح على إخوته وهم لم يعرفوه بعد أن يحضره معهم إلى مصر فلما أحضروه ونظروه بكى وقبلته باشتياق لا مزيد عليه ، وأما سبط بنيامين فكان من جملة نصيبه من أرض الميعاد أو耶رشلیم التي هي بيت المقدس .

وبعد فلم يحدثنا التاريخ بينات يعقوب سوى واحدة من زوجته ليثة سميت « دينة » ، الأمر الذي نعلم منه أن يعقوب عليه السلام كان « مذكاراً » ولم يكن « مثنائاً » .

الفصل السادس

وقال العلامة سليم الخانيونسي^(١) وقال :

في تقليد المفسرين بعضهم لبعض .

إن هذه السورة على الأكثر هي نبذة تاريخية ، ولذلك فأكثر ما كتب عليها هو من هذا القبيل ، وبناء عليه فكل من قرأ هذه السورة مع ما علق عليها من التفاسير يكون قد حشر في دماغه لسورة يوسف وإخوته صورة مركبة ومستتبطة

(١) نسبة الى بلدة خان بونس من أعمال فلسطين

من مصدرين ، الأول كتاب الله تعالى ، والثاني كلام المفسرين ، فأما الأول فلا شيء عليه ، لأنه وحى أوحى من لدن الحق جل جلاله . وأما الثاني فلنا عليه ملاحظة ، ذلك أننا نرى كل مفسر جديد يتبع في النقل المفسر الذي سبقه ، ويقتدي به في فهمه وثقافته وفيما ينقل عن غيره مما هبّ ودرج ، من غير أن يفكر هو فيه بشيء !! ذلك لشدة ثقنتنا العمياء ، وتقاليدنا للآباء والمشايخ ، بلا تمحيص للحقائق ، مع أن هؤلاء المفسرين قد يكونون قد كتبوا ما كتبوا تحت تأثير العاطفة ، أو التقليد البحت ، وهذا هو منبع السم النافع لموت الحقائق ، ومصدر الجرائم القاتلة لروح التاريخ ، وعليه فانك ترانا نقدم الآن كلمة صغيرة في أول واجب على من يدرس تفسير هذه السورة الكريمة ، فنقول : كثير ممن اشتغلوا بسيرة يوسف وإخوته كانت عواطفهم تتحكم في حوادثها تحكماً تضع به الفائدة من دراسة هذه السيرة اليوسفية ، فإن عاطفة التقليد تجعل من ليس بنبيّ نبياً ، فتجهد في تأويل كبار حوادث هؤلاء بحمله على وجه ليس فيه غضاضة في شأنهم ، حتى ولو أدّى ذلك إلى مقاومة نصوص الكتاب الكريم! - عاطفة التقليد تجعل الحسن سيئاً ، والسيء حسناً ، فأهل هذه العاطفة لاهم عقليون ، حتى يقولوا بالتحسين والتقيح العقليين ، ولا هم نقليون حتى يقولوا بالتحسين والتقيح النقليين ولكنهم يزيدون مذهباً ثالثاً ، هو التحسين والتقيح التقليديين ، عاطفة التقليد تجعل الكبيرة صغيرة ، وتهون أمرها جداً متى كان من صدرت منه في وهم الناس عظيماً ، وتجعل الصغيرة كبيرة ، متى كان من صدرت منه في تقليد الناس حقيراً ، وربما لا تجد من جمهور المفسرين وجميع القصاص الذين فسروا لنا سورة يوسف ، وقصوا علينا أخباره مع إخوته - من محصوا الحقائق وعللوا الحوادث ، سوى نفر قليل جداً وجرماً قليل ، بل ربما لا يكون هذا النفر موجوداً إلا في عالم الخيال ، فلا بد أن نجعل أمام أعيننا أننا سندرس قصة يوسف وإخوته وأبيه ، وعزيز مصر وزوجه

وشاهد يوسف ، ونسوة المدينة ، ومليك مصر ، والفتيين ، وما إلى ذلك بكل دقة وتمحيص ، مع تحليل حوادثهم وفلسفة ما صدر عنهم من الأقوال ، وما تصفوا به من الأحوال ، بحيث يكون رائدنا العقل السليم ، وعضدنا النقل من أوثق المصادر ، غير حافلين بالعقائد التقليدية ، والمزاعم التي ليس عليها أثارة من علم ، والله من وراء القصد ، وهو يهدي السبيل .

(مرحى مرحى)

الفصل السابع

وقال الفهامة الريحاري^(١) :

في ابطال قصة يوسف

وان القصة صورة طبق الاصل لحياة الشعب الاسرائيلي

« هذه القصة التي في السورة تمثل لنا حياة يوسف ويعقوب وأولاده وميولهم وعواطفهم ، تمثل لنا (المرأة المصرية العتيقة) وأحوال الحكام المصريين ، تمثل حياة عقلية قوية ليوسف ، تمثل ما لإخوته من قسوة بربرية ومعاملة وحشية ، تمثل حياة أليمة محزنة بالنسبة ليعقوب ، تمثل خضوع المرأة المصرية العتيقة لسلطان شهوتها ، تمثل حياة رفق وأناة وعقل « لغو طيفار » عزيز مصر ، تمثل إنصاف

(١) نسبة الى بلدة أريحا في فلسطين

« الريان » ملك مصر في إسناده العمل لذي الجدارة ولو غريباً ، ثم على الإجمال إن هذه القصة تعطينا صورة لدرس حياة الشعب الإسرائيلي ، وما فيه من قسوة عند اللزوم ، ورقة حين الاقتضاء وخب وإساءة وإحسان ، ومع أن السورة تكفلت ببيان جميع ما أشرنا إليه ، (فيوسف) فقط هو موضوع هذه القصة التاريخية ، أو هو موضوع هذه السورة الشريفة ، ولذلك سميت باسمه ، وأما عزيز مصر « فوطيفار » وامراته « زليخا » ، والفتيان الخباز « ملحج » والساقى « نبو » ، والسيدات المصريات ، وحضرات أبيه المعظم ، وإخوته الأحد عشر ، ومليك الديار المصرية « الريان » ، وغير هؤلاء - فإنما ذكروا على حسابه ، فهو البطل الوحيد لهذه السيرة الجميلة اللذيذة . ولذلك فقد صرح باسمه في هذه السورة خمس وعشرين مرة ، ولم يصرح فيها بشيء من أسماء إخوته ولا مرة ، نعم ذكر فيها أسماء أصوله الذكور يعقوب وإسحاق وإبراهيم ، ولكن لا أولاً وبالذات ، بل ثانياً وبالعرض ، فافهموا أسرار القرآن وإلا فالسلام عليكم .

الباب الثاني

الفصل الأول

في متعلق البسملة

﴿ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ﴾

افتتحت الجلسة وتليت البسملة فقام المحدث مأمون الكرمي^(١) وقال :

إن المعنى الضمني في البسملة هو أن الله عز وجل يقول لنبيه ﷺ : إقرأ يا نبيي هذه السورة على عبادي باسمي ، أي أقرأها على إنها مني ، لا منك ، فأني برحمتي بهم أنزلها عليك ، لتعلم أنت مضمونها ، وتهدي قومك بها إلى ما فيه خيرهم ، في الدنيا والآخرة .

والنبي عليه الصلاة والسلام ، كان يقصد من متعلق البسملة : « أني أقرأ السورة عليكم أيها الناس باسم الله لا باسمي ، وعلى أنها منه لا مني ، فإنما أنا مبلغ عنه عز وجل » ، قال تعالى : « وَأَمْرٌ أَنْ أكونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ وَأَنْ أَتْلُوَ الْقُرْآنَ » (٢٧ : ٩٢ و٩١) ، وهكذا الواحد منا اليوم إذا قرأ السورة يقصد أنه لا يقرأها باسمه ، أي باسم نفسه ، بل باسم ربه سبحانه وتعالى ، ومثل هذا التعبير

(١) نسبة الى طول كرم من بلاد فلسطين

بنحو هذا المعنى مألوف عند جميع الأمم ، ومنهم العرب ، إذا أراد الواحد أن يفعل أمراً ما لأجل أمير أو عظيم يعلن أنه متجرد عن نسبة هذا العمل إليه ، ومنسلخ عنه فيقول : « أعمله باسم فلان » ويذكر اسم ذلك الأمير أو الحاكم ، أو الملك أو الرئيس ، ويقرب هذا استعمال ما زاه في الحاكم النظامية اليوم حيث يتدوون الأحكام قولاً وكتابة باسم القانون الفلاني أو باسم الدستور الفلاني أو باسم الشعب الفلاني ، ثم ما زاه عندما يريدون أن يضعوا حجر الأساس في بناء مسجد أو قلعة أو مدرسة أو مستشفى ، يقول الذي يضع حجر الأساس : « باسم الملك أو الرئيس أو الأمير فلان أو باسم الشعب الفلاني » .

على أن كل شيءٍ إنما يقرأ أو يقال أو يعمل ، بالاستناد إلى اسمه تعالى وحده ، أي بالارتكاز على إقداره تعالى وقوته « لأن العبد من دون الله ضعيف ، وعاجز جداً ، وههنا يجب أن نتذكر إنكار المسيح عليه السلام على القائلين له غلطاً منهم : « باسمك عملنا كذا » ، « باسمك قلنا كذا » ، كما ورد عنه أنه قال : « كثيرون سيقولون لي : يا رب أليس باسمك تنبأنا ، وباسمك أخرجنا شياطين ، وباسمك صنعنا قوات كثيرة ؟؟ حينئذ أصرح لهم أنني لم أعرفكم قط ، إذهبوا عني يا فاعلي الإثم ، (مت ٧ : ٢٢ و ٢٣) فالمسيح يحارب فكرة إسناد الشيء لاسم غير اسم الله ، لأن من يزعم هذا الإسناد ، هو غير فاعل إرادة الله ، أي غير ممثل لأمر الله ، بل الأخرى به أن يكون آثماً ، بمخالفة أمره تعالى .

مقدمة الشيء المقصود الذي انعقدت له سورة يوسف
كلمات القرآن مؤلفة من حروف الهجاء المعروفة لدى العرب

آ (١) ﴿الرَّاءُ!!! نِكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ﴾

تليت الآية الأولى فقام الامام القليبي (١) وقال :

إن من يدقق في آيات سورة يوسف عليه السلام ، التي تعدمئة وإحدى عشرة آية ، يجد أن الآيات الثلاثة الأولى هي بمثابة مقدمة للشيء المقصود الذي انعقدت له السورة ، إذ أنها تذكر أن هذا الكتاب ، وهو القرآن ، « مبين » وأنه « بلسان عربي » رجاء أن يكون مفهوماً متعلقاً ، وأنه « أحسن القصص » .
ويجد أن الآية الرابعة من قوله : ﴿ إذ قال يوسف لأبيه .. ﴾ إلى آخر الآية المتممة مئة وواحد هي الشيء المقصود ، الذي انعقدت له السورة : اليوسفية ، وكذلك الآيات العشر الأخيرة من قوله : ﴿ ذلك من أبناء الغيب .. ﴾ إلى آخر السورة ، فقد ذكرت ذبلاً أو خاتمة أو نتيجة ، وهي في الحقيقة ، أم ما في السورة لعلاقتها بأصول الدين .
(جيد جداً)

(الرّاء)

- ١ -

وبعد أن ألقى الامام القليبي كلمته العابرة السابقة تابع قائلاً عن الرّاء:

كلمات القرآن مؤلفة من حروف الهجاء المعروفة لدى العرب

أما رأيي في (الرّاء) فيقال فيها ما قيل في تأويل سائر حروف الهجاء التي

(١) نسبة الى بلدة ققلية من فلسطين

افتتح بها بعض سور القرآن ، وأحسن الأقوال فيها أنه تعالى ذكرها لتنبية العرب إلى أن القرآن إنما ألفت كلماته من جنس ما تؤلف منه كلماتهم ، أي من حروف الهجاء العربية المعروفة لديهم والتي تتلقفها الصبية منذ نعومة أظفارهم وصغرهم ، فلم ينزل القرآن بكلمات خارقة للعادة في حروفها ، مباينة للمألوف في مواد تركيبها ، فكيف مع هذا عجزوا عن الإتيان بمثله ، وتقهقروا عن تركيب جمل كجمله .

هذا بعض ما قالوه ننقله بكل تحفظ ، والمهدة على القائل لا على الناقل .

(الـو)

- ٢ -

وقال الفاضل البيساني (١) :

نظائر لفظة الـر في التوراة والانجيل

كنت سئلت عن هذا وأمثاله ، فقلت للسائل : لا أقدر أن أجيبك عن هذا إلا بنصف العلم ، وهو «لا أعلم» ، لأن الصحاح والمصباح والقاموس والأساس والفائق والمختص ولسان العرب وما إلى ذلك من سائر أسفار اللغة العربية كلها تقف هنا مكتوفة الأيدي ، خارسة الألسن ، ولم يرد في نحو ذلك نقل عن المعصوم ، فإذاً ليس لنا إلا أن نقول : هذا من قبيل المخبرات السرية المسماة بالجفر أو الشفرة التي يراد منها أن لا يفهما أحد سوى من أرسلت إليه ، ونظيره لفظة «هـلـلـوـيا» التي وردت كثيراً في صدر أو ختام الزامير ، كما وردت أيضاً أربع

(١) نسبة إلى بلدة بيسان من فلسطين

مرات في (سفر الرؤيا)، فإن المتمد عند مفسري اليهود والنصارى بعد احتمالات كثيرة أنها من قبيل الألفاز والأحاجي ، وقريب من هذا (سفر الرؤيا) عند النصارى ، خصوصاً منتصفة فإنه كما قال الدكتور جورج بوست « مظلم كدجى الليل ، وقال : إن هذا السفر مشحون بمسائل محيرة » وهكذا يوجد من قبيل الألفاز شيء كثير في سفري دانيال وحزقيال ، كما اعترف أهل الكتاب بذلك فمن اعترض علينا من متأخري المسيحيين بأن لا فائدة من فواتح السور هذه لأن معناها غير مفهوم ، أجنبناه بما ذكرنا من قبيل ألفاظ وقعت عندهم ، بل بجمل غير مفهومة إلا لخواص عباده ، كالأنبياء الذين نزلت عليهم هذه الكلمات .
هذا ما أمكنني أن أذكره هنا كمخبرة في « تلفون »

(أصوات من عدة جهات : بخـ بخـ)

(الـر)

- ٣ -

وقال المدقق الادي (١) :

الـر - البب المتكررة في القرآن

حكمة افتتاح هذه السورة وأمثالها بأسماء حروف ليس لها معنى مفهوم غير مسمى تلك الحروف التي يتركب منها الكلام - هي تنبيه السامع إلى ما سيلقى إليه بعد هذا الصوت من الكلام حتى لا يفوته منه شيء ، فهي كأداة الإفتتاح « ألا » كأداة التنبيه « ها » ، وكلفظة « آلو » التي يستعملها أهل اليوم عند بدء

(١) نسبة الى بلدة اللد من فلسطين

التكلم بالتلفون للاتباه والإصغاء ، إذ من حسن البيان وبلاغة التعبير التي غايتها إفهام المراد مع الإقناع والتأثير أن ينبه المتكلم السامع إلى مهمات كلامه والمقاصد العليا منه ، ويحرص على أن يحيط علم المخاطب بما يريد به هو منها ، ويجتهد في إزالتها من نفسه في أفضل منازلها ، ومن ذلك التنبيه لها قبل البدء بها ، لكيلا يفوته شيء منها .

قال بعض المتقدمين : إن الكفار لما قالوا : ﴿ لَا تَسْمَعُوا هَذَا الْقُرْآنَ وَالنَّغْوَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ (٤١ : ٢٦) ، وتواصوا بالإعراض عنه جاء القرآن بهذه الحروف ، فكانوا إذا سمعوها قالوا كالمتعجبين : « اسمعوا إلى ما يجيء به محمد » ، فإذا أصغوا هجم عليهم القرآن ، فكان ذلك سبباً لاستماعهم ، وطريقاً إلى انتفاعهم ، وإنما لم تستعمل الكلمات المشهورة في التنبيه مثل (لا) و (أما) و (ها) ، لأنها من الألفاظ التي تعارفها الناس في كلامهم ، والقرآن كلام لا يشبه الكلام ، فناسب أن يوثق فيه بألفاظ تنبيه لم تعهد ، ليكون أبلغ في قرع سمعه ، وإتينا لا نلتزم أن يكون كل استعمال في القرآن أو في كلام البلغاء معهوداً في كلام الناس من قبل لاستنزاه ذلك نفي الابتكار ، وإن كل استعمال يجب أن يكون قديماً معروفاً في الجاهلية ، وذلك باطل بالبداهة ، فكم في القرآن والحديث من أبتكار الأساليب الحسان ، وما من بليغ إلا وله مخترعات في البيان ، لم يسلك فجاجها من قبله إنسان ، وإليك بعض الأمثلة على ذلك :

(١) - قوله تعالى : ﴿ وَلِكُلِّ جَعَلْنَا مَوَالِيَ مَا تَرَكَ : الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ وَالَّذِينَ عَقَدْتُمْ أَيْمَانَكُمْ ﴾ (٤ : ٣٣) فالمراد بقوله (والذين عقدت أيمانكم) الأزواج ، فإن كل واحد من الزوجين له حق الإرث بالعقد ،

فهذا استعمال للقرآن مبتكر ، إذ لم يعهد في كلامهم إضافة عقد النكاح لليمين ، وماخذه أن المتعارف عند الناس في العقد أن يكون بالمصافحة باليمين .

(٢) - قوله ﷺ : (يا خَيْلَ اللَّهِ اركبي) .

(٣) - قوله تعالى : ﴿ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ﴾ فإن هذه البسمة من ابتكار القرآن ، فإن العرب إنما كانوا يقولون : « باسمك اللهم » ، وقد ورد في القرآن الكريم في قصة سيدنا سليمان أن البسمة استعملها سيدنا سليمان في كتابه إلى بلقيس بقوله تعالى : ﴿ إِنَّهُ مِنْ سُلَيْمَانَ وَإِنَّهُ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ، أَلَا تَعْلَمُونَ عَلَيَّ وَائْتُونِي مُسْلِمِينَ ﴾ (٣١ : ٢٧) .

(٤) - ما لا يستحيل بالانعكاس ، وهو نوع من أنواع البديع التي ابتكرها القرآن ، ومثله ﴿ رَبِّكَ فَكَبِّرْ ﴾ (٣ : ٧٤) ، ﴿ كَذَّبُوا فِي فَلْسِكٍ ﴾ (٣٣ : ٢١) .

(٥) - قوله تعالى : ﴿ وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ ﴾ (٢ : ١٧٩) فإن أحداً من العرب لم يستعمل هذا التركيب .

(٦) - ما في قوله تعالى : ﴿ فَالصَّالِحَاتُ قَانِتَاتٌ حَافِظَاتٌ لِّلْغَيْبِ ﴾ (٣٣ : ٤) فالغيب هنا هو ما يستحي من إظهاره ، أي حافظات لكل ما هو خاص بالزوجية حتى ما يدور بينهن وبين أزواجهن في الخلوة ، ولا سيما حديث الرفث ، فما بالك بحفظ العرض؟! فهذه العبارة هي من دقائق كُنَايَاتِ التَزَاهَةِ ، وهي من استعمالات القرآن المبتكرة .

وإن كثيراً من الألفاظ العربية خُلِقَ في العصر الإسلامي ، قال ابن جني في الخصائص : « إن العربي إذا قويت فصاحته ، وسمت طبيعته ، تصرف وارتجبل ما لم يُسْبِقْ إليه ، فقد حُكي عن رؤُوبَة وأبيه أنها كانا يرتجلان ألفاظاً لم يسمعاها . ولا سُبِقا إليها ، هذا ما رأيته نقلته ، وهل أنا إلا من غزيرة . »

« آيات »

- ١ -

قال الأستاذ دمشقي البائمرجي (١) :

معنى آيات القرآن

ترد كلمة « آيات » في القرآن لسنة معان :

الأول - بمعنى الجمل المنزلة على النبي ﷺ المقروءة باللسان ، ويقال لها في غير القرآن فواصل وسجعات وفقر ، وفيه قولهم مثلاً : « سورة يوسف مئة وإحدى عشرة آية » ، والفاتحة مثلاً « سبع آيات » وهكذا .

الثاني - بمعنى العلامات ، قال النابغة الذبياني :

توهمت آيات لها فعرفتُها

لستة أعوامٍ وذا العامُ سابعُ

ومنه العلامات التي أقامها الله في الأنفس والآفاق الدلالة على وحدانيته
وكماله وتنزيهه .

الثالث - المعجزات الخارقة للعادة ، التي أجراها الله على أيدي رسله ، ولعله
قيل لها آية ، لأنها علامة .

الرابع - بمعنى العبر والذِكْر والحِكْم والمعِظَات ، التي تؤخذ مما ينزله الله
على نبيه ﷺ . وسيأتي في هذا المعنى قوله : ﴿ لقد كان في يوسف وإخوته آيات ﴾

(١) نسبة إلى حمي باب سريجة في دمشق

للسائلين ﴿ (ع ٧) فالآية فيه بمعنى العبرة ، كما سيأتي له يقول : ﴿ لقد كان في قصصهم عبرة لأولي الألباب ﴾ (ع ١١١) .

الخامس - بمعنى جماعة الحروف ، قال أبو عمرو : « خرج القوم بآبئهم أي بجماعتهم » ولعل هذا يرجع للأول .

السادس - بمعنى العجيبة ، لأنها عجب من العجائب ، ولعل هذا يرجع للثالث .
وأما الكلمة (آيات) فيما نحن بصدد المحاضرة عليه فيمكن أنه من النوع الأول ، ويمكن أن يكون من النوع الثالث ، والله تعالى أعلم .

(الكتاب)

- ١ -

وقال المحقق الشهاب الرملي (١) :

اسماء القرآن

ما هو المراد من كلمة « كتاب » ؟

غير خاف على أحد أن الأمة العربية قبل الإسلام ، كانت أمة أمية ، يقل فيها وجود من يعرف القراءة والكتابة ، معرفة جيدة ، وكان جل اعتمادهم في جميع ما يروونه من أنسابهم وأشعارهم وغيرها ، على حفظهم لها في صدورهم ، ولم يعرف أنه كان عندهم كتاب ما من الكتب ، في أي موضوع كان ، وغاية ما كانوا يفهمونه

(١) نسبة الى الرملة من بلاد فلسطين

من لفظ « كتاب » أنه صحيفة مكتوب عليها، من نحو الجلود أو العظام أو الحجارة أو الجريد ، والصالح للكتابة من كل من هذه الأشياء - كان لديهم قليلاً ، ولذلك لم يستغنوا بنوع واحد منها عن باقيها، ولم يكن عندهم « الورق » الذي نعرفه الآن، بل هذه الكلمة « ورق » ما كانت تطلق عندهم إلا على ورق الشجر ، وعلى رقائق من الجلود رقيقة ، والإطلاق الأخير مستعار من الأول .

هذا .. وإن ما ورد في كلامهم من لفظ « كتاب » كانوا يريدون به ما يطلق عليه في عرفنا اليوم لفظ « خطاب » أو جواب أورقيم أو تحرير أو مكتوب، ومنه قول سليمان عليه السلام : ﴿ إِذْ هَبْ بَكُتَابِي هَذَا ، فَأَلْقِهْ إِلَيْهِمْ ﴾ (٢٧ : ٢٨) ، ومنه كُتِبَ النبي ﷺ إلى الملوك ، يدعوهم إلى الإسلام . ومثل الكتاب - السفر والزبور والدفتر والسجل ، كما قال تعالى : ﴿ يَوْمَ نَطْوِي السَّمَاءَ كَطَيِّ السِّجِلِّ ﴾ للكتُب ، (٢١ : ١٠٤) أي كطي الدفتر للمكتوبات فيه ، فمعاني هذه الألفاظ كلها متقاربة ، ولكن ما كانوا يفهمونها ، كما نفهمها الآن ، ولذلك لما جمع القرآن بعد النبي ﷺ ، اختلفت الصحابة في ماذا يسمونه به وتوقفوا ، لأنهم لم يعهدوا مثله من قبل ، ثم استقر رأيهم أخيراً على تسميته « بالمصحف » تبعاً لأهل الحبشة ، في تسمية مجموعاتهم بذلك ، والمصحف الكتاب ، بالمعنى الذي نفهمه نحن الآن عند الاطلاق ، لأنه مأخوذ من أَصْحَفَ : أي جمع ، وكل صحيفة كتاب عند العرب كما ذكرنا ، كما في قوله تعالى : ﴿ قُلْ مَنْ أَنْزَلَ الْكِتَابَ الَّذِي جَاءَ بِهِ مُوسَى ؟ ﴾ (١٦ : ٩١) ، وقوله . ﴿ ذَلِكَ الْكِتَابُ ، لَا رَيْبَ فِيهِ ﴾ (٢ : ٢) وقوله : ﴿ كِتَابٌ أَنْزَلَ إِلَيْكَ ﴾ ، فللمراد « بالكتاب » في جميع هذه الآيات : الوحي المكتوب بقطع النظر عن كيفية كتابته ووضعه ، والقرآن حين نزول هذه الآيات لم يكن تاماً ولا مجموعاً ، وإنما المراد ما كان يوحى في ذلك الوقت ، فيكتب ،

ولذلك ، فسور القرآن كل منها ، ككتاب قائم بذاته ، كما قال تعالى : ﴿ رسولٌ من الله يتلوه صُحُفًا مُطَهَّرَةً ، فيها كُتِبَ قِيمَةٌ ﴾ (٩٨ : ٢) أي ان تلك الصفائف تحتوي على خطابات أو تحارير ، أو مكاتب قيمة ، فلفظ « الكتاب » هنا يراد به السورة ، أو القطعة التي أنزلت على النبي ﷺ ، كما قد يطلق ويراد به جميع ما أنزل عليه .

فلفظ الكتاب كلفظ القرآن ، قد يطلق ويراد به بعضه ، كما في قوله : ﴿ شهرٌ رمضانَ الذي أنزلَ فيه القرآنُ ﴾ (٢ : ١٨٥) أي بعضه أو جزء منه ، كما قد يطلق ويراد به جميع ما في المصحف الشريف .

وكذلك « أهل الكتاب » من العرب ، لم يكن عندهم سوى أجزاء قليلة من التوراة والانجيل ، مكتوبة على قطع متفرقة من الجلود ، أو نحوها ، ولذا وصفهم القرآن الشريف بقوله : ﴿ ألم تر إلى الذين أتوا نصيباً من الكتاب ﴾ (٣ : ٢٣) وخطبهم بقوله : ﴿ يا أهل الكتاب قد جاءكم رسولنا مبيناً لكم كثيراً مما كنتم تخفون من الكتاب ﴾ (٥ : ١٥) وقال فيهم : ﴿ ونسوا حظاً مما ذكروا به ﴾ (٥ : ١٣) ، وقال لهم : ﴿ قل من أنزل الكتاب الذي جاء به موسى نوراً وهدى للناس ، تجعلونه قراطيس تبدونها وتخفون كثيراً ؟ ﴾ أي صحفاً متفرقة (٦ : ٩١) ولكن لم تكن من الورق المعروف ، لأنه لم يكن حادثاً ، بل كانت من الجلود أو نحوها ، وقال أيضاً ﴿ فويل للذين يكتبون الكتاب بأيديهم ، ثم يقولون : هذا من عند الله ، ليشتروا به غناً قليلاً ، فويل لهم مما كتبت أيديهم ﴾ (٢ : ٧٩) ، فهذا كله ، يدل على أن كتبهم المقدسة ، ما كانت تامة ولا محصورة بين دفتين ، بحيث لا تقبل الزيادة ولا النقصان ، وإنما كانت مبعثرة في رقاع منثورة ، وإن بعض صحفهم كان حقاً

والبعض الآخر كان باطلاً ، أما ما ورد في القرآن من نحو قوله تعالى ﴿ وكيف يُحْكُمُونَكَ ، وعندم التوراة فيها حُكْمُ اللَّهِ ؟ ﴾ (٥ : ٣٢) فمعناه : أن عندم أجزاء من التوراة ، كسفر اللاويين أو التثنية ، فيها حكم الله ، في المسألة التي تحاكموا فيها إلى النبي ﷺ ، فهذا كما يطلق لفظ القرآن ويراد به أجزاء منه ، أو جزء واحد ، كما تقدم (كذا حققه الدكتور توفيق صدقي) .

ومن أسماء القرآن المذكورة فيه « القرآن » كما في : ﴿ فلا أقسم بمواقعِ النجوم - وإنه لَقَسَمٌ لَوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ - إنه لقرآنٌ كريمٌ ﴾ (٥٦ : ٧٥ - ٧٧) وهذا أشهرها .

ومنها « الفرقان » كما في ﴿ تبارك الذي نزل الفرقانَ على عبدي ليكونَ للعالمينَ نذيراً ﴾ (٢٥ : ١)

ومنها « رُوح » كما في : ﴿ وكذلك أوحينا إليك رُوحاً من أمرنا ﴾ (٤٢ : ٥٢)

ومنها « الذِّكْر » ، كما في : ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ كَثْرًا وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴾ (١٥ : ٣)

ومنها « النور » ، كما في : ﴿ فَأَمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَالنورِ الَّذِي أَنْزَلْنَا ، وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴾ (٦٤ : ٨)

ومنها « أحسن القصص » ، كما في ، ﴿ نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ ﴾ (١٢ : ٢)

ومنها « الحكمة » ، كما في قوله تعالى ﴿ وَأَوْذَكَ بِمَا أَوْحَى إِلَيْكَ رَبُّكَ مِنَ الْحِكْمَةِ ﴾ (١٧ : ٣٩)

(المين)

- ١ -

قال المؤرخ البيهقي :

بيان القرآن وسهولته

امتاز كتاب الله تعالى على سائر الكتب السماوية والوضعية بالبيان والظهور وسهولة فهمه وشدة إباته لمعانيه ومراميه ، فكانت العرب لا تتوقف في فهم مفرداته ، وجمله ، وأما أهل اليوم فإنهم لبعدهم عن العربية وإجمالهم لها تراهم يسر عليهم بعض مفردات تعد على الأصابع ليس بينهم وبين الوقوف على معانيها سوى مراجعة قاموس لغة أو سؤال عالم من العلماء . وأما الكتب عند أهل الكتاب فليست كلها مبيّنة ولنضرب مثلاً لذلك « كتاب دانيال » الموجود بين أيديهم اليوم فإنه ليس « مبيّناً » بل هو كالألغاز والرموز لا يفهم إلا بعناء ، وهكذا « سفر حزقيال » و « سفر الرؤيا » خصوصاً منتصفه ، ففي ذلك كله غوامض ومشكلات وقع الاشتباه فيها وأوقعت مفسريها في حيرة شديدة ، والذي زاه في شأن ما يسمونه « بالمهد الجديد » أن حوارى المسيح أنفسهم ما كانوا يفهمون كل ما يخاطبهم به من المواعظ والأمثال ، ولكن لم ينقل إلينا أن صحابة رسول الله ﷺ عمي عليهم شيء من آيات القرآن الكريم فلم يفهموها ، فالقرآن ، يمتاز على سائر الكتب بأنه هو « الكتاب المين » ، ولكن المسلمين المتأخرين لم يرضوا بأن يمتاز القرآن بالبيان الذي ليس بعده بيان ، فحاولوا تفضيحه والتسليم بأنه غامض قالوا إلا أفراداً من الناس أوتوا علماً جماً ، وفاقوا سائر البشر بقولهم وأفهامهم ،

كما فاقوم ، بطومهم ومعارفهم ، ثم زعموا أن هؤلاء الأفراد كانوا في بعض القرون الأولى ، كمثل من يسمونهم « بالمجتهدين » مثلاً ، وأنهم قد انقرضوا ، ولم يأت بعدهم سولن يأتي من يسهل عليه أن يفهم آيات هذا الكتاب « المبين » !!! وتجد هذا القول المناقض للقرآن الكريم والناقض له مسليماً بين جماهير المسلمين ، حتى الذين يدعون بآياتهم « علماء الدين » !!!

أصوات من الجميع (مرحى مرحى)

« المبين »

- ٢ -

وقال الاستاذ البصري :

الناسخ والمنسوخ في القرآن

يقول الله تعالى : ﴿ الكتاب المبين ﴾ ، وسيأتي في آخر السورة أن يقول : ﴿ وتفصيل كل شيء ﴾ ، وهدى ورحمة لقوم يؤمنون ، ، وهذا النص وأمثاله الكثيرة جداً في القرآن ، يملنا أن القول بوجود النسخ في القرآن ، ضيف جداً ، وأن يكن هو مذهب الجمهور ، والقول القوي إنه لا نسخ فيه ، كما هو مذهب أئبي (ض) ، الذي ورد في حقه : انه أقرأ الصحابة ؛ ومذهب أبي مسلم الخراساني ؛ ولم يري إن القول بأنه يوجد في القرآن ناسخ ومنسوخ ، وإن الناسخ قد يكون مكتوباً قبل المنسوخ ، كآية العدة في سورة البقرة (آ . ٢٤) : قالوا هي منسوخة بما في (آ ١٣٤) مع أن ذلك ينافي حسن ترتيب الآيات في سورها ، وإن القول بأن

هذه منسوخة وهذه ناسخة ، مع عدم تمييز هذه من هذه ، وإن القول بأن الله يترك عباده يتخبطون في أمور دينهم ، حتى سهل على هذا المفسر أن يقول : « إن الآية الفلانية منسوخة » ذلك لما تراهي أنها معارضة بآية أخرى ، ثم يأتي مفسر آخر ، فيقول ليست منسوخة ، بل نفس المفسر الأول ، متى ظهر له عدم معارضتها لآية أخرى تراه فوراً ، يرجع عن قوله بالنسخ - كل هذا ينافي ما ورد من أن القرآن « كتاب مبين » ، « وأنه تفصيل لكل شيء وهدى ورحمة للمؤمنين » ، لأنه إذا كان مذهب النسخ صحيحاً ، أفليس من الإبهام وعدم البيان ، أن يكون القرآن خالياً من التنبيه على ما نسخ ، وعلى ما لم ينسخ ؟ أوليس من أعجب العجب أن لا يوجد عند القائلين به ، حديث واحد ، متفق عليه ، عن رسول الله ﷺ ، يعتبر نصاً قاطعاً صريحاً على أن الآية أو الآيات الفلانية ، نسخت بالآيات الفلانية ؛ وما بالهم لم يتفقوا على عدد مخصص للآيات المنسوخة ؟ ولم يتركوا دعواهم النسخ في آية ، متى تحققوا أن لا تعارض بينها وبين غيرها ؟ وكل ما روي في النسخ ، هو من قبيل روايات الآحاد ، وكما أن القرآن لا يثبت بروايات الآحاد ، فكذلك النسخ لا يثبت بروايات الآحاد .

(هذا ما حققه الدكتور توفيق صدقي رحمه الله)

« المبين »

- ٣ -

وقال المحقق المنفلوطي

المشابهات في القرآن

لقد ذكروا سؤالاً في صدد كلمة « مبين » صورته : قد وجد

في القرآن متشابهات ، أي وجد فيه آيات تشابهت وجوه دلالتها على معانيها القريبة والبعيدة ، حتى أنه ليتسنى لأصحاب الزيف تأويلها بالباطل و صرفها إلى غير الصواب فكيف مع هذا يكون القرآن مبيناً ؟ والجواب : هذا المقدار أمر لامندوحه عنه ، لأنه ضروري في حد ذاته ، وذلك أن أم ما يجيء به الوحي هو العلم بالله تعالى ، وبما لم الغيب ، ومن المعلوم أن الناس ، وضعوا ألفاظ اللغات ، لما يعرفون من المعاني في هذا العالم ، فيتمين على من يريد إخبارهم بشيء . مما لا يعرفون ، أن يستعير بعض ألفاظهم الموضوعه لما يعرفون ، وينصب القرائن لمنع الاشتباه ، ولا شك أن أفهام الناس ، تختلف في فهم القرائن ، وأن الذي يريد الفتنة ، يسهل عليه أن يتبع ما تشابه من القول ، لأن له معنى يدل على وضع له في الأصل ، ومعنى آخر تناوله بالكناية أو بالاستعارة وغيرها من ضروب التجوز ، وهو المراد ، فيحمله على غير المراد ، ويضل به الناس .

مثلاً : فرضاً وتقديراً إذا أطلق نبي من الأنبياء على الله تعالى لفظ « الأب » في مقام بيان الرحمة ، وعنايته بخلقه ، حملة أهل الزيف على الأبوة الحقيقية ، وقالوا إنه أبوه الذي ولده ، ويصرفون من يفتنونهم عن القرائن العقلية التي تحيل الأبوة الحقيقية على الله تعالى ، كما يصرفونهم عن القرائن القولية التي تطلق لفظ « الأب » على كبار أهل الدين ، كما يقولون عن البطريك مثلاً « أبونا » . تنقل النصراني أن المسيح عيسى ابن مريم عليه السلام قال « إني ذاهب إلى أبي وأبيكم » فسوّى بينه وبين حواربه ، في أبوة الله له ولهم ، فذاك قرينة على أن هذه الأبوة مجازية ، وعلى انها ليست خاصة بالمسيح ، وكذلك يقال في لفظ «الأبن» إذا أطلقه نبي على نفسه، فإن أهل الزيف يحملونه على البنوة الحقيقية مع قيام القرائن الفعلية واللفظية على إحالة

ذلك ، ومن ذلك إطلاق لفظ « الأبن » على صانع السلام ، فيما يقولونه عن المسيح عليه السلام : « طوبى لصانعي السلام ، لأنهم أبناء الله يُدْعَوْنَ » (مت ٥ : ٩)
 والخلاصة إنه لعدم اقتدار اللغة عن تعيين المراد من نحو صفات الله وعلم الغيب فلا مندوحة عن أن نستعمل فيها الألفاظ التي لها معنى مراد ، ومعنى غير مراد ، ومن هنا كانت تلك الألفاظ متشابهة غامضة ، ولكنها لما كانت محفوفة بالقرينة التي تبين المعنى المراد ، كانت مبينة لذلك المعنى ، موضحة له ، وبذلك خرجت عن كونها غامضة ، وأن كل كتاب سماوي ، لا يخلو عن أمثال لذلك ، فمن أمثلة من نظر في متشابه الإنجيل ، وغفل عن القرائن الدالة على المعنى الصواب - فِرَقُ المثلثة ، ومن أمثلة من نظر في متشابهه ، ولكن حكم القرائن العقلية واللفظية ، فاهتدى إلى صوابه - فرقة الأريوسيين الموحدة ، وكذا من أمثلة من نظر في متشابه القرآن ، وعرف القرينة الصارفة عن الباطل الباطل ، المُعْتَمِدُ للمعنى الصحيح - فرق أهل السنة والجماعة والسلف الصالح ، ومن أمثلة من نظرُوا في متشابهه ، وغفلوا عن القرينة الهادية للمعنى الصواب - الباطنية والمجسمة والحلولية ، وما الى ذلك .

(مرحى)

زول القرآن

آ (٢) ﴿ إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾

(أنزلناه)

- ١ -

افتتحت الجلسة وتليت الآية الثانية فقام الفهامة الريحاموي (١) وقال :
 (أنزلناه) أي باللفظ والمعنى على قلبك يا محمد - لأن الضمير يعود على القرآن ،

(١) نسبة الى أريحا من بلاد فلسطين

وهو اسم للفظ والمعنى ، كما أن القول هو كذلك في آية ﴿ إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ، ذِي قُوَّةٍ عِنْدَ ذِي الْعَرْشِ مَكِينٍ ، مُطَاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ ﴾ (١٨: ١٥-١٨) ودليلنا أن القرآن بنصه ومعناه نازل على قلب الرسول ﷺ قوله تعالى : ﴿ قُلْ مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِحَبْرَةَ جَبْرِيلَ ، فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَى قَلْبِكَ بِإِذْنِ اللَّهِ ، مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ ، وَهُدًى وَبُشْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ ﴾ (٢ : ٩٧) ، وقوله تعالى : ﴿ وَإِنَّهُ لَنَنْزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ ، نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ ، عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ ، بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ ﴾ (٢٦ : ١٩٢ - ١٩٥) ، فيؤخذ من هاتين الآيتين أن الوحي بالقرآن الكريم هو أن يُلقِي رُوحُ اللَّهِ الْأَمِينُ في رُوحِ الرَّسُولِ ﷺ ما شاء من الآيات والسور ، فالعبارات القرآنية بنصها وفصها المألوف اليوم كانت تلقى في قلبه دون كسب ولا اختيار ، ولكن وحيًا يوحى ، ودون أن يكون النبي ﷺ هو الناسج لبردتها ، والمبدع لسبكها ، بل هو إلهام رباني يودع في عقله دون أن يكون لمقدرة النبي وفصاحته دخل في صياغتها ، وتعمّل في ترتيبها ، وإنما هو يخبرنا بنفس اللفظ والمعنى الذي تنزل على قلبه ، دون تفسير ولا تبديل ولا زيادة ولا نقصان ، ولا استعمال قريحة ، ولا استخدام لباقة ، قال تعالى ﴿ وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ ، إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ ، عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَىٰ ﴾ (٥٣ : ٣ - ٥) هذا ما رأيته في كلام بعض المصريين العصريين ، فتأمله فلعلك أحسن منه خبراً .

(أنزلناه)

- ٢ -

قال الإمام القلقيلي^(١) :

مامعنى انزال القرآن الكريم

« أنزلناه » أوحينا إليك به ، وإنما عبر عن الوحي بذلك للاشعار بعلو مرتبة الوحي على الوحي إليه ، أو للاشعار بعلو مرتبة ذلك الشيء الموحى ، ويصح التعبير بالإنزال عن كل عطاء منه تعالى ، كما قال ﴿ وَأُنزِلَ لَكُمْ مِنَ الْأَنْعَامِ ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ ﴾ (٣٩ : ٦) ومارؤي البعير والبقر والشاء نازلاً من السماء بالانتقال ، بل هي مخلوقة في الأرحام ، فلازها معنى يليق بها ، هو إعطاؤها فضلاً ومنة منه تعالى ، وقال جل شأنه : ﴿ وَأُنزِلْنَا الْحَدِيدَ ﴾ (٥٧ : ٢٥) ، ومعلوم أن الحديد لم ينزل من السماء ، بل صعد من بطن الأرض ، ولكنه لما كان عطاءً من الله تعالى عبر عنه بالإنزال .

ولما سمع الأستاذ الخبير البرقاوي^(٢) هذا الخطاب ، استأذن من الرئيس

وصعد على منبر الخطابة وقال :

أيها السادة ، سمعت ما قاله الأخ الإمام القلقيلي حفظه الله ، وإني أضمت صوتي إلى صوته ، لكنني أريد أن أزيد على كلامه كلمة صالحة تزيده فهماً ووضوحاً :

كلمة (نزل) وما اشتق منها لم تستعمل في كلام العرب إلا فيما يأتي من الفوق

(١) نسبة الى قلقيلية من اعمال فلسطين

(٢) نسبة الى برقة من اعمال ليبيا

إلى التحت ، قال تعالى : ﴿ يَتَلَمَّسُ مَا يَلِجُ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنْزِلُ مِنْ السَّمَاءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا ﴾ (٣٤ : ٢) ، فالذي ينزل من السماء الأمطار والثلوج والبرَد والصواعق والأرزاق والملائكة وأنواع البركات والمقادير ، وقال تعالى : ﴿ يَا بَنِي آدَمَ قَدْ أَنْزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا يُبَارِي سَوْآتِكُمْ وَرِيشًا ﴾ (٧ : ٢٥) لأن اللباس من الأصواف والأوبار والأشعار والجلود - كل ذلك ينزل من ظهور الأنعام ، وكسوة الأنعام منزلة من الأصلاب والبطون ، وكذا القطن والكتان هما منزلان من غل ، وهكذا « الريش » والرياش وهو لباس الزينة استعير من ريش الطائر لأنه لباسه وزينته ، كالحرير ونحوه فهذا كله نازل من فوق ، لأن الحرير أصله من الدود ، وغذاء الدود من الشجر كالتوت ونحوه ، وقال تعالى : ﴿ وَأَنْزَلَ الَّذِينَ ظَاهَرُوهُمْ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِنْ صَيَاصِيهِمْ ﴾ (٣٣ : ٢٦) ، فالصياصي الحصون وهي مرتفعة ، وقال تعالى : ﴿ وَأَنْزَلَ لَكُمْ مِنَ الْأَنْعَامِ ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ ﴾ (٣٩ : ٦) ، والأنعام تنزل من أصلاب آباتها إلى بطون أمهاتها ثم تنزل من بطون أمهاتها إلى الأرض ، وقال تعالى عن موسى : ﴿ ثُمَّ تَوَلَّى إِلَى الظُّلِّ فَقَالَ : رَبِّ إِنِّي لِمَا أَنْزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ فَجَاءَتْهُ أَحَدَاهَا ﴾ (٢٨ : ٢٤ و ٢٥) ، فذلك الخير الذي أنزله الله إليه هو بنتا نبي الله شعيب ، لأنها نزلت من والديها ، وكان موسى عزباً ولم يلبث أن استجاب الله له فوراً ولذلك قال : فجاءته إحداهما .. الخ ، وقال تعالى : ﴿ وَأَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْمَنِّ وَالسَّلْوَى ﴾ (٢ : ٥٧) ، والمن ينزل عن الشجر والسلوى تنزل من الهواء ، وقال تعالى : ﴿ وَأَنْزَلْنَا الْحَدِيدَ ﴾ (٥٧ : ٢٥) وهو يكون في الجبال . والضيافة سميت « نزلاً » لأن العادة أن الضيف يكون راكباً فينزل في مكان يؤتى إليه فيه بضيافة فسميت نزلاً لأجل نزوله ، ويقال : نزل بيني فلان ضيف ، ولهذا قال نوح عليه السلام : ﴿ رَبِّ أَنْزِلْنِي مُنْزَلاً مُبَارَكاً وَأَنْتَ خَيْرُ الْمُنْزِلِينَ ﴾ (٢٣ : ٢٩) لأنه سينزل في السفينة

أو سينزل منها ، وسميت المواضع التي ينزل بها المسافرون « منازل » لأنهم يكونون
ركباً فينزلون ، ومنه قولهم « نزلوا » للمحل الذي ينزل فيه الغريب المسافرون
وحيث ينزلون عن دوابهم أو سفنهم أو سياراتهم أو طياراتهم ، وعليه قوله تعالى :
﴿ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا نُزُلًا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ ﴾
(٣ : ١٩٨) ، وأما قوله تعالى : ﴿ إِنَّا أَعْتَدْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ نُزُلًا ﴾
(١٨ : ١٠٣) فهو تهكم ، ونحوه ﴿ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾ (٣ : ٢١) ،
وقول الضبّي :

وكنا إذا الجبارُ بالجيشِ ضافنا

جعلنا القمنا والمرهفات له نُزُلاً

فقد تبين أن ليس في القرآن الكريم لفظ « نزول » إلا وفيه معنى النزول المعروف ،
هذا هو اللائق بالقرآن الذي نزل بلغة العرب ، فكلام الله تعالى لما كان نازلاً من
السماء على قلب النبي ﷺ قيل فيه ﴿ إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ ﴾ والله اعلم .

(أنزلناه)

- ٣ -

قال السيد السمرقندي (١) :

زمن بدء نزول القرآن

كان ابتداء نزول القرآن الكريم في (١٧) حلت من رمضان من السنة الأولى

(١) نسبة الى سمرقند من بلاد التركستان

من النبوة ، كما أشار الله تعالى إليه في قوله : ﴿ إِن كُنتُمْ آمَنْتُمْ بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا يَوْمَ الْفُرْقَانِ ، يَوْمَ التَّقِي الْجَمْعَانِ ﴾ (٨ : ٤١) فالمراد بيوم التقاء الجمعين ، يوم بدر ، وكان في صبيحة يوم الثلاثاء ، في (١٧) رمضان من السنة المذكورة ، وقد جعل الله « يوم الفرقان » علماً لأول يوم نزل فيه القرآن ، وليلة نزول القرآن هي التي قال الله عنها : ﴿ إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةٍ مُّبَارَكَةٍ ، إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ ، فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ ، أَمْراً مِنْ عِنْدِنَا إِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ ، رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ ، إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴾ (٤٤ : ٣ - ٦) وهذا هو السبب في تخصيص الإسلام شهر رمضان بالصوم ، لأنه هو الشهر الذي كان يتعبد فيه الرسول ﷺ بنهار حراء (جبل النور) ، ونزل عليه كلام الله فيه لأول مرة ، كما قال تعالى : ﴿ شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ ، هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِّنَ الْهُدَىٰ وَالْفُرْقَانِ ﴾ (٢ : ١٨٥) وجعلت نهايته عيداً ، تذكراً لذلك اليوم العظيم ، ووجبت فيه صدقة يدفعها المسلمون لفقرائهم ، وهي المسماة بصدقة الفطر ، فلذى أنزل الله على عبده هو القرآن - أي ابتداء نزوله - ويوم الفرقان ، هو يوم (١٧) من رمضان من أول سني النبوة ، وسمي « يوم الفرقان » لأن الله فرق به بين الحق والباطل ، باختياره عبده « محمداً » ، لأن يبلغ عنه إلى الناس رسالته ، وهذا اليوم هو يوم التقى الجمعان في واقعة « بدر » ولكن ليس هو بالشخص ، وإنما هو بالنوع ، فهذا اليوم وهو يوم (١٧) خلت من رمضان ، كان محلاً لنزول الفرقان أول مرة ، ومحلاً لالتقاء الجمعين ببدر وان يكن يوم الفرقان كان يوم ١٧ خلت من رمضان للسنة الأولى من النبوة ويوم التقى الجمعان هو يوم (١٧) رمضان من السنة الثانية للهجرة ، فلذلك قلنا إن « يوم الفرقان » هو « يوم التقى الجمعان » بالنوع ، كما أنه مثلاً هو يوم وفاة علي كرم الله وجهه ، ولكن بالنوع لا بالشخص ، لأن وفاته كانت في (١٧) رمضان

من سنة (٤٠) هجرية ، وقد جرت العادة في التعبير أن يجعل اليوم المعين عدده محلاً لكثير من الوقائع ، مع انه ليس من سنة واحدة . كما يقولون « يوم عاشوراء » فيه هبط آدم ، وفيه نجت سفينة نوح ، وفيه نجا موسى من الفرق ، وليس هذا كله من سنة واحدة بالضرورة ، وكذلك هننا ليس « يوم الفرقان » و « يوم التقى الجمعان » و « يوم توفي علي ابن أبي طالب » (ر ض) من سنة واحدة ، هذا ما استفدناه من كلام مصري عصري ، فتأمله فلعلك أدق نظراً وأكثر تحقيقاً .

(أنزلناه)

- ٤ -

قال أبو الفضل الحانوني (١)

(جمع القرآن)

نزل القرآن منجماً على رسول الله ﷺ في نحو ثلاث وعشرين سنة، وكان ينزل حسب الحوادث ومقتضى الحال، بالآية والآيات والسورة الكاملة كما في سورتنا هذه التي نفسرها الآن ، ولم يجمع القرآن في عهد النبي في مصحف ، بل كان في صحف مفرقة كتبها كتاب الوحي ، وفي صدور الحفاظ من الصحابة ، ثم في عهد أبي بكر أمر بجمع القرآن ، ولكن لا في مصحف واحد بل جمعت الصحف.

(١) نسبة الى بيت حانون من فلسطين

المختلفة التي فيها آيات القرآن وسوره ، وكتب معها ما كان في صدور الرجال ، وأودعت الصحف الكثيرة التي فيها القرآن عند أبي بكر ، وقد تولى جمعه هذا « زيد بن ثابت » ، ثم انتقلت من أبي بكر إلى عمر ، ثم إلى حفصة بنت عمر ، حتى إذا تولى عثمان أخذ الصحف من حفصة ، وعهد إلى جمع من الصحابة منهم « زيد بن ثابت » ، وعبد الله بن الزبير ، وسعيد بن العاص ، بجمعها في مصحف واحد ، وكتب منه نسخاً كثيرة ، وزعت على الأمصار .

(قرآناً عربياً)

- ١ -

قال الفهامة الخرطومى (١)

لغات كلام القرآن

إن من كلام القرآن ما هو عربي أصالة ، بدون أن يكون ترجمة عن لغة أخرى ، وذلك كالكلام المسند في هذه السورة لله تعالى ابتكاراً ، وليس محكياً عن الأعاجم ، ومنه ما هو تعريب للألفاظ العبرانية ، وذلك كالمحاورات المنقولة عن لسان يعقوب وأولاده ، ومنه ما هو تحوير من اللغة العربية العمليقية الهكسوسية إلى اللغة العربية القرشية ، وذلك كالكلام المحكي عن ملك مصر ، « الريان بن الوليد » لأن اللغة الهكسوسية قريبة جداً من اللغة العربية أو هي العربية محرفة ،

(١) نسبة الى بلدة الخرطوم في السودان

ومنه ماهو ترجمة عن اللغة القبطية المصرية ، وذلك كالكلام المعزوة إلى النسوة في المدينة المصرية ، والكلام المعزوة إلى « عزيز مصر » وامرأته ، وإلى « الشاهد » من أهلها ، على أن اللغة المصرية موافقة للعربية في الألف من مفرداتها ، كما اكتشف ذلك من العاديات المصرية ، فكأن أهل اللغتين واحد ، ومنه ما هو تحوير من اللغة المديانية إلى اللغة العربية القرشية ، وذلك كالكلام المنقول عن « وارد السيارة » التي جاءت فارسلته للجب ؛ ويظهر مما تقدم ذكره أن الأقوال المحكية في هذه السورة إنما هي معبرة عن المعاني ، وشارحة للحقائق ، وليست نقلاً لنفس الألفاظ التي صدرت من أصحابها ، فإن بعض أولئك المحكي عنهم أعاجم ، ومنهم قرييون للعرب أو عرب ، ولم تكن لغة العربي منهم كلفة القرآن في فصاحتها وبلاستها ، كما أن الحال كذلك في أكثر ما نقل في القرآن عن الأنبياء السابقين ، والملوك والحكام المتقدمين . (استحسان من الجميع)

(قرآناً عربياً)

- ٢ -

وقال السيد ابو الحسن النجفي (١):

لزوم تعلم المسلمين اللغة العربية

بفضل كون القرآن عربياً ، أصبحت اللغة العربية بعد الإسلام ، لغة الدين والدولة والعلم ، وما يتفرع عن هذه الأصول الثلاثة ، من فروع حجة ، كالأدب والتجارة والفن .

وقد رجح الإمام الشافعي في « الأُم » وجوبَ تعميم اللغة العربية ، ووجوب

(١) نسبة الى بلدة النجف الاشرف في العراق

تعلّمها على كل مسلم ، ليفهم القرآن الكريم ، الذي هو أصل الدين ، ولقد كان الصحابة الكرام ، ومن اهتدى بهديهم من الفاتحين ، يلقنون الناس الدين ؛ على وجه يعثّمهم على تعلم العربية من أنفسهم ، ولذلك لم يمتد على انتشار الإسلام ، في بلاد الروم والفرس وبلاد أفريقيا وغربي أوروبا ، زمن يسير ، حتى علت اللغة العربية ، على لغات هذه الأمم ، بل نسختها كما تنسخ آية النهار آية الليل ، من غير مدارس ولا معلمين ، ينصرفون إلى تعليم اللغة ، وما كان انتشار اللغة بهذه السرعة ، إلا بوازع نفسي يفعل ما لا تفعل السياسة والمدارس ، وما أوقف هذا السير ، إلا ضعف الدول العربية ، ووثوب الأعاجم على عروشها ، وإفتاء علماء الأعاجم بجواز العبادة وقراءة القرآن وأذكار الصلاة - باللغات الأعجمية ..

ومن المسائل المفيدة في هذا المقام ، إن ما يكون به الإنسان مسلماً في الجملة ، شيء سهل بسيط ، يمكن إيصاله إلى كل عربي وعجمي في وقت قصير ، ولكن غو الإسلام في القلب ، وفيهم ما جاء به من الحكم والمعارف ، التي ترقى النوع البشري ، يتوقف على معرفة العربية حق المعرفة .

ولقد جاء الإسلام ، لإصلاح اجتماعي ، وهو السعي في وحدة أمم الأرض باتفاقهم في اللغة والدين ، وهذا هو الذي توجهت إليه أخيراً أنظار فلاسفة أوروبا ودولها القوية . ولذلك ترى كل واحدة منها ، تبذل كل مرتخص وغال ، لأجل تعميم لغتها بواسطة الفتح والاستعمار والانتداب ، ولأجل انتشار دينها من طرف خفي ، بواسطة المدارس والمستشفيات والمبشرين .

أنزل الله القرآن بلسان العرب ، وخاطبهم فيه بما يعرفون وبما يفهمون ، فهو وحي الله إليهم مباشرة ، وإلى العالمين بواسطتهم ، وجميع ما فيه مفهوم لهم ، بدون احتياج إلى تفسير مفسر أو تأويل مؤول ، أما الأمم الأخرى التي تأخذ القرآن

عن العرب ، فلا بد لهم من معرفة اللغة العربية تدريجياً ، وكذا معرفة أحوال العرب وعاداتهم وتاريخهم واصطلاحاتهم ، حتى يتيسر لهم فهم القرآن على حقيقته ، وبعد ذلك فهم غير محتاجين لشيء آخر .

أزل القرآن بأشرف اللغات ، على أشرف الرسل ، بسفارة أشرف الملائكة ، في أشرف بقاع الأرض ، مكة والمدينة ، وابتدىء إزاله في أشرف شهور السنة - وهو رمضان - فأكمل من كل الوجوه ، وقد قال عليه الصلاة والسلام : « أحبوا العرب ثلاث : لأني عربي ، والقرآن عربي ، وكلام أهل الجنة عربي » ، رواه الطبراني والحاكم والبيهقي وكذا العقيلي ، ووضع السيوطي بجانبه في الجامع الصغير علامة الصحة .

(قرآناً عربياً)

- ٣ -

بعث محمد ﷺ العربي للأمم كافة

وقابع السيد أبو الحسن النجفي كلامه قائلاً :

إن جملة ﴿ قرآناً عربياً لعلكم تعقلون ﴾ لا تشير إلى أن النبي لم يبعث لغير العرب .. لا .. حاشا وكلا .. ولكن المراد أن العرب هم الأصل ، وهم متى عقلوا القرآن وفهموه أمكنهم أن يفهموه لغيرهم من الأمم ، ﴿ هو الذي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِنْهُمْ ، يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ ، وَيُزَكِّيهِمْ ، وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ ، وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ﴾ (٦٢ : ٢) ، ﴿ كَمَا أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولًا مِنْكُمْ ، يَتْلُو عَلَيْكُمْ آيَاتِنَا ، وَيُزَكِّيكُمْ ، وَيُعَلِّمُكُمُ

الكتاب ، والحكمة ، ويُعَلِّمُكُمْ مَا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ ﴿٢ : ١٥١﴾ ، فالنبي يعلم قومه العرب ويزكيهم بالقرآن ، ويعلمهم الكتاب والحكمة وهم ينشرون دعوته ، ويبشرون حكته في الأمم ، فيفتح الله لهم المشرق والمغرب ، وينقل الله بهم الأمم والشعوب ، من حال إلى حال ، أعلى وأرقى ، ينقلونهم من الوثنية والعبودية والذلة والظلم ، وفساد الأخلاق والآداب والجهل ، إلى التوحيد والحرية والعزة والعدل والآداب والفضائل والعلم وثمراته .

إذاً ، فالصحابا - وأكثرهم عرب - هم رسل محمد ﷺ إلى الأمم والشعوب ، التي لم تجتمع بالنبي ﷺ وأكثرهم عجم ، وهذا يذكرنا بما كان من رسل المسيح عيسى عليه السلام ، كما قال تعالى : ﴿ وَاضْرِبْ لَهُم مَّثَلًا أَصْحَابَ الْقَرْيَةِ إِذْ جَاءَهَا الْمُرْسَلُونَ ، إِذْ أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمُ اثْنَيْنِ ، فَكَذَّبُوهُمَا ، فَصَبَرْنَا بِثَلَاثٍ ، نَقَالُوا : إِنَّا إِلَيْكُمْ مُرْسَلُونَ .. لِح ﴿٣٦ : ١٣ و ١٤﴾ ويرى بعض علماء اللغات أن كلمة « الحواريين » في القرآن ، هي معربة عن الحبشية ، ومعناها فيها « الرسل أو المرسلون » ، سماهم القرآن بذلك ، إما بحسب العرف الجاري في ذلك الزمن بين نصارى العرب ، كما نسمي الآن دعاة النصرانية « بالمبشرين » ، وإما لأن المسيح أرسلهم في حياته لدعوة اليهود إلى المسيحية ، كما في الأناجيل . (راجع مت ١٠ : ١ - ١٥ ، لو ٩ : ١ - ٦ ، لو ١٠ : ١ - ١٢ والحكمة في اختيار القرآن هذه الكلمة الحبشية دون مرادفها في العربية ، هي منع الالتباس ، لتكون علماً خاصاً بهؤلاء التلاميذ الممتازين من أصحاب عيسى عليه السلام .

(الله أكبر)

(قرآنًا عربيًا)

- ٤ -

وقال الفضيل النجدي (١) :

ترجمه القرآن

إن مقاصد الإسلام العلمية ، جمع البشر على دين واحد ، ولفة واحدة ، لتكلم وحدتهم ، وتحقيق إخوتهم ، ولذلك منعت ترجمة القرآن الكريم ، على تقدير حسابان الترجمة قرآنًا ، فيحتم بقاؤه عربيًا ، ويجب شروع كل مؤمن في تعلم اللغة العربية ، كما كان الحال كذلك ، أيام صاحب الرسالة ، والخلفاء الراشدين ، بل وفي أيام دولة الأمويين والعباسيين ، ولولا الصدمات السياسية التي صدمت الإسلام ، لظل أهل فارس ومن يجاورهم إلى هذا الزمن ، ينطقون بالعربية كما كانوا في القرون الأولى للإسلام ، بل لكانت بلاد الهند والأفغان والترك وجزء عظيم من بلاد الصين ، يحسنون التفاهم باللغة العربية ، كبلاد سوريا ومصر لهذا العهد ، ولكان في ذلك للإسلام ، سياج من الوحدة لا يخرق .

وهنا مسألتان ، إحداها ترجمة القرآن إلى لغة أعجمية ، أي التعبير عن معانيه بألفاظ أعجمية ، يفهمها الأعجمي دون العربي ، والثانية كتابة القرآن العربي ، بحروف غير عربية ، وكلا المسألتين غير جائز ، نعم إن المنع فيما إذا ترجم القرآن ، وحسبت الترجمة قرآنًا ، وأما إذا ترجم بقصد جعله وسيلة للدعوة إلى الإسلام ، أو بقصد إقناع من لم يمكنه تعلم اللغة العربية ، فلا بأس بذلك .

(١) نسبة الى مقاطعة نجد من بلاد المملكة العربية السعودية

قال ابن تيمية في كتابه « العقل والنقل » : (وأما مخاطبة أهل الاصطلاح باصطلاحهم ولغتهم ، فليس بمكروه إذا احتيج إلى ذلك ، وكانت المعاني صحيحة كمخاطبة المعجم من الروم والفرس والترک بلغتهم وعرفهم : فإن هذا جائز حسن للحاجة ، وإغا كرهه الأئمة إذا لم يحتج إليه ، ولهذا قال النبي ﷺ لأم خالد بنت خالد بن سعيد بن العاص ، وكانت صغيرة ولدت بأرض الحبشة ، لأن أباهما كان من المهاجرين إليها ، فقال لها : « يا أم خالد هذا سنا » والسنا بلسان الحبشة الحسن ، لأنها كانت من أهل هذه اللغة ، ولذلك يترجم القرآن والحديث لمن يحتاج إلى تفهمه إياه بالترجمة ، وكذلك يقرأ المسلم ما يحتاج إليه من كتب الأمم وكلامهم بلغتهم ، ويترجم بالعربية ، كما أمر النبي ﷺ زيد بن ثابت أن يتعلم كتاب اليهود ليقرأ له ويكتب له ذلك ، حيث لم يأمن اليهود عليه) انتهى .

قرآناً عربياً

- ٥ -

وقال مولاي أحمد القندي :

اللغة العربية لغة العلاقات بين الدول الإسلامية

يحسن أن تكون اللغة العربية هي اللغة الوحيدة التي تستعمل في العلاقات التي بين الدول المسلمة، أسوة بالقاعدة المتبعة بين دول أوروبا في استعمال اللغة الفرنسية في المسائل السياسية ، لأن هذا يكون من أعظم دعائم الإصلاح الإسلامي الديني والاجتماعي والاقتصادي والعلمي والسياسي ، إن جميع شعوب المسلمين من مراکش غرباً إلى بكين شرقاً ، لا تخلو من علاقات مشتركة بينها ، إما دينية محضة ، أو دينية واقتصادية ، وإما علاقات سياسية فيما إذا كانت هذه الدول الإسلامية مستقلة ، وإن

هذا يكون بالمفاوضة فيما بينها ، لأن لغة شطر القارة الافريقية الشمالي من الغرب إلى الشرق ، وشطر آسيا الشرقي من البحر الاحمر إلى خليج العرب — هي اللغة العربية ، وفي هذه البلاد مهد الاسلام ومهبط وحيه ، ومهوى أفئدة أهله ، وقبلة صلاتهم ، ومشاعر نسكهم ، ومثابتهم التي يؤمها مئات الألوف من جميع شعوبهم على اختلاف أقطارهم في كل عام ، وهذه اللغة هي التي يتعبد بها جميع المسلمين ويتلقون دينهم في جميع الاقطار ، هذا هو برهان العقل .

وأما برهان الدين ، فهو أن العربية هي لغة الدين الإسلامي ، إذ لا يمكن أن نعلمه علماً صحيحاً ، ولا أن نعمل به عملاً صحيحاً ، بإقامة أعظم عباداته ، إلا بهذه اللغة ، فيتمين أن تكون هي اللغة الوحيدة للتعاون بين الشعوب الإسلامية ، وتفاعهم في أمورهم المعاشية .

قرآناً عربياً

- ٦ -

وقال ابو الفضل الفاشودي^(١):

فلسفة لغة القرآن

« قرآناً عربياً ، نزل بلغة العرب ، وعلى أساليب العرب في كلامهم ، فألفاظه عربية ، إلا ألفاظاً قليلة عُرِّبَتْ أخذت من اللغات الأخرى ، ولكن هضمتهما

(١) نسبة الى فاشودة من بلاد السودان

العرب ، وأجرت عليها قوانينها ، وأساليبه هي أساليب العرب في كلامها ، ففيه الحقيقة اللغوية ، والحقيقة العرفية والاصطلاحية ، وفيه المجاز بالاستعارة والمجاز المرسل ، وفيه المجاز اللغوي والمجاز العقلي ، وفيه الكتابة وفيه التمثيل ، الى غير ذلك ، فهو على نمط العرب في كل استعمالاتهم .
(تأييد من أكثرية الاصوات) .

لعلكم تعقلون

- ١ -

قال الأديب الفالوجي ' :

تعقل القرآن وفهمه

الالفاظ وحدها إنما هي هيكل عظمي ، وأما المعنى فهو اللحم والدم ، وأما فهمه فهو أكله المقصود بالذات ، فالحكمة من إزاله لا تتم إلا بتعقل معناه ، ولا أحسبك إلا مسلماً لي في هذا الاعتقاد على طول الخط ، ﴿ فَإِنَّمَا يَسْتَرْفَاهُ بِلِسَانِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴾ (٥٨ : ٤٤) ، ﴿ وَلَقَدْ يَسْرْنَا الْقُرْآنَ الَّذِي كَرَّمْنَا مِنْ مَدْيَنَ كَبِيرٍ ؟ ﴾ (٥٤ : ١٧ و ٣٢ و ٤٠) ، ﴿ إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾ (٤٣ : ٣) ، ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ ﴾ (١٤ : ٤) ﴿ وَكَذَلِكَ أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا وَصَرَّفْنَا فِيهِ مِنَ الْوَعِيدِ ، لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ أَوْ يُحَدِّثُ لَكُمْ ذِكْرًا ﴾ (٢٠ : ١١٣) ﴿ وَكَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ الْآيَاتِ ، لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾ (٢٤ : ٦١) ﴿ كَذَلِكَ

يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ ﴿٢٦٦:٢﴾ ﴿سورةٔ أنزلناها وفررناها
 وأنزلنا فيها آياتٍ بَيِّنَاتٍ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٢٤: ١﴾ ، ﴿انظر كيف
 نُنصِّرُ الْآيَاتِ لَعَلَّهُمْ يَفْقَهُونَ ﴿٦٥: ٦﴾ فنرى في هذه الآيات أن
 خطاب الشريعة موجه إلى العقلاء ، فهذا يجب على كل مسلم مؤمن أن يكون عاقلاً
 عالماً بأسرار أحكام الله لكي يستفيد منها حق الاستفادة ، وفي الحديث « أفضل
 الناس أعدل الناس » ، وفيه : « إنَّ الأحمقَ العابدَ يُصِيبُ بِجَهْلِهِ أَعْظَمَ مِنْ خُورِ
 الفاجر ، وإنما يقرب الناسُ من ربهم بالزُّلْفَى على قدرِ عقولهم ، إلى غير ذلك من
 النصوص التي تفيد أن الثمرة المقصودة من الكتاب هي فهمه ، وقد ذم الله تعالى
 من لا يفهم أولاً يريد أن يفهم كتابه فقال : ﴿ وقالوا قلوبنا غُلْفٌ ، — بل
 لَعَنَهُمُ اللَّهُ بِكُفْرِهِمْ ! قَلِيلًا مَآيُومِينَ ﴿٢٨٨ : ٢﴾ ، ﴿ وقالوا قلوبنا في
 أَكِنَّةٍ مِمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ ، وَفِي آذَانِنَا وَقْرٌ ، وَنَ بَيْنَا وَبَيْنَكَ حِجَابٌ ، فاعْمَلْ
 إِنَّا عَامِلُونَ ﴿٥١ : ٥١﴾ ، ﴿ أفلا يَتَذَكَّرُونَ القرآنَ ، أما على قلوبٍ
 أَعْتَابُهَا ؟! ﴿٤٧ : ٢٤﴾ ، ﴿ وقال الرسولُ : ياربُّ إنَّ قومي اتخذوا
 هذا القرآنَ مهجوراً ﴿٣٥ : ٣٥﴾ ، والمهجر هجران : هجر التركيب وهجر
 المعنى ، ومن لم يتدبر معناه فقد هجره هجراً معنوياً ، وقد أخبر الله عن أهل النار
 أنهم قالوا ﴿ لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ ، مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ ﴿٦٧ : ١٠﴾
 ومدح ﴿ والذين إذا ذكروا بآياتِ ربهم لم يَخِرُّوا عليها صُماً وعمياناً ﴿٢٥ : ٧٣﴾ ،
 فتح الله قلوبنا وأثار بصائرنا لفهم كتابه العزيز .

لعلكم تعقلون

- ٢ -

وقال الفهامة الريحاي^(١) :

تعقل القرآن وفهمه من صفات المؤمنين

إني أضمر صوتي إلى صوت رفيقي الأديب الفالوجي قائلاً : لا يزال كتاب الله تعالى يحث مخاطبيه على التعقل ، ويدفعهم إلى التفكير ، لاجل تمحيص الحقائق ، وهكذا إن شاء الله لا سير لنا في هذه التبذة التاريخية على غير العقل والحقيقة ، خلافاً لمن تعودوا أن يقبلوا ما سطره مَنْ قبلهم دون أن يمعنوا النظر فيه ، فترام ينقل ويقتبس بعضهم من بعض دون أن يحكموا العقل فيما يقولون ويقتبسون! ، وغني عن البيان أنه إنما أنزل الكتاب الكريم ليعمل بما تضمنه من الحكيم والاحكام ، وإن سعادة الدنيا والآخرة موقوفة على هذا العمل ، ومعلوم أنه لا يمكن هذا العمل إلا إذا فهم الكتاب حق الفهم ، وتعقل التعقل الصحيح ، من هذا تعرف أن سعادة الدنيا والآخرة موقوفة على فهم القرآن وتعقله ، فليجعل المكلف كل همه في فهم ما يشير ربه إليه ، ثم يعمل به ، فإنه لا حياة إلا بالعلم والعمل ، وبطن الأرض خير من ظهرها لمن فقد أحدهما !!!

تفهم معاني الكتاب وتعقله صفة من صفات المؤمنين ، كما أن عدم ذلك من سبب سواهم ، قال تعالى : ﴿ وَإِذَا قُرَأَ الْقُرْآنَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ حِجَابًا مَسْتُورًا ، وَجَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ ، وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا ﴾

(١) نسبة إلى أريحا من أعمال فلسطين

(١٧ : ٤٥ و ٤٦) ، الحجاب هو معاصيهم و كفرهم و كبرياؤهم ، وكلما كان المرء أكثر عصياناً و كفرأ كان أبعد عن فهم كلامه تعالى ، وهذا الجمل المذكور تكويني ، هذا ما رأيناه في هذا المقام ، فهل من مرید أن يضم صوته لصوتنا إن كنا على صواب ؟ إننا لذلك منتظرون (تأييد من جميع الأصوات)

لعلكم تعقلون

- ٣ -

وتلاه على هذه النعمة اللطيفة أبو الفضل الحانوني (١) فقال :

مزية انسان بالعقل والادراك

إن الإنسان إنما امتاز عن سائر البروءات بالعقل ، لأنه في تركيبه الفسيولوجي (الفريزي أو النفسي) مشارك للحيوان ، وفي تركيبه الكيماوي مشارك للنبات والجماد ، فمزيته قائمة بالإدراك ، منحصرة في العقل ، فمن كان من الناس أقوى من غيره في هذا الفارق الأعظم وأظهر من سواه في ذلك المائز الأكبر ، كان الأجدر بأن يعد فيهم عظيماً ، لأنه أبعد أبناء نوعه عن الحيوانات ، ومن ثمة فهو أشرفهم وأعلام ، ﴿ أم تحسب أن أكثرهم يسمعون أو يعقلون ؟ إن هم إلا كالأنعام ، بل هم أضل سبيلاً ﴾ (٢٥ : ٤٤) .

لولا العقول لكان أدنى ضيغم

أدنى إلى شرف من الإنسان

(مرحى)

(١) نسبة الى بلدة بيت حانون من فلسطين

لعلكم تتقون

- ٤ -

وقال ناصر السنة التل أبيبي (١) :

استعمال أكثر المسلمين القرآن الكريم في غير ما هو له

مهما قلبت بصرك لا تجد القرآن « في الغالب » مستعملاً فيما وضع له ، فهو عند الخاصة موضوع مناقشات لفظية ، وصناعة وفصاحة كلامية ، ومجال براعة في اختراع وجوه ، وتأويل مناجي ، وبعد عن مقاصد ، وأما عند العامة فهو دفتر لتعاويد ورقى ، وكتاب ترتيل ، وعلى رأيهم هو كلام يقال لكي لا يفهم ، حتى قال بعض الأدباء : فات هؤلاء المسلمين أن يفهموه للأحياء فاستدركوا بأن صاروا يسمعونهم للموتى في القبور !!!

إن في القرآن العظيم (٦٢٣٦) آية وآيات الفقه فيه (١٥٠) آية ، والآيات الكونية (٧٥٠) آية ، والباقي تاريخ وجدل وإلهيات وبراهين توحيد وأدلة قيامة وحجج نبوة وآيات أخلاق وأدب وغير ذلك ، فهل لأجل مئة وخمسين آية ، لا يجوز أن ننظر في باقي الآيات القرآنية ؟ اللهم إن هذا حكم جار لا يقبله ذو دين .

إن البشر ليسوا حيوانات تساق إلى حيث يريد من يسوقهم ، الناس ليسوا بقرراً تساق إلى المذبح ، الناس ليسوا تماثيل لا حس فيها ولا عقل ولا إدراك ، تنقاد لهذا أو ذاك بدون فهم مقصده وغايته ، الناس كلهم من نوع الإنسان ، والإنسان حيوان ناطق ، ونطقه هو فكره وعقله ، فإذا لم يستعمل عقله ، كان كأنه بلا عقل ، فكان كأنه ليس إنساناً .

(١) نسبة الى بلدة تل أبيب من فلسطين

إن المجتهد لا يعلمون إلا ظاهراً من الحياة الدنيا ، وذلك علم الماديات ، فإنهم برعوا في ذلك كما هو مشاهد ، وهم عن الآخرة هم غافلون ، ولذلك فهم في الروحيات ضعفاء جد الضعف ، فنحن أهل الإيمان ، إذا أهملنا الروحيات التي أهمها تفهم القرآن ، — وبالطبع نحن ضعفاء في الماديات — كنا لا ديناً ولا دين ! فاللهم سلم سلم .

لعلكم تعقلون

- ٥ -

وتلاه أبو الاقبال البربراي (١) فقال :

القرآن يمدح المتعقلين بآياته ويذم الغافلين عنها

يوجد في القرآن الكريم آيات كثيرة تمدح المتعقلين ، وآيات كثيرة تذم الساهين الغافلين ، منها :

أولاً - ﴿ سَأَصْرِفُ عَنْ آيَاتِ الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ ﴾ (٧ : ١٤٥) .

ثانياً - ﴿ لَهُمْ قُلُوبٌ لَا يَفْقَهُونَ بِهَا ، وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَا يُبْصِرُونَ بِهَا ، وَلَهُمْ آذَانٌ لَا يَسْمَعُونَ بِهَا ، أُولَئِكَ كَالْأَنْعَامِ ، بَلْ هُمْ أَضَلُّ ، أُولَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ ﴾ (٧ : ١٧٨) .

(١) نسبة الى بلدة بربرة من فلسطين

- ثالثاً - ﴿ وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ قَالُوا « سَمِعْنَا » وَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ، إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللَّهِ الصُّمُّ الْبُكْمُ الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ ﴾ (٢٢ و ٢١ : ٢٢)
- رابعاً - ﴿ وَإِذَا مَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ ، نَظَرَ بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ : « هَلْ يَرَاهُ مِنْ أَحَدٍ ؟ » . ثُمَّ انصَرَفُوا ، صَرَفَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ ، بأنهم قوم لا يفقهون ﴾ (١٢٨ : ٩) .
- خامساً - ﴿ وَمَنْ أَعْرَضَ عَنِّي ذِكْرِي ، فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكاً ، وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى ﴾ (٢٤ : ٢٠)
- سادساً - ﴿ وَقَالَ الرَّسُولُ : يَا رَبِّ إِنَّ قَوْمِي اتَّخَذُوا هَذَا الْقُرْآنَ مَهْجُوراً ﴾ (٣٠ : ٢٥)
- سابعاً - ﴿ وَالَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ لَمْ يَخِرُّوا عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمْيَانًا ﴾ (٧٣ : ٢٥)
- ثامناً - ﴿ وَقَالُوا : لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّمِيرِ ﴾ (١٠ : ٦٧)
- تاسعاً - ﴿ كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ ، لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُو الْأَلْبَابِ ﴾ (٢٩ : ٣٨)
- عاشراً - ﴿ فَطَبَعَ عَلَى قُلُوبِهِمْ ، فَمَنْ لَا يَفْقَهُونَ ﴾ (٦٣ : ٣)
- حادي عشر - ﴿ فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ ، وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ ﴾ (٤٦ : ٢٢) .
- ثاني عشر - ﴿ الَّذِينَ كَانَتْ أَعْيُنُهُمْ فِي غِطَاءٍ عَنِ ذِكْرِي ، وَكَانُوا لَا يَسْتَطِيعُونَ سَمْعًا ﴾ (١٠٢ : ١٨)

ثالث عشر - ﴿ وقالوا : قلوبنا في أكنةٍ مما تدعونا إليه ، وفي آذاننا وقرءٍ
 وَمِنْ بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ ﴾ (٤١ : ٥) .
 وبناء على ما تقدم فالأصل في مشروعية تلاوة القرآن الاهتداء والاعتبار ،
 ولا يكون ذلك إلا بالتدبر والتفهم ، نعم قد يثاب التالي للقرآن بغير فهم ، إذا كان
 يتلوه لغرض شرعي آخر ، كتجويد التلاوة والحفظ ، فإن توجه الذهن إلى ضبط
 الألفاظ ، وإتقان مخارج الحروف مثلاً ، يشغل عن تدبر المعاني ، ولكن مثل هذا
 يكون غرضاً عارضاً ، لا دائماً .

لعلكم تعقلون

- ٦ -

وقال الشيخ محمد العدني (١) :

تعقل القرآن هو التفقه فيه بالوقوف على مراميه

معنى « تعقلون » تفهمون وتفقهون ، كما في الحديث : « من يُرد الله به خيراً يفقهه في
 الدين » فالفقه في هذا الحديث ، إنما هو بمعنى فهم مرامي الكتاب العزيز ، والسنة
 النبوية ، ولا يصح حمل كلمة « يفقهه » في هذا الحديث ونحوه ، على المعنى الاصطلاحي
 للفقه ، وهو علم ظواهر الأحكام العملية ، لأن هذا لم يُسم « فقهاً » إلا بعد الصدر
 الأول من الإسلام ، ولم تُسم حملته « فقهاء » إلا بعد العصر الأول ، والفقه بالمعنى
 الاصطلاحي الجديد ، هو أقل ما في الدين ، ولذلك لم يحتفل به القرآن ، ولم يرد

(١) نسبة الى عدن من بلاد مقاطعة عدن في جنوب المملكة اليمنية

منه في السنة الصحيحة أيضاً، إلا القليل، ولكنهم اعتنوا بجمعه فكثر، وإنما عماد الدين وقوامه، هو الاعتقاد الصحيح، ومعرفة مكارم الأخلاق، والتحلي بحاسن الآداب، وتطهير العقول من لوث الخرافات والأوهام، وكل هذا يكون بالوقوف على مرامي كتاب الله، فهذا هو الفقه، بالمعنى المعروف في عصر النبوة والخلافة.

لعلكم تعقلون

- ٧ -

وقال الشيخ الطنطاوي

الحكمة من انزال القرآن

ليست الحكمة في إنزال القرآن الحكيم، التعبد بتلاوته من غير فهم معناه أو لنجمه « حانوتاً » ينبع منه « عدية يأس » ولا لنجمه « صيدلية » نكتب آياته في آنية ونمحوها بالماء، وتماطها لنشفي من داء كذا، ولا .. ولا .. الخ، بل الحكمة من انزال القرآن مبينة في نفس القرآن، وهاكم بيان بعضها:

أولاً - الهداية، كما قال: ﴿ التَّمَّ، ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ، هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ﴾ (٢: ١) .

ثانياً - التعقل، كما قال: ﴿ إِنَّا أَنزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾ (٢: ١٢) .

ثالثاً - الخروج من الظلمة إلى النور، كما قال: ﴿ الرَّ، كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ

تُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ ، بِإِذْنِ رَبِّهِمْ ، إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ
الحديد ﴿١٤ : ١﴾ .

رابعاً - البشارة والندارة ، كما قال : ﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَى عَبْدِهِ
الْكِتَابَ ، وَلَمْ يَجْعَلْ لَهُ عِوَجًا ، قَيِّمًا ، لِيُنذِرَ بَأْسًا شَدِيدًا مِمَّنْ لَدُنْهُ
وَيُبَشِّرَ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ ، أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا حَسَنًا ، مَا كَثُرَ
فِيهِ أُبْدَانًا ﴾ (١٨ : ١ - ٣) .

خامساً - التذكير ، كما قال : ﴿ طه ما أنزلنا عليك القرآن لتشقى ، إلا
تذكرةً لِمَنْ يَخْشَى ﴾ (٢٠ : ١ - ٣) .

سادساً - التدبر كما قال : ﴿ أفلا يتدبرون القرآن ، أم على قلوب
أقفالها ؟ ﴾ (٤٧ : ٢٤) .

سابعاً وثامناً وتاسعاً - التثبيت والعظة والذكري ، كما قال : ﴿ وَكَلَّا
نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الرُّسُلِ ، مَا نُنَبِّئُ بِهِ فَوَادِّكَ ، وَجَاءَكَ فِي هَذِهِ الْحَقُّ
وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرٌ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴾ (١١ : ١٢٠) .

عاشراً - الاعتبار ، كما قال : ﴿ لقد كان في قصصهم عبرة لأولي
الالباب ﴾ (١٢ : ١١١) .

الحادي عشر - قانون عدلية أو مجلة أحكام ، كما قال : ﴿ وكذلك أنزلناه
حكما عربياً ﴾ (١٣ : ٣٩) .

الثاني عشر - التفكير كما قال : ﴿ وتلك الأمثال نضربها للناس ، لعلهم
يتفكرون ﴾ (٥٩ : ٢١) .

الثالث عشر - شفاء ما في صدور الناس ، من أمراض الجهل بالله ، وبما له على عباده من الحقوق ، وما لبعضهم من ذلك على بعض ، وأمراض الأخلاق السيئة ، والعادات الضارة ، كما قال : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمْ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَشِفَاءٌ لِمَا فِي الصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴾ (١٠ : ٥٧)

إلى غير ذلك مما يزيد على ضعفه

الفصل الثاني

القرآن وعلم التاريخ

آ (٣) ﴿ نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ ، بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَذَا الْقُرْآنَ ! وَإِنْ كُنْتَ مِنْ قَبْلِهِ لَمِنَ الْغَافِلِينَ ﴾

افتتحت الجلسة وتليت الآية الثالثة فقام الشيخ أمين البترسبي^(١) وقال:

(نحن نقص عليك) يا محمد (أحسن القصص) أي الاقتصاص أو المقصوص (بما أوحينا إليك هذا القرآن) بحيث يطير به كل ما عشش من الأباطيل في الكتب المحرفة (وإن) هي المخففة من الثقيلة (كنت من قبله) من قبل ما أوحينا (لمن الغافلين) الجاهلين به ، ما كان لك فيه علم قط ، ولا طرق سمعك منه طرف ؛

(١) نسبة الى بئر السبع من بلاد فلسطين

تتعلم من هذه الآية الكريمة وأخواتها الكثيرة في القرآن أن علم التاريخ هو علم بهم كل إنسان الإطلاع عليه ودرسه وتعلمه، خصوصاً التاريخ الديني وإليك بعض الآيات التي تتعلم منها ذلك: ﴿تِلْكَ الْقُرَىٰ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِهَا﴾ (٧: ١٠٠)، ﴿وَكُلًّا نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُنشِئُ بِهِ فُؤَادَكَ﴾ (١١: ١٢٠)، ﴿كَذَلِكَ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ مَا قَدْ سَبَقَ﴾ (٢٠: ٩٩)، ﴿لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولِي الْأَلْبَابِ﴾ (١٢: ١١١)، ﴿وَإِذْ كُنَّا فِي الْكِتَابِ مِرْيَمَ إِذِ انْتَبَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا مَكَانًا شَرْقِيًّا﴾ الخ (١٩: ١٥ - ٣٤)، ﴿وَإِذْ كُنَّا فِي الْكِتَابِ إِبْرَاهِيمَ إِذْ كَانَ صِدِّيقًا نَبِيًّا﴾ الخ (١٩: ٤١ - ٥٠)، ﴿اصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَإِذْ كُنَّا عَبْدًا لِدَاوُدَ ذَا الْأَيْدِ إِنَّهُ أَوَّابٌ﴾ الخ (٣٨: ١٧ - ٤٠) أعني مجموع قصتي داود وابنه سليمان. ﴿وَإِذْ كُنَّا أَخَا عَادٍ إِذْ أَنْذَرْنَا قَوْمَهُ بِالْأَحْقَافِ﴾ الخ (٤٦: ٢١ - ٢٦)، ﴿كَهَيَّصَ، ذِكْرُ رَحْمَةِ رَبِّكَ عَبْدًا زَكِرِيَّا﴾ الخ (١٩: ١ - ١٤)، ﴿أُمِّ حَسْبِنتَ أَنْ أَصْحَابَ الْكَيْفِ وَالرَّقِيمِ﴾ الخ (١٨: ٩ - ٢٦)، ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَتَاهُ﴾ الخ (١٨: ٦١ - ٨٣)، ﴿وَإِسْأَلُونَكَ عَنْ ذِي الْقَرْنَيْنِ﴾ الخ (١٨: ٨٤ - ١٠٠)، ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا أَنْ أَخْرِجْ قَوْمَكَ مِنَ الظَّالِمَاتِ إِلَى النُّورِ وَذَكَرَهُمْ بِآيَاتِ اللَّهِ﴾ الخ (١٤: ٥) ﴿وَأَنْذَرْنَا أَدَمَ بِالْحَقِّ﴾ الخ (٥: ٣٠ - ٣٤) ﴿وَإِذْ نُوحي بِكِتَابٍ مِنْ قَبْلِ هَذَا أَوْ أَنْتَارَةٍ مِنْ عِلْمِنَا﴾ الخ (٤: ٤٦) وهذه الأتارة هي بقية من بقايا علم الأولين وما ذلك الا علم التاريخ

سور القرآن التي سميت بأسماء حوادث تاريخية

وأتم أيها السادة تعلمون أنه يوجد في القرآن الكريم سور كثيرة سميت بأسماء حوادث تاريخية اشتملت تلك السور عليها ، بل وعلى غيرها من الأنبياء الهامة ، أنبياء الأنبياء وأقوامهم والملوك ورعاياهم ، والصلحاء والأشقياء ، والأمم الدائرة ، والممالك الغابرة ، والرجال والنساء وما إلى هذا القبيل ، وإليك بعض الأمثلة :

سورة البقرة، آل عمران ، المائدة ، يونس ، هود ، يوسف ، إبراهيم ، الحجر ، الكهف ، مريم ، الأنبياء ، النمل ، القصص ، الروم ، لقمان ، الأحزاب ، سبأ ، المؤمن ، الأحقاف ، الفتح ، الحجرات ، المجادلة ، الحشر ، المنافقون ، نوح ، الجن ، الأعمى ، الفيل ، قريش ، أبي لهب - فهذه ثلاثون سورة سميت بأسماء حوادث تاريخية ذكرت فيها ، عناية بتلك الحوادث ، وإعلاءً من شأنها ، وتشويقاً للقارئ في تفهمها، وأنت إذا أممعت النظر ، ودققت في تتبع القرآن الكريم ، وجدت في كل سورة من سور المئة والأربعة عشر نموذجاً من التاريخ الانساني أو الحيواني أو النباتي أو الجمادى - الطبيعي أو السياسي أو الاجتماعي - الخاص أو العام - أو الديني أو الدنيوي ، وهكذا تجده محتويماً على تاريخ اليهود والمصريين والعراقيين وأهالي جزيرة العرب واليمن والنصارى ، وما إلى ذلك مما يثر عليه المنقبون ، ويقف عليه العارفون ، والحق والحق أقول ، أنه لو حذف التاريخ من القرآن لما بقي منه نحو عشره وبحسب التاريخ فخراً إن معظم كتاب الله من نوعه ، والله المثل الأعلى: ﴿ أفلا يتدبرون القرآن أم على قلوب أقفالها ؟ ﴾ (٤٧ : ٣٤)

صراخ من الجميع أصبت . أصبت

(نقص)

-٢-

وقال الحاج احمد الغزوي^(١) :

الحكمة من سرد الوقائع التاريخية في القرآن

لو قال قائل : « إن التاريخ من العلوم التي يسهل على البشر تدوينها والاستغناء عنها عن الوحي ، فلماذا كثر سرد الاخبار التاريخية في القرآن ، وكانت في التوراة أكثر ؟ » فالجواب ليس في القرآن شيء من التاريخ من حيث هو تاريخ وأخبار وقصص ، وإنما هي الآيات والعبر تجلت في سياق الوقائع ولذلك لم تذكر قصة بترتيبها وتفصيلها في القرآن ، سوى قصة يوسف ، فإنها زلت مرة واحدة مرتبة مفصلة ، لما ذكرناه في تفسير (ع ١) ، وكل ما ترى في هذه التوراة التي عند القوم من القصص المسببة والتاريخ المتصل من ذكر آدم وما بعدها ، فهي مما أُلْحِقَ بالتوراة ، بعد موسى بقرون ، بل إن أكثر تواريخ العهد القديم ، إنما كتب بعد السبي ورجوع بني إسرائيل من بابل .

صراخ من الجميع حسن حسن!

(١) نسبة الى غزوة من اعمال فلسطين.

نحن نقص

- ٢ -

وقال السيد محمود الجاوي (١) :

جبريل (ع) هو واسطة نقل كلام الله الى النبي

أي يقصه عليك جبريل نقلاً عنا ، قال تعالى : ﴿ وما كان لبشر أن يكلمه الله إلا وحياً ، أو من وراء حجاب ، أو يُرسِلَ رسولاً ، فيوحى بإذنه ما يشاء ﴾ (٥١:٤٢) ، فالله تعالى إذا أرسل رسولاً من الملائكة أو من البشر برسالة ، كان مكملاً لعباده بواسطة رسوله ، بما أرسل به رسوله ، وكان مبيناً لهم ذلك ، كما قال النبي للمنافقين : ﴿ قد نبأنا الله من أخباركم ﴾ (٩ : ٩٥) أي بواسطة جبريل ، وقال تعالى : ﴿ فإذا قرأناه فاتبع قرآنه ﴾ (١٨ : ٧٥) وقال : ﴿ نتلو عليك من نبأ موسى وفرعون بالحق ﴾ (٣ : ٢٨) وقد كانت القراءة والتلاوة بواسطة جبريل ، فكذا القصص هنا فانه سبحانه يكلم عباده بواسطة رسول يرسله ، فيوحى بإذنه ما يشاء ، ولهذا جاء بلفظ الجمع ، فان ما فعله المطاع بجنده ، يقال فيه : نحن نفعل كذا ، والملائكة رسل الله فيما يفعله ويأمر به ، فما فعله وأمر به بواسطة رسوله من الملائكة ، قال فيه : نحن فعلناه ، ومن هذا القبيل ما في الحديث « فإذا قال الإمام : سمع الله لمن حمده ، فقولوا : ربنا ولك الحمد » فان الله قال على لسان نبيه : « سمع الله لمن حمده » ، معناه : ان الله

(١) نسبة الى جزيره جاوة الواقعة في جنوب الهند

بلغكم هذا الكلام على لسان رسوله ، وأخبركم أنه سمع دعاء من حمده ، فأحدوه
أنتم وقولوا له ربنا ولك الحمد ، حتى يسمع دعاءكم ، فإن الحمد قبل الدعاء سبب
لاستجابة الدعاء ، كذا قاله في « منهاج السنة » والله أعلم .

جيد

أحسن القصص

- ١ -

وقال المهدي للاسلام السيد اسماعيل الملقب سابقاً بصونيل :

لماذا عبر بأن قصص القرآن هو أحسن القصص

إنما قال (أحسن القصص) إشارة إلى أنه يوجد في قصص يوسف وإخوته في
سفر التكوين (من التوراة) ما هو ليس بالحسن ، والمراد بأحسنه ، أثبتته وأحقه
كما قال بعد ما ذكر شيئاً من تاريخ المسيح عليه السلام : ﴿ إن هذا لهو
القصص الحق ﴾ (٣ : ٦٢) إشارة إلى ما وقع في تاريخه من الباطل ، وكما قالت
« زليخا » امرأة العزيز : ﴿ آلا آن حصحص الحق ﴾ (آ : ٥١) إشارة إلى أن
ما قالته فيه سابقاً باطل ، وقال تعالى : ﴿ واتل عليهم نبأ ابني آدم بالحق ﴾
(٥ : ٣٠) إشارة إلى ما كان يزيد بعض الناس في قصتها من الباطل ، وقال :
﴿ نحن نقص عليك نبأهم بالحق ﴾ (١٨ : ٣١) إشارة إلى أن ما كتبه
النصارى في تاريخ أهل الكهف ليس من الحق .

وبعد فماكم مقابلة بين الآيات الواردة في سورة يوسف في القرآن الكريم

والواردة في الإصحاح السابع والثلاثين من سفر التكوين من التوراة ، وهي خير شاهد لكم على أن ما ورد في القرآن هو أحسن القصص وأثبته وأحقه :

التوراة	القرآن الكريم
١ - (وأتى يوسف بنميمهم الرديئة إلى أبيهم) (تك ٣٧ : ٢)	١ - لا يوجد شيء في مقابلة ذلك.
٢ - (فلما رأى إخوته أن أباهم أحبه أكثر من جميع إخوته أبغضوه) (تك ٣٧ : ٤) فلم يذكر بنيامين وغيرتهم منه .	٢ - ﴿ ليوسف وأخوه أحب إلى أبينا منا ﴾ (١٢ : ٨) أعني إني ذكروا بنيامين في مقام الغيرة من أكثرية الحب .
٣ - لا يوجد شيء في مقابلة ذلك.	٣ - ﴿ إن أبانا لفي ضلال مبين ﴾ (١٢ : ٨)
٤ - (وحلم يوسف حلماً وأخبر إخوته فازدادوا أيضاً بغضاً له ، فقال لهم اسمعوا هذا الحلم الذي حلمت ، فإنا نحن حازمون حزماً في الحقل ، وإذا حزمتي قامت وانتصبت ، فاحتاطت حزمكم وسجدت لحزمتي ، فقال له إخوته : أملك تملك علينا ملكاً ؟ أم تتسلط علينا تسلطاً ؟ وازدادوا أيضاً بغضاً له ، من أجل أحلامه	٤ - لا يوجد شيء في مقابلة ذلك

في التوراة	في القرآن الكريم
أحلامه ومن أجل كلامه (تك ٣٧ : ٨ و ٧)	٥ - في القرآن أن حلمه الثاني لم يقصه على إخوته بل على أبيه فقط ، وأبوه حذره أن يذكره لإخوته : ﴿ قال : يا بني ، لا تقصص رؤياك .. الخ ﴾ (١٢ : ٥)
٥ - في التوراة إن يوسف قص حلمه الثاني على كل من أبيه وإخوته في آن واحد إذ قالت : (فقصه على أبيه وإخوته) (تك ٣٧ : ١٠)	٦ - في القرآن أن أباه بعد ما سمع منه حلمه الثاني قبله منه بكل فرح وعطف عليه أن بشره ببشارة تتلاءم مع هذا المنام (١٢ : ٦)
٦ - في التوراة ان أباه بعد ما سمع حلمه الثاني اتهره وقال له ما هذا الحلم الذي حلمت ، هل تأتي أنا وأمك وإخوتك لنسجد لك إلى الأرض ؟ (تك ٣٧ : ١٠)	٧ - ﴿ لقد كان في يوسف وإخوته .. الخ ﴾ (١٢ : ٧)
٧ - لا يوجد له مقابل	٨ - إخوته تأمروا على قتله أو طرحه أرضاً أو إلقائه في الجب وقر قرارهم أخيراً على هذا الرأي الأخير وهذا كان قبل ذهابهم لأبيهم ليطلبوه منه ، ثم ذهبوا لأبيهم واحتالوا عليه بأخذه ، وبعد أخذ وردٍ سمح لهم فيه (١٢ : ٨ - ١٤)
٨ - لم يذكر في التوراة أنهم تفاوضوا في شيء عنه قبلاً ولكن صادف أن يوسف مضى إليهم في مرعاهم حيث أرسله أبوه إليهم ، لينظر سلامتهم وسلامة الغنم ثم يرد لأبيهم الخبر ، فذهب إليهم ، وعندما رأوه تفاوضوا في شأنه (تك ٣٧ : ١٢ - ٢٠) فهم	

في التوراة	في القرآن الكريم
لم يذهبوا لأبيهم ليطلبوه منه ويعملوا عليه تلك الحيلة .	
٩ - إنما ذكروا أولاً قتله ثم طرحه بعد القتل في إحدى الآبار ، فسمع راويين وقال لا نقتله ، بل اطرحوه في البئر التي في البرية (تك ٣٧ : ٢٠ - ٢٢)	٩ - مؤامرة إخوته في شأنه كانت ثلاثية بين قتله أو طرحه أرضاً أو إلقائه في غيابة الجب (١٢: ١٠ و٩)
١٠ - أشار راويين بطرحه في البئر لا لكي يلتقطه بعض السيارة بل لينقذه من أيديهم ويرده فيما بعد لأبيه (تك ٣٧ : ٢٣)	١٠ - الذي أشار بإلقائه في الجب هو الذي قال يلتقطه بعض السيارة (١٢ : ١٠)
١١ - لا يوجد في مقابلته شيء لأن التوراة إنما تذكر أن يوسف ذهب لإخوته في المرعى بأمر أبيه بدون أن يكون لإخوته شعور بذلك (تك ٣٧ : ١٢ - ٢٠)	١١ - ﴿ قالوا : يا أبانا ، مالك لا تأمنا على يوسف - إلى قوله - لخاسرون ﴾ (١٢ : ١١ - ١٤)
١٢ - خلعوا عنه قميصه الملون الذي عليه وأما البئر فكانت فارغة ليس فيها ماء وبعد ما طرحوه فيها	١٢ - لا يوجد شيء في مقابلته

في التوراة	في القرآن الكريم
<p>جلسوا لياً أكلوا طعاماً (تك ٣٧ : ٢٣ - ٢٥)</p>	<p>١٣ - إخوة يوسف أنفسهم جاءوا إلى أبيهم عشاء يبكون (١٢ : ١٦)</p>
<p>١٣ - هم لم يجيئوا لأبيهم بل أرسلوا القميص الملون المنموس بالدم وأحضروه لأبيهم بواسطة الرسول الذي أرسلوه (تك ٣٧ : ٣١ و ٣٢)</p>	<p>١٤ - لم يكن من يعقوب بعد ما أخبر بافتراس الذئب لابنه ورأى على قميصه الدم - لم يكن منه إلا أنه قال: بل سولت لكم أنفسكم أمراً فصبر حميل (١٢ : ١٧ و ١٨)</p>
<p>١٤ - فمزق يعقوب ثيابه ووضع مسحاً على حقويه وناح على ابنه أياماً كثيرة فقام جميع بنيه ، وجميع بناته ليعزوه فأبى أن يتمزى ، وقال إني أنزل إلى ابني نائماً إلى الهاوية وبكى عليه أبوه (تك ٣٧ : ٣٤ و ٣٥)</p>	<p>١٥ - وجاءت سيارة فأرسلوا واردم فأدلى دلوه ، قال : يا بشرى هذا غلام وأسروه بضاعة .. الخ ﴿ (١٢ : ١٩) هذا هو نص القرآن فليس فيه ان الذين أخرجوه من البئر هم إخوته وليس فيه ان إخوته باعوه للسيارة ، بل السيارة أخرجته وأخذته مجاناً</p>
<p>١٥ - جاءت قافلة فسحبه إخوته من البئر وباعوه للقافلة (تك ٣٧ : ٢٦ - ٢٨)</p>	<p>١٦ - لا شيء في مقابلته .</p>
<p>١٦ - فيها أن راوبين لم يكن</p>	<p>١٦ - لا شيء في مقابلته .</p>

في التوراة	في القرآن الكريم
<p>معهم حينما باعوه فرجع إلى البئر ولم يجد أخاه فيها فمزق ثيابه ثم رجع إلى إخوته وقال: الولد ليس موجوداً وأنا إلى أين أذهب ، (تك ٣٧ : ٢٩ و ٢٨)</p> <p>١٧ - تذكر التوراة هنا في وسط سيرة يوسف ذكراً اقتضائياً لا يتطلبه ما قبله ولا ما بعده ما ملخصه .</p>	<p>١٧ - لا يوجد شيء في مقابلته ، وكأنه والله أعلم لهذا قال الله تعالى : ﴿ نحن نقص عليك أحسن القصص بما أوحينا إليك هذا القرآن ﴾ يشير إلى أنه لم يذكر هذه الحكاية المدرجة في التوراة أثناء قصة يوسف لأنها من أقبح القصص فلذلك تنزه عنها القرآن الكريم أن يذكرها .</p>
<p>أن يهوذا أحد الأسباب زنى بثامار كتته التي مات عنها زوجها ، ابنه غير ثم ابنه أونان ، فعمدت مترملة في بيت أبيها ، ثم كانت جلست في الطريق التي يمر منها يهوذا ، وكانت قد غطت وجهها ، فلم يعرفها أنها كتته فزنى بها بأجرة هي جدي من غنمه ، يرسله إليها ، فقالت هل تعطيني رهناً حتى ترسله ، فأعطاها خاتمه وعكازته وعمامته ، ولما كان نحو ثلاثة أشهر ، أخبر يهوذا وقيل له : قد زنت ثامار كنتك ، وها هي حبل أيضاً من الزنى ، فقال يهوذا : أخرجوها فتحرق ، أما</p>	

في التوراة	في القرآن الكريم
<p>هي فلما أخرجت أرسلت إلى حميها يهودا قائلة : أنا حبلى من الرجل الذي هذه الأشياء له وهي هذه المصاصة والمصا والخاتم ، فقال يهوذا : هي أبرمني (تك ٣٨ : ١ - ٢٦)</p>	<p>١٨ - ﴿ وقال الذي اشتراه من مصر لامرأته أكرمي مثواه ، عسى أن ينفعنا أو نتخذه ولداً .. إلى قوله ولنعلمه من تأويل الأحاديث .. الخ (٢١ : ١٢)</p>
<p>١٨ - لا يوجد في مقابله شيء</p>	<p>١٩ - ﴿ ولما بلغ أشده .. الخ الآية ﴿ (٢٢ : ٢٢)</p>
<p>١٩ - لا يوجد في مقابله شيء</p> <p>٢٠ - في التوراة أن امرأة العزيز قبلما دخل يوسف بيتها الخاص بها كانت رفعت عينيها إليه وقالت : اضطجع معي (تك ٣٩ : ٧ و ٨) فهذه مراودة أولى سابقة على المراودة التي وقعت منها وقتما دخل قصرها ليقوم بما كان عليه من الاعمال باعتبار أنه وكيل البيت .</p>	<p>٢٠ - ﴿ وراودته التي هو في بيتها .. الخ الآية ﴿ (١٢ : ٢٣)</p>

في التوراة	في القرآن الكريم
١١ - لا يوجد شيء في مقابلته	٢١ - ﴿وغلقت الأبواب﴾ (١٢: ٢٣)
٢٢ - لا يوجد لذلك ذكر ما إلا أنه ذكر بدل ﴿واستبقا الباب﴾ أن يوسف هرب وحده وهي لم تلحقه وذكر بدل: ﴿وقدت قميصه .. الخ﴾ أنها أمسكته بثوبه ، فترك ثوبه في يدها وهرب ، ولكن هي لم تلحقه ، وإنما قدمت ووضعت ثوبه بجانبها ، حتى جاء سيده إلى بيته ، فكلمته في هذا الموضوع (تك ٣٩ : ١١ - ٢٠)	٢٢ - ﴿واقدمت به وهم بها ، لولا أن رأى برهان ربه - إلى قوله - إنك كنت من الخاطئين﴾ (١٢: ٢٤-٢٨)
٢٣ - فكان لما سمع سيده كلام امراته الذي كلمته به قائلة بحسب هذا الكلام صنع بي عبدك أن غضبه حمي (تك ٣٩ : ١٥)	٢٣ - ﴿قال إنه من كيدكن إن كيدكن عظيم ، يوسف ، أعرض عن هذا ، واستغفري لذنبك إنك كنت من الخاطئين﴾ (١٢: ٢٨ و ٢٩)
٢٤ - لا يوجد لذلك ذكر ما	٢٤ - ﴿وقال نسوة في المدينة - إلى قوله - السميع العليم﴾ (١٢ : ٣٠ - ٣٤) .
٢٥ - فأخذ يوسف سيده ووضعه في بيت السجن .. وحدث بعد	٢٥ - ﴿ودخل معه السجن فتيان﴾ (١٢ : ٣٦) .

في التوراة	في القرآن الكريم
<p>هذه الأمور أن ساقى ملك مصر والخباز أذنباً إلى سيدهما ملك مصر ، فسخط فرعون على خصيه ، رئيس السقاة ورئيس الخبازين ، فوضعهما في حبس بيت رئيس الشرط ، في بيت السجن ، المكان الذي كان يوسف محبوساً فيه (تك ٣٩ و ٤٠) فهذا يفيد أن الفتيين لم يدخلوا السجن مع دخول يوسف ولكن بعد حين ، فيكون يوسف سبقها إليه وهما لحقاه .</p>	
<p>٢٦ - (وحلما كلاهما حلماً ... فدخل يوسف إليهما في الصباح ونظرهما وإذا هما مقفان ، فسأل .. لماذا وجها كما مكدان اليوم ؟ فقالا له حلماً حلماً ، وليس من يعبره ، فقال لهما يوسف ، أليست لله التعابير ؟ قصاً علي) (تك ٤٠ : ٥ - ٨) يفيد أن يوسف هو الذي بدأهما بالكلام وطلب إليهما أن يقصا عليه ، وأنها لم يحسا سابقاً بقدرته على التعبير .</p>	<p>٢٦ - ﴿ قال أحدهما إني أراني أعصر خمرأ - إلى قوله - من المحسنين ﴾ (١٢ : ٣٦) يفيد أنه هما اللذان بدأ بالسؤال وأنها كانا أحسباً منه المقدره على التعبير .</p>
يوسف م - ٩	

في التوراة	في القرآن الكريم
٢٧ - لا يقابله شيء	٢٧ - ﴿ قال : لا يأتيكما طعام ترزقانه - إلى قوله - ولكن أكثر الناس لا يعلمون ﴾ (١٢ : ٣٧ - ٤٠)
٢٨ - (في ثلاثة أيام أيضاً يرفع فرعون رأسك ، ويردك إلى مقامك فتعطي كأس فرعون في يده كالعادة الأولى حين كنت ساقيه) (تك ٤٠ : ١٣)	٢٨ - ﴿ أما أحدكما فيسقي ربه خمرأ ﴾ (١٢ : ٤١) .
٢٩ - (يرفع فرعون رأسك عنك ، ويملقك على خشبة ، وتأكل الطيور لحمك عنك) (تك ٤٠ : ١٩)	٢٩ - ﴿ وأما الآخر ، فيصلب . فتأكل الطير من رأسه ﴾ (١٢ : ٤١)
٣٠ - (وإنما إذا ذكرتني عندك حيناً يصير لك خير تصنع إلي إحساناً وتذكرني لفرعون) (تك ٤٠ : ١٤)	٣٠ - ﴿ وقال للذي ظن أنه ناجٍ . منها ؛ اذكرني عند ربك ، فأنسأه . الشيطان ذكر ربه ﴾ (١٢ : ٤٢)
٣١ - (وحدث من بعد سنتين من الزمان أن فرعون رأى حلاً .. الخ) (تك ٤١ : ١)	٣١ - ﴿ فلبث في السجن بضع سنين ، وقال الملك : إني أرى .. الخ (١٢ : ٤٢ و ٤٣) ،
٣٢ - كبير مصر الذي كان	٣٢ - ﴿ وقال الملك إني أرى ﴾ (آ : ٤٢)

في التوراة	في القرآن الكريم
<p>من الرعاة الهكسوس دعي في التوراة (فرعون) كما قال :</p> <p>(فسخط فرعون على خصيه رئيس السقاة ورئيس الخبازين) (تك ٤٠ : ٢) وقال : (فسأل خصيي فرعون اللذين معه في حبس بيت سيده) (تك ٤٠ : ٤) وقال : (في ثلاثة أيام يرفع فرعون رأسك) (تك ٤٠ : ٣) وقال : (وتذكرني لفرعون) (تك ٤٠ : ٥) وقال : (وفي السل الأعلى من جميع طعام فرعون) (تك ٤٠ : ١٧) إلى غير ذلك من المواضع .</p>	<p>﴿ وقال الملك إئتوني به ﴾ (آ ٥٤ و ٥٠)</p> <p>﴿ نفقد صواع الملك ﴾ (آ : ٧٢)</p> <p>﴿ في دين الملك ﴾ (آ : ٧٦) فلاحظ أنه يذكر دائماً كلمة « ملك » ولا يذكر كلمة « فرعون » لأن كلمة فرعون لقب لمن ملك مصر من الحكام الأقباط الوطنيين الأصليين إذ ذاك ، وأما الرعاة الهكسوس فليسوا من الوطنيين ، فلم يلقبوا بلقب فرعون .</p>
<p>٣٣ - دعي يوسف في التوراة (صفحات فنيح) (تك ٤١ : ٤٤) أي « طعام الحياة » أو « قوت الأحياء » أو « مخلص العالم » .</p>	<p>٣٣ - دعي يوسف في القرآن « بالصديق » (آ : ٤٦) وبالعزيز (آ : ٨٨) .</p>
<p>٣٤ - في التوراة أن فرعون أرسل فأخرج يوسف من السجن ، فلما صار بين يديه ، قص عليه حلمه ، فعبّره له (تك ٤١ : ١٤ - ٣١)</p>	<p>٣٤ - في القرآن أن الملك أرسل رئيس السقاة إلى يوسف ليقص عليه الحلم فذهب إليه رئيس السقاة ، وقص عليه الحلم ، وهو في السجن ، فعبّره له</p>

في التوراة	في القرآن الكريم
<p>٢٥ - (فقال فرعون لمبيده ، هل نجد مثل هذا رجلاً فيه روح الله ، ثم قال فرعون ليوسف بعدما أعلمك الله كل هذا ، ليس بصير وحكيم مثلك ، أنت تكون على بيتي ، وعلى فمك يقبل جميع شعبي ، إلا أن الكرسي أكون فيه أعظم منك ، ثم قال فرعون ليوسف : انظر قد جعلتك على كل أرض مصر) (تك ٤١ : ٣٨ - ٤١) ففيه أن فرعون هو الذي جعل يوسف على كل الأرض بدون أن يكون من يوسف طلب لذلك .</p> <p>٣٦ - (وأعطاه أسنات بنت</p>	<p>ثم رجع فأخبر الملك ، فطلب الملك الإتيان به إليه فامتنع يوسف من خروجه من السجن إلا بعد التحقيق عن الشيء ، فأجري التحقيق عن ذلك وظهرت براءته جلياً ، فلما تأكد الملك ذلك زاد فيه حباً فطلبه ثانياً فحضر بين يديه (آ : ٤٥ - ٥٤)</p> <p>٣٥ - ﴿ قال اجعلني على خزائن الأرض إني حفيظ عليم ﴾ (آ : ٥٥) ففيه أن يوسف هو الذي طلب من الملك جعله على خزائن الأرض .</p> <p>٣٦ - لا يوجد في مقابله شيء .</p>

في التوراة	في القرآن الكريم
<p>فوطى فارع كاهن أون زوجة له ... وولد ليوسف ابنان قبل أن تأتي سنة الجوع ، ولدتها له أسنات بنت فوطي فارع كاهن أون ، ودعى يوسف اسم البكر منسى ، قائلاً لأن الله أنساني كل تعبي وكل بيت أبي ، ودعا اسم الثاني أفرايم قائلاً لأن الله جعلني مشعراً في أرض مذلتني (تك ٤١ : ٤٥ - ٥١) ٣٧ - نعلم من التوراة أن يوسف صار ثاني الملك بمصر ، أي كرئيس وزراء أو كصدر أعظم أو كوكيل عن الملك ، وأن الملك سلمه خاتمه (تك ٤١ : ٤٠ - ٤٤)</p>	<p>٣٧ - نعلم من القرآن أن يوسف كان على خزائن الأرض وكان عزيزاً بمصر (آ : ٥٥ و ٨٨)</p>
<p>٣٨ - يذكر في التوراة أن إخوة يوسف لما أتوا إليه في السفارة الأولى يمتارون سجوداً له بوجوههم إلى الأرض ، (تك ٤٢ : ٦)</p>	<p>٣٨ - ﴿ وجاء إخوة يوسف ، فدخلوا عليه ، فعرفهم ، وهم له منكرون ﴾ (آ : ٥٨) .</p>
<p>٣٩ - وأما في التوراة فإن يوسف سلك مع إخوته في سبيل إتيانهم بأخيهم مسلك إزعاج وإعنات حيث</p>	<p>٣٩ - ﴿ ولما جهزم بجهازهم ، قال اتوني بأخ لكم من أييكم ، ألا ترون أنني أوفي الكيل ، وأنا خير المنزلين ،</p>

في التوراة	في القرآن الكريم
<p>(تكلم معهم بجفاء وقال لهم جواسيس أتم ، لتروا عورة الأرض جثم بهذا تمتحنون ، وحياة فرعون لا تخرجون من هنا إلا بمجيء أخيك الصغير إلى هنا ، أرسلوا منكم واحداً ليجيء بأخيك ، وأتم تجسسون فيمتحن كلامكم ، هل عندكم صدق ، وإلا فوحياة فرعون إنكم لجواسيس ، فجمعهم إلى حبس ثلاثة أيام ، ثم قال لهم يوسف في اليوم الثالث ، لعلوا هذا واحيوا ، أنا خائف الله إن كنتم أمناء فليجس أنخ واحد منكم في بيت حبسكم ، وانطلقوا أتم وخذوا قمحاً لمجاعة بيوتكم ، وأحضروا أخاك الصغير إليّ ، فيتحقق كلامكم ولا تموتوا ، ففعلوا هكذا .. وأخذ منهم شمعون وقيده أمام عيونهم) (تك ٤٢ ٧-٢٤)</p>	<p>فإن لم تأتوني به ، فلا كيل لكم عندي ولا تقربون ﴿ (آ : ٥٩ و ٦٠) ﴾ ويفهم منه أن يوسف سلك مع إخوته في سبيل إتيانهم بأخيه مسلك ترغيب وتشويق ، لا مسلك إزعاج وإرهاب .</p>
<p>٤٠ - (وإذا كانوا يفرغون عدلهم إذا صرة فضة كل واحد في عدله فلما رأوا صرر فضتهم هم وأبوم</p>	<p>٤٠ - ﴿ ولما فتحوا متاعهم ، وجدوا بضاعتهم ردت إليهم ، قالوا يا أبانا ما نبغي ؟ هذه بضاعتنا ردت</p>

في التوراة	في القرآن الكريم
<p>خافوا) (تك ٤٢ : ٣٥) لظنهم أن ذلك وسيلة إلى تخطئتهم وسجنهم هناك. متى رجعوا إلى مصر بأخيهم بنيامين. (السنن القويم)</p>	<p>إلينا ﴿ (٦٥:١٢) فيه أنهم لم يتخوفوا من رؤيتهم الفضة مردودة في عدالهم، بل استبشروا بذلك وجرؤوا أن يكلموا أباهم ثانياً في إرسال أخيه معهم.</p>
<p>٤١ - لا يوجد في مقابلته شيء ما</p>	<p>٤١ - ﴿ قال لن أرسله معكم حتى تؤتون ... إلى قوله - ولكن أكثر</p>
<p>٤٢ - (فقال لهم إسرائيل أبوم، إن كان هكذا فافعلوا هذا : خذوا من أفخر جني الأرض في أوعيتكم ، وأنزلوا للرجل هدية، قليلاً من البيلسان، وقليلاً من المسل وكثيراًء ولاذناً، وفتقاً ولوزاً) (تك ٤٣ : ١١) -</p>	<p>الناس لا يعلمون ﴿ (٦٦:١٢-٦٨) ٤٢ - لا يوجد في مقابلته شيء</p>
<p>٤٣ - في التوراة أن إخوة يوسف - الأحد عشر عندما جاءوا له في سفرتهم الثانية، خروا وسجدوا (تك ٤٣ : ٢٨) ، وهذا كان تمام الحلم الأول وهو أن حزمهم الاحدى عشرة سجدت لحزمته. (السنن القويم)</p>	<p>٤٣ - لا يوجد شيء ما حيث القرآن لم يذكر الرؤيا الأولى فلم يذكر تأويلها .</p>
<p>٤٤ - (فرجع عينيه ونظر بنيامين،</p>	<p>٤٤ - ﴿ واما دخلوا على يوسف</p>

في التوراة	في القرآن الكريم
<p>أخاه ابن أمه ، وقال : أهذا أخوكم الصغير الذي قلم لي عنه ؟ ثم قال : الله ينعم عليك يا ابني) (تك ٤٣ : ٢٩) وعلى هذا يكون بنيامين لم يعرف يوسف وطبعاً يكون قد وضع الطاس في عدله بدون تواطؤ بينها وهذا ما يستبعده العقل .</p>	<p>آوى إليه أخاه ، قال إني أنا أخوك فلا تبتئس بما كانوا يعملون ﴿ (١٣ : ٦٩) وعلى هذا يكون يوسف تعارف مع بنيامين ، ويكون طبعاً تواطأ معه على وضع الطاس في عدله، وهذا أقبل للعقل .</p>
<p>٤٥ - لا شيء في مقابله .</p>	<p>٤٥ - ﴿ فلما جهزهم بجهازهم ، جعل السقاية - إلى قوله - والله أعلم بما تصفون ﴾ (١٢ : ٧٠ - ٧٧)</p>
<p>٤٦ - تذكر التوراة هذا عن لسان يهوذا حيث يقول ليوسف (فالآن ليمكث عبدك عوضاً عن الغلام عبداً لسيدي ، ويصعد الغلام مع إخوته ، لأنني كيف أصعد إلى أبي والغلام ليس معي ، لئلا أنظر الشر الذي يصيب أبي) (تك ٤٤ : ٣٣ و ٣٤)</p>	<p>٤٦ - ﴿ قالوا : يا أيها العزيز ، إن له أباً شيخاً كبيراً فخذ أحدنا مكانه إنا نراك من المحسنين ، قال معاذ الله أن نأخذ إلامن وجدنا متاعنا عنده ، إنا إذاً لظالمون ﴾ (١٢ : ٧٨ و ٧٩)</p>
<p>٤٧ - لا يوجد في مقابله شيء</p>	<p>٤٧ - ﴿ فلما استياسوا منه خلصوا نحيماً - إلى قوله - سأستغفر لكم ربي إنه هو الغفور الرحيم ﴾ (١٣ : ٨٠ - ٩٨)</p>
<p>٤٨ - المذكور في التوراة ان إخوة يوسف إنما سافروا إليه سفرتين</p>	<p>٤٨ - يوجد في القرآن الكريم لأن إخوة يوسف سافروا إليه ثلاث</p>

في التوراة

فقط وأنه أظهر نفسه لهم بعد سفرتهم الثانية على أثر تسريق أخيه بنيامين ، وعليه فهم لم يرجعوا إلى أبيهم للشام إلا وهم مخبروه بظهور يوسف وانكشافه لهم ، وقبل الختام نقول على حسب التوراة تكون سفراتهم لمصر ثلاث فقط .

٤٩ - لا يوجد في مقابلته شيء

٥٠ - قال بعد قصة موت يعقوب ودفنه : (وأتى إخوته أيضاً ووقفوا أمامه) (تك : ٥٠ : ١٨) ففيه أن هذا السجود من إخوته له كان بعد موت أبيهم ودفنه ، وفيه أن الساجدين هم الاخوة فقط ، دون الأبوين طبعاً .

في القرآن الكريم

سفرات وأنه إنما أظهر نفسه لهم بعد سفرتهم الثالثة وبعد أن كانوا رجعوا إلى الشام لأبيهم وأخبروه بسرقة بنيامين ، وقبل الختام نقول على حسب القرآن الكريم تكون سفراتهم لمصر أربع مرات .

٤٩ - ﴿ فلما دخلوا على يوسف آوى إليه أبويه - إلى أن قال - ورفع أبويه على العرش ﴾ (١٢ : ٩٩ و ١٠٠)

٥٠ - ﴿ وخروا له سجداً ﴾ (١٢ : ١٠٠) ففيه أن خروهم له سجداً كان على أثر دخولهم مصر ، وطبعاً كان قبل موت أبيهم ، وفيه أن الخارين له سجداً ، ليس الاخوة فقط ، بل هم وأبواه ، إن أرجع ضمير الفاعل للاخوة والأبوين ، وأما إن أرجع للاخوة فقط دون الأبوين كما هو ظاهر الآية الكريمة لم يكن هناك تخالف من هذه الجهة الثانية .

في التوراة	في القرآن الكريم
٥١ - لا يقابله شيء	٥١ - ﴿وقال : يا أبت ، هذا تأويل رؤياي من قبل - إلى قوله - إنه هو العليم الحكيم﴾ (١٢ : ١٠٠)
٥٢ - (وقال يوسف لإخوته : أنا أموت ولكن الله سيفتدكم ويصعدكم من هذه الأرض إلى الأرض التي حلف لإبراهيم وإسحق ويعقوب ؛ واستحلف يوسف ببني إسرائيل قائلاً : الله سيفتدكم فتصعدون عظامي من هنا ، ثم مات يوسف وهو ابن مئة وعشر سنين ، فحفظوه ووضع في تابوت في مصر) (تك : ٥٠ : ٢٥ و ٢٦) (هتاف وتصفيق حاد من الجميع)	٥٢ - ﴿وتوفي مسلماً وألحقني بالصالحين﴾ (١٢ : ١٠١)

أحسن القصص

- ٢ -

قال الشيخ محمود الخليلي (١) :

قصص التوراة

أحسنه أكثره فوائد وعبرة وذكري وعظة ، وأصدق وأشدّه موافقة للعقل والشرف والدين ، بخلاف الكتب التي بين أيدي اليهود مثلاً فإن فيها ما لا يوافق

(١) نسبة إلى بلدة خليل الرحمن من فلسطين

العقل ولا النقل ، وليس فيها شيء من الفائدة التي تعود على القارىء بتطهير الروح وامتلاء القلب من مخافة الله ، وإني مع حرصى - والله - على عدم مساس إحساس إخواننا أهل الكتاب بجرح عواطفهم - ذا كراً قليلاً من الشيء الكثير الذي عثرت عليه فيما يسمونه (بالتوراة) ، فأليك البيان :

(غلط التوراة في قولها انه يوم ليل ونهار قبل ما طابت الشمس)

(١) قال في سفر التكوين : « وقال الله ليكن نور ، فكان نور ، ورأى الله النور أنه حسن ، وفصل الله بين النور والظلمة ، ودعا الله النور نهارةً ، والظلمة ليلاً ، وكان مساءً وكان صباح يوماً واحداً ، (تك ١ : ٣ - ٥) ثم قال : « وقال الله لتكن أنوار في جلد السماء لتفصل بين النهار والليل ، وتكون آيات وأوقات وأيام وسنين ، وتكون أنواراً في جلد السماء لتشير على الأرض ، وكان كذلك فعمل الله النورين العظيمين ، النور الأكبر لحكم النهار ، والنور الأصغر لحكم الليل ، والنجوم وجعلها الله في جلد السماء لتشير على الأرض ، ولتحكم على النهار والليل وتنفصل بين النور والظلمة ، ورأى الله ذلك أنه حسن ، وكان مساءً وكان صباح يوماً رابعاً ، (تك ١ : ١٤ - ١٩) فهذا النص يفهم منه ان الشمس خلقت في اليوم الرابع ، ولكنه ذكر قبل خلقها انه كان نهار وليل وأيام ، ومن المعلوم لكل إنسان أن لا نهار بلا شمس ، لأن النهار هو الوقت الذي بين طلوع الشمس وبين غروبها ، بدليل قوله في أول ذلك الإصحاح : (ودعا الله النور نهارةً والظلمة ليلاً) فذكره وجود النهار والليل قبل خلق الشمس غلطاً ، فسبحان من قص علينا أحسن القصص بما أوحى إلينا هذا القرآن .

مخالفة التوراة لعلم النشوء والتري

(٢) - قال في سفر التكوين : « فأوقع الرب الإله سُبَاتاً على آدم ، فأخذت واحدة من أضلاعه وملاً مكانها لحماً ، وبني الإله الضلع التي أخذها من آدم امرأةً وأحضرها الى آدم ، فقال آدم : هذه الآن عظم من عظامي ولحم من لحمي ، هذه تدعى امرأة ، لأنها من امرئٍ خلقت ، (تك ٢ : ٢١ - ٢٣) وفيه تصريح ونص بأن حواء خلقت من جسد آدم ، وهو مخالف للعلم الحديث ، (علم النشوء والتري) ، ونحن المسلمون لا نكاف تصديق تاريخ اليهود وإن عزوه الى موسى عليه السلام ، فإنه لا ثقة عندنا بأنه من التوراة وأنه بقي كما جاء به موسى ، ولا نحتاج على ما وراء مدركات الحس والعقل إلا بالوحي الذي جاء به نبينا ، وإنما نقف عند هذا الوحي ، لا نزيد ولا ننقص ، كما أنا لا نتأكد ولا ننجزم بصحة (علم النشوء والتري) ولكن إذا ثبت هذا العلم كان غير معارض لكتابنا كما يعارض كتاب اليهود ، نحن لا نقول إن القرآن ينفي الاعتقاد المنصوص في التوراة وإنما نقول إنه لا يثبت إثباتاً قطعياً لا يحتمل التأويل ، وعليه فإذا صح ما تقوله التوراة وبطل ما يقوله علم النشوء والتري وبطل ما تقوله التوراة أمكن أيضاً حمل القرآن عليه ، قال تعالى : ﴿ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا ﴾ (٤ : ١) فمعناه كما قاله أبو مسلم خلقه من جنسها فكان مثلها ، فهو كقوله تعالى : ﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً ﴾ (١٦ : ٧١) ، وقوله تعالى : ﴿ فَاطِرُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا ﴾ (٤٢ : ١١) ، وقوله تعالى : ﴿ لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ ﴾ (٩ : ١٢٨) ، وقوله تعالى : ﴿ لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْ أَنْفُسِهِمْ ﴾ (٣ : ١٦٤) ، فسبحان من قص علينا أحسن القصص بما أرحى إلينا هذا القرآن .

قول التوراة بأن الله ينهى عن العلم وأسبابه

(٣) قال في سفر التكوين « وأوصى الرب الإله آدم قائلاً : من جميع شجر الجنة تأكل كلُّ أكلاً، وأما شجرة معرفة الخير والشر فلا تأكل منها ، لأنك يوم تأكل منها موتاً تموت ، (تك ٢ : ١٦ و ١٧) - الى أن يقول - (فقالت الحية للمرأة - لن تموتاً ، بل الله عالم أنه يوم تأكلان منه تفتح أعينكما وتكونان كالله عارفين الخير والشر ، فرأت المرأة أن الشجرة جيدة للأكل وأنها بهجة للعيون ، وأن الشجرة شبيهة للنظر ، فأخذت من ثمرها وأكلت وأعطت زوجها أيضاً معها فأكل ، فانفتحت أعينها وعلما أنها عريانان ، (تك ٣ : ٤ - ٧) الى ان يقول - « من أعلمك إنك عريان ؟ ، هل أكلت من الشجرة التي أوصيتك أن لا تأكل منها ؟ فقال آدم : المرأة التي جعلتها معي هي أعطتني من الشجرة فأكلت ، - فقال الرب الإله للمرأة : ماهذا الذي فعلتِ ؟ - فقالت المرأة : الحية غرتني فأكلت ، فقال الرب الإله للحية : لأنك فعلتِ هذا ملعونة أنت من جميع البهائم ، ومن جميع وحوش البرية ، على بطنك تسعين ، وتراباً تأكلين كل أيام حياتك ، وأضعُ عداوة بينك وبين المرأة وبين نسلِك ونسليها ، هو يسحق رأسك ، وأنتِ تسحقين عقبه ، وقال للمرأة : تكثيراً أكثر أتعاب حَبَلِك ، بالوجع تلدين أولاداً ، وإلى رجلِك يكون اشتياقك ، وهو يسود عليك ، وقال لآدم : لأنك سمعت لقول امرأتك وأكلت من الشجرة التي أوصيتك قائلاً : لا تأكل منها ، ملعونة الأرض بسببك ، بالتعب تأكل منها كل أيام حياتك ، وشوكاً وحسكاً تنبت لك ، وتأكل عشب الحقل بمرق وجهك تأكل خبزاً حتى تعود إلى الأرض التي أخذتَ منها لأنك تراب ، وإلى تراب تعود) (تك ٣ : ١١ - ١٩) ، فهذا النص يصرح بأن الله تعالى ينهى

عن العلم وعن أسبابه ، ولا يريد للانسان أن يعرف الخير من الشر ، ولا أن يفرق بينها ، بل يجب أن يبقى جاهلاً ، ونعلم من هذا الكلام أيضاً أن الحية كانت على العكس من هذا الذي أراد الله للانسان ، فهي أرادت للانسان ، أن يعرف الخير والشر ، وأن يأخذ في أسباب الفرق بينها ، وأن يكون له بصيرة نيرة ، وهكذا المرأة تبعت الحية في هذه الفكرة وهذا العمل ، ومع الأسف نرى الله - حاشاه - عاقب كلاً من آدم وحواء والحية على مساعيهم للعلم وأسبابه ، وخروج الإنسان من دائرة الجهل والغباوة ، نرى كل هذا في سفر التكوين ، ولكن القرآن الكريم لم يقل أن هذه الشجرة هي شجرة معرفة الخير والشر ، كيف وأنه في مواضع كثيرة بحث على العلم وأسبابه ، ويحض على معرفة الخير والشر ، وعلى كل الأسباب التي توصل لذلك ، ولكن الشجرة التي نهي عنها في القرآن لا شك إنها شجرة خبيثة من شأنها ضياع العلم والإدراك وتهتك الإنسان وتكشفه « وربما كانت هي شجرة الخشخاش أو الحشيش ونحو ذلك كما ارتآه بعض إخواننا المصريين المصريين ، فسبحان من قص علينا أحسن القصص بما أوحى إلينا هذا القرآن الكريم .

غلط التوراة بقولها إن الحية تفتذي بالتراب

(٤) - قال في سفر التكوين خطاباً للحية (وتراباً تأكلين كل أيام حياتك) (تك ٣ : ١٤) ، وقد ثبت عند علماء الحيوان أن الحية لا تأكل التراب ، ولكنها فيما تأكل كباقي الحيوانات من حشرات الأرض أو من الطيور وغيرها ، والقرآن الكريم لم يتعرض لهذه القصة التي تنافي الفن ، والواقع ، فسبحان من قصص علينا أحسن القصص بما أوحى إلينا هذا القرآن العظيم .

نسبة التوراة السكر لنوح وانه لعن من لم يسيء

(٥) - قال في سفر التكوين (وابتدأ نوح يكون فلاحاً ، وغرس كرمًا ، وشرب من الخمر فسكر ، وتعرى داخل خبائه ، فأبصر حام أبو كنعان عورة أبيه ، وأخبر أخويه خارجاً - إلى أن يقول فلما استيقظ نوح من خمره علم ما فعل به ابنه الصغير ، فقال : ملعون كنعان ، عبد العبيد يكون لإخوته) (تك : ١٠ - ٢٥) فيه نسبة شرب الخمر والسكر لنوح عليه السلام ، وفيه لعن من لم يسيء وهو كنعان ، والسكوت عن المسيء وهو حام ، ولكن القرآن الكريم يذكر نوحاً بالنبوة والرسالة والهدى ، ويقول ﴿ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى ﴾ (٦ : ١٦٤) ، فسبحان من قص علينا أحسن القصص بما أوحى إلينا هذا القرآن .

نسبة التوراة الرباثة لابراهيم (حاشاه) والرد على ذلك

(٦) - قال في سفر التكوين (وحدث جوع في الأرض ، فانهدر أبرام إلى مصر ، ليتغرب هناك ، لأن الجوع في الأرض كان شديداً ، وحدث لما قرب أن يدخل مصر أنه قال لساراي امرأته : إني قد علمت إنك امرأة حسنة المنظر فيكون إذ رآك المصريون أنهم يقولون : هذه امرأته ، فيقتلونني ويستبقونك ، قولي : إنك أختي ، ليكون لي خير بسببك ، وتحيا نفسي من أجلك ، فحدث لما دخل أبرام إلى مصر أن المصريين رأوا المرأة أنها حسنة جداً ، ورآها رؤساء فرعون ، ومدحوها لدى فرعون ، فأخذت المرأة إلى بيت فرعون ، فصنع إلى أبرام خيراً بسببها ، وصار له غنم وبقر وحمير وعبيد وإماء وأتت وجمال ، فضرب

الرب فرعون وبيته ضرباتٍ عظيمةً ، بسبب ساراي امرأة أبرام ، فدعى فرعون أبرام ، وقال : ما هذا الذي صنعت بي ؟ لماذا لم تخبرني أنها امرأتك ؟ لماذا قلت هي أختي ؟ حتى أخذتها لي لتكون زوجتي ، والآن هو ذا امرأتك ، خذها واذهب فأوصى فرعون رجالاً فشيعوه وامراته وكل ما كان له ، فصعد أبرام من مصر هو وامراته وكل ما كان له ، (تك ١٢ : ١٠ - ٢٠) ولنا أدلة على ضعف وركاكة هذه القصة :

الدليل الاول : - انه قد ذكر شارح التوراة في شرحه المسمى (السنن القويم) أن السيدة سارة كانت حينئذ ابنة أكثر من ستين سنة ، فطبعاً كانت في سن الشيخوخة ، فليس فيها ما يجذب فؤاد المصريين وفرعون مصر .

الدليل الثاني : - هذا القصص يفيد أن سيدنا إبراهيم - حاشاه - جعل زوجته حباله يصيد بها أموال الناس بالباطل ، ويخدع بها قلوبهم ، كما يعلمنا أن سيدنا إبراهيم سمح أن ينام هو في إحدى الخانات مثلاً وزوجه في قصر فرعون محتلياً بها ، وكل هذا منتهى الانحطاط ، ومن أعظم أمثلة السقوط ، وكل ذلك لا يجوز في شأن الأنبياء الذين منهم سيدنا إبراهيم عليه السلام بالإجماع من طوائف المسلمين ، وأيضاً قوله « انها أختي » . - ولو مع إرادة أنها أخته في الدين أو أخته من أبيه لا من أمه - لا يخرج الكلام عن دائرة الكذب ، لأنه بمنزلة نص صريح على أنها ليست بزوجة له مطلقاً ، فالقول بأنه تعريض لهو في غاية الضعف .

الدليل الثالث : - تروي لنا التوراة أنه كان لإبراهيم عليه السلام أتباع وعشيرة وعبيد ، حتى إنه كان عنده من الغلمان المتصنين ولذدان بيته ثلاثمائة وثمانية عشر (تك ١٤ : ١٤) ، فاذا كان كذلك يبعد كل البعد أن يذهب سيدنا

إبراهيم بنفسه لجلب الطعام من مصر ، إذا كان يمكنه أن يرسل من أتباعه وغلماؤه .
من يريد .

الدليل الرابع : إذا أمكننا نفهم أن إبراهيم عليه السلام رحل بنفسه الى مصر أيام الجوع لأجل جلب الطعام - فلا يمكننا أن نفهم حكمة سفر زوجته معه ، إذ كان يمكنه أن يبقيا في قبتا محاطة بعبيد وعشيرته وابن أخيه لوط عليه السلام ، فقصه أخذه في سفرته هذه زوجته ساراي ركيكة وضعيفة جداً .

الدليل الخامس : - هذه القصة تعلمنا تفضيل فرعون الوثني على سيدنا إبراهيم - والعياذ بالله - في كراهة الكذب والخداع والغش والتفجير والحيلة - في الخوف من الله تعالى ومراقبته - في المروءة والحمية والنخوة ، وتبرهن لنا هذه القصة أن فرعون مصيب وبار أكثر من سيدنا إبراهيم عليه السلام - حاشاه - وأنه يخاف الله أكثر ، وكل هذا باطل ، فالقصة إذاً باطلة من أصلها ، على أنه ماذا كان إثم فرعون . وقد أخذ ساراي برضى سيدنا إبراهيم - على زعمهم - حسب ما ظهر له وأنه أحسن مهرها ، ولقد كان يعتقد أنها أخت إبراهيم لا امرأته ، فلماذا يضرب الرب فرعون . وبيته ضربات عظيمة بسبب أخذه ساراي ؟

(٧) - قال في سفر التكوين (وانتقل إبراهيم من هناك إلى أرض الجنوب ، وسكن بين قادش وشور ، وتغرب في جرار ، وقال إبراهيم عن سارة امرأته : هي أختي ، فأرسل أيبالك ملك جرار وأخذ سارة ، فجاء الله إلى أيبالك في حلم الليل ، وقال له : ها أنت ميت من أجل المرأة التي أخذتها ، فإنها متزوجة بيمل ، ولكن لم يكن أيبالك قد اقترب إليها ، فقال : يا سيد ، أمة بارة تقتل ؟ ألم يقل هولبي : إنها أختي ، وهي أيضاً نفسها . قالت : هو أخي ؟ ، بسلامة قلبي ونقاوة يدي فعلت هذا - فقال له الله في الحلم : أنا أيضاً علمت أنك بسلامة قلبك فعلت .

هذا ، وأنا أيضاً أمسكتك عن أن تخطيء إليّ ، لذلك لم أدعك تمسها ، فالآن رد امرأة الرجل فإنه نبيّ ، فيصلي لأجلك فتحيا ، وإن كنت لست تردها فاعلم أنك موتاً تموت ، أنت وكل من لك ، فبكر أبيالك في الغد ، ودع جميع عبيده ، وتكلم بكل هذا الكلام في مسامعهم ، يخاف الرجال جداً ، ثم دعا إبراهيم وقال له : ماذا فعلت بنا ؟ وماذا أخطأت اليك ؟ حتى جلبت عليّ وعلى مملكتي خطية عظيمة ، أعمالاً لا تعمل عملت ، وقال أبيالك لإبراهيم : ماذا رأيت حتى عملت الشيء ؟ فقال إبراهيم : إني قلت : ليس في هذا الموضع خوف الله فيقتلونني لأجل امرأتي ، وبالْحَقِيقَةُ أيضاً هي أختي ابنة أبي ، غير أنها ليست ابنة أمي ، فصارت لي زوجة ، وحدث لما أتاهني الله من بيت أبي أني قلت لها : هذا معروفك الذي تصنعين إليّ ، في كل مكان تأتي اليه قولي عني : هو أخي ، فأخذ أبيالك غنماً وبقراً وعبيداً وإماءً وأعطاهما لإبراهيم ، وردت اليه سارة امرأته ، (تك ٢٠ : ١ - ٤) فالتوراة التي بين أيدي اليهود تصور إبراهيم عليه السلام بصورة رجل عديم مروءة اتخذ زوجته حباله يتصيد بها أموال الناس بالباطل ، الأمر الذي لا يرضاه لنفسه أحسن الناس وأحققر بل أسفل العالم ، وكل عاقل لا يرتاب أن ليس لهذه الحادثة مع أبيالك ، ولا لتلك الحادثة مع فرعون مصر نصيب من الصحة ، إلا اذا كان مصاباً في عقله وشرفه .

نسبة التوراة السكر لإبراهيم حاشاه

(٨) - نعلم من سفر التكوين أن إبراهيم بينما كان راجعاً من شرقي الأردن إلى فلسطين مرّ ببنهانه على أورشليم ، فخرج له ملكها « ملكي صادق » وأخرج له خبزاً وخمراً ، لإنعاشه وإنعاش جنوده الذين معه (انظر تك ١٤ : ١٨) ، ولكن القرآن الكريم يقول عن الحجر في سورة البقرة : ﴿ يسألونك عن الحجر ،

والليسير ، قل : فيها إثمٌ كبيرٌ ، ومنافعٌ للناس ، وإثمُها أكبرٌ من نفعِها ﴿ (٢ : ٢١٩) ، ويقول في سورة المائدة : ﴿ يا أيها الذين آمنوا إنما الحمرُ والليسيرُ والأنصابُ والأزلامُ رجسٌ من عملِ الشيطانِ ، فاجتنبوه لعلَّكم تفلحون ، وإنَّها يُريدُ الشيطانُ أن يُوقِعَ بينكم العداوةَ والبغضاءَ في الحمرِ والميسرِ ويصدَّكم عن ذِكْرِ اللهِ وعن الصلاةِ ، فهل أنتم مُنتهون ؟ ﴾ (٥ : ٩٣ و ٩٤) ، فقصص التوراة التي بين أيدي اليهود هو من أقبح القصص بالنسبة للخمر ، ولكن قصص القرآن الكريم فيها كغيرها ، هو أحسن القصص .

غلط التوراة بقولها أن الملائكة يأكلون

(٩) — قال في سفر التكوين عن إبراهيم لما جاءته الملائكة بالبشرى : (ثم أخذ زبدًا ولبنًا والمجل الذي عمله ، ووضعها قدامهم ، وإذا كان هو واقفًا لديهم تحت الشجرة أكلوا) (تك ١٨ : ٨) ، وقال أيضاً (فجاء الملاك إلى سدوم مساءً ، وكان لوط جالساً في بلب سدوم ، فلما رآها لوط قام لاستقبالها وسجد بوجهه إلى الأرض ، وقال : يا سيدي ميلا إلى بيت عبدك وبيننا واغسلا أرجلكما ، ثم تبران وتذهبان في طريقكما ، — فقالا له : بل في الساحة نبيت ، — فألح عليها جداً ، فملا إليه ودخلا بيته ، فصنع لها ضيافة ، وخبزاً فطيراً ، فأكلا) (تك ١٩ : ١-٣) ، نعلم من هذين النصين أن الملائكة أكلت عند إبراهيم ولوط عليها السلام وهو خلاف ما أجمعت عليه أصحاب الملل والنحل من أن الملائكة لا يأكلون ولا يشربون ، وهو الذي نتعلمه من القرآن الكريم الذي يقص أحسن القصص ، وهو أيضاً الذي نتعلمه من سفر القضاة ، حيث قال : (فقال منوح لملاك الرب : دعنا نعوذك ، ونعمل لك جذي مِعزَى ، فقال الرب منوح : ولو عوقتي لا آكل من خبزك ، وإن عمات محرقةً فللرب أصعدها ، لأن منوح لم يعلم أنه ملاك الرب) (قضى ١٣ : ١٥ و ١٦) .-

نسبة التوراة السكر والزني الى لوط هاشاه

(١٠) - قال في سفر التكوين: (وصعد لوط من صوغر وسكن في الجبل وابنتاه معه ، لأنه خاف أن يسكن في صوغر ، فسكن في المغارة هو وابنتاه ، وقالت البكر للصغيرة : أبونا قد شاخ وليس في الأرض رجل ليدخل علينا كعادة كل الأرض ، هلم نسقي أبانا خمرأ ونضطجع معه ، فنحبي من أيننا نسلأ ، فسقتا أباهما خمرأ في تلك الليلة ، ودخلت البكر واضطجعت مع أبيها ، ولم يعلم باضطجاعها ولا بقيامها ، وحدث في الغد أن البكر قالت للصغيرة : إني قد اضطجعت البارحة مع أبي ، نسقيه خمرأ الليلة ، فادخلي اضطجعي معه ، فنحبي من أيننا نسلأ ، فسقتا أباهما خمرأ في تلك الليلة أيضاً ، وقامت الصغيرة واضطجعت معه ، ولم يعلم باضطجاعها ولا بقيامها ، فحبلت ابتا لوط من أبيها ، فولدت البكر ابناً ودعت اسمه (موآب) وهو أبو الموءابين إلى اليوم ، والصغيرة أيضاً ولدت ابناً ودعت اسمه (بن عمتي) وهو أبو بني عمون إلى اليوم) (تك ١٩ : ٣٠ - ٣٨) ولسنا نريد أن نقول إن هذه القصة باطلة لأنها تنافي عصمة لوط النبي ، فإننا نعلم ان أهل الكتاب لا يقولون بنبوة لوط ، ولكننا نتقد على هذه القصة بأنها تعلم قراءها من رجال ونساء الرذيلة وأعمال الفحش ، وتثبت فيهم روح الدعارة وانحطاط الأخلاق ، الأمر المضاد لما هو المقصود من الوحي السماوي ، وليس من فائدة لقراء هذه القصة سوى فساد الأخلاق ، فتبارك الله الكريم الذي يقول ﴿ نحن نقص عليك أحسن القصص بما أوحينا إليك هذا القرآن ﴾ .

دعوى التوراة أن إسحاق ديوث كأبيه حاشاها

(١١) - قال في سفر التكوين. (وكان في الأرض جوع غير الجوع الأول الذي كان في أيام إبراهيم ، فذهب إسحاق إلى أبيالك ملك الفلسطينيين إلى جرار إلى ان يقول فأقام إسحق في جرار ، وسأله أهل المكان عن امرأته ، فقال : هي أختي ، لأنه خاف أن يقول امرأتي ، لعل أهل المكان يقتلونني من أجل رفقة ، لأنها كانت حسنة المنظر ، وحدث إذ طالت له الأيام هناك أن أبيالك ملك الفلسطينيين أشرف من الكوة ونظر وإذا إسحق بلاعب رفقة امرأته ، فدعا أبيالك إسحق ، وقال : إنما هي امرأتك ، فكيف قلت : هي أختي ؟! - فقال له إسحق : لأنني قلت : لعلني أموت بسببها ، - فقال أبيالك : ما هذا الذي صنعت بنا ؟ لولا قليل لاضطجع أحدُ الشعب مع امرأتك ، فجلبت علينا ذنباً ، فأوصى أبيالك جميع الشعب قائلاً : الذي يمس هذا الرجل أو امرأته موتاً يموت) (تك ٢٦ : ١ - ١١)

قال في شرح التوراة المسمى بالسنة القويم : (جرى إسحق في هذا على سنن أبيه (ص ٢٢٠) ، وكانت علته علة أبيه عينها ، ولكن ملك جرار لم يأخذ هنا رفقة ، كما أخذ الذي قبله سارة ، ولم يُعطِ هذا إسحق ، كما أعطى ذاك إبراهيم وعرف هذا بعد ذلك . أن رفقة امرأة إسحق ، وأخيراً طرده من أرضه فبعد عنه - ثم قال - في هذه الآيات دليل قاطع على حسن أخلاق أبيالك وعظيم مروءته ، ويان أن علة كذب إسحاق كانت كملة كذب إبراهيم أبيه) هذا كلام الشارح بالحرف ، وأما نحن فنقول : لعل هذا التعليم الفاسد هو الذي أفسد أخلاق اليهود وجعلهم يفادون بنسائهم وبناتهم في سبيل الحصول على سلامة الحياة والمنفعة المادية ، ولا يبالون بهذا الأمر البتة ، كما هو معروف في يهود بلاد الشام والعراق وفلسطين ونحوهم .

تعليم التوراة الكذب والمكر ومحبة الحمرة وحب الذات والحسد

(١٢) - قال في سفر التكوين : « وحدث لما شاخ إسحق وكلت عيناه عن النظر أنه دعا عيسو ابنه الأكبر ، وقال له : يا ابني - فقال له : ها أنا ذا - فقال : إنني قد شخت ولست أعرف يوم وفاتي ، فالآن خذ عذتك ، جمبتك وقوسك ، واخرج إلى البرية ، ونصيد بها جيداً ، واصنع لي أطعمة كما أحب ، واثنني بها لآكل حتى تباركك نفسي ، قبل أن أموت ؛ وكانت رفقة سامعة إذ تكلم إسحق مع عيسو ابنه ، فذهب عيسو إلى البرية كي يصطاد صيداً ، ليأتي به ، وأما رفقة فكلمت يعقوب ابنها قائلة : إني قد سمعت أبك يكلم عيسو أخاك قائلاً : ائتني بصيد واصنع لي أطعمة لآكل وأباركك أمام الرب قبل وفاتي ، فالآن يا ابني اسمع لقولي فيما أنا أمرك به ، اذهب إلى الغنم وخذ لي من هناك جديين من المعزى فاصنعها أطعمة لأبيك كما يحب ، فتحضرها إلى أبيك لياكل ، حتى يباركك قبل وفاته ، - فقال يعقوب لرفقة أمه : هو ذا عيسو أخي رجل أشعر ، وأنا رجل أملس ، ربما يجسني أبي فأكون في عينيه كتهاون ، وأجلب على نفسي لعنة لا بركة - فقالت له أمه : لعنتك علي يا ابني ، اسمع لقولي فقط ، واذهب وخذ لي ، فذهب وأخذ وأحضر لأمه ، فصنعت أمه أطعمة كما كان أبوه يحب ، وأخذت رفقة ثياب عيسو ابنها الأكبر الفاخرة التي كانت عندها في البيت ، وألبست يعقوب ابنها الأصغر ، وألبست يديه وملاسه عنقه جلود جدي المعزى ، وأعطت الأطعمة والخبز التي صنعت في يد يعقوب ابنها ، فدخل إلى أبيه وقال : يا أبي - فقال : ها أنا ذا ، من أنت يا ابني ؟ - فقال يعقوب لأبيه : أنا عيسو بكرك قد فطمت كما كلمتني ، قم اجلس وكل من صيدي ، لكي تباركني نفسك - فقال إسحق لابنه : ما هذا الذي أسرعت لي تجدي يا ابني ؟ - فقال : إن الرب الهك قد بسّر لي - فقال إسحق

يعقوب : تقدم لأجسك يا ابني ، أنت هو ابني عيسو أم لا ، فتقدم يعقوب إلى إسحق أبيه ، فجسه وقال : الصوت صوت يعقوب ولكن اليدين يدا عيسو أخيه فباركه وقال : هل أنت هو ابني عيسو ؟ - فقال أنا هو - فقال قدّم لي لآكل من صيد ابني ، حتى تباركك نفسي ، فقدم له فأكل ، وأحضر له خمرأ فشرب ، فقال له إسحق أبوه : تقدم وقبّلي يا ابني ، فتقدم وقبله ، فشم رائحة ثيابه وباركه وقال : انظر رائحة ابني كرائحة حقل ، قد باركه الرب ، فليعطك الله من ندى السماء ومن دسم الأرض ، وكثرة حنطة وخمر ، ليُسْتَمَبَدَ لك شعوب ، وتسجد لك قبائل ، كن سيداً لإخوتك ، وليسجد لك بنو أمك ، ليكن لاعتوك مملونين ومباركوك مباركين ، وحدث عندما فرغ إسحق من بركة يعقوب ، ويعقوب قد خرج من لدن إسحق أبيه أن عيسو أخاه أتى من صيده ، فصنع هو أيضاً أطعمة ودخل بها إلى أبيه ، وقال لأبيه : « ليقم أبي ويأكل من صيد ابنه حتى تباركني نفسك » - فقال له إسحق أبوه : من أنت ؟ - قال « أنا ابنك برك عيسو » ، فارتعد إسحق ارتعاداً عظيماً جداً ، وقال : فمن هو الذي اصطاد صيداً وأتى به إليّ ؟ فأكلت من الكلّ قبل أن تمجيء وباركته ، نعم ويكون مباركاً . فعندما سمع عيسو كلام أبيه صرخ صرخة عظيمة ومرة جداً ، وقال لأبيه باركني أنا أيضاً يا أبي . - فقال : قد جاء أخوك بمكر وأخذ بركتك » - فقال : « ألا إن اسمه دعي يعقوب ، فقد تعقبتني الآن مرتين ، أخذ بكوريتي ، وهو ذا الآن قد أخذ بركتي » ، ثم قال : « أما أبقيت لي بركة ؟ » - فأجاب إسحق وقال لعيسو : لاني قد جعلته سيداً لك ، ودفعت إليه جميع إخوته عبيداً ، وعضدته بحنطة وخمر فإذا أصنع إليك يا ابني ؟ » - فقال عيسو لأبيه : ألك بركة واحدة فقط يا أبي ؟ ، باركني أنا أيضاً يا أبي ، ورفع عيسو صوته وبكى ، فأجاب إسحق أبوه وقال له : هو ذا بلا دسم الأرض يكون مسكنك ، وبلا ندى السماء من فوق ، وبسيفك

تعيش، ولأخيك تستعبد، ولكن يكون حيناً تجتمع أنتك تكسر نيره عن عنقك!!»،
(تك ٢٧ : ١ - ٤٠) .

فهذا القصص يعلم الكذب والمكر ومحبة الحجرة وحب الذات والحسد ، كما يعلم أن الله قد تخفى عليه سرائر القلوب لأنه لا ينظر إلا إلى الألفاظ ، دون النوايا ، كما يعلم أن الأب يحب ابنه المادي دون ابنه الروحي ، وهذا كله بخلاف ما في كتاب الله العزيز ، فأما الكذب فقد حرّمه في مثل قوله تعالى : ﴿ إِنَّمَا يَفْتَرِي الْكَذِبَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ ﴾ (١٦ : ١٠٥) وقوله تعالى : ﴿ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ ﴾ (٢ : ١٠) .

وأما المكر فقد ذمه الله تعالى في قوله : ﴿ وَلَا يَحْبِقُ الْمُكْرُ السَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِ ﴾ (٣٥ : ٤٣) وقوله : ﴿ سَيُصِيبُ الَّذِينَ أَجْرَمُوا صَغَارٌ عِنْدَ اللَّهِ وَعَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا كَانُوا يَمْكُرُونَ ﴾ (٦ : ١٢٤) .

وأما الحجرة فقد قال الله تعالى : ﴿ إِنَّمَا الْحَرُّ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنْصَابُ وَالْأَزْلَامُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ (٥ : ٩٣) .
وأما حب الذات فقد ذمه الله تعالى ومدح تقيضه في قوله ﴿ وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ ﴾ (٥٩ : ٩) .

وأما الحسد فقد ذمه الله تعالى في قوله ﴿ وَمِن شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ ﴾ (١١٣ : ٥) وأنكره في قوله : ﴿ أَمْ يَحْسُدُونَ النَّاسَ عَلَىٰ مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ ﴾ (٤ : ٥٣) .

وأما أن الله لا يخفى عليه شيء من طوايا القلوب ، فقد قال تعالى : ﴿ يَعْلَمُ خَائِنَةَ الْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ ﴾ (٤٠ : ١٩) وقال تعالى : ﴿ فَإِنَّهُ يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَى ﴾ (٢٠ : ٧) فسبحان من قال : ﴿ نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَذَا الْقُرْآنَ ﴾ .

وما أن انتهى الشيخ الخليلي من كلامه حتى قام الفاضل المجدي^(١) ثم صعد على المنبر وقال :

إني مسرور جداً بما استشهد به أخونا الشيخ الخليلي من الاثني عشر موضعاً التي نقلها من توراة اليهود الموجودة اليوم بين أيديهم ، وبما أن هناك في الكتاب المذكور شواهد كثيرة أخرى ، فإني أريد أن آتي باثني عشر شاهداً أيضاً ، يستدل منها القارىء أن قصص القرآن الكريم هو أحسن القصص ، فأقول عطفاً على ما سبق للأخ المحترم .

تعليم التوراة الخداع وخلف الوعد والزنا

(١) - قال في سفر التكوين : « وأحب يعقوب راحيل ، فقال : أخذُك سبع سنين براحيل ابنتك الصغرى - فقال لابان : أن أعطيك إياها أحسن من أن أعطيها لرجل آخر ، أقم عندي - فخدم يعقوب براحيل سبع سنين ، وكانت في عينيه كأيام قليلة بسبب محبته لها ثم قال يعقوب للابان : أعطني امرأتي ، لأن أيامي قد كملت ، فأدخل عليها ، فجمع لابان جميع أهل المكان ، وصنع وليمة ، وكان في المساء أنه أخذ « ليثة » ابنته ، وأتى بها إليه ، وأعطى لابان « زلفة » جاريتته لليثة ابنته جاريتاً ، وفي الصباح إذا هي ليثة ، فقال للابان : ما هذا الذي صنعت بي؟ أليس براحيل خدمتُ عندك ، فلماذا خدعتني؟ - فقال لابان : لا يفعل هكذا في مكاننا أن تُعطى الصغيرة قبل البكر ، (تك ٢٩ : ١٨ - ٢٦) ، فهذا القصص يعلم الخداع حتى فيما يتعلق بالعرض ، وبعلم نكث العهد وخلف الوعد ، كما يفيدنا أن سيدنا يعقوب اضطجع أول ليلة مع ليثة بالزنا - حاشاه - لأنها ليست هي المخطوبة له ، وليثة هذه هي جدّة المسيح كما في شرح التوراة المسمى بالسبعين القويم ، ولكن

(١) نسبة الى المجدل من بلدان فلسطين .

القرآن الكريم يقول في المخادعين : ﴿يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَالَّذِينَ آمَنُوا ، وَمَا يَخْدَعُونَ إِلَّا أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ﴾ (٩:٢) ويقول في العهد : ﴿وَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللَّهِ إِذَا عَاهَدْتُمْ﴾ (١٦ : ١٩) ويجعل خلف الوعد من شأن الشيطان فيقول عن لسانه : ﴿وَوَعَدْتُمْ فَأَخْلَفْتُمْ﴾ (١٤ : ٢٢) ويقول : ﴿فَمَنْ نَكَتْ فَإِنَّمَا يَنْكُتْ عَلَى نَفْسِهِ﴾ (٤٧ : ١٠) ويقول في الزنا : ﴿وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ ، وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ يَلْقَ أَثَمًا يُضَاعَفْ لَهُ الْعَذَابُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِ مُهَانًا﴾ (٢٥ : ٦٨ و ٦٩) ، ويقول : ﴿وَلَا يَسْرِقُونَ وَلَا يَزْنُونَ﴾ (١٢ : ٦٠) ويقول : « ولا تقربوا الزنى إنه كان فاحشة وساء سبيلا » (١٧ : ٢٢) فسبحان من قص على نبينا أحسن القصص بما أوحى إليه هذا القرآن .

تعليم التوراة أن الإنسان قد يكون أقوى منه الملك

(٢) - قال في سفر التكوين « فبقي يعقوب وحده وصارعه إنسان حتى طلوع الفجر ، ولما رأى أنه لا يقدر عليه ضرب حنق فخذته ، فالتجع حنق فخذ يعقوب في مصارعة معه ، وقال : أطلقني لأنه قد طلع الفجر - فقال : لا أطلقك إن لم تباركني - فقال له : ما اسمك ؟ - فقال : يعقوب - فقال : لا يدعى اسمك فيما بعد يعقوب بل إسرائيل . لأنك جاهدت مع الله والناس وقدرت وسأل يعقوب وقال : أخبرني باسمك - فقال : ماذا تسأل عن اسمي ؟ وباركك هناك ، فدعى يعقوب اسم المكان « فنيثيل » ، قائلاً : لأنني نظرت الله وجهاً لوجه ، ونجيت نفسي ، (تك ٣٢ : ٢٤ - ٣٠) واسرائيل : معناه الأمير مع الله ، أو المجاهد مع الله ، أو أمير الله ، أو قومي مع الله ، وفنيثيل : معناه وجه الله ، فهذه القصة تعلم

القاريء أن الآدمي أقوى من الملك ، إن قلنا إن هذا الذي صارع يعقوب هو ملك ، ولكن لا ريب أن الملائكة أقوى من الآدميين بكثير ، فإن قلنا إن هذا الذي صارع يعقوب هو الله كما هو مرمى الكلام . كان الأمر أدهى وأمر ، لاسيما وأن الله يقول « لا تُدْرِكُهُ الأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الأَبْصَارَ ، وَهُوَ اللطيفُ الخبيرُ » (٦ : ١٣) ، فسبحان من قال نحن نقص عليك أحسن القصص بما أوحينا إليك هذا القرآن .

غلطة تاريخية في التوراة

(٣) - قال في سفر التكوين : (وهؤلاء هم الملوك الذين ملكوا في أرض أدوم ، قبلما ملك ملك بني إسرائيل ، لا يصلح أن يكون من قلم موسى الذي يقولون إنه هو كاتب سفر التكوين ، لأن ملوك بني إسرائيل إنما كانوا بعد مدة القضاة الذين وجدوا بعد موسى . وكانت مدة القضاة (٤٥٠) سنة على ما في قاموس بوست ، فهذه الجملة مزيدة على التوراة من قلم بعض علماء اليهود ، فبجمل الله تعالى الذي ليس في قصص كتابه الكريم زيادة من أحد علماء الاسلام ، ولهذا قال : « نحن نقص عليك أحسن القصص بما أوحينا إليك هذا القرآن » كان أحسن القصص لتزاهته عن زيادات الزائدين .

تعلم التوراة الزنا والمحاباة

(٤) - قال في سفر التكوين في أثناء قصة يوسف ، ولا ندري ما هي المناسبة؟ : (وحَدَّث في ذلك الزمان أن يهوذا نزل من عند إخوته ، ومال إلى رجل عدو لاسمي اسمه « حيرة » ، ونظر يهوذا هناك ابنة رجل كنعاني اسمه « شوع » ، فأخذها

ودخل عليها ، فحبلت وولدت ابناً ، ودعا اسمه « عيراً » ثم حبلت أيضاً وولدت ابناً ودعت اسمه « أوفان » ، ثم عادت فولدت أيضاً ابناً ودعت اسمه « شيلة » وكان في كزيب حين ولدته ، وأخذ يهوذا زوجة « ليعير » بكره ، اسمها « ثامار » ، وكان عير بكر يهوذا شريراً في عيني الرب ، فأماته الرب ، فقال يهوذا لأوفان : ادخل على امرأة أخيك وتزوج بها ، وأقم نسلاً لأخيك - فلم أوفان أن النسل لا يكون له ، فكان إذ دخل على امرأة أخيه إنه أفسد على الأرض ، لكيلا يعطي نسلاً لأخيه ، فقبح في عيني الرب ما فعله ، فأماته أيضاً ، فقال يهوذا لثامار كنته : اقمدي أرملة في بيت أبيك حتى يكبر شيلة ابني ، لأنه قال : لعله يموت هو أيضاً كأخويه ، فمضت ثامار وقعدت في بيت أبيها ، ولما طال الزمان ماتت ابنة شوع امرأة يهوذا ، ثم تعزى يهوذا ، فصعد إلى جزّار غنمه إلى « تمنة » هو وحبرة المدلّامي ، فاخبرت ثامار وقيل لها : هو ذا سحوك صاعد إلى تمنة ليجزّ غنمه - فخلعت عنها ثياب ترمّلها ، وتفتت برفع وتلففت وجلست في مدخل « عيناييم » التي على طريق تمنة ، لأنها رأت أن شيلة قد كبر وهي لم تعط له زوجة ، فنظرها وحسبها زانية ، لأنها كانت قد غطت وجهها ، فمال إليها على الطريق وقال : هاتي أدخل عليك - لأنه لم يعلم أنها كنته ، - فقالت : ماذا تعطيني لكي تدخل علي؟ - فقال : إني أرسل جدي معزى من الغنم ، - فقالت هل تعطيني رهناً حتى ترسله؟ - فقال : ما الرهن الذي أعطيك؟ - فقالت : خاتمك وعصابتك وعصاك التي في يدك ، فأعطاها ودخل عليها ، فحبلت منه ثم قامت ومضت وخلعت عنها برقعها ، ولبست ثياب ترمّلها ، فأرسل يهوذا جدي المعزى بيد صاحبه المدلّامي ، ليأخذ الرهن من يد المرأة ، فلم يجدها ، فسأل أهل مكانها قائلاً : أين الزانية التي كانت في عيناييم على الطريق؟ - فقالوا : لم تكن هنا زانية ، - فقال يهوذا : لتأخذ لنفسها لئلا تصير إهانة ، إني قد أرسلت هذا الجدي وأنت لم تجدها ، ولما كان نحو ثلاثة

أشهر أخبر يهوذا وقيل له : قد زنت تamar كذبتك ، وها هي حبل أيضاً من الزنا - فقال يهوذا : أخرجوها فتحرق ، أما هي فلما أخرجت أرسلت إلى حميها قائلة : من الرجل الذي هذه له أنا حبل ، وقالت : حقق لمن الخاتم والمصاصة والمصاصة هذه ، فتحققها يهوذا ، وقال : هي أبرّ مني ، لأنني لم أعطيها لشيلة ابني ، فلم يمد يعرفها أيضاً ، وفي وقت ولادتها إذا في بطنها توأمان ، وكان في ولادتها أن أحدهما أخرج بدأ ، فأخذت القابلة وربطت على يده قرمزاً قائلة : هذا خرج أولاً ، ولكن حين رد يده إذا أخوه قد خرج ، فقالت : لماذا اقتحمت ؟ عليك اقتحام ، فدعى اسمه « فارص » ، وبعد ذلك خرج أخوه الذي على يده القرمز ، فدعى اسمه « زارح » (تك ٣٨ : ١ - ٣٠) فهذه السيرة تعلم المرأة على الزنا وعلى المحاباة وتفيد أن فارص ابن زنا ، وهو جدّ المسيح من جهة أمه مريم ، كما هو جدّ له من جهة يوسف النجار رجل مريم إن جاز أن يمد يوسف أباً للمسيح كما تخيله بعض النصارى ، فهذا القصة من أقبح القصص ، ولكن كتاب الله إنما يقص علينا حرمة الزنا ودناءته وهذا سر قواه تعالى ﴿ نحن نقص عليك أحسن القصص بما أوحينا إليك هذا القرآن ﴾ .

تعليم التوراة اغتصاب الأموال

(٥) - قال في سفر الخروج (فيكون حينما تمضون لا تمضون فارغين ، بل تطلب كل امرأة من جارتها ومن نزيلة بيتها أمتعة فضة وأمتعة ذهب وثياباً ، وتضعونها على بنيكم وبناتكم ، فتسلبون المصريين) (خر ٣ : ٢١ و ٢٢) ، ثم قال في خطاب الله لموسى : (تكلمتم في مسامع الشعب أن يطلب كل رجل من صاحبه ، وكل امرأة من صاحبها أمتعة فضة وأمتعة ذهب) (خر ١١ : ٢) ، ثم قال : (وأعطى الرب نعمة للشعب في عيون المصريين حتى أعاروهم فسلبوا المصريين) (خر ١٢ : ٣٦) ، فهذا

التعليم هو جرثومة اغتصاب أموال الناس ، ومنبع نهبا وسلبها ، ومصدر سرقتها ، إلى آخر ما في القواميس من الألفاظ التي ترمي لمعنى التعدي على الأموال بالباطل وهو مصداق قوله تعالى : ﴿ فَبَيِّظْ لَهُمْ مِنْ الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَاتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ ، وَبِصَدَقَّتْ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ كَثِيرًا ، وَأَخَذَهُمُ الرَّبُّ وَقَدْ نَهَوْا عَنْهُ وَأَكَلْتَهُمْ أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ ﴾ (٤ : ١٦٠) ، وقوله تعالى : ﴿ وَتَرَى كَثِيرًا مِنْهُمْ يُسَارِعُونَ فِي الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَأَكَلْتَهُمُ السُّحُوتَ ، لَسِبْتُمْ مَا كَانُوا يَمْعَلُونَ ﴾ (٥ : ٦٥) وأما قول شارح التوراة : (إن هذا قضاء الله ، فإن له كل ما كان للمصريين ، فأخذ بعض ما له منهم وأعطاه لشعبه) فهو قول باطل ، لأن الله تعالى لا يأمر بالفحشاء ، وأكل أموال الناس بغير حق من أخش الفواحش ، وليس هذا مما تختلف فيه الشرائع ، لأنه من الكليات الحس التي اتفقت عليها الأديان جميعها ، وليس يعتمدها نسخ ولا تبديل ، والله يقول ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَأْكُلُوا أَمْوَالِكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ ﴾ (٣ : ٢٨) وأما قوله : ﴿ وَلَكِنَّا حَمَلْنَا أَوْزَارًا مِنْ زِينَةِ الْقَوْمِ فَقَدْنَاهَا ﴾ (٢٠ : ٨٧) فله تأويل حسن نقله الرازي عن الراغب فانظروه ؛ وبهذا تعلم سر قوله تعالى : ﴿ نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَذَا الْقُرْآنَ ﴾ .

تعليم التوراة تقديم قربان للشيطان وتسيب السوايب

(٦) قال في سفر اللاويين (ومن جماعة بني إسرائيل يأخذ تيسين من المعز لذبيحة خطية .. ويأخذ التيسين ويوقفها أمام الرب ، لدى باب خيمة الاجتماع ، ويأتي هرون على التيسين قرعتين ، قرعة للرب ، وقرعة لعزازيل ، ويقرب هرون التيس الذي خرجت عليه القرعة للرب ، ويعمل ذبيحة خطية ، وأما التيس الذي خرجت عليه القرعة لعزازيل فيوقف حياً أمام الرب ، ليكفر

عنه ليرسله إلى عزازيل إلى البرية ... ثم يذبح تيس الخطيئة الذي للشعب ... فيكفر عن نفسه وعن بيته وعن كل جماعة إسرائيل ... ومتى فرغ من التكفير يُقدِّم التيس الحَيِّ ، ويضع هرون يديه على رأس التيس الحَيِّ ويُقرّ عليه بكل ذنوب بني إسرائيل وكل سيئاتهم مع كل خطاياهم ، ويجعلها على رأس التيس ويرسله بيد من يلاقيه إلى البرية ، ليحمل التيس عليه كل ذنوبهم إلى أرض مقفرة ، فيطلق التيس إلى البرية) (لا ١٦ : ٥ - ١٠) .

وهذا الذي يُعمل فيه هذا العمل هو يوم صوم واتضاع ، وكان يقع في العاشر من شهر تِسْرِي . وهو يوم «عاشورا» عندنا ونعلم من مجموع كلام التوراة وقاموس جورج بوست للكتاب المقدس وتلخيص صاحب شرح التوراة المسمى بالسنة القويم أنه يوجد عند اليهود شريعة تقديم قربان الخطية للشيطان الذي هو عزازيل ، غير أنهم لا يذبحونه ، بل يجعلونه سائبة حسبما تعلمته من قول التوراة (ويرسله بيد من يلاقيه إلى البرية) كما تعلمته من كلام الشارح ، وهو حرام في شريعة كتاب الله الذي ما جعل من سائبة ، وهذا سرّ من أسرار قوله جلّ من قائل (نحن نقص عليك أحسن القصص بما أوحينا إليك هذا القرآن) .

تعليم التوراة استئصال الشيوخ والأطفال والنساء في الحرب

(٧) - قال في التوراة (وحرّموا كل ما في المدينة من رجل وامرأة ، من طفل وشيخ) (يش ٦ : ٢١) والحرّم والمحروم عندهم هو المسلّم للهلاك الممنوع فداؤه ، وعليه في هذا القصص تشريع استئصال الشيوخ والأطفال والنساء قتلاً وحرقاً !!! وفي التوراة أيضاً (فكان جميع الذين سقطوا في ذلك اليوم من رجال ونساء اثني عشر ألفاً جميع أهل عاي) (يش ٨ : ٢٥) . هذا قليل جداً

من كثير مما تقصه علينا التوراة ، ولكن الشريعة الإسلامية تقص علينا أحسن من هذا القصاص ، فتنبهي عن قتل جميع من ذكر ، كما يعلم من مراجعة سيرة الفزوات الإسلامية أيام النبي (ص) والخلفاء الراشدين عملاً بروح القرآن الكريم .

تعليم التوراة قتل غير المسيء

(٨) - قالت التوراة في شأن « عَخَان » الذي ثبت عليه بإقراره أنه عمل خيانة بأخذه بعض أمتة من الغنيمة :

(فأخذ يشوعُ عَخَانُ بن زارح والفضةَ والرِّدَاءَ ولسانَ الذهبِ وبنيه وبناته وبقرةً وحميره وغنمه وخيمته وكلَّ ماله ، وجميع إسرائيل معه ، وصعدوا بهم إلى وادي « عخور » فقال يشوع : « كيف كدرتنا يكدرك الرب في هذا اليوم » فرجمه جميع إسرائيل بالحجارة ، وأحرق قوم بالنار ورموم بالحجارة ، وأقاموا فوقه رجمة حجارة عظيمة إلى هذا اليوم) (يش ٧ : ٢٤ - ٢٦) فالتوراة تقص علينا أقبح القصص ، وهو إن المذنب هو عخان وحده ، ولكن يشوع أحرق عخان وبنيه وبناته وبقرةً وحميره وغنمه !!

والقرآن يقول : ﴿ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى ﴾ (١٧ : ١٥)
فتبارك الله الذي قال : (نحن نقص عليك أحسن القصص بما أوحينا إليك هذا القرآن) .

تعليم التوراة اللاه واللعب

(٩) قال في التوراة (وكان داود يرقص بكل قوته أمام الرب) (٢ صم ٦ : ١٤) فيه تعليم الناس الرقص ، وهو من اللاه واللعب المنهي عنها شرعاً كما يقول الكتاب : ﴿ قَلْ مَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ مِنَ الْآثَرِ ﴾ (٦٢ : ١١) ويقول ﴿ وَذَرُّوا الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَهُمْ لَعِباً وَلَهْوَاً ﴾ (٦ : ٧٠) فهذا الفرق العظيم هو سر من أسرار قوله تعالى : ﴿ نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ .. الخ ﴾ .

التوراة تنسب الزنا لداود

(١٠) قال في التوراة (وكان عندئذ السنة في وقت خروج الملوك أن داود أرسل يوب وعبيده معه وجميع إسرائيل فأخربوا بني عمّون ، وحاصروا دربة ، ، وأما داود فأقام في أورشليم ، وكان في وقت المساء أن داود قام عن سريرته وتمشى على سطح بيت الملك ، فرأى من على السطح امرأة تستحم ، وكانت المرأة جميلة المنظر جداً ، فأرسل داود وسأل عن المرأة ، فقال واحد : أليست هذه «بتشبع» بنت أيعام امرأة أوريتا الحثي ؟ فأرسل داود رسلاً وأخذها فدخلت إليه فاضطجع معها ، وهي مطهرة من طمئتها ، ثم رجعت إلى بيتها وحبلت المرأة فأرسلت وأخبرت داود وقالت : إني حبلى ، فأرسل داود إلى يوب يقول : - أرسل إليّ أوريتا الحثي ، فأرسل يوب أوريتا إلى داود ، فأتت أوريتا إليه ، فسأل داود عن سلامة يوب وسلامة الشعب ونجاح الحرب ، وقال داود لأوريتا : - انزل إلى بيتك واغسل رجلك ، فخرج أوريتا من بيت الملك ، وخرجت وراءه .

حِصَّةٌ من عند الملك ، ونام أورِيَّا على باب بيت الملك مع جميع عبيد سيده ، ولم ينزل إلى بيته ، فأخبروا داود قائلين: لم ينزل أورِيَّا إلى بيته فقال داود لأورِيَّا : أما جئت من السفر ، فلماذا لم تنزل إلى بيتك ؟ - فقال أورِيَّا لداود : إن التابوت وإسرائيل ويهوذا ساكنون في الخيام ، وسيدي يوباب وعبيد سيدي نازلون على وجه الصحراء ، وأنا آتِي إلى بيتي لآكل وأشرب وأضطجع مع إمرأتي ! وحياتك وحياة نفسك لا أفعل هذا الأمر ، - فقال داود لأورِيَّا : أقم عندنا اليوم أيضاً . وغداً أطلقك - فأقام أورِيَّا في أورشليم ذلك اليوم وغده ، ودعاه داود ، فأكل أمامه وشرب وأسكره ، وخرج عند المساء ليضطجع في مضجعه مع عبيد سيده ، وإلى بيته لم ينزل ، وفي الصباح كتب داود مكتوباً إلى يوباب وأرسله بيد أورِيَّا ، وكتب في المكتوب يقول اجملوا أورِيَّا في وجه الحرب الشديدة ، وارجعوا من ورائه فَيُضْرَبْ ويموت - وكان في محاصرة يوباب المدينة أن جعل أورِيَّا في الموضع الذي علم أن رجال البأس فيه ، فخرج رجال المدينة ، وحاربوا يوباب ، فسقط بعض الشعب من عبيد داود ، ومات أورِيَّا الحثي أيضاً ، فأرسل يوباب وأخبر داود بجميع أمور الحرب ، وأوصى الرسول قائلاً: عندما تفرغ من الكلام مع الملك عن جميع أمور الحرب ، فإن اشتعل غضب الملك وقال لك لماذا دنوتم من المدينة للقتال ، أما علمتم أنهم يرمون من على السور ، مَنْ قَتَلَ أَيْمَالِك بن يَرُّبوشة ، ألم ترمِه امرأَةٌ بقطعة رحي من على السور ، فمات في «تاباص» ، لماذا دنوتم من السور ؟ - فقل له : قدمات عبدك أورِيَّا الحثي أيضاً .

فذهب الرسول فدخل وأخبر داود بكل ما أرسله فيه يوباب ، وقال الرسول لداود : قد تحيّر علينا القوم وخرجوا إلينا إلى الحقل ، فكنا عليهم إلى مدخل الباب ، فرمى الرماة عبيدك من على السور ، فمات البعض من عبيد الملك ، ومات عبدك أورِيَّا الحثي أيضاً ، - فقال داود للرسول : هكذا تقول ليوباب : لا يَسُوُّ

في عينيك هذا الأمر ، لأن السيف يأكل هذا وذاك ، شدّد قتالك على المدينة ، واخرّبها وشدّدّه ، فلما سمعت امرأة أورثيا أنه قد مات أورثيا رجلها نذبت بعلها ، ولما مضت المناحة ، أرسل داود وضمها إلى بيته ، وصارت له امرأة ، وولدت له ابناً ، واما الأمر الذي فعله داود فقبّح في عيني الرب) (٢ صم ١١ : ١ - ٢٧) .

وقال أيضاً في التوراة (فأرسل الرب نائناً إلى داود ، فجاء إليه وقال له : كان رجلان في مدينة واحدة ، واحد منها غني ، والآخر فقير ، وكان للغني غنم وبقر كثيرة جداً ، وأما الفقير فلم يكن له شيء إلا نعجة واحدة صغيرة قد اقتناها وربّاه ، وكبرت معه ومع بنيه جميعاً ، تأكل من لقمته ، وتشرب من كأسه ، وتنام في حضنه ، وكانت له كابنة ، فجاء ضيف إلى الرجل الغني فمعا أن يأخذ من غنمه ومن بقره ليهيئ للضيف الذي جاء إليه ، فأخذ نعجة الرجل الفقير ، وهيئاً للرجل الذي جاء إليه - فحُمي غضب داود على الرجل جداً ، وقال لناثان : سحيّ هو الرب إنه يقتل الرجل الفاعل ذلك ، ويردّ النعجة أربعة أضعاف ، لأنه فعل هذا الأمر ، ولأنه لم يشفق - فقال لناثان لداود : أنت هو الرجل ، هكذا قال الرب إله إسرائيل ، أنا مسحتك ملكاً على إسرائيل وأنقذتك من يد شاول ، وأعطيتك بيت سيدك ، ونساء سيدك في حضنك ، وأعطيتك بيت إسرائيل ويهوذا وإن كان ذلك قليلاً كنت أزيد لك كذا وكذا ، - لماذا احتقرت كلام الرب لتعمل الشر في عينيه ؟ قد قتلت أورثيا الحثي بالسيف ، وأخذت امرأته لك امرأة وإياه قتلت بسيف بني عمّون ، والآن لا يفارق السيف بيتك إلى الأبد ، لأنك احتقرتني وأخذت امرأة أورثيا الحثي لتكون لك امرأة ، هكذا قال الرب : ها أنا ذا أقيم عليك الشر من بيتك ، وآخذ نساءك أمام عينيك وأعطيهم لقريبك فيضطجع مع نسائك في عين هذه الشمس ، فقال داود لناثان : قد أخطأت إلى الرب فقال لناثان لداود : الرب أيضاً قد نقل عنك خطيتك ، لاتموت ، غير أنه من

أجل أنك قد جعلت بهذا الأمر أعداء الرب يشمتون فالابن المولود لك يموت ،
وذهب ناثان إلى بيته :

وضرب الرب الولد الذي ولدته امرأة أوريتا لداود فتقبل ، فسأل داود الله
من أجل الصبي ، وصام داود صوماً ، ودخل وبات مضطجعاً على الأرض ، فقام
شيوخ بيته عليه ليقيموه عن الأرض فلم يشأ ، ولم يأكل معهم خبزاً ، وكان في
اليوم السابع أن الولد مات ، فخاف عبيد داود أن يخبروه بأن الولد قد مات ، لأنهم
قالوا : هو ذا لما كان الولد حياً كلناه فلم يسمع لصوتنا ، فكيف نقول له : قد
مات الولد ؟ بعمل أشراً ، - ورأى داود عبيده يتناجون ففطن داود أن الولد
قد مات ، فقال داود لعبيده : هل مات الولد ؟ - فقالوا : مات ، فقام داود عن
الأرض واغتسل وادّهن وبدل ثيابه ودخل بيت الرب وسجد ، ثم جاء إلى بيته
وطلب ، فوضعوا له خبزاً فأكل ، فقال له عبيده : ما هذا الأمر الذي فعلت ؟
لما كان الولد حياً صحت وبكيت ، ولما مات الولد قت وأكلت خبزاً - فقال : لما
كان الولد حياً صحت وبكيت لأنني قلت : من يعلم ؟ ربما يرحمني الرب ويحيي
الولد ، والآن قد مات فلماذا أصوم ، هل أقدر أن أردّه بعد ؟ أنا ذاهب إليه ،
وأما هو فلا يرجع إليّ .

وعزى داود بشمع امرأته ودخل إليها واضطجع معها ، فولدت ابناً فدعا
اسمه « سليمان » ، والرب أحبه ، وأرسل بيد ناثان النبي ودعا اسمه « يد يديا » من
أجل الرب (٢ صم ١٢ : ١ - ٢٥) .

ففي هذا شغف داود بالمرأة الأجنبية شغفاً حمله على مضاجعتها
أولاً بالزنى حتى حبلت منه ، ثم فيه الاحتيال على زوجها أوريتا
الذي هو أحد الضباط في الجيش ، فوضعه موضع الخطر في الحرب وهكذا أماته ، ثم استمر
على محبتها فتزوجها وهو يعلم أنها زانية ، وفيه موت الولد بجنابة أبيه ، وفيه ولادة
سليمان من تلك الزانية . وفيه أن الله سمى سليمان ابن تلك المرأة « يديديا » الذي

معناه « محبوب يَهْوَةٌ » وفيه أن داود أراد ستر جنائته بتخييل أن الحمل كان من أوربّا ، ولكنه لم يتوفق ، وفيه أن داود تَشْرَبَ الخمرَ على مائدته ويسكر الناس وفيه أن الله توعد داود على زناه وعاقبه بزنا نسائه جميعهن ، وفيه أن عقاب خطية داود نزل على ولده من الزنا ، وفيه أن داود إنما كان يصوم لغير الآخرة ، وفيه مما لا يخفى ويطول شرحه من قبيح القصص الذي لا ثمره فيه ، وبعد فلا يخفى ان سليمان ابن هذه الزانية كان هو وريث ملك أبيه بجهود ومساع كثيرة من أبيه ، هذا قصص التوراة ، وإنما نبأ منه إلى الله ، كيف والقرآن الكريم يقص علينا الثناء العظيم على داود عليه السلام فيقول : ﴿ وَاذْ كُرْنَا عَبْدَنَا دَاوُدَ ذَا الْأَيْدِ إِنَّهُ أَوَّابٌ ، إِنَّا سَخَّرْنَا الْجِبَالَ مَعَهُ يُسَبِّحُنَا بِالْعَشِيِّ وَالْإِشْرَاقِ ، وَالطَّيْرَ مَحْشُورَةً ، كُلٌّ لَهُ أَوَّابٌ ، وَشَدَدْنَا مُلْكَهُ وَأَتَيْنَاهُ الْحِكْمَةَ وَفَصَّلَ الْخِطَابَ ﴾ (٣٨ : ١٧ - ٢٠) ويقول : ﴿ وَإِنَّ لَهُ عِنْدَنَا لَزُفَى وَحُسْنَ مَآبٍ ﴾ (٣٨ : ٢٥) ، ويقول : ﴿ وَقَتْلَ دَاوُدَ جَالُوتَ ، وَآتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَهُ مَا يَشَاءُ ﴾ (٢ : ٢٥١) ويقول ﴿ وَمِنْ ذُرِّيَّتِهِ دَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَى وَهَارُونَ ، وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴾ (٦ : ٨٤) فترى كتاب الله يصف داود بأنه ذو قوة في الدين ، وأنه أواب ، وأن الله سخر الجبال والطير حين يسبح معه ، وأنه أوتي الحكمة ، وأن له عند ربه زلفى وحسن مآب ، وأنه علمه مما يشاء وأنه من المحسنين ، وهذا كله بخلاف التوراة التي تنفته بضد هذه النعوت ، وتعلمت من نص التوراة المتقدم أن الولد مات بجناية أبيه ، ولكن القرآن يقول : ﴿ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى ﴾ (٦ : ١٦٤) والنصوص الإسلامية تمنع أن يتزوج نبي من الأنبياء إلا بالمرأة العفيفة الحصان ، وتمنع أن يكون نبي متولداً من غير عفيفة حصان ، فلهذه الأمور وأشباهاها يقول الله تعالى ﴿ نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَذَا الْقُرْآنَ ﴾

التوراة تنسب القساوة والبربرية الى داود

(١١) - قال في التوراة بحكى عن أعمال داود الحربية مع اهالي «رَبَّة» بني عمّون : (وأخرج الشعب الذي فيها ووضعهم تحت مناشير ونوارج حديد ، وفؤوس حديد ، وأمرهم في أتون الآجر ، وهكذا صنع بجميع مدن بني عمّون ، ثم رجع داود وجميع الشعب إلى أورشليم) (٢ صم ١٢ : ٣١ و ١١ ي ٢٠ : ٣) هذا قصص التوراة عن الأعمال الحربية التي عملها داود ، ولكن القرآن يقول عن داود عليه السلام ، إنه كان من المحسنين وإن له عند ربه زلفى وحسن مآب وإنه أواب وإنه أوتي الحكمة ، وكل هذه النصوص القرآنية تمنع أن نعتقد أن داود يعمل تلك الأعمال التي تحكيها عنه التوراة ، لأنها تنافي الإحسان وتغاير الحكمة ، ولا تصدر عن أسمى برابرة العالم ، ولهذا وأمثاله يقول الله ﴿ نحن نقص عليك أحسن القصص بما أوحينا إليك هذا القرآن ﴾

التوراة تجازى هلى الزنا بالزنا

(١٢) - قال في التوراة خطاباً لداود : (لماذا احتقرت كلام الرب ، لتعمل الشر في عينيه ؟ قد قتلت أوريثا الحيثي بالسيف ، وأخذت امرأته لك امرأة وإياه قتلت بسيف بني عمّون ، والآن لا يفارق السيف بيتك الى الأبد ، لأنك احتقرتني وأخذت امرأة أوريثا الحيثي لتكون لك امرأة ، هكذا قال الرب : ها أنا ذا أقيم عليك الشر من بيتك ، وآخذ نساءك أمام عينك ، وأعطيهن لقريبك ، فيضطجع مع نساءك ، في عين هذه الشمس ، لأنك أنت فعلت بالسر ، وأنا أفعل هذا الأمر قدام جميع إسرائيل ، وقدام الشمس) (٢ صم ١٢ : ١٩ - ١٢) ، وهذا الذي توعدده

الله به قد وقع فعلاً (على ذمة التوراة) ، فقد حكي في التوراة أن أبشالوم بن داود بعدما حارب أباه وكسره ودخل عاصمة ملكه أورشليم . اضطجع مع سراري أبيه برأى من الشعب ، حيث قالت التوراة هكذا : (وقال أبشالوم لأختيفل : اعطوا مشورة ماذا نفعل ؟ - فقال أختيفل لأبشالوم : أدخل الي سراري أبيك اللواتي تركن لحفظ البيت ، فيسمع كل اسرائيل انك قد صرت مكروهاً من أبيك فتشدد أيدي جميع الذين معك - فنصبوا لأبشالوم الخيمة على السطح ، ودخل أبشالوم الي سراري أبيه أمام جميع إسرائيل) (٢ صم ١٦ : ٢٠ - ٢١) قال علماء اهل الكتاب : « والإثم في هذا مضاعف لكون السراري أقرباءه ، ولكونهن نساء لرجل آخر ، ولم يكن ذلك زيجة محرمة ، بل كان زنا ، لحياة أبيه والسراري غير مطلقات ، ، فتعلم من هذه النصوص التوراتية أن الله تعالى يعلن زنا الزاني في واحدة سرّاً ، بأن يزني قريبه بجمع من نسائه جهراً ، وأنه يجازى على الزنا بزنا ، وهذا من أقبح القصص ، والقرآن الكريم لا يجعل جزاء الزاني بامرأة الغير أن يزني ولده بنسائه ، بل يجعل جزاءه الجلد كما قال تعالى : ﴿ الزانية والزاني فاجلدوا كل واحدٍ منهما مئةً جلدةً ، ولا تأخذكم بها رافة في دين الله إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر ، وليشهد عذابهما طائفة من المؤمنين ﴾ (٢٤ : ٢) وقد أمر بحضور جمع من المسلمين حين جلد الزاني ، وكل هذا معقول ، وأما التوراة فتقول : ان الله توعد داود بأن يزني قريبه بنسائه حال حضور بني إسرائيل ومشاهدتهم لهذا الفعل الشنيع ! ، وهو أمر غير معقول ، فلذلك قال الله تعالى : ﴿ نحن نقص عليك احسن القصص بما أوحينا إليك هذا القرآن ﴾ .

ولما أتم الفاضل المجدي خطابه عاد الى مكانه فقام على الأثر الهام الياني وسار نحو منبر الخطابة وشرع بقول :

ايها السادة إني على ما بي من قصر الاطلاع على كتب القوم أريد أن أذكر لكم

اثني عشر موضعاً من التوراة هي من أقبح القصص أيضاً ، نظير ما فعل أخواي الخليلي والمجدلي عاطفاً ما سأذكره على ما ذكرناه فأقول :

التوراة تقص أقاصيص الزنا

(١) - قال في التوراة (وجرى بعد ذلك انه كان لأبشالوم بن داود أخت جميلة ، اسمها « ثامار » فأحبها « أمنون » بن داود ، وأحصر أمنون للسقم من أجل ثامار أخته ، لأنها كانت عذراء ، وعسر في عيني أمنون أن يفعل لها شيئاً ، وكان لأمنون صاحب اسمه « يوناداب » ابن شمعى أخي داود ، وكان يوناداب رجلاً حكيماً جداً ، فقال له : لماذا يا ابن الملك أنت ضعيف هكذا من صباح الى صباح ، أما تخبرني ؟ فقال له أمنون : إني أحب ثامار أخت أبشالوم أخي - فقال يوناداب : اضطجع على سريرك وتمارض ، وإذا جاء أبوك ليراك فقل له : دع ثامار أختي فتأتي وتطعمني وتعمل أمامي الطعام لأرى فأكل من يدها ، - فاضطجع أمنون وتمارض فجاء الملك ليراه ، فقال أمنون للملك ، دع ثامار أختي فتأتي وتصنع أمامي كعكتين فأكل من يدها ، - فأرسل داود الى ثامار الى البيت قائلاً : اذهبي الى بيت أمنون أخيك واعلمي له طعاماً ، فذهبت ثامار الى بيت أمنون أخيهما وهو مضطجع ، وأخذت العجين وعجنّت وعملت كعكاً أمامه وخبزت الكعك ، وأخذت المقلاة وسكبت أمامه ، فأبى أن يأكل وقال أمنون : أخرجوا كل إنسان عني ، فخرج كل إنسان عنه ، ثم قال أمنون لثامار : إيتي بالطعام الى الخدع فأكل من يدك ، فأخذت ثامار الكعك الذي عملته وأتت به أمنون أخوها الى الخدع ، وقدمت له ليأكل ، فأمسكها وقال لها : تعالي اضطجعي معي يا أختي ، - فقالت له : لا يا أخي لا تدلني ، لأنه لا يفعل هكذا في إسرائيل ، لا تعمل هذه القباحة ، أما أنا فأين أذهب بعاري ، وأما أنت فتكون كواحد من السفهاء في إسرائيل ، والآن

كلم الملك لأنه لا يعني منك ، - فلم يشأ أن يسمع لصوتها ، بل تمكن منها وقهرها واضطجع معها (٣ صم ١٣ : ١ - ١٤) ، في هذا النص حكاية زنا أمنون بأخته تامار ، ولا ندري ماهي العبرة أو الذكري في هذا القصة القبيح ، سيما وانه يشير الى شيء غير حقيقي ، وهو تزوج الأخ بأخته من أبيه ، فانه حرام على كل حال ، كما قال في التوراة : (عورة أختك بنت أبيك أو بنت أمك المولودة في البيت أو المولودة خارجاً لا تكشف عورتها) (لا ١٨ : ٦) وقال : (وإذا أخذ رجل أخته بنت أبيه أو بنت أمه ، ورآى عورتها ورآت هي عورته فذلك عار ، يقطعان أمام أعين بني شعبها ، قد كشف عورة أخته يحمل ذنبه) (لا ٢٠ : ١٧) ، والقرآن الكريم يقول : ﴿ حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَاتُكُمْ وَبَنَاتُكُمْ وَأَخَوَاتُكُمْ ﴾ (٤ : ٢٢) .

التوراة تنسب الشرك لسليمان وانه تزوج بالوثنيات حاشاه

(٢) - قال في التوراة : (وأحب الملك سليمان نساء غريبة كثيرة مع بنت فرعون موآبيات وعمونيات وأدوميات وصيدونيات وحثيات ، من الأمم الذين قال عنهم الرب لبني إسرائيل : لا تدخلون اليهم ولا يدخلون اليكم ، لأنهم يميلون قلوبكم وراء آلهتكم ، - فالتصق سليمان بهؤلاء بالمحبة ، وكانت له سبعائه من النساء السيدات وثلاثمائة من السراري ، فأمالت نساؤه قلبه ، وكان في زمان شيخوخة سليمان ان نساءه أملىن قلبه وراء آلهة أخرى ، ولم يكن قلبه كاملاً مع الرب آلهه كقلب داود أبيه ، فذهب سليمان وراء « عشتورث » إلهة الصيدونيين ، و « ملكوم » رجس العمونيين وعمل سليمان الشر في عين الرب ، ولم يتبع الرب تماماً كداود أبيه ، حينئذ بنى سليمان مرتفعة « لكوش » رجس الموابين على الجبل الذي تجاه أورشليم ، و « لولك » رجس بني عمّون ، وهكذا فعل لجميع نساؤه

الغريبات اللواتي كن يوقدنَ ويذبحنَ لآلهتهنَّ ، فغضب الرب على سليمان ، لأن قلبه مال عن الرب إله إسرائيل الذي تراءى له مرتين ، وأوصاه في هذا الأمر أن لا يتبع آلهة اخرى فلم يحفظ ما أوصى به الرب ، فقال الرب لسليمان : من اجل ان ذلك عندك ولم تحفظ عهدي وفرائضي التي أوصيتك بها فإني أمزق المملكة عنك تمزيقاً وأعطيها لعبدك ، إلا إني لا أفعل ذلك في أيامك من أجل داود أبيك بل من يد ابنك أمزقها ، على اني لا أمزق منك المملكة كلها ، بل أعطي سبطاً واحداً لابنك ، لأجل داود عبدي ولأجل أورشليم التي اخترتها) (٢ مل ١١ :

١ - ١٣) وفي هذا القول ما فيه من تزوج سليمان بالوثنيات ، مع إن ذلك محرم عليه في شريعته كما هو محرم في شريعتنا ، وفيه إمسالتهن قلبه للشرك ، وإنه زاغ عن عبادة الله وحده الى عبادة الأوثان التي هي الآلهة الأربعة المذكورة ، وهي من آلهة الوثنيين ، وفيه محازاة الله له على ذلك بتمزيق الملك عنه ، لكن ليس في زمنه ، بل في زمن ابنه « يريعام » ، فالجرم صدر من شخص ، والمعقاب انصب على رأس شخص آخر ، وكل هذا من أقبح القصص ، ولكن كتاب الله تعالى يقص علينا أحسن القصص في شأن سليمان ، قال تعالى : ﴿ وما كفر سليمان ولكن الشياطين كفروا ﴾ (٢ : ١٠٢) ، وقال تعالى : ﴿ ولقد آتينا داود وسليمان علماً ، وقالوا الحمد لله الذي فضلنا على كثير من عباده المؤمنين ، وورث سليمان داود وقال : يا أيها الناس ، عليتنا منطبق الطير وأوتينا من كل شيء ، إن هذا لهو الفضل المبين ﴾ (٢٧ : ١٥ و ١٦) وذكر في القرآن الكريم في قصة سليمان مع ملكة سبأ انها كانت وثنية من عبادة الشمس وإن سليمان لذلك أرسل إليها يدعوها للتوحيد ، وانها تزلقت إليه بالهدايا المادية وهو لم يقنع بذلك ، لأنه لا يريد الماديات ، بل هو داع روحاني لا يرضى منها بسوى الإسلام ، وإنها أخيراً أسلمت ، (انظر سورة النمل : ٢٧ : ٢٣ - ٤٥)

وذكر في سورة الأنعام (ع ٨٤) إنه كان من المحسنين ، وقال تعالى : ﴿ ووهبنا لداود سليمان نعمة المبدؤ إنه أواب ﴾ (٣٨ : ٣٠) ثم قال ﴿ وإن له عندنا لنزلفى وحسن مآب ﴾ (٣٨ : ٤٠) ، فهذا من بعض وجوه ونكات قول الله جل جلاله : (نحن نقص عليك أحسن القصص بما أوحينا إلى هذا القرآن) .

التوراة تنسب لبعض الأنبياء الكذب في البلاغ

(٣) - ذكر في التوراة ان نبياً من أنبياء يهوذا امره الرب ان يسافر الى برعام ملك إسرائيل لإنذاره وتخويفه بسبب شركه ، وأمر الرب أمر ذلك النبي أن يرجع بعد إبلاغ رسالته ، وأن لا يأكل خبزاً ولا يشرب ماء داخل حدود مملكة إسرائيل ، وأنه جاءه نبي آخر فقال له : سر معي الى البيت ، وكل خبزاً - فقال لا أقدر ان ارجع معك ولا أدخل معك ولا آكل خبزاً ، ولا أشرب معك ماء في هذا الموضع ، لأنه قيل لي بكلام الرب : لا تأكل خبزاً ولا تشرب هناك ماء - فقال له : أنا أيضاً نبي مثلك ، وقد كلمني ملاك بكلام الرب قائلاً : ارجع به الى بيتك فياكل خبزاً ويشرب ماءً ، - كذب عليه فرجع معه وأكل خبزاً في بيته وشرب ماء (امل ١٣ : ١ - ١٩) ، وذكر في التوراة (أن ملك إسرائيل جمع نحو أربعمئة نبي قد أخبروه بالكذب بسبب أن الرب قال : من يغوي آخاب ؟ فخرج الروح ووقف أمام الرب وقال : أنا أغويه ! - فقال له الرب : بماذا ؟ - قال أخرج وأكون روح كذب في أفواه جميع أنبيائه ! - فقال : إنك تغويه وتقدر ، فأخرج وافعل هكذا ، والآن هو ذا قد جعل الرب روح كذب في أفواه جميع أنبيائك هؤلاء !) (امل ٢٢ : ٦ - ٢٣) ، وردد في التوراة أيضاً هكذا : (صار في الارض دهش وقشعريرة ، الأنبياء يتنبأون بالكذب ، والكهنة

تحكم على أيديهم ، وشعبي هكذا أحب ، وماذا تعملون في آخرتها ؟) (أره :
 ٣٠ و ٣١) وفي سفر إرميا أيضاً قال : (فقال إرميا النبي لِحَنَنِيَا النبي - اسمع
 يا حننيا إن الرب لم يرسلك - أي في خصوص هذه المسألة وإلا فهو عندهم نبي
 ورسول - وأنت قد جعلت هذا الشعب يتكل على الكذب ، لذلك هكذا قال
 الرب : ها أنذا طاردتك عن وجه الأرض ، هذه السنة تموت ، لأنك تكلمت
 بمصيان على الرب ، فمات حَنَنِيَا النبي في تلك السنة) (أر ٢٨ : ١٥ - ١٧)
 وقرأ الاصحاح المذكور جميعه تتضح لك الحقيقة تمام الوضوح وتعلم منها أن
 حننيا النبي كذب في البلاغ عن الله فالتوراة التي بين أيدي اليهود تجوز الكذب
 من الأنبياء جوازاً وقوعياً حتى في البلاغ ، ولكن القرآن الكريم يقول عن
 الوحي : ﴿ قوله الحق ﴾ (٦ : ٧٣) ، ويقول : ﴿ ما ننزل الملائكة إلا
 بالحق ﴾ (١٥ : ٨) ويقول : ﴿ قل إن ربي يقذف بالحق ﴾ (٣٤ : ٤٨)
 ويقول ﴿ هذا ما وعد الرحمن وصدق المرسلون ﴾ (٣٦ : ٥٢) ويقول :
 ﴿ إنما يفترى الكذب الذين لا يؤمنون ﴾ (١٦ : ١٠٥) ويقول : ﴿ ما كان
 حديثاً يفترى ﴾ (١٢ : ١١١) ويقول ﴿ إن الذين يفترون على الله الكذب
 لا يفلحون ، متاع قليل ، ولهم عذاب اليم ﴾ (١٦ : ١١٦ و ١١٧) فسبحان
 من قال ﴿ نحن نقص عليك أحسن القصص بما أوحينا إليك هذا القرآن ﴾ .

التوراة تثبت ان الوحي ينزل بسبب آلات الطرب

(٤) - قال في التوراه (وأفرز داود وروساء الجيش للخدمة بني آساف
 وهيمان ويدوثون المتنبئين بالميدان والرباب والصنوج) (أي ٢٥ : ١) ففيه ان
 الأنبياء كانوا يتنبئون بضرهم على آلات الطرب ، وفي التوراة ايضاً « والآن
 فأتوني بمواد » ، ولما ضرب العواد بالعود كانت عليه يد الرب ، فقال : هكذا قال

الرب اجعلوا هذا الوادي جباباً جباباً الخ ما في (٢ مل ٣ : ١٥ و ١٦ ، صرّح في التوراه إن هذا الكلام قاله النبي اليسع عليه السلام حينما رغب اليه « يهورام » ملك اسرائيل واستشاره في محاربة ملك موآب ، وطلب منه أن يخبره بحسب الوحي ، وهذا من أقبح القصص ، لأنه يُعلم القُرّاء استعمال الآلات المطربة ، والألحان الموسيقية وقت العبادات ويصرح بأن الضرب على العود يسبب نزول وحي الله من السماء على أنبيائه ، والحال إن الأنبياء عند نزول الوحي عليهم يتجردون عن الدنيا وأسبابها ، وعن كل الماديات الأرضية ، وتنحصر قوام وحواسهم في السماء ، وينفيون عن كل شيء عدا العالم السماوي ، كما ورد في كيفية نزول الوحي الشريف على نبينا (ص) ، فالحمد لله إذ لم نكن من « الذين اتخذوا دينهم لهواً ولعباً » (٧ : ٥٠) والحمد لله الذي قال ﴿ نحن نقص عليك أحسن القصص يا أوحينا إليك هذا القرآن ﴾ .

التوراة تثبت لله التعب

(٥) - قال في سفر التكوين عن الله (فاستراح في اليوم السابع من جميع عمله الذي عمل) (تك ٢ : ٢) وقال في سفر الخروج (وفي اليوم السابع استراح وتنفس) (خر ٣١ : ١٧) ، فالاستراحة لا تكون إلا بعد تعب ، والله تعالى منزّه عن ذلك ، ولذلك يقول القرآن الكريم : ﴿ ولقد خلّقنا السموات والأرض وما بينهما في ستة أيام ، وما مسنا من لغوب ﴾ (٥٠ : ٣٨) واللغوب الإعياء والتعب ، فسبحان من قال ﴿ نحن نقص عليك أحسن القصص يا أوحينا إليك هذا القرآن ﴾ .

التوراة تثبت حياة أخنوخ

(٦) - قال في سفر التكوين (وسار أخنوخ مع الله ولم يوجد لأن الله أخذه
(تك ٥ : ٢٤) قالوا نقله حياً الى السماء لكيلا يرى الموت ، ولكن القرآن يقول :
﴿ كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ ﴾ (٥٥ :
٢٥ و ٢٦) وبناء على هذا التفسير يتوجه الاعتراض على التوراة .

التوراة تعلل القصاص بالموت

(٧) - قال في سفر التكوين (سَأْفِكُ دَمَ الْإِنْسَانِ يُسْفِكُ دَمَهُ ، لأن الله
على صورته عمل الإنسان) (تك ٩ : ٦) ولكنه في القرآن علل القصاص بحفظ
الحياة قال تعالى : ﴿ وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ ﴾ (٢ : ١٧٩) وغير خاف أن
العلة المذكورة في القرآن أحسن من العلة المذكورة في التوراة فسبحان من قص
علينا أحسن القصص بما أوحى إلينا هذا القرآن .

التوراة تثبت أن الأصل في الإنسان الشر

(٨) - قال في سفر التكوين (لأن تصور قلب الإنسان شرير منذ حداثة)
(تك ٨ : ٢١) فالتوراة تعاملنا إن الأصل في الإنسان الشر ، وليس الأمر هكذا
عند علماء الطبيعة ، بل قالوا : الأصل في الإنسان الخير بدليل أحوال الأولاد
الأطفال ، وعليه قوله تعالى : ﴿ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفاً ، فِطْرَةَ اللَّهِ الَّتِي
فَطَّرَ النَّاسَ عَلَيْهَا ، لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ، ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ ، وَلَكِنْ أَكْثَرَ

الناس لا يعلمون ﴿ (٣٠ : ٣٠) ﴾ فقلب الإنسان خير منذ حدثته ، ولكن أهل الشر يعلمونه الشر تدريجاً ، فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه .

غلط التوراة في التاريخ

(٩) - قال في سفر التكوين (فقال لإبرام أعلم يقيناً أن نسلك سيكون غريباً في أرض ليست لهم ويُسْتَعْبَدُونَ لهم ، فيذلونهم أربعمئة سنة ثم الأمة التي يُسْتَعْبَدُونَ لها أنا أدينها، وبعد ذلك يخرجون بأملك جزيلة) (تك ١٥ : ١٣ و ١٤) وقال في سفر الخروج (وأما إقامة بني إسرائيل التي أقاموها في مصر فكانت أربعمئة وثلاثين سنة) (خر ١٢ : ٤٠) وظاهر أن العبادتين متناقضتان ، على أن كلا منها ليس بصحيح ، والذي صححه علماء التاريخ حتى النصارى أن مدة غربتهم بصر إنما كانت (٢١٥) سنة فقط (أنظر قطف الزهور ليوحنا أبكاربوس)

تكرر ذكر حوادث الزنا في التوراة

(١٠) - قال في سفر التكوين (وخرجت دينة ابنة لبيثة التي ولدتها ليعقوب فتتظر بنات الأرض ، فرآها شكيم ابن حمو الحوي رئيس الأرض وأخذها واضطجع معها وأذلها) (تك ٣٤ : ٢١) قال في السنن القويم : جاء في التقاليد اليهودية إن « دينة » المذكورة حبلت من شكيم المذكور فولدت ابناً اسمه «شاؤل» وقال أيضاً (وحدث إذ كان إسرائيل ساكناً في تلك الأرض أن رأوين ذهب واضطجع مع بليهة سرية أبيه وسمع إسرائيل) (تك ٣٥ : ٢٢) فما هي الفائدة ياترى من ذكر التوراة لزنا شكيم بنت يعقوب ؟ وما الفائدة من ذكر أن رأوين زنا بامرأة أبيه وأم أخويه دان ونفتالي ، فهل من ثمرة لذلك سوى فضيحة دينة

وبلغة ، لأن الإكراه الحقيقي على الفعل الشنيع لا يتصور أبداً ، إذ يمكن
كلامها أن تدافع عن نفسها ، فذكر الزنا بهما يرمي إلى أن لهما إرادة فيه ، وبأهلها
من فضيحة !!! خصوصاً إذا تصورنا إن « دينة » بنت نبي ، وبلهة زوجة نبي ،
فلا حول ولا قوة إلا بالله .

التوراة تقول بجزء خارج عن المفعول

(١١) قال في سفر اللاويين (وأخذ ابنا هرون « ناداب » و « آبيهو » كل
منها بجمرتة ، وجعلها فيها ناراً ، ووضعها عليها بخوراً وقرّباً أمام الرب ناراً غريبة لم
يأمرها بها ، فخرجت نار من عند الرب وأكلتها ، فماتاً أمام الرب ، فقال موسى
لهرون ، هذا ما تكلم به الرب قائلاً : في القريين مني أتقدس ، وأمام جميع
الشعب أتمجد ، فصمت هرون) (لا ١٠ : ١ - ٣) فيه إن الله قتل بالنار ولذي
هرون الأكبرين ، وكل ذنبيها أنها وضعا البخور على نار غريبة غير نار المذبح ،
فعند ذلك سقطت السماء على الأرض ، وأحاط بها أشد عقاب الله ، وذلك لكي
يظهر الله مجده بعقاب أوليائه ، ولمعري إن هذا الحكم لا يصدر عن أظلم الحكام
الظالمين ، الذين فقدوا الحكمة والعدالة ، حتى لا يمكن صدوره عن الجزار ولا عن
هيروودس ولا عن نيرون وأمثالهم من الملوك الظلمة .

التوراة تقول بتضييع المال بلا فائدة

(١٢) - قال في سفر اللاويين (وكلم الرب موسى قائلاً : أوصي بني إسرائيل
أن يقدموا إليك زيت زيتون مرضوض نقياً ، للضوء لإيقاد السرج دائماً ، خارج

حجاب الشهادة في خيمة الاجتماع يرتبها هرون من المساء إلى الصباح أمام الرب دائماً، فريضة دهرية في أجيالكم) (لا ٢٤ : ١ - ٣) ، فيه إن الله يأمر بإيقاد السرج كل ليلة من أول الليل لآخره بين القدس وقدس الأقداس من غير أن ينتفع به أحد من الناس ، ولا ريب أن هذا من أقبح القصص ، لأنه تضييع مال بلا فائدة ، وهو أصل البدعة الشائعة اليوم في مثل سورية ومصر من شعل الشموع أو الزيت في أضرحه الصالحين فهذه البدعة القبيحة سرت لجهلة المسلمين من مثل هكذا عبارات زائفة ؛

وأخيراً هذا ما وعدت بتبينه وكل ما ذكرته أنا وغيري هو في الحقيقة نغمة (١) من دأماء ومن أراد أن يطلع على الفضائح الغريبة فليرجع إلى أسفار العهد العتيق والسلام عليكم ورحمة الله .

(أحسن القصص)

- ٣ -

قال تقي الدين المقدسي :

مميزات قصة يوسف عن القصص الأخرى

لم تجمع قصة موسى وفرعون ، ولا قصة موسى وهرون ، ولا قصة هودوعاد ، وصالح وثمود ، وإبراهيم مع الكلدانيين والفاستينيين ، ولوط . مع أهالي سدوم وعمورة ، وشعيب مع مدين ، وداود مع شاول حميه ثم مع أولاده ، وسليمان مع

(١) نغمة : حسوة طائر ، دأماء : بحر .

معاصريه من الملوك ، ويونس وأهالي نينوى ، ويحيى والمسيح مع اليهود ؛ ولا قصة أصحاب الكهف ، ولا قصة ذي القرنين - كورش ملك ليديا وفارس - وسطوته - لم تجمع هذه الأقايص من العظات والعجائب ما جمعت قصة يوسف ، ولم تتضمن قصة من القصص من المبكي والمنكي ، والمدهشات والمنعشات والتطورات والانتقالات ونصب الأحاييل والحب والعفة ، والاسترقاق والملك ، والذل والعز ، والتلاقي والفراق ، والرحلات والانتصارات ، واللذة والعبرة ، والمقدمات والنتائج ، والصبر والفرج ، والحكم والعبر ، والفوائد النافعة في الدين والدنيا ، كسير الملوك والممالك وحسن السياسة ، وتدبير الملك وإقامة العدل ونظام الدولة ، ومكر النساء وتمثيل طبائهن ، والاصطبار على الأذى ، والعفو عن المجرمين .

نعم لم تتضمن هذه الأمور قصة كمثل ما تضمنته قصة يوسف ، وأكبر شاهد على ما نقول أنك ترى القراء يقرؤونها والسامعين يستمعونها باندفاع وشوق ولذة ، في المساجد والتكايا والأسواق ، والنوادي والطرقات ، حتى أن بعض الناس نظموا شعراً وصاروا ينشدونه في الطرقات ، وكثير رتبوها « رواية » وصاروا يمثلونها في مسارح التمثيل .

(أوحينا)

- ١ -

قال الإمام الفلقيلي^(١) :

الوحي الاصطلاحى

إن إعلام الله أنبياءه المختارين ، وهو الوحي الاصطلاحى المختص بهم في عرفه .

(١) نسبة إلى بلدة ققلية من فلسطين

الشرع ، هو معنى تضيق العبارة العلمية عن تحديد كنهه ، وغاية ما يمكن الإنسان ، هو أن يحوم حوله مستعيناً بما قاله الأنبياء أنفسهم فيما نزل على ألسنتهم ، ليقتطف منها ما يقرب ذلك إلى العقل الإنساني .

(أوحينا)

- ٢ -

وقال الشيخ البيهقي (١) :-

الفرق بين الوحي والالهام

وحي الله إلى أنبيائه هو ما يلقيه إليهم من العلم الضروري الذي يخفيه عن غيرهم بعد أن يكون أعد أرواحهم لتلقيه بواسطة كالتلك ، أو بغير واسطة ، ويفرق بينه وبين الإلهام، بأن الإلهام وجدان تستيقنه النفس وتنساق إلى ما يُطلبُ على غير شعور منها من أين أتى ، وهو أشبه بوجدان الجوع والعطش والحزن والسرور.

(أوحينا)

- ٣ -

وقال المدقق اللدي (٢) :

الوحي نوع من التعبير عن الكلام الرباني

الوحي نوع من أنواع الكلام الذي لا يعلم معناه على التفصيل إلا هو سبحانه

(١) نسبة إلى بلدة بيسان من فلسطين

(٢) نسبة إلى بلدة اللد في فلسطين

وتعالى ، فقد كان البشر منذ البدء لا يعلمون من طرق التعبير عن الكلام النفسي سوى النطق باللسان ، ثم لما قُدِّرَ أن خرس بعض الناس صاروا يعبرون عن كلامهم النفسي بالإشارات اليدوية مع استعانتها بالحاجب والعين والشفة ، ثم تعلم الناس طريقاً ثالثاً للتعبير عما في النفس وهو الكتابة بالقلم ، ثم بالبرق (التلغراف) ثم بالحواكي (الفونوغراف) ثم بالهاتف (التلفون) ثم بالراديو فهذه سبعة طرق بها يقدر الإنسان أن يعبر عما يختلج في ضميره من المعاني وكلها طرق معروفة ، ولكن طريقة كلام الوحي هي من باب الغيب الذي لا يعلمه إلا الله سبحانه وتعالى .

(هذا القرآن)

- ١ -

وتابع المدقق الذي كلامه قائلاً :

سبب إجماع القرآن

لقد أوحى الله الى نبيه (ص) هذا القرآن لما فيه من الحث على مكارم الأخلاق ، من إقامة العدل ، والحث على التعاون ، والأمر بالاتحاد ، والدعوة الى أمهات الفضائل ، كالصدق وعلو الهمة ، وترك الكذب والنس والتدليس ، والنهي عن الفحشاء والمنكر والبغي والأمر بالإحسان الى الفقير والمسكين واليتيم وابن السبيل ، والأمر ببر الوالدين ، وإيتاء ذي القربى حقه ، وإكرام الجار والضيف ، الى غير ذلك مما لا تم الإنسانية بدونه ، كذلك ما فيه من الدعوة الى تكوين أمة قوية معبأة للسيادة على الأرض تعبئة عامة اقتصادية وحرية وعقلية ، كذلك ما فيه من التشريع الحكيم الذي روعيت فيه مصالح الشعب وكان موجهاً الى إقامة العدل وتقرير المساواة وتطهير المجتمع من الرذائل .

(لمن الغافلين)

- ١ -

وقال الوحيد البؤري (١) :

محمد ﷺ في طفولته وشبابه

كان النبي (ص) أمياً لم يتعلم شيئاً من الكتب قط ، ولم يكن في طفولته ولا في شبابه ، بشيء مما كان يسمى علماً عند الأميين ، كالشعر والنسب وأيام العرب ، ولم يتربّ على يد عالم ولا حكيم ولا سياسي ، وكان وهو في سن التعليم وتكون الأخلاق والملكات - يرعى الغنم نهراً ، وينام من أول الليل ، فلا يحضر سمار قومه ، وهي مواضع السمير في الليل ، ولا يجتمع بهم في معاهد لهم ، واتجر قليلاً في شبابه ، مع قومه من أبناء الجاهلية وأترابه ، فهو لم يصادف من التربة المنزلية والتأديب الاجتماعية في أول نشأته ما يؤهله للمنصب الذي تصدى له في كهولته ، وهو تربية الأمم تربية دينية اجتماعية سياسية ولكنه مع ذلك قام بهذه التربية أكمل قيام .

وأتى من علم الحقوق والجزاء والتاريخ ما يعجز عن مثله أكبر رجل دارس في الجامعات العالية ، فكان هذا حجة كبرى على صحة نبوته ، وبرهاناً عظيماً على عناية الله به ، وتأنيده إياه بوجبه ، ﴿ تِلْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهَا إِلَيْكَ ، مَا كُنْتَ تَعْلَمُهَا أَنْتَ وَلَا قَوْمُكَ مِنْ قَبْلِ هَذَا ﴾ (١١ : ٤٩) ، ومن الغريب أنه يوجد في هذا العصر ، عصر النور والأفكار الحرة المطلقة ، من لا يفكر في إثبات الأُمّي الناشئ بين الأميين بملصقة أخبار أشهر الرسل مع أهلهم وأقوامهم .

(١) نسبة الى بلدة برير من اعمال فلسطين .

رجل أمّي يتيم فقير في بيئة منحلة ، وفي وسط جاهل ، لم يقرأ ولم يطلع على شيء من كتب الدين ولا كتب التاريخ ، بل كان من « الغافلين » في غير عقيدته ، ومع كل ذلك أتى من العلوم ما لم يأته قبله نبي ولا حكيم .

كفاك بالعلم في الأسمي معجزة في الجاهلية والتأديب في اليم

(لمن الغافلين)

- ٢ -

قال الشهاب الرملي (١) :

القرآن معلم النبي (ﷺ)

لأن الإنسان أي إنسان كان لا يعلم ما لم يعلم ، قال تعالى : ﴿ وكذلك أوحينا إليك رُوحاً من أمرنا ، ما كنت تدري ما الكتاب ولا الإيمان ، ولكن جعلناه نورا نوراً تهدي به من نشاء من عبادنا ، وإنك لتهدي الى صراط مستقيم ﴾ (٤٢ : ٥٢) وقال تعالى : ﴿ وأنزل الله عليك الكتاب والحكمة ، وعلّمك ما لم تكن تعلم ، وكان فضل الله عليك عظيماً ﴾ (٤ : ١١٢) وقال تعالى : ﴿ ووجدك ضالاً فهدى ﴾ (٩٣ : ٧) ، هذه نصوص القرآن الكريم ، وهي ظاهرة المعنى ، فلا تعلق عليها بشيء ، سوى أن تقول كلمة واحدة : تبارك الله ، والله لو كان هذا القرآن من عند (محمد) لما وردت فيه هذه الآيات الكريمة (انظر تفسير آية ١٠٩) .

(١) نسبة الى الرملة من اعمال فلسطين

(لمن الغافلين)

- ٣ -

وقال الأديب الفالوجي (١) :

غفلة النبي (ﷺ) ليست عيباً يذم به

الغفلة قسهان ، غفلة يذم بها الانسان ، وهي فيما إذا كان قد بُلِّغَ شيئاً وعُلِّمَهُ ثم غفل عنه ، وغفلة يعذر بها الانسان ، وليست مذمومة قط ، وهي فيما إذا غفل عن شيء لم يُبَلِّغْهُ ولم يُعَلِّمَهُ ، فقوله هنا ﴿ وإن كنت من قبله لمن الغافلين ﴾ ، لا يقصد منه الذم والعتاب ، ولكن يقصد منه بيان الواقع ، لأن الغفلة هنا قريبة من معنى الجهل الذي هو ضد العلم ، قال تعالى في الفقراء المتعفين : ﴿ يَحْسَبُهُمُ الْجَاهِلُ أَغْنِيَاءَ مِنَ التَّعَفُّفِ ﴾ (٢ : ٢٧٣) فوصف الجهل هنا ليس فيه ذم ، لأنه توصيف لبيان الواقع ، هذا وان عدم علمه ﷺ بالكتابة كان من أركان آياته ، وعدم علمه بالشعر من أدلة الوحي وبياناته ، وكل ما يتوقف علمه على الوحي الالهي لا تكون غفلة الرسول عنه قبل نزوله عليه عيباً يذم به إذ لا يذم الانسان إلا بما يقصر في تحصيله وكسبه ، وقد أمر الله تعالى رسوله بأن يسأله زيادة العلم ، وكان يزيده كل يوم علماً وكلاماً ، بتنزيل القرآن وبفهمه ، وبغير ذلك من العلم والحكمة ، وهذا لا يقتضي الذم قبل هذه الزيادة ، هذا ما ظهر لي هنا ، والسلام عليكم ورحمة الله .

(١) نسبة الى الفالوجة من بلاد فلسطين

الفصل الثالث

بدء الأمر المقصود الذي انعقدت له السورة

آ (٤) ﴿ إِذْ قَالَ يُوسُفُ لِأَيِّهِ : « يَا أَبَتِ ، إِنِّي
رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ » -
رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ !! » ﴿ *

افتتحت الجلسة وتليت الآية الرابعة ، فقام أبو الفضل الحانوني^(١) وقال :

من هذه الآية يبدأ الأمر المقصود الذي انعقدت له سورة يوسف ، كما بين ذلك
أخونا الامام الغروي القلقيلي حينما تكلم عن الآية الأولى ، وبانتهاء الآية المتممة مئة
وواحد ينتهي هذا المقصود .

وأما بيان بجمل تفسير الآية التي نحن بصدددها فهو :

(إذ قال يوسف) الابن الحادي عشر من أبناء يعقوب ، الذي رزقه من
زوجه « راحيل » في العراق ، (لأبيه) يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم ، بلسان
الإخبار أو بلسان الاستفهام عن المال ، (يا أبت ، إني رأيت) في منامي (أحد
عشر كوكباً) نجماً وهي إخوته (والشمس) أبوه (والقمر) مريته بلهه ، لأن
أمه راحيل كانت قد ماتت (رأيتهم لي ساجدين) خاضعين ، ويحتمل أن أباه لم
يأول له هذه الرؤيا ، لأن يوسف بعلمه من قبل ، وإغما قصها عليه ليخبره ويسره .

(١) نسبة الى بيت حانون من فلسطين .

بذلك ؛ والأقرب أنه أولها له ، ولكن القرآن الكريم حذف ذلك اختصاراً .
منذ شرع الناس يؤلون الأحلام ، عرفوا أن في الحلم رموزاً ، ومنذ شرع
الإنسان يؤلف اللغات اعتمد على الرموز في تأليف اللفظ ، فعرف المجاز والاستعارة ،
وهما من الرموز ، وهما قوام اللغات كلها ، فلذلك فإنه يمكننا أن نفسر الرموز التي
نجدها في الأحلام برموز اللغات ، أي بمجازاتها واستعاراتها ، ولذلك فسرنا الشمس
بيعقوب ، والقمر ببلهة ، والكواكب بإخوته الأحد عشر .

(يا أبتِ)

- ١ -

قال العلامة الصفدي (١) :

استعطاف الأبوة والفرق بين خطاب يوسف (ع) لأبيه وخطاب إبراهيم لأبيه

كأن هذه الكلمة ﴿ يا أبتِ ﴾ من الابن الى الأب استعطاف واسترحام ،
وتذكير بالأبوة وواجباتها ، نحو الشفقة والعناية بالأبناء . وما بين الابن والأب
من الحقوق التي تجب مراعاتها ، والقيام على الوفاء بها من الطرفين ، ونظيره قول
جد يوسف الأعلى وهو سيدنا إبراهيم لأبيه : ﴿ إذْ قَالَ لِأَبِيهِ : يَا أَبَتِ ، إِنِّي
قَدْ جَاءَنِي مِنَ الْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ ، فَاتَّبِعْنِي أَهْدِكَ صِرَاطًا سَوِيًّا ، يَا أَبَتِ
لَا تَعْبُدِ الشَّيْطَانَ ، إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلرَّحْمَنِ عَصِيًّا ، يَا أَبَتِ ، إِنِّي أَخَافُ
أَنْ يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِنَ الرَّحْمَنِ ، فَتَكُونَ لِلشَّيْطَانِ وَلِيًّا ﴾ (١٩ : ٢٣-٤٥) ،

(١) نسبة الى صفد من بلاد فلسطين

ولكن يوجد فروق كثيرة بين الخطابين ، فالخطاب الأول ، وهو خطاب يوسف لأبيه ، خطاب متعلم لمعلم ، بخلاف الخطاب الثاني ، وهو خطاب إبراهيم لأبيه ، فهو بالعكس خطاب معلم لمتعلم .

ثانياً — الخطاب الأول خطاب مؤمنٍ لمؤمنٍ ، بخلاف الخطاب الثاني فمن مؤمن لكافر .

ثالثاً — الخطاب الأول كان بين المتخاطبين وهما في فلسطين ، بخلاف الخطاب الثاني ، فإنه كان بين المتخاطبين وهما في الكلدان (العراق) .

رابعاً — الخطاب الأول كان من قبيل أخذ الرأي ، بخلاف الخطاب الثاني فكان من قبيل إعطاء الرأي .

خامساً — مضمون الخطاب الأول كان مما يرفع الرأس ويوجب الفخار بخلاف مضمون الخطاب الثاني ، فكان مما ينكس الرأس ويوجب الخجل بالنسبة للمتخاطب .

سادساً — الخطاب الأول كان من باب التحلية ، بخلاف الخطاب الثاني كان من نوع التخلية .

(يا أبت)

- ٢ -

وقال السيد جميل الناصري (١) :

إعراب يا أبت

لي هنا كلمة موجزة في إعراب (يا أبت) فأقول : (أب) منادى مضاف

(١) نسبة الى الناصرة من اعمال فلسطين .

منصوب بالفتحة الظاهرة على الباء الموحدة ، وأبّ مضاف والتاء (التي هي تاء التانيث ، والتي هي عوض عن ياء المتكلم) مضاف إليه ، مبني على الكسر في محل جر بالإضافة ، واكون المنادى هنا مضافاً لياء المتكلم أي للتاء التي هي نائية عنها ، أُعربَ بالحركات ، ولم يُعربَ بالحروف ، إذ شرط إعراب الأسماء الخمسة بالحروف أن تكون مفردة مكبرة مضافة لغير ياء المتكلم .

(يا أبت)

- ٣ -

قال الامام الدمشقي القيومي (١) :

أدب الخطاب

هذه صورة خطاب يوسف لوالده ، وسيأتي لإخوته أن يقولوا ﴿ يا أبانا ما لك لا تأمناً على يوسف ﴾ ، وسيأتي قول يوسف لرئيس السقاة والخبازين : ﴿ يا صاحبِ السجن ﴾ وقول الملك الريان : ﴿ يا أيها الملاء ، أفتؤوني في رؤياي ﴾ وقول رئيس السقاة : ﴿ يوسف أيها الصديق ﴾ ، وقول إخوة يوسف : ﴿ يا أيها العزيز إن له أباً شيخاً كبيراً ﴾ ، ﴿ يا أيها العزيز مسناً وأهلنا الضر ﴾ وقول يعقوب لأولاده التسعة : ﴿ يا بني اذهبوا فتحسسوا من يوسف وأخيه ﴾ ولا يخفى ما في كل هذه النداءات من التشريف والتكريم للمنادى ، وتعليم الأدب للقارئ ، ولذلك لم يرد في القرآن المجيد نداء النبي ﷺ باسمه فحسب ، ولكن بصيغة ﴿ يا أيها الرسول ﴾ ، ﴿ يا أيها النبي ﴾ ، وشريعة

(١) نسبة الى حي القيمرية في دمشق (سورية)

الأدب هذه عند الخطاب تتعلمها من هذه السورة كسائر القرآن المجيد ، علمنا الله إياها بالفعل وبالأمثلة ، كما علمنا إياها بالقول في آية ﴿ لا تجملوا دعاء الرسول بينكم كدعاء بعضكم بعضاً ﴾ (٢٤ : ٦٣) على قول ، ولذلك حرموا نداء النبي ﷺ باسمه إلا إذا اقترن بكلمة تعظيم كـ (يا محمد النبي) أو (يا محمد المختار) ومثله ﴿ يوسف أيها الصديق ﴾ فيجوز حينئذ .

(رأيت)

- ١ -

وقال الفهامة الدمشقي الميداني (١) :

يوسف في رؤياه

نامت الطبيعة في خدر الليل الحريري ، لا حركة ولا نبثة ، وأرسل الله نعمة السبات على عباده ، وأراحهم من مشقات النهار ونصبه ، وكان يوسف مضطجماً بين طيات الظلام وثنايا العتمة ، فحكم عليه سلطان الكرى ، وبدأ يستولي على رأسه ، فنام بمليء جفونه ، وأطلق لجسمة العنان في الرقاد ، غير أن قلبه كان في يقظة ، رغم نوم جميع جوارحه وحواسه ، وما هي إلا نومة هادئة ، وإذا بكواكب أحد عشر تنزلت من علوها ، ومعها النيران العظيمة ، الشمس والقمر ، وانتصبت أمامه بانتظام ، سمع صوتاً عظيماً يقصف كالرعد قائلاً : (لتسجد هذه الكواكب السماوية ليوسف ، وتخزلوجوها أمامه بخشوع واحترام) فحفت

(١) نسبة الى حي الميدان في دمشق (سورية)

وخرت ساجدة أمامه ، فأدهشه هذا المنظر الرهيب ، وبغته وهاله ، وهاله جداً ، ثم فتح عينيه فإذا هو مضطجع في مرقد ، وقد بدأت خيوط الليل تنقشع عن وجه الصباح ، ففرك جبينه وقال : (إنه لحلم عجيب) .

(رأيت)

- ٢ -

وقال الأستاذ العكثاري (١) :

يوسف يقص رؤياه على أبيه

شاءت العناية الإلهية أن تتبدىء يوسف بالمبشرات التي تبين مجمل حاله ، وتكشف عن مستقبله ، فرأى وهو وليد ، لم يسلمخ السابعة عشر من عمره - رأى ذات ليلة من الليالي رؤيا غريبة التوى عليه تأويلها ، فقام وانتجع أباه ، فدخل عليه في خيمته صباحاً ، وقد كان له عليه دالة ، ووقف قبالة أبيه بكل أدب وتعظيم فقال له أبوه : (مَهْنِمَ ؟) - فقال : (ألا أعرضُ على مسمعك ما رأيتُه الليلة في نومي؟) - قال : (هات) ! - قال : (يا أبتاه ، حقاً وصدقاً لقد رأيت الليلة فيما يرى النائم ، رؤيا هالتي جداً : وهي من الغرابة بمكان ، رأيت أحد عشر نجماً سماوياً والشمس والقمر ، خرت من عليائها واصطفت وسجدت أمامي ، معفرة وجوها بين يدي ، فما رأيك وما هو قولك؟) - فدهش يعقوب لهذا المنام ، وكان مما أدهشه بنوع

(١) نسبة الى عكار من بلاد الشام (لبنان)

خاص ، سجود الشمس والقمر لولده ، وعلم أن هذا المنام ذو بال ، فقال له أبوه :
(كل المني دون هذا يا ولدي) وصار وكان لسان حاله يردد في نفسه هذين البيتين :

وكم للنجم قد سجّدت أناس^١
لا قد شمتته حسناً مزينا
ولكن فلذة الكبد المفدى
تخرله الكواكب ساجدين^(١)

دهش يعقوب جداً لهذه الرؤيا وصار يقول في نفسه : (فهمنا ؛ أن الأحد
عشر كوكباً هي إخوة يوسف الأحد عشر ، ولكن هل تأتي إخوته لتسجد له إلى
الأرض ؟ ولئن سلمنا ذلك فهل يأتي أبوه وأمه أيضاً لیسجد له . أو على
الأقل ليحضرا هذا المشهد ، مشهد السجود ؟ لا مانع ، إن الله على كل
شيء قدير) .

وهنا صفق أعضاء المؤتمر كثيراً وقالوا بأعلى صوتهم : « اتعش أيها الأستاذ » .

(وأبت)

- ٣ -

وقال الحاج سعدي العكي :

الرؤيا والشرع

من الواضح الذي نستحي أن نغزوه إلى كتاب ، أو نقيم عليه شاهداً ، أن

الرؤى المتنامية معتبرة شرعاً ومسطورة في كثير من الكتب السماوية ، بل معتبرة فناً أيضاً ، فإن علماء الطبيعة ، وعلماء النفس ، أثبتوها ، قال تعالى : ﴿ وما جعلنا الرؤيا التي أرىناك إلا فتنةً للناس ﴾ (١٧ : ٦٠) وقال تعالى : ﴿ فلما بلغ معه السعي قال : يا بني إني أرى في المنام أني أذبحك ، فانظر ماذا ترى ؟ - قال : يا أبت افعل ما تؤمر ؛ ستجدني إن شاء الله من الصابرين ، - فلما أسألتها وتلكه للرجبين - إلى أن يقول - وناديناه : أن يا إبراهيم ، قد صدقت الرؤيا ، إنا كذلك نجزي المحسنين ، إن هذا لهو البلاء المبين ، وفديناه بذبح عظيم ﴾ (٣٧ : ١٠٢ - ١١٧) وقال تعالى : ﴿ لقد صدق الله رسوله الرؤيا بالحق لتدخلن المسجد الحرام إن شاء الله آمنين ، محلقين رؤوسكم ومقصرين ، لا تخافون ، فعلم ما لم تعلموا ، فجعل من دون ذلك فتحاً قريباً ﴾ (٤٨ : ٢٦) ، وروى البخاري ومسلم عن أبي قتادة قال : كنت أرى الرؤيا تمرضني حتى سمعت رسول الله ﷺ يقول : (الرؤيا الصالحة من الله ، والرؤيا السوء من الشيطان ، فإذا رأى أحدكم ما يجب ، فلا يحدث بها إلا من يجب ، وإذا رأى أحدكم ما يكره ، فليتفل عن يساره ثلاثاً ؛ وليتعوذ بالله من الشيطان الرجيم وشرها ، فإنها لن تضره) ؛ وعن أبي رزين العقيلي قال : قال رسول الله ﷺ : (رؤيا المؤمن جزء من أربعين ، - وفي رواية جزء من ستة وأربعين جزءاً من النبوة ، ... قال : وأحسبه قال : ولا يحدث بها إلا لبيباً أو حبيباً) ، أخرجه الترمذي ، لأبي داود ونحوه . ووجه كونها جزءاً من ستة وأربعين جزءاً من النبوة - أنه (صلى الله عليه وسلم) بقي حسباً أشارت عائشة (رضي الله عنها) ستة أشهر يرى الوحي مناماً ، ثم جاءه الملك يقظة ، وستة أشهر بالنسبة إلى ثلاث وعشرين سنة جزء من ستة وأربعين جزءاً ، ولا تنس أن كون الرؤيا الصادقة جزءاً مما ذكر إنما هو باعتبار صدقها لا غير ، وإلا لساغ لصاحبها ،

أن يسمى 'نبياً' ، وليس كذلك ، هكذا أفادنا الحافظ المسقلاني رحمه الله ؛ وعليه فلا تكون الرؤيا مبدأً للنبوة ، ولكن تعد من مقدماتها ، فالظاهر لنا أن رؤى الأنبياء المنامية قبل نبوتهم هي من قبيل الإرهاصات التي تكون قبل النبوة ، أي قبل الزمن الذي يتأهل فيه النبي لقبول الوحي في اليقظة ، وأما رؤياهم في المنام بعد النبوة بالفعل فهي وحي صريح كما تعلمه من حادثة رؤيا إبراهيم المنامية في شأن ولده الذبيح ؛ والخلاصة أن رؤيا الأنبياء حال نبوتهم نوع من أنواع الوحي ، ورؤياهم قبل نبوتهم هي كسائر رؤى أهل الصلاح والخير ، تعد من نوع المبشرات لا من قبيل الوحي ، قال تعالى : ﴿ أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ، الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ ، لَهُمُ الْبُشْرَى فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ ؛ لَا تَبْدِيلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ ؛ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴾ (١٠ : ٦٢ - ٦٤) وقد ورد في الحديث ان البشري في الحياة الدنيا هي الرؤيا الصالحة يراها الرجل أو ترى له .

(وأيت)

- ٤ -

وقال بدر الدين الحيفاوي^(١) : لي هاهنا ثلاث كلمات :

رؤيا الأنبياء ورؤيا الناس

الكلمة الأولى : - إن الرؤيا المنامية معتبرة ، خصوصاً إذا كانت للأنبياء ، لأنها لهم وحي إذا كانت بعد النبوة ، أو إرهاص إذا كانت قبلها ، وههنا ربما

(١) نسبة الى حيفا من أعمال فلسطين

ينتقدنا بعضهم بأن قوله تعالى: ﴿ وَإِذْ يُرِيكَهُمُ اللَّهُ فِي مَنَامِكَ قَلِيلًا ، وَلَوْ أَرَأَيْتَهُمْ كَثِيرًا لَفَشِلْتُمْ ﴾ (٨ : ٤٤) يفيد أن الرؤيا المنامية للأنبياء قد تكون غير موافقة للواقع لبعض الأسباب اللازمة ، كما ترى من هذه الآية ، فإن المشركين في بدر كانوا كثيرين ، وقد أراهم الله لنبيه (ﷺ) في منامه قليلين ، فأخبر بذلك أصحابه ، فاعتقدوهم كذلك ، ولكن بعد اللقاء في الهيحاء رآهم النبي وأصحابه كثيرين ، أي ألقأ ، وكان المسلمون (٣١٣) نفرأ ، فكيف مع هذا يقال : إن الرؤيا حق ، وإن رؤيا الأنبياء وحي صادق موافق للواقع ؟

وجوابنا عن هذا السؤال ، ان الله تعالى قد يوحى الى أنبيائه ورسوله في المنام ما هو في حلال المجازات والاستعارات والتمثيلات ، ونظائره كثيرة ، وشواهده متوفرة ، منها ما جاء في حديث أنس قال ، قال رسول الله (ﷺ) : « رأيت ذات ليلة فيما يراه النائم كأننا في دار عتقبة بن رافع ؛ فأُتينا برطب من رطب ابن طاب ؛ فأولت أن الرفعة لنا في الدنيا ، والعاقبة في الآخرة ، وأن ديننا قد طاب » ، وعليه فالعلة هنا مجاز عن ضعف المعنويات ، أي قلة الكم مجاز عن قلة الكيف ، كما يرى الإنسان في منامه حية وهي كناية عن العدو ، ويرى أن فلاناً مات ، وهو كناية عن قلة دينه ، وهلم جرا ، ولو تتبعنا كتب تفسير الأحلام لوجدنا جميع المنامات التي يراها الناس هي من هذا القبيل ، نعم وربما وقعت الرؤيا للأنبياء صريحة وربما وقعت لهم من باب التمثيل ، والخلاصة أن مدار انتقاد المنتقد السابق على تحتم أن تكون رؤيا الأنبياء صريحة دائماً ، ومدار جوابنا على جواز أن تكون رؤياهم في بعض الأحيان من قبيل التمثيل ، وعلى كل حال ، ففرق عظيم بين رؤيا الأنبياء عليهم الصلاة والسلام ورؤيا غيرهم من الناس ، ومن لم يفرق بين الرؤيين ، فهو كمن لم يفرق بين التوم والثوم (١) .

(١) (التوم جمع تومة وهي اللؤلؤة والتوم معروف) قاموس .

الرؤيا عند النصارى

الكلمة الثانية : - أحوج الناس الى اعتبار المرائي المنامية وتصديقها هم النصارى ، وذلك لأنهم يقولون : إن يوسف النجار خطيب السيدة مريم اتهمها لما رآها حبلى وأراد تخليتها سراً ، ولكنه عدل عن ذلك بما رآه في النوم من الرؤيا المنامية التي نَفَت عنها الفاحشة والتهمة الكاذبة ، فهذه الرؤيا التي رآها في نومه هي التكاأة الكبرى والدعامة الوحيدة التي استند إليها يوسف النجار في براءه السيدة مريم مما اتهمها به ، مع أن يوسف عندهم ليس بنبي يوحى اليه ، وغايته أنه رجل صالح من صالحى بني إسرائيل ، وهذه الحكاية عندهم مسطورة في سفر متى هكذا : (لما كانت مريم أمةً مخطوبة ليوسف قبل أن يجتمعا وُجِدَت حبلى من الروح القدس ، فيوسف رجلها إذ كان باراً ولم يشأ أن يشهرها ، أراد تخليتها سراً ، ولكن فيما هو مفكر في هذه الأمور ، إذا ملاك الرب قد ظهر له في حلم قائلاً : يا يوسف بن داود لا تخف أن تأخذ مريم امرأتك ، لأن الذي حبل به فيها هو من الروح القدس) (مت ١ : ١٨ - ٢٠) فهذا المنام الذي دفع التهمة عن السيدة مريم معتبر عند النصارى ، وبناء عليه جميع المرائي المنامية يجب أن تكون عندهم في محل الاعتبار ، وأما قول شراح الإنجيل وغيرهم من المسيحيين : لم يبق بعد المسيح لزوم لإعلان الله إرادته للناس في النوم وليس من احتياج لذلك ، فهو دعوى مجردة عن البرهان ولا يؤيدها العقل ، بل إن صدق ألوف الألوف من المرائي المنامية التي رآها ويراها الناس بعد المسيح يناقض هذه الدعوى .

الرؤيا المنامية لا تحرم حلالاً ولا تحل حراماً

الكلمة الثالثة - الرؤيا المنامية ولو كانت صحيحة وحقاً ، فهي لا تحرم حلالاً ولا تحل حراماً ولا يترتب عليها حكم شرعي ، وقد حكي أن رجلاً صالحاً فقيراً رأى رؤيا أن النبي ﷺ جاءه في نومه وقال له : (إن في موضع كذا ركازاً ، احضر وخذ ، ولا تؤد خمسة) فقام من نومه صباحاً ، وأخذ ما يقتضي لحفر الأرض ، فاطلع على الركاز ، فذهب إلى الشيخ عن الدين بن عبد السلام يستفتيه في عدم إعطاء خمسة لبيت المال ، حسب ما قال له النبي مناماً ، فقال له الشيخ عن الدين : يجب عليك أن تؤدي خمسة لبيت المال ، كما أفئنا النبي ﷺ بقضة ، وفتواه في البقضة ، مقدمة على فتواه في المنام ، نعم إن رؤيا النبي حق ، ولكن يحتمل عدم ضبط الألفاظ تماماً ، فلهذا قال لك : (وأد خمسة لبيت المال) وأنت سمعته يقول (ولا تؤد خمسة) وهكذا قال الفقهاء : لو اختلف المسلمون في آخر يوم من شعبان ، هل غداً من رمضان أم لا ، ثم رأى رجل النبي في نومه ، وسمعه يقول له (إن غداً أول يوم من رمضان ، فصمه وأمر الناس بصيامه) ، لا يجب عليه صيامه ، ذلك لأن الرؤيا التي في المنام ، لا يترتب عليها شيء من الأحكام الشرعية ، ولو كانت حقاً وصحيحة ، هذا إذا كانت لغير الأنبياء أنفسهم ، وأما رؤى الأنبياء أنفسهم ، فهي وحي ، كما في البقضة ، تترتب عليها الأحكام الشرعية بلا خلاف .

سمعتني مرة القسيس الدكتور ستارلنغ المبشر البروتستانت في بلدة غزة أقول نحو هذا الكلام فقال لي : (ومن هذا القبيل ما روينا في سفر أعمال الرسل أن القديس بطرس رأى رؤيا وهو يصلي على السطح ، رأى أنه جاع كثيراً واشتهى

أن يأكل ، وبينما هم يهيتون له ، وقعت عليه غيبة ، فرأى السماء مفتوحة ، ورأى ملحفة نازلة عليه ، عظيمة مربوطة بأربعة أطراف ، ومدلاة على الأرض مرسله بمجال منوطة بأطرافها ، وكان فيها كل دواب الأرض والوحوش ، والزحافات وطيور السماء ، وصار إليه صوت : (قم يا بطرس اذبح وكل) - فقال بطرس : (كلا يارب ، لأنني لم آكل قط شيئاً دنساً أو نجساً) فصار إليه أيضاً صوت ثانية : (ما طهره الله لا تدنسه أنت) ، قال القسيس المبشر : وبهذا ألغى التمييز بين الطاهر والنجس من المأكولات الحيوانية ، المذكورة في التوراة ، وكانت هذه الرؤيا في مدينة يافا ، (راجع أ ع ١٠ و ١١) تجد صحة ما قلت لك .

فقلت للمبشر : (إن الرؤيا التي يترتب عليها حكم التحليل والتحرير ، إنما هي رؤيا الأنبياء المعصومين ، لأنها وحي ، وأما القديس بطرس فلا هو نبى ولا هو معصوم عندنا) - فأجابني : (لكن هو عندنا رسول من رسل المسيح ، ومعصوم لأنه لا يتكلم إلا بإلهام الروح القدس) - فقلت له : (لو كان معصوماً ولا يتكلم إلا بإلهام الروح القدس ، لما خصه في ذلك ونحوه قسم من النصارى ، ولكن المخاصمة وقعت كما ذكره في (أ ع ١١ - ٢) ، وتجد مخاصمات كثيرة بين التلاميذ في أحكام كثيرة ، تفسر الإحاطة بها ، ولكن أنت تعلمها من ملحقات الإنجيل) .

(رأيت)

- ٥ -

قال العلامة المصري :

لماذا لم ير يوسف (ع) رؤيا تدل على ماسيحيه من شر

كانت قدّرت أشياء على يوسف لا بد منها ، وذلك مثل امتحانه بمراودة

امرأة العزيز إياه ، ثم نسبة المراودة إليه زوراً ، ثم اختباره ثانياً بالنسوة المصريات ثم سجنه ظلماً ، ولم ينذر بشيء من هذه الأشياء ، ولم يرَ عنها في منامه ، ولكنه قدّرت له أشياء أخرى ، وذلك مثل سجود إخوته له ، واجتباء ربه إياه ، وتعليمه من تأويل الأحاديث ، وإتمام نعمته عليه ، وهذا النوع قد بشر ببعضه مناماً ، وبشر ببعضه الآخر بلسان أبيه يقظة ، ولماذا هذه التفرقة يا ترى ؟ أعني أنه لم ينذر بما سيصب عليه ، ولكنه بشر بما سيصير له ، وجوابنا على ذلك أن الأفضل فيما كان من قبيل الخبر أن يتشر به الإنسان ويوعده به قبل حصوله له بالفعل ، وذلك لكي يتلذذ بالأمل بحصوله قبل أن يحصل له بالفعل ، وأما ما كان من قبيل الشر فالأوفق أن لا يشعر به أولاً لئلا يتنفص به قبل وقوعه ، وقد قيل : (الوقوع في الشر ولا انتظاره) .

(رأيت)

- ٦ -

قال عبد الملك الكرودي^(١)

رؤيا يوسف الخزم الالهدهشر

كان يوسف قبل ذلك رأى حلماً وهو ابن سبع سنين ، رأى نفسه واخوته في حقل وقد حزموا حُزماً ، وإذا حزمته قامت وانتصبت فاحاطتهم حُزُمهم ، فكانت حُزُمهم حوالي حُزُمته كأعضاء مجلس حوالي رئيسهم ، أو كالدارة

(١) نسبة الى قوم الاكراد

حول الشمس أو الهالة حول القمر ، وحينئذ سجدت خزمتهم لحزمته ، وقد كان يوسف قص هذه الرؤيا على إخوته ، فلما سمعوا منه أحسوا كأنه صب ماء غالباً على ظهورهم وقالوا له : (أملكك تملكك علينا ملكاً ، أم تتسلط علينا تسلطاً ؟) (تك : ٣٧ : ٨) وازدادوا بفضاً له من أجل حلمه ومن أجل كلامه .

(أحد عشر كوكباً)

- ١ -

قال الحاج أحمد اللاذقاني ^٢ :

علو الرؤيا بعلو النفس

إن للنفوس الانسانية خصائص تتجلى في أعمال الإنسان وأقواله وقلمه ودرسه وأحلامه ، وحركاته وسكناته ، فلكل إنسان رؤيا تناسبه ، وأحلام توافقه ، وطالما دلت الرؤيا ذوي الفراسة على أخلاق الرائيين ، فذلك ولكون يوسف مرء النفس كبير المقام عالي التصور ، رأى النجوم وجمالها وسجودها له وخضوعها ؛ ثم لذلك ولكون (الريان بن الوليد ملك مصر) كان مهتماً بالشعب والرعية محباً لخير الأمة المصرية ، رأى في نومه البقر التي يكون عليها الحرث ويكون منها الدر ، ورأى سنابل الزرع التي يتوقف عليها نظام الحياة ، إذأ فالنفس ليست تتصور في المنام إلا ما تهتم به في اليقظة . ومن هنا قيل العلة الأصلية للأحلام هي همم قديم أو حديث ، ومعظم الأحلام تتعلق بالهموم الحاضرة التي يفكر فيها صاحبها بالنهار ،

(٢) نسبة الى اللاذقية من بلاد الشام .

أو التي يمتنع عن التفكير فيها ، لأنه يكره عواقب الفكرة بها ، وقبل الختام فإن كلمة (أحد عشر) لم تنزل في كتاب الله إلا مرة واحدة ، وهي التي ذكرت في مقام السجود ليوسف ، إكراماً له ، عليه الصلاة والسلام .

(أحد عشر)

- ٢ -

قال العلامة البيروني (١) :

قداسة عدد ١٢

ويوسف تكون أولاد يعقوب اثني عشر ولذاً ، وهذا العدد من الأعداد المقدسة ، التي تكررت في الأمور المهمة مراراً ، واليك بعض الشواهد :

١ - كون رسل المسيح عليه السلام الذين عينهم كانوا اثني عشر رسولاً وهم : بطرس ، أندراوس أخوه ، يعقوب الكبير بن زبدي ، أخوه يوحنا الانجيلي ، ابن زبدي ، فيلبس ، برثولماوس ، توما ، متى المشّار ، يعقوب الصغير بن حلفي ، أخوه لبّاوس ، سمعان الفيور ، يهوذا الأسخريوطي الذي كفر بسيدته . فارتدّ ومات مرتداً ، كما في (مت ١٠ : ٢ - ٤) وخلفه متىامس .

٢ - كون أولاد اسماعيل اثني عشر وهم : نَبَايُوت ، قَيْدَار ، أَدْبُمَيْل ، مِبْسَام ، مِشْنَع ، دُوْمَة ، مَسَا ، حِدَاد ، نَيْمًا ، يَطُّور ، نَافِيش ، وَقَدْمَة . (تك ٢٥ : ١٣ - ١٥) وكما صارت أولاد يعقوب اثني عشر سبطاً فكذا صار هؤلاء اثني عشر قبيلة .

(١) نسبة الى بيروت من بلاد الشام (لبنان)

٣ - كون كتبة الوحي القرآني ، اثني عشر وهم : عثمان بن عفان ، علي بن أبي طالب ، خالد بن سعيد ، أنان بن سعيد ، الملا بن الحضرمي ، أُبَيِّ بن كعب ، زيد بن ثابت ، مُعَاذ بن جبل ، معاوية بن أبي سفيان ، حنظلة الأُسَيْدي ، عبدالله ابن الأرقم وعبد الله بن سعد بن أبي سَرْح ، وهذا الثاني عشر ارتد كما ارتد حوارى عيسى الثاني عشر ، ولكن ابن أبي سرح عاد للإسلام وأما الحوارى فبقي على ردة حتى مات .

٤ - كون عدد النقباء الذين ارسلهم موسى من قادش ليتجسسوا أرض كنعان ، وهي فلسطين - اثني عشر كما قال تعالى ﴿ وَبَعَثْنَا مِنْهُمُ اثْنَيْ عَشَرَ نَقِيبًا ﴾ (٥ : ١٣) ، وهم : شَمُوع ، شَافَاظ ، كَالْب بن يَفْنَه : يَجْأَل ، هُوشَع بن نون ، فَلَطْطِي ، جَدَّيْئِيل ، جَدِّي ، عَمِيئِيل ، ستور ، نَحْبِيي وَجَأَوَيْئِيل (عدد ١٣ : ٤ - ١٥)

٥ - كون أئمة آل البيت على رأي الشيعة الامامية اثني عشر ، وهم : محمد المهدي الحجة ، بن الحسن العسكري ، بن علي الهادي ، بن محمد الجواد ، بن علي الرضا ، بن موسى الكاظم ، بن جعفر الصادق ، بن محمد الباقر ، بن زين العابدين ابن السبط الحسين ، ثم أخوه السبط الحسن ، ثم أبوهما علي بن أبي طالب زوج الزهراء رضى الله عنهم .

٦ - كون البروج اثني عشر وهي : الحَمَل ، الثور ، الجوزاء ، السَّرَطَان ، الأسد ، السنبله ، الميزان ، العقرب ، القوس ، الجدي ، الدلو والحوت .

٧ - كون أشهر السنة اثني عشر كما قال تعالى : ﴿ إِنَّ عِدَّةَ الشُّهُورِ عِنْدَ اللَّهِ اثْنَا عَشَرَ شَهْرًا فِي كِتَابِ اللَّهِ ﴾ (٩ : ٣٧) وهي : المحرم ، صفر ، ربيع الاول ، ربيع الثاني ، جمادى الأولى ، جمادى الثانية ، رجب ، شعبان ، رمضان ، شوال ، ذو القعدة وذو الحجة .

٨ - كون العيون التي تفجرت لموسى والأسباط اثني عشرة عيناً، ليكون لكل سبط عين يشرب منها : وذلك بضرب موسى الحجر حينما كانوا في قادش (عدد ص ٢٠) .

٩ - كون عدد الاحجار التي حملها الاثنا عشر رجلاً من الاسباط الإسرائيلية - اثني عشر حجراً ، حملوها على أكتافهم من وسط نهر الأردن علامة على أن هذا النهر قد انفلتق لهم ، وهم تحت قيادة يشوع بن نون ، كما انفلتق لهم البحر بمصر وهم تحت قيادة موسى عليه السلام (راجع يش ٤ : ١ - ٩) .

١٠ - كون أقل عدد تصح به الجمعة عند مالك بن أنس (ض) هو اثني عشر رجلاً .

١١ - كون ولادة النبي (ﷺ) كانت ليلة اثني عشر من ربيع الأول ، حسبما هو مشهور .

١٢ - كون عدد الرجال الذين اجتمع معهم النبي (ﷺ) في العقبة لأول مرة فأسلموا ، وأرسلهم ليبلغوا أهل المدينة - كانوا اثني عشر رجلاً، وذلك في ابتداء سنة اثني عشرة من النبوة ، ثم كون عدد النقباء في الاجتماع عند العقبة لثاني مرة - اثني عشر نقيباً أيضاً ، وكان هذا آخر سنة اثني عشرة من النبوة !!!

١٣ - كون الإسراء والمراج كان بعد النبوة باثني عشرة سنة، لأنه (ﷺ) نبي وعمره أربعون سنة وستة أشهر وثمانية أيام - على ما حققه عصرينا الاستاذ الخضري في محاضراته - وكان الإسراء والمراج حين بلغ من العمر اثنتين وخمسين سنة ونصفاً .

١٤ - كونه (ﷺ) خرج في هجرته من قباء الى المدينة المنورة يوم ١٢ خلعت من ربيع الأول سنة ٦٣٢ ب . م

١٥ - كون نقباء الدعوة العباسية أيام محمد بن علي بن عبد الله بن العباس - اثني عشر نقيباً ، وهم : سليمان بن كثير الخزاعي ، مالك بن الهيثم الخزاعي ، طلحة بن زريق الخزاعي ، عمر بن أعين الخزاعي ، عيسى بن أعين الخزاعي ، قحطبة بن شبيب الطائي ، لاهز بن قريظ التميمي ، موسى بن كعب التميمي ، القاسم بن مجاشع التميمي ، أبو داود خالد الشيباني ، أبو علي الهروي الحنفي ، وعمران بن إسماعيل الميطي ، كما في محاضرات عصرينا الخصري .

١٦ - كذلك الذين بقوا ثابتين مع النبي (ﷺ) في غزوة أحد ، كانوا (١٢) رجلاً، وقد فر من عداهم من المسلمين.

١٧ - كذلك لم يبق مع النبي (ﷺ) حال خطبة يوم الجمعة حين جاء العير من الشام سوى (١٢) رجلاً .

١٨ - كانت مدة مرض المرأة التي استغاثت بالمسيح بنزف الدم - اثني عشرة سنة ، (وذلك أن المسيح عليه السلام بينما كان ماراً في الطريق إذا امرأة نازفة دم منذ اثني عشرة سنة ، قد جاءت من ورائه ومست هُذب ثوبه ، لأنها قالت في نفسها : إن مسست ثوبه فقط شُفيتُ ، فالتفت المسيح وأبصرها فقال : ثِقْبِي يَا ابْنَةَ ، إيمانك قد شفاكِ ، فشفيت المرأة من تلك الساعة) (مت ٩ : ٢٠ - ٢٢) وكانت قد أنفقت كل مالها على الأطباء فلم تستفد شيئاً ، بل زادت مرضاً .

١٩ - كون ساعات النهار اثني عشرة ساعة ، هكذا أخذ اليهود قسمة النهار إلى اثني عشر جزءاً عن البابليين أيام سبيهم إياهم إلى بابل ، وظلوا على ذلك إلى يومنا هذا .

٢٠ - لما جاء الإسلام المدينة المنورة كان الذين يكتبون من الأوس والخزرج اثني عشر رجلاً فقط كما ذكره في فتوح البلدان .

٢١ - أتى القرآن الكريم على ذكر النخيل اثنتي عشرة مرة كما يعلم ذلك بالمراجعة .

٢٢ - سورة يوسف نفسها هي السور الثانية عشرة في ترتيب المصحف الشريف وهي السورة المذكورة فيها قصة الإخوة الاثني عشر .

٢٣ - كون الخلفاء في الإسلام اثني عشر خليفة ، في الصحيحين عن جابر بن سمرة أن النبي ﷺ قال : (لا يزال هذا الأمر عزيزاً ، إلى اثني عشر خليفة ، كلهم من قريش) ولفظ البخاري اثني عشر أميراً ، وفي لفظ (لا يزال أمر الناس ماضياً ، ولهم اثنا عشر رجلاً) ، وفي لفظ (لا يزال الإسلام عزيزاً ، إلى اثني عشر خليفة ، كلهم من قريش) ، وهكذا كان ، فكان الخلفاء هم : أبو بكر وعمر وعثمان وعلي والحسن ، ثم تولى من اجتمع الناس عليه ، وصار عز ومنعة ، وهو معاوية ، ثم عبدالملك وأولاده الأربعة ، وبينهم عمر بن عبدالعزيز ، فهولاءهم الإثنا عشر خليفة ، على ما فهمه جمع من العلماء ، وبعض العلماء لم يعد السبط الحسن (ص) لأن مدته كانت قليلة جداً ، لا تزيد عن ستة أشهر ، وكانت في اضطراب شديد ، ولم تكن له ولاية عامة ، وعد بدله (المهدي) من العباسيين ، الذي كان تتبع أهل البدع والزنادقة بقتلهم ، حتى اندفع بذلك شر كبير ، وكان فيه من تعظيم العلم والجهاد ، ما كانت به دولته أحسن دولة العباسيين من جهة الدين ، حتى إن بعض العلماء حمل حديث المهدي - لو صح - عليه ، والله أعلم .

قال بعضهم وهؤلاء الاثنا عشرة خليفة هم المذكورون في التوراة حيث قال في بشارته بإسماعيل : (وسيلد اثني عشر عظيماً) . أصوات من المستمعين

(مرحى) لله درك من واسع الاطلاع يا علامة بيروت !

(كوكباً)

- ١ -

قال ترجمان الحق الحموي (١) لي هاهنا كلمتان :

لماذا عبر عن اخوة يوسف بالكواكب

الكلمة الأولى - تقدم للأخ العلامة سليم الخانيونسي في الفصل الثاني من المقدمة أن إخوة يوسف ليسوا بأنبياء ، وأنه أخذ موافقة جميع الأصوات على ذلك ، وعليه فإننا عبرنا عنهم (بالكواكب) ١ - لأنهم صاروا رؤساء الأسباط ، حيث صار كل -بط- ينتسب إلى جده ، فيقال : سبط رأوين ، سبط شمعون ، وهكذا إلخ ، ويقولون : الرؤيون ، الشمعونيون ، اللاويون ، إلخ فبذلك حصل لهم شهرة صاروا بها كالكواكب .

٢ - لأنهم في آخره أمرهم اعترفوا بذنوبهم وتابوا إلى أخيه وأبيهم وإلى الله فقبلت توبتهم وصاروا من الصالحين حتى استأهلوا أن يكنى عنهم بالكواكب .

٣ - ليس كل كوكب مضيئاً كما بينه علماء الهيئة وأشار إليه أبو العلاء المرعي بقوله :

وعلى الرجال معالم ومجاهل
ومن النجوم غوامض ودراري

٤ - لو قلنا إنهم شبهوا بالكواكب المضيئة لجاز لنا أن نقول إن ضوءهم إنما هو مكتسب من

(١) نسبة الى حماد من بلاد الشام

نسبتهم لأبيهم الشمس ومن أخيهم يوسف المسجود له من الشمس ، كما إن نور النجوم مستفاد من نور الشمس ، هذا ما يجب أن يقال في هذا المقام ، لا أقل ولا أكثر .

ولو كان التعبير بالكواكب يقتضي النبوة لكانت راحيل أم يوسف نبية حيث عبّر عنها بالقمر ، فالاستدلال على نبوتهم بمثل هذه اللفظة هو من قبيل التشيع للمذاهب والآراء ، فالإنسان إذا خامرته التشيع لرأي أو نحلة ، استدل عليه بما لا يفيد إلا العناء ، وتعلق بجبال الهوى أو الهواء .

الكلمة الثانية - إنه يقرب على ظننا أن هذه الكواكب كانت (سيارة) ، وهكذا كان حال إخوة يوسف الأحد عشر ، فإنهم سيارون ، كانوا ساروا مع أبيهم من العراق إلى سورية ، ثم إلى فلسطين ، ثم للديار المصرية ، رحلوا إليها أربع رحلات ، هذا ما ظهر لي الآن والسلام عليكم .

(والشمس والقمر)

- ١ -

قال شيخنا العلامة الحلي (١) :

التعبير عن الرجل بالشمس وعن المرأة بالقمر

الشمس أبوه ، والقمر أمه ، كذا أولوه ، وعندني إنه وجيه من وجوه :
١ - إن القمر مقتطع ومقتبس من الشمس ، بواسطة اقتطاعه من الأرض

(١) نسبة إلى الحلة من بلاد العراق

المقطعة من الشمس ، كما قال تعالى ﴿ أَوَلَمْ يَرَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمَاوَاتِ
وَالْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا ﴾ (٢١ : ٣٠) وقال تعالى : ﴿ وَانشَقَّ
القمرُ ﴾ (٥٤ : ١) أي من الأرض ، فالآية ترمز لهذا المعنى ، زيادة عن المعنى
الأصلي ، وهو انشقاقه معجزة لخاتم الأنبياء ﷺ ، فهذا الوجه يناسب ما شاع
من أن المرأة الأولى مخلوقة من الإنسان الأول .

٢ - ثبت فناً أن نور القمر مستفاد من نور الشمس ، كما أن عيشة المرأة وقوام
حياتها عائدة عليهما من سعي الرجل وإنفاقه .

٣ - إن كلمة (قمر) تشعر بالمقامرة ، وهي الملاعبة والتحيز والمراوغة ،
وهذه هي أخص صفات المرأة . وأما كلمة شمس فهي تشعر بالشموس وهو المنع
والقوة ، يقال شمس الفرس يشمس ، فهو شمس ، ورجل شمس أي صعب الخلق
وهذه المعاني تناسب الرجل .

٤ - سلطان القمر بالليل ، وسلطان الشمس بالنهار ، وذلك في مقابلة أن سلطان
المرأة يكون ليلاً ... وسلطان الرجل يكون نهاراً بالأتعاب والعمل
وتحصيل الفوائد .

٥ - من أسباب تأويل الشمس يعقوب أنه رئيس العائلة التي تحف به وتعتمد
عليه ، كما أن الشمس هي مركز النظام الشمسي ، وأن السيارات السابحة في سمواتها
ومداراتها تحتف بالشمس وتدور حولها من كل جانب ، ومن جملة تلك السيارات
القمر نفسه ، فهو معتمد على الشمس ، كما من أسباب تأويل القمر بالمرأة أن المرأة
تعتمد في قوام حياتها وأسباب معيشتها وراحتها على رجلها بما فضله الله به ، وبما ينفعه
عليها من أتعابه وعرق جبينه .

٦ - إن القمر أضعف نوراً من الشمس ، كما إن المرأة أضعف من الرجل ، وإشارة إلى هذا الضعف فيها وتلك القوة في الرجل يقول الله تعالى : ﴿ وَجَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِنَّ نُوراً ، وَجَعَلَ الشَّمْسَ سِرَاجاً ﴾ (٧١ : ١٦) ، عبر عن الشمس بالسراج ، ولفظ السراج يحضر في النفس شعاعه المتقد ، فكأنه نور منبعث من نار ، وأيضاً فإن القمر نور محض يكاد أن يكون بارداً ، بخلاف الشمس فإنها تجمع إلى التور الحرارة ، فلهذا عبر عن الرجل بالشمس ، وعن المرأة بالقمر .

٧ - إن بعض الأمم العتيقة كانت تعتقد أن الشمس ذكر والقمر أنثى والنجوم تولدت من زواجهما .
بخ ، بخ

(والشمس والقمر)

- ٢ -

قال الامام الزقازيقي (١) :

من هو المقصود بالقمر في رؤيا يوسف

قيل إن هذا القمر هي أمه الحقيقية راحيل ، وإنما كانت حية بدليل ﴿ آوَى إِلَيْهِ أَبُوهُ ﴾ (٩٩ع) ﴿ وَرَفَعَ أَبُوهُ عَلَى الْعَرْشِ ﴾ ، (ع ١٠٠) واللفظ متى أطلق انصرف لعنايه الحقيقي ، واستدرك عليه بأن التاريخ يثبت صريحاً أن أمه راحيل كانت ماتت وعمره عشر سنين أو إحدى عشرة سنة ، وقد أجمع أهل التاريخ على أن والدته راحيل لم تسافر لمصر ولم تسجد له ، بل

(١) سيرة الى الزقازيقي من بلاد القطر المصري

اتفقوا على انها لم تكن موجودة حينما رأى يوسف هذه الرؤيا ، فلذلك يجب تأويل « القمر » بمخالته « ليثة » شقيقة أمه ، واستدرك عليه بأن خاله ليثة ماتت ودفنت في مغارة المكفيلة (تك ٤٩ : ٣١) أى الغار الشريف في حبرون قبلما رحلوا لمصر وهذا أيضاً يجمع عليه بين المؤرخين ، فلذلك قيل : إن القمر أمه المجازية التي هي « بلهة » جارية والدته وهي أيضاً كافلته ومربيته بعد موت أمه ، حيث انتقل نخيمتها وصار هو وأخوه بنيامين ينامان فيها تحت فطر تلك الجارية ، وكانت تعطف عليه وعلى أخيه بنيامين عطف الأم الرؤوم على ولدها ، وهذا القول الثالث هو المنصور ، وقد سمي النبي (ﷺ) حاضنته « بركة الحبشية » أمأ ، إذ قال يوماً للصحابة : « هذه أمي بعد أمي » ؛ وأما القول الأول فهو في غاية الضعف ، والدليل على ذلك زيادة عمما قاله المؤرخون أنها لم تذكر في تضاعيف القصة ، ولعمري لو كانت حية لذكرت في بعض المواضع ، لا سيما عند استئذانهم أباهم في أخذه معهم ليرتع ويلعب ، أو عند نعيمهم يوسف لأبيهم ، أو عند طلبهم لإرسال بنيامين لمصر ، أو عند رجوعهم من مصر وقولهم لأبيهم : ﴿ إِنَّ ابْنَكَ سَرَقَ ﴾ (ع ٨١) - ولعمري لو كانت حية لكان يوسف اجتهد على مجيئها لمصر أكثر جداً من اجتهاده على مجيء بنيامين ، وكان يوسف يقول : هل علمتم ما فعلتم بيوسف وأمه ؟ ، لأنها تتأثر أكثر مما يتأثر ابنها بنيامين ، وأخيراً لعمري لو كانت حية بقيد الحياة لنقل عنها أنها قالت : « يا ألف أسفاً على يوسف » ، ولكانت أرسلت بدل الدمع دماً ، وفقاً إن عدم ذكر أمه في هذه المواضع وأشباهاها لهودليل ناصح على موتها قبل هذه الحوادث .

(والشمس والقمر)

- ٣ -

قال الحاج سميع المكي :

هل سجد أبوا يوسف له

يجوز أن تكون الواو عاطفة في « والشمس والقمر » ، وعليه فالشمس والقمر من جملة الساجدين ، وهذا هو المشهور المتبادر ، ويجوز أن تكون بمعنى « مع » وهي واو المعية ، فهو منصوب على إنه مفعول معه ، وعليه فالشمس والقمر لم يكونا ساجدين ، بل كانا مصاحبين للمسجود له أو للساجدين ، حين السجود ، أي كانا حاضرين وقت سجود الأحد عشر كوكباً ، والمعنى : « كنت مصاحباً للشمس والقمر وقت رؤيائي الأحد عشر كوكباً ساجدة لي ، أو كانت الكواكب الأحد عشر مصاحبة للشمس والقمر حين سجودها لي » .

ونظيره قولك : أبصرت ثلاثة فرسانٍ والجبلَ مسرعينَ في العَدْوِ ، فليس الجبل مشاركاً للفرسان في العدو ، وإنما هو مصاحب لها حين عدوها . وقد ينتصر هذا الاحتمال الثاني بأن مقام الأبوة كالأبوة أرفع من أن ينافيه به السجود للابن ، لأن الشرائع جميعها ترفع شأن الأب لدرجة سامية جداً ، بحيث تكاد أن تساويه بالله تعالى ، الذي يجل عن المساوي والمداني ، انظروا قوله تعالى : ﴿ أَنْ اشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ ﴾ (٣١ : ١٤) وقوله تعالى : ﴿ وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَنْ لَا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا ﴾ (١٧ : ١٦) ، يوسف م- ١٤ .

﴿ وَاَعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا ﴾ (٤ : ٣٥) ،
﴿ وَاخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذَّلِيلِ ﴾ (١٧ : ٢٤) .

وفي سفر اللاويين (من جَدَّفَ عَلَى اسْمِ الرَّبِّ فَانَّهُ يُقْتَلُ) (لا ٢٤ : ١٦)
و (كل إنسان سب أباه أو أمه فإنه يقتل) (لا ٢٠ : ٩) .

ثم إنه في آخر القصة يفيد أن أبويه لم يسجدا له ، قال تعالى : ﴿ وَرَفَعَ أَبْوَيْهَ عَلَى الْعَرْشِ وَخَرُّوا لَهُ سُجَّدًا ﴾ (ع ١٠٠) فهكذا يكاد يكون صريحاً في أن الساجدين هم الإخوة فقط ، وأما أبواه فعوضاً عن أن يسجدا له رفيعاً على العرش .

ثم إن يوسف في رؤياه الأولى وهي سجود الحزم الأحد عشر التي نقلها المفسرون والمؤرخون عن وهب بن منبته ، وهي مذكورة بالصراحة في سفر التكوين (تك ٣٧ : ٥ - ٨) ، - هذه الحادثة لم يذكر فيها سجود أبويه ، ولكن إخوته فقط ، والأصل اتحاد مضمون الرؤيين ، كما اتحاد مضمون رؤيبي ملك مصر وهي البقرات والسنابل ، فإن مآلهما واحد ، لا تزيد رؤيا عن رؤيا شيئاً ، ولذلك لما ورد في سفر التكوين أن الإخوة الأحد عشر سجدوا ليوسف مرتين (تك ٤٣ : ٤٤ و ٢٦ : ١٤) لم يذكر سجود أبويه معهم ، لا في المرة الأولى ولا في المرة الثانية .

والحاصل أن رؤيا يوسف الأولى تأولت حين لم يكن أبوه وأمهم حاضرين معهم ، فلذلك لم يذكر ، وأما رؤيا يوسف الثانية فتأولت وقد كان أبواه حاضرين مع الإخوة فلذلك ذكر ، هذا هو تحقيق المقام .

• (تصفيق حاد متواصل)

(وأيتهم لي ساجدين)

- ١ -

قال الاستاذ المدني (١) :

التطرية في القرآن

قوله « رأيت » في أول الآية و « رأيتهم » في آخرها أعيد على سبيل التطرية ،
للطول بالمفاعيل ، وهذه الطريقة معهودة ومألوفة في كلام العرب ، وفي كتاب الله
تعالى ، فمن ذلك :

(١) - ما في قوله تعالى : ﴿ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا اقْتَتَلَ الَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ ،
مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمْ الْبَيِّنَاتُ ، وَلَكِنْ اخْتَلَفُوا ، فَهُمْ مِنْ آَمِنَ ،
وَمِنْهُمْ مَنْ كَفَرَ - وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا اقْتَتَلُوا ، وَلَكِنْ اللَّهُ يَفْعَلُ
مَا يُرِيدُ ﴾ (٢ : ١٥٣) .

(٢) - ما في قوله تعالى : ﴿ لَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِمَا أَتَوْا ،
وَيُحِبُّونَ أَنْ يُحْمَدُوا بِمَا لَمْ يَفْعَلُوا - فَلَا تَحْسَبَنَّهُمْ بِمَفَازَةٍ مِنَ
الْعَذَابِ ﴾ (٣ : ١٨٨) .

(٣) - ما في قوله تعالى : ﴿ اذْهَبْ أَنْتَ وَأُخُوكَ بآيَاتِي وَلَا تَنِيَا فِي
ذِكْرِي - اذْهَبَا إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى ﴾ (٢٠ : ٤٢ و ٤٣) .

(٤) - ما في قوله تعالى : ﴿ أَيَعِدُّكُمْ أَنْ تَكُفُّوا إِذَا مِتُّمْ وَكُنْتُمْ تُرَابًا
وَعِظَامًا - أُنْفِكُمْ مُخْرَجُونَ ؟ ﴾ (٢٣ : ٣٥) .

(٥) - ما في قوله تعالى: ﴿ قَلْنَا اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ، وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ ، فَتَلَقَى آدَمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ - قَلْنَا اهْبِطُوا مِنْهَا جَمِيعًا ، فَإِمَّا بِأَيِّنُّكُمْ مِنْنَى هُدًى ، فَمَنْ تَبِعَ هُدَايَ .. الخ ﴾ (٢ : ٣٦ - ٦٨) .

(٦) - ما في قوله تعالى: ﴿ أَمْ اتَّخَذُوا آلِهَةً مِنَ الْأَرْضِ ، هُمْ يُنْشِرُونَ ؟ لَوْ كَانَ فِيهَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا ، فَسُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ ، لَا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ ، - أَمْ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ آلِهَةً ؟ قُلْ : هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ ، - هَذَا ذِكْرٌ مَنْ مَعِيَ وَذِكْرٌ مَنْ قَبْلِي ، بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ الْحَقَّ ، فَهُمْ مُعْرِضُونَ ﴾ (٢١ : ٢١ - ٢٤) .

(٧) - ما في قوله: ﴿ لَيْسَ عَلَى الْأَعْمَى حَرَجٌ ، وَلَا عَلَى الْأَعْرَجِ حَرَجٌ ، وَلَا عَلَى الْمَرِيضِ حَرَجٌ ، وَلَا عَلَى أَنْفُسِكُمْ أَنْ تَأْكُلُوا مِنْ بُيُوتِكُمْ ، أَوْ بُيُوتِ آبَائِكُمْ ، أَوْ بُيُوتِ أُمَّهَاتِكُمْ ، أَوْ بُيُوتِ إِخْوَانِكُمْ ، أَوْ بُيُوتِ أَخْوَانِكُمْ ، أَوْ بُيُوتِ أَعْمَامِكُمْ أَوْ بُيُوتِ عَمَّاتِكُمْ ، أَوْ بُيُوتِ إِخْوَانِكُمْ ، أَوْ بُيُوتِ خَالَاتِكُمْ ، أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ ، مَفَاحِشَهُ ، أَوْ صَدِيقِكُمْ - لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَأْكُلُوا جَمِيعًا أَوْ أَشْتَاتًا ﴾ (٢٤ : ٦١) .

الى غير ذلك من الشواهد القرآنية التي تربو على خمسة عشر موضعاً فيما يراه العبد الحقير ، وقد نبه على بعضها صاحبها الكشاف والانتصاف .

وبعد فأختم هذا المقال بالإعراب عن أسمي احتراماتي للاخوان الحاضرين ، وتقديمي لهم تحياتي والسلام .

(وأيتهم لي ساجدين)

- ٢ -

وقال الشيخ محمد بن صالح من علماء الطائف :

اعتراض ثم تسليم

سمع أبوه ذلك منه ، فأعظم هذه الرؤيا مبدئياً ، وأكبر هذا المنام ، فاتهره وقال له : (ما هذا الحلم الذي حُلِمْتَ ، هل تأتي أنا وأمك وإخوتك نسجد لك إلى الأرض ؟) (تك ٣٧ : ١٠) ، ما أنت وذاك يا غلام ! ثم سكت هنيهة يفكر ، فتاب إلى صوابه ورآى أن لا مانع من ذلك : ﴿ قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكُ الْمَلِكِ ، تُؤْتِي الْمَلِكَ مَنْ تَشَاءُ وَتَنْزِعُ الْمَلِكَ مِمَّنْ تَشَاءُ ، وَتُعِزُّ مَنْ تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَنْ تَشَاءُ ، يَبْدِكَ الْخَيْرُ ، إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ (٢٦ : ٣) ﴿ ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ﴾ (٥٧ : ٥) فاعتقد صدق كلام ولده وإمكانه ، وتنسّم فيه الخير وسلمّ له ، وتهلل وجهه سروراً ، لا يتهلل به إلا وجه أب لابنه حينما يسمع منه ما يعود على ولده بالخير فحفظ الأمر حفظاً تسليم وإذعان ، وصار له من المنتظرين .

(وأيتهم لي ساجدين)

- ٣ -

وقال الشيخ ابن نصيف من علماء جدة :

معنى السجود

السجود التظامن ، وكل شيء ذل فقد سجد ، وسجد البعير : خفض رأسه

عند ركوعه ، وسجد الرجل وضع جبهته بالأرض ، وسجد انتصب في لغة طيبي ، لأن انتصاب رجل أمام آخر خضوع له منه ، وكل هذه المعاني لغوية يجوز حمل الكلمة الشريفة هنا على أي منها ، وأما السجود في الشرع فهو عبارة عن هيئة مخصوصة ، هذا ما تعلمه من معاجم اللغة .

لاتقص الرؤيا على المدو

آ (٥) * قال : يا بُنَيَّ ، لا تَقْصُصْ رُؤْيَاكَ عَلَى إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُوا لَكَ كَيْدًا ، إِنَّ الشَّيْطَانَ لِلْإِنْسَانِ عَدُوٌّ مُبِينٌ

افتتحت الجلسة وتليت الآية الخامسة فقام عبدالعظيم التركي وقال :

عرف يعقوب عليه السلام دلالة الرؤيا على أن يوسف يبلغه الله مبلغاً عالياً ، وكان يعلم كراهة إخوته العشرة له ؛ فخاف عليه حسدهم وبغيهم ، فلذلك نصحه و (قال) له بلسان النصيحة ممزوجاً بالفرح والسرور * (يا بني لا تقصص رؤياك) * هذه * على * أحد من * إخوتك * العشرة * فيكيدوا * - منصوب بإضمار * (إن) * والمعنى إن قصصتها عليهم نصبوا - * لك كيداً * أي مكرراً ، بسبب تسويل الشيطان لهم ، وإن واحداً من إخوتك أعرفه جيداً فهو شديد العداوة لك فلا يحتاج في كيدك إلى أكثر من دعاية شيطان صغير من تلاميذ إبليس المبتدئين في صنعة الفساد * (إن الشيطان) * من قديم الزمان * للإنسان عدو مبين * ظاهر العداوة ، لما فعل بآدم وحواء ، ولقوله : * (لأقعدن لهم صراطك المستقيم) * (٧ : ١٥) فهو يحمل على الكيد والمكر وكل شر ، ليورط

من يحمله - ولا يؤمن أن يحملهم - على مثله ، ومن هذه الوصية نعلم أن يوسف لم يكن ابناً فقط ليعقوب بل وتلميذاً أيضاً .

(قال : يا بُني ...) الخ

- ١ -

وقال سيدي أبو العباس من طرابلس القرب :

نصح يعقوب لابنه يوسف بأن لا يقص رؤياه على اخوته

كان يوسف رأى قبلاً في منامه الحيزم العشرة فقصها على إخوته ، فسدوه ، واغتاظوا منه ، وهو لو يعلم أنهم يتناظون منه ما حكاها لهم ، ولكنه لصغر سنه ، إذ كان ابن (١٢) سنة قصها عليهم ، والسذاجة الفطرية ظاهرة في وجهه ، وسلامة النية وطهارة القلب باديتان على لسانه ، وقد أصاب المصورون إذ شبهوا الأطفال بالملائكة ، فإنهم مثال الطهارة ، وعنوان صدق الالهجة ، ومرآة سلامة الضمير ، فهم لا يخفون عواطفهم ، ولا يكتُمون ما في نفوسهم ، ولذلك كانت الشعائر الطبيعية ظاهرة فيهم ، حتى لقد اعتبر بعض الفقهاء شهادة الصبيان كقرينة على صدق الدعوى ، وإمارة على صحتها .

لذلك لما سمع يعقوب هذه الرؤيا ما عثم أن نصحه قائلاً : (يا بابوس ، ليست رؤياك هذه مما لا يؤبه له ، بل هي ذات شأن ذي بال ، وأن الأمر جليل ، وأنا شيخ عركني الدهر وعركته ، وعلمتني التجارب) ، ثم ظهرت على وجهه علامات الاهتمام بمازجها التكم فقال بصوت منخفض : (أذكر يا بابوس إنك كنت رأيت الرؤيا الأولى ، فقصصتها على إخوتك ببساطة وسلامة قلب ، ففقدوا عليك

وحسدوك من حيث لا تشعر، وكأني بك لفضاضة فتوتك، وحادثة سنك، لم تعلم من حسد إخوتك ما علمته هذه الشيبة، ولم تعرف من حقدهم عليك ما عرفه أبوك الشيخ، فالمرّة الأولى انتقضت، وقد سبق السيف العذل، فأما في هذه المرّة وقد بلغت سن (١٧) سنة، وحيث أن المؤمن لا ينبغي أن يجعل مجالاً لأن يلدغ من حجر مرتين، فأرغب إليك أن لا تكاشف إخوتك بهذه الرؤيا، بل ولا لغيرهم، فإن السر متى تجاوز الاثنين شاع، فلا تجعل هذا السر يجرى جوار شفتيك هاتين بل اجمله تحت طي الكتمان):

تحرز من صديقك كل يوم وبالأسرار لا تركزن اليه
سأمت من العدو فما دهاني سوى من كان معتمدي عليه

(يا بابوس، رؤياك هذه خير من حُمُر النعم، فاستعن على تحقيقها بكتبتها، لاسيما عن إخوتك، لأنني لست آمن عليك من سورتهم، ومبادرتهم إياك بسوء إذ أيدت الحوادث السابقة، وعلمت التجارب السالفة، أنهم لا يريدون لك الخير، فهم ولا يرب يعملون الحيلة، ويدبرون المكيدة، ويستنبطون الخدعة، ويقدمون على الايقاع بك، ويسرعون في بوارك، هذه وصيتي اليك فلا تغفلها، أقول ذلك والأسف ملء فوادي، لأنه كان يجب أن لا يكون بين الإخوة أدنى عدا، ولكن هكذا اقتضت الظروف، لأمر يعلمه الله تعالى، وإنه والله ليعز عليّ تحذيرك من إخوتك، لولا أن الخوف منهم أمر واقع، ولولا إن حسدك لك أمر محسوس، يكاد يلبس باليد، ولولا أنه يجب على الماقل الاحتراس والأخذ في أسباب الحيلة والتوقي من المكروه، ما كنت لفظت أمامك من هذا القبيل بيئت شفة).

هذا مرمى كلام يعقوب لولده ، وههنا تذكر قول أبي العلاء المعري :
 خَفَّ من تودِّ كما تخاف ماديا وتَمَارَ فيمن ليس فيه تماري
 فالرَّزءُ يبعثه القريبُ ومادري مُضَرٌّ بما تجني يدا أغار (١)
 « مرعى »

(يابُنَيَّ)

- ٢ -

قال العلامة الحلبي (٢) :

التصغير في اللغة وأنواعه

من سنن العرب تصغير الشيء على وجوه : فمنها تصغير تحقير كقولهم : رُجَيْلٌ
 ودَوَيْرٌ ، ومنها تصغير تكبير كقول الأنصاري : أنا جُدٌّ يلها المحكك ،
 وعُدٌّ يقها المُرَجَّب ، ومنها تصغير تنقيص كقولهم : لم يبق من بني فلان إلا
 بُيَيْتٌ ، ومنها تصغير تقريب كقولك : جاءني فلان قُبَيْلَ الظهر ، ومنها تصغير
 استعذاب كما قال :

ما قلتُ حُبَيْبِي من التحقير بل يعذب اسم الشيء بالتصغير
 ومنها تصغير إكرام ورحمة كقولهم : يا أَخِيَّ ويا أَخِيَّةَ ، ويا بُنَيَّ ويا بُنَيَّةَ ،
 وما في الآية من هذا القبيل ، ربما يقال صغره هنا ليبين له أنه صغير فمن جهة
 يستحق أن يشفق عليه ويرحمه ومن جهة أخرى ينبغي له أن يسمع ما سيلقى عليه
 من الوصية الأبوية الصادرة من فم شيخ مجرب مُحَنَّنك .

(١) أغار فقا عين أخيه مضر وهرب

(٢) نسبة الى بلدة حلب من بلاد الشام (سوريا)

(يابني)

- ٣ -

قال الفاضل المقدسي (١) :

الحكم المقتبسة من الآيات

تتعلم من هذه الآيات الأمور الآتية :

- ١ - انه ينبغي الأب أن يدلي بالنصح لابنه ، ويحذره ممن يظن أنهم ربما يؤذونه ولو كانوا أقاربه .
- ٢ - انه يجب لذوي الفضل ان لا يتظاهروا بمفاخرهم وفضائلهم إذا خافوا من أهل الحسد شراً .
- ٣ - ان الاخوة ربما اتفقوا كلهم على إيذاء أخ واحد من بينهم فيجب للانسان أن يكون على حذر من كل الناس .
- ٤ - ان للشيطان سلطة على كل الناس حتى أولاد الأنبياء ، حاشا للأنبياء أنفسهم .
- ٥ - إن تعدد الزوجات ربما أثار عداً ينتشر من الضرائر الى أولادهن .
- ٦ - ان أهل الفضل والنبيل مُحَسَّدون من قديم الزمان .
- ٧ - ان الحسد قد يقع ممن هم في سن الشيوخ لمن هو في سن الفتیان الصغار ، لأن سن رأوبين مثلاً كان عند هذه الحادثة على أقل تقدير (٣٦) سنة ، وهكذا يقال في شعمون ولاوي ويهوذا وسوام بما هو المناسب ، ولكن يوسف كان عمره على أكثر الروايات (١٧) سنة .

(١) نسبة الى بيت المقدس في فلسطين

(يابني)

- ٤ -

قال المحقق البليسي (١) :

خطاب الاستعطاف بين الأقرباء

خاطب يعقوب يوسف بذلك تحريكاً لسلسلة النسب وتذكيراً برابطة البنوة وإرشاداً لما على الابن من وجوب سماع نصيحة الأب ، ونظيره ما في قول لقمان لابنه : ﴿ يابني لا تُشركُ باللهِ ، إنَّ الشِّرْكََ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ - إلى أن يقول - يابني إنها إن تك مثقال حبة من خردل فتكُنْ في صخرةٍ أو في السمواتِ أو في الأرضِ يأت بها اللهُ ، إنَّ اللهُ لَطِيفٌ خَبِيرٌ ، يابني أقيم الصلاةَ وأمرٌ بالمعروفِ وإنه عن المنكرِ ، واصبرْ على ما أصابَكَ ، إن ذلكَ من عزمِ الأمورِ ﴾ (٣١ : ١٣ - ١٧)

ثم ما في قول ابراهيم لولده الذبيح اسماعيل : ﴿ يابني إني أرى في المنامِ أني أذبحُكَ ، فانظُرْ ماذا ترى ؟ قال يا أبتِ افعل ما تؤمر ، ستجدني إن شاء اللهُ مِنَ الصَّابِرِينَ ﴾ (٣٧ : ١٠٢)

ثم ما في قول يعقوب لأولاده وهو في شرقية مصر إذ حضرته الوفاة : ﴿ يابني إنَّ اللهُ اصْطَفَى لَكُمْ الدِّينَ ، فلا تَمُوتُنَّ إِلا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ ﴾ (٢ : ١٣٢)

ثم ما في قول ابراهيم لوالده آزر : ﴿ يا أبتِ ، لِمَ تَعْبُدُ ما لا يَسْمَعُ ولا يَبْصُرُ ولا يُغْنِي عَنْكَ شَيْئاً الخ ﴾ (١٩ : ٤٥) وبالعكس ما صدر من

(١) نسبة الى بليس من بلاد مصر

آزرَ لابنَه إذ ﴿ قال : أرأغبُ أنتَ عن آلِهي يا إبراهيمُ ؟! لئنِ لم تَدُنْهُ لِأرْجَمُ نَكَ .. واهجرني ملياً ﴾ (١٩ : ٤٦) .

ثم ما في قول هرون وهو يخاطب أخاه ويستعطفه إذ ﴿ قال : ابنَ أمِّ ، إنَّ القومَ استضعفوني وكادوا يقتلونني ، فلا تشمت بي الأعداء ، ولا تجعلني من القوم الظالمين ﴾ (٧ : ١٤٩) وبمكسه خطاب أخيه موسى له إذ ﴿ قال يا هرون ما منعك إذ رأيتهم ضلّوا أن لا تتبمّن ، أفصيت أمري ؟ ﴾ (٢٠ : ٩٢ و ٩٣) ، فموسى خاطب أخاه باسمه الشخصي ، ولم يرد أن يخاطبه باسم « الأخ » مع إن هرون أكبر منه بأربع سنين ، لأنه متكدر منه أيمًا كدر ، وأما هرون فخاطب موسى بابن أمه ، ليدكره برابطة الأخوة ، ويحرك منه سلسلة انتسابه إليه ، كي يتعجن ويمطف عليه .

(لا تقصص)

- ١ -

قال الشمس تبريزي : (١)

بعض العداوات التاريخية التي تشبه عداة اخوة يوسف له

كأنني بسيدنا يعقوب كان في تلك الساعة يمشط لحيته الشريفة بأصابعه ، ويفتكر في مصداق هذه الرؤيا ونخامتها وقد صار بين عاملين ، الأول ترك تحذير يوسف لئلا يكون ذلك حاملاً له على كرههم ، في الوقت الذي هو فيه خالي الذهن

(١) نسبة الى تبريز من بلاد فارس (ايران)

من كل كراهة ، والعامل الثاني الرمز اليه بعداء إخوته له ليحذرهم ، ويتحفظ من غوائلهم ، والنصيحة من الإيمان ، وبعد التفكير العميق فَضَّلَ الجري مع العامل الثاني ، لا سيما وقد يكون يوسف عرف شيئاً من حسد إخوته له من قبل ، فإن أباه كان أحبه أكثر من سائر بنيه ، لأنه ابن شيخوخته ، فصنع له قيصاً ملوناً ، فلما رأى إخوته أن أباه أحبه أكثر من جميع إخوته أبغضوه ، ولم يستطيعوا أن يكلموه بسلام ، لا سيما وقد حلِّم حلاماً وأخبر به إخوته ، فازدادوا بغضاً له ، وصاروا ينظرون اليه نظرات الحقد الموحدة ، ويسمونونه مرة « الولد المفرور » ويدعونونه مرة « صاحب الأحلام » يذكرون ذلك استهانة به على سبيل التهمك ، وكانوا يرقبون ليوقعوا به ، وكم كان حكي معهم أبوم ووعظهم بأنه فتى صغير لا ينبغي لإخوة مثلهم كبار أن يجمعوا كيدهم ، ويتفقوا على إغاظته ، ولكن - مع الأسف - لم ينجع فيهم كلامه ووعظه ، ولم يقع في نفوسهم :

إنما تنجح المقالة في المرء إذا صادفت هوى في الفؤاد
وإذا الحلم لم يكن في طباع لم يُحلِّم تقدم الميлад
(ابو العلاء الميري)

وهذا ما جدا بأبيه أن ينصح له بجمل هذا المنام الثاني تحت طي الكتمان

ثم نحن نعلم من التاريخ :

١ - حادثة قايين^(١) وهاييل ولدي آدم من حواء ، فهما رغباً عن كونها أخوين شقيقين ، ابني أول نبي على وجه الأرض ، (فيما هو المشهور وعلى رأي الجمهور) ، فقد قتل أولهما ثانيها .

٢ - نعلم العداة والخلاف الذي ظهر من ابن نوح ومن امرأة نوح له عليه السلام ، فابنه كان عملاً غير صالح ، ولم يحفظ لأبيه حق الأبوة ، وامراته كانت

مناقفة خائنة ، كما أن زوجة لوط كتلك نفاقاً وخيـانة (٦٦ : ١٠) ولم يحفظا لزوجيهما حق الزوجية .

٣ - نعلم إن آزر كان العدو الألد لولده إبراهيم عليه السلام .

٤ - نعلم من التاريخ ما حدّث من غيرة ساراي من هاجر وولدها إسماعيل حتى الجأت إبراهيم عليه السلام لنقلها الى جزيرة الحجاز .

٥ - نعلم من التاريخ ماذا صار من عيسو مع أخيه يعقوب من العداة الشديد ، حتى هرب يعقوب من وجهه للعراق ، فهذه الحوادث وأشباهاها تجعل عداة اخوة يوسف له ليس بالأمر الغريب .

والخلاصة ، إننا نعلم يقيناً ان يعقوب ويوسف عليهما السلام كتما أمر هذه الرؤيا بتاتاً ، وبعد ذلك فهل بلغ خبرها مسامع إخوته أم لا ؟ لنا أن نقول يحتمل أنه لم يبلغهم خبرها بالمرة ، وإنما كرهوه واجتووه وألقوه في غيابة الحب ، للداعي الحسد والغيرة من جراء محبة أبيه له أكثر منهم ، ويجوز أن يكون بلغهم خبر هذه الرؤيا من بعض الخدم الذين سمعوا المحاورة التي جرت بين أبيه حينما قص عليه رؤياه ، سمعوا ذلك ، ولم يكن يعقوب ولا يوسف يشمران بوجود أحد من الخدم ، فحمل هذا الخادم خبر رؤيا يوسف لإخوته ، فزادوا له بغضاً على بغض .

(لا تقصص .. الخ)

- ٢ -

قال استاذنا سعيد الدمشقي العماري (١) :

وجوب اطاعة الابن للأب - الوصايا العشر في التوراة والقرآن

لجأ يوسف لأبيه ورجع اليه ليستطلع فكره ، ويعمل بما يشير اليه ، فأوصاه

(١) نسبة الى حي العمارة في دمشق (سورية)

أن لا يطلع إخوته على رؤياه ، فصدع بأمر أبيه وعمل على إطاعته ، لأن إطاعة الابن للأب من أوكد الفرائض المقرونة بفرائض الله تعالى ، وقد جعلت من الوصايا العشر التي جاءت في التوراة وهي : (لا يكن لك آلهة أخرى أمامي ، لا تصنع لك تمثالاً منحوتاً ، صورة ما ، مما في السماء من فوق ، وما في الأرض من أسفل ، وما في الماء من تحت الأرض ، لا تسجد لهنّ ، ولا تعبدهنّ ، لأنني أنا الرب آلهك ، الله غيور ، أفتقد ذنوب الآباء في الأبناء في الجيل الثالث والرابع من الذين يبنضونني وأضع إحساناً إلى ألوف من محبيّ موحافظي وصاياي ، لا تنطق باسم الرب آلهك باطلاً ، لأن الرب لا يبري من نطق باسمه باطلاً ، احفظ يوم السبت لتقدسه .. أكرم أباك وأمك ، كما أوصاك الرب الهك لكي تطول أيامك ، ولكي يكون لك خير على الأرض التي يعطيك الرب الهك ، لا تقتل ، ولا تزني ، ولا تسرق ، ولا تشهد على قريبك شهادة زور ، ولا تشته امرأة قريبك ، ولا تشته بيت قريبك ولا حقله ولا عبده ولا أمته ولا ثوره ولا حماره ولا كل ما لقريبك) (ث ٥: ٧-٢١) وقريب منه ما في (خر ٢٠: ٣-١٧) ونظيره عندنا الوصايا العشر المدرجة في قوله تعالى : ﴿ واعبدوا الله ولا تشرکوا به شيئاً ، وبالوالدين إحساناً ، وبذي القربى واليتامى والمساكين ، والجار ذي القربى ، والجار الجنب ^(١) والصاحب بالجنب ، وابن السبيل ، وما ملكت أيمانكم ، إن الله لا يحب من كان مختالاً فخوراً ﴾ (٤ : ٣٥) والوصايا العشر المنتظمة في قوله تعالى : ﴿ وإذ قال لقمان لابنه (وهو يعظه) : يا بني ، لا تشرک بالله ، إن الشرک لظلمٌ عظیم ، ووصينا الإنسان بوالديه ، حملاً لثمة أمه وهنأً على وهنٍ ، وفصاله في عامين : أن اشکر لي ولوالديك ، الي المصير ، وإن جاهدك على أن تشرک بي ، ما ليس لك به علمٌ ، فلا تطعهما ،

(١) وهو الجار الذي جاورك من قوم آخرين ، ليس من اهل الدار ولا من اهل

وصاحبينها في الدنيا معروفاً ، واتتبع سبيلَ مَنْ أَنَابَ اليّ ، ثم اليّ مَرَّجِعُكُمْ فَأْتِدْشِكُمْ بما كنتم تعملون ، يا بُنَيَّ إِنَّا إِنَّا تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ ، فَتَكُنْ فِي صَخْرَةٍ ، أَوْ فِي السَّمَوَاتِ ، أَوْ فِي الْأَرْضِ ، يَأْتِ بِهَا اللَّهُ ، إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ ، يا بُنَيَّ : أَقِمِ الصَّلَاةَ وَأْمُرْ بِالْمَعْرُوفِ ، وَانْهَ عَنِ الْمُنْكَرِ ، وَأَصْبِرْ عَلَى مَا أَصَابَكَ ، إِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ ، وَلَا تُصْعَقْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ ، وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرْحًا ، إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ، وَاقْصِدْ فِي مَشْيِكَ ، وَاعْظُضْ مِنْ صَوْتِكَ ، إِنَّ أَنْكَرَ الْأَصْوَاتِ لَصَوْتُ الْحَمِيرِ ﴿ (٣١ : ١٣ - ١٩ .

(اخوتك)

- ١ -

قال الشهاب احمد من علماء سنغافورة (١) :

المناوئون ليوسف من اخوته - التنافس بينهم

لو قال قائل : أراد من كلمة « اخوتك » الاخوة المناوئين له المتألمين عليه الذين كان يرأسهم شمعون ، فليس منهم بينامين قطعاً كما هو واضح ، بل ولا رأوبين ولا يهوذا على الراجح ، ولكن يظهر انه أراد عموم الإخوة العشرة إجمالاً ، سداً لباب الفساد بالمرة ، وطردها للكلام على وتيرة واحدة ، لأن الوقت ليس وقت تفصيل ولا تشريح .

هذا واننا نعلم من التاريخ ، ومن قرائن الأحوال انه كان يوجد شيء من

(١) سنغافورة احدى مدن شبه جزيرة مالاقا في الهند الصينية .

التنافس والتناظر بين إخوة يوسف العشرة الكبار ، وانه لم يكن بعضهم مخلصا لبعض ، كيف ولبسوا كلهم من أم واحدة ، بل كان رأوين وشمون ولاوي ويهوذا ويساكر وزبولون من أمّ وهي « ليئة » وكان دان ونفتالي من أمّ اخرى هي « بلهة » وكان جاد واشير من أمّ ثالثة هي « زلفة » كما كان يوسف وبنيامين من أمّ هي « راحيل » ، فالعشرة الأولى الكبار لم يكونوا من أم واحدة ، ولم تكن ميولهم وعواطفهم واحدة ، وبالتالي لم يكونوا متفقي الكلمة ، ولم يكونوا بدأ واحدة ، ولا على قلب واحد ، ولكن جرت العادة أن الأعداء يتصاحفون إذا أصيبوا جميعاً بمصيبة نزلت على رؤوسهم ، وهؤلاء الإخوة العشرة اجتمعوا في مصيبة واحدة ، هي أن أباهم قد جعلهم في حبه إياهم في الدرجة الثانية ، وأحب يوسف وبنيامين في الدرجة الأولى ، فهذا ما جمع كبتهم ، وألف نوعاً بينهم ، وجعلهم يشعرون بلزوم مصافاة بعضهم لبعض ، وذلك طبيعي في جسم العمران ، فالناس لا يزالون في خصام ونفار ، أو في تنافس وتناظر ، حتى يصيبهم سوء على السواء ، ويقعوا جميعاً تحت ردم واحد ، فتراهم قد تألفت قلوبهم ، وأغضوا عن السوابق .

(فيكيدوا لك كيداً)

- ١ -

قال الشيخ مضيوف الحانوني (١) :

تعريف الكيد

أي يتكلمون معك بكلام حسن ، وهم في طيه يضمرون لك سوء ، ويفعلون

(١) نسبة الى بيت حانون من أعمال فلسطين .

ظاهراً الفعل الجميل ، وهم يرصدون لك الانتقام ، وهم أحرىء بذلك كله وأكثر:

فلو خبرتهم الجوزاء خبري لما طلعت مخافة أن تُكادا

« والكيد » بهذا المعنى من صفات العاجز الذي يحتال على عدو له قوي لا يقدر على مصارحته بالبطش ، ولا مصارحته بالانتقام ، فيظهر له رفقاً ولين جانب ، وهو في خلال ذلك ينصب له حبال الشرح حتى يرتطم فيها ، وربما استعمل « الكيد » في الضرر والإيذاء ولو علناً ظاهراً .

وبالحقيقة إن عمل اخوته معه كان بحسب مبدئه سرياً تحت طي الكتمان ، ولكنه بحسب غايته صار جهرياً ، فوق رؤوس الأشهاد .

و « الكيد » في اللغة يكون مذموماً وممدوحاً ، وإن كان يستعمل في المذموم أكثر ، قال تعالى : ﴿ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي كَيْدَ الْخَائِنِينَ ﴾ (ع ٥٢) ، فخص الخائنين تنبيهاً على أنه قد يهدي كيد من لم يقصد بكيده خيانة ، وقال تعالى : ﴿ أَمْ يُرِيدُونَ كَيْدًا ، فَالَّذِينَ كَفَرُوا هُمُ الْمَكِيدُونَ ﴾ (٥٢ : ٤٢) . وسميت الحرب كيداً ، لما فيها من الاحتيال والاجتهاد ، ومنه حديث ابن عمر : « إن رسول الله (ﷺ) غزا غزوة كذا ، فرجع ولم يلق كيداً » أي حرباً ، سميت بذلك لما فيها من الختل والخديعة ، قال أبو العلاء المديني :

إذا رام كيداً بالصلاة مقيمها فزار كها عمداً إلى الله أقرب

(ان الشیطان .. الخ)

- ١ -

قال الدراکة الدمشقي (١) :

السُّبُطَانُ عَالَمٌ غَيْبِيٌّ ضَارٌّ بِالْإِنْسَانِ

عداوة الشیطان للإنسان قديمة العهد ، فقد كانت منذ الإنسان الأول ، كما قال تعالى : ﴿ فَذُقْنَا يَا آدَمُ إِنَّ هَذَا عَدُوٌّ لَكَ وَلِزَوْجِكَ ﴾ (٢٠ : ١١٧) فلا يألوا الشیطان جهداً في مناصبته للإنسان . وحمله على ما لا خیر له فيه ، بل على ما فيه ضرر الإنسان ، يأتيه من بين يديه ومن خلفه وعن يمينه وعن شماله .

وقد ثبت في وحي الله تعالى الى رسله أن في عالم الغيب خلقاً اسمه «الشیطان» أرغم الله أنفقه ، لا تدركه حواسنا ، له أثر في أنفسنا ، فهو يتصل بها ويقوي داعية الشر فيها بها سماه الوحي « وسواساً و تزغاً ومسأً وتجربةً » ، ونحن نجد أثر ذلك في أنفسنا وإن لم ندرك مصدره ، وما أشبه هذه الشياطين الخفية في الارواح بتأثير النسم الخفية المادية — المسماة بالجراثيم (الميكروبات) — في الأجساد ، فقد مرت القرون التي لا يحصيها إلا رب العالمين ، والناس يجهلون هذه النسم الخفية ، ويجهلون فعلها ، لعجز الأبصار عن إدراكها بنفسها ، وعن رؤية فعلها ، لدقتها وتناهيها في اللطف والصغر ، الى أن اخترعت في هذا العصر المجاهر والنظارات المكبرة التي تريك الجسم أضعاف أضعاف جرمه ، فيها رؤيت ، وعلم ما

(١) نسبة الى دمشق من بلاد الشام (سورية) .

يحدث بسببها - في المواد السائلة والرخوة وكل ذات رطوبة - من التحول والتغير ،
كالإختار والفساد وغيرهما ، ومن الأمراض المُعدية في الانسان والحيوان .

وحكمة إخبار الله تعالى إيانا على السنة رسله عليهم السلام بهذا العالم الغيبي
المعادي لنا الضار بأرواحنا كضرر نسيم الأمراض بأجسادنا - أن نراقب أفكارنا
وخواطرنا ولا نفعل عنها ، كما نراقب ما يحدث في أجسادنا من تغير في المزاج ،
وخروج الصحة عن الاعتدال ، فنبادر الى علاجه ، فمتى فطننا بميل من أنفسنا الى
الشر أو الباطل عالجناه بالالتجاء الى الله سبحانه وتعالى .

(ان الشيطان .. الخ)

- ٢ -

قال السيد البصري (١) :

المعروف لفظ الشيطان على المدو وبعض ايشفاص والجن والانس

المتبادر ان « الشيطان » ههنا بالعمى المشهور المعروف ، وهو إبليس وأعوانه ،
وقد يكون لفظ « الشيطان » ههنا عبارة عن أحد الأعداء ، وإطلاق الشيطان
على المدو معهود وكثير في كتب الدين وإليك بعض الشواهد :

(١) - قال تعالى : ﴿ وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَاطِينَ
الْإِنْسِ وَالْجِنِّ ﴾ (٦ : ١١٢) .

(٢) قال تعالى : ﴿ وَإِذْ زَيْنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ ، وَقَوْلٌ لَّا غَالِبَ لَكُمْ

(١) نسبة الى بلدة البصرة من القطر العراقي

اليوم من الناس ، وإني جارتكم ، فلما تراءت الفئتان فكص على عقبيه ، وقال : إني بريء منكم ، إني أرى ما لا ترون ، إني أخاف الله ، والله شديد العقاب ﴿ ٨ : ٤٩ ﴾ فالشيطان هنا قال فريق إنه « سراقته » بن مالك الكناني الذي كان من أشرفهم .

(٣) - قال تعالى : ﴿ وإذا لقوا الذين آمنوا قالوا : آمنا ، وإذا خلوا إلى شياطينهم قالوا : إنا معكم ، إنما نحن مستهزئون ﴾ (٢ : ١٤) فشياطينهم هم الذين ماثلوا الشياطين في تمردهم من رؤساء العرب وكبرائهم .

(٤) قال تعالى : ﴿ ويريد الشيطان أن يضلهم ضلالاً بعيداً ﴾ (٤ : ٥٩) قيل هو « كعب » بن الأشرف ، كما اطلق عليه طاغوت في قوله تعالى : ﴿ ألم تر إلى الذين يزعمون أنهم آمنوا بما أنزل إليك ، وما أنزل من قبلك ، يريدون أن يتحاكوا إلى الطاغوت ، وقد أمروا أن يكفروا به !! ﴾ (٤ : ٥٩) ، قيل إن هذا الطاغوت هو كعب بن الأشرف .

(٥) قال تعالى : ﴿ الذي يؤسوس في صدور الناس ، من الجنة والناس ﴾ (١١٤ . ٥ و ٦) فقوله من ﴿ الجنة والناس ﴾ بيان للذي يؤسوس ، أو بيان للوسوس الخناس ، فالوسوس قسمان : قسم الجن وقسم الناس ، ولا ريب إنه يطلق على كل منها إذا وسوس « شيطان » .

(٦) قوله ﷺ : « المسافر شيطان » والمسافران شيطانان ، والثلاثة ركب .

(٧) قال (ﷺ) : « إن الأبل مخلوقة من الشياطين » (١) هذا ما تيسر

(١) رواه سعيد بن منصور في سننه بلفظ : « خلقت » وزيادة : « وان وراء كل بعير شيطاناً » وهو ضعيف كما رمز له السيوطي لانه من رواية خالد بن معدان مرفوعاً فهو منقطع مرسل لان خالداً هذا تابعي .

للعبد الحقير أن يملیه علی أسمعکم - ایها السادة - فتأملوه فإنی مستعد لإصلاح ما عسی أن یكون فیہ . وسلفاً أشکرکم .

(ان الشيطان . الخ)

- ٣ -

وقال العلامة الخليلي (١) :

الشيطان قوة غضبية أو قوة ذميمة في الإنسان

لقد ذهب « الغزالي » إلى أن الشيطان القوة الغضبية التي في الإنسان ، وقال الراغب : « كل قوة ذميمة للإنسان شيطان » ، ومنه قولهم : « ركب شيطانه » إذا غضب ، « وتزغ شيطانه » أي كبره ، أو الشيطان كما قاله الجمهور : « هو من العوامل الخفية ، التي لا تحس » فعلى ما قاله الغزالي والراغب ، هو من قبيل الداعية الداخلية ، وعلى ما قاله الجمهور ، يكون الشيطان داعية خارجية ، وهو الظاهر .

وقد ورد النهي عن خروج الصبيان في الليل ، لأنه وقت انتشار الشياطين ، فالشياطين هنا الأشرار من الناس ، الخبيثون من أهل الوسواس ، وذلك كشياطين الأزبكية بمصر ، وشياطين شارع بغداد في دمشق وشياطين شارع الرشيد في بغداد .. الخ ، فهؤلاء ينتشرون من بعد الغروب وقبيل الغروب ، يفسد بعضهم بعضاً ، فنحث من يهمهم تربية أولادهم ، على منعهم من الخروج ، لئلا يفسدهم هؤلاء الشياطين .

(١) نسبة إلى خليل الرحمن من بلاد فلسطين .

وأما عداء الشيطان المبين للانسان ، فلا يتعدى الإغراء والوسوسة ، وليس للشيطان من سلطان ، على الانسان بغير ذلك ، وتوضيح المقام يحتاج الى بسط في الكلام ، فمن كان له أذنان للسمع فليسمع :

أتى الاسلام ، والناس جميعاً ، واهمون في مسألة تأثير الشياطين ، ورسخ في عقول الامم كافة ، أن الأرواح الخبيثة ، مسلطة على الانسان بالاذى ، فإذا رأى مفوجاً أو مشلولاً أو مجنوناً أو أبلماً أو أصم ، أو مصاباً بأي مرض آخر — نسبوا ذلك للشياطين ، فلذلك امتلأت قلوبهم رعباً منها ، وخافوا من الاماكن القديمة ، أو الخالية ، أو المظلمة ، أو من كعب شيء على الأرض ، أو من دخول محال التقوط ، الى غير ذلك من الأوهام ، التي لا يزال أثرها في النساء ، خصوصاً نساء أهل مصر الى اليوم ، ويا ليت الأمر كان قاصراً على ما ذكر ، بل ظهرت نتيجة ذلك في أعمالهم ، وكانت سبباً في ضررهم ، ضرراً بليغاً ، فاذا أصيب أحدهم بمرض ما ، تداووا بالطلاسم ، وإيقاد البخور ، أو زيارة بعض القبور ، أو تعليق أوراق ، أو الاستنجاد براق ، حتى يتمكن الداء وتستفحل العلة ، فلا يقوى الطبيب على استئصالها ، أو إيقاف سيرها ، ويموت الشخص ضحية الجهل والوهم ، هذا كان شأن الأمم ، في هذه المسألة ، وهذه كانت أفكارهم ، وكانت الأديان تأتهم ، ولا تزيل عنهم هذه الخزعبلات ، المميتة للنفوس والأجسام . بل ينسب الى رجال بعض الأديان ، أنهم اعترفوا بها ، وأيدوها تأييداً ، وأنهم نصوا على صحتها صريحاً ، فتجد أن كل صحيفة من كتبهم ، التي كتبوها كما يشاؤون وحسبها هوشائع في تلك العصور ، تدل على ان الشياطين ، هي علة هذه الأمراض ، كالصرع وأنواع الشلل ، والبكم والصمم ، وأنواع الجنون والعتاهة ، وغير ذلك ، مما عرّفت أسباب أكثره العلوم الطبية الحديثة ، وما لم تعرفه قاسته على غيره ،

لوجود التشابه العظيم بينها ، ولشفاء بعضه باستعمال العلاجات المادية المحضة ، كالمواد الكيماوية ونحوها ،

أتى الإسلام والناس على تلك الحالة التوهمية ، فلم يشأ أن يتركهم وشأنهم ، يخبطون خبط العشواء ، في اليلة الدهناء ، بل أصلح هذه المسألة ، كما أصلح غيرها ، مما يميت النفس والجسم معاً ، صغيراً كان أو كبيراً ، وذلك بالإفصاح أن ليس للشيطان ، سبيل على الانسان ، إلا بالإغراء والوسوسة فقط ، قال تعالى حكاية عن الشيطان ﴿ وما كان لي عليكم من سلطان ، إلا أن دعوتكم ، فاستجبتم لي ، فلا تلموني ، ولوموا أنفسكم ﴾ (١٤ : ٢٢) وقال تعالى في خطابه للشيطان : ﴿ إن عبادي ليس لئيك عليهم سلطان ، إلا من اتبعك من الغاوين ﴾ (١٥ : ٤٢) الى غير ذلك من الآيات القرآنية ، التي تحصر سلطته في الوسوسة ، وتنتفي عنه كل ما عداها ، وأما ماورد من قوله تعالى في حق المرابين : ﴿ لا يقومون الا كما يقوم الذي يتخبطه الشيطان من المس ﴾ (٢ : ٢٧٥) فهو على سبيل التمثيل والتشبيح ، الذي ورد مثله في كل لغة ، مهما كان اعتقاد قائله ، فهو على حد قوله تعالى في مقام آخر : ﴿ طلعها كأنه رؤوس الشياطين ﴾ (٣٧ : ٣٥) ، وتلك عبارة واحدة ، لم يرد غيرها ، فليطالع القارىء « العهد العتيق » بل ليطالع « العهد الجديد » ، ليعلم الفرق بين ذينك الكتابين ، وبين القرآن المجيد .

بمثل هذه الحقائق التي قررها القرآن ، صار المسلم الحق ، لا يعبأ بالشيطان ، ولا يخشى منه أذى أو ضرراً ، إلا ما كان دعوة لشهوة أو نحوها ، مما يجب عليه فيه الاحتراس ، فلذلك إذا أصابه مرض ما ، لا يستشفى بقديس أو قسيس ، كما يفعل غيره ، بل يطلب الطب والدواء ، ويأتي البيوت من أبوابها ، فأعظم بدين

الاسلام من دين ، لم يذكر مما يُعْتَقَدُ الا " أرجحه ، وأكبر بالقرآن من كتاب ، لم يهمل شيئاً فاسداً إلا أصلحه :

الله أكبر إن دين محمد
وكتابه أقوى وأقوم قبلاً

لا تذكروا الكتب السوائف عنده

طلع الصباح فأطفأ القنديلا

وهنا أتذكر ، والشيء بالشيء يذكر ، أن المبشر موسى القبطي ، قال لي : إنه ورد عن نبيكم في بعض الأحاديث الصحيحة مامعناه : « أن ليس للشيطان على المسيح من سبيل ، حتى ولا بالنخس » - فقلت له : هذا صحيح ، ولكنه ورد لاجل الرد على من يقول منكم : إن الشيطان كان له سلطة على المسيح أن يُصْعِدَهُ الى البرية ليُجرب ، ثم يأخذه الى المدينة المقدسة ، ويوقِفَهُ على جناح الهيكل ، ثم يأخذه الى جبل عال (مت ٤ : ١ - ١٢) . فلاجل المحاماة عن شرف السيد المسيح ، عليه السلام ، ورد في حقه ذلك القول ، على انه لا خصوصية للسيد المسيح في ذلك ، فقد ورد مثله في حق بعض صحابة نبينا ﷺ ، وذلك مارواه الطبراني في الكبير وهو قوله عليه الصلاة والسلام : « ان الشيطان لم يلق عمر منذ اسلم الا خروجه » « وعن سعد بن ابي وقاص (رض) قال رسول الله ﷺ لعمر : والذي نفسي بيده ما ليك الشيطان قط سالكا فجاً إلا سلك فجاً غير فجك » ١١ .

(ان الشيطان ... الخ)

- ٤ -

قال الشيخ الموصلی :

معاهدة سيلان

نعلم من هذا ان للشيطان سلطاناً على هؤلاء الإخوة ، وبالتالي والنتيجة نعم منه انهم ليسوا بأنبياء ، وقد قص الله تعالى علينا صورة « معاهدة سيلان » عاصمة آدم التي أجريت فيها تلك المعاهدة العتيقة بين المندوب السامي عن الله تعالى وهو بعض ملائكته من جهة ، وبين إبليس أرغم الله أنفه ، من جهة أخرى ، وهي كما يلي :

المادة الاولى - إعطاء إبليس سلطة واسعة وكبيرة جداً ، وهي سلطانه العظيم على جمهور الناس ، والدليل على هذه المادة قوله تعالى: ﴿ قَالَ : أَرَأَيْتَكَ هَذَا الَّذِي كَرَّمْتَنَا عَلِيِّ ؟ إِنَّ أَحْرَثَنَّا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ ، لِأَحْتَنِكُنَّ ذُرِّيَّتَهُ إِلَّا قَلِيلًا ، - قَالَ : اذْهَبْ فَمَنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزَاؤُكُمْ جَزَاءً مَوْفُورًا ، وَاسْتَفْزِرْ مَنْ اسْتَطَاعَ مِنْهُمْ بِصَوْتِكَ ، وَأَجْلِبْ عَلَيْهِمْ بِخَيْلِكَ وَرَجْلِكَ ، وَشَارِكْهُمْ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ وَعِيْدِهِمْ ، وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُورًا ﴾ (١٧ : ٦٢ - ٦٤)

المادة الثانية - عدم سلطة إبليس على عباد الله الصالحين ، أي عدم نفاذها لقلوبهم وعدم تأثيرها فيهم ، والدليل على هذه المادة قوله تعالى: ﴿ كَذَلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ ﴾ (١٢ : ٢٤) وقوله: ﴿ إِلَّا

عبادك منهم المخلصين ، قال هذا صراط عليّ مستقيم ، إن عبادي ليس لك عليهم سلطان ، إلا من اتبعك من الفاوين ﴿ (١٥ : ٤٠ - ٤٢) ﴾ وقوله : ﴿ إن عبادي ليس لك عليهم سلطان ، وكفى بربك وكيلا ﴾ (١٧ : ٦٥)

المادة الثالثة - إجابة طلب إبليس الإناظر الى يوم القيامة، والدليل على هذه المادة. قوله تعالى : ﴿ قال رب فأنظرني الى يوم يبعثون ، - قال فإنك من المنتظرين الى يوم الوقت المعلوم ﴾ (١٥ : ٣٦ - ٣٨) و (٣٨ : ٧٩ - ٨١) المادة الرابعة - أن يبقى إبليس ملعوناً الى يوم القيمة ، والدليل على هذه المادة قوله تعالى : ﴿ وإن عليك لعنة الى يوم الدين ﴾ (١٥ : ٣٥) وفي آية اخرى : ﴿ وإن عليك لعنتي الى يوم الدين ﴾ (٣٨ : ٧٨)

المادة الخامسة - هذه المعاهدة معمول بها وموضوعة موضع الإجراء الى آخر الدوران .

المادة السادسة - تسمية هذه المعاهدة « معاهدة سيلان » لأن في « سيلان » عاصمة آدم ، جرى هذا الاتفاق .

توقيع الفريق الثاني

« إبليس »

توقيع الفريق الأول

« الملك »

(رجع وانعطاف)

سلطان الشيطان على اخوة يوسف

فلهذا ولكون إخوة يوسف ليسوا بأنبياء كما حقه ، أخونا العلامة سام الخانيونسي في الفصل الثاني من المقدمة - كان للشيطان عليهم سلطان وتأثير ،

فصدر منهم الحسد والحيلة والخدعة وخلف الوعد والكذب والهلم بقتل أخيه أو طرحه أرضاً ، ثم إعطاء القرار النهائي بإلقائه في غياهب الجب كي يلتقطه بعض التجار المسافرين ، فيصكون بعيداً عن وجه أبيه ، وأضف الى ذلك قطع الرحم وعقوق الوالد وظلم الأخ البريء بلا موجب من جانبه ، وكل هذه المنكرات منهي عنها نهياً جازماً ، محظورة مخالفة للشريعة .

نعم لا ننسى أن الله تعالى قال: ﴿ لِكُلِّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا ﴾ (٥ : ٥١) . وليس كل ممنوع في الشريعة المحمدية يجب أن يكون ممنوعاً في الشرائع السالفة ، لكن هذه المحظورات هي ممنوعة ومحرمة في كل شريعة وملة ، عند سائر أهل الأديان ، من لدن آدم الى خاتم الأنبياء ، فهي من الشرائع العامة التي أجمعت عليها الكتب والرسول ، هي من الشرائع الكلية التي لا يعترها نسخ ولا تبديل ولا تحوير ، ولا هوادة ، لأن النسخ إنما يكون في الأعمال الفرعية ، أما الأخلاق الفاضلة والآداب الحميدة فلا يعترها نسخ ما ، كالعقائد الأصولية ، والأقاصيص التاريخية فلا يدخل شيئاً من ذلك نسخ ولا تحوير ، فالأخلاق المذمومة محرمة في كل دين ، كما أن الأخلاق الفاضلة والأديان واجبة في كل ملة .

سعادة الدين تكون باقامته

وبالنتيجة: فلنتلك الأعمال السيئة على اختلاف أنواعها التي عملتها إخوة يوسف الصديق- لم يستأهلوا أن يكونوا أنبياء ﴿ الله أعلم ﴾ حيث يجعل رسالته ﴿ (٦ : ١٢٤) ﴾ بل ولا تقدر أن تقول : إنهم كانوا قبل توبتهم أتقياء ، مع أن البيت بيت نبوة فأخوهم نبي ، وأبوم نبي وجدتم الأقرب نبي وأخوه نبي وجدتم الأعلى نبي ، وابن أخيه نبي ، ولكن هم لم يكونوا أنبياء ، لأنهم بأعمالهم ومسلكتهم وأخلاقهم لم يكونوا أهلاً لهذه المنحة الجليلة

العظمى ، بل الأمر أعظم من ذلك ، وهو أن سعادة الدين لا تحصل إلا باقامته ، كما قال تعالى : ﴿ وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ : لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ ، وبالوالدين إحساناً ، وذي القربى واليتامى والمساكين وقولوا للناس حسناً ، وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة ، ثم تولّيتهم الا قليلاً منكم ، وأنتم معرضون ، واذ أخذنا ميثاقكم ، لا تسيفكون دماءكم ، ولا تخرجون أنفسكم من دياركم ، ثم أقررتم وأنتم تشهدون ، ثم أتتم هؤلاء تقتلون أنفسكم ، وتخرجون فريقاً منكم من ديارهم ، تظاھرون عليهم بالإثم والمدوان - وإن يأتوكم أسارى تفادوهم - وهو محرمٌ عليكم إخراجهم ، أفتؤمنون ببعض الكتاب وتكفرون ببعض ، فما جزاء من يفعل ذلك منكم إلا خزي في الحياة الدنيا ، ويوم القيمة يُردون إلى أشد العذاب ، وما الله بغافل عما تعملون ، اولئك الذين شترُوا الحياة الدنيا بالآخرة ، فلا يُخفف عنهم العذاب ، ولا هم ينصرون ﴾ (٢ : ٨٣ - ٨٦) ، فاخوة يوسف لم يعملوا مع أبيهم إحساناً ، ولا مع ذي قرباهم وهو أخوهم ، ولا مع اليتيم من الأم ، ولم يقولوا لأخيه حسناً ، ثم تفاوضوا في قتله وأخيراً أخرجوه من دياره ، وتظاهروا عليه بالإثم والمدوان ، وهو محرم عليهم إخراجهم .. فانتا .. وانتا .. ولا .. ولا .

سعادة الدين يا هذا إنما تحصل باقامته ، فإذا لم يقمه الإنسان لم يكن سعيداً به ، فكيف يجوز الذي لم يقمه أن يكون نبياً !!؟ ولعمري لولا أن إخوة يوسف قد لطف الله بهم بأن وفقوا للتوبة لكانت عاقبتهم من أردأ العواقب ، ولكن الله سلم ، هذا ما تيسر لنا ههنا والسلام عليكم .

أصوات من الجميع : لا فض فوك ، لا فض فوك .

غير أن استاذاً واحداً من أعضاء المؤتمر ؛ وهو الشيخ البغدادي^(١) ، قام
وصعد على المنبر وقال :

انتقاد عقد معاهدة سيلان والرد عليه

إخواني : إني انتقد على الأخ الشيخ الموصلی ، حفظه الله أموراً :

أولها - تصوره انعقاد معاهدة بين إبليس وبين الملك المندوب عن الله ،
لأن محصل هذا وخلصته أن معاهدة عقدت بين إبليس وبين الله ، ولا يخفى ما في
هذا من توقيف لإبليس وعدم احترام لجانب الله تعالى .

ثانيها - تعبيره « بالندوب » الذي لم يرد استعماله في لسان الشرع ، دون
التعبير الوارد في اللسان الشرعي ؟ وهو كلمة « رسول » بدلاً من مندوب .

ثالثها - قول الأخ الموصلی إن الله أعطى إبليس سلطة واسعة وسلطاناً عظيماً
على جمهور الناس ، وأما أنا فلا أظن شيئاً من ذلك سوى أن الله ترك إبليس وشأنه
يعمل ما يشاء مع غير عباد الله المخلصين ، فحكمكم بحكم باقي المخلوقات ، الذين
أعطاهم الله جزءاً اختيارياً ، وحرية في العمل ضمن نفوذ مشيئة الله تعالى ، هذا
ما عرض لي أن ألاحظ به على الأخ .

قال ذلك ونزل عن المنبر ، فعاد إليه الشيخ الموصلی يدافع عن نفسه قائلاً :

سادتي : أرى أخي وصديقي الشيخ البغدادي ، لاحظ عليّ ثلاثة أمور ، وإني
أريد أن أجيب عنها واحداً بعد واحد :

فأما الجواب عن الانتقاد الأول : فهو أن الله تعالى عمل معاهدة مع اليهود

(١) نسبة الى بغداد عاصمة العراق .

كما جاء في القرآن الكريم على لسانهم: ﴿إِنَّ اللَّهَ عَهِدَ إِلَيْنَا: أَنْ لَا نُؤْمِنَ لِرَسُولٍ حَتَّىٰ يَأْتِيَنَا بِقُرْبَانٍ تَأْكُلُهُ النَّارُ الْخ﴾ (٣: ١٨٢) والنبي (ﷺ) عاهد اليهود وعاهدوه ، كما قال الله في كتابه العزيز: ﴿أَوْ كَلَّمَا عَاهَدُوا عَهْدًا نَبَذَهُ فَرِيقٌ مِنْهُمْ؟ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ (٢: ١٠٠) ، ووقعت المعاهدة بين النبي (ﷺ) والمشركين كما تعلمه من قوله: ﴿إِلَّا الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ (٩: ٥) ، ولا ريب أن مآل المعاهدة بين النبي واليهود وبين اليهود والمشركين أن تكون هذه المعاهدة بين من ذكروا وبين الله تعالى ، ذلك لأن النبي سفير عن الله ، كما أن الملك الذي سميناه «مندوباً» هو سفير عن الله فكما جاز هذا التعبير فليجز تعبيرنا .

وأما الجواب عن الانتقاد الثاني : فلسان الشرع لا يمنع تسمية الملك المرسل من قبل الله ، « مندوباً سامياً » لأن العلماء لم ينصوا على أن أسماء الملائكة توقيفية وإنما التوقيفية هي أسماء الله تعالى وصفاته ، والذي حدا بي الى هذا التعبير بهذا الاسم ، هو سرعة فهم المراد منه عند القراء من أهل العصر الحاضر .

وأما الجواب عن الانتقاد الثالث : فهو أن الله تعالى ذكر تلك المحاورة في عدة مواضع من كتابه الكريم ، فمنها آية: ﴿ قَالَ رَبِّ فَأَنْظِرْنِي إِلَىٰ يَوْمٍ يُبْعَثُونَ ، قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنْظَرِينَ ، إِلَىٰ يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ ، قَالَ رَبِّ بِمَا أَغْوَيْتَنِي لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ ، وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ، إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ ، قَالَ هَذَا صِرَاطٌ عَلَيَّ مُسْتَقِيمٌ : إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ ، إِلَّا مَنْ اتَّبَعَكَ مِنَ الْغَاوِينَ ، وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمَوْعِدُهُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ (١٥ : ٣٧ - ٤٣) .

فأثبت هنا أن إبليس سلطاناً على الغاوين ، كما قال في آية أخرى : ﴿إِنَّهُ لَيْسَ لَهُ سُلْطَانٌ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ، وَإِنَّمَا سُلْطَانُهُ عَلَى الَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُ ،

والذين هم بهم مشركون ﴿ ١٦١ : ٩٩ و ١٠٠ ﴾ ، ومنها آية ﴿ قال رب فأظنرني الى يوم يُبعثون ، — قال فإنك من المُنظرين ، الى يوم الوقتِ المعلومِ — قال فبِعزَّتِكَ لأُعوِيَنَّهُم أَجمعينَ ، إلاَّ عبادَكَ منهم المُخلَصينَ ، — قال فالحقُّ والحقُّ أَقولُ لأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنْكَ وَبِمَن تَتَّبِعُكَ مِنْهُمْ أَجمعينَ ﴾ (٧٩ : ٣٨ — ٨٥) وغير خافٍ أن هذه الآيات الكريمة تفيد أن الله تعالى سلط إبليس على الناس ، قال في القاموس : والتسليط التغليب وإطلاق القهر والقدرة . وهذا المقدار ، جاز على الله ومن الله كما قال تعالى : ﴿ ولو شاءَ اللهُ ، لَسَلَطَهُمْ عَلَيْكُمْ فَلَقَاتَلُوكُمْ ﴾ (٤٩ : ٤) أي لو أراد الله تعالى لسلط هؤلاء القوم المشركين على المؤمنين ، فإذا كان يجوز على الله ومن الله ، أن يسلط بعض المشركين على المؤمنين ليقاتلهم ، جاز عليه ان يسلط إبليس على الناس ، والله تعالى اعلم .

آمال يعقوب في يوسف

آ (٦) « وكذلك يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ ، وَيُعَلِّمُكَ مِنْ تَأْوِيلِ
الْأَحَادِيثِ ، وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَعَلَى آلِ يَعْقُوبَ ، كما أَتَمَّهَا عَلَى
أَبَوَيْكَ مِنْ قَبْلُ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ ، إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ » .

افتتحت الجلسة وتليت الآية السادسة فقام السيد النجفي (١) وقال :

(وكذلك) أي ومثل ذلك الاجتباء (يجتبيك ربك) يعني كما اجتباك لمثل

(١) نسبة الى النجف الاشرف من بلاد العراق .

هذه الرؤيا العظيمة الدالة على شرف وعز وعلو شأن ، كذلك يجتبيك ربك لأمر عظام ، والاجتباء الاصطفاء ، من جيبته الشيء إذا حصلته لنفسك ، وجيبته الماء في الحوض ، جمعته ، (ويعلمك من تأويل الأحاديث) وهي الروى ، لأن الرؤيا إما حديث نفس أو مدك أو شيطان ، وتأويلها عبارتها وتفسيرها ، وكان يوسف أعب الناس للرؤيا وأصحهم عبارة لها ، ويجوز أن يراد بتأويل الأحاديث معاني كتب الله وسنن الأنبياء وما غمض واشتبه على الناس من أغراضها ومقاصدها ، يفسرها لهم ويشرحها ، ويدلهم على مودعات حكمها ، وسميت أحاديث ، لأنه يحدث بها على الله ورسوله ، فيقال قال الله وقال الرسول كذا وكذا ، ألا ترى الى قوله تعالى: ﴿فأبى﴾ حديث بعده ﴿يؤمنون﴾ (٧ : ١٨٤) وقوله: ﴿الله نزل أحسن الحديث﴾ (٣٩ : ٢٣) فلفظه أحاديث ، مرن ، يسمع أن تضيقه وأن توسعه ، وهو اسم جمع للحديث ، (ويتم نعمته عليك) بالترقي في الدرجات الدنيوية ، كمصيره وزير مالية وعزيزاً بمصر ووكيلاً عن مليكها الريان وإحرازه لقب صديق ، وفي أمور الآخرة كمصيره نبياً ورسولاً (وعلى آل) ذرية (يعقوب) وسلالته بأن جعل منهم أنبياء وملوكاً (كما أتمها على أبويك من قبل إبراهيم وإسحق) فكان إبراهيم نبياً ورسولاً وخليلاً وأميراً ، وكان ولده إسحق نبياً ورسولاً ، (إن ربك عليم) يعلم من يحق له الاجتباء (حكيم) لا يتم نعمته إلا على من يستحقها .
هذا ما أظهره لك ودع ما أضمره والله على كل شيء قدير .

وكذلك . . النخ

- ١ -

قال السيد للكر بلاني :

بشارة يعقوب ليوسف بثلاث الاجتباء والتعليم وإتمام النعمة

أخذ يعقوب بعد ولده ويشره بالسعادة الكبرى المستقبلية فقال مامعناه الروحي:
إن الأمر لأعظم مما تفيدته رؤياك يا ولدي ، فإنني على مثل اليقين أنك لا تلبث
إلا قليلا ، حتى ترى في مستقبلك ثلاثة أمور عظمى : الاجتباء والتعليم وإتمام النعمة ،
فانتظر ما سيحيي به الغد ، ورؤياك التي ذكرتها لي هي عربون من الله على صحة
وتحقيق ما قلته لك ، وبشرك به الآن ، وإني أرى مستقبلك أمامي رأي العين ،
فلا بد أن يقع ذلك ، إن عاجلاً وإن آجلاً ، وليست المسألة مسألة تعيين لك مني ،
أو من غيري من المخلوقين ، ولكنها مسألة انتخاب لك من رب العالمين ، انتخبك الله
لهذه الأمور الثلاث ، من بين إخوتك وسائر أنسبائك .

★ ★ ★

إن تصورات يعقوب في أحوال يوسف المستقبلية هي من نوع أوقربية من رؤيا
يوسف نفسه ، نعم إن مرمى بشارة يوسف المنامية مختلف بالشخص مع مرمى
بشارة يعقوب اليقضية ، ولكن النوع واحد ، وهو الحصول على رقي تام وامتيازات
تامه ، وبالنتيجة فبشارتاها ترميان لشيء واحد هو علو مكانة يوسف فيما يأتي من
الزمان ، فكان يعقوب سكب قلبه في قلب يوسف ، حتى استحالا الى قلب واحد ،

يشعر بشمور واحد، ويحس باحساس واحد، ويفتكر فكر أو واحد أفكأنهار وحن حلا في بدن، أو بدنان بروح واحدة، هذا ما يشف عنه اللفظ شفوف الكأس الصافية عن الشراب، وقد يؤلنا وإيم الحق ما كتبه المفسرون ههنا مما يخالف هذا الذي قرناه والله يقول الحق وهو يهدي السبيل .

صراخ من الجميع

« لله أنت »

« وكذك »

- ٢ -

قال الشيخ امين البئر سبعمي (١) :

فرح يوسف بيشارة ابيه له ووقوعها حرفاً بحرف

بما أن يوسف نفى لأبيه جملة ما أوحى اليه مناماً ، رأى أبوه من المناسب أن ينفى لابنه جملة ما أوحى اليه بشأنه يقظة ، فأبدى له تلك البشرى المثلثة، وما كان أعظم فرح يوسف عندما سمع هذه البشرى من أبيه ؟ وانك لو سبرت غور قلبه وقتئذ لرأته يكاد يطير من شدة السرور والغبطة ، كأن الله تعالى بشر يوسف في المنام بواسطة ملك من ملائكته - وهو جبريل - بسجود الكواكب له مع الشمس والقمر ، والآن يبشره في اليقظة بواسطة نبي من أنبيائه - وهو يعقوب - باجتباء الله له ، وتعليمه من تأويل الأحاديث ، وإتمام نعمته عليه ، ويمكن أن نقول إن البشرى الثانية أتت ليعقوب من التفرس في مستقبل ابنه ، لأنه كان إذا رآه ،

(١) سبة الى بئر السبع وهي بلدة في فلسطين

يتوسم مناقبه مصورة في محياه . وفي حديث ابن عمر (ض) « اتقوا فراسة المؤمن فإنه ينظر بنور الله عز وجل » ، رواه البخاري في تاريخه ، وعلى كل فني عن البيان أن البشارة الثانية أعلى جداً ، وهدى أعلى من البشارة الأولى ، ولذلك فلا نرتاب في أن يوسف كما كان طرب واندھش من مرمى رؤياه المنامية ، فقد طرب ودهش أكثر وأكثر من بشاره أبيه اليقظية ، وقد وقع كل ما أخبر به يعقوب ولده ، حرفاً بحرف ، كأن الغيب كتاب مفتوح بين يديه ، يقرأ منه ما يشاء وعلى الأقل كأنه كان يقرأ ذلك في وجه ولده السعيد ، فلذلك وعده أبوه ومناه ، كأنما هو عن وحي وإلهام .

(يجتبيك . .)

- ١ -

قال العلامة الدمشقي السوقساروجي (١) :

اجتناء في اللغة واجتناء الله ليوسف والانبياء والمرسلين

يقال : جباه الله واجتناءه ، جمعه اليه وأدناه منه واختاره دون سواه ، فهو مجتبي ، منحول ، مختار ، مصطفى : متقاربة ، والجاوية تجمع الماء وجمعها جواوي ، قال تعالى : ﴿ وَجِئْنَا بِالْجَوَابِ ﴾ (٣٤ : ١٣) وقال سبحانه : ﴿ أَوْلَمْ نُمْكِّنْ لَهُمْ حَرَمًا آمِنًا يُجْتَبَىٰ إِلَيْهِ ثَمَرَاتُ كُلِّ شَيْءٍ ﴾ (٢٨ : ٥٧) ، أي يجمع ، وجبتى الخراج يجبي جباية ، جمعه : وكلمة (جبي) تشارك (جاب) الثلاثية في حرفين ، فهما متقاربان في المعنى ، جاب بمعنى قطع ، وفيه قوله تعالى : ﴿ جَابُوا .

(١) نسبة الى حي سوق ساروجة في بلدة دمشق

الصخرَ بالوادِ ﴿ (٨٩ : ٩) ﴾ أي قطعوه ، وجاب البلاد ، قطعها — بالسفار ، واجتبيتها : قطعها ، ووجه المقاربة بينها في المعنى أن من استحسن شيئاً فاصطفاه فقد قطعه لنفسه ، ومن قطع شيئاً لنفسه اصطفاه لها .

فمعنى (يجتبيك) في الآية ، يختارك ويصطفيك ويدنيك منه ، ويجمعك اليه ، ويقطعك من دون العالم الى حضرته ، تبارك المعطي الوهاب ، فالله اجتبي يوسف ، وملك مصر استخلصه لنفسه ، وما الثانية الا مظهراً من مظاهر الأولى ، فذرة من ذرات الاجتباء السماوي تجعل العبد مجتبي لجميع من يعقل من أهل الأرض .

الله اجتبي يوسف واتخذه على اخوته ، واختاره على عموم من سواهم من الأسرة ، واصطفاه على سائر أهل عصره ، ونوّه باسمه في فلسطين ومصر وغيرها ، لأنه أصفام جوهرأ ، وأروضهم نفساً ، وأطيهم قلباً ، وقد جاءت لفظة الاجتباء بصيغة المضارع (يجتبيك) باعتبار ماسيكون ليوسف آنذاك ، في القريب العاجل ، وكل آت قريب ، وما أبعد المسافات ؟ وما أقرب ماهو آت ؟ فيوسف اجتبي كآدم الذي بعد توبته ﴿ اجْتَبَاهُ رَبُّهُ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَى ﴾ (٢٠ : ١٢٢) وكجده إبراهيم الذي : ﴿ اجْتَبَاهُ وَهَدَاهُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴾ (١٦ : ١٢) ، وكموم الخمسة وعشرين نبياً الذين : ﴿ اجْتَبَيْنَاهُمْ وَهَدَيْنَاهُمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴾ (٦ : ٨٧) نعم ، قال الله تعالى في كل العالم الاسلامي : ﴿ هُوَ اجْتَبَاكُمْ ﴾ (٢٢ : ٧٨) ولكن يوجد فرق كبير بين الاجتباين ، فاجتباء الله لأهل الاسلام هو بمعنى أعم وأحط من اجتباؤه تعالى ليوسف وسائر إخوانه الأنبياء ، فهو أخص وأعلى من الأول .

(تعش يا أستاذ)

(يجتبيك . . الخ)

- ٢ -

قال الاستاذ الباب مريحي (١)

نبوة يوسف والأنبياء قبله وبعده

اجتبي الله يوسف وأتم نعمته عليه بالنبوة والرسالة للمصريين ، كما قال مؤمن آل فرعون خطاباً للمصريين : ﴿ وَلَقَدْ جَاءَكُمْ يُوسُفُ مِنْ قَبْلُ بِالْبَيِّنَاتِ ، فَمَا زِلْتُمْ فِي شَكٍّ مِمَّا جَاءَكُمْ بِهِ ، حَتَّى إِذَا هَلَكَ قَلْتُمْ لَنَنْبِئَنَّ اللَّهَ مِنْ بَعْدِهِ رَسُولًا ﴾ (٤٠ : ٣٤) وقبله أرسل أبوه يعقوب - لأهل فلسطين ، وإسماعيل للعرب ، وأخوه إسحاق - للفلسطينيين ، وإبراهيم - للكلدان ، ولوط - لشرقي الأردن والمؤتفكات ، وهي (قريات الملح) الحمس ، وصالح لثمود الذين في الحجر بين الشام والحجاز الى وادي القرى ، أو بين معان والعقبة ، وذلك هو (بترا) ، وهود - لعاد ، ماين عثان وحضرموت .

وأما بعد يوسف فقد أرسل الله شعيباً - الى مَدْيَنَ ، وهي تمتد من العقبة الى طور سيناء ، أو من شبه جزيرة سينا الى الفرات كما أرسله الله أيضاً الى أصحاب الأيكة ، كانوا أصحاب غيضة بين ساحل البحر الأحمر الى مَدْيَنَ ، وأيوب - الى أهالي نجد على القول بأنه نجدي ، أو الى حوران على القول بأنه حوراني ، وموسى وأخوه هارون - الى القبط وبني اسرائيل بمصر ، وداود وابنه سليمان - الى بني اسرائيل بفلسطين ، وهكذا زكريا وابنه يحيى ، وأما يونس فالى

(١) نسبة الى حي باب سريجة في دمشق .

نينوى عاصمة الآشوريين - قرب الموصل -

وما أن نزل الأستاذ الدمشقي الباب سريحي عن منبر الخطابة حتى نهض

على أثره الأستاذ البرامكي^(١) وقال :

سمعت أمها السادة ماتفضل به صديقنا المحترم ،.والآن تذيلاً لما ذكره أذكركم
بالنبي (صموئيل بن ألقانه) المرموز اليه في القرآن بقوله تعالى : ﴿ أَلَمْ نَرِ
إِلَى الْمَلَأَمِينَ نَبِي إِسْرَائِيلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَى إِذْ قَالُوا لَنَبِيٍّ لَّهُمْ - وَهُوَ صَمُوئِيلُ -
ابْعَثْ لَنَا مَلِكًا نَقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ؟ - قَالَ : هَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ كُتِبَ عَلَيْكُمُ
الْقِتَالُ أَنْ لَا تَقَاتِلُوا ؟ - قَالُوا : وَمَا لَنَا أَنْ نَقَاتِلَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَقَدْ أَخْرَجْنَا مِنْ
دِيَارِنَا وَأَبْنَاؤُنَا ؟ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ تَوَلَّوْا إِلَّا قَلِيلًا مِنْهُمْ ، وَاللَّهُ عَلِيمٌ
بِالظَّالِمِينَ - وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ : إِنْ اللَّهُ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلَكًا ، - قَالُوا : أَنَّى
يَكُونُ لَهُ الْمُلْكُ عَلَيْنَا وَنَحْنُ أَحَقُّ بِالْمُلْكِ مِنْهُ ، وَلَمْ يَأْتِ سَعَةَ مِنَ الْمَالِ ؟ - قَالَ
إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاهُ عَلَيْكُمْ ، وَزَادَهُ بَسْطَةً فِي الْعِلْمِ وَالْجِسْمِ ، وَاللَّهُ يُؤْتِي مُلْكَهُ
مَنْ يَشَاءُ ، وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ - وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ : إِنْ آيَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ
تَأْتِيكُمْ فِي التَّابُوتِ فِيهِ سَكِينَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ ، وَبَقِيَّةٌ مِمَّا تَرَكَ آلُ مُوسَى وَآلُ هَارُونَ ،
تَحْمِلُهَا الْمَلَائِكَةُ ، إِنْ فِي ذَلِكَ لَآيَةٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿ ٢ : ٢٤٦ - ٢٤٨ ﴾
فهذا النبي هو (صموئيل) الذي يسميه مؤرخو العرب على سبيل التعريب : (صمويل
أو شموبيل) وهذا النبي الكريم هو آخر قضاة بني إسرائيل الخمسة عشر ، مكث
قاضياً عليهم مدة « ١٢ » سنة ، وكانت مدة حكم هؤلاء القضاة نحو « ٤٥٠ » سنة
من موت يشوع بن نون ، فتي موسى ، الى أيام النبي صموئيل المذكور ، وبهذه
المناسبة تذكر النبي (يشوع) المرموز له في قوله تعالى : ﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَتَاهُ :

(١) نسبة الى حي البرامكة في دمشق (سورية).

لا أْبْرَحُ حَتَّى أَبْلُغَ مَجْمَعِ الْبَحْرَيْنِ أَوْ أَمْضِيَ حُقُبًا ﴿١٨ : ٦١﴾ فهذا
 الفتي هو يشوع بن نون تلميذ موسى الذي صار نبياً بعده وخليفة عنه على بني اسرائيل
 والقائد الأعظم في حربهم مع الفلسطينيين ، وهو أحد الاثني عشر رجلاً الذين
 أرسلهم موسى ليتجسسوا أرض كنعان ، كما هو أحد الرجلين الاثني عشر في قوله
 تعالى : ﴿ قَالَ رَجُلَانِ مِنَ الَّذِينَ يَخَافُونَ ، أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمَا : ادْخُلُوا عَلَيْهِمُ
 الْبَابَ ، فَإِذَا دَخَلْتُمُوهُ فَإِنَّكُمْ غَالِبُونَ ﴾ (٥ : ٢٥) والرجل الثالث هو كالب
 ابن يَصْنَةُ ، والخلاصة إن من الأنبياء هذين الكريمن وهما : صموئيل ويشوع ،
 ويهمننا معرفتها بصورة خاصة ، لأنها مذكوران في القرآن الكريم ، ولذلك
 اقتصرنا في خطابي على ذكرهما فقط .

(جيد)

(وَيُعَلِّمُكَ ...)

- ١ -

قال الفاضل اسماعيل من علماء غزوة :

تعليم يوسف

(ويعلِّمُكَ) كما علم قبلك الملائكة حتى قالوا : ﴿ سُبْحَانَكَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا
 عَلَّمْتَنَا ﴾ (٢ : ٣٢) وكما ﴿ عَلَّمْتَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا ﴾ (٢ : ٣١) وقال
 في أيك يعقوب : ﴿ وَإِنَّهُ لَنَدُو عَلِيمٍ لِّمَا عَلَّمْنَاهُ ﴾ (آ : ٦٨) وقال عن
 الخضر : ﴿ وَعَلَّمْنَاهُ مِنْ لَدُنَّا عِلْمًا ﴾ (٨٨ : ٦٦) كانت هذه البشارة
 ليوسف من أبيه كما كانت رؤياه النامية وهو في (سيلون) من أعمال فلسطين ،
 وقد تحقق مضمونها وهو في (صوعين) عاصمة مصر ، أي عاصمة المملكة المكسوسية

في ذلك العصر - وكما تسمى صوعن فتسمى (تانيس) و (طانس) و (سان) ،
وتسمى اليوم (سان الحجر) - ، وقد كان الزمن بين البشري الزامية وبين تحقيق
مضمونها نحو « ٢٢ » سنة ، فعلى العاقل إذا وعد بشيء أن ينتظر ولا يستبطن ما
وعد به ، فقد دعا موسى وهرون على فرعون وملائته ، فالباري تعالى قال : ﴿ قد
أجيبت دعوتكها فاستنقيا ولا تتبعا ن سبيل الدين لا يعلمون ﴾
(١٠ : ٨٩) قيل مكث موسى بعد الدعاء قريبا من أربعين سنة .

(تأويل الاحاديث)

- ٣ -

قال الشيخ مضيوف اليافي (١) :

مقومات الحديث وتأويله

لكل حديث معنى افرادي ، ومعنى تركيبى ، وغاية ينتهي اليها ، وإن شئت
قلت : مصداق يقع فيكون هو خبيرة الخبر .

فأما القسم الأول ، وهو المعنى الإفرادى ، فهو ما يذكر في كتب الصرف
واللغة كالبناء والمقصود والأمثلة والقاموس والأساس والمصباح والصحاح واللسان
والفائق ومفردات الراغب وغيرها من كل المعاجم التي تبين الألفاظ المفردة .

وأما القسم الثاني وهو المعنى التركيبى ، فهو ما يذكر في كتب النحو والمعاني

(١) نسبة الى يافا من بلاد فلسطين

والبيان ، من معنى الجملة الحقيقي أو المجازي أو الكنائي ، والفهم في هذين الضربين قاصر محدود لا يتسع عقل صاحبه للتدبر كثيراً ، وإنه لَيَسْتَوِي فِيهِ كُلُّ إِنْسَانٍ عَاقِلٍ لَيِّبٍ ، سواء أكان صالحاً أو طالحاً ، مؤمناً أو كافراً ، وهو أمر كسي يتحصل عليه الإنسان بكسبه وجدته ، ولا يتفاوت إلا بتفاوت العقل والإدراك ،

وأما القسم الثالث وهو الغاية التي ينتهي إليها الحديث وان شئت قلت : مصداق الحديث الذي يقع فيكون هو خَيْرُ الْخَبَرِ - فهذا لا يكون بكسب وجدته ولا يستوي فيه سائر الناس ، ولا يمكن أن يتحصل عليه الإنسان بذكائه وحدة فهمه ولا يمكن أن يستقل به المرء ، ولكنه موهبة من الله تعالى ، وإلهام يلهمه عباده الصالحين ، من أنبيائه وأوليائه وعلمائه ، وهذه الغاية التي تنتهي إليها الأحاديث - وبعبارة أخرى - هذا المصداق الذي هو ذات ما أُخْبِرَ بِهِ هِيَ الَّتِي يَعْبُرُ عَنْهَا نَارَةُ الْمَصَائِرِ وَحِينَئِذٍ بِالْمَوَاقِبِ وَالْمَرَاجِعِ وَطَوْرًا بِالْمَصَادِقِ وَأَخِيرًا وَبِتَمْيِيرٍ مَخْتَصِرٍ : إِذَا قُلْنَا : « تَأْوِيلُ الْأَحَادِيثِ » نَعْنِي الْمَحْكِي عَنْهُ فِي تِلْكَ الْحِكَايَةِ الَّتِي هِيَ الْحَدِيثُ ، فَالْحَدِيثُ حِكَايَةٌ ، وَتَأْوِيلُهُ هُوَ الْمَحْكِي عَنْهُ ، فَالتَّأْوِيلُ تَفْعِيلٌ مِنْ آَلَ إِذَا رَجَعَ ، وَهُوَ مَا يُوَوَّلُ إِلَيْهِ الشَّيْءُ ، وَبِالْمَثَالِ يَتَضَحُّ الْمَعْنَى وَتُظْهِرُ صِحَّةَ الْمَقَالِ :

١ - قال تعالى : ﴿ فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ ، إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ، ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا ﴾ (٤ : ٥٨) أي عاقبةً ، كما في الكشف ، فهو تأويل فعلي .

٢ - قال تعالى : ﴿ وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُ ، وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ ، إِنْ الْعَهْدُ كَانَ مَسْئُولًا ، وَأَوْفُوا الْكَيْلَ إِذَا كِلْتُمْ ، وَزِنُوا بِالْقِسْطِ السِّتْقِيمِ : ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا ﴾ (١٧ : ٣٤ و ٣٥) أي أحسن عاقبةً ، كما في الكشف ، فهو تأويل فعلي .

٣ - قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ جِئْتُم بِكِتَابٍ فَصَّلْنَاهُ عَلَىٰ عِلْمٍ ۖ هُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ۖ هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا تَأْوِيلَهُ؟ يَوْمَ يَأْتِي تَأْوِيلَهُ ۖ يَقُولُ الَّذِينَ نَسُوهُ مِنْ قَبْلُ: قَدْ جَاءَتْ رُسُلٌ رَبِّنَا بِالْحَقِّ ۖ فَهَلْ لَنَا مِنْ شُفَعَاءَ فَيَشْفَعُوا لَنَا ۖ أَوْ تُرَدُّ فَنَعْمَلْ غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ؟ ۚ قَدْ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ ۖ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾ (٥٢: ٧) فتأويله هنا عاقبة أمره وما يؤول إليه من تبين صدقه وظهور صحة ما نطق به من الوعد والوعيد (كشاف) فهو تأويل فعلي .

فليس المراد هنا من تأويل الكتاب تفسيره وبيانه ، لأنه جاءهم مفصلاً على علم وهدى ورحمة ، فلا يحتاج إلى التفسير والبيان ، ولكن أولئك الخاسرين ينتظرون تحقق ما جاء به من شؤون الآخرة كالجنة والنار وعذاب القبر والحساب وهلم جرا ، وذلك واضح لا غبار عليه ، وهل يفهم غير هذا من قوله تعالى: ﴿يَوْمَ يَأْتِي تَأْوِيلَهُ ۖ يَقُولُ الَّذِينَ نَسُوهُ مِنْ قَبْلُ: قَدْ جَاءَتْ رُسُلٌ رَبِّنَا بِالْحَقِّ . . الخ﴾ فالتأويل هنا مصائر وعواقب أخبار الكتاب الغيبية ، ولا جرم أنه لا يعلم حقائق شؤون الآخرة مثلاً ، ولا كيف تقع ، ولا متى تكون سوى السميع العليم ، فالؤمنون يؤمنون بما ورد من ذلك في الكتاب وإن لم يعلموه وقتاً وقدرًا ونوعاً وحقيقة ، فإن ذلك من موسوعات علم الله وحده ، دون سواه إلا من ارتضى من رسول ، وأما الذين كفروا ، فيكذبون بما لم يحيطوا بعلمه ولما يأتهم تأويله .

٤ - قال تعالى: ﴿بَلْ كَذَّبُوا بِمَا لَمْ يُحِيطُوا بِعَلَمِهِ ۖ لَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُ﴾ (١٠: ٣٩) أي مصيره ومصداقه وذات ما أخبر به مما سينزل بهم من عقاب الدنيا والآخرة ، وسائر نذره وبشارته ، فهو تأويل فعلي . وذلك كإخبار القرآن بالجنة والنار والملائكة والجن ونعيم الجنة وعذاب النار والنشر والحشر والحساب والميزان والصراط وعذاب القبر ونعيمه والسؤال فيه ، والكلام عن الله

وذاته وصفاته والساعة وأشراطها وشؤون الآخرة والوعد والوعيد ، وكيف يقع ومتى يقع ، فكل هذه الأشياء ومآليها لا يعلمها إلا الله ولكنه ربما علم شيئاً منها لبعض عباده ممن ارتضى من رسول ، ومن كان على قدمه من الصالحين ، وكل هذه الأشياء ونحوها كذبوا بها لأنهم لم يحيطوا بعلمها ولا يروا ويشاهدوا تأويلها أي مصائرنا وذاتها ، فالتأويل هو كل ما يعد به الكتاب السماوي من الثوبة والعقوبة أي ما يؤول إليه الأمر في الوعد والوعيد والخبار .

٥ - في حديث عائشة (ض) كان النبي (ﷺ) يكثر أن يقول في ركوعه وسجوده : (سبحانك اللهم وبحمدك) يتأول القرآن ، تعني إنه مأخوذ من قوله تعالى : ﴿ فسبح بحمد ربك واستغفر له ﴾ (١١٠ : ٣) أي تعني أن النبي يرجع بذلك إلى القرآن ويصير إلى هذه الآية ، فهو تأويل فعلي .

٦ - روي عن رسول الله (ﷺ) أنه تلا آية ﴿ قل هو القادر على أن يبعث عليكم عذاباً من فوقكم أو من تحت أرجلكم أو يلبسكم سبيحاً ويذيق بَعْضَكُمْ بَأْسَ بَعْضٍ ﴾ (٦ : ٦٥) فقال : (إنها كائنة ، ولما بات تأويلها بعد) فالتأويل هنا أيضاً فعلي بمعنى تحقق وجود الخبر .

ولا بد لنا قبل الختام من كلمة لها علاقتها الكبيرة بهذا المقام وهي أن لكلمة (تأويل) ثلاث معان :

١ - التأويل بمعنى مصير الشيء وعاقبته ، وهذا تأويل ليس بالقول ولكنه تأويل بالفعل ، ومنه الشواهد السبعة التي تلونها على أسماعكم ، بل منه أيضاً ما في قول يوسف الصديق (يا أبت هذا تأويل رؤياي من قبل) أي هذا الفعل مصداقها ومصيرها ، فهو تأويل فعلي .

٢ - التأويل بمعنى تفسير المتشابه ، وهذا تأويل قولي علمي ، وله أمثلة في القرآن والحديث كثيرة ، ليس هذا موضع بيانها .

٣ - التأويل بمعنى بيان السبب والعلّة ، كما في قصة موسى مع ذلك العبد الصالح الذي آتاه الله علماً إذ يقول لموسى ﴿ سَأُنَبِّئُكَ بِتَأْوِيلِ مَا لَمْ تَسْتَطِعْ عَلَيْهِ صَبْرًا ، أما السفينة . . الخ ﴾ (١٨ : ٨٠)

(الاحاديث)

- ١ -

قال استاذنا الحضرموتي (١) :

الحديث لغة واصطلاحاً

الاحاديث اسم جمع لحديث ، على ماظن الزمخشري في كشافه ، أو جمع تكسير له على غير قياس ، على ماظن الزمخشري أيضاً ، في (المفصل) ، كما قالوا باطل وأباطيل وإذا كانوا يقولون في عبايد إنه جمع تكسير ولم يلفظوا له بمفرد ، فكيف لا يكون أحاديث وأباطيل جمع تكسير وقد لفظوا بمفرده ؟ هذا ويطلق لفظ (الحديث) على أربعة أمور :

١ - على القرآن الكريم كما قال تعالى : ﴿ فبأيّ حديثٍ بعده يؤمنون ﴾ (٧ : ١٨٤ و ٧٧ : ١٥) وقال تعالى : ﴿ فليأتوا بحديثٍ مثله إن كانوا صادقين ﴾ (٥٢ : ٣٤) .

(١) نسبة الى حضرموت احدى البلاد العربية في جنوبي جزيرة العرب

٢ - على كلام النبي (ﷺ) كقولهم (حديث النبي وأحاديث النبي) أي ما كان النبي (ﷺ) يحدثهم به ومنه أحاديث البخاري ، أحاديث مسلم ، أحاديث الموطأ وهكذا .

٣ - على الأقيصين التاريخية ومنه ﴿ هل أتاك حديث موسى ﴾ (١٥:٧٩) ، ﴿ وجعلناهم أحاديث ، فبعثدأ لقوم لا يؤمنون ﴾ (٢٣ : ٤٤) ، ﴿ فجعلناهم أحاديث ، ومزقناهم كل ممزق ﴾ (٣٣ : ١٩) غير أنه وقع الاصطلاح على أن الأحاديث التي يتحدث بها الناس على وجه الذكرى والاستفادة هي اسم جمع لحديث ، وذلك كما في المثال الأول ، وأما الاحاديث التي يتحدث بها الناس تلياً وتمجيباً ، فهو عندهم جمع أحداثثة مثل أضحوكة وأعبوبة وأعجوبة ، وذلك كما في المثالين الأخيرين .

٤ - على أحاديث النفس بقظة أو مناماً ، ثم أحاديث النفس في اليقظة هي درجة بين الخواطر والهموم ، وأما أحاديث المنام ، فإن كانت من الله قيل لها (رؤيا) ، وإن كانت من الشيطان قيل لها (حلم) .

وكل هذه المعاني الأربعة وما ألحق بها داخل تحت عموم كلمة (أحاديث) فالعنى أن يعقوب يبشر ولده النجيب بأن الله تعالى سيوجد فيه أهلية وقدرة على تفهم مرامي ومصائر الكتب السماوية وأحاديث النفس وإلهام الملك في المنام وغير ذلك من كتب العلم والتاريخ وكلام الناس وأسفار الحكمة والآداب ، وعلى العموم بتعلم مقاصد الكتب السماوية ، والشرائع الوضعية ، والقوانين والنظامات الحكومية ، والأسفار الاجتماعية ، ومرامي أحاديث الناس ، وما يقرأ وما يسمع ، وما يقول وما إلى ذلك ، فيكون صاحب رأي في عاقبة كل هذه المذكورات ، وذا بصيرة في مرجع كل ما يقوله ويقال له .

هذا ما ألهمني الملك العلام ، في هذا المقام ، نفضته اليكم والسلام عليكم .
(لا يفضض الله فاك)

(ويتم نعمته . . الخ)

- ١ -

قال العلامة الهندي :

إتمام النعمة على يوسف

يعني يتم نعمته عليك بإسباغ نوافل خيراته ، ونوامي بركاته ، وقد فعل ،
و (يتم) في مستقبل الأيام (نعمته عليك) بصورة خاصة لا تعدوك (وعلى آل
يعقوب) بصورة عامة شاملة تسع الجميع منهم (كما) كان فيما مضى من الزمان قد
(أتمها على أبويك) يتم نعمته عليك كما تحب ، وعلى آل يعقوب كما يحبون .

يتم نعمته عليك سلبياً وإيجابياً ، بالتخلية وبالتحلية ، بالسلامة من الشر وحصول
الخير ، بالإنباء من المهالك ، والترقي والعز والسؤدد .

فقد أتم الله نعمته على يوسف بنجاته من الموت بيد إخوته ، ثم بنجاته
من الجب سالماً ، ثم بظهور سلامة عرضه ، ثم بخروجه من السجن بصورة تكفل
شرفه وثاموسه ، ثم بجلوسه على عرش مصر عزيزاً ، كما أتمها بأفضل من ذلك كله
وهو النبوة والرسالة وإيتاء الحكم والعلم .

ومن إتمام نعمته تعالى على يوسف أيضاً انتصاره على الأضداد :

١ - انتصر على الشيطان والهوى والميول النفسانية (ع ٢٣ و ٢٤)

٢ - انتصر على زليخا امرأة العزيز بظهور براءته ، كما أتمها به (ع ٢٦ - ٣٢)

و : (ع ٥١ - ٥٣)

- ٣ - انتصر على عزيز مصر فوطيفار ، الذي سجنه سجناً إدارياً ظلماً ، فخرج من سجنه وجلس محله على العرش ، وصار (عزيزاً لمصر) بدلاً منه (ع ٥٤-٥٦)
- ٤ - انتصر على إخوته العشرة برجوعهم اليه ثالث سفرة ، وخضوعهم بين يديه واعترافهم بخطئهم، وسكناهم وأهلهم جميعته وتحت نظره (ع ٨٨ - ٩١)

(آل يعقوب)

- ١ -

قال صدر الدين دمشقي الباب سريجي (١) :

من هم آل يعقوب

(آل يعقوب) : أسباطه ، والسبط ولد الولد ، والفريق من اليهود ، ويقال للعرب قبائل ولليهود أسباط كما في المصباح .
وكلمة (آل) لفظ من خمسة ألفاظ وردت في كتاب الله تعالى بمعنى واحد ، والثاني بنو إسرائيل كما في : ﴿ وَجَاوَزْنَا بَيْنَ إِسْرَائِيلَ الْبَحْرَ ﴾ (١٠ : ٩٠)
والثالث ذرية إسرائيل كما في : ﴿ وَمِنْ ذُرِّيَةِ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْرَائِيلَ ... ﴾ (١٩ : ٥٨)
والرابع والخامس الأسباط والأمم كما في : ﴿ وَقَطَعْنَا مِنْ أَثْنَتَيْ عَشْرَةَ أَسْبَاطًا أُمَّمًا ﴾ (٩ : ١٥٩)

ويطلق آل الرجل على أهل بيته وأقاربه الذين يضافون الى اسمه ، ويطلق على جميع أتباع الرجل ، فمن الأول قوله تعالى : ﴿ فَالْتَقَطَهُ آلُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا ﴾ (٢٨ : ٨) إذا قلنا إن الملتقط هو شخص من أفراد الاسرة المالكة ، فإن قلنا أن الملتقط هو إحدى الجوارى أو الخادمت كان من

(١) نسبة الى حي باب السريجة في دمشق (سورية)

قبيل إطلاقه على الأتباع كما في : ﴿ وَأَغْرَقْنَا آلَ فِرْعَوْنَ ﴾ (٢ : ٥٠) ، ومن أمثلة إطلاقه على الذرية ما في قوله سبحانه : ﴿ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى آلَ إِبْرَاهِيمَ وَآلَ عِمْرَانَ عَلَى الْعَالَمِينَ ، ذُرِّيَّةً بَعْضُهَا مِنْ بَعْضٍ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾ (٣ : ٣٣ و٣٤) ، فالمراد من آل إبراهيم هنا ذريته وسلالته من اسماعيل بن (هاجر) وإسحاق بن (ساراي) وأبنائه الستة من زوجته (قطورة) ، وهم زمران وبقشان ومدان وميدان وبشباق وشوحا (تك ٢٥ : ١ و ٢) ، فأولاد إبراهيم لصلبه ثمانية من ثلاث زوجات ، ثنتان عربيتان وواحدة عبرانية ، وكان من المديانيين (شعيب) عليه السلام ، كما كان من اسحاق جميع أنبياء بني اسرائيل ، وكما كان من اسماعيل خاتم الأنبياء (ﷺ) و (عمران) ههنا تعريب (عمرام) ، ومعنى عمرام (شعب عالي) وهو المدعو في الانجيل (هالي) أي عالي ، لأنهم يبادلون بين العين والهاء ، متصرف فيه بحذف صدره والاكتفاء بمجزه ، وهو أبو مريم أم المسيح (قال عمران) إذن عبارة عن المسيح فقط ، وبهذا التحقيق الذي ذكرناه بالمناسبة يندفع اعتراض البروتستانت على القرآن المجيد بأن أبا مريم لا يدعى (عمران) ، كما يقول القرآن ، ولكن يدعى (هالي) كما يقول الانجيل ، فخذ ما أتيتك وكن من الشاكرين .

(شكراً وحمداً يا استاذ)

(آل يعقوب)

- ٢ -

قال غلام الدين الدمشقي العامري (١) :

النعم التي آتمها الله على آل يعقوب

لم يكتب المفسرون على هذه الكلمة ما يجب أن يكتبوه ، وأنا الحقير مع
عجزتي وقلة بضاعتي لا أضف أن آتي على هذه الكلمة ما يشاء الله أن ألقيه ،
فاستمعوا لما يُلقى ::

أيها السادة :

آتم الله نعمته على آل يعقوب ، وسلالته ولو بَعُدوا ، وهم بنو إسرائيل ،
أعني القبائل الاسرائيلية ، بنجاتهم من عبودية مصر وسخرتهم فيها ، وتذبيح
أبنائهم واستحياء نسائهم ، ثم بنجاتهم من الوثنية التي اعتنقوها بمصر أيام الفراعنة
لمدة نحو مئتي سنة تقريباً ، والإيذاء الذي كانوا يلاقونه من الفراعنة من قبل أن
يأتيهم موسى ، وعلى أثر مجيئه ، فخلصوا من كل ذلك ، وخرجوا من مصر
منصورين تحت قيادة موسى وظلموا بالغانم وانزل عليهم المن والسلوى وفتح لهم
البحر ، وأغرق فيه عدوهم ، وانفجرت لهم اثنتا عشرة عيناً ، ثم ملكوا الأرض
المقدسة التي كتب الله لهم ، وأقاموا فيها قضاة وحكاماً لهم ، ثم شكلوا فيها مملكة ،
ولا تنس أن الله جعل فيهم النبوة والكتاب وآتاهم ما لم يؤت أحداً من العالمين .

فإن قلت ، إن هذه النعم التي عدتها لآل يعقوب أي سلالته إنما صارت بعد

(١) نسبة الى جبي العمارة في دمشق (سورية)

عهد طويل أى بعد ٤٣٠ سنة ، تقربوا فيها بمصر ، على كلام التوراة ، أو بعد ٢١٥ سنة أقاموها بمصر على ما حققه العلماء من مؤرخي النصارى والمسلمين ، وإنه ليمعد أن يكون يعقوب أراد من بشارته تلك النعمة ، التي ما حصلت لآله المعاصرين له ، ولكنها إنما حصلت لآله البصدين عنه ، الى ما بعد تلك المدة الطويلة ، سيما وقد سبق هذه النعمة ما ذكرته من اضطهادهم بالسخره والعبودية بمصر ، وإذلالهم وتذبيح أبنائهم واستحياء نساءهم ، وإبذائهم بأنواع الأذى ، لمدة ٤٣٠ سنة أو لمدة ٢١٥ سنة ، فيعد أن يكون يعقوب أراد البشارة بتلك النعمة التي لم تقع إلا بعد أكثر من جيلين .

قلتُ : أما ما ذكرت من سبق تلك النعمة باضطهادهم بالسخره والعبودية بمصر وتذبيح الذكور واستحياء النساء ، فلا يضر في جوهر البشارة ، فهذا يوسف لم يحصل له ما حصل مما بشر به من إتمام النعمة عليه إلا بعد أن أهيئ من جانب إخوته ، والتي في الجب ثم استرق وشرد عن وطنه ، وبيع عبداً لعزير مصر ، وخدم في بيته إحدى عشرة سنة ، وقذف بالفحشاء وسجن مع المجرمين ولبث في السجن بضع سنين ، فكما أن هذه الأمور لم تمنع أباه أن يبشره بإتمام النعمة عليه بما سيجد له في مصر من صيرورته بها « عزيزاً » ونظر ماليه ونبياً ورسولاً ، فكذلك تلك المصائب التي كانت نزلت فوق رؤوس بني إسرائيل بمصر ، لا تمنع يعقوب أن يبشرهم بإتمام النعمة عليهم فيما بعد ، لأن العبرة بالخواتيم .

وأما ما ذكرت من طول المدة ، وأن بني إسرائيل لم يحصلوا على تلك النعمة إلا بعد جيلين ، فقريب من حالهم حال يوسف ، فانه لم يحصل على إتمام النعمة عليه إلا بعد أن صار عمره قريباً من أربعين سنة أي بعد ٢٣ سنة من بشارة أبيه له .

وأخيراً نقول : إن الرجل ليس كالعنملة التي لا تنظر إلا ما بين عينها ، بل الرجل ينظر إلى الأمد البعيد جداً ، سيما إذا كان من الأنبياء المهمين ، كسيدنا

يعقوب عليه السلام ، وإنا نسمع عن الساسة الانكليز وغيرهم أنهم ينظرون الى ما سيجد بعد أجيال ، ويخبرون عنه ويقع حسبما أخبروا ، فكيف بالأنبياء الذين يتكلمون عن الله تعالى ، وكما ان الله يقول : ﴿ وَإِنْ يَوْمًا عِنْدَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِمَّا تَعُدُّونَ ﴾ (٢٢ : ٤٧) ، ﴿ وَأَنْتُمْ يَرَوْنَهُ بَعِيدًا وَزَاهٍ قَرِيبًا ﴾ (٧٠ : ٦ و ٧) ، فكذلك الأنبياء الذين يتكلمون عن ربهم ، يخبرون بالاشياء التي سوف تحدث بعد حين منها طال زمنه .

هذا كلامنا عن اتمام النعمة على آل يعقوب بجملاً ، وأما تفصيلاً فكان من سبط (لاوي) موسى وهرون وزكريا ويحيى ومريم أخت موسى ، وكان هذا السبط هو المتعين للخدمة في الهيكل ، وأما سبط (شمعون) فقد ألحق — باللاويين في مهنة التعليم (كما في قاموس بوست)

وأما سبط (يهوذا) فكان بيده صولجان الملك وكان من سلالة الأنبياء الكرام مثل : اشعيا وصَفَنِيَّا ودانيل وحزقيال وعيسى وداود وسليمان وحجتي ويوحنا بن اختيار ومريم أم المسيح والمسيح عليهم السلام ، كما أن من سلالته ملوك يهوذا التسعة عشر ، والقاضي « عشنيثل » والقاضي « عالي » وجميع الكهنة ، وكل من كانوا يمارسون الأعمال الدينية في هيكل بيت المقدس .

وأما سبط (دان) فكان آمنه جنود أصحاب شأن ، وخرج منه القاضي « شمشون » الشهير .

وأما سبط (نفتالي) فكان منه القاضي (باراق) الشهير .

وأما سبط (جاد) فكان منه ذلك النبي الشهاب (إيليا) ، وهو « الياس » عليه السلام .

وأما سبط (أشير) فكان وجد منه امرأة اسمها (حنه) وهي من المتعبدات الصالحات الصلوات المصليات حتى اعتبرت في نظر المسيحيين الأقدمين كنبية .

وأما سبط (يساكر) فقد كان منه القاضي (تولع) الذي حكم بني اسرائيل ثم كان منه اثنان من ملوك اسرائيل وهما (بعشا) و (أبله) .

وأما سبط (زبولون) فكان منه قاضيان حكما بني اسرائيل وهما (أبسان) و (أيلون) وكان منه (يونس بن متى) عليه السلام .

وأما سبط (يوسف) فكان قد انقسم إلى قسمين ، القسم الأول (منسى) الولد البكر ليوسف ، وكان منه ثلاثة قضاة حكموا بني اسرائيل ، وهم (جدعون) و (ياثير) و (يفتاح) ، والقسم الثاني (أفرايم) ثاني ولدي يوسف ، وكان منه (يشوع) بن فون عليه السلام ، والقاضي (عبدون) الذي حكم بني اسرائيل ، ثم كان منهم النبي (صموئيل) ، كأكثر ملوك اسرائيل في المملكة الشمالية التي عاصمتها (نابلس) . ومن إتمام النعمة على فخذ (أفرايم) أن التابوت كان في إحدى مدنه وهي (سيلون) ، فقد بقيت فيها الخيمة (٣٠٠) سنة .

وأما سبط (بنيامين) فكان منهم القاضي (أهود) الذي حكم بني اسرائيل ، ثم كان منهم طالوت (شاؤل) أول ملك لبني اسرائيل .

وكل ما ذكرته لكم حكم مقتبس من (المهد الصيق) و (السنن القويم) وقاموس (بوست) و (معجم البلدان) .

وقبل أن أختم مقالي هذا أرجوكم أن تسمحوا لي بكلمتين خطرنا على فكري الآن فوق هذا المنبر :

أما الكلمة الأولى فهي أنه يتبين مما قدمنا أن نعمة الله تمت على شخص يوسف

وعلى سلالة المنسيين والأفرايميين وأما إخوته الأحد عشر فالنعمة إنعامت على سلالهم ، لا على أشخاصهم ، وهذه هي الحكمة فيما يظهر لنا في أن يعقوب قال ليوسف : ﴿ وَبِئْسَ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَعَلَى آلِ يَعْقُوبَ ﴾ . فالنعمة تمت على شخص يوسف ثم تمت على سلال يعقوب ومنهم سلالتا يوسف .

والكلمة الثانية — هي أنه لم يقل : (وعلى يعقوب) بل أقحم لفظ (آل) ، مع أن الله تعالى كما أتم نعمته على شخص إبراهيم وإسحاق فقد أتمها كذلك على شخص يعقوب ، نعم أتمها عليه بالنبوة والرسالة والبركة والسيرة الحسنة — لكنه لم يقل ذلك تنزلاً وتواضعاً وهضماً لشخصه ، وتقصياً عن تزكية النفس بالقول ، كما قال تعالى : ﴿ فَلَا تُزَرَ كُفُورًا أُنْفُسُكُمْ ، هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ اتَّقَى ﴾ (٥٣ : ٣٢) ، وقال تعالى : ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ بَزَّ كُفُورًا أَنْفُسَهُمْ ؟ ... بَلْ اللَّهُ يُبْزِ كُفُورًا مَنِ يَشَاءُ ، وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا ﴾ (٤٨ : ٤) هذا ما أردت أن أختم به خطابي ، والله أعلم .

(مرحي)

(كما أتمها ... الخ)

- ١ -

قال الفاضل النابلسي :

النعم التي أتمها الله على إبراهيم وإسحاق

تعلون أن الله أتم نعمته على « إبراهيم » بنجاته من نار الكلدانيين ، وخروجه من دائرة الذل والاضطهاد أرض العراق ، إلى بلاد الشام بلاد المزم والحريفة والاحترام . — إلى آخر ما لاقاه في سوريا وفلسطين من الراحة والاطمئنان هذا كله بعد أن

كان نبياً ورسولاً وخليلاً للرحمن ، وبذلك صار مقدساً بلسان البوذيين والزردهشتيين ووثني العرب وطبعاً عند اليهود فالنصارى فالاسلام ، لا يذكر عند كل هؤلاء الا ويشكر ، وأكثر الأنبياء من سلالته ، وبذلك صار مباركاً عليه في العالمين : حتى صرنا نقول — نحن الاسلام — ولا نزال نقول « اللهم صل على محمد وعلى آل محمد ، كما صليت على إبراهيم وعلى آل إبراهيم ، وبارك على محمد وعلى آل محمد ، كما باركت على إبراهيم وعلى آل إبراهيم في العالمين ، إنك حميد مجيد » . نكرر هذه الصلاة الابراهيمية في صلواتنا في اليوم والليلة ربما أكثر من أربعين مرة ، يكررها كذلك نحو أربعائه مليون مسلم بكل ضراعة وحرارة ..

وتعلمون أن الله أتم نعمته على (إسحاق) بكونه ابن ساراي السيدة المحبوبة ، ثم بالنبوة والرسالة ، وكفى .

فيعقوب كان يتوقع لابنه يوسف مستقبلاً ذا شأن ، وكان على بينة من أنه سيرتقى رقياً محسوساً باهراً ، وأن التاريخ سيسجل ليوسف الصديق ولآل يعقوب . ذكراً حسناً ، كما سجل ذلك لإبراهيم واسحاق ، وإن اسمه سيكون جليلاً ، وسيحفظ له التاريخ ذكريات فخمة عليه وعلى آبائه الصلاة والسلام .

(ان ربك علم حكيم)

- ١ -

وقال العلامة الدوماني (١) :

علم الله وحكته

إن الله سبحانه وتعالى « علم » بذات الصدور ، وعن هو أهل لإتمام النعمة .

(١) نسبة الى بلدة دوما قسبة قرب دمشق (سورية) .

عليه ، كما هو عليم بكل شيء وكل دقيق وجليل ، حتى لو وقفت بعوضة على طرف سفينة عظيمة فإنها تثقلها وتميلها حقيقة ، والله يعلم ذلك تماماً ، وإن لم تدرك ذلك مشاعرنا ، فسبحان من يعلم ويسمع ديبب النملة السوداء ، في الليلة الظلماء ، على الصخرة الصماء ، ويرحم الله الإمام الزمخشري حيث يقول :

يا من يرى من البعوض جناحها

في ظلمة الليل البهيم الأليل

ويرى مناط عروقها في نحرها

والمخ في تلك العظام النحَّل (١)

امن علي بتوبة تحو بها

ما كان مني في الزمان الأول

وإنه تعالى « حكيم » يضع كل شيء في موضعه ، وإن دائرة فضله مرنة تسع

كُل من أهل نفسه للفضيلة..

الفصل الرابع

الحكم والعبر في قصة يوسف

آ (٧) ﴿ لَقَدْ كَانَ فِي يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِ آيَاتٍ لِلسَّائِلِينَ ﴾

افتتحت الجلسة وتليت الآية الغابرة فقام مولانا الناصر التونسي وقال :

يقول الله : بذاتي حلفت (لقد كان في يوسف) عليه السلام وهو الحزب

(١) البهيم الأليل : الشديد السواد ، المناط : المربط ، النحر : الرقة ، النحل : الضعيفة .

الراقي ، (وإخوته) أصلحهم الله ، وهم الحزب المعارض ، أي لقد كان لمن تتبع حوادثهم معه ، وحوادثه معهم ، مع التأمل في أسبابها ونتائجها ، (آيات) أي حكم وعظات وعجائب وعبر ، كما سيقول « لقد كان في قصصهم عبرة لأولي الألباب » ، (ع : ١١١) وذلك من حين أن رأى أحلامه فحسدوه ، إلى أن سكنوا في شرقية مصر تحت رعايته ، وما تخلل ما بين هذين الطرفين من الماجريات النادرة المثال ، والمراد من لفظ (إخوته) عموم الاخوة المناوئين له المتألمين عليه ، والمحبين له الذين عنه .

وفي الحقيقة إن الآيات كانت في يوسف وإخوته وأبيه والسيارة وعزيز مصر وامرأة العزيز ، وفي الشاهد من أهلها ، والسيدات المصريات ، والفتين الساقى والنجاز ، ومليك مصر الريان ، والملأ الذين استفهام فلم يفتوه ، وفي أحفاد يعقوب ، وفي خدمة يوسف لأرباب الحكومة في تلك العصور ، و ... و ... الخ ، ولكن الله سبحانه اقتصر على « يوسف وإخوته » لأنهم موضوع القصة ، ومحور السيرة ، وما سواهم فهو مذكور بالمناسبة والعرض ، فقصة يوسف كتاب مفتوح ، ذو أبواب وفصول وذبول وحواش ، ولكن أهم ما في هذا الكتاب « يوسف وإخوته » .

جعل الله سبحانه هذه السورة الشريفة علة من الملل ، التي يُظهر فيها حكمه ووسيلة من الوسائل ، التي يرشد الناس بها للعبرة والمِظة فعلى الرجل الرشيد العاقل أن يقرأ هذه السورة ليس لما فيها من التاريخ فحسب بل لما حوته من العظات والعبر ، وما اشتملت عليه من الحكمة والأدب .

إن أول ما ينبغي لمن قرأ هذه السورة أو استمع لها ، أن يعرف وجوه العبر التي نزلت لأجلها ، ويتعلم رموز الحكم التي رُمِزت فيها ، والغاية التي أراد الله تعالى

من سرد مواضعها ، ولعمري إن القاريء لهذه السورة إذا لم يفعل ذلك لم يدر ما أريد بتلك المعاني ، ولا أي ثمرة يجتني منها ، ولا أي نتيجة روحية تحصل له من تعاليم هذه السورة ، وإنه إن كانت غايته من هذه السورة التلذذ بقراءتها والبلوغ إلى آخرها ، دون تفهم ما بقراً منها ، وبلا تفكر في عبرها وحكمها ، فلا ريب أنه لا يعود عليه شيء يرجع إليه نفعه في تأديبه وتكيله ، ووقوفه على عجائب التدابير والألطف الإلهية ، وباهر الحكم الربانية ويكون مثله كمثل رجل قدّم له لوز صحيح فلا بد أن يكسره ويستخرج ما فيه ، لكي ينتفع منه النفع العظيم ، وإلا لم ينتفع إلا بالتمتع برؤية قشره الذي هو ظرف للبه .

ينبغي لقاريء هذه السورة الكريمة أن لا تكون غايته معرفة معاني المفردات فقط ، ولا الوقوف على السيرة كقصة تاريخية فحسب ، ولا استفادة النكت التي تذكر في علم البلاغة فقدّ ، فإن هذه الأمور وإن كانت مهمة في ذاتها ، لكن هناك ما هو أهم منها جداً ، وذلك كما قلنا هو الإشراف على ماتضمنته هذه السورة من الأمثال وعجيب التدبير الإلهي ، والمسائل الإجماعية ، والعبر الربانية ، فيقف القاريء عند كل مثل وجملة وكلمة وحرف من حروف المعاني ، ومقدمة ونتيجة ، وتأصيل وتفريع ، وقاعدة كونية ، وتطور مدهش ، وانقلاب سريع .

يجب على قاريء هذه السورة الكريمة أو سامعها أن يلتمس جواهر معانيها ، ويلتمس درر مراميها ومغازيها ، ولا يظن أن نتيجتها هي الإخبار عن حيلة إخوة يوسف حتى أخذوه ، أو مغازلة السيدات المصريات ليوسف وجماله ، أو محاورة الجنود المصريين لإخوته حين اتهموا بأخذ الصواع ، أو بغير ذلك ، فينصرف بهذا عن الغرض المقصود ويكون مثله مثل الغواص في البحر الذي كان يلتقط الجواهر ذات القيمة ، فرأى في عقيق الماء سمكة ، فترك الصدف الذي فيه الدر الثمين ،

وقذف نفسه في اللجة التي فيها السمكة ، فاشتغل بصيدها عن التقاط الجواهر ، كأنه نسيها أو تناساها أو جهل أنها تساوي أموالاً كثيرة، وكذلك الأغرار الذين يجمدون عند الفاظ هذه السورة وظواهرها ويففلون أمر التفكير فيما شملته من الحكيم والعبر وما تضمنته من الاجتماعيات وتطور الحوادث، وأسرار ذلك وأسبابه.

(حسن)

(لقد كان ... الخ)

- ٢ -

قال اخونا التقي البخاري (١) :

التفكير والاعتبار حال قراءة القرآن

وهكذا سائر قصص الأنبياء التي اقتصها علينا القرآن الكريم كسائر ما فيه من حوادث الصالحين والطلحين ، والمصلحين والمفسدين ، والجبارة والمستكبرين ، وما الى ذلك مما أملاه الله علينا في كتابه المجيد ، فكم في ذلك من عبر وذكرا ، وكم فيها من فوائد وعوائد ، ولقد كنا فيما مضى نأسف جد الأسف للجمهور من أهل الاسلام الذين كانوا لا يعنون بالتفكير والاعتبار ، حال قراءة القرآن ، ولا يتأملون في مراميه ومواعظه ، حتى يقيسوا حاضرهم على ماضي غيرهم ، ولكننا اليوم نرى - والحمد لله - أنه قد نفخت روح جديدة في جمهور المصريين ، فطفقوا يقرأون كتاب الله بتدبر وإمعان ، جديرين بالثناء والشكران ، مما يبشرنا بحسن مستقبل الاسلام ، وسيرهم الى الأمام .

(١) نسبة الى بخارى من بلاد التركستان

وإذا كان في المسلمين اليوم قوم لا يعبأون بالتفكير والتدبر حال قراءة القرآن الكريم ، وقوم يعنون بذلك ويهتمون له كثيراً — فليس ذلك إلا لأن فينا رجالاً قد اهدوا الى سواء الصراط ، وآخرين لم يظفروا من ذلك الا بحظ قليل. وانتشار العلم الصحيح في أهل الاسلام في هذا العصر ، وازدياد انتشاره من يوم لآخر ، واتجاه الجهود الفردية والجماعية الى التنوير والتفكير — كل ذلك سيقضي غداً أو بعد غدٍ بأن يكون المستقبل للقرآن وأهل القرآن ، وما ذلك على الله بعزيز .
(اطال الله بقاءك)

(واخوته ...)

- ١ -

قال الفاضل الاستانبولي (١) :

القرآن يكتفي بذكر المهم من الحوادث التاريخية

لي هنا كلمة وهي ربما يقول قائل : إنا نرى كتب اليهود التي يسمون مجموعتها « العهد المتيق » تذكر أسماء الرجال والنساء والزوجات والصبيان والبنات ، وتأتي على أسماء المواضع التي حدثت فيها الحوادث ، وربما تعرضت لذكر زمانها ، فما بالناس نرى القرآن الكريم لا يأتي على مثل هذه التفصيلات أو على ما يقرب منها ؟ هذا سؤال طالما شغف بذكره دعاة النصرانية في الانتقاد على كتابنا الحكيم .

وأما نحن فنجيب عنه بجوابين :

الجواب الأول — إن حوادث الأسباط الأقدمين ، وما جريات الآباء الأولين

(١) نسبة الى استانبول من بلاد الترك

— إنما تم بالدرجة الأولى سلاطهم اليهود ، فلذلك عني في توراتهم بذكر كل جزئية من جزئيات أخبارهم ، فذلك يهمهم كثيراً ، ويلذ لهم جداً ، ويشتاقون إليه أيما اشتياق ، بخلاف العرب وما إليهم من العناصر ممن لم يكونوا يهوداً ، فلا يهمهم من هذه الحوادث إلا ما كان جوهرياً منها ، هو الروح ، وهو محل الاستشهاد وأما ما عدا ذلك فلا لزوم للتطويل بذكره ، سيما وقد طال عليه الأمد ، وانهم من عنصر غير عنصر العرب ، فالتوراة تضع تواريخ الآباء ليقرأها أبناءهم اليهود ، وهؤلاء الأبناء متشوقون متشوقون الى سيرة أسلافهم ، حتى لمعرفة أسمائهم وأسماء أولادهم ، فهذا النوع من البيان ربما كان فيه شيء من الأهمية بالنسبة لليهود ، ولكنه بالنسبة للعرب وبقي العناصر فليس مهاباً ، إنما المهم الوقوف على ما فيه من الجوهر والروح ، وهذا هو أسلوب القرآن الكريم .

الجواب الثاني — إن السفر الذي بيد اليهود اليوم المدعوه «توراة» أو «عهداً عتيقاً» هو تاريخ كباقي تواريخ العالم يجمع الغث ، والسمين ، ويذكر المهم وغير المهم ، ويأتي على ما فيه فائدة روحية وعلى ما ليس فيه ذلك ، بل يذكر ما يعود بالضرر على القاريء — على شرفه ودينه ومروءته وعرضه — حتى أنه ليذكر حوادث زنا الأنبياء (حاشاهم) وزنا أبناء الأنبياء وبناتهم — على قوله — وحتى انه ليذكر سكرهم وكذبهم وختلهم ، وحتى انه ليذكر ، انهم قوادون على نسائهم الى آخر ما تقشع منه الجلود ، وتبرأ منه الانسانية!!! كأنها تفعل هذا كباقي المؤرخين الذين يذكرون في أسفارهم كل ما هب ودرج ، ومن كل ما بين السماء والماء ، وأما القرآن المجيد فليس تاريخاً ينبني أن يذكر فيه جميع أسماء الأزمنة والأمكنة والأشخاص الذين لهم تعلق بالسيرة التاريخية ، أعني أن القرآن إذا ذكر نبذة من التاريخ فلا يذكرها على أنها تاريخ حتى يجب عليه أن يلتزم ذكر هذه الأشياء

تفصيلاً ، وإنما يذكر ذلك لأجل العبرة والقياس كما سيأتي قوله : « لقد كان في قَصَصِهِمْ عِبْرَةً لِّأُولِي الْأَلْبَابِ » (ع : ١١١) ، أو بيان سنن الاجتماع كما قال : ﴿ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُمْ سُنَنٌ ، فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ ، فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكذِّبِينَ ﴾ (٣ : ١٣٧) ، أو للهداية والعظة كما قال : ﴿ هَذَا يَاقُومُ لِلنَّاسِ وَهَدًى وَمَوْعِظَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ ﴾ (٣ : ١٣٨) ، أو للتذكير كما قال : ﴿ إِنَّ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّذِكْرَىٰ لِلذَّاكِرِينَ ﴾ (٦ : ٩٠) ، الى غير ذلك من المقاصد الدينية ، فالقرآن لا يذكر شيئاً من التاريخ إلا لذلك ونحوه ، فلا يذكر قصة ليسان حدوثها ولا لأجل التفكه بها ، أو الإحاطة بتفاصيلها وجزئياتها ، وربما اكتفى القرآن بموضع العبرة ومحل الذكرى ، ولا يأتي بها مفصلة بجزئياتها التي لا تزيد في العبرة ، بل ربما تشغل عنها .

وقد اهتدى بعض المؤرخين الراقين في هذه الأزمنة الى الاقتداء بهذه الطريقة فصار أهل المنزلة العالية منهم يذكرون من وقائع التاريخ ما يستنبطون من الاحكام الاجتماعية ، وهي الأمور الكلية ولا يحفلون بالجزئيات ، لما يقع فيها منه الخلاف الذي يذهب بالثقة ، ولما في قراءتها من الاسراف في الزمن ، والاضاعة للعمر بغير فائدة توازيه ، وبهذه الطريقة يمكن إيداع ما عرف من تاريخ العالم في مجلد واحد يوثق به ويستفاد منه ، فلا يكون عرضة للتكذيب والطمع ، كما هو الشأن في المصنفات التي تستقصي الوقائع الجزئية مفصلة تفصيلاً .

إن محاولة جعل قَصَصِ القرآن ككتب التاريخ بإدخال ما يروون فيها على انه بيان لها — هي مخالفة لسنته ، وصرف للقلوب عن موعظته وإضاعة لمقصده وحكمته ، فالواجب أن نفهم ما فيه ، ونعميل أفكارنا في استخراج العبر منه ونزرع نفوسنا عما ذمّه وقبحه ، ونحملها على التحطّي بما استحسنته ومدحه .

وجملة القول ان طريقة القرآن في قَصَصَ الذين خَلَوْا هي منتهى الحكمة التي اهتدى إليها المؤرخون الراقون ، وما كان لمحمد الأُمِّي الناشيء في تلك الجاهلية الأُمِّية أن يرتقي إليها بفكره ، وقد جهلها الحكماء في عصره وقبل عصره ، ولكن ذلك وحي يوحى ، وتعليم من الله يُقْتَفَى .
(مرحى)

(واخوته ...)

- ٢ -

قال السيد البصري :

سلامة قلب الاناث وبعدهن عن حسد أقاربهم

نعلم من التاريخ أنه كان ليعقوب بنت اسمها « دينة » من زوجته « ليثة » ولدت بعد إختوتها الأشقاء الستة ، فهي أخت يوسف لأبيه ، ولكن ليس لهذه الأخت مشاركة في حسد يوسف والكيد له ، ولم يذكر عنها أقل انتقاد على أبيها من هذا القبيل .

ونعلم أيضاً من التاريخ أن ليعقوب من الحفدة الإناث « سارح » وهي بنت ابن « أشير » ولكن هذه أيضاً لم يخبرنا التاريخ أن لها دخلاً في الانتقاد على جدها مع أحفاده الذكور حينما قالوا له : « تالله إنَّكَ لَفِي ضَلَالِكَ الْقَدِيمِ » — الأمر الذي نستنتج منه سلامة قلب الإناث مطلقاً من أخوات وبنات أخ ، وشدة بعدهن عن حسد وعداء أقاربهن على كل حال ، شأن النساء عموماً في ميلهن للطف والحب ورقة العاطفة ، هذه كلتي المختصرة والسلام عليكم .

(آيات)

- ١ -

قال مولانا النجفي (١) :

العبر المتضمنة قصة يوسف

في قصة يوسف وإخوته عيبرٌ وعِظَاتٌ تقطع أعناق الإبل للوقوف عليها ،
وإليكم بعضها :

١ - إنه قد يقع بين الإخوة من المراء مثل ما يقع بين الأجانب بل أشد وأشد .
٢ - تمدد الزوجات قد يفضي للنزاع والتحاسد بين الضرّات فتسري عدوى ذلك لأبنائهم .

٣ - إنه قد تجتمع الجماعة الجماء الغفيرة ولو أقارب على الحاق الضرر والكيد
لذي قربان ولو أخاً صغيراً !!

٤ - إن الحسد قد يكون على مجرد الحب ، وهو غريب (حتى على الحب
لا أخلو من الحسد) فكيف لو كان مشفوعاً بمساعدات مادية وتخصيصات مالية ؟!

٥ - إن الأب مهما احتاط في حفظ ولده من الحسدة فمن الممكن مع الاحتياط
أن يقتاله الحاسدون وبضره الضارون .

٦ - إنه كما تقع المداوات والأضرار بين أولاد غير الأنبياء فكذا تقع بين
أولاد الأنبياء وسلائل الأولياء وذراري ذوي البيوتات المأجدة .

(١) نسبة إلى النجف الأشرف من بلاد العراق .

٧ - إن المحسود وإن لحقه في البدء ضرر وأذى فربما ستكون العاقبة في مصلحته وإنه سوف ينتصر على أعدائه ومقاوميه .

٨ - إنه ينبغي للمحسود أن يعفو عند المقدرة ، وليس هذا فقط بل يحسن منه أن يقابل السيئة بالحسنة ، والحرمان بالمطاء .

٩ - إنه لا بأس للمكيد إذا قوي أن يشذب شوكة كائديه خوفاً من إعادة الكرة ثاني مرة .

١٠ - إن من اتقى ارتقى ، ولو خاصمه كل أهل الشقاء ، كما قيل: (كن مع الله ولا تنبالي) .

١١ - إنه متى تقاربت طباع جماعة أنس بعضهم ببعض وتحابوا ، وكانوا حزباً وحراباً على من ليس من مسلكتهم ، فهؤلاء الأخوة المشرة لنا اتفقوا في الصفات اتفقوا على كراهة يوسف الذي هو (أمة وحده) فضلاً ولطفاً وأدباً وكالاً .

١٢ - إن الفاضل الخبير قد ينخدع بحيلة أهل الدهاء كما جرى على يعقوب من أولاده !

١٣ - إن الإخوة قد تختلف أحوالهم مع اتحاد الأصل الذي ينتسبون إليه واتحاد الخوالة والبيئة البيتية والوطنية .

أبوك أبي والأصل لا شك واحد

ولكننا صنوان ورد وخروج

فيوسف وإخوته كانوا كما قال أبو الطيب :

تفرقهم وإياه السجايا ويجمعهم وإياه التجار (١)

(١) التجار الاصل .

- ١٤ - الانسان الكامل مها اغتورته الفتن وأحاطت به المشتهيات فلا بد أن يتغلب عليها بكاله وعفاهه كما وقع ليوسف الصديق مع امرأة العزيز ثم النسوة المصريات.
- ١٥ - إنه متى كان الله مع الإنسان ، ارتفع من عقر البئر إلى رأس المأذنة وصعد من مقر الأسماك إلى منازل الأفلاك طفرة وخرقاً للمادة .
- ١٦ - إن أعمال يوسف تصدق القول بأن يوسف نبي ، وأعمال إخوته تصدق القول بعدم نبوتهم ، خلافاً للعوام .
- ١٧ - إنه لا يلزم أن يكون ابن النبي نبياً ، بل ولا يقتضي أن يكون ابن النبي تقياً ، ولكنه قد يتفق اتفاقاً .
- ١٨ - إن العبرة بالأواخر ، ولذلك سمي إخوة يوسف «كواكب» - مع العلم بما سيقع منهم - نظراً لعاقبة أمرهم وتوبتهم أخيراً وصلاحهم آخر أيامهم .
- ١٩ - عاقبة التقوى والصبر الفرج : ﴿ إِنَّهُ مِنْ يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ ﴾ (١٢٠ : ٩٠) .
- ٢٠ - كان مآل إخوة يوسف فترة بعد شرة ، وأناة بعد طيش ، وحلماً بعد نزق ، وفناء جماعة في فرد هو « يوسف » .

(آيات)

- ٣ -

قال الشيخ الموصلی (١) :

العبرة بعاقبة يوسف واخوته

لا أحد يجهل ما فعله إخوة يوسف من كيد ، وما دبروا من ختل وحيلة ،

(١) نسبة الى الموصل من بلاد العراق .

وكيف نصبوا له الجبائل ، وجاءوا على قميصه بدم كذب ، وسولت لهم أنفسهم
أمراً ، وألقوه في غيابة الجب ، فما كان عاقبته إلا أنه تربى في مصر ، وترعرع
وبلغ أشده ، ثم كان لإخوته من المحسنين .

هذه كانت قصة يوسف ، وذلك نبأ إخوته ، كان منهم الإساءة ومنه الاحسان
ومنهم الشر ومنه الخير ، وكان أول أمره عناء وآخره هناء ، ومبدأه ذل ،
ونهايته عز ، وعلى العكس كان حال إخوته ، كان مبدأهم الاستقلال وأخيراً
صاروا تحت سيطرته ، ذلك عبرة للمعتبرين ، وفيه آيات للسائلين .

تنبئك قصة يوسف مع إخوته بما يلاقيه ذوو الفضل من تعدى الجاهلين ، فما
في الأرض من فاضل إلا كان في أول أمره مطارداً منبوذاً من الأعداء ، تسطوا
عليه الأقرباء ، وتحط من قدره الأصدقاء ، وتهينه الأولياء ، استغراباً لقوله ،
واستهجاناً لعمله ، وخطأ من شأنه ، وحسداً على ما آتاه الله من فضله ، وإجباطاً
لأمله ، وتشنيعاً عليه ، واستهزاءً بما لديه ، فان صبر فاز ، وإن جزع ياد ، تعجب
كيف كانت حال يوسف الصديق ، يبيع للمصريين ، وترعرع في بيت العزيز ، ثم
حافت به الفتنة ، وصبر على الظلم والسجن ، ولم يدر ظالموه أن السعد سيخدمه ،
وأن راية العز ستخفق فوق رأسه ، وأنه سيقبض على ناصية البلاد ، وتدين له
العباد ، ويساعده الزمان ، وينسج على ما قاساه عناكب النسيان .

ذلك مثل الصادقين القائمين بالأعمال الشريفة ، فليبشر اولئك الذين صدقت
نياتهم ، وحسنت أعمالهم ، وأخلصوا لأمتهم ، فسوف يُبدل شقاؤهم راحة ،
وذلمهم عزاً وسعادة ، هذا هو ناموس الوجود ، لم يشذ منه نبي مرسل ، ولا عالم
فاضل ، وكانت العاقبة للمتقين ، ولقد كان لنا في رسول الله (ﷺ) أسوة حسنة
فلقد أوذى كما أوذى يوسف الصديق ، وما آذاه إلا أقرباؤه الأذنون ، وما تألب
عليه سوى قريش ، ثم نصره الله كما نصر يوسف ، وآوى إليه من كان يؤذيه

كأبي سفيان وزوجه هند ، وغيرهما من عليّة القوم وسراتهم وعظماهم ، فأصبحوا له خاضعين ، كما خسر إخوة يوسف له ساجدين ، آمننا بناموس الله وكتابه الكريم .

(للسائلين)

- ١ -

قال الاستاذ الحلبي :

تخصيص الفائدة بمن يبعث عنها

للسائلين — أي لمن يسأل ويهيمه الوقوف على الحوادث التاريخية وعواقبها، ويبنى بفرائب الأعمال وتأثيرها .

للسائلين — الذين يستحثون الأخبار ، ويستطلعون الوقائع ، ويتطلبون الوقوف على الحوادث .

للسائلين — الذين يسألون الرواة ، وأهل الذكّر ، ويسألون التاريخ الذي سجل سيرتهم ، وحفظ لنا ترجمة حياتهم وأعمالهم .

للسائلين -- الذين يهيمهم الوقوف على العبر والمظان ، وتهيمهم الاستفادة من القصص والأمثالات .

للسائلين — الذين يتأملون في أسباب حوادثهم وتأثيرها ، والوقوف على القواعد الاجتماعية ، والفوائد التاريخية .

للسائلين — الذين يحرصون على العلم والتعلم ويبحثون عما مجهولونه جأمنهم في العلم والمعرفة ، فهم الذين يتبرون بعواقب الأمور التي تدل عليها أوائلها ومقدماتها

(إذ قالوا . . الخ)

- ١ -

وقال الاستاذ الصيداوي :

مفاوضة الاخوة في شأن يوسف

لقد تم الكلام أيها السادة على يوسف وحلمه ، ويعقوب وبشارته لابنه ،
والآن نشرع في المفاوضة التي تبودلت بين إخوة يوسف في شأنه :

اجتمع إخوة يوسف العشرة ، وقد ظهرت على وجوههم علامات الاهتمام
بمازجها الانتقاد المر على أبيهم الكريم ، تذاكروا في حال والدم مع عموم أولاده
واضطراب جو معاملته لهم ، وعدم مساواته بينهم في التوجه والمِقة ، فاستشاطوا
غيطاً ، وأضعف بعضهم بعضاً على أبيهم ، عقدوا مجلساً تأمروا فيه وتشاوروا
متذمرين من أبيهم ، محرقين أَسنانهم ، قائلين لتحدث هنا بهدوء وسكينة عن هذا
العطف الأبوي لأخويننا الصغيرين خاصة ، إن يوسف وبنيامين أقرب الى قلب أينا
منا ، وأفضل عنده من جميعنا ، فلا نرى فيه شيئاً من روح المساواة بين الأولاد ،
تقول ذلك ، والأسف ملء أفئدتنا ، لأنه يجب على كل أب أن يساوي بين أولاده
في المحبة ، في الأعمال ، في التوجه ، في الالتفات ، في التملك ، في التعلیم ، في
الراحة ، وفي كل موجبات السرور ، فأبونا - مع احترامنا للشخصه - هو غلطان ،
ولذلك لم يبق لنا صبر على السكوت عن هذا الأمر الإِدّ ، كيف وهو يحمل بين
جنبه قلباً خلواً من الانصاف والعدالة التي تنبغي للأولاد من والديهم . قالوا ذلك

على طريق المسارّة بصوت منخفض ، لئلا يسمعون أحد من الرعاة الذين كانوا معهم ، وههنا تذكر قول أبي الأسود الدؤلي :

حسدوا الفتى إذ لم ينالوا سعيه	فالكل أعداء له وخصوم
وترى اللبيب مُحَسِّدًا لم يجترم	شتم الرجال وعرضه مشتوم
وكذلك من عظمت عليه نعمة	حُسَّاده سيف عليه صروم

(إذ قالوا . . الخ)

- ٢ -

وقال الفاضل الطرابلسي :

سبب عداة اخوة يوسف له ولأخيه بنيامين

كان يوسف تعزية ليعقوب في أواخر أيامه ، سيما بعد موت راحيل ، سيما وأبوه . يعلم أنه سيصير له مستقبل ذو شأن ، وكان بنيامين صغيراً لطيفاً ابن عشر سنين ، فبالطبع كان محبوباً جداً لأبيه ، ولهذا كان يوسف أيضاً يحبه حباً جماً ، فكان يعقوب يحب يوسف حباً زائداً لهذا الوجه أيضاً كما قيل (حبيب الى قلبي حبيب حبيبي) ، فكنت لو فتشت قلب يعقوب لم تجد فيه بمدخالقه سوى يوسف ، فكان آثر عنده من إخوته ، وكان يظهر من أبيه أنه هو موضع الآمال ووجهة الأمان ، وانه أنيس وحشته ، وصمير وحدته ، وعماد حياته ، وانه هو كل أمله . ورجائه في هذا العالم ، وانه الزهرة اليانعة في روض أولاده ، والابتسامة اللامعة في ثمر آماله ، والفجر المشرق في سماء عيشته ، وكانت أعمال يعقوب وأقواله مظهراً لذلك كله ، هذا هو حب يعقوب ليوسف ، وليس هو مجرد أنه كان يضمه .

ويشمه ، كما اقتصر بعض المفسرين ، فما أضعف الحب اذا كان كله عبارة عن مجرد الضم والشم ، كما أنه ليس هو مجرد أن يعقوب عمل لابنه قيداً ملوناً ، كما اقتصر عليه آخرون ، ولكن حب يعقوب لابنه حباً كثيراً لا مزيد عليه ظهر في مظاهر عديدة مما أتينا عليه ونحوه ، وأما حب يعقوب لبنيامين فلأنه أصغر أبنائه جميعاً . ولأنه ابن زوجه راحيل المحبوبة ، فلذلك كان يوسف وبنيامين تحت جناح أبيها وكانا كريمين عليه ، ولذا هاج اخوتها عليها وماجوا ، وقالوا : ما هو البرر لهذا الانعطاف الخصوصي نحو هذين الولدين ؟ فهل هذا انصاف وعدالة بين الأولاد ؟ وهل هو جار مجرى المساواة المطلوبة ؟ . . اللهم كلا . . فاذاً ﴿ إن أبانا لفي ضلال مبين ﴾ لأنه فضل المفضول علينا نحن الفاضلين على الأقوياء ، وخص بمطفه الاثنين دون الجماعة . هذا مرمى مقاتلهم ، وهكذا نحتوا أثلة أبيهم ، ولمررى لقد أصبحوا بهذا الحكم الجائر في ضلال أبين من مبين ، وأظهر من الشمس في رابعة النهار .

ولقد كنا نتوقع من هؤلاء الاخوة أن ينسجوا على منوال أبيهم في شدة المحبة منهم لأخويهم ، اقتداءً بذلك الوالد الكريم ، الذي ما عمل إلا ما رضي الله والضمير ، ولكننا رأينا منهم عكس ذلك ، وكنا نتوقع أن يكون بين هؤلاء الاخوة وفاق ، يكون من ورائه راحة عيشه لأبيهم ، ولكن رأينا عكس ذلك ، وكنا نتوقع من هؤلاء الاخوة العشرة أن يربأوا بأنفسهم عن حسد يوسف وأخيه لأنها صغيران ، وهم كبار السن ، ربما كان للواحد منهم في ذلك الوقت ، ولد أكبر من يوسف أو بنيامين فكان ينبغي أن يكون حالهم أرفع من هذا الحال ، ولكن رأينا عكس ذلك ، وكنا نتوقع من هؤلاء العصابة ، أن يكونوا متواضعين وديمين ، وإذا افتخروا ولا بد افتخروا بأدابهم وكاملهم ، لا بالقوة والشدة . ورحم الله أبانواس حيث يقول :

عجبت للانسان في كبره وهو غداً في قبره يقبر

مابال من أوله نطفة وجيفة آخره يفخر
أصبح لا يملك تقديم ما يرجو ولا تأخير ما يحذر

ولله في ذلك حكمة ، وله في خلقه شؤون : ﴿ وكذلك فَتَنَّا بَعْضَهُم بِبَعْضٍ ، لِيَقُولُوا : أَهَؤُلَاءِ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنْ بَيْنِنَا ؟ ، أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِالشَّاكِرِينَ ؟ ﴾ (٦ : ٥٣) .

(إذ قالوا .. الح)

— ٣ —

وقال الشيخ محمود الخليلي (١) :

اسباب عداة الاخوة المهمة ليوسف

كانت إخوة يوسف على جانب عظيم من بغضه والنفرة منه وعدائه ، ويرجع ذلك لأسباب شتى نجملها فيما يلي :

- ١ - زيادة محبة أبيه له وتفضيله إياه .
- ٢ - كونه ابن راحيل الجميلة المحبوبة الحظية عند زوجها .
- ٣ - اختلاف الطباع بينهم وبين أخيهم ، فيوسف كان روحياً ميالاً للمعنويات ، وهم كانوا جسديين ميالين للماديات ، فلم تأتلف طبيعة الطرفين بل كانت مختلفة أيما اختلاف .

(١) نسبة إلى الخليل من فلسطين .

٤ - إنه كان لا يكلف عملاً ما ، بخلافهم فقد كانوا يعانون رعى الأغنام .

٥ - العداة الذي كان بين ليثة وضرثها أختها راحيل ، فكانت الأولى مغلوبة مكسورة الجناح لمرض في عينيها ، بخلاف الثانية فكانت منتصرة عليها لجمالها ولأنها الصغرى ولأنها هي التي أول ما لحظها سيدنا يعقوب عليه السلام عند البئر .

أتى حبا من قبل أن أعرف الهوى

فصادف قلباً خالياً فتمكنا

ولأنها هي التي كان يعقوب خطبها أولاً من أبيها ، ولكنه أدخله على ليثة بدلاً منها — على ذمة التوراة — فالتحاصة إنه لأسباب نسائية انعقدت العداوة بين الأختين الضرتين ، فانتقلت بطريق السراية والمدوى إلى الأولاد .

٦ - كانوا يتخيلون إن يوسف يترفع عليهم ، فكانوا يظنون إنه استمد هذه القوة من محبة أبيه إياه .

٧ - أحلام يوسف التي كانت تزعمهم وتذيب لغائف قلوبهم ، إذ كان يوسف

رأى رؤياه الأولى فذكرها لإخوته ، فقال له إخوته : « أَلَمْ تَكْ تَصِيرْ عَلَيْنَا مَلِكًا ، أَوْ عَلَى الْأَقْلِ يَكُونُ لَكَ عَلَيْنَا سُلْطَةٌ » واذدادو بفضاً له من أجل حلمه هذا ومن أجل كلامه ، ثم رأى رؤياه الثانية التي هي أبلغ من أختها . فذكرها لأبيه فقط ، ولكن الرؤيا فيما بعد بلغت أسماعهم ، ثم لا بد أيضاً أن يكون قد نَحِيَّ اليهم ما قاله أبوهم لأخيه من البشائر المستقبلية ، فلهذا مع ما كان يبدو من إمارات ظاهرة ودلائل ناطقة ، على كثرة حبه له ، تفاقم الأمر لديهم ، واستشرى عداؤهم ليوسف ، وبلغ السيل الزبى واعتقدوا أن أباهم التهم حقوقهم النبوية ، فقالوا عن يوسف وسَوْغِهِ : إن هذين الولدين لا يزالان عثرة في طريقنا إلى اكتساب

توجه أينا أينا ، وبنوع خاص يوسف ، فانه هو العلة الوحيدة لرغبة أينا عنا ،
فحقاً إن يوسف هو الجدير بالمجازاة ، لأنه السبب الوحيد في ذلك ، وهو أيضاً
الذي لا يزال يكثرنا باحلامه ، وبياهينا بأوهامه .

وتابع الشيخ الخليلي كلامه قائلاً :

تفنيد عداة اخوة يوسف له

هذه هي أهم الأسباب التي حدثت بهم الى كره أخيه ، ثم انتقاد أبيهم ، ولعمري
إنهم يخطئون في ذلك ، لأن أخاهم كان في سن لا ينبغي معها توجيه الكراهة اليه ،
ولأن أباهم في الحقيقة لم يجب شخص يوسف فقط لأنه يوسف ولأنه مركب من
لحم وعظم ، ولكنه أحب من ستسجد له الكواكب الأحد عشر والشمس والقمر ،
أحب من سجدت الحزُم الأحد عشر لحزُمته في الحقل ، أحب الذي سيجتبيه
ربه ، ويعلمه من تأويل الأحاديث ، أحب من سيم الله نعمته عليه ، كما أتمها على
ابراهيم وإسحق ، ، فيمقوب أحب هذه المعاني السامية والمواعيد الجيدة ، التي
سينكون يوسف مظهراً لها ، فبه إنما هو ليوسف في تلك المواعيد ، أو لتلك
المواعيد في يوسف . نعم . نعم يوجد في فطرة البشر من التحاسد بين الأقرباء أكثر
كما يوجد بين الغرباء ، ويشد بين اثنين على نعمة كلما تقارب اقتدارها من نيلها ،
أو تشابهت أسبابها إليها ، ولذلك كان التحاسد على أشده بين أصحاب المهنة الواحدة ،
فإخوة يوسف ههنا وقع التحاسد والتراحم بينهم على نعمة هي اكتساب توجيه
أبيهم ، وكل منهم يعتقد أنه قادر على نيل هذه النعمة ، لأن السبب الذي حصل
عليه يوسف (فيما يعتقدون) حاصل عندهم أيضاً وما هذا السبب في اعتقادهم
سوى النبوة ، بل هم يظنون أنهم حاصلون على شيء آخر يقوي هذا السبب ويدعمه ،

وهو أنهم رجال أ كفاء أهل عمل ودفاع ، ولذلك تخيلوا أن أباهم غلط في أنه كان أشد احتفاظاً بيوسف ، حتى كان أ كرم ولده عليه ، كأنه واحد أيسه ، ليس له ولد غيره ، وإن هذا الأمر يقضي بالمعجب العجيب . هذه شبهتهم التي اتكأوا عليها ، وما دروا ان ماتصوره ليس هو السبب التام بل السبب التام هو المزاياب والخصائص التي كانت في شخص يوسف ، فهم غلطون أو مغالطون في قياس أنفسهم على أخيهم فهو قياس مع الفارق أو مع الفوارق ، هذا ما يحضرنى الآن ، فتأملوه برحم الله ، والسلام عليكم .

(اذ قالوا ليوسف واخوه .. الخ)

- ٤ -

قال تقي الدين المقدسي :

ضرر تعدد الزوجات

من أعظم أسباب عداة إخوة يوسف العشرة ليوسف وبنيامين اختلاف الأمهات (كما سبق أن أشار اليه بعض المحاضرين الأفاضل) مع ضميمة ان سيدنا يعقوب كان يحب راحيل أكثر من كل من سواها ، مع ضميمة أنه قد كان يوجد بين راحيل وبين ضرائرها الثلاثة لا سيما ليثة الحرّة من الحسد والغيرة ما هو مهبود اليوم بين سائر الضرات ، والتاريخ يعيد نفسه وليس تحت الشمس من جديد وما أشبه الليلة بالبارحة ، فلذلك انتقل العداة الذي بين راحيل وسواها ، وسرى للأبناء طبعاً ، وهذا المرض هو بعض ما يقاسيه الرجل الذي يتزوج أكثر من واحدة ، وهذا من بعض اسرار قوله تعالى : ﴿ فَإِنْ خِفْتُمْ أَنْ لَا تَعْدِلُوا

فَوَاحِدَةٌ ﴿٤ : ٣﴾ ، ثم قال : ﴿وَلَنْ تَسْتَطِيعُوا أَنْ تَعْدِلُوا بَيْنَ
النِّسَاءِ وَلَوْ حَرَصْتُمْ﴾ ﴿٤ : ١٢٨﴾ فالبيت الذي فيه زوجتان مثلاً لزوج
واحد لا تستقيم له حال ، ولا يقوم فيه نظام ، وقد ينتقل الضرر من كل ضرة
الى ولدها — الى والده — الى سائر أقاربه ، فهي تفري بينهم العداوة والبغضاء
الى هالآ نهاية له ولعبد العزيز الديريري :

زوجت اثنتين لفرط جهلي	وقد حاز البلي زوج اثنتين
فقلت أعيشُ بينها خروفاً	أنعمُ بينَ أكرمِ نعمتين
فجاء الأمر عكس الحال دوماً	عذاباً دائماً يلبتين
رضا هذي بحركِ سخط هذي	فما أخلو من احدي السخطتين
لهذي ليلة وتلك أخرى	تقار دائم في الليلتين
إذا ما شئت أن تحيا سعيداً	من الخيرات مملوء اليدين
فمش عزبا فإن لم تستطعه	فواحدة تكا في عسكرين

وبعد فلا بد — كما أشار اليه أخونا الشيخ محمود الخليلي فيما مر — أن يكون
لتعدد الزوجات دخل في هذا الحسد ، فقد كان يوجد كره بين « راحيل » أم
يوسف الصديق ، وبين شقيقها « ليثة » حيث الاولى كانت جميلة وصغيرة ومحجوبة
أكثر ، فكانت الثانية حاسدة لها حاقدة عليها — الامر الذي أوقد نار الحقد
والمداء في صدر الأختين ، فاستطارت منها شرارة الى صدر أبنائها ، وبعبارة
أصح استطارت شرارة من صدر « ليثة » الى صدور أبنائها الستة ، ثم بالتبعية من
صدر جاريتها « زلفة » لصدر ولديها .

سبحان الله ! أزواج يتخاصمن على التفاهة ، ويكبرن من شأن الشيء الحقير ،

وأبناء تزرع فيهم أمهاتهم بغض الإخوة « وربما وشيئاً من كراهة الآباء ، وكل هذا من نتائج تعدد الزوجات لغير حاجة .

نعم ، وإن ديننا ينص على جواز تعدد الزوجات ولكنه نص محوط بالقيود والأغلال ، نعم ، أباحت لنا شريعتنا التعدد المحدود ، لكن الله تعالى قال لنا في أثر ذلك : ﴿ فَإِنْ خِفْتُمْ أَنْ لَا تَعْدِلُوا فَوَاحِدَةً ﴾ (٤ : ٣) ، غير أننا نحن ما تقيدنا بهذا القيد المتين ، بل أهملناه فانفسح لنا مجال الإجرام ، فاللوم ليس على شريعتنا ، بل علينا نحن ليس إلا .

لم يسند الله الحسد لجماعة معينين إلا لليهود

قلت لكم : إن ما قاله إخوة يوسف ناشيء عن الحسد الذي ملأ صدورهم ، وإن تعجبوا ، فعجب أن الله تعالى لم يسند الحسد لجماعة معينين إلا لليهود وذلك في موضعين الأول قوله تعالى : ﴿ أَمْ يَحْسُدُونَ النَّاسَ عَلَى مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ ﴾ (٤ : ٥٣) والثاني قوله تعالى : ﴿ وَكَثِيرٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُمْ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّارًا ، حَسَدًا مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِهِمْ ﴾ (٢ : ١٠٩) فليعلم ذلك أهالي فلسطين خاصة والعرب عامة وليأخذوا حذرهم من الصهيونيين ...

الحكمة من ذكر الإسهال السبعة أو قرياء أو نبياء في القرآن

وهنا أمور مدهشه تستلفت الأنظار ، كلا ، بل هي من الغرابة بمكان :

١ - نقرأ في كتاب الله تعالى فنجده يصف أبناء يعقوب العشرة بأنهم حسدوا

أخاهم ، وضلوا أباهم ، وتفاوضوا في قتل يوسف أو طرحه أرضاً ، ثم رجعوا للعمل على إلقائه في غيابة الجب ليلتقطه بعض التجار ، ثم توصلوا لذلك احتالوا على آبيهم بأنهم ناصحون لأخيه ، والحال انهم غاشون ، ثم وعدوه إن أرسله معهم أن يحفظوه ، ثم أخلفوا وعدهم ، بل كانوا منذ إعطاء الوعد مصممين على عدم الوفاء به ، ثم كانت النتيجة أن ذهبوا به وأهانوه وأقوه في غيابة الجب ، فقطعوا بذلك الرحم وعقتوا أباهم وآذوه ثم رجعوا لآبيهم داعين بالويل والثبور وعظائم الأمور ، عجب عجب وأمر غريب !!!

٢ - نقرأ في كتاب الله تعالى فنجده يحكي عن « قايين^(١) » أنه حسد أخاه « هابيل » فقتله ، فأصبح من الخاسرين (٥ : ٣٠ - ٣٣) فالعبرة في هذا القصص أن حادثة ابن آدم هي أقدم قصة يدلنا على أن الحسد كان مثار أول جناية في البشر ، ولا يزال هو الذي يفسد على الناس أمر اجتماعهم ، من اجتماع العشيرة في الدار - إلى اجتماع القبيلة - إلى اجتماع الأمة والدولة - فترى الحاسد تثقل عليه نعمة الله على أخيه في النسب أو الجنس أو الدين ، وهو لم يتعرض لمثلها لينالها ، فينبغي على أخيه ولو بما فيه شقاء الأبد .

٣ - نقرأ في كتاب الله فنجده يحكي أن ابن نوح عليه السلام أبي أن يدخل في سفينه فكان من المفرقين ، وأنه كان عملاً غير صالح ، حتى أنه لعدم صلاحه خرج من عمود النسب (١١ : ٤٢ - ٤٧) .

٤ - نقرأ في كتاب الله تعالى فنجده يقول : ﴿ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِلَّذِينَ كَفَرُوا امْرَأةَ نوحَ وامْرَأةَ لوطٍ ، كانتا تحت عبدين من عبادِنا صالحين فخاتاتهما فلم يُغْنِيَا عنها مِنَ اللَّهِ شيئاً ، وقيل : ادخلا النارَ مع الداخلين ﴾ (٦٦ : ١٠) .

٤ - نقرأ في كتاب الله تعالى فنجده يصف آزر أبا سيدنا إبراهيم بأنه كان

من عبدة الأوثان ، ولياً للشيطان ، (١٩ : ٤٢ - ٤٦) وأنه كلف عدو الله (١١٤ : ٩) .

٦ - نقرأ في كتاب الله تعالى فنجده يذكر أن قارون (قورح) بنى على موسى ، فحسف الله به وبداره الأرض ، فما كان له من فئة ينصرونه من دون الله ، وما كان من المنتصرين (٢٨ : ٧٦ و ٨١) مع أن قارون كان ابن عم موسى ، لأنه « قارون بن بصهار بن قهات » ، وأما موسى فهو « موسى بن عمران (عمرام) بن قيات » ، فلم تنفعه القرابة القريبى .

٧ - نقرأ في كتاب الله تعالى فنجده يقول ﴿ ولقد فَتَنَّا سُلَيْمَانَ ، وَأَلْقَيْنَا عَلَى كُرْسِيِّهِ جَسَداً ﴾ الخ (٢٨ : ٣٤ - ٤٠) وذلك حينما كان سليمان ولياً عهد أبيه ، فتعدى عليه أخوه « أدونيا » واغتصب منه الملك : وكان هذا في حال شيخوخة أبيها داود ، ولما سمع داود أمراً بمسح ابنه سليمان ملكاً بالفعل ، فهبت ريح سليمان بمذنبك عظيم ، إلى آخر ما هو مذكور في القرآن والتاريخ ، وهذه الحركة كانت من ابن نبيّ على ابن نبيّ في حالة حياة أبيهما .

٨ - نقرأ في كتاب الله تعالى فنجده يذكر أن « أبا لهب » وامرأته « أم جميل » من التائتين ، ومن صالبي النار ، مع أن أبا لهب جار النبيّ الصديق ، وعمه القريب ، وكان قد أعتق « ثويبه » حينما بشرته بولادته ، وكان أبو لهب وزوجه من سنام قريش وواسطة العقد ودرة تاج العرب في ذلك العصر .

نعم . نعم . إننا نقرأ كل هذه الحوادث في القرآن ، ونزوي حوادث أخرى من هذا القبيل في الأحاديث ، ونرى أمثلة كثيرة من هذه الحوادث في الأسفار التاريخية المتينة ، فما هي الحكمة والفائدة من ذكر هذه الأخبار والأقاصيص في القرآن المجيد ونحوه يا ترى ؟

هذا سؤال كان وجهه علينا بعض طلبة العلم ، وقد أجبناه عنه في ذلك الحين .

بما خلاصته :

إن الحكمة والفائدة من ذكر هذه الحوادث وأشباهاها هي تقرير أصل التوحيد الهادم لقاعدة الوثنية بالفصل بين ما هو لله ، وما هو لرسله ، تصويراً لحالة الرسل الحقيقية ، وهي أنهم لم يرسلوا إلا مبشرين ومنذرين ، ما عليهم إلا تبليغ دين الله وإقامته ، وليس لهم من الأمر شيء ، ولا يملكون لأحد ضراً ولا نفعاً ، وليس عليهم هدى أحد ولا رشده بالفعل ، وإنما عليهم هداية التعليم والحجة ، فلا يهدون من أحبوا ، ولا يُغنون عنه من الله شيئاً ، وإن كان أقرب الناس وأحبهم إليهم في النسب ، والمعاملة الدنيوية .

وأما قاعدة وثنية العرب ، ونحوهم فهي اتخاذ أولياء من العباد يزعمون أنهم وسطاء بين الله وبين عباده ، في شؤون الأشقاء والإسعاد ، والسلب والإمداد فجعلوا مدار السعادة والنجاة على شفاعة أنبيائهم وأوليائهم فحاء القرآن بذكر هذه الحوادث ، حوادث أقارب الأنبياء هادماً لتلك القاعدة الوثنية ، معلماً الناس أن مدار النجاة على الإيمان والأعمال ، ولا تأثير للأقربين والبنين . (مرحى) .

(إذ قالوا .. الخ)

— ٥ —

قال المدقق الادي :

الرفاع عن حب يعقوب لولديه يوسف وبنيامين

لي ههنا كلمة أقولها تمهيداً للدفاع عن سيدنا يعقوب عليه السلام في حبه لولديه .

يوسف وبنيامين وإليكوها :

لمحبة الولد طوران : « طور الصغر » ، وهو حب ذاتي لهم ، لا علة له ولا

فكرة فيه ولا تدبير، بل هو أمر طبيعي فطري داخل في عموم الرحمة الربانية العامة لجميع الحيوانات، لا فرق فيها بين الإنسان والهرة، و«الطور الثاني» حب معلول، معه فكر، وهو حب الأمل والرجاء بالولد، ودرجات هذا النوع من الحب على قدر درجات الأمل..

إذا تقرر هذا فحب يعقوب الزائد لولده (بنيامين) كان من قبيل النوع الأول لأنه كان إذ ذلك ابن سبع سنين، وأما حبه الزائد لولده يوسف فكان تقريباً من قبيل النوعين، لأنه كان صغيراً ابن سبع عشرة سنة أو أقل، وكان لأبيه فيه الأمل والرجاء العظيم، لما كان يتفرس فيه من إمارات النجاة، ولما سمع من رؤيته المناميتين ولما أوجي إليه فيه من الاجتباء والتعليم وإتمام النعمة، وأنتم تعلمون أن وجوه المحبة إذا تعددت غذى بعضها بعضاً، وعلى هذا فيعقوب معذور طبعاً وشرعاً على هذين النوعين مع الزيادة والتفضيل، فانتقاد أبنائه العشرة عليه في ذلك في غير محله، والسلام عليكم ورحمة الله.

(إذ قالوا .. الخ)

— ٦ —

قال الوحيد الاسكندري :

استناد القول الى الاخوة العشرة جميعاً

أضاف القول إلى الإخوة العشرة جميعاً في قوله : « إذ قالوا » مع أنه لا بد أن

- يكون القائل هو البعض فقط، والباقي ساكت مستمع، وإنما صح ذلك لأن الجماعة متكافلة في الأمور العامة، ولذلك وجب على الأمة

الإنكار على قائل أو فاعل المنكر من أفرادها ، لثلا يفسوا فيها . فيصير خلقاً من أخلاقها وعادة من عاداتها ، فتستحق عقوبته في الدنيا كالذلل وسوء السمعة كما تستحق عقوبته في الآخرة بما دنس نفوسها ، ولذلك لعن الله تعالى الذين كفروا من بني إسرائيل بما عصوا وكانوا يعتدون ، وبين سبب ذلك بقوله : ﴿ كانوا لا يتدناهمونَ عن مُنكَرِ فَعَلُوهُ ﴾ (٦ : ٨٢) ، ذلك بأن من أقر قائل أو فاعل المنكر ، فلم ينه ولم يسخط عليه ، تكون نفسه مشاكلة لنفسه ، تأنس بما تأنس به ، ثم لا يلبث أن يقول أو يفعل المنكر ولو بعد حين ، إذا لم يعجز عن ذلك بسبب من الأسباب الحسية .

الساكت عن المنكر يكون شريكاً في الإثم لفاعله

وتم وجه آخر يجعل إسناد المنكر إلى قائله والراضي به إسناداً قريباً من الحقيقة ، وهو ان عدم النهي عن المنكر هو السبب في انتشاره وشيوعه ، لأن الميالين إلى المنكر لو علموا أن باقي الجماعة يمتقونهم ويؤخذونهم عليه لما فعلوه ، إلا ما يكون من الخلس الخفية ، ولذلك كان الساكت على المنكر شريكاً في الإثم للفاعل .

ومثل هؤلاء مثل راكب مع جماعة في سفينة ، ذهب ينقر فيها ، فإن أخذوا على يده نجوا ونجا معهم ، وإلا هلك وهلكوا جميعاً ، ففسد المنكرات مهلكة للأمة : ﴿ واتقوا فِتْنَةً لا تُصِيبُنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً ﴾ (٨ : ٢٥) فلا بد المرء في حفظ نفسه ومن معه من الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر لا سيما أمهات المنكرات المفسدة للاجتماع كالكذب والخيانة والحسد والفس ، فهذا ليس من فروض الكفاية التي يتواكل فيها الناس كصلاة الجنازة . إذ لا يجب على كل من علم

أن هنا ميتاً أن ينتظر غسله ليصلي عليه ، بل يكفي أن يعلم أنه يوجد من يصلي عليه ولكنه إذا رأى منكراً وجب عليه أن ينهى عنه ولا ينتظر غيره .

(أحسنت أحسنت)

(ونحن عصابة ..)

— ١ —

قال الاستاذ الجزائري (١) :

وجه انتقاد الاخوة العشرة لأبيهم علي حبه ليوسف وأخيه والرد عليه

يقول إخوة يوسف العشرة إن أبانا يفضل علينا في المحبة يوسف وسوغه (٢)، وهما اثنان صغيران لا كفاية فيها ولا منفعة، بل لا في العير ولا في النغير، وأمانحن فرجال عشرة كفاة، ملتفون حول أيينا نقوم بمرافقه من رعي الغنم وغيرها، أولوا قوة وألوا بأس شديد، لا نستندل ولا نستقل، فما لأينا يعبث بنا ويستصغر أمرنا؟ هما ولدان صغيران، لا يرجيان لدفع أو نفع، ولا يؤمل منها عائدة، فما هي هذه المحبة الزائدة؟ وماذا يُعول أبونا على غصنين غضنين، ويترك الجدوع القوية؟ وهل يلتقط الخردل دون الجندل؟ وأين الحسام من المنجل؟

هذه خلاصة شبهتهم التي تمسكوا بها للانتقاد على أبيهم، ذكرها الله تعالى ولم يذكر الجواب عنها، لأنها شبهة ضعيفة واهية، والجواب عنها ظاهر لا تحج،

(١) نسبة إلى الجزائر من بلاد المغرب العربي في شمال افريقية .

(٢) هذا سوغ هذا وسوغته كلامهما في الذكر والاتي ولد بعده ولم يولد بينهما (القاموس).

وخلصته إن صغر بنيامين ويتمه من أمه ، هو الذي أوجب تفضيل أبيه له في المحبة كما هو معروف في كل عصر ومصر ، وأما يوسف فإن صغر سنه ، وعدم المنفعة الجسمانية منه ، لا يصح أن يكون أقل منهم فضلاً ، بل هو أفضل منهم ، لأنه أحيا قلباً ، وأذكى فؤاداً ، وفضل الإنسان في حياة قلبه ، وذكاه لبه ، وحسن مستقبله ، ونفع يوسف — بحسب ما علم أبوه فيه — أعلى وأجل وأبقى ، وأما القوة البدنية ، والخدمة الجسمانية ، فمأثرة تغدو وترتحل ، وتقر عيناً ثم تنتقل :

تقول أنا الكبير فعظموني ألا هبلتكم أمك من كبير
إذا كان الصغير أعم نفعاً فما فضل الكبير على الصغير

يوسف إنسان بنفسه ، حي بطبعه ، دائم الحياة بعقله وفضله ، وهؤلاء معدومون بذواتهم إذا كانوا منفردين ، موجودون إذا كانوا مجتمعين ، مفتخرون بطولهم (وبطولتهم) وعرضهم (وعرضتهم) : ﴿ يا أيها الذين آمنوا ، لا يستخزروا قوم من قوم عسى أن يكونوا خيراً منهم ﴾ (٤٩ : ١١) فلا ينبغي للإنسان أن يمجب بالكثرة فإنها لا تقني من المنويات شيئاً ، وليست الفضيلة بقوة الأجساد ولكن بالعقل والفؤاد .

العصبة في اللغة

واسمحوا لي قبل أن أغادر هذا المنبر أيها السادة بقص النادرة التالية : (قيل لأبي عبد الملك عناق : بأي شيء تزعمون أن « أبا علي الأسواري » أفضل من « سلام أبي المنذر » ؟ — قال : لأنه لما مات « سلام أبو المنذر » مشى « أبو علي » في جنازته ، فلما مات « أبو علي » لم يمش « سلام » في جنازته !) وما أشبه حال إخوة

يوسف بهذه الحكاية ؟ فإنهم ادعوا أنهم أحق بالأحبية من يوسف وأخيه ، وماذا ياترى ؟ .. لأنهم عصبه - والعصبة العشرة فصاعداً كما في (الكشاف) أو الجماعة المعتصبة المتعاضدة ، كما في (مفردات الراغب) أو من العشرة إلى الأربعين ، كما في (النهاية لابن الأثير) ، وأما الإثنان فلا يستحقان (اسم العصبة) ، لكونها اثنين فقط - فكأنهم قالوا : نحن أحق بالأحبية لأننا عشرة بخلاف أخويننا الإثنان ، لأنها ليسا بعشرة ، فهذه القضية شبيهة بتلك ، كمشابهة الليلة بالبارحة .

(إن أبانا لفي ضلال مبين)

— ١ —

قال أبو الفضل المدني (١) :

تضليل اخوة يوسف لأبيهم جهلاً منهم وسفاهة

ضللوا أباهم ، لأنهم لم يكونوا يعلمون علمه ، ولكن أبوم سيأتي بقول لهم : « وأعلم من الله ما لا تعلمون » ، كيف لا ؟ وقد تأكد صحة منامي ولله ، وعلم فيه من الله ما علم ، من اجتهائه وتعليمه وإتمام نعمته عليه ، وشيء من هذا لم يصل مضمونه عند إخوته إلى درجة العلم :

لو كنت تعلم ما أقول عذرتني
أو كنت أجهل ما تقول عذلتك
لكن جهلت مقالتي فعذلتني
وعلمت أنك جاهل فعذرتك

(١) نسبة إلى المدينة المنورة في الحجاز .

قيل : « العالم يعرف الجاهل ، لأنه كان قبل علمه جاهلاً ، والجاهل لا يعرف العالم ، إذ لم يكن قبل جهله عالماً » ، ولرئيس المؤتمر :

واحتذر الناس أن يروك : محبباً أو حبيباً واذكر بني يعقوباً
ضلتوا من أحب وهو أبوهم !! ثم ظلماً قد شردوا المحبوبات !!

(إن أبانا لفي ضلال ... الخ)

— ٢ —

قال الاستاذ العكاري :

شرح كلمة الضلال

لقد اختصر المفسرون في شرح كلمة « الضلال » ، اختصاراً ، ولكني أنا الحقير لن أقف عند هذا الاختصار ، لأنني لم أقف عنده فيما بيني وبين نفسي ، بل جاوزته ، وأريد أن أجوزه مع القراء الكرام ، إلى ما يقتضيه المقام ، من بسط في الكلام ، فأقول :

الضلال في الشيء فقدان الهدى فيه ، سواء أ كان كثيراً أم يسيراً ، وسواء أ كان عمداً ، أم سهواً ، أم تأويلاً ، وسواء أ كان في الأمور الدنيوية ، أم في الأمور الدينية ، وسواء أ كان في الفروع أم في الأصول ، ولذلك وصف به الكفار تارة ووصف به كبراء أهل الإيمان تارة أخرى ، فمن الضلال الذي هو فقدان الفروع الشرعية التفصيلية ، أو فقدان أفضل طريق لإرشاد البشر — قوله تعالى : ﴿ وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَى ﴾ (٩٣ : ٧) ، أي رآك ضالاً عن فروع

الشريعة التفصيلية فهداك إليها بالوحي ، أو رآك ضالاً عن الطريقة المثلى التي تنبغي لإرشاد الناس ، فهداك إليها بالرسالة .

ومن الضلال الناشيء عن السهو والخطأ دون العمد ما في قول موسى : ﴿ فَعَلَّمْتُهَا إِذْنَ وَأَنَا مِنَ الضَّالِّينَ ﴾ (٢٦ : ٢٠) ومن إطلاقه على النسيان : ﴿ أَنْ تَضِلَّ إِحْدَاهُمَا فَتُذَكِّرَ إِحْدَاهُمَا الْأُخْرَى ﴾ (٢ : ٢٨٢) ، ومن الضلال بمعنى الوقوع في الغلط عن تأويل دون عمد الغلط : ﴿ وَلَا الضَّالِّينَ ﴾ (١ : ٧) قيل هم النصارى لأنهم لم يتمعدوا الكفر ، بل وقعوا فيه بسبب الجهل والتأويل ، بخلاف المفضوب عليهم اليهود فإن رؤساءهم وقعوا في الكفر عن عمد ، ومن الضلال في الأمور الدنيوية ما هو في آيتنا التي نحن بصدد التعليق عليها ، لأن الضلال الذي نسبوه لأبيهم إنما هو في معاملة أولاده ، ومثله ما في قول أحفاده : ﴿ تَاللَّهِ إِنَّكَ لَفِي ضَلَالِكَ الْقَدِيمِ ﴾ (آ : ٩٥) وقول النسوة المدينيات : ﴿ إِنَّا لَنَرَاهَا فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴾ (آ : ٣٠) .

وبعد فهذه الأنواع من الضلال هي أخف من الضلال الذي يكون في أصول الدين عمداً ، لا عن تأويل ، وذلك كما في قوله تعالى : ﴿ وَوَيْلٌ لِلْكَافِرِينَ مِنْ عَذَابٍ شَدِيدٍ ، الَّذِينَ يَسْتَحِبُّونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا عَلَى الْآخِرَةِ ، وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ ، وَيَسْخَرُونَهَا عِوَجاً ، أُولَئِكَ فِي ضَلَالٍ بَعِيدٍ ﴾ (١٤ : ٣) وقوله تعالى : ﴿ فَكذَّبْنَا وَقُلْنَا مَا نَزَّلَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ ، إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا فِي ضَلَالٍ كَبِيرٍ ﴾ (٦٧ : ٩) ، وقوله تعالى : ﴿ لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ ، إِذْ بَعَثَ فِيهَا رَسُولاً مِنْ أَنْفُسِهِمْ ، يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ ، وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ ، وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ مِنْ قَبْلٍ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴾ (٣ : ١٦٤) ، فهذا النوع من الضلال هو ضلال الكفر العمدي ، الذي ليس شيء أكبر منه ، وعلامته أن يوصف

يوصف بعيد أو كبير أو مبین ، وما يشبه ذلك مما يشير إلى عظمه في باب الكفر .
وإنما وصف أبناء يعقوب ضلال ايهم بأنه (مبین) تشدداً في البذاءة ، وغلوأ
في السفاهة على جناب والدهم عليه السلام .

انتقاد اخوة يوسف على تضليلهم ايهم

أمر عجيب والله ، جماعة ليسوا بأولاد صغار ، ولكنهم رجال كبار ، وجماعة
ليسوا عبارة عن ثلاثة أو أربعة ، ولكنهم عشرة ، كلهم يتفقون على حسد ولدين
صغيرين لطيمين ، يتفقون على حسدهما ليس على شيء جوهري مهم ، ولكن على القبلة
والبسمة والجلسة على الركبة ، يتفقون على انتقاد ايهم وهم يعلمون أنه نبي معصوم ،
لا يجب إلا ما يجب الله ولا يكرم إلا من أكرمه الله ولا يخالف في حبه وكرمه
شريعة الله ، كلهم يتفقون على الحكم عليه بأنه في ضلال ، وياليتهم اقتصروا على كلمة
« ضلال » التي يوصف بها (بمجردها) كل من وقع في غلط مطلقاً ، بل وصفوا هذا
الضلال بأنه « مبین » ، والضلال المبین أو الكبير أو البعيد ، لا يوصف به إلا
الكافر المتعمد الكفر كما قدمنا ، ثم بعد هذا كله يأتي بعض المفسرين ويوجه عليهم
لقب « النبوة » ، كأنه هو الذي يملك هذه الرتب ، وكأن بيده تصريح هذه
الألقاب ، فيفضل بإعطاء النبوة لأناس ، لم يقل الله أنهم أنبياء . ولا قال ذلك
رسوله ، ولا روي ذلك عن الخلفاء الراشدين ، ولا عن الأئمة المجتهدين ، وباللهم ماذا
يعمل من يقول بذلك في الآية (٨) ؟ هل يسقط هذا المدد من السورة ؟ فبعد ما
كانت أعدادها (١١١) تصير أعدادها (١١٠) ؟ وهل يقدر أن يجتمع بحجرائيل
أمين الوحي يرجع إليه هذه الآية الثامنة ، بل الآيات الكثيرة من الثامنة إلى الثامنة
عشر ، وأضف إلى ذلك الآية (٧٧) فهل يمكننا أن نطمسها من المصحف ، حتى

يمكننا أن نقول إن هؤلاء القوم أنبياء؟ أو هل النبوة رتبة رسمية توجه لمن هو أهل لها ومن ليس لها بأهل؟

الدخول الجدي في المؤامرة

آ(٩) ﴿اقتلوا يوسفَ، أو اطرَحوهُ أرضاً، يَخْلُ لَكُمْ وَجَهُ أَيْكُمْ!!! وتكونوا من بعده قوماً صالحين﴾

افتتحت الجلسة وتليت الآية التاسعة فقام الحاج سعدي العكي (١) وقال:

﴿اقتلوا يوسف﴾، كأنهم أطبقوا على ذلك، إلا من قال: «لا تقتلوا يوسف» وقيل الأمر بالقتل شمعون، والباقون كانوا راضين ففعلوا أمرين ﴿أو اطرحوه أرضاً﴾ منكورة مجهولة بعيدة من العمران ﴿يخل لكم وجه أَيْكُمْ﴾ يقبل عليكم إقبالة واحدة لا يلتفت عنكم الى غيركم، والمراد سلامة محبته لهم ممن يشاركهم فيها وينازعهم إياها فكان ذكر الوجه لتصوير معنى إقباله عليهم، لأن الرجل إذا أقبل على الشيء أقبل بوجهه، ويجوز أن يراد من الوجه الذات كما قال تعالى: ﴿وَيَبْقَى وَجَهُ رَبِّكَ﴾ (٥٥: ٢٧) وقيل يخل لكم: يفرغ لكم من الشغل بيوسف، ﴿وتكونوا من بعده﴾ من بعد يوسف، أي من بعد كفايته بالقتل أو التغريب - أو يرجع الضمير الى مصدر «اقتلوا أو اطرحوا»، ﴿قوماً صالحين﴾ تائبين الى الله مما جنيتهم عليه، أو يصلح ما بينكم وبين أَيْكُمْ بمذرة تهدونه، أو تصلح دنياكم

(١) نسبة الى عكا من أعمال فلسطين.

وتتنظم أموركم بعده ، بجلو وجه أبيكم ، وبعد فما ذنب أخيه حتى يقتل أو يطرح أرضاً ، والمجرم — على رأيهم — هو أبوهم ؟ ولكن صدق من قال :

لكل داء دواء يستطب به إلا الحماقة أعيت من يداويها
وإنا لنعجب من هؤلاء الأذكياء المنصفين !! ، يريدون أن يخلقوا الفضيلة ، فضيلة
توجه أبيهم عليهم ، من جريمة هي من أكبر الجرائم بعد الشرك بالله تعالى !!!...

(اقتلوا يوسف .. الخ)

- ١ -

ثم تابع الحاج سعدي العكي كلامه قائلاً : -

الاقتراح بقتل يوسف أو إبعاده

كان الاخوة قد تقموا على أبيهم ، في تفضيله يوسف عليهم في الحب ، وضلوه
بسبب ذلك ، ولم ينقموا على يوسف شيئاً ما . فما بالهم الآن يأترون على قتله وسفك
دمه المحرم بلا جريمة ولا جريمة ؟ .. إن هذا إلا أمر عجاب .

أصبح يوسف شغلهم الشاغل ، وصاروا يتقلبون منه على حجر الغضا ، فاجتمعوا
واقترحوا إهلاكه ! فيا للجريمة ! يا للفظاعة ! من يسمع هذا الحديث ولا يسخط
على هذه الطريقة الشنعاء التي يريدون أن يستخدمونها بقتله أو إبعاده أو إسقاطه
في غياهب الجباب ؟ .. ثم ما الحيلة وما العمل ؟ والنافذ القوي لم يكن غير هؤلاء
الإخوة الذين استبد بهم الحسد استبداداً . وأما يعقوب فكان شيخاً وحيداً ،
ليس له بأولاده قوة ، بل هم قوة عليه ولم يكن له ركن شديد من عشيرته سوى
أولئك المقاومين :

لو بغير الماء حلقي شرقاً كنت كالفصان بالماء اعتصاري
 هم اتفقوا على حسد يوسف ، لسبب تفضيل أبيه له عليهم في المحبة ، ذلك التفضيل
 الذي حجب أباهم عنهم ، وشغله بيوسف ، فلماذا اتفقوا على إزالته من الوسط ، ولم
 يختلفوا في ذلك ابداً - اللهم إلا رأويين ويهوذا - نعم اختلفوا في شكل إزالته
 من وسطهم ، هل يقتلونه او يبعدونه ؟ كما هو رأي الأكثرية الساحقة مبدئياً ،
 او يلقونه في غيابة الجب ، الذي تمر عليه التجار السائرون ، فيأخذوه معهم ، كما
 هو رأي يهوذا ، وقد تابعته الأكثرية الساحقة أخيراً ، فصار إجماعاً من الجميع ،
 وكأنهم تصوروا أن لهم حليقاً لا يعيشون إلا به ، وهذا الحليق هو محبة يعقوب
 إياهم ، وتوجه أنظاره عليهم ، وتفرغه لهم ، وكان يوسف حسكة في ذلك الحليق
 فعزموا على إزالته والإيقاع به ، ويجب أن لا ننسى ما نقله المفسرون عن « وهبة
 ابن منبه » ، ونقله صاحب (السنن القويم) عن مفسري التوراة أن الساعي في قتل
 يوسف هو « شمعون » ، فهو زعيم الثورة الذي يحمل على رأسه تاج العداة ليوسف .

مؤامرة قريش على قتل أو ابعاد أو حبس النبي ﷺ

سبحان الله ما أشبه الليلة بالبارحة !! وما أشبه هذه المفاوضة بالمفاوضة التي
 صارت في دار الندوة من قريش ، في شأن النبي ﷺ ، فقريش أقرباء النبي
 كانوا بمنزلة إخوة يوسف ، ولكن ليس في كل شيء ، لأن إخوة يوسف مؤمنون
 وأما قريش فكافرون ، وإنما هو مثلهم في التآلب على الأختيار ، وعقد جلسة
 المؤامرة على الناس الطيبين ، إذ كان النبي ﷺ هو موضوع مؤامرة قريش ،
 ويوسف موضوع مؤامرة إخوته ، وكذلك إخوة يوسف تمنوا أن يخلو لهم وجه
 أبيهم ، وبذلك تصلح شؤونهم ، وقريش تمنوا أن يخلو لهم الجو في مكة فتصلح
 بذلك أمورهم ، وكان الحال في مؤامرة قريش على النبي ﷺ دائرة بين

حبسه في بيت وإبعاده من بين أظهرهم ، وقتله ، وأخيراً قرّ رأبهم على قتله ، قال تعالى : ﴿ وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُذَيَّبْتَوْكَ ، أَوْ يَقْتُلُوكَ ، أَوْ يُخْرِجُوكَ ﴾ (٨ : ٣٠) وهكذا كانت مؤامرة إخوة يوسف عليه ، وأخيراً قرّ رأبهم على حبسه في الجب ، هذا ما حضرني الآن فتأملوه رحمكم الله .

(اقتلوا يوسف أو اطرحوه أرضاً)

- ٢ -

وقال الحاج أسعد اللاذقاني :

الطرح أرضاً كالقتل

أوعز لهم شمعون بقتل يوسف أو إبعاده ، فتابعه جمهورهم على ذلك ، فهم أرادوا (بطرحه أرضاً) التغريب ، فإن الغربة كربة ، يقال : طرحت الشيء أبعدته ، ومنه قول الشاعر :

ومن بك مثلي ذا عيال ومقتراً

من المال يطرح نفسه كل مطرح

وقد قرّن الابعاد عن الديار بقتل النفس في قوله تعالى : ﴿ وَالْوَاوِءَ أَنَا كَتَبْنَا عَلَيْهِمْ أَنْ اقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ ، أَوْ اخْرُجُوا مِنْ دِيَارِكُمْ مَا فَعَلْتُمْ إِلَّا قَلِيلٌ مِنْهُمْ ﴾ (٤ : ٦٥) ، وقوله تعالى : ﴿ قَالُوا : وَمَا لَنَا أَنْ لَا نُقَاتِلَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ؟ وَقَدْ أَخْرَجْنَا مِنْ دِيَارِنَا وَأَبْنَائِنَا ﴾ (٢ : ٢٤٦) ، وقوله تعالى : ﴿ لَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ ، وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ ﴾ (٦٠ : ٨) وقوله تعالى : ﴿ وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ لَا تَسْفِكُونَ

دِمَاءَكُمْ ، وَلَا تَخْرُجُونَ أَنْفُسَكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ ﴿٢ : ٨٤﴾ ، وهذه شريعة عامة في كل ملة ، ورغمما عن ذلك فنجد هؤلاء الأشبال العشرة الكرام !! قد تفاوضوا في إبعاد أخيه عن فلسطين ، عن أبيه وسوغه وجده إسحق وباقي أسرته !! .

الفوائد المستنبطة من الآية

نعلم من هذه المفاوضة أن الانسان قد يضعف عن احتمال سلطان الحسد وسيطرته عليه ، فيقدم على المخاطر المهلكة ، وهو لا يجمل مكان الخطر منها ، ولكنه يعجز عن مغالبة نفسه ومثاوراتها ، حتى يتردى في مهواتها .

ونعلم أن الأفراد التي تشكل جماعة قد يتواطؤون على عظام الأمور القبيحة . ونعلم انه ينبغي للانسان أن يحترس ويتحفظ من الناس حتى من أقاربه وانه لا يبعد أن يجتمعوا على ضرره . ونعلم ، وهو المدهش ، انه ربما يوجد أخوة كهول وشيوخ ، يفارون من أخ لهم صغير في سن الخيلهم ربما يكون لهم أولاد أكبر منه ، لا يترفعون عن حسدهم له وغيرتهم منه !! ...

تعليق الاخرة الايقاع بيوسف

عللوا الإيقاع بيوسف بخلوه وجه أبيهم لهم ، يريدون أن وجود يوسف في الوسط ، مانع من تفرغ أبيهم اليهم ، وتوجهه عليهم ، وأنهم حريصون على ذلك ، ويهمهم كثيراً ، فتوصلاً لهذا الغرض الهام ، لا ندحة لهم من أن يزيلوا هذه العقبة ، التي تحول بينهم وبين أبيهم ، هذا ما تظاهروا به ، وهذا ما تمركزوا عليه ، توصلاً للإيقاع بأخيه ، وهو علة مخالفة للعقل والمنطق والواقع ، وإنما

العلة الحقيقية الحسد والبغضاء والمداة الناجم من مجموعة أشياء ، هي : مزايا يوسف وفضائله ، أخلاقه المالية ، كونه ابن (راحيل) الحظية عند والدهم ، التي كانت مترفعة جداً عن ضربتها (ليثة) ، وبالطبع عن (بلهة) و (زلفة) الجاريتين ، فهؤلاء كنّ حزباً ، وهي كانت وحدها حزباً آخر ، فلا بد أن يكون عداة هذا الفريق الاوّل قد سرى من النساء لاولادهن ، ولا تنس حرائيه المنامية وبشائر أبيه اليه ، التي باغتهم فاستاؤا منها .

لماذا لم يدخلوا بنيامين مع يوسف في مؤامرتهم

وبعد فإننا لم نرهم حين المفاوضة أدخلوا في دائرة القتل أو الإبعاد (بنيامين) مع أنهم كانوا أظهروا التذمر من الاخوان معاً . فلماذا هذا ياترى ؟ والجواب إن تدمرهم أولاً وبالذات إنما هو من يوسف ، وأما من بنيامين فثانياً وبالعرض ، ولهذا سمناهم يقولون « ليوسف وأخوه » فلم يذكره باسمه ، إشعاراً بأن محبة يعقوب له إنما هي لاجل عيون يوسف ، وأيضاً إنما كان بنيامين وقت هذه المفاوضة ابن سبع سنين ، فالدواعي للتعرض له بالضرر غير متوفرة ، بخلاف يوسف فإنه كان ابن سبع عشرة سنة ، وكان هو الشغل الشاغل لقلب أبيه فلذلك اقتصرنا في مفاوضتهم على الإيقاع بيوسف فحسب .

(اقتلوا يوسف..الخ)

- ٣ -

وقال السيد جميل الناصري (١) :

أيها السادة : لي هاهنا أربع كلمات :

من هو صاحب الاقتراح بقتل يوسف او ابعاده

الكلمة الاولى - ربما كان الباديء باقتراح قتل يوسف أو طرحه أرضاً واحداً منهم هو (شمعون) على ما قاله مفسرو اليهود ، أو اثنين هما (شمعون ولاوي) على ما أظن أنا العبد الحقير ، لاني أقرأ في التاريخ فأرى طبيعة الاثنين واحدة ، وأنها متشابهان في الحركات القاسية (تك ٣٤ : ٢٥ و ٤٩ : ٥ - ٧) والباقي ردد هذا الصوت ترديداً ، أو قل هذه الحركة تقليداً ، أو سكت عليها سكوت إقرار ورضى ، أو ضم صوته الى صوت المقترح مؤيداً له ، ولذلك نسب هذا الاقتراح الى مجموع الاخوة ، لانهم متكافلون متضامنون ، فمهما وقع من بعضهم وسكت عليه الباقي فهو منسوب لجميعهم ، ألا ترى الى قوله تعالى : ﴿ ثُمَّ اتَّخَذْتُمُ الْعِجْلَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَنْتُمْ ظَالِمُونَ ﴾ (٢ : ٥١) وقوله جل ثناؤه : ﴿ وَإِذْ قُلْتُمْ : يَا مُوسَى لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى نَرَى اللَّهَ جَهْرَةً ، فَأَخَذْنَاكُمْ الصَّاعِقَةَ وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ ، ثُمَّ بَشَأْنَاكُمْ مِنْ بَعْدِ مَوْتِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ (٢ : ٥٥ و ٥٦) وقوله جل ذكره : ﴿ وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَى لَنْ نَصْبِرَ عَلَى طَعَامٍ وَاحِدٍ ﴾ (٢ : ٦١) وقوله سبحانه : ﴿ وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْسًا فَادَّارَأْتُمْ

(١) نسبة الى الناصرة من بلاد فلسطين .

فيها ، واللهُ مخرجٌ ما كنتم تكتمون ﴿٢ : ٧٢﴾ وقال تعالى : ﴿فَكَذَّبُوهُ
فَعَقَرُوهَا ، فَدَمْدَمَ عَلَيْهِم رَبُّهُم بِذَنبِهِمْ﴾ (٩١ : ١٤ و ٥) وما إلى
ذلك مما لا يحصى في الكتاب الكريم ، والأحاديث النبوية والأشعار العربية .

الحسد هو الدافع الحقيقي لاختوة يوسف على إرادة قتله

الكلمة الثانية — ترتيب القتل على مجرد كون يوسف أحب إليهم منهم مما
لا يقبله العقل ، ولا يدخل في دائرة من دوائر الفهم ، وعليه فلا نُدْحَة لنا من
أن نلاحظ أن الدافع الحقيقي لهم على إرادة قتله إنما هو الحسد الشخصي — والحسد
غضبان على من لا ذنب له — مع العداة العائلي الموروث عن الأمهات الضرائر ،
والذي سهل عليهم هذه الفكرة القاعدة الاجتماعية ، وهي أن الجماعة أقل مبالاة
من الفرد ، لانحلال المسؤولية بكثرة التكافل ، ونحن إذا لم نحمل كلامهم على ذلك
كان منال النجم أقرب من تطبيق حالمهم على قاعدة من قواعد العقل .

انواع الأُمزجة الجبرية وتطبيقها على اختوة يوسف

الكلمة الثالثة — صدق من قال : (الأُقرب أعداء الحياة ، أحباب ساعة قبل
الوفاة) ، فهؤلاء الاخوة حسدوا يوسف ، فصارت نفوسهم تنازعهم الى الإيقاع
به ، وجعلوا يتفاوضون ويتساندون في كيفية إهلاكه ، ويظهر أنهم كانوا من
أصحاب المزاج العصبي ، فإنهم لا يصبرون على ضيم ، ولا يستطيعون الكظم ،
فاذا غضبوا غلبت عليهم الحدة ، حتى يخرجوا عن الصواب ، وربما بدرت من
أحدهم كلمة يقولها عن غير روية وتثبت ، بخلاف أصحاب المزاج الدموي الذين
لا تستحوذ عليهم الحدة ، ونظن أن كلاً من رأوين ويهوذا من أهل هذا المزاج ،

وبعبارة أخرى — يوجد أفس يخرجهم الغضب عن طور التعقل فاذا غضبوا ظهرت أمزرات الغضب في عيونهم وجباههم وأستهم ، ولذلك ندرت فيهم رباطة الجأش والصبر على المكاره ، وهؤلاء هم أهل الأمزجة العصبية ، ولعل إخوة يوسف اللذين أشاروا بقتله هم من هذا القبيل ، ويوجد نوع هم من أقدر الناس على الكظم وكتمان ما تكنه ضمائرهم . فهم لذلك يصبرون على الضيم ، فلا يخرجهم الغضب عن طور التعقل ، وذلك يساعدهم على كتمان عواطفهم ، فهؤلاء هم اللذين غلب عليهم المزاج الدموي ، وربما كان كل من رثوين ويهوذا من هذا النوع .

غرابة مشايعة دان وفتالي لآخوتهم في المؤامرة

الكلمة الرابعة — إنا لا نعجب من هؤلاء الاخوة عَجَبْنَا مِنْ أَخُوَيْهِ وَلَدِي (بلهة) جارية أمه ، وهما (دان) و (نفتالي) ، فيوسف بعدما ماتت أمه راحيل ، وقد كان عمره تسع سنين ، انتقل هو وشقيقه بنيامين إلى خيمة جارية أمها هذه وهي (بلهة) وحضنته وأخاه المذكور ، فتريا عندها مع ولديها المزبورين ، فكان مقتضى العادة والواجب أن لا يتفق أخواه هذان مع باقي إخوته على قتله أو طرحه أرضاً ، مع ان ظاهر الكتاب الكريم انها ممن شايع ويبيع مع الجميع على يوسف ، وهو أمر من الغرابة بمكان !

(اقتلوا يوسف أو اطرحوه . . الخ)

— ٤ —

وقال العلامة البيروتي :

نظائر أعمال أبناء يعقوب العشرة في التاريخ

رب سائل يسأل : كيف جاز لهؤلاء الاخوة أن يفكروا في حسد يوسف وطريده في العمر ، ويغضوه ويتفاوضوا في قتله أو ابعاده في يدياء مجهل ، ثم أخيراً تنفق كلتهم على القائه في غيب الغيابة ، لكي تكون النتيجة بعهده عن محبته ومُعَادِيهِ لوطن آخر يعيش فيه غريباً مشرداً ؟ — كيف جاز أن يقع هذا مع انهم أبناء نبي مرسل ، بل من بيت نبوات ، فكان يجب أن تكون الأخلاق عالية ، والضمائر حساسة ، والقلوب رقيقة غير متحجرة ، لأن الانسان ابن التربية أو ابن أبيه ، والعرق دستاس ، فإن نظرنا لنسبهم ، فالأب فحل كريم ، والبيت عريق في المجد وكريم الغرائز ، وإن نظرنا لتربيتهم فكان يجب أن تكون قد أثرت عليهم التربية البيئية أو الأبوية فتراهم رُحَمَاءَ وُدْعَاءَ متسامحين حساسين ، ذوي عطف وحنان ووجدان طاهر .

فكيف نقدر أن نجمع في أدمغتنا ما حكاه القرآن الكريم من نبوة يعقوب ورسالته وهدايته للبشر وإرشاده للناس قريتهم وبعيدهم من الاعتقاد بهذا الذي حكاه القرآن عنهم من هذه الأقوال والأعمال التي لا تصدر إلا عن عديمي الأخلاق ففاسدي المطباع ، ناقصي التربية ، خبيثي النوايا ؟

وإذا كان يعقوب (ع) قد تفتت عقول أمته وهذبها ، وأصلح طباع قومه وقومها ، وجب بالأولى أن يكون لأولاده من ذلك الحظ الأوفر ؟

وإذا لاحظنا أن جدم إسحاق (ع) كان إذ ذاك موجوداً بين أظهرهم — لأنه عاش نحو عشر سنين بعد غياب يوسف — وكانوا قريبي المهدي بسيرة الجد الأعلى إبراهيم (ع) زاد الإشكال وزادت الحيرة والاعتلال .

هذه صورة ما عسى أن يوجه إلينا من السؤال والاستشكال ، وأما الجواب عنه فنقول : إن كلا من الأصالة والتربية قد لا يفيد شيئاً إذا كان العبد لم يمد بالألطف الإلهية ، والتوفيقات الربانية ، والدين لا ينظر إلى هذه الأشياء التي تنظر إليها الناس ، ولكنه يقول في الكتاب الكريم : ﴿ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ اتَّقَاكُمْ ﴾ (٤٩ : ١٣) ويقول في الحديث الشريف « اليوم أرفع نسي وأضع أنسابكم ، أين المتتقون ؟ » ، ويقول الشاعر :

لعمرك ما الإنسان إلا بدينه

فلا تترك التقوى انكالا على النسب

لقد رفع الإسلام (سلمات) فارس

كما وضع الكفر الشريف (أباهب)

فما نرى من أبناء يعقوب ليس يبدع في التاريخ بل له نظائر وشواهد تدانيه وتقاربه وإننا نجتزئ بالبعض منها فنقول :

١ — انظر لآدم (ع) مع كونه نبياً ورسولاً لم يؤثر على ولده (قايين) ،

فكان شريداً فاسداً ، حتى قتل شقيقه (هايل) ؛ ولماذا ياترى ؟ لا لشيء سوى أن (هايل) رجل صالح تقي قد تقبل الله منه تقدمته ، وان (قايين) رجل عاص طاغ ، فلم يتقبل الله منه التقدمة ، قال تعالى : ﴿ وَاْتَلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ابْنِ آدَمَ

بالحق، إذ قرَّبنا قُرْبَانًا، فَتَقَبَّلَ مِنَّا أَحَدِيهِمَا، ولم يُتَقَبَّلْ مِنَ الْآخَرِ، قال: لَأَقْتُلَنَّكَ، — قال إنما يتَقَبَّلُ اللهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ، لَتَنُوبَنَّ بِسَطَطِ يَدِكَ إِلَيَّ لِتَقْتُلَنِي، ما أنا بِبِاسِطِ يَدِي إِلَيْكَ لَأَقْتُلَنَّكَ، إنِّي أخافُ اللهُ رَبَّ الْعَالَمِينَ، إنِّي أُريدُ أَنْ تَبْؤُءَ بِإِثْمِي وَإِثْمِكَ، فتكون من أصحاب النار، وذلك جزاء الظالمين، — فطوَّءَتْ لَهُ نَفْسُهُ قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُ، فأصبحَ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴿٥ : ٣٠ - ٣٣﴾ .

٢ — انظر إلى نوح (ع) فهو مع كونه نبياً مرسلًا، لم يؤثر على ابنه كنعان، ولا على امرأته أم أولاده، فكانا كافرين به، مخالفين له، كما مرأة لوط (ع) قال تعالى: ﴿ضَرَبَ اللهُ مَثَلًا لِلَّذِينَ كَفَرُوا — امْرَأَةٌ نُوحٍ وَامْرَأَةٌ لُوطٍ، كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَالِحَيْنِ، فَخَانَتَاهُمَا فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا مِنَ اللهِ شَيْئًا، وَقِيلَ: ادْخُلَا النَّارَ مَعَ الدَّاهِلِينَ﴾ (٦٦ : ١٠) .

٣ — انظر إلى ابراهيم (ع) نبي الله ورسوله وخطيله، لم يؤثر على أبيه آزر (تارح) فكان عدوًّا لله (٥ : ١١٥) .

٤ — انظر لاسحق (ع) نبي الله ورسوله، لم يؤثر على ولده (عيسو) الذي كان حقد على أخيه يعقوب (ع) وسخط وغضب عليه، ونوى متى توفي أبوه إسحاق أن يقتله، كما يعلم هذا كله من التاريخ، ونعلم منه أيضاً أن المقاومة والمناوأة كانت على أشدها بينه وبين شقيقه يعقوب، فكان عدوًّا له، مخالفاً له في المسلك والأخلاق ومنحطاً جداً أمام ارتقاء أخيه، ولذلك لم تقع به البشارة في قوله تعالى: ﴿فَبَشِّرْ نَاهَا بِاسْحَاقَ، وَمِنْ وَرَاءِ إِسْحَاقَ يَعْقُوبَ﴾ (١١ : ٧١)، ولم يمتن الله هيبته لأبيه في قوله: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ نَافِلَةً، وَكُلًّا جَعَلْنَا صَالِحِينَ﴾ (٢١ : ٧٢) .

٥ - انظر إلى يعقوب (ع) لم يؤثر على خاله (لابان) إذ بقي في وثنيته رغمًا عن كونه خاله وحماه، ورغمًا عن انه قد صحبه نحو (٢٠) سنة .

٦ - انظر إلى داود نبي الله ورسوله والخليفة في الأرض بعد حميه الملك (طالبوت) فهو لم يؤثر على ولده (أمنون) الذي ذكر التاريخ انه اغتصب أخته (ثامار) - والمهدة في ذلك على مؤرخي التورات- وكذا لم يؤثر على ولده (أبسالوم) الذي قيل أنه أمر غلماناه بقتل أخيه (أمنون) في وليمة دعاه إليها ، انتقاماً منه لشقيقته (ثامار) فقتلوه ، وكذا لم يؤثر على ولده (أبسالوم) أيضاً في حادثة أخرى ، وهي أنه كان أفسد الشعب على أبيه ، ليكون بدله في الملك ، حسداً لأخيه (سليمان) إذ كان أبوه يميل إليه ، وكان حق الملك بحسب السن إلى (أبسالوم) ، لأنه كبير إخوته حينئذ ، فقام على أبيه وتملك في حياته ، وحارب أباه حتى دخل عاصمة ملكه (أورشليم) ، وأجأ أباه للهرب منها ، وفيما بعد قتل (أبسالوم) في ميدان الحرب ، كما ذكر ذلك المؤرخون .

٧ - انظر إلى سليمان (ع) وهو نبي مرسل ، وملك قوي ، وكان ابنه (رحبعمام) تربي بين يديه ، وتحت نظره ، ثم تولى الملك بعده ، فأثار روح الغضب في الشعب بسوء إدارته ، فسبب انقسام المملكة لاثنتين ، إذ خرج عليه عشرة أسباط وشكلوا المملكة الشمالية ، ولم يبق معه سوى سبطين ، هما يهوذا وبنيامين ، الأمر الذي سبب الضعف والانحلال والمعاربات الداخلية والخارجية ، حتى فنيت المملكتان ، ولم نر أن تربية سليمان لولده رحبعمام أثر في حسن حاله واستقامة إدارته شيئاً .

٨ - قد تخاصم أخوان من بني إسرائيل وتحاكما إلى نبي الله داود (ع) وليس على أمر ذي بال ، ولكن على نعمة من الغنم كما قال تعالى : ﴿ وهل أتاك نبأ ﴾

الخصم إذ تسوروا المحراب ، إذ دخلوا على داود ، ففزع عنهم : قالوا : لا تخف ، خصمان بغى بعضنا على بعض ، فاحكم بيننا بالحق ولا تشطط ، واهدنا إلى سواء الصراط ، إن هذا أخي له تسع وتسعون نعجة ، ولي نعجة واحدة ، فقال أكفلننيها وعزني في الخيطاب ، - قال : لقد ظلمك بسؤال نعجتك إلى نعاجه ، وإن كثيراً من الخسطاء ليبغى بعضهم على بعض ، إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات ، وقليل ما هم ﴿ (٣٨ : ٢١ - ٢٤) فهذا الأخوان هما من الشعب الإسرائيلي من رعايا داود بصفته ملكاً ، ومن مرديه بصفته خليفة ، ومن أمته بصفته نبياً ورسولاً ، ومع ذلك فلم تؤثر تربيته لهما على المتعدي منها أن لا يكون قد تعدى على أخيه الفقير المسكين .

٩ - قد تعدى (أدونيا) بن داود (ع) من زوجته (حجيث) ، على أخيه (سليمان) بن داود من زوجته (بثشبع) فجلس (أدونيا) المقتصب على عرش مملكة أورشليم المعهود به من داود لسليمان ، والمبايع عليه من الشعب ، ثم رجعت المياه لجاريها ، وردت الملك المقتصب لصاحبه الشرعي ، كما قال تعالى : ﴿ ولقد فتننا سليمان ، وألقيننا على كرسيه جسداً ، ثم أناب ، قال : رب اغفر لي ، وهب لي ملكاً لا ينبغي لأحد من بعدي ، إنك أنت الوهاب ﴾ ﴿ (٣٨ : ٣٤ و٣٥) .

١٠ - وهذا أبو العباس السفاح قتل نحو (٩٠) رجلاً من بني أمية ، كانوا جلوساً على مائدته يأكلون ، فأمر بهم ، فضربوا بالعُمُد حتى قتلوا ، وبسط عليهم الأنطاع فأكل الطعام عليها ، وهو يسمع أنين بعضهم حتى ماتوا جميعاً ، كما في ابن الأثير .

وتتبع بنو العباس من كان بالشام من أولاد الأمويين الخلفاء وغيرهم فأخذهم .

وقتلوهم ، ولم يفلت منهم أحد ، سوى رضيع أو من هرب منهم إلى الأندلس ، ولم يكتبوا بذلك بل عمدوا إلى قبور بني أمية فنبشوها ، توصلوا لحو أثارهم ، وأخرجوا جثة هشام فضربوها بالسياط وصلبوها ، وحرقوها وذرروها في الهواء .

١١ - وهذا أبو جعفر المنصور أمر بقتل بضعة عشر رجلاً من آل الحسن رضي الله عنه فقتلوا جميعاً بعد نقلهم من المدينة الى العراق .

١٢ - وهؤلاء هم سلاطين آل عثمان فمنهم من قتل أولاده ومنهم من قتل اخوته ومنهم من حارب أباه ومنهم من قتل نساء أبيه .

١٣ - وأخيراً هذا أبو لهب عم النبي ﷺ وهذه زوجته (أم جميل) القرشية كانا على أشد العدا والمقاومة للنبي ﷺ ، رجل يفسد عليه الرجال ، وامرأة تفسد عليه النساء .

وعلى الجملة فإيذاء الأقارب بعضهم لبعض مهود في التاريخ ، تمثيلاً مع قاعدة (الأقارب كالعقارب) و (الأقارب لا تقارب) ، و (امرأة الأب نعمة من الرب ، لا تحب ولا تحب) و (الم عمى ، والخال خال من المنفعة) و (صلوا و اقربا باتكم بولا تجاوروهم ، فإن الجوار يورث بينكم الضغائن) ، و (رب أخ لك لم تلده أمك) .

إن كل ما ذكرناه من الأمثلة التاريخية لا يشابه ولا يداني حادثه هؤلاء آباء الأسباط الكرام !! لأن تلك الحوادث جرائم فردية لا أهمية لها باعتبار أنها صدرت من فرد سقط في هوة الغلط ، وأما أن إخوة عشرة كبار ، كهول وشيوخ أزمعوا على قتل أخ لهم هو أصغرهم فهي جريمة صدرت من جمع ، وهي من الأهمية والغرابة بمكان !! لا سيما إذا تصورنا أنهم أبناء نبي ورسول ، ثم لا سيما إذا تصورنا أن حاله تشبه حالة من قال : « غيري جنى وأنا المذبذبة فيكم » ، ثم لا سيما إذا تصورنا

أنهم أخذوه من أيه تحت اليهود والأيمان أن يحفظوه ويكلاؤه ، ثم وأخيراً إذا تصورنا أنهم بذلك العمل يكونون: قد أغضبوا أباهم عليهم وأحزنوه ومرروا عيشته !!! فلا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم ، ولا نقول في شأن هؤلاء الناس آباء الصيونييين إلا ما يرضى الشريعة ، فاللهم أدم ضرب الزلة والمسكنة عليهم إلى يوم الدين .

أصوات من المستعنين:

(آ... مين)

(اقتلوا يوسف . الخ)

— ٥ —

وقال الامام الدمشقي القيسري (١) :

لي هنا على هذه الآية الكريمة الكلمات التالية:

التستر وراء الدين للتوصل للمآرب الشخصية:

الكلمة الأولى — في تلك الجلسة المشؤمة، جلسة المؤامرة القاسية على يوسف أبدوا هذا الرأي الوخيم ، إصغاء لنداء الحسد والفيرة والأثرة ، ومع الأسف لم يصفوا لنداء ضمائرهم ، وإلا لما افتكروا هذا الفكر الرديء .

ورغمًا عن أن قلوبهم كانت تناجيهم بأن هذا الفكر سيء ، فقد تماهدوا عليه وتواتقوا ، وصموا على إبرازه من حيز القول لحيز العمل ! ، — لولا أن قال قائل منهم بغير مقالاتهم ، ورأي رأيا غير رأيهم — وقد احتجوا على الإقدام على هذا العمل الخطير بدفع تشويش معيشتهم مع أبيهم ، وتفرغه لهم .

(١) نسبة الى حي القيسرية بدمشق (سورية)

وما أشبه هذه المؤامرة بالمؤامرة التي صارت بين « البركة » بن عبد الله التميمي و « عمرو » بن بكر التميمي ، و « عبد الرحمن بن ملجم » المرادي ، لأجل قتل الأول « لماوية » بن أبي سفيان ، وقتل الثاني « لعمر بن الماص » وقتل الثالث « لعلي » بن أبي طالب رضي الله عنه ، تذاكروا واتفقوا على قتلهم ، دفناً للفتنة وإراحة المسلمين منهم — في زعمهم — ، هذه شبهتهم التي هي أوهى من بيت العنكبوت ، كما أن شبهة إخوة يوسف أضعف من لعاب الشمس ، ومع ذلك فيوجد فرق كبير ، أو فروق كبيرة ، بين هذه الحادثة وتلك الحادثة الأخرى .

واعجباؤه لعمرى إن هذا شيء لم يسمع بمثله في تاريخ الجرائم ، هاجت فيهم عوامل الغيرة ، ولا ذنب ليوسف سوى أنه وجد في طريقهم لأبيهم عرضاً وهو لا يعلم ولا يقصد ، وما أقدر المشيء لهذه الفكرة ؟ فقد تلتطف وتعلل بهذه العلة الدينية ، علة أن أباهم لم يزدحم حباً عن يوسف لأنهم انفع منه ، بل لم يساويينه وبينهم في الحب كما هو الواجب ، عللوا بذلك — وهم يعلمون فساده — توصلاً للقضاء على أخيه ! كمنوا وراء أكمة الدين ، ليُصمّموا إنساناً هو من أهل الدين باسم الدين ، يتسترون بذلك تفضيلاً للجاهلين ، وفي الحقيقة إن الدافع لهم لهذا العمل إنما هو العداوة والتزق ، وثورة القوة ونشوتها .

عجباً لهؤلاء الإخوة الأكارم أجداد الصيونيون الرحماء ! أشاروا بهاتاه المشورة السؤي ، وألبسوها لباساً دينياً ، ليستثمروها ويستخدموها لغرضهم الشخصي النفساني فوا أسفاه !

نحمد الله تعالى على أنهم لم يكونوا قضاة إذ لو كانوا كذلك لحكموا بالموت على كل إنسان أجمل منهم أو أعلم أو أثرى أو أكمل ، ولماذا ! لأنه يشغل الناس عنهم ، ولما كانوا حكموا على كل من كان أفضل منهم بالموت ، فتأملوا واعجبوا .

الحسد والغيرة والعداء هي أصل كل شر

الكلمة الثانية — نرى من قولهم : ﴿ يَخْلُ لَكُمْ وَجْهَ أَيْكُمْ ﴾ انهم لم يأتوا على ذكر القتل أو الإبعاد ، إلا مشفوعاً بذكر خلوة أبيهم إليهم ، فالنتيجة التي توخوها من الإيقاع بأخيهم سالحة وحسنة جدا ، ولكن مقدمتها ثقيلة جداً ، وغير جائزة ، فهم كمن يريد أن يسرق المال ، ليتصدق منه أو الماء ليتوضأ به ، على مذهب من يقول : (النتيجة تبرر الوسطة) وهو غلط فاحش ولذلك نراه أخيراً عدلوا عن هذه المقدمة الى مقدمة اخرى ، هي وان تكن ايضاً غير جائزة ، لكنها أخف من سابقتها ، « وبعض الشر أهون من بعض » فالإيقاع بأخيهم ايس عندهم مقصوداً لذاته ، بل هو يراد كواسطة للوصول الى أمر مطلوب لذاته ، هو توجه أبيهم اليهم ، وحنانه وعطفه عليهم ، وكذريعة لحصولهم على خلوة يجدونها في قلب أبيهم يسكنون فيها ، ولكن هذا كله بحسب ظاهر كلامهم ، والحقيقة أن العامل الوحيد الذي دفعهم لذلك هو الحسد ، لا غير .

إن كانت محبة الأب لأولاده ، وتوجه نظره إليهم ، لا تكون الا بقتل ابنه المحبوب الوديع ، فرحمة الله على الفضيلة ، وإييك الباكون عليها ، وعلى مصيرها المحزن الأليم ، عجباً لهؤلاء الأبناء الأذكىاء !! الذين يريدون أن يحبهم أبوهم ، ويخلص لهم ، على حساب ظلم ابنه المحبوب وقتله !

ومع ذلك ، ففني عن البيان أن عملهم هذا الذي افكروا فيه مبدئياً ، يزيد الطين بلة ، وانقلب علة ، ويوجب زيادة عدم عناية أبيهم بهم ، فيؤدي إلى عكس النتيجة المطلوبة لهم ، ولكن عوامل الغيرة ، وبواعث الحسد والعداء هو نت عليهم هذا الأمر العسير ، وصورت لهم الحال ممكناً وجعلتهم يتخيلون

المانع سبباً موجباً ، حتى أقاموا على أخيهم حرباً أهلية ، وتأمرؤا على ضره بحجة ما أنزل الله بها من سلطان

النتيجة عند اليهود تبرر الوساطة مرهما كانت منحطة

الكلمة الثالثة - قالوا : ﴿ يَجِدْ لَكُمْ وَجْهَ أَيِّكُمْ .. الخ ﴾ فتمنؤا أن تكون حالهم بحيث يصدق عليها قول القائل :

يَا لِكِ مِنْ قَنْبُرَةٍ بِمَعْمَرٍ
وَقَنْبُرِي مَا شئتُ أَنْ تَنْقَرِي^(١)
خِلالِكَ الْجَوِّ فَبَيْضِي وَاصْفِرِي

مَنَؤوا أنفسهم بهذه الأمانة التي هي بريدة عنهم بعد السماء عن الأرض ، ووعدوا أطعامهم بما هو ضرب من المحال ، لأنهم بالاقدام على هذا الحوب الكبير يشرون حفيظة أبيهم عليهم بعكس ماتخيلوا .

وأما قولهم ﴿ وتكونوا من بعده قوماً صالحين ﴾ فشبكة أرسلوها ليصيدوا بها ثلاثة أشياء : « ١ - صالحين أي تائبين الى ربكم مما جنيتم على أخيك ، ٢ - صالحين أي يصلح ما بينكم وبين أيكم بعذر تهدونه له ، ٣ - صالحين : أي تصلح دنياكم وتنظم أموركم بعده بخلو وجه أيكم لكم ، وتصيروا مسرورين فرحين ، فهذه ثلاثة معان ، صيرت برمية واحدة ، وهذا هو شأن اليهود من القديم ، وهذا هو حال سلاتهم الصهيونيين اليوم في فلسطين ، النتيجة تبرر الوساطة ، فهما كانت منحطة وسافلة !!! .

(١) المعمر : المنزل الكثير الماء والكلاء او هو اسم لموضع بينه

نقر (بتشديد وفتح القاف) : في الموضع تنقيراً سهله لبيض فيه . ونقر (بتشديد القاف) صوت (بتشديد الواو)

ان اكرمكم عند الله اتقاكم

الكلمة الرابعة - يتبين من إرادتهم قتل أخيهم ظلماً أنه ليس يكفي الانسان حتى يكف عن الأذى الوخيم أن يكون ابن نبي الله، أو من سلالة بيت كريم بل يجب قبل كل شيء أن يكون ابن تربية كاملة ، صاحب أخلاق فاضلة ، ونفس كريمة ، تمنعه من ارتكاب ما لا يجوز في ملة من الملل ، ولعمري إنه كان يكفيهم أن يتفاهموا مع أبيهم في تفضيله يوسف في الحب عليهم ، قبل أن يفكروا في قتله ، والكي لا يكون إلا آخر الدواء.

بعض طبائع الاسرائيليين

الكلمة الخامسة - قص الله تعالى مفاوضة هؤلاء الاخوة في قتل أخيهم ليقفنا على بعض طبائع الإسرائيليين التي منها أنهم قد يجتمعون على شر الشرور، ولا ينجل بعضهم من بعض ولا يبالي بضميره ، وإذا وجد فيهم واحد هو أحسن منهم، أشار عليهم بأخف الشرين ، ذلك لكي نعتبر ، ونكون دائماً على حذر ، من سلائهم اليهود (أبناء العم) المحترمين !! خاصة الصهيونيين ، الذين كأننا قانون الوراثة ، قد ظهر فيهم بأجلى أمثله .

ما هي افكار الصهيونيين اليوم مع ابناء اسما عيل

الكلمة السادسة - يظهر من مذكراتهم في موضوع القتل ، أنه كان قسم منهم من ذوي العزم والشرس ، وكان في قسم آخر نزع الشباب ، فغلت في قلوبهم مراحل العداة والتهبت في صدورهم نار البغضاء فلفظوا بهذا القول ، وقد أخذ

الحماس منهم مأخذ أعظيماً، هذه أفكارهم مع أبناء جلدتهم فماعسى تكون أفكارهم مع أبناء اسما عيل؟ وما هو الفكر اليوم عند سلاثلهم الصهيونيين! هل يقولون إلا كما قالت أجدادهم في الجزيرة: « لَيْسَ عَلَيْنَا فِي الْأُمِّيِّينَ سَبِيلٌ! » (٧٥:٣)

الطرح أرضاً في اللغة

الكلمة السابقة - قولهم ﴿ أو اطرحوه أرضاً ﴾ : يقال بلد طروح ومكان سحيق ، ومحلة نازحة ، والمعنى أبعدوه لغير أرض ، أبعدوه لأرض منكورة مجهولة بعيدة عن العمران ، اجتهدوا في ذلك ، فإن لهذا العمل ما بعده ، أتبهوه في يئداء مجتهد ، وعلى الدنيا السلام .

كلمة اطرحوه في القرآن

الكلمة الثامنة - راجعنا القرآن من أوله إلى آخره فلم نجد لفظه - اطرحوه - قد بدرت من فم جبار من الجبارة ، أو ظالم من الظلمة ، ولكن إنما رأيناها تلوح كالزهرة الياضعة على فم هؤلاء الأشبال الكرام !! في أخيه المغدور ، فلا .. ولا .. وإنما .. وإنما ..

الصريح وأقسامه

الكلمة التاسعة - قالوا (وتكونوا من بعده قوماً صالحين) يطلق الصلاح على الصلاح الدنيوي ، وعلى الصلاح الديني ، والآية التي هنا تحتل الوجهين ، كما احتملها ما في قوله تعالى : ﴿ وَأَنْكِحُوا الْأَيَامَى مِنْكُمْ وَالصَّالِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِمَائِكُمْ ﴾ (٢٤ : ٣٢) أي من كان تقياً غير مفسد، أو أريد بالصلاح القيام بحقوق

النساء ، وقوله تعالى : ﴿ ولقد كتبنا في الزبور من بعد الذِّكْرِ أَنْ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ ﴾ (٣١ : ١٠٥) أي المتقون ، أو الذين فيهم أهلية لخدمتها وعمرانها وحراستها والمحافظة عليها وإقامة العدل فيها ، ومن إطلاقه على الصلاح الدنيوي خاصة ما في قوله تعالى : ﴿ وَأَصْلَحْنَا لَهُ زَوْجَهُ ﴾ (٢١ : ٩٠) أي جعلناها صالحة للولادة بعد عقرها ، وقوله تعالى : ﴿ سَيَهْدِيهِمْ وَيُصَلِّحُ بِأَلْسِنَتِهِم ﴾ (٤٧ : ٥) أي يحسن أحوالهم الدنيوية ، وأما شواهد إطلاقه على الصلاح الديني خاصة ، فهي في كتاب الله أكثر من أن تحصر .

الحسد والغبطة والمنافسة

الكلمة العاشرة — تعلمون أن الحسد هو تمني زوال النعمة عن الغير ، بأن يتمنى الإنسان أن يفرق مال فلان أو يُحرق ، أو أن تزول عنه الأرباح في تجارته أو تتبدل محبة الناس له بكرهاتهم إياه ، وعلى الأقل تزول تلك المحبة ، أو أن تتحول عاقبته إلى مرض ، أو يموت أولاده ، أو يعزل في منصبه ، وهكذا لا فرق في ذلك بين الحسد على الأمور المادية ، والأحوال المعنوية ، كما لا فرق بين أن يتمنى تحول هذه النعمة إليه أو إلى غيره ، ولا فرق في هذا التمني بين أن يكون تمنياً قلبياً فقط بحيث لا يتعدى الفكر ، أو تمنياً يترتب عليه السعي بالمكر ، بأن يسعى لإزالة الربح أو الحب عن المحسود ، وأن يبذل جهده في إحباط عمل المحسود ، وعدم معاملة الناس له أو عدم إسناد المنصب له ، إلى غير ذلك ، وهذا النوع حرام ممقوت يمتنعه الله وملائكته ، وأهل المرؤة من الناس ، وهو معدود من الكبائر ، وهو يشف عن سوء النية ، وخبث الطوية .

وأما تمني مثل نعمة الغير من غير أن تزول عنه تلك النعمة فهو حسد محمود ،

ويسمى بالحقيقة « غبطة » ولا يسمى حسداً إلا مجازاً ، وصوره ذلك أن يجاري الرجل غيره ويسابقه مسابقة ، ويجتهد اجتهاده ويحصل الأسباب التي اقتضت ثروة غيره مثلاً ، ويسلك المسلك الذي سلكه غيره من الناس المحبوبين حتى يصير محبوباً مثله .

وهذا النوع من الحسد ، وبعبارة أصح من الغبطة ، إنما وجد في الإنسان اطلب المجد والرفعة وعلو الشأن ، وليسابق الإنسان غيره في المفاخر والفضائل والمجد والثروة ، فتربو المساعي ، وتكثر الأعمال ، ويزداد العمران ، وترفى نوع الإنسان ، وهذا النوع من الحسد ، كما يسمى (غبطة) فهو حقيق أيضاً بأن يسمى (منافسة) .

واعلم أن الحسد لا يكون إلا بين المتشاركين في حال ، كالجار والصرير والقريب ، وكالمشارك لك في صناعة أو تجارة أو زراعة ، أو اماره أو علم أو سن ، أو المقيم معك في مدرسة أو منزل أو شارع أو بلد ، وأكثر ما يكون الحسدين الجيران والأقارب ، مع المعاصرة في الزمن ، والمقاربة في السن ، والمشاركة في المسلك ، وكلما ارتفع صيت الإنسان حسده من يشاركه في ذلك الصيت ، ويزاد الحسد كلما ازداد الصيت وحسن الذكر ، وكلما زادت ثروة المحسود ، وكثرت أعماله وأعماله .

عمل اخوة يوسف مع يوسف من الحسد المقوت المشؤوم

إذا تقرر هذا فعمل إخوة يوسف مع يوسف ، هو ليس من قبيل الحسد المحمود ، الذي هو حسد الغبطة أو المنافسة ، لأنهم لو أرادوا هذا المعنى لبحثوا عن الأسباب التي اقتضت زيادة محبة أبيه إليه ، وأنصفوا بها وسلكوا المسلك الذي

يسلكه يوسف ، لكي يتحصلوا على مثل تلك الدرجة من الحب ، فكان يجب عليهم ، بدلاً من أن يفكروا في الإيقاع بيوسف أن يجتمعوا ويتفاوضوا فيما يعود عليهم بمحبة أبيهم إليهم ، وعطفه عليهم بمثل درجة محبته وميوله ليوسف ، ثم ليس هو من قبيل الحسد المقوت فقط ، لأنهم لم يتمنوا زوال نعمة الحب فحسب ، بل تمنوا وافكروا في إزالة شخص أخيهم من الوجود ، أو على الأقل من فلسطين وهذا النوع من الحسد نادر المثل ، وهو أزل وأفحش أنواع الحسد المشؤومة .

سبب اقتصار الاخوة الحكم على يوسف وحده

الكلمة الحادية عشرة — تعلمون أنهم كانوا أولاً ذكروا يوسف وأخاه بنيامين ولكننا زمام الآن لم يتفاوضوا إلا على يوسف فقط ، فلماذا يا ترى ؟ والجواب لائق وهو أن يوسف في نظرهم هو علة الملل ، هو العلة الوحيدة ، هو أساس كل علة. هو المدو الأزرق ، هو العقبة الكؤود التي إذا زالت زالت كل أتعابهم ، وأما بنيامين فليس مهماً كثيراً في نظرهم ، لأنهم لم يسمعوا منه يوماً أن الكواكب خرت من السماء وسجدت بين رجليه ، فلم يكن قد أخذ من قلب أبيه عشر معشار ما أخذه يوسف .

ما أتت الليلة بالبارحة أو حال الصربونيين اليوم مع عرب فلسطين

الكلمة الثانية عشرة — أتم تسمعون الآن أن هؤلاء الأشبال يقولون : ﴿ اقتلوا يوسف أو اطرحوه أرضاً يخل لكم وجه أبيكم وتكونوا من بعده قوماً صالحين ﴾ وأما نحن فنعلق عليه بأن الدم الذي كان يتمشى في عروق هؤلاء

الأجداد هو الدم الذي يتمشى اليوم في عروق السلائل اليهودية الصهيونية وما أشبه الليلة بالبارحة ، فالصهيونيين اليوم - حيث طال عليهم الأمد فقتت قلوبهم - يريدون قتل أبناء عمومتهم العرب!!! الواقفين أمامهم في جبهة فلسطين ، يريدون قتلهم معنوياً بسلب أراضيهم ، والهجوم على اقتصادياتهم ، ومرافق حياتهم ، وكل أسباب عيشهم من مناصب حكومة ، إلى فلاحه إلى تجارة ، إلى كل منابع العز والثروة كما أنهم بالتالي والنتيجة يريدون طرح إخوانهم العرب أرضاً ، بإلجائهم للبعد عن فلسطين ، والتغرب لتناول القوت في شتى البلاد ، وقسرم لذلك قسراً وذلك حرصاً منهم على أن يكونوا أكثرية في فلسطين ، بل أن لا يكون غيرهم فيها ، فيشكلوا تلك الدولة الصهيونية الخيالية بهمة زعمائهم !! ويكونوا من بعد هذا كله قوماً صالحين ﴿ (ع ٩) ﴾ تصلح لهم أمور دولتهم ، ويفرضون على بقايا العرب الذين سيحتالون في بقائهم في فلسطين أن يكونوا «محتطبي حطب ومستقي ماء لسكل جماعة» . (يش ٩ : ٢١) فيا أيها العرب والمسلمون : إن موعد اليقظة والحذر قد اقترب ، فاحتاطوا لأنفسكم ، قبل أن يحاط بكم ، وإياكم أن تستبعدوا ما أقول ، لأنه إذا كان أجدادهم آباء الأسباط افتكروا هذه الفكرة في حق بعضهم ، فهل من البعيد أن يفتكروا نفس هذه الفكرة أو أسوأ منها في بني عمهم العرب ؟ هذا وليس صهيونيو اليوم بأفضل من آباؤهم ، كما أن عرب اليوم ليسوا بأحسن من يوسف (١) .

شواهد من التوراة على صلابة اليهود وفسادتهم ووحشيتهم

حقاً إن اليهود حجرة عثرة ، وعظمة يابسة في حلق كل العالم الذي على وجه المسكونة .

(١) لقد كتب المؤلف هذا الكلام قبل سنة ١٣٥٥ هـ (١٩٣٦ م)

وعيناً إنهم سبب كل اضطراب ، وعلة كل تشويش وجد ويوجد فوق الكرة الأرضية ، فقدماً أتبعوا بمقوب وأحزنوه ، كما تراه في هذه السورة ، وأتبعوا موسى وآذوه ، حتى قيل في شأنهم : « وقال الرب لموسى : رأيت هذا الشعب ، وإذا هو شعب صلب الرقبة ، فالآن اتركني ليحمني غضبي عليهم وأفنيهم » (خر ٣٢ و ٩ و ١٠) وعن النبي حزقيال : « وقال لي : يا ابن آدم ، أنا مرسلك إلى بني إسرائيل ، إلى أمة متمرده ، قد تمرت عليّ ، هم وآباؤهم عصوا عليّ إلى ذات هذا اليوم ، والبنون القساة الوجوه والصلّاب القلوب أنا مرسلك إليهم فتقول لهم : هكذا قال السيد الرب ، وهم إن سمعوا وإن امتنعوا لأنهم بيت متمرده ، فإنهم يعلمون أن نبياً كان منهم ، أما أنت يا ابن آدم . فلا تخف منهم ومن كلامهم لا تخف ، لأنهم قريس وسلاء لديك ، وأنت ساكن بين العقارب ، من كلامهم لا تخف ، ومن وجوههم لا ترتعب ، لأنهم بيت متمرده ، وتكلم معهم بكلامي ، إن سمعوا وإن امتنعوا ، لأنهم متمرّدون » (حز ٢ : ٣ - ٧) ، وقال الرب : « لكن بيت إسرائيل لا يشاء أن يسمع لك ، لأنهم لا يشاؤون أن يسمعوا لي ، لأن كل بيت إسرائيل صلاب الوجوه وقساء القلوب » (حز ٣ : ٧) ، وقال الرب . « فلم يسمعوا بل صلبوا أقيبتهم ، كأفية آبائهم » (٢ مل ١٧ : ١٤) وقال : « صلبوا وجوههم أكثر من الصخر » (إر ٥ : ٣) وقال : « فلم يسمعوا لي ولم يميلوا أذنينهم ، بل صلبوا رقابهم ، أساءوا أكثر من آبائهم » (إر ٧ : ٢٦) وهكذا هم لم يزالوا على هذا الحال إلى أيام مملكتي الكلدان والآشوريين ثم أيام مملكتي اليونان والرومان ، فأزعجوا الكل وأتبعوا الجميع ثم في الأيام الأخيرة أخرجهم الروس والألمان من بلادهم ، واليوم بعد الحرب العالمية انصب فوق رؤوس العرب في بلاد فلسطين ، نسأل الله السلامة من كيدهم آمين .

يهود اليوم متخرجون على مدرسة اليهود القداماء

الكلمة الثالثة عشر - إن كان من الممكن فهم نظرية إخوة يوسف السابقة وهي قولهم إن أباهم لم يساو بين الاخوة في المحبة ، فليس من الممكن مطلقاً فهم النظرية الحاضرة ، وهي معاقبة من لم يذنب معهم شيئاً ، وياليت هذه المعاقبة لطيفة ، لا .. ولكنها تدور بين إزهاق الروح والنفي من الوطن ، وعلى كل فإن هذه الأفكار السامية !! لا تصدر إلا من المتخرجين على (المدارس القديمة) ، بل لا تصدر إلا من قوم لم يتذوقوا طعم الانتساب لأي مدرسة ، ولو ابتدائية ، مع أنهم تحت نظر معلم يصلح أن يكون استاذاً من الدرجة الأولى . في أكبر مدرسة أخلاقية دينية ، بل هم لم يكونوا تحت نظر استاذ واحد فقط ، ولكنهم كانوا تلاميذ معلمين اثنين كبيرين ، هما يعقوب وإسحاق ، إنما تأثير الإنسان ، أي إنسان كان ، مع تلك الظروف والبيئات ، وفي ذلك المحيط المنحط - على كل حال ضعيف :

﴿ إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ ، وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ ﴾ (٥٦: ٢٨)

و ﴿ لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ ﴾ (٣ : ١٢٨) آمنت بالرب الأعلى الذي خلق فسوى ، والذي قدر فهدى ، كما آمنت انه لا إله إلا هو ..

غيري جنى وأنا المذنب فيكم

الكلمة الرابعة عشر والأخيرة - قلنا إن المذنب - في نظر الاخوة - أبوهم يعقوب - حاشاه عليه الصلاة والسلام - وأما أخوم ، فما ذنبه يا ترى ؟! حتى يستحق هذا العقاب !! ، إنه والحق يقال ينطبق عليهم قول القائل : « غيري جنى • وأنا المذنب فيكم !! » ، وغني عن البيان أن فعلهم هذا إنما يوجب اغترار أبيهم

وانكاشه عنهم ، دون توجه إليهم ، فما وجه هذا الاستنتاج الذي استنتجوه ؟ ..
الجواب هو أن ضغط الحسد والغيرة أثر على أعصابهم ، فصاروا في حالة غير اعتيادية
فقالوا ما قالوا ، ثم فعلوا ما فعلوا ، مما كان نقطة سوداء في تاريخ حياتهم .
(صدقت ، صدقت ، ولا فض فوك)

تعديل الحكم

آ (١٠) ﴿ قَالَ قَائِلٌ مِنْهُمْ : لَا تَقْتُلُوا يُوسُفَ ،
وَأَلْقُوهُ فِي غِيَابَةِ الْجُبِّ ، يَلْتَقِطُهُ بَعْضُ السَّيَّارَةِ ،
إِنْ كُنْتُمْ فَاعِلِينَ ﴾

افتتحت الجلسة وتليت الآية العاشرة ، فقام العلامة المصري وقال :

﴿ قَالَ قَائِلٌ مِنْهُمْ وَهُوَ يَهُودًا وَكَانَ أَحْسَنُهُمْ فِيهِ رَأْيًا ﴾ لا تقتلوا يوسف ﴿
فالقتل عظيم ، ﴿ وَأَلْقُوهُ فِي غِيَابَةِ الْجُبِّ ﴾ - وهي ما غاب منه عن عين الناظر وكان
في ناحية منه - ﴿ يَلْتَقِطُهُ ﴾ بأخذه على وجه الصيانة عن الضياع والتلف ، فإن
الالتقاط أخذ شيء مشرف على الضياع ﴿ بَعْضُ السَّيَّارَةِ ﴾ أي بعض الأقوام الذين
يسرون في الطريق ﴿ إِنْ كُنْتُمْ فَاعِلِينَ ﴾ أي ان كنتم عازمين على أن تفعلوا ما يحصل
به غرضكم فهذا هو الرأي .

(قال قائل منهم .. الخ)

— ١ —

ثم تابع العلامة المصري كلامه قائلاً :

طلب تعديل الحكم على يوسف

نعم أيها السادة كأنني بهذا القائل وهو يهوذا قد أفاق من غفلته ورجع إلى نفسه ثم وقف على مرتفع وأخذ يخطب في إخوته قائلاً : يا إخوتي ، إن أخاكم إنفاً يرفع أمام أعينكم عصا والده ، وإنفاً يحاربكم بسيف أبيه ، وهو لا يترفع عليكم إلا باستناده لولي نعمته ، هذا إذا سلمت لكم أنه يوجد منه ما يمسك عليه ، والواقع أنه لم يصدر منه شيء ما ، وإنفاً المستول عن هذه الحالة ومغبتها هو أبوكم ، فيوسف لا لوم عليه ، ولكن اللوم كل اللوم على أبيكم ، أنتم تنقمون عليه حب أبيه له بكثرة ، وهذا ليس من فعله ، بل من فعل والده ، فهو لم يعمل عملاً قط يستحق عليه القتل ، حتى ولا أقل من ذلك .

يا إخوتي ، إن ما ذكرتم من كون يوسف أحب إلى أينا منا ونحن عصابة يهمني جداً كما يهمكم ، ويسوءني تماماً كما يسوؤكم ، إنفاً يمكن مداواة هذا المرض بدواء أطف مما ذكرتم .

يا إخوتي ، لا تفعلوا ، لا تذهبوا شرفكم ضحية عواطفكم ، لا تستحوذ عليكم ميولكم ، أنا أرى أن لا تفعلوا مع أخيك شيئاً ما ، لأنه هو لم يعمل معكم شيئاً قط ، ولم يرتكب جرماً ، افكروا ملياً في هذا الموضوع ، فقد قال العلماء : « أصاب متأمل أو كاد ، وأخطأ مستعجل أو كاد » .

يا إخوتي ، لا تطلقوا لمواطنكم العنان ، لئلا تزيدوا الخرق اتساعاً ، بحيث نكون في شر فنقع في شر أعظم منه ؛

يا إخوتي ، يجب أن نحسب لقتله ألف حساب ، وألهاوأ كبيرها حساب (الإثوه) (١) ، وثانيها حساب الوجدان الطاهر ، والضمير الحي ، وثالثها حساب الكدر الشديد من والدنا علينا ، ورابعها حساب سوء سمعتنا وانحطاط منزلتنا عند من يعرف ذلك من الناس ؛

يا إخوتي ، إن قلبي لم يطاوعني على قتله ، وإن عقلي لم يساعديني على إزهاق روحه ، فإني أستكبر قتل نفس بريئة بدون سبب ما .

يا إخوتي ، أنتم تريدون أن تفعلوا به أكثر مما يستحق ، فإن كنتم فاعلين شيئاً ولا بد ، فيكفيكم أن تلقوه في الجب ليأخذه بعض المارة من المسافرين إلى حيث لا لقاء ، إنه لا يستحق أكثر من هذا ، بل إنه في نظر العدالة لا يستحق أيضاً شيئاً من ذلك ، وإن أيتيم إلا عمل شيء معه ، فليكم بأخف الأمرين ، وأهون الضررين ، وهو القاءه في الجب ، كما قلت لكم ؛

يا إخوتي ، إني لأكبر ما أسمع منكم ، وأخشى إن قتلتموه أن لا نحمدوا غيب رأيكم ، وشر الأعمال أسوأها منقبة ، على أني لا أرى علاقة بين ما تقولون من أن "والدكم يجب أخاكم أكثر منكم ، وأنه في ضلال من هذا القبيل ، وبين ما تطلبونه وتريدون أن تفعلوه بأخيك ، بينوا لي ما هي العلاقة بين اتقادكم على شخص وإراقتكم دم شخص آخر ، فإن قلتم أنه يستحق القتل لأنه استأثر بحجة والده ، فإني أقول لكم : إنه هو لم يستأثر ، لأن الفعل ليس منه ، ولكن الذي اختصه بأكثرية المحبة هو والدكم ، فإن قلتم إن أخانا هو العقبة الوحيدة ، الحائلة بيننا وبين قلب أينا فنحن نريد إزالة تلك العقبة ؛ فقد أقول إن الوصول إلى قلب

(١) لفظة عبرية معناها الإثوه .

أيكم لا يتوقف على خصوص إهلاك أخيكم ، بل يمكن التوصل لذلك بعمل طريقة لإباده من فلسطين ، كما قلت لكم ، هذا هو الرأي القصد الذي أراه لكم الآن ، والله يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم .
بخ ، بخ .

(قال قائل منهم .. الخ)

— ٢ —

وقال الشيخ المنصوري (١) :

لي هنا ثمانى كلمات ، كل كلمة مستقلة بنفسها منفردة عن إختوتها :

من هو « القائل » بتعديل الحكم على يوسف

الكلمة الأدرى — آناً كان الإخوة قالوا ما قالوا ، وفي صوتهم غنّة استفهام كأنهم يستفهم بعضهم بعضاً ، أنفعل ذلك ؟ أتقدم عليه ؟ ماذا ترون ؟ أشيروا علينا ، ليبين كل منكم رأيه .

وعليه فانتدب « يهوذا » نفسه لنصيحة إخوته بالعدول عن قتل يوسف ، وشرح لهم مضارّ هذا العمل وسيئاته ، وهكذا صار ، أن « خلاف شخص حور المؤامرة وعدّها ، وأثر في المسألة أثراً جديداً ، وما أحسن هذا الخلاف ؟ ولعمري إذا كان الاختلاف « رحمة » كما يقولون ، فهذا الاختلاف من مظاهر هذه الرحمة ، لأن الإلقاء في غيابة الجب ، وإن كان في نفسه نقمة ، لكنه رحمة بالنسبة الى إزهاق الروح والقضاء على الحياة ، « حنانيك بعض الشر أهون من بعض » .

(١) نسبة إلى المنصورة من البلاد المصرية .

فلذلك وعلى كل حال نحن لا نسمعنا إلا شكر هذا « القائل » ، ولعمري إنه حقيق بأن يمنع « نوط » الشرف الإسرائيلي من الدرجة الثانية ، لأنه قدر أن يؤثر على هؤلاء المتأمرين ، ويخفف شيئاً من ويل أخيه ؛

وهنا سؤال يذكركه بعض المفسرين ، وهو لمَ لم يُذكر هذا « القائل » باسمه يا ترى ؟ وجوابنا عن ذلك أنه لأجل أن يكون كل واحد منهم محتملاً أن يكون هو قائل هذا القول ، كما أنه في صدد المؤامرة بالقتل أو الطرح أرضاً لم يصرح باسم المؤامر الأول رئيس الحركة سترأ عليه ، ولا يقال إنه على هذا التوجيه ، لا ينبغي أن يعين أحدٌ منهم باسمه ، تأسيساً بالكتاب ، لأن ذلك مقام تفسير أو مقام تاريخ وهو فيه أمر مطلوب ، ولهذا وكون سفر التكوين تاريخياً محضاً ، تراه يذكر الأسماء بكل دقة ، وأما القرآن الكريم فإنه إنما يقصد منه العبرة والذكرى والعظة ، وشيء من ذلك لا يتوقف على تعيين القائل ، سواء أكان مشيراً بخير أو بشر .

وعلى ذلك وحيث نحن الآن نلقي هذه المحاضرات كمفسرين أو كمؤرخين ينبغي لنا أن نبحث عن هذا « القائل » من هو يا ترى ؟ .

إن سفر التكوين حكى أن هذا « القائل » هو « رأوبين » (تك ٣٧ : ٢١) ونقله مفسرونا عن « قتادة » ويقول السفر المذكور : إن « يهوذا » تبعه أخيراً على هذا الرأي ، (تك ٣٧ : ٢٦) ، وكلا القولين قريب من الصواب ، لأن النزعة الحزبية ضد يوسف كانت في هذين الأخوين ضعيفة جداً ، فهما لم يكونا حاقدين عليه تمام الحقد كغيرهما ، سيما وأن كلاً منهما كان في ذلك الوقت متزوجاً وذا أولاد ، فقياساً على نفسها يسهل عليها تصور عواطف والدهما يعقوب على يوسف ، وكيف تكون الشفقة على الصغير ، لأن الحنو لا ينضج ولا يبلغ أشده

إلا في قلب الوالد ، والوالد لا يقتصر حنوه على أولاده ، بل هو يتعود ذلك حتى يحن الى كل ولد ، وزد على ذلك ان « رأوين » كان أكبرم لأنه البكر ، فلا بد أن يكون إذ ذاك قد اكتهل وتجاوز سن الشباب والنزق ، ولاتنس أن « يهوذا » كان كبيراً أيضاً ، لأنه رابع أولاد أبيه ، وكان عاقلاً محنكاً وخطيباً مفوهاً ، هذه هي الاحوال التي تقرب صوابية القول بأن هذا « القائل » هو رأوين أو يهوذا ، بحيث كان كفرسي رهان في الحرص على تلطيف المصيبة التي يراد ازالها على رأس أخيها يوسف .

وأما لبيان الأرجح من هذين النقلين ، فقد قلت لكم أيها السادة : إن سفر التكوين يقول : إن هذا « القائل » ابتداءً هو « رأوين » ، وأما « يهوذا » فإنه هو في الآخر انعطف وضم صوته لأخيه رأوين ، وعندني أن تفسير هذا « القائل » يهوذا هو الأرجح ، بدليل أنه المتكلم الوحيد بين إخوته ، والخطيب البليغ ، وصاحب القول الثاقب ، كما ذكر ذلك المؤرخون ، فلذلك وحيث عبّر عنه بعنوان « القائل » كان هو يهوذا ، لأنه هو القوال الخطيب المفوه ، وأما « رأوين » فإنما يُعبّر عنه بالكبير ، كما سيأتي في قول الكتاب الكريم : ﴿ قال كبيرم ﴾ (ع : ٨٠) والواقع أنه كان أكبرم سناً ، فاختلاف العنوان دليل على اختلاف المعنوي عنه ، فان القرآن يمكن من الدقة التي لا يليق بالبليغ أن يغفل عنها عند كل كلمة .

القتل والطرح ارضاً سواء في النتيجة

الكلمة الثانية - م كانوا قالوا : ﴿ اقتلوا يوسف أو اطرحوه ارضاً ﴾ ، ولكن هذا « القائل » الآن إنما زاه بنهام عن الخصلة الأولى ، إذ يقول ﴿ لا تقتلوا يوسف ﴾

ولم يصرح بنهيه عن الخصلة الثانية ، وهي طرحه أرضاً ، ولماذا هذا يا ترى ؟ وجوابنا عن ذلك بأن مآل الخصلة الأخرى هو الموت أيضاً ، لأنه من ألقى في أرض بعيدة عن العمران مجهولة للناس كان مآله الموت ، إما جوعاً أو عطشاً أو من البرد أو بافتراس أحد السباع ، أو نحو ذلك مما يعرض للانسان الوحيد ، في البر البعيد ؟ ونظير قولهم هنا « اقتلوا يوسف أو اطرحوه أرضاً » قول مواطنهم أهل العراق في جده سيدنا إبراهيم ﴿ اقتلوه أو حرقوه ﴾ في قوله تعالى : ﴿ فما كان جواب قومه إلا أن قالوا : اقتلوه أو حرقوه ، فأنجاه الله من النار ﴾ (٣٩ : ٢٤) ، فكما أن مآل قتل إبراهيم وتحريقه واحداً ، وإن اختلف شكل الإزهاق ، فكذا هنا مآل قتل يوسف أو طرحه أرضاً واحداً ، وإن اختلف شكل الإزهاق ، وكما أن إبراهيم عقب ذلك هاجر ، فلقى في مهجره راحة وعزاً ، فكذلك يوسف عقب ذلك هاجر ، فلقى في مهجره راحة وعزاً ، وقريب منه أيضاً ما في قوله تعالى ﴿ قل : لئن ينفقكم الفيرار إن فررتهم من الموت أو القتل ﴾ (٣٣ : ١٦) فطرحه أرضاً هو الموت حتف الأنف المذكور هنا .

ابتعاد يهوذا عن الانتساب ليوسف دفاعاً عن مصلحة إخوته

الكلمة الثالثة - إن سأل سائل : لماذا قال يهوذا : ﴿ لا تقتلوا يوسف ﴾ ؟ فعبر عنه بعبارة ترمي الى أن يوسف كأنه أجنبي عن أخيه يهوذا ، ولم يقل : لا تقتلوا أخانا ، فالجواب عن ذلك أن يهوذا بهذا التعبير يفهم إخوته أنه لا يريد الالتصاق بيوسف ولا الانتساب اليه ، لأنه مغبون منه ، ولا يدافع عن شخصه لأنه أخوهم ولكنه بما قال يدافع عن مصلحة إخوته ، متناسياً من جهة يوسف كل نسب وأخوة .

غيابة البئر

الكلمة الرابعة - قال الطبرسي في تفسيره جمع البيان : غيابة البئر شبه لحف أو طاق فوق ماء البئر ؛ وقال الهروي : الغيابة في الجب شبه كهف أو طاق في البئر فوق الماء يغيب ما فيه عن العيون (آلوسي) ، وقال ابن جرير في تفسيره : غيابة الجب بعض نواحيها ، وفي صحيح البخاري في تفسيره : كل شيء غيب عنك شيئاً فهو غيابة .

الجب وهل هو جب معروف

الكلمة الخامسة - الجب : البئر التي لم تطو ، لأن الأرض تجب جياً لا غير ، وكما تسمى جياً تسمى « قليلاً » ، كانوا ولا يزالون في فلسطين يأتون للأرض الصخرية ويمجونها بالفؤوس والمعاول ، وكلما زلوا في الأرض توسعوا ، فيصير الجب أرضه وحوائطه الأربع وسقفه قطعة واحدة من الصخر ، وبما يقرب في الهيئة من الجباب الدحال ، جمع دحل ، وهو ثقب فيه ضيق وأسفله واسع ، وأقرب شيء يمثل الجب للقارئ هو الخيمة التي تكون من أسفل واسعة جداً ، مع كون أعلاها ضيقاً جداً ؛ كانوا يجيئون هذه الجباب في البراري ، كالبرية المحيطة بوادي دوثان ، وكانت تجف في بعض أيام الصيف ، ولا يبقى فيها ماء ، إلا في وهدة في وسط الجب على أسفله ، تحاذي بابه من اعلاه ، تبقى فيها بقايا الماء ، فتكون دوائر أرض الجب عديمة الماء في بعض أيام الصيف ، إلا في الجورة التي في وسطه ، وهذه الجباب هي لجمع ماء المطر وادخاره الى حين الحاجة ، ينزل فيها ماء المطر بواسطة قنوات على سطح الأرض مسلطة على تلك الجباب . وإنما ذكرت الغيابة مع الجب دلالة على أن هذا « القائل » أشار عليهم بإلقائه في موضع بناحية الجب

في إحدى أطرافه السفلى ، بعيداً عن وسطه الذي فيه الهوة ، التي تكون عادة لكي يجتمع الماء فيها عند أواخره ، فهذه المشورة خطة ثالثة ، هي غير القتل وغير الطرح أرضاً ، فلا بد أن تكون هذه الخطة الثالثة تحتوي سلامة يوسف ، وتضمن حياته ، وتكفل بقاءه ، وذلك لا يكون إلا بما قلنا وصورتنا ، فالمراد أن يلقوه في ناحية من نواحيه ، لا في وسطه ، ذلك لكي يكون يوسف بعيداً (نوعاً) عن البقية الباقية من الماء في قعره ووسطه ، إن كان قد بقي فيه وشك من آثار الماء ، بل قال المؤرخون إن هذه البئر كانت زحاً ليس فيها ماء ، ذلك لأنهم اتفقوا أخيراً على عدم إهلاكه ، وهذا لا يتحقق إلا بهذه الصورة ، وأما لو كانوا يريدون القاءه في جب مملوء ماء لكانوا يريدون إهلاكه ، وهو خلاف ما وقع عليه اتفاقهم أخيراً ، وأما القول بأن الجب كان ملاً ماء فهو قول هراء يناقض روح الكلام الذي اتفقوا عليه أخيراً ، هذا تحقيق القول هنا ، وإن لم تصدقوني فتأملوا جيداً في الآية الكريمة وما ترمي إليه ثم سلموا معي - على طول الخط - بنظريتي وبعد فيظهر أنه أراد من قوله « غيابة الجب » جباً معيناً مهبوداً معروفاً لهم في دوتان ، وإنما عيّن ذلك الجب للعلة التي ذكرها ، وهي قوله ﴿ يلتقطه بعض السيارة ﴾ ، لأن ذلك الجب كان معروفاً في دوتان ، وكانوا يريدون عليه كثيراً ، وكان ذلك « القائل » يعلم أنه إذا طرح فيه أخوه ، يكون إلى السلامة أقرب ، أي يكون سالماً في المئة تسعة وتسعين ، لأن السيارة تجوز دائماً وترد على هذا الجب ، ومتى وردت إليه التقت بذلك الغلام ، فتخرجه وتذهب به إلى حيث تريد من البلاد القاصية كمصر مثلاً ، حسبها هو مألوف ومعروف في تلك المصور من التقاط بعض الأولاد واغتصاب بعض البنات واسترقاقهم ظلماً ، كما هو معمول به في تلك المصور المظلمة ، وبالتالي وبالنتيجة يكون القاؤه في غيابة الجب أبعد عن الهلاك .

التحقيق في تفسير الغيابة

هذا وأما تفسير « الغيابة » بما غاب عن النظر في قعر البئر وأسفله ، فهو بعيد والأقرب ما نقلناه من أن الغيابة هي شبه كهف أو طاق في البئر ، ودليلنا على ذلك قراءة « غيابات » بالجمع ، لأن الأسفل واحد ، وأما الكهوف والطاقات التي في الجباب فيمكن أن تتمدد ، والمراد « ألقوه في إحدى غيابات الجب » ، ويدل على ذلك أيضاً قول الشاعر :

فإن أنا يوماً غيبتني غيابتي

فسيروا بسيري في العشيرة والأهل

أراد بغيابته لحده ، ومعلوم أن اللحد كهف في جانب القبر عند أسفله .

هذا ما أراه في هذا المقام . وهذا ما يظهر ، ولا أعلم هل أرضي الجامدين فيما قلت لكم أيها السادة أو أغضبهم وإنما أعلم أنني قد أرضيت ضميري وخطري ، وأرضيتكم أيضاً أيها الإخوان ، وحسي ذلك وكفى .

اخوة يوسف لم يبيعوا يوسف

الكلمة السادسة — قوله : ﴿ يلتقطه بمض السيارة ﴾ يدل على أن إخوته لم يبيعوه للسيارة ، بل إن السيارة التقطته فهو دليل على أن ضمير الجمع في (شروه) فيما سيأتي يعود على السيارة ، لأن السيارة بمعنى القوم والرهط ، وأن (شروه) بمعنى باعوه ، كما هو المعنى اللغوي الكثير ، ولذلك قال على أثره : ﴿ وقال الذي اشتراه ﴾ أي ابتاعه ، أقول قولي هذا مخالفاً لجمهور المفسرين الذين قالوا بأن إخوته باعوه للسيارة ، وسبب هذا القول منهم — مع أن فهمه من الآية الآتية بعيد

جداً — أنه هو المذكور في التوراة ، فجمهور المفسرين وفي مقدمتهم ابن عباس (فيما يدعون) قلّدوا التوراة وقالوا بذلك ، وأما نحن فلا يهنا سوى متابعة ما يتبادر من كلام الله تعالى في كتابه القرآن الكريم (وتماه في المحاضرة على الآية العشرين) .

لماذا لم يبت «القائل» برأيه

الكلمة السابعة وهي الأخيرة — قوله : ﴿ إِنْ كُنْتُمْ فَاعِلِينَ ﴾ أي عازمين ومصرين على أن تفعلوا به ما يفرق بينه وبين أبيه ، فهو لم يبت القول لهم ، بل عرض عليهم ذلك عرضاً ، تأليفاً لقلوبهم ، وتوجيهاً لهم إلى رأيه ، وحذراً من سوء ظنهم به ، ثم وبعد ذلك كنه لا بد أن يكون هذا الرأي الذي رآه (يهوذا) قد سرّ (رأوبين) كثيراً ، وأساء (شمعون) كثيراً ، وكان الباقي من الإخوة على شيء من الرضى بهذا الرأي المذكور ، لأنهم لم يكونوا في الحب ليوסף كيهوذا ورأوبين ، كما لم يكونوا في عدائه كشمعون ، فكانت حالتهم معه وسطية أو كانوا للغيرة والكره أميل ، والله تعالى وحده بالحقائق أعلم ، وإنا لنعجب لهذه الاختلافات في العواطف ، مع إن الدم واحد ، رأوبين وشمعون ويهوذا هم أولاد يعقوب من ليئة ، ويوسف هو ابن يعقوب من راحيل ، والأُمّتان أختان ، أبوها (لابان) خال يعقوب ، فالجرثومة واحدة ، ولكن الفروع مختلفون في العواطف ، والله تعالى في خلقه شؤون :

قالوا بقانون الوراثة وهو في
نظري مقال ما عليه دليل
مأنجب النجباء قطّ فإن تجدد
ولداً نجيباً منهم فقليل

ضَاعُ ، القائل « مع يوسف »

الكلمة الثامنة - لا بد أنه كان لهذا القائل « مع يوسف ضلع » (نوعاً) وحسبنا دليلاً على ذلك أنه أقامهم برجوعهم لأخف الضررين ، وأنه قال : ﴿ إن كنتم فاعلين ﴾ إذ فيه إشارة إلى أن الأولى أن لا تفعلوا شيئاً من ذلك ، فإن كان ولا بد فاقصروا على هذا القدر ، ونظيره قوله تعالى : ﴿ وإن عاقبتم فَمَا فِيهَا بِمَلِكٍ مَّا عُوِّبْتُمْ بِهِ ﴾ (١٦ : ١٢٦) يعني الأفضل أن لا تاقبوا .

وبعد فكل ما فتح به الرحمن في هذا المكان ، قد سقته إليك ، فإن لم تقنع به فالباقي عليك .
(مرحى)

تدبير الحيلة لتنفيذ المؤامرة

آ (١١) ﴿ قالوا : يا أبانا ، مالكَ لا تأمنا على يوسف ؟ ﴾

﴿ وإنا له لناصحون ! ﴾

افتتحت الجلسة وتليت الآية الحادية عشرة فقام سيدي حسام آغا الفيومي (١) وقال :

دخل إخوة يوسف العشرة على أبيهم في خيمته و قالوا له ﴿ يا أبانا ﴾ المحترم ﴿ مالك لا تأمنا على ﴾ أخينا ﴿ يوسف ﴾ المحبوب ! ، أي لم تخافنا عليه ﴿ وإنا له لناصحون ﴾ ؟ أي ونحن نريد له الخير ، ونجبه ونشفق عليه ، وما وجدنا في بابه

(١) نسبة الى بلد الفيوم في قطر المصري .

ما يدل على خلاف النصيحة والمقفة—وهذه السياسة تدعى سياسة «جس النبض» .
إذ أرادوا بذلك ، لما عرفوا على كيد يوسف ، استنزاه عن رأيه وعاداته في حفظه .
منهم ، وفيه دليل على انه أحسن منهم بما أوجب أن لا يأمنهم عليه . —

(قالوا يا أبانا ... الخ)

— ١ —

وتابع السيد الفيومي كلامه قائلاً —

التمهيد لتنفيذ المؤامرة على يوسف

كان الاخوة قضوا ساعة رُبعض الساعة في تدبير المؤامرة المشثومة السابقة ،
ثم اتفقت كلمتهم على رأي أخيه (يهوذا) واستحسنوه ، فأرادوا انتهاج طريقة
تسني لهم الجري على مقتضاه ، فشرعوا يمدون الأسباب الموصلة لذلك ، وابتدأوا
بذللون العقبات التي تحول بينهم وبين أخيه ، لم يدخروا وسماً في استنباط العلل
لأخذه ، فلم يجدوا لذلك سبيلاً إلا التزلف لأبيه وتعليل أخذه له بما يحبه أبوه .
له ، رتبوا برنامج الحيلة والدميسة ، بأن يطلبوه من والده ، بعة التنزه والرياضة ،
وترويح النفس ، فيأخذوه للأرض التي هم فيها ، يرعون حوالهم أغنامهم في «دوتان» .
ونظراً لما يعلونه من حال أبيهم بالنسبة لأخيه — من قرب محبة ومحبة قرب — لم
يكونوا يرجون أخذه بسهولة ، ورأوا أن الأمر يحتاج الى سعي وروية لأنه صعب
ومشكّل ، كما أنهم لم يكونوا قانطين من أخذه حيث لا يعدمون وسيلة لحل هذه
الصعوبة ، فرتبوا فيما بينهم ما رتبوا من أخذ وردّ ، وسلب وجلب ، وانبعثوا من

مكانهم فولوا وجوههم شطر فسطاط أبيهم في «سيلون» وذهبوا حيثما ، وما عتصموا
 أن دخلوا عليه ، وهم مقنموا رؤوسهم ، وخافضوا أصواتهم ، احتراماً لمقام الأبوة !! ،
 وجلال السن والرئاسة الدينية ، ليمجموا عوده ، وينمزوا قناته ، يواربونه
 ويماذقونه ، وعيونهم تميل بلفقاتها الى الجانبين ؛ رآهم أبوم فمجب لهم ، إذ كانوا
 مجتمعين حين دخولهم عليه ، فقال لهم : «مسيب» ما حالكم وما شأنكم ؟ اذكروا
 حاجتكم ، - فقالوا : يا أبانا المحترم ، إنا نتقدم اليك بسؤال نرجوا أن لا يثقل
 عليك ، سؤال بسيط تعرضه على وجه الاستفهام ، - قال : هاأنا - قالوا : إنا
 نعجب ولا نفعل الأسباب ، مالك لا تأمنا على أحنينا المحبوب يوسف ؟ وماذا تنقم منا
 في معاملتنا معه ؟ يا أبانا ، نحن لا نستطيع أن ننكر عليك شدة محبتك له ، وفضل
 رأفتك به ، وحنوك عليه ، لأنك تحمل بين جنبيك قلب الأب العطوف على ولده
 الصغير ، ذلك القلب الذي يخفق بالرحمة والحنان ، ولكن الذي نعجب منه ونعجب
 فيه أشد العجب هو خوفك منا عليه ، وعدم ثققت بنا في كلاءته ، وتقسيم الرب
 (إيتل شدأي) إنا لخلصون له قولاً وفعلاً ، وإننا لنعجب من هذه المعاملة ،
 كما إنا لنقول هذا القول ، والأسف ملء أفئدتنا ، لأنه لا يليق بالوالد أن يكون في
 حال تحفظ من أولاده الكبار ، بالنسبة لأخ لهم صغير ، يفارون عليه من ظله ،
 ويخشون عليه من مس الرياح -

هذا وقد خاطبوه بعنوان « الأب » تحريكا لسلسلة النسب ، وتذكيراً برابطة
 الاخوة التي سببتها الابوة ، كي ينزلوه عن رأيه في حفظه منهم - أي أي شيء
 تشبه منه لا تجعلنا بسببه أمناء على يوسف ؟ مع إنك أبونا وهو أخونا ، بل وابن
 خالتنا ولماذا تشفق وتسيب ؟ ولماذا لاتسكن الينا ؟

وقد حضرني الآن عدة فوائد ، أريد أن أعرضها على اسماع الاخوان

الحاضرين ، ليروا فيها رأيهم . -

الاخوة بين عاملي الخوف والرجاء عند طلب يوسف من ابيهم

الفائدة الاولى — قالوا هذا القول لأبيهم وهم بين عاملين ، عامل الخوف من أن يجيهم بالسلب ، فتجبت تدايرهم ، وعامل الرجاء أن يلي طلبهم ، فيفوزوا بعصيدهم ، وقد تصوروا عند ذلك أن حياة وموت يوسف بين شفتي يعقوب وهو لا يشعر .

طريقة طلب الاخوة ليوسف من ابيهم نزل على سوء نيتهم

الفائدة الثانية — كان يعقوب يخاف على يوسف من إخوته ومن كيدهم له ، وكانت تظهر منه أمارات على ذلك في أعماله وأقواله ، فلذلك خاطبوه بهذا الخطاب .

دفع ونفع

الفائدة الثالثة — إنما قالوا له : ﴿ وإنا له لناصحون ﴾ لأنهم كانوا متهمين عند والدهم بكره أخيه ، ولأنهم كانوا يعلمون أن أباهم يرغب كل الرغبة في النصح لولده يوسف ، ويحرص جد الحرص على صحة جسمه ونموه ورياضته ، وبني أعظم العناية بحفظه وكلاءته ، فدخلوا عليه من هذا الباب ، ولا يقدر أن يدخلوا عليه من باب آخر سواء ، فكانت هذه الجملة منهم « لدفع ونفع » .

وثيقة الاعتراف

الفائدة الرابعة — هم قالوا الآن : ﴿ وإنا له لناصحون ﴾ وسيأتي على الأثر قولهم أيضاً : ﴿ وإن له لحافظون ﴾ ، فوالدهم يعقوب اعتبر هذين الكلامين كوثيقة اعتمد عليها ، فسمح بذهاب ابنه يوسف معهم .

النصح لغة ومعنى

الفائدة الخامسة - قولهم: ﴿وإنا له لناصرون﴾ هو من: نصحت له الود: أخلصته، وناصح العسل: خالصه، ونظيره في القرآن الكريم: ﴿إِذَا نَصَحُوا لِلَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ (٩٢:٩) ﴿وَنَصَحْتُ لَكُمْ﴾ (٧٨:٧) ﴿وَهُمْ لَهُ نَاصِحُونَ﴾ (٢٨:١٢) ومنه حديث البخاري: (الدينُ النصيحةُ لله ورسوله) وفيه عن جرير: (بَايَعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ عَلَى شَهَادَةِ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللَّهِ، وَإِقَامَ الصَّلَاةِ، وَإِيتَاءَ الزَّكَاةِ وَالسَّمْعِ وَالطَّاعَةِ، وَالنُّصْحَ لِكُلِّ مُسْلِمٍ) ومنه ما في قول أبي العلاء المعري:

إذا قومنا لم يعبدوا الله وحده بنصح فإننا منهم برء آء

فكل هذه بمعنى الإخلاص وخلص الفعل والقول من شائبة الفساد، وفرق في المعنى بين نصحته ونصحت له، لأن معنى نصحته: تحريت أن أقول له ما فيه صلاحه، ومعنى نصحت له: أخلصت له العمل أو القول، ونصحه ضد غشه، وأما نصح له فهو ضد خلط.

لسان اخوة يوسف هو ترجمان اهوائهم

الفائدة السادسة - عهدنا باللسان انه ترجمان الجنان، ولكننا نراه الآن ترجمان الأهواء، لأن هؤلاء الإخوة يتكلمون بما لا ينطوون عليه، وغني عن البيان أن الوفاء بالوعد من مهات الدين، ومن الأخلاق الاجتماعية الفاضلة، ومع هذا فانتا ترى هؤلاء المتكلمين مع أبيهم لم يفوا بالوعد، ولم يقفوا عند حدود هذا العهد.

المتكلم يطلب يوسف من ابيه واحد من الاخوة

الفائدة السابعة - سأل سائل : هل تكلم جميعهم جميعاً مع أبيهم ، أو كان المتكلم واحداً منهم عنهم ؟ والجواب عن ذلك أنهم كانوا عقدوا اجتماعاً سرياً تناولوا فيه عماذا يصنعون في أخيههم ، ثم قر رأيه على أخذه من والدهم ، فالفائه في غيابة القلب ، وأطالوا بتنفيذ هذا القرار على واحد منهم يتكلم مع والده باسم جميعهم بحضورهم بحيث يترجم عن أفكارهم ، ويحكي مقاصدهم . واحتمال آخر وهو أنهم تواكلوا الكلام ، ثم تكلم أحدهم بلسان الجميع .

السم في الرسم

آ (١٢) ﴿ أَرْسِلْهُ مَعَنَا غَدًا يَرْتَعْ وَيَلْعَبُ ،
وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴾ .

افتتحت الجلسة وتليت الآية الثانية عشرة فقام عبد الملك الكردي وقال :

﴿ أَرْسِلْهُ مَعَنَا غَدًا ﴾ من « سيلون » الى « دوئان » ، ﴿ يَرْتَعْ ﴾ يتسع في أكل الفواكه وغيرها ، (ويلعب) يستبق ويتفضل ، كانوا يفعلون ذلك ليُضْرُوا أنفسهم بما يحتاج اليه لقتال العدو ، لا للهو ، بدليل قولهم ﴿ إِنَّا ذَهَبْنَا نَسْتَبِقُ ﴾ ، وإنما سموه لعباً لأنه في صورته ، هم وعدوه بذلك ، ولكن وعدمهم راح أدرج الرياح ، فإن « الرتع » كان بعيداً عن فمه ، و « اللعب » كان نائياً عن رجليه ، وأما « الحفظ » فلم يكن إلا لقميصه ، فلم يرجعوا إلا به ، كما لم يرجع حنين إلا بحفيه ، ... وبعبارة أخرى :

هم يقولون : « لناصحون » ، « يرتع » ، « يلعب » ، « لحافظون » ونحن نقول هذه
وعود ساحرة ، خلافة ، مختلفة ، منقوضة من حين التكلم !! ..

(يرتع ويلعب ..)

— ١ —

وقال الملاّ صديق الأريبي (١) :

أخوة يوسف يضربون على الوتر الذي يحبه أبوهم لأخيه يوسف

لقد رأى إخوة يوسف الأكارم !! بشاقب رأيهم وواسع تفكيرهم !! أن
يضربوا على الوتر الحساس الذي يحبه أبوهم لابنه المحبوب يوسف في هذه السن ،
سن الصبا وشرخ الشباب فيطلبوه منه ليذهب معهم ليسرح ويمرح ويأكل ويلعب
فيدخل السرور إلى قلبه والانشراح والنشاط إلى صدره وبدنه ، فتوجهوا إليه
قائلين له : (يا أبانا غير أنشودة الخوف بأنشودة الأمن ، وبدل نعمة هذا التحفظ
بنعمة الثقة ، ولا تكن كحافظ عتيق !! ، أنفذه معنا غداً باسم التنزه والترريض
وتبديل المناخ ، واستنشاق الهواء النقي ، بتأمل في مناظر الطبيعة البسيطة ، الخالية
عن تصنع المتصنعين ، الدالة على وحدانية رب العالمين ، وإذا أعوزه شيء من أمور
هذا العالم المادية (رتّع) وتبسط في الأكل والشرب ، وإذا أعوزه اللهو تشاغل
و (لعب) بالقفز والجري والركوب والسباق ، وما إلى ذلك ، (يرتع) بمعنى
يكتر في الأكل ويتنعم ويتوسع ، و (يلعب) بمعنى يشتغل بالرمي والثقاف (الخصام
والجلاد) والصراع والكر والفر ويتأثر طرائد الصيد في مسارحها ومسارحها ،

(١) نسبة إلى إربيل من بلاد العراق .

(يلعب) في ذلك المرج الخصب كثير الكلاً بين تلك الآجام فيشرح صدره ، ويستقبل أشعة الشمس ، ويتمتع بمناظر الطبيعة ويبسط نفسه ، ويرى حظه ، ويكر صبيحة كل يوم تبكير الطير ليمتع بمناظر الطبيعة ، ويمتع نظره فيما أوجد الله فيها من بهاء وجمال ، ويعمل رياضة جسمية ، ويتنسم رائحة الهواء البليل العليل ، هواء البر الصافي الطلق ، فيميناً لو يعلم أخونا ما في البادية من طهارة الهواء ، وطيب المناخ ، لخرج إليها ولو جواً .

معنى الرقع واللعب

هذا مغزى كلامهم الروحي ، وللمك وقفتم من هذا التقدير على معنى الرقع واللعب ، ومع ذلك فإني أشرح كل لفظ منها على حدة بشيء من التوضيح فأقول : (الرقع) في الأصل الاتساع في الخصب ، ثم أريد منه الاتساع في الأكل ، ومنه حديث أم زرع : (في شمعٍ وريٍّ ورقعٍ) أي تنعم ، وحديث عمر : (إني والله أرتع فأشبع) يريد حسن رعايته المرعية ، وأنه يدعهم حتى يشبعوا في المرتع ، وفي حديث الغضبان الشيباني : (قال له الحجاج : سميتَ - قال : أسميتي القيدُ والرتمعة) أي الاتساع في الأكل ، قال الزمخشري : (وأصل الرتمعة : الخصب والسعة ، ولكن المقصود التوسع في أكل الفواكه وغيرها) ، وقال في القاموس (رتّع : أكلَ وشرب ما شاء في خصب وسعة ، أو هو الأكل والشرب رغداً في الريف أو بشره) .

هذا وقد أخوا لفظ اللعب عن الرقع في قولهم لأبيهم ، لأن أحسن وقت للرياضة البدنية هو وقت الصباح ، بعد تناول لقيات يسيرة ، وفي المساء وقت البرد بعد أن يكون قد تناول طعام الغداء ، وفي كلام الناس :

« تَمَشْ وتَمَشْ ولو خطوتين »

(يرتع ويلعب...)

— ٢ —

قال نادر الزمان الافغاني :

فوائد اللعب

١ - يفهم من مضمون الآية الكريمة ان يوسف كان على الأغلب ملازماً للجلوسه بجانب أبيه ، وربما لا يبرح سحابة نهاره ، فهو لا حركة ولا عمل ، ولذلك فاللعب الرياضي يناسبه كثيراً ، فأخوته إنما تكلموا مع أبيهم بتعقل وإظهار نصيح ، ولكن التية منهم لم تكن صالحة ..

٢ - من المقرر أن الأوفق في الأعمال الرياضية أن تكون في الساحات الفسيحة الطلقة ، حيث الهواء تقي طهور ، والماء رقراق ، ولذلك رغبوا أن يخرج معهم الى البر .

٣ - قال علماء الصحة : إن الرياضة البدنية وعمل العضلات يدعوان الى دوران الدم وسيره في سائر الأعضاء ، فتتخلص الرئة والأجهزة الباطنة ومركز مجموع الأعصاب من كثرة الدم ، وإن عدم الانتظام في سير الدم يقع الجسم في الأمراض ، ويضعف أعضاء التحليل ، وبذلك يجد الانسان من نفسه ميلاً الى الضعف والكسل وعدم إرادة الحركة .

٤ - إن الرياضة البدنية تهيء الأجهزة المختلفة لإفراز الفضلات ، عرقاً أو بولاً أو مع زفير الرئتين ، وتقوي العضلات والمفاصل ، وتحفظ الدورة الدموية في حالة صحية ، فاللعب الجسماني مكانة كبرى وأهمية عظمى ، فلذلك وحيث أن أباهم يعقوب يرتاح لكل ما يعود على ولده المحبوب بالفائدة انتحلوا لسفره معهم هذا السبب .

اللعب عند العرب

٥ — كان العرب كثيري الرياضة والألعاب ، دعاهم إلى ذلك شهامة النفوس وحب الفخار والذود عن الشرف والميل إلى الحرب والمبارزة والركض وركوب الخيل وسرعة إجابة المستغيث، وما إلى ذلك، وإننا لترى في كلام أولاد يعقوب (ع) ما يشير إلى أن فيهم شيئاً من ذلك .

انواع اللعب عند العرب

٦ — من يعود إلى قانون الشيخ الرئيس (ابن سينا) ، يرى بحثاً مسهباً في الرياضة البدنية ، والألعاب الجسمانية يدل على أن العرب كانوا يعرفون من أنواعها ما لا يقل عن معرفة أبناء اليوم لها ، فقد عرفوا منها المنازعة ، والجري والقفز ورمي الحديد ، والصيد ، وتسم الجبال ، وحمل الاثقال والرمي إلى الهدف ، ولعب الكرة ، والسباحة ، وأعمال الفلاحة والصناعة ، وحركات الجباز ، والملاكمة ، وسرعة المشي ، والرمي عن القوس ، والقفز إلى شيء لیتعلق به ، والحجل على إحدى الرجلين ، والمثاقفة بالسيف والرمح . وركوب الخيل والسباق عليها ، والخفق باليدين ، وركوب الجمال ، والظفر ، واللعب بالصولجان ، واللعب بالطباطب ، والمصارعة ، وإشالة الحجر .

لعب النبي ﷺ والصحابه

٧ — هذا النوع من اللعاب ، اعني الرياضة البدنية بأقسامها ليس بمعيب ولا مستهجن ولا مكروه ، فقد كان ﷺ يتسابق مع عائشة (ض) فمرة غلبته ، وذلك لما كانت خفيفة اللحم ، ومرة ثانية غلبها ، وهذا حينما صارت بدنية ، وقد

ورد أن النبي ﷺ تصارع مع غيره، فكان النبي غالباً وأسلم المغلوب وكان مشركاً وورد أن النبي ﷺ كان يسابق على ناقته العَضْبَاءَ ، وكانت إذا سوبق به سالم تُسْبِقُ ، فعظمت في صدور المتسابقين ، ولكن مرة سُبِقَتْ ، فقال ﷺ : « ما رفع العبادُ من شيء إلاّ وضع الله منه » ، وكان عليّ كرم الله وجهه « تِلْغَامَةً » أي كثير اللعب ، كقولهم (تِلْغَامَةٌ) لكثير اللقمة ، كذا في فائق الزمخشري، وكان الصحابة رضي الله عنهم يصطادون ويتسابقون على الخيل والإبل، ولا تنسوا ما قاله ﷺ لجابر بن عبد الله الأنصاري لما تزوج ثيباً : « هلاّ بكرأ تلاعبها وتلاعبك » ، وقالوا : « لا بأس بملاعبة الرجل لفرسه وترسه وعرسه » ، وروى ابن عدي في الكامل عن ابن عمر « أحبُّ الله إلى الله تعالى إجراء الخيل والرمي » وهما السباق والرمي عن القوس ، وقال ابن أبي مليّكة : قد ندب الشرع إلى تعليم الصبيان الرمي والثقف (الخصام والجلاد) والصراع وسائر ما يدرهم على حمل السلاح والضرب والكرّ والضرّ وتصلية أعضائهم وتعليمهم البطش والحميّة والأنفة من العار والفرار (قاله في الطرق الحسكمية) .

جواز اللعب للكبار كما للصغار

وكان هرون الرشيد هو ووزيره جعفر البرمكي وسائر وزرائه - يلعبون بالكرة والصولجان ، فالصولجان عبارة عن عصا طويلة طرفها أعقف ، وأما (الكرة) فهي كتلة مستديرة من الجلد ونحوه ، فإذا ضربت الكرة لا يلبث الفارس أن يلتقطها من الأرض بطرف صولجانه الأعقف حتى تطير في الهواء ، فيستحث الآخرون أفراسهم في إثرها يبنون ملاقاتها بصوالجتهم (١) ، وكم سمنا

(١) وهي لعبة تشبه اللعبة المسماة اليوم بلعبة « البولو » .

ونسلم ونسلم إن الكثير من الرجال الكبار يتبارون في العدو والقفز ، وهكذا الجنود في الثكنات العسكرية ، والأهالي في الحقول ، والتلاميذ في المدارس ، بلا نكير ودون استهجان ؛

إذا تقرر ذلك فلا مانع عندنا أن يراد (باللاعب) المذكور في هذه الآية أي قسم من أقسام الرياضة المذكورة ، وليس يصعب على ذي الطبع السليم إسناد اللاعب بالمعنى المذكور ليوسف ، لا سيما إذا لاحظنا أنه لم يكن في ذلك الوقت داخلًا في عداد الرجال ، بل في عداد الفلمان الذين لا بأس لهم بذلك ؛

« إذا ذكر المحاضرون فجهلاً بالأخ نادر الزمان الأفغاني »

(حافظون)

— ١ —

قال عبد العظيم التركي :

خديعة اخوة يوسف لأبيهم

يقول إخوة يوسف لأبيهم : والله لأن نسرته ، أحب إلينا من أن نضره ، إنه سيكون تحت جناحنا ، ذاهباً ومقيماً وآبياً ، كل واحد منا هو (شرطي) عليه ، نحفظه من كل ما يسوؤه ، وندفع عنه عاديات الدهر ، بما أوتينا من قوة وعقل ، نموت بموته - لا سمح الله - ونجيا بحياته ، إن شاء الله ، فلا يلبث أن يعود إليك بالصحة والمافية ، وزجو أن تذكرنا بالرضا والدعاء في خلوتك وجلوتك ، كما نحن سنذكرك في (دوئان) وصحرائها ، بالشكر والارتياح ، لحسن صنيعك معنا .

نعم ، نعم ، يميناً بالرب « أَلُوْهِمِ » إنه سيكون في خفارتنا وحمایتنا نذَّب

عنه وذئود ، ومنع عنه بأنفسنا وأرواحنا ، فلا تمسه يد صالحة أو أئيمة ، ولو رقصت الرماح ، ورخصت الأرواح ، بل تقوم بحفظه من أن يُسْتَطَار أو يُغْتَالَ ، أو يُفْتَرَس أو يَتِيه ، أو أن لا يَرَجِع ، إلى نحو ذلك ، فهو العظم واللحم ، ومنح الجُنَّة والرِّداء .

قالوا ذلك ، وجعلوا يرفرفون بأجفانهم ، ويرددون أبصارهم ، وينظرون الى وجه أبيهم خلسة ، ليتبينوا عواطفه ، شأن كل من كان يتكلم بما ليس في قلبه ، ﴿ أَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ ﴾ على هذا كله ، وهم قد دخلوا على أبيهم بالخديمة ، وهم قد خرجوا بها ؛ هم يقولون : (يرتع ويلعب وإنما له لحاظون) الفاظ ثلاثة صدرت منهم ثم ذهبت قبض الريح ولم تلبث أن أقامت إلا بمقدار ما خرجت من شفاههم ثم تلقفها الهواء فاندجت في طياته ، وإلا فقل لي : أين الريح ؟ وأين اللب ؟ وأين الحفظ ؟

الجواب عند علام الغيوب !... فهذه وعود خرجت من لسان لم يتصل بقلب ، وأماني لم تنبعث من أقصى النفس وإنما من الخنجرة فقط ...

ولنا ههنا ملحوظة وهي أن هذه المعاهدة والمواعدة تذكرنا اليوم بماهدات دول الاستعمار مع أهالي الأقطار التي تضع نصب أعينها ، الاستيلاء عليها ، فإن تلك المعاهدات في الغالب محاطة استراحة بين الحملة والحملة ، ومنازل استجمام بين مراحل الحرب لا غير ، بحيث لدى توفر القوة لا تَعْدَمُ عذراً في نقض تلك المعاهدات التي لم تبرمها منذ البداية إلا على نية النقض ؛

فإخوة يوسف هنا عندما دخلوا على أبيهم تبدلوا بجلود النمر أصواف النعاج ، ثم لما أخذوا يوسف قلبوا المحن ونكثوا ما قالوا ، فهم استعملوا الأيمان والعهود وسيلة لا مستزال أبيهم ورضاه بما طلبوا ، ثم غدروا به ! الأمر الذي لا يليق بذوي البيوتات المحترمة ؛

وهذا يذكرنا بما كان « المنصور العباسي » يفعله ، يحلف كاذباً ، ويعاهد ويخالف ، ويوافق ويغدر ، كما فعل مع « ابن هبيرة » بعد أن أعطاه الأمان ، فإخوة يوسف ههنا وعدوا وتلفوا ولكن حادثة القائه في غيب القليب شهدت عليهم انهم لم يبروا بوعدهم المرقوبي :

إحذر الأقرباء ما استطعت وانظر
وعدوه بالنصح والحفظ لكن
ورحم الله من قال :

فعل إخوان يوسف المحسود
لم يريئوا أن أخلفوا بالوعود (١)

غاض الوفاء وفاض العذر وانفرجت
إن كان ينجع شيء في ثباتهم
وقد اعتد الناس على « عبد الملك بن مروان » فعلمته التي فعلها مع « سعيد بن العاص » ، حيث قتله بعد أن عاهده على تأمين حياته ، وقالوا إنها أول غدر في الإسلام ، وقد اتفق أن سأل عبد الملك أحد كبار رعيته من شيوخ العرب عن رأيه فيما فعل مع سعيد ، فقال : ﴿ حَسَنٌ لَوْ قَتَلْتَهُ وَحَيَّيْتَهُ ﴾ — فقال عبد الملك : « أولستُ بحمي ؟ » — فقال الشيخ العربي : « حياة من لا يوثق له بعهد ولا عقد ، ! .

« رجماً وانعطافاً » :

خلف الوعد والوفاء به

وخلف الوعد طبيعة الشيطان كما ورد : ﴿ وقال الشيطان لما قضي الأمر :
إن الله واعدكم واعد الحق ... وواعدتكم فأخلفتكم ﴾ (١٤ : ١٤)

(٢٢) وهو قنطرة النفاق كما قال تعالى : ﴿ وَمِنْهُمْ مَنْ عَاهَدَ اللَّهَ لَئِنْ آتَانَا مِنْ فَضْلِهِ لَنَصَّدَّقَنَّ ، وَلَنَكُونُنَّ مِنَ الصَّالِحِينَ ، فَلَمَّا آتَاهُمْ مِنْ فَضْلِهِ بَخِلُوا بِهِ وَتَوَلَّوْا وَهُمْ مُعْرِضُونَ ، فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا فِي قُلُوبِهِمْ إِلَى يَوْمِ يَلْتَفَتُونَ ، بما أخلفوا الله ما وعَدُوهُ ، وبما كانوا يكذبون ﴾ (٩) : (٧٦ - ٧٨) .

قال

خذا الوعد لكن من يميني فأعفني فلست أرى يوماً كذوباً فأخلفنا
ولا تتخيل أني لك مخلف فلست بأهل للنفاق فأخلفنا (١)

والوفاء بالعهد من سيء المؤمنين إيماناً كاملاً وهو لهم عنوان شرفهم ، وملاك مروءتهم ، قال تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ ﴾ (٢٣ : ٨) .

وقال تعالى : ﴿ وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ ، إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْئُولاً ﴾ (١٧ : ٢٤) .
فلا يوجد شيء أشرف من تقييد الإنسان بقوله ، «والوعد أملك ، عليك أم لك» .

تخوف يعقوب من طلب اولاده

آ (١٣) قال إني ليحزن نبي أن تذهبوا به ، وأخاف أن
يأكله الذئب ، وأنتم عنه غافلون .

افتتحت الجلسة وتليت الآية الثالثة عشرة فقام السيد البعلبكي (٢) وقال :

(قال) لهم أبوهم معتذراً اليهم بشيئين ، الأول ما في قوله ﴿ إني ليحزني أن

(١) النظم لرئيس المؤتمر .

(٢) نسبة الى بعلبك من بلاد الشام (لبنان) .

تذهبوا به ﴿ ومفارقتي إياه ، لأني ما تعودت الصبر عنه ، (و) الثاني إني ﴿ أخاف أن يأكله الذئب ﴿ أخاف عليه من عدوة الذئب الموجود بكثرة في « دوثان ، ﴿ وأنتم عنه غافلون ﴿ برعيكم ولعبكم ، أو إذا قلّ به اهتمامكم ولم تصدق بحفظه عنايتكم .

نعم أيها السادة ، لقد سمع يعقوب مقالة أولاده ، فتبسم تبسماً يمازجه القلق ، وأخذ يعجب لهذا الاحتفاء غير الإعتيادي ، قائلاً في نفسه : إن المركب خشن ، وأشد الحزن ما يحزن الرجال .

سكت هنية وهو يمشط لحيته الشريفة باصابعه ، كأنه يفكر بماذا يجب أولاده على اقتراحهم ، لأنه قد خامره منهم ريبة فقال : أواه ... لعمري إن هم الفراق ، ولوعة النوى ، ولو قليلاً ليملآن قلبي .

افتكر يعقوب في حال أولاده مع يوسف ، وأنهم يحسدونه ، وأنهم له بالمرصاد ، فقال في ضميره : إن سباحة الغزال في الماء مع التماسيح تغرير ، ومن سمح أن تظفر به الأسود عند غاباتها لم يأمن من وثباتها .

رأبه أسلوب كلامهم ، وهالته طريقةتهم في خطابهم ، فتخوفهم قائلاً بينه وبين نفسه : لعمري إن هذه الكلمة الصادرة منكم التي تطن الآن على أذني لهي أدلّ على ما يتخوف منه من اسم الحمل على بضاعته ، سمع أبوهم كلمتهم وفيها غنة المكر ، فوقع في نفسه من الذعر ما لا يعلمه إلا الله وهو ، وأوجس خيفة من هذا الطلب ، وغلب عليه الانقباض ، وحدثته نفسه بخطر قريب ، وحصر صدره مما قالوا ، وأحس بمكرٍ منهم بحاسة الإشعاع السماوي المودعة في قلبه .

طلبوا هذا الطلب من أبيهم ، ولبثوا منتظرين جوابه بكل حرارة ، كأنهم على

مقالي الجمر ، فقال أبوهم : لا أخفي عليكم إنكم طلبتم أمراً صعب المرام ، بيد المتناول أنا لا أريد أن أركب الضرر ، ولا يهون عليّ مفارقة هذا القعر ، إني أحب أن يكون يوسف مني دائماً برأى ومسمع ، وإنه ليشجيني أن تبعدوا به عني ويؤلم قلبي أن تفرقوا بينه وبينني ، ويقض مضجعي أن تحرموني رؤيته ، لأن ذلك يجعلني حائر النفس ، ضائق الصدر ، بكل ما تحت هذه الكلمة من المعاني .

استغرب أبوهم ما تجدد فيهم من محبة أخيم ، وعهده بهم - وما بالمهد من قدم - أنهم لا يحرصون على مسرته ، لما عندهم له من الحسد والضعيفة فقال : إني أنا الآن بين خطرين عظيمين الحزن على فراقه ، والخوف على حياته ، ولئن سلت من أحدهما لا أسلم من الآخر .

سمع أبوهم كلامهم فراه منه ما يريب (راعي الشاة) من ابتسامة الذئب ، فاعتراه امتعاض وابتئاس ، فقال : (إني ليحزني أن) وسكت ، - فقالوا : (أن ماذا) ؟ - قال : (أن تذهبوا به) ، فإني أتخيل أن قلبي بدوب يوم بعد ولدي عني . وأتصور أن لي بطير شعاعاً عند فراقه لي .

هذه مرامي جواب أبيهم لهم ، وأنتم ترون أن هذا الكلام لتين والعبارة لطيفة ، ولكن المعنى جارح ، ولذلك نرى أولاده - رغماً عن أنهم في مقام الرجاء أجابوه بجواب ملؤه الشدة والصراخ كما سيأتي .

وبعد ، ومع كل ذلك فنحن نضم صوتنا لصوت يعقوب (ع) ، ونشاطه في هذا الحزن وذاك الخوف ، كما صدقه الواقع وليس في الواقع من حيلة .

(ليحزني أن تذهبوا به)

- ١ -

قال عبدالعظيم الشركسي :

عزو حزن يعقوب لثلاث احتمالات

يحمل أن المعنى : يحزني ذهاب يوسف عني ومفارقتة إياي ، أي يحزني ذهابه عني ، ومفارقتة إياي مطلقاً ، إما وحده وإما مع غيره كائناً من كان ، ويحمل أن المعنى يحزني ذهابكم أتمم أيها الحسدة البغضة ، لا سواكم من ذوي الحب والرفق والإخلاص ، فعلة الحزن هي كون أولاده هم مناط الذهاب بيوسف أي إنه يحزن لكونهم هم الذاهبين به ، لا غيرهم من ذوي الود والمقمة ، فمجرد الذهاب بيوسف لا يحزن أباه ، وإنما الذي يحزنه هو كون الذاهبين به إخوته الذين بكرهونه ، ويناوئونه دائماً ، هذا ما ظهر لي فتأملوه ، فربما أكون واهماً مخدوعاً، وإذا صح هذا المعنى يكون أبوهم رمى حجراً فأصاب اثنين فحمل ذهابه عنه مطلقاً من أسباب حزنه ، كما جعل ذهابهم هم به خصيصاً كذلك ، بل عندنا أن الكلام يحمل معنى ثالثاً ، وهو هكذا : يحزني أن تفوزوا - أيها البغضة - بأخذه ، وتستبدوا - أيها الحسدة - باستصحابه معكم - لأنه وإن يكن أصل معنى هذا التركيب - تستصحبونه وتمضون به معكم ، فقد يكون لهذا التركيب في بعض المواضع معنى زائداً على المعنى الأصلي ، وهو الفوز بالشيء ، وذلك كما في قوله تعالى : ﴿ إِذَا لَدَّاهِبٍ كُلِّ إِلَهٍ بِمَا خَلَقَ ﴾ (٢٣ : ٩٢) ،

أي لغاز به واستبد بأخذه ، دون الآلهة الأخرى ، وقوله تعالى : ﴿ لَتَذْهَبُوا
بِبَعْضِ مَا آذَيْتُمُوهُنَّ ﴾ (٤ : ١٨) ، أي لتفوزوا بشيء من المهر (الراغب)
وعليه فأصل المعنى ههنا ، مع رعاية المعنى الأصلي ، يحزني أن تفوزوا وتظفروا به
من بين يدي ، سيما وأني أعرف عداكم له ومناواتكم إياه . « مرحي ،

(وأخاف أن يأكله الذئب الخ ..)

- ١ -

قال مولاي برهان الدين من علماء كواتشي في الهند :

خوف يعقوب على يوسف وعلى آماله فيه من الذئب

يقول يعقوب لأولاده المشرة : « إن الصحراء التي أنتم فيها « مسبعة » أو
« مذأبة » فلا أريد أن يكون ابني الصغير عرضة لافتراس « أبي جمدة » (١)
الموجود العدد الكثير منه ، في تلك المفازة التي ترعون فيها أغنامكم ، فإني خبير
ببواعث تلك الاصقاع وخوفها ، سيما وأن الذئب فيها عادية ضارية ، فلا تكونوا سبياً
في الوقوع فيما أفرق ويطير قلبي شامعاً منه ، لا تكونوا سبياً في حرمانني ولدي ،
والتفريق بيني وبينه ، فانكم إن فعلتم أتعبتوني وبرحمتي ، وملاتم حياتي هما وكداً ،
قال لهم أبوهم ذلك علناً بسماع كل منهم ، ثم قال في نفسه سراً : « وإنني
لست أخاف من الموت على شخصه فقط ، بل أخاف على تلك الآمال التي آملها فيه
أن تموت بموته ، أخاف على مرجواتي فيه المستقبلية أن تدفن معه ، فإن لي في
هذا الصبي آمالاً كباراً ، فلي فيه رجاء أن سيكون له مستقبل باهر ، وأترقب أن

(١) أبو جمدة هو الذئب .

سيصير له شأن ذو بال ، فتخو في ليس على ضياع شخصه فقط ، بل على ضياع تلك الآمال المحيطة .

هذا هو المعنى الروحي لكلام يعقوب (ع) فكان قلبه دلته على ما قال ، ولا غرو قلب المؤمن دليله ، وقد روي : « استفت قلبك ولو أفنأك المفتون » ، وهذا النوع من كل ما يحكى فيقع تسميه العرب « الألمعية » قال أوس :

والألمعيُّ الذي يظن بك الظن — كأنَّ قدر آيٍ وقد سمعا

ويقال له إذا صدر من الرجل الصالح « فِراسة » كما قيل : « اتقوا فِراسة المؤمن فإنه ينظر بنور الله » ، ومن الرجل الأصلح « تحديشاً » كما ورد عنه (عليه السلام) « إن يكن في أمي مُحدثون فمنهم عمر » أي تُحدثُهم الملائكة بما تلهيهم إياه .

أو يقال إن يعقوب (ع) كان يتخيل ان « ذئباً » سيفتال ابنه ، فكان لهذا الخيال محتاط في صونه ، ثم إن الحادث الذي وقع فسُتر هذا الذئب بأنه ذئب خيالي اخترعته أفكار أولاده ، ولما ترى حادثاً فظيماً لم تتقدمه الهواجس والخيالات التي تجوم حوله ، وتشير الى وقوعه ، وهذا سر من أسرار الكون التي لم يوقف لها حتى اليوم على سبب ، نعم ، إننا نرى بعض المحبين لا يكاد يطمئن بالله على من يحب ، حتى إذا جاء أحد يطلبه ، فلا يتبادر الى ذهنه إلا الاحتمال السيء ، ولذلك قال بعضهم :

من سر أسرار الغرام شعورٌ من يهوى الملاح بكل شرٍ قادم

وهنا دقيقة تلميحية لا بأس من الإشارة إليها ، وهي أن كلمة « ذئب » لم تذكر قط في القرآن الكريم إلا في هذه السورة ثلاث مرات ، كأنه لما كان « موضوع » هذه القصة هو « يوسف الغزال » ناسب أن يذكر في مقابله « الذئب » .

(وأخاف أن يأكله الذئب)

- ٢ -

وقال فخر الدين الخوارزمي (١):

التوفيق بين خوف يعقوب على يوسف وبين رؤيا يوسف

سأل سائل : كيف يقع هذا التخوف من يعقوب ، مع انه كان سمع رؤيا ولده ، واعتقد صحتها وعرف مرماها ، وأوصى اليه أن لا يقصها على إخوته ، ثم بشره : ﴿ وكذلك يجتبيك ربك .. الخ ﴾ ولا ريب أن هذا لم يكن منه على وجه التكهن والتفرض أو الألمعية أو حسن الرجاء ، بل كان على وجه أنه أوحى اليه به لأنه نبي : ﴿ وما ينطق عن الهوى ، إن هو إلا وحيٌ يُوحى ﴾ (٣:٥٣) و (٤) ، ولذلك رأيناه بعد حادثة الذئب (المزعومة) لا يزال معتقداً بوجود ولده يوسف وبجياته ، كيف لا وقد قال : ﴿ بل سئولت لکم أنفسکم أمراً ﴾ (ع ٨٣) ثم قال : ﴿ عسى الله أن يأتي نبيهم جميعاً ﴾ (ع ٨٣) ، ثم قال : ﴿ واعلم من الله ما لا تعلمون ﴾ ثم قال : ﴿ اذهبوا فتحسبوا من يوسف وأخيه ، ولا تيأسوا من روح الله ، إنه لا يئأس من روح الله إلا القوم الكافرون ﴾ (ع ٨٧) ، ثم قال : ﴿ إني لأجد ریح يوسف ﴾ (ع ٩٤) فجموع هذه الأقوال الخمسة يرشدنا الى أنه كان على اليقين من أن ولده موجود بقيد الحياة ، وما ذلك إلا استناداً على الوحي الذي أوحى به ليوسف في رؤياه الجميدة ، وعلى الوحي الذي أوحى به إليه نفسه

حتى أخبر ولده بمستقبل له باهر ، كمن ينظر الى الغيب ويخبر عنه بأخبار راهنة أكيدة .

فإذا تقرر هذا فكيف سوغ لنفسه التخوف على ولده من « الذئب » ؟ .

ونحن نجيب عن هذا السؤال بما يلي :

خوف يعقوب على يوسف أمر طبيعي قسري

١ — إن الخوف من شيء ما هو أمر طبيعي ، يطرأ على الانسان قسراً ، مع اعتقاده بعدم وقوع مضمونه ، وعدم حصول ما يخافه ، انظر الى « يوكابد » أم موسى (ع) ، فقد خافت على ولدها موسى بعد أن ألقته في اليم ، حسبما نفهمه من قوله تعالى : ﴿ وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَى فَارِغًا ، إِن كَادَتْ لَتُبْدِي بِهِ ، لَوْلَا أَن رَّبَطْنَا عَلَى قَلْبِهَا ، لَتَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ (٢٨ : ١٠) كان هذا منها بعد أن طمأنها الله تعالى وقال لها : ﴿ فَالْقِيَةَ فِي الْيَمِّ وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحْزَنِي ، إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴾ (٢٨ : ٧) وقال تعالى : ﴿ فَرَجَمْنَاكَ إِلَى أُمِّكَ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ ﴾ (٢٠ : ٤٠) ، فترى من أن أم موسى بعدما نهاها الله عن الخوف والحزن ، وطمأنها بكلامه ، خافت وحزنت ، وذلك لأن كلاً من الخوف والحزن أمر طبيعي يطرأ على الانسان قسراً ، من حيث لا يشعر ، ولا يكون له فيه اختيار — وقال تعالى : ﴿ وَيُسَبِّحُ الرَّعْدُ بِحَمْدِهِ وَالْمَلَائِكَةُ مِنْ خِيفَتِهِ ﴾ (١٣ : ١٤) فالملائكة عباد مكرمون : ﴿ لَا يَمْسُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ ، وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ﴾ (٦٦ : ٦) وهم معصومون . ومن العذاب قطعاً آمنون ، لدخولهم دخولاً أولياً في قوله تعالى : ﴿ الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولَئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ ﴾ (٦ : ٨٢)

ومع كل هذا فهم ﴿يَخَافُونَ رَبَّهُمْ مِنْ فَوْقِهِمْ﴾ (١٦ : ٥٠) - وقال تعالى :
 ﴿وَأَلْقَى عَصَاهُ ، فَلَمَّا رَأَاهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَانٌّ ، وَلَّى مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ ،
 يَا مُوسَى : لَا تَخَفْ ، إِنِّي لَا بِخَافٍ لَدَيَّ الْمُرْسَلُونَ﴾ (٢٧ : ١٠) ،
 فموسى بعد أن رأى عصاه قد قلبت حية خاف ، وهو بحضرة الله ، وإنما القاهها
 بأمر الله ، فهرب محتثاً ذعراً ، فهذا الخوف أمر طبيعي يعتري المخلوق مع اعتقاده
 بعدم تأثير ما يخافه ، فلا اعتقاد شيء ، وطبع المخلوق شيء آخر ، وقال لموسى :
 ﴿سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ وَنَجْمِلُ لَكَمَا سُلْطَانًا ، فَلَا يَصِلُونَ إِلَيْكُمَا
 بِآيَاتِنَا ، أَنْتُمْ وَمَنْ اتَّبَعَكُمَا الْغَالِبُونَ﴾ (٢٨ : ٣٥) ، ثم قال عن
 السحرة لما قالوا : ﴿إِمَّا أَنْ تُلْقِيَ وَإِمَّا أَنْ نَكُونَ أَوْلَ مَنْ أَتَى - إِلَى
 قَوْلِهِ - فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِ خِيفَةً مُوسَى ، قُلْنَا : لَا تَخَفْ إِنَّكَ أَنْتَ
 الْأَعْلَى﴾ (٢٠ : ٦٥) فهذا موسى رسول الله وكليمه ، كان قد أخبره الله
 عز وجل بأن فرعون وملائه لا يصلون اليها ، وأنه هو الغالب ، وبعد ذلك فهو
 قد أوجس في نفسه خيفة ؛ وقال تعالى خطاباً للنبي (ﷺ) : ﴿وَلَا تَحْزَنْ
 عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُ فِي ضَيْقٍ مِمَّا يَمْكُرُونَ﴾ (١٦ : ١٢٧) وقال : ﴿فَلَا
 يَحْزَنُكَ قَوْلُهُمْ﴾ (٣٦ : ٧٦) وقال : ﴿فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسْرَاتٍ﴾
 (٣٥ : ٨) ، ثم سمعناه تعالى يقول : ﴿قَدْ نَعَلْتُمْ إِنَّهُ لَيْحَزَنُكَ الَّذِي
 يَقُولُونَ﴾ (٦ : ٣٣) ونهاه عن ذلك ، فما هذا إلا لكون الحزن أمراً طبيعياً
 وكذلك الخوف في قوله : ﴿وَأَخَافُ أَنْ يَأْكُلَهُ الذِّئْبُ﴾ (ع ١٣) .

جواز عدم وجود اعتقاد جازم عند يعقوب في ولده بنافي خوفه عليه

آ (١٣) جواز عدم قطع يعقوب بأن رؤيا يوسف هي ليوسف نفسه بل لغيره من ذوي قرابه ٣٥٩.

من افتراس « الخَوْلَع ^(١) » إياه ، وأما رؤيا يوسف فيجوز ليعقوب أن يحملها على رؤية الهمة فلا يكون لها تعبير ، وكذلك قوله له : « وكذلك يحببتك ربك الخ ». يجوز أن يكون قاله لا عن وحي ، بل عن تفرس ورجاء وعليه فلا يكون خوفه على حياة ولده مستغرباً .

جواز عدم قطع يعقوب بأنه رؤيا يوسف هي ليوسف بل لغيره من ذوي قرابه .

٣ - لعل يعقوب (ع) لا يقطع بأن هذه الرؤيا التي رآها ولده يوسف ، هي لشخص يوسف نفسه ، بل لغيره من ذوي قرابه ، لأن الرؤيا التي يراها الانسان في منامه ، قد تكون لبعض أقاربه أو أصدقائه ، كما هو مذكور في كتب تعبير الرؤيا (راجع ابن سيرين وابن شاهين ، و تعطير الأنام في تفسير المنام للنابلسي ، تجرد الأمر كما تقول) ، وفي حديث : « بينا أنا نائم ، أتيت بمفاتيح خزائن الأرض ، فوضعت في يدي » ، قال أبو هريرة ، « فذهب رسول الله (ﷺ) ، وأنتم تنقلونها » فلا شك أن المراد من يد النبي يد أتباعه ، من الخلفاء الراشدين ، والأمويين والعباسيين وما إليهم .

جواز قصر يعقوب بالذئب وأكله إضرار شمعونه بيوسف

٤ - لعله لم يعن بالذئب وأكله سوى إضرار (شمعون) له ، وهذا الجواب الرابع وجهه وقوي جداً ، ولكن ليس هذا موضع توضيحه ، بل موضعه المحاضرة الآتية على آية (١٧) فانظر .

(١) الخولع احد اسماء الذئب .

هذا ما ظهر لي الآن ، في الجواب عن سؤال السائل فتأمله فإني لست بالقائل :

ولا تقف صوتاً غير صوتي فإني

أنا الصائح المحكي والآخر الصدي

ولكني أقول : ربما أكون واحماً مخدوعاً ، فإن أصاب جوابي الخبز فذاك ،

وإلا فدعه ، ولا تتبعه ، فكلنا يصيب ويخطئ ، ويسرع ويبطئ .

(هتاف من الجميع : نت مصيب يا أستاذ)

(وأنتم عنه غافلون)

— ١ —

قال الحاج اسماعيل السيامي (٢) :

يعقوب يكشف ما يجول في ذهن أولاده بالنسبة ليوسف ليعلم ، ماذا يجيئون

يريد يعقوب أن يقول : إن ولدي نجيل ضعيف العضل ، لم يجرب الكفاح ،

ولم يحمل بعد السلاح ، فأخشى عليه عادية « العمَّاس » (٢) حال انشغالكم عنه

ببعض الأشغال وربما تهاوتم في حفظه ، وفرطتم في الدفاع عنه وإنما يُضَنُّ بالضنين ،

ولا أكنم عنكم اني قد تشاءمت من قولكم : (مالك لا تأمنا) ، والمكتوب

يعرف من عنوانه ، وإن صوت قلبي هو أصدق من تلك التأمينات التي تُمنوني

بها . ويا الله !! ما أحوج يعقوب ليوسف ؟ لا يعلمه فيه ، وما أحوج يوسف ليعقوب

لأنه غلام صغير .

(١) نسبة الى سيام احدى مدن الهند الصينية .

(٢) العمَّاس احد اسماء الذئب .

هذا مرمى جواب يعقوب لأولاده ، وقد كانوا قبلها دخلوا على أبيهم تصوروا أن الأمر بالنسبة إليه جمل ، وأنه يشق عليه فراق ولده الم محبوب ، لاسيما إذا كان قد ذهب معهم ، وإن ذلك الأمر يحزنه كثيراً ، وكانوا أضمرُوا أنهم بعد أن يأخذوه ويسقطوه في الحب ، يرجعون له بدونه ، متعللين بأن « الخوّالغ » آكله ، حال غفلتهم عنه ، - فكانت هذه المعاني حاضرة في ذهنهم ، وكانت هذه الصور مرسومة في مخيلتهم ، فحينما دخلوا على والدهم انكشف له ما في قلوبهم من تلك الصور ، وقرأ أفكارهم ، وما أصدق ما قيل : (من القلب الى القلب دليل) فطلق ما يختلج في قلوب أولاده ، فكأنه ناب عنهم أو تكلم بلسانهم ، أو عبر عما في ضمائرهم واحساساتهم ، ليسمع ماذا يقولون في جوابهم ؟

يعقوب يصف غفلة ابنائه عن حفظ يوسف بأنها امر ثابت لهم في نفسه

لقد قال يعقوب : (وأنتم عنه غافلون) ولم يقل : (وأنتم غافلين عنه) إذ يوجد فرق كبير في المعنى بين الجملتين ، فالجملة الأولى (وأنتم عنه غافلون) حال جملة ، ومعناها إن غفلتهم عن حفظ يوسف وصف ثابت لهم في نفس أبيهم يعقوب ، إذ ربما آكله الذئب في حال تلبسهم بتلك الغفلة ، ثم هم غافلون عن حفظه أيضاً قبل هذا الحال وبعده .

وأما إذا قال (وأنتم غافلين عنه) فتكون حال مفردة ، ويكون معناها ، إن الغفلة إنما تكون وصفاً لهم حال أكل الذئب إياه ، فالغفلة تابعة لأكل الذئب ، مقدرة بقدره ، وهكذا يقال في أمثاله مما سيأتي .

جواب المختلة والمكر

آ (١٤) ﴿ قالوا: لئن أكله الذئبُ، ونحنُ عُصبةٌ،

إنا إذاً نخاسرون... ﴾

افتتحت الجلسة وتليت الآية الرابعة عشرة فقام الشيخ مضيوف السنغافوري^(١) وقال :

(قالوا) بلسان الرد والانكار ، (لئن أكله) أي عدا عليه (الذئب) السبع (و) الحال أننا (نحن عصبة) جماعة متعصبة متعاضدة ، (إننا إذاً) قوم (خاسرون) أي لمستحقون أن نخسر ونهلك ، أو معناه : إن لم تقدر على حفظ بعضنا فقد هلكت مواشينا إذاً وخسرناها .

حلفوا لأبيهم لئن كان ما خافه من خطفة الذئب أخاهم من بينهم ، وحالمهم انهم عشرة رجال انهم خاسرون ، ولما رأوا أن أباهم قد تشاءم ، طلبوا منه سحب تشاؤمه ، مبينين له سبب التفاؤل ، وهم كونهم عصبة ، فإن قلت قد اعتذر لهم بغيرين ، فأجابوا عن أحدهما دون الآخر ؟ قلت إن العذر الذي حذفوه وتضافلوا عنه هو الذي كان يغيظهم ويذيقهم الأمرين ، فأعاروه آذاناً صماء ، ولم يعبأوا به وأيضاً كان أشغل العذرين لقلبه هو الثاني وهو خوف الذئب عليه ، لأنه مظنة هلاكه ، وأما حزنه لفارقتة ريثا يرتع ويلعب ويمود سالماً اليه عما قليل فأمر سهل فكأنهم لم يشغلوا إلا بتأمينه وتطمينه من أشد الأمرين عليه .

(١) سنغافورة بلد في الهند الصينية .

(قالوا لئن أكله الذئب .. الخ)

- ١ -

وقال السيد عبي الدين الحضرمي^(١) :

اصرار الابناء على اخذ يوسف من ابيه

لم يلب والدهم طلبهم ، ولما كان : (أحب شيء الى الانسان ما منعا) ولما
رددوا في ذاكرتهم ما كانوا قد آسوه من كثرة مِقْتَه به ، ولما راجعوا صورة
المنام الذي كان قد رآه ، لما اجتمعت عندهم كل هذه الأشياء - ازدادوا شعوراً
بلزوم أخذهم أخاهم معها كلفهم الأمر ، فراجعوا والدهم ثانياً ، وقالوا له - وهم
يتظاهرون بالدهشة والاستغراب - أيّ الذئب تعني ... تبناً علينا ، هل يقدر أن
يفترسه « العَمَلَس » ؟ إنه لأضعف من أن يقدم على هذا الأمر ونحن حوالى
أخينا ، وإن كبد السماء أقرب الى « العملس » من أن يصل الى أخينا ، هب ان
صحراء دوقان مسبعة كما تقول ، وان كثيراً ما افترس فيها ولدان صغار كما تسمع
ولكن كيف يمكن « لأبي جَمَدَة » أن يفترس أخانا المحبوب ، ونحن حوالى
نحوطه ، ونقوم بالمحافظة عليه ؟ بل كيف يمكن ذلك وهو ابن سبع عشرة سنة ؟
ما هذه الظنون أيها الوالد العظيم ؟ تالله لئن أكله « الخولع » - لا سمح الله - ونحن
جمع شديد ، بمثلنا تمصب الأمور وتلقى الخطوب ، إنا إذاً لهالكون ، ضعفاً
وخوراً وعجزاً ، - أو على الأقل - مستحقون أن نهلك ، لأننا نكون لا غناء
عندنا ولا جدوى في حياتنا ، نكون لسنا بشيء ، لسنا رجلاً ، لا نستحق الحياة ،
ليس لنا قط من البطولة ، حتى لسنا بأهل لأن نكون رعاة أغنام !! حقاً إنه
ليسوؤنا أن لا يكون لنا نصيب من الثقة بنا ، حتى ولا في نفس والدنا ! فنشدناك

(١) نسبة الى حضرموت من بلاد الساحل الجنوبي لجزيرة العرب .

الله يا والدنا أن لا تكسر معنوياتنا بمثل هذا الجواب ، ولا تتخوف عليه ، فإننا مع احترامنا لشخصك الكريم ، لا نرى محلاً لهذا الخوف والحذر ، وإننا نستغرب ما تقول من (الحزن) جداً الاستغراب ، ونعجب له جد العجب .

يا أبانا تأكد تماماً أن هذا الذي تقول لا يكون دون أن يبييض القار ، ويجمع الليل والنهار ؛ يا أبانا لا تنس أننا عصابة أولوا صهيل وصليل ، يشد بعضنا أزر بعض ، لا نستذل ولا نستقل ، وإن صح ما تظن ، خسرنا حسن سمعتنا بين الرجال بالفتوة والمنعة ، وشاع انه ليس لنا حمية ولا قوة دفاع ، يا أبانا ، أفضل أعمالنا في غنمنا ، وعمدة شرفنا ذود السباع عنها ، فإذا كنا نرود السباع عن غنمنا أفلا نذودها عن أخينا الصفي !

هذا هو المعنى الروحي الذي يؤول اليه كلامهم في جوابهم لأبيهم ، وسببه أنهم لما سمعوا جواب أبيهم السليبي ، ثارت فيهم الحمية ، وأوغلوا في إشارات الاستغراب ، وقد تلونت وجوههم بلون التعجب ، وتذمروا من جواب أبيهم واستهجنوه ، واستنكروه واستكبروه واستعظموه ، فاستنصروا جلدتهم وقوتهم ، ذاهبين الى أن : (السكوت عند رد الجواب بدعة) مقيمين على فكرتهم ، مصرين على مخالفة أبيهم ، متغلبين على ذهنه ، متسلطين على إرادته ، وهكذا ما زالوا يمتالون عليه بكلام يثقب الخردل ، ويحط الجندل ، وما برحوا يجادلونه جدال هجوم ، وأبوهم يجادلهم جدال مدافعة ، حتى وقع قولهم في نفسه ، وغلب أخيراً على أمره ، تغلبوا عليه ، وهو واحد ، وقد قيل : « ضعيفان يغلبان قوياً » ، فكيف إذا كانوا جماعة أقوياء ؟ فلذلك ولكونهم آمنوه ووعدوه — كانت النتيجة أن سمح لهم بأخذه ، ورضي بذهابه معهم ، وسلم لهم تسليماً ، وإن كاد يكون تسليماً اغتصابياً .

وبعد هذا كله ، فلنا ثلاث كلمات :

١- تبرهم من الاجابة على حزن أبيهم ومغالطتهم الجدلية له

١ - لنا على جوابهم لأبيهم ملاحظتين : فالملاحظة الأولى أن قولهم ﴿لئن أكله الذئب .. الخ﴾ إنما هو جواب عن الشق الثاني من المذرة التي اعتذر بها أبوهم لهم ، وهو قوله ﴿وأخاف أن يأكله الذئب﴾ ، وأما الشق الأول من المذرة وهو قوله : ﴿إني ليحزني أن تذهبوا به﴾ فقد ثقل على طبعهم سماعه ، فضاقوا به ذرعاً ، ومروا عنه مرور الكرام ، وجعلوه دَبْرَ آذانهم ، ولماذا .. لأنه سبب حسد لهم ، وهو الذي كان يغيظهم ، فأعاروه آذاناً صماء ولم يعبأوا به ، بل سكتوا عنه كأنهم لم يسموه وهذا السكوت يسمى بلسان رجال الحكومات اليوم « التهرب السياسي » .

والملاحظة الثانية - أبوهم إنما قال ﴿وأتم عنه غافلون﴾ ، وفي هذه الحال يمكن « للذئب » أن يأكله ولو كانوا مئة عصابة وعصابة ، إذ ربا الجيش الفقير يتامه في حال الغفلة لا يدفع عادة المهاجمين ، كما أنه بالمكس في حال اليقظة والحيطه ربا إنسان واحد بقدر أن يدفع ذلك ، هكذا أراد أبوهم ، وهكذا يقتضي المنطق والعقل ، ولكن أولاده أدخلوا عليه « المغالطة الجدلية » في جوابهم .

القوة الجسمانية لا تكفي وهدا لفظ يوسف

٢ - لا زال نرى هؤلاء الإخوة العشرة يقولون : « نحن عصابة » سمعناها منهم أولاً وثانياً ، فهم يفتخرون بقواهم الجسمانية ، ويتكلمون على جمعيتهم ، كأنهم نسوا أن لكثير من الحيوانات العجم في هذه القدر حظاً أكمل من حظ الإنسان والقوة وحدها لا تكفي لحفظ يوسف ، ولكن القوة مع المحبة والاخلاص .

اختلف القرآن والتوراة في هذه الآية

٣ — مما يجب التنبيه عليه انه يوجد في هذه السورة اليوسفية ما لا يتفق مع ما هو مذكور في هذه القصة المندرجة في سفر التكوين المتداول بين أيدي اليهود ، فالسورة هنا تحكي ان إخوة يوسف دخلوا على والدهم ورجبوا اليه أن يرسل أخاهم معهم ، وان حواراً دار بينهم وبين والدهم ، انتهى بانتصارهم عليه حتى سلمهم إبتاه ، ولكن سفر التكوين لا يحكي شيئاً من هذا القبيل ، إنما يذكر ان إخوته مضوا ليرعوا غنم أبيهم قريباً من نابلس ، وفي غيبتهم قال له أبوه : (إن إخوتك يرعون غنمهم عند نابلس فاذهب اليهم لتنظر سلامتهم وسلامة الغنم ، وترجع الي بالتطمين) فسمع لأبيه فأرسله من شمالي (حبرون) أو من (سيلون) الى نابلس ، فوجدهم قد ارتحلوا منها الى (دوثان) ، وهي مدينة شمالي نابلس على غاية اثني عشر ميلاً ، فذهب ورائهم فوجدهم في (دوثان) ؛ هذا هو الذي يؤخذ من سفر التكوين وشروحه ، ولكن نحن علينا أن نجزم بأن ما أوحاه الله الى نبيه خاتم الأنبياء (ﷺ) ونقل الينا بالتواتر الصحيح هو الحق ، وخبره هو الصادق وما خالفه هو الباطل ، وناقله مخطيء أو كاذب ، فلا نعدّه شبهة على القرآن ، ولا نكلف أنفسنا الجواب عنه .

حال التاريخ قبل الاسلام وبعده

إن حالة التاريخ قبل الاسلام كانت مشتبهة الأعلام ، حالكة الظلام ، فلا رواية يوثق بها للمعرفة التامة بسيرة رجال سندها ، ولا تواتر يعتدّ به بالأولى ، وإنما انتقل العالم من حال الى حال بعد نزول القرآن وجمي نبي الإسلام ، فكان بداية تاريخ جديد للبشر ، كان يجب عليهم — لو أنصفوا — أن يؤرخوا به أجمعين ،

فما كان من شؤون الأمم وسير العالم بعد الإسلام لم ينطمس ولم تذهب الثقة به ولم ينقطع سند روايته ، كما كان الحال هكذا في الأمم السالفة .

عناية المسلمين في اول الاسلام بالرواية والرواة

وبيان ذلك بالإجمال — أن القرآن قد جاء البشر بهداية جديدة كاملة ، كانوا قد استعدوا للاهتمام بها بالتدريج ، الذي هو سنة الله تعالى فيهم ، فكان من عمل المسلمين في حفظ العلم والتاريخ العناية التامة بالرواية ، ما يقبل منها وما لا يقبل ، ولذلك ألفوا الكتب في تاريخ الرواة ، لتعرف سيرتهم ، ويتبين الصادق والكاذب منهم ، وتعرف الرواية المتصلة والمنقطعة ، وبحثوا في الكتب المؤلفة ، متى يوثق بنسبتها الى مؤلفها ، وبينوا حقيقة التواتر الذي يفيد اليقين ، والفرق بينه وبين ما يشتهر من روايات الآحاد ، فهذه العناية لم ينقطع سند لنوع من أنواع العلم ، التي وجدت في المسلمين ، على أن العناية بعلوم الدين أصولها وفروعها كانت أتم ، ثم كان شأن من قفنى على آثارهم في العلوم والمعارف بعد ضعف حضارتهم على نحو شأنهم في التصنيف ، وإن كان دونهم في ضبط الرواية ونقدها ، والأمانة فيها ، فلم يضع شيء من العلوم والفنون ، ولا من الحوادث والوقائع التي جرت في العالم بعد الإسلام ، وما اختلف الرواة والمصنفون في جزئياته من تاريخ الإسلام وغيره ، يسهل تصفيته وأخذ الصفي منه ، لأجل الاعتبار به ، وعرفان سنن الاجتماع منه ، جرياً على هدي القرآن فيه .

خاط اليهود في تاريخهم ووقوع الزيادة والنقصان في التوراة

وقد علم وتحقق أن اليهود خلطوا في تاريخهم ، وأن أكثره لا يعرف كاتبه ،

ومن ذلك (التوراة) التي منها (سفر التكوين) المسطور فيه قصة يوسف ، فقد قيل : إن كاتبها موسى ، وقيل وهو الأصح عندهم عزرا الكاهن ، المسمى عند العرب (بالعزير) ولذلك يسمى أيضاً عندهم (عزرا الكاتب) ، وقيل غير ذلك مما هو مذكور في تفاسيرهم ، وتواريخهم الدينية ، ويكفينا شاهداً على أن الأسفار الخمسة (التوراة) كتبت بيد غير يد موسى ، أولاً ذكر وفاة موسى فيها (تك ٣٤ : ١ - ١٢) ، ثانياً قول سفر التكوين « قَبْلَ مَا مَدَّكَ مَلِكُ بَنِي إِسْرَائِيلَ » (تك ٣٧ : ٣١) ، فهذه العبارة لا يمكن أن تكون من قلم موسى الذي يقولون إنه هو الكاتب لسفر التكوين ، لأن ملوك بني إسرائيل إنما كانوا بعد موسى بنحو (٤٥٠) سنة ، على ما في قاموس بوست وشروح التوراة وتواريخ اليهود والنصارى جميعاً ، الى غير ذلك من الدلائل التي ترشدنا الى الجزم بأن (سفر التكوين) كباقي الأسفار الخمسة قد وقع فيه من الزيادة والنقصان ومخالفة الواقع ما لا يحصى ، وليس الوقت وقت بيان هذه الأدلة .

وكافات بني إسرائيل تحرير الوقائع بالحوادث فقد فاتهم ما فيها من العبر والحكم فأين ما يذكره (سفر التكوين) في قصة يوسف مما تجده في عبارة القرآن من صنوف العبرة والموعظة ، ثم بالنتيجة والمطاف على ما سبق فالحق ما قاله الله تعالى من مجيء إخوة يوسف لأبيهم ، وطلبهم منه أن يرسل معهم أخاهم ، ولا يعتبر ما خالفه من أقوال سائر الكتب معارضاً له ، فيحتاج الى التوفيق او الجواب ، والله وليّ المتقين .

الفصل الخامس

تنفيذ المؤامرة

آ (١٥) ﴿ فَلَمَّا ذَهَبُوا بِهِ ، وَأَجْمَعُوا أَنْ يَجْعَلُوهُ
 فِي غِيَابَةِ الْجُبِّ ... ، وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ : لَتُنَبِّئَنَّهُمْ بِأَمْرِهِمْ
 هَذَا ، وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ... ﴾

افتتحت الجلسة وتليت الآية الخامسة عشرة فقام أستاذنا سعيد
 الحوراني (١) وقال :

أذن يعقوب لابنائه أن يأخذوا أخام يوسف (فلما ذهبوا به) أي بأخيهم
 من « سيلون » الى « دوتان » ، وأبوهم واضع يده على قلبه (وأجمعوا) أزمعوا
 (أن يجعلوه في غيابة الجب) بدوتان ، فعلوا معه ما تقصر عنه العبارة ، أو تسمئز
 منه المسامع ، وتهتز منه الركب ، أي ألقوه في غيابة الجب ، قائلين له : « خذها
 يا صاحب الأحلام ، انزل فيما تضيع فيه آمالك ، وتطيش أحلامك ، فنحن إنما
 فعلنا بك هذا ، لتعلم أن أحلامك دخان من غير نار » ، (و) عند ذلك (أوحينا
 إليه) أي ألهمناه أو قلنا له بواسطة الملك ، (لتنبئهم بأمرهم هذا) أي لتخبرن
 إخوتك بما فعلوا بك وأنت بمصر وهم مائلون أمامك ، (وهم لا يشعرون) أنك

يوسف لعلو شأنك ، ولطول المهـد المبدل للبيئات والأشكال ، وذلك قول يوسف لهم في السفرة الثالثة : ﴿ هل علمتم ما فعلتم بيوسف وأخيه إذ أنتم جاهلون ؟ ﴾ ، فلا تمحزن منهم ولا تك في ضيق مما يمكرون ، فلما أوحى الله اليه ذلك اطمأن قلبه وسكن روعه وهدأ باله .

ولكنه لا ندحة من أنه كان يعجب من عمل إخوته جد العجب ، فيردد في ضميره معنى قول القائل :

ألا إن اخواني الذين عهدتهم

أفاعي رمال لا تقصر عن لسعي

ظننت بهم خيراً فلما بلوتهم

زلت بواد منهم غير ذي زرع

ولا ندحة انه دهمه من الحزن مادهمه ، وانه كان يحيط به جو من

الاستسلام والصبر .

(فلما ذهبوا به . . الخ)

— ١ —

وقال السيد أبو يعلى العدني (١) :

الانبياء غير معصومين من تصديق الكاذب

لم يزالوا يراجعون أباهم ، ولم يألوا جهداً في استنزاله على إرادتهم ، حتى أخرجوه فانصاع اليهم ، وانساق لمشيئتهم ، ونزل على حكمهم ، ظناً منه ان ظواهرهم امرأة لبواطنهم ، فاسترسل اليهم استرسالاً ، وأرسل يوسف معهم إرسالاً .

(١) نسبة الى عدن من بلاد الساحل الجنوبي لجزيرة العرب .

جرت حيلتهم هذه عليه مع فضله وعلمه ، كما جرت حيلة « عمرو بن العاص » على « أبي موسى الأشعري » في التحكيم ، مع أن أبا موسى علم بدهاء عمرو ، ولكن إذا وقع القدر عمي البصر .

مشت حيلتهم على أبيهم ، وجاز عليه كذبهم ، لأن الأنبياء ليسوا معصومين من تصديق الكاذبين ، فتصديق الكاذب لا يعد ذنباً وقد ثبت أن النبي (ﷺ) كان يصدق بعض ما يفتره المنافقون ، حتى يخبره الله بما كان من المصلحة إخباره به منه ، كما وقع في غزوة تبوك وغيرها ، وصدق بعض أزواجه في القصة المشار إليها في سورة التحريم حتى أخبره الله تعالى به وبأن من أسر إليها الحديث أفشته ، وتردد في حديث أهل الإفك ، وضاق صدره به زمناً ، حتى زلت عليه آيات البراءة المكذبة لهم في سورة النور . وفي صحيح البخاري : « إنكم تختصمون اليّ ولعل بعضهم أن يكون ألحن بحجته من بعض ، وإنما أقضي بنحو مما أسمع ، فمن قضيت له من حق أخيه شيئاً ، فلا يأخذه ، فإنما أقطع له من النار » .

نعم الأنبياء معصومون من التقرير على باطل ، وذلك يتوقف على تحقق البطلان ولا يكفي فيه عدم تحقق الصحة ، على أن هذا القول الذي صدر من أبناء يعقوب ليس هو من قبيل الإخبار المحض ، حتى يوصف بالكذب ، وإنما هو من قبيل الوعد لأبيهم بالنصح لأخيه وحفظه ، وعداً مبنياً على الرجاء والأمل ، وإذا فلا يوصف بالكذب ، ولكن يخلف الوعد فقط ، هذا ما حضرني الآن قلته مقدمة للدخول على آية (١٥) فتأمله .

(فلما ذهبوا به ... الخ)

- ٢ -

وقال مولانا مظفر احمد خان الهندي :

يوسف مع اخوته في طريقهم الى دوتان

ما بقي الإخوة بلحفون على أبيهم ، ويفتلونه في الذروة والغارب ، حتى آانس منهم الإخلاص ، وارتاح الى مواعيدهم ، وبعد اللثتيا والتي أطلببهم طلبتهم ، وقال لهم : « حسناً فليكن كما تريدون » فقاموا فرحين بقناعة أبيهم بعد أن كان رضاه ضرباً من المحال ، فأعدوا معدات السفر ، ورحلوا قوياً ، وهم لا يلوون على شيء ، ساروا مدة صامتين ، لا يفوه أحد الطرفين للآخر بكلمة ، وكان كل من الطرفين مملوءاً بالغبطة والسرور ، فيوسف مملوء سروراً ، لأنه خارج للنزهة ، وإخوته مملوون غبطة ، لأنهم فازوا بمصيدهم ، ثم يوسف يفكر في أمر نشاطه في هذه السياحة وزهته وفرحه في هذه السفارة ، وأما إخوته فيفكرون في إلقائه في الجب . ساروا وأوغلوا في البرية ، وهم على ما ذكرنا من الأفكار المتناقضة ، كأنا هم في واد وأخوم في واد :

سارت مشرقة وسرت مغرباً شتان بين مشرق ومغرب

ذهبوا به وهو خالي الذهب سادج ، لا يظن في إخوته إلا خيراً ، لصغر سنه من جهة ، وحسن ظنه بهم من جهة أخرى ، وأما هم فقد كانوا مملوئين من الخب والخلل . ذهب يوسف معهم بوجه مشرق ، قد تجلت فيه الطهارة وسلامة القلب ، لا يعرف من الدنيا غير أسباب المسرات ، ولا يفكر حال هذه الرحلة بغير أسباب الفرح ، رغماً عما كان سمعه من إخوته يوم ما قص عليهم رؤياه الأولى ،

وإذا كان يعرف أن أولاده قد احتملوا على أبيهم ضيفاً بحبته ليوسف أكثر منهم ، وإذا كان قد استروح من قولهم : (مالك لا تأمنا على يوسف) أنهم قد احتملوا مكرراً وضيعناً على أخيهم ، وإذا كان أعلن حزنه بسبب ذهاب إخوته به إذ قال : (إني ليحزنني أن تذهبوا به) ، — إذا كان قد وقع كل هذا فليس يعقوب بخليق أن يعجل في الاسترسال إلى أولاده والثقة بهم ، والاثمان لهم ، ويسمح بأخذهم إياه ، دون شرط ولا قيد . هذا سؤاله سمعته فأجبتة بقولي :

المؤمن إذا قال صدق ، وإذا قيل له صدق ، وقد تكلم أولاده معه وأمنوه عليه ، ووعدوه خيراً ، إذ قالوا : (وإننا له لناصحون ، وإننا له لحافظون) ، وقد قيل . « ومن خدعنا في الله انخدعنا له » ، فلذلك استرسل معهم أبوم وسلطه إليهم ؛ ولا تنس ان المواعيد التي وعدها يوسف في رؤييه ، ثم ما أوحى لأبيه فيه ، كل ذلك سهل على أبيه استسلامه لأولاده ، إذ هو بحكم ما سمع من المواعيد الإلهية في شخص ولده يوسف ، كأنما قد أخذ من ربه تأميناً على حياة هذا الابن الحبيب ؛ وأنت إذا لم تقبل مني هذا الجواب الدقيق ، خشيت عليك أنتهوي بك ربح الضلال في مكان سحيق .

(فلما ذهبوا به ... الخ)

- ٣ -

وقال السيد الحضرمي :

إن عندي على هذه الآية البحوث التالية :

• حذف جواب الشرط في القرآن الكريم وشواهد عليه

البحث الأول - إن جوابه لما في قوله : (ولما ذهبوا به) محذوف ، ومعناه فعلوا به

ما فعلوا ، مما لا تحيط به العبارة ، ولا تكفي فيه الإشارة ، فعلوا به ما فعلوا مما لو لفظ به ، لثقل على السامعين واضطربت له قلوبهم ، فعلوا ما فعلوا مما لا يليق ذكره بنسب هؤلاء المحترمين !! آباء الأسباط !! ، فعلوا ما فعلوا مما يذرف العيون ويذمي القلوب . ويسىء نبأ السامع والقارىء ، ولذلك حسن منا أن لا نصرح له به ، بل وكلناه لفهمه ، وذوقه الخ الخ ...

ولقد رأينا بعض المفسرين هنا كتب ما لا يليق بتركيب الآية الكريمة قائلاً: إن جواب « لما » هو قوله « وأوحينا » بتقدير زيادة الواو ، وهذا ما لا يقوله عاقل يحترم كتاب الله ويقدره قدره ، ولا يجيزه عالم بأسرار كتاب ربه الكريم ، ولا أخفي عنكم أيها السادة اني لما نظرت هذا القول أصابتي نوبة ذهول شديدة صدعتني أكثر من ساعة ، ولذلك كان حقاً علينا أن نذكر بعض المواضيع التي حذف فيها جواب الشرط للعللة السابقة فنقول :

- ١ - قال تعالى : ﴿ وَلَوْ رَرَى الَّذِينَ ظَلَمُوا - إِذْ يَرُونَ الْعَذَابَ - أَنْ الْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعاً ، وَأَنْ "اللهَ شَدِيدُ الْعَذَابِ ... ﴾ (٢ : ١٦٥) .
- ٢ - قال تعالى : ﴿ قَالَ : يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُمْ عَلَىٰ بَيْتِنَا مِنْ رَبِّي ، وَرَزَقْنِي مِنْهُ رِزْقًا حَسَنًا ... ﴾ (١١ : ٨٨)
- ٣ - قال تعالى : ﴿ وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ ، وَأَنْ "اللهَ تَوَّابٌ حَكِيمٌ ... ﴾ (٢٤ : ١٠)
- ٤ - قال تعالى : ﴿ أَفَمَنْ زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ ، فَرَآهُ حَسَنًا ... ﴾ (٨ : ٣٥)
- ٥ - قال تعالى : ﴿ قَالُوا : طَائِرُكُمْ مَعَكُمْ ، أَلَيْسَ ذُكَّرْتُمْ ... ﴾ (١٩ : ٣٦)

- ٦ - قال تعالى: ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُم: اتَّقُوا مَا بَيْنَ أَيْدِيكُمْ وَمَا خَلْفَكُمْ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ... ﴾ (٣٦ : ٤٥)
- ٧ - قال تعالى: ﴿ وَالنَّارِزَعَاتِ غَرَقًا ، وَالنَّاشِطَاتِ نَشْطًا ، وَالسَّابِحَاتِ سَبْحًا ، فَالسَّابِقَاتِ سَبْقًا ، فَالْمُدَبِّرَاتِ أَمْرًا ... ﴾ (٧٩ : ١ - ٥) .
- ٨ - قال تعالى: ﴿ فَإِنْ اسْتَطَعْتَ أَنْ تَبْتَغِي نَفَقًا فِي الْأَرْضِ ، أَوْ سَلْمًا فِي السَّمَاءِ فَتَأْتِيَهُمْ بَأْيَهُ ... ﴾ (٦ : ٢٥) .
- ٩ - قال تعالى: ﴿ قُلْ لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةٌ ، أَوْ آوِي إِلَى رُكْنٍ شَدِيدٍ ﴾ (١١ : ١٠) يعني لو أن لي بكم قوة لفلت بكم وصنعت .
- ١٠ - قال تعالى: ﴿ وَكَانَتْ هَمَّتْ بِهِ وَهَمَّ بِهَا ، لَوْلَا أَنَّ رَأَى بُرْهَانَ رَبِّهِ ... ﴾ (١٢ : ٢٤) «جواب» لولا، محذوف تقديره لولا أن رأى برهان ربه لقتلها ، لأن قوله « وهم بها » يدل عليه ، كقولك : همت به (أي بقتله) ، وقولك لولا أني خفت الله أو خفت الحكومة ، معناه لولا أن خفت ما ذكر لقتلته .
- ١١ - قال تعالى: ﴿ وَسَيُنقِ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ إِلَى الْجَنَّةِ زُمَرًا حَتَّى إِذَا جَاءُوهَا ، وَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا ، وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا : سَلَامٌ عَلَيْكُمْ ، طِبْتُمْ ، فَأَدْخَلُوهَا خَالِدِينَ ... ﴾ (٣٩ : ٧٣)
- ١٢ - قال تعالى: ﴿ وَلَوْ تَرَى إِذْ وَقِفُوا عَلَى النَّارِ فَقَالُوا : يَا لَيْتَنَا نُرَدُّ ، وَلَا نَكْذِبُ بآيَاتِ رَبِّنَا ، وَنَكُونُ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ... ﴾ (٦ : ٢٧) .
- ١٣ - قال تعالى: ﴿ وَلَوْ تَرَى إِذْ وَقِفُوا عَلَى رَبِّهِمْ ، قَالَ : أَلَيْسَ هَذَا بِالْحَقِّ ؟ - قَالُوا : بَلَى وَرَبِّنَا - قَالَ : فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ ... ﴾ (٦ : ٣٠) .
- ١٤ - قال تعالى: ﴿ وَلَوْ تَرَى إِذِ الظَّالِمُونَ فِي غَمْرَاتِ الْمَوْتِ وَالْمَلَائِكَةُ

بَاسِطُوا أَيْدِيهِمْ : أَخْرَجُوا أَنْفُسَكُمْ ، الْيَوْمَ تَجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ
بِمَا كُنْتُمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ ، وَكُنْتُمْ عَنْ آيَاتِهِ تَسْتَكْبِرُونَ... ﴿٦ : ٩٣﴾ .

ولنا عدا ذلك من شواهد الحذوف في القرآن الكريم ما لو تتبع نراد على
المثمة ، ولعل فيما استشهدنا به كفاية للتأملين .

يوسف في الحب

البحث الثاني - لما وصل إخوة يوسف إلى «دوتان» نزلوا عن عانة حميرم وأرادوا أن
يخفروا تلك اللذمة فقالوا ليوسف - بنعمة الظافر - أنت صاحب الأحلام السياسية ؟
أنت صاحب المنامات الملوكية ؟ هبلتك أمك - وما عتموا أن خلعوا عنه
قيمه الملون الذي عليه ، ثم أخذوه وألقوه في غياهب «الجفر» (١) ، !!
وأما هو فبهت وبفت واصفر لونه وانتقع ، لهفته وتأثره ، وجلس
في الغيابة وحيداً ، تتقاذفه الهواجس والبلابل ، وقد أخذ منه القلق
مأخذاً عظيماً ، وهو مقطب الوجه ، غارق في بحار التأمل ، وقد هاله
ما به من الوحشة والوحدة ، مع الغربة والنأي عن الأهل والوطن ، وليس عنده
ما يأكله ، ولا ما يتدفأ به ، ولا ما يقيه من البرودة والرطوبة ، فترقرقت عيناه
بالدموع الحارة ، ثم افكر في صنيع إخوته معه ، وجمل يردد قولهم لأبيهم : ﴿ يَا
أَبَانَا مَا لَكَ لَا تَأْمَنَّا عَلَى يُوسُفَ ؟ وَإِنَّا لَهُ لَنَاصِحُونَ ، أَرْسَلْهُ مَعَنَا غَدًا يَرْتَع وَيَلْعَبُ ،

(١) الجفر بضم الجيم وفتحها بئر واسعة محفورة لم تطو .

وإناله لحافظون ﴿ رده مراراً ، وتغنى به تكررأ ، وهو عند كل كلمة يهز رأسه مستغرباً متعجباً ، ويقول : (يرتع ويلعب :!) أين الرتع ؟ وليس لي الآن ما أسد به الجوع ، وليس حوالي إلا الطحلب ، وأين اللب ؟ وأنا الآن في جفر صخري ذي أربع حوائط ، هي وسقفه وأرضه قطعة واحدة ، وأين الحفظ ؟ وليس عندي ما يقيني من البرد والرطوبة ، ولا مايؤنس وحدتي ، فلو أن هؤلاء الإخوة (الكرام) قالوا : (فأرسله معنا غداً يجمع ويتقيد : وإناله لحاسبون) لكانوا أقرب إلى الصدق .

هذا ما نظن أن يوسف أخطره في قلبه حينما صار في جبه

كيف اتفق اخوة يوسف على إلقاءه في الجب مع افتخار مشاربهم وميولهم

البحث الثالث - سألني سائل: كيف أمكن لهؤلاء الإخوة العشرة أن يتفقوا ويتحدوا على الإضرار بيوسف وإلقاءه في « الجفر » مع أنهم عدد غير قليل ، ومع كونهم من أمهات ثلاث ضرائر ، هن : ليئة ، وبليهة ، وزلفة ، فهؤلاء الإخوة العشرة لا بد أن يكونوا مختلفي المشرب والميول ، لا سيما رأوين ويهوذا ، فقد كانا غير حاقدين على يوسف كثيراً ، بعكس شمعون العظيم الحقد عليه ، وبخلاف كل من دان ونفتالي اللذين كانا إلى محبة يوسف أقرب من كرهه ، حيث هما ولدا جارية أمه وقد تربى هو وشقيقه بنيامين في خيمتها بصحبة ولديها المذكورين ، وبخلاف الخمسة الباقين ، فقد كانوا متوسطين في كرههم ليوسف ، فكيف مع هذا الاختلاف العظيم ، ومع كثرة عديم اتفقوا وأجمعوا على الإضرار العظيم بيوسف ، وقد توفقوا أن فعلوا ما أجمعوا عليه ؟!! ..

فأجبتة بجواب مختصر ولعل فيه الكفاية ، وهو أنني كنت افكرت نفس هذا

السؤال ولم أتمكن حتى الآن أن أعرف سبب اتحاد هؤلاء العشرة واتفاقهم غير القاعدة القائلة : « المصائب تجمع » ...

خيبة آمال اخوة يوسف

البحث الرابع - نرى ان الأمور التي أجراها إخوة يوسف بيوسف، هي من الأمور التي لم تلاحظ فيها العواقب البعيدة وإنما لوحظت فيها الفوائد العاجلة التي لا تشعر إلا شوكاً وحنظلاً ، ولذلك فأخيراً خابت آمالهم ، ودخلوا في كنف أخيه صاغرين ، وإيضاح ذلك :

أولاً - لقد أخرجوه وأخرجوه ، وفي غيابة الجفر أسقطوه ، ظناً منهم أنه سيسقط من عين أبيه وأنهم سيحلوا من قلب أبيهم منزلة أعلى من منزلتهم الأولى ، والحقيقة عكس ذلك فيوسف لم يسقط من عين أبيه ولا هم حلوا من قلبه منزلة أعلى من منزلتهم الأولى بل لم يستفيدوا من كل ما دبروا وعملوا شيئاً ما ، سوى أنهم ظلوا أخام وباءوا بإثمه ، وعقوا أباهم ، وأدخلوا عليه القلق والاضطراب .

ثانياً - لقد رجوا إن فعلوا بيوسف فمهدتهم أن يدخلوا لهم وجه أبيهم ، فهل خلا يا ترى ؟ نقرأ في القرآن الكريم فترى يعقوب بعد حادثة يوسف ، قد حصر كل محبته وعنايته في بنيامين ، الابن الأصغر شقيق يوسف ، فقد سمعناه يقول : ﴿ هَلْ آمَنُكُمْ عَلَيْهِ إِلَّا كَيْمَا آمِنْتُكُمْ عَلَىٰ أَخِيهِ مِنْ قَبْلُ ﴾ ثم سمعناه يقول : ﴿ لَنْ أُرْسِلَهُ مَعَكُمْ حَتَّىٰ تُؤْتُوا مِنِّي مَوْثِقًا مِنَ اللَّهِ لَتَأْتُنَّنِي بِهِ إِلَّا أَن يُحَاطَبَ بِكُمْ ﴾ ، ثم سمعناه يقول : ﴿ يَا بَنِيَّ لَا تَدْخُلُوا مِن بَابٍ وَاحِدٍ ،

وادخلوا من أبوابٍ مُتَفَرِّقَةٍ ﴿١٥﴾ ، وقد طلب منهم هذا التحفظ عند سفرتهم الثانية ، حين كان بنيامين معهم ، ولكن عند سفرتهم الأولى حين لم يكن معهم لم يوصهم بشيء ، ثم عطفاً على ما سبق - سمعناه يقول: ﴿ يا بني اذهبوا فتجسسوا من يوسف وأخيه ﴾ يريد بأخيه « بنيامين » طبعاً ، مع أن رأوين كان متخلفاً بمصر ، ولكنه لم يشر إليه بشيء ، ثم رأيناهم سلكوا مسلك أبيهم في المحافظة على بنيامين ، حيث صاروا يترضون أباهم بسهرم عليه وحراستهم له . إذ قالوا ، ﴿ وإنما له لحافظون ﴾ ، و ﴿ نحفظ أخانا ﴾ ، ثم سمعناهم يقولون : ﴿ يا أيها العزيز إن له أباً شيخاً كبيراً ، فخذنا أحدنا مكانه ﴾ وسمعنا كبيرهم يقول : ﴿ ألم تعلموا أن أباهم قد أخذ عليكم مَوْثِقاً من الله ﴾ يريد موثقاً في شأن (بنيامين) خاصة .

فتعلم من مجموع هذه الآيات الكريمة وما إليها ، أن وجه أبيهم بعد غياب أخيه لم يخل لهم ، ولكنه خلا (لبنيامين) شقيقه ، فترى من ذلك أن آمالهم خابت وانهم لم يستفيدوا شيئاً بعد أن فعلوا ما فعلوا ، بل خدموا بذلك (بنيامين) إذ نقلوا له حصة الحب والصيانة التي كانت ليوسف ، فأنحصرت فيه محبة وعناية أبيه خلاف ما كانوا يرجون وعكس ما كانوا يأملون .

سيلون ودوثان والجب

البحث الخامس - علمنا أن اخوة يوسف ذهبوا بأخيه يوسف من « سيلون » محط رحال في والدهم ذلك الحين ، وهي بجوار نابلس قرب « سنجل » ، وما زالوا سائرين حتى أتوا « دوثان » ، وهي اليوم « خربة » معروفة بهذا الاسم تبعد ستة أميال إلى الجنوب الغربي من « جنين » بجوار « عرّابة » وبمباراة أخرى هي بين سنجل ونابلس ،

تبعد عن « خليل الرحمن » - قرية أربع - إحدى وثلاثين ساعة لجهة الشمال ، هذا بيان المحل الذي ذهبوا منه والمحل الذي ذهبوا إليه ؛ وأما غيابة الجب ، فمنناه ما غاب من أسفل الجب من جوانبه المرتفعة عادة عن وسطه ، هذا نصف الحقيقة ، أما نصفها الآخر فهو ان الجب كان فيه بقية قليلة من الماء ر اكدة في وسط الجورة المتوسطة في قعره ، والفرق بين كلمة جب وبئر ، ان الجب هو البئر التي لم تطو ، أي لم تبني بالحجارة ونحوها بل جبت جباً ، أي قطعت قطعاً بالماول والقؤوس ، أو الديناميت والبارود ، ويقال للجب أيضاً « جُفْر » وأما ما كان مطوياً بالحجارة فيقال له « طوي » وجمعه أطواء ، وبئر وجمعه آبار ، قال الشاعر :

فإن الماء ماء أبي وجدي

وبئري ذو حفرت وذو طويت

والحقيقة ان آبار صحراء دوئان وصحاري ما حوالها من سنجل وناپلس ونحوها ، هي جباب صخرية ، ومنه تعلم عدم صحة تعبير التوراة عن جب يوسف « بالبئر » وان الصواب التعبير بالجب كما في القرآن الكريم .

(وأوحينا إليه .. الخ)

- ١ -

قال المرزا حسين الكاشاني (١) :

الايحاء ليوسف وهو في الجب

ألقوه في الجب ، ورجعوا لشأنهم ، وتركوه وحيداً يحرِّق أسنانه ، ويساور

(١) نسبة إلى كاشان إحدى مدن إيران

نفسه هم وقلق شديدان ، ويكي ويقول : « واشقا آه ، يا شاهداً غير غائب ، ويا قريباً غير بعيد ، ويا غالباً غير مغلوب ، اجعل لي من أمري فرجاً ومخرجاً . » وما هي إلا ساعة أو قريب منها ، إذ رأى أنه قد تجدد فيه شيء من الأمن واطمئنان القلب ، وانه كذلك ، إذا بالملك قد نزل عليه يطمئنه ، ويقول له : يوسف . يوسف . لا تخف . ﴿ قل : يَجْمَعُ بَيْنَنَا رَبُّنَا ، ثُمَّ يَفْتَحُ بَيْنَنَا بِالْحَقِّ وَهُوَ الْفَاتِحُ الْعَلِيمُ ﴾ (٣٤ : ٢٦) فباح له وكاشفه بالسر المصون ، والغيب المكنون ، وصارحه بما سيكون ، وقال له : ستخرج من هذا الجب بصحتك وعافيتك ، وتعلو لمنصب ذي شأن ، وسيأتونك محتاجين لفضلك ، واقفين بين يديك وعند ذلك تقول لهم : ﴿ هل عَلِمْتُمْ ما فعلتم بيوسفَ وأخيه إذ أنتم جاهلون ؟ ﴾ ولكن الأمر يحتاج إلى صبر ، لأنك الآن في أول الطريق ، وهذا الاجتماع والعتاب إنما سيكون بعد ٢٣ سنة : ﴿ واصبرْ على ما أصابَكَ ، إِنَّ ذلكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ ﴾ (٣١ : ١٧) فهذا حديث نحدثك به اليوم ، وسترى مصداقه بعد اليوم .

سمع يوسف ذلك ، فانبثق له - وهو في ظلمة الجب - نور تلك المواعيد خفف شيئاً من الويلات التي كانت حاقت به ، فكأنما نشط من عقال ، فاستراح قلبه ، لأن الله كان معه وقد طمأنه : ﴿ يَثْبُتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ ﴾ (١٤ : ٢٧) وقال في نفسه : (لتكن إخوتي كما يشاؤون ، وليعيشوا كما يريدون ، وليعملوا ما يحبون فستقضي أيام نزع شبابهم ، وستبلى منهم تلك الحدة ، وسيعطيني الله ما وعدني في رؤيائي ، وعلى لسان أبي ، وهناك ينزلون من سمائمهم إلى أرضي ، ويكون ما سيكون ، فتعارف بعد التناكر ، وتواصل بعد التقاطع وملتقي كما كنا ، ونعيش جميعاً تحت نظر الأب الكريم ، وإن الذي غرس في قلبي هذه الآمال الحسان ، لا يمجز عن أن يعيدها بلطفه وعنايته ، حتى تخرج

ثمارها ، وتتألاً أزهارها ، إنه جواد كريم ، على أني لم أكن بادئاً بالطلب ، ولا مقترحاً ولا مستبداً ، إذ كل ما أرجوه قد سبق فيه الوعد ، ممن لا يخلف الميعاد ، فلست أريد أن أموت باليأس ، بل أريد أن أحيأ بالأمل .

سبحان المنعم : كن مع الله ولا تبالي ، فكم وكم من الناس يدخلون القصور وهم أعزاء ، ولكن يغادرونها في حالة الذل ، وأما يوسف فنزل في الجب ، وهو بحالة الذل ، ولم يغادره إلا وهو موحى إليه ، كما سيأتي أنه دخل السجن عبداً فغادره وهو ناظر مالية !!! .

وإذا العناية لاحظتك عيونها

نم فالخاوف كلهن أمان

هذا حال يوسف في جبه ، وأما إخوته فهل يظن ظان أنهم بعد ما فعلوا فعلتهم أنهم كانوا مستريحين في قلوبهم ؟ ... كلا.. بل لارتاب في أن ضماؤهم كانت تخزم ، ونفوسهم كانت تلومهم على هذا الصنيع الرديء .

الوحي لغة واصطلاحاً

وبعد فقبل اختتام اسمحوالي أن أتكلم كلمة في شرح « الوحي » بمناسبة قوله تعالى هنا : ﴿ وأوحينا إليه لتنبئهم بأمرهم هذا ﴾ :

قال أحد المصريين - « الوحي في لغة العرب إعلام مع خفاء وسرعة ، ومعنى السرعة أن هذه المعلومات المتلقاة لا تكون نتيجة لمقدمات تبني عليها تلك النتيجة ، بل هي أشبه شيء بالعلم الضروري الذي لا يتوقف على نظر واستدلال » ،

وقال عصري آخر - : « الوحي في اللغة يطلق على الأمور الآتية :

١ - على الإشارة والايحاء والكتابة ومنه قوله تعالى : ﴿ فَأَوْحَى إِلَيْهِمْ أَنْ

سَبَّحُوا بُكْرَةً وَعَشِيًّا ﴿١٩ : ١٠﴾ فان الذي وقع من ذكره بالقومه إنما هو الإشارة وقيل الكتابة على الأرض .

٢ - على الإلهام الذي يقع في النفس ، أو يلقي في الروح ، وهو أخفى من الأيحاء ، ومنه قوله تعالى : ﴿ وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّ مُوسَىٰ أَنْ أَرْضِعِيهِ ، فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ ، وَلَا تَخَافِي ، وَلَا تَحْزَنِي ، إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ ، وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴾ (٢٨ : ٧) ، وهذا من قبيل ما يقع في نفوس الصالحين ، من المعاني والأفكار الصحيحة ، فيعد من الإلهام ، الذي قد يعبر عنه بالوحي .

٣ - يطلق على ما يكون غريزة دائمة ، ومنه قوله تعالى : ﴿ وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ ، أَنْ اتَّخِذِي مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا ، وَمِنَ الشَّجَرِ ، وَمِمَّا يَعْرِشُونَ ، ثُمَّ كُلِّي مِنْ كُلِّ الشَّجَرِ ، فَاسْلُكِي سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلًا ﴾ (١٦ : ٦٨)

٤ - ويطلق على الإعلام في الخفاء ، وهو أن تُعلم إنساناً بأمر تخفيه عن غيره ومنه قوله تعالى : ﴿ شياطينَ الإنسِ والجن ، يُوحِي بِمَعْضُمِهِمْ إِلَىٰ بَعْضٍ ﴾ (١١٣ : ٦) .

وقال عصري ثاك : ثبت ان الروح الانسانية إذا تجردت، عن الاشتغال بالمداديات أمكنها أن تستقي معلوماتها بدون وساطة المشاعر ، فيوسف الصديق لما رأى نفسه وحيداً في الغيابة تملص عن كل شيء من عالم المادة ، وتقلص عما عدا الروحيات ، فأنكشف له أنه سوف ينيء إخوته بما عملوه معه ، غير شاعرين انه أخوهم .

وأما الرسل فينكشف، لهم عالم الأرواح العليا باستعداد فطرتهم ، وبتخصيص الله تعالى إياهم لذلك ، فلا جرم إذا كانوا يعرفون من عالم التقديس ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر .

وقال عصري رابع - : معنى الوحي او الالهام في اللغة : الإلقاء في الروح ، أي الإخطار على البال ، ويكون على ثلاثة انواع ، يختلف تعريفه اصطلاحاً بحسبها .
النوع الأول : عام ، وهو ما تكون به هداية كل نوع لما يصلح له قوامه ، وذلك كالذي نراه في فطرة الحيوانات آكلة العشب ، من اجتناب التي لا تلتصمها من غير معلم ، ومن غير تجربة سابقة كالخيل والبقر والأنعام ، وكالذي نراه من اتخاذ كل نوع من الأنواع المتعادية ، اسباب الدفاع والمهجوم من صياحي وخدائث ، اعتبر ذلك من صفات الحشرات ، الى كبار السباع ، وكالذي نشاهده من استشفاء البعض منها ، ببعض الأعشاب ، كالسنانير والكلاب ، وكالذي نراه من نظام الحيوانات ، المتقادة لرئيس منها ، كالنحل والنمل ، وكالذي يراه كل منا من اندفاع الرضيع لالتقام حلمة ثدي أمه ، فمصه إياه حتى يكتفي ، وشاهد هذا النوع من القرآن : ﴿ وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ ﴿١٦﴾ (٦٨) .

النوع الثاني : خاص ، وهو ما تكون به هداية هذا النوع الانساني في حياته النوعية ، وشؤونه الخصوصية ، متى وصل لسن التمييز : والشاهد لهذا : ﴿ وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّ مُوسَىٰ أَنْ أَرْضِعِيهِ ، فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ ، فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ ، وَلَا تَحْزَنِي وَلَا تَحْزَنِي ، إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ ، وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴿٢٨﴾ (٧) .

النوع الثالث : أخص ، وهو ما تكون به هداية بعض الأفراد لمعرفة شيء من عالم الغيب ، وهذا ما يقع للأنبياء ، وشاهده : ﴿ إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ ، كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَىٰ نُوحٍ : وَالنَّبِيِّينَ مِنْ بَعْدِهِ ﴿٤﴾ (١٦٢) .

وبقابل النوعين الأخيرين ، إضلالات ، تأتي من جانب الناس والشيطان ،

وشاهده : ﴿ وكذلك جعلنا لكل نبي عدوًّا ، شياطين الجن والأنس ،
يُوحى بعضهم الى بعض ، زخرف القول غروراً ﴾ (٦ : ١١٢) .
وربما كان الوحي ليوسف من قبيل الإلهام ، فهو من المعنى الثاني من المعاني
الآنفة الذكر ، والله تعالى أعلم ، وأما نحن فلا نعلم إلا أننا لانعلم .
وأما وحي الله لأتبيائه فقد شرحه إخواننا الامام القلقيلي والشيخ البيهقي
والمدقق اللدي في جلسة الاثمار على الآية الثالثة ، فمن أراد فليرجع اليه .

دموع التماجيح

آ (١٦) ﴿ وجاءوا أباهم عشاءً يبكون !! ﴾

افتتحت الجلسة وتليت الآية السادسة عشرة فقام ابو الفضل البحراني^(١)

وقال :

(وجاءوا) أي جاء فريق من اخوة يوسف العشرة وبقي فريق آخر منهم
في حراسة يوسف وهو في جبه ، حيث السيارة لم تجيء بعد كما هو مقتضى نظم
الآيات الكريمة (أباهم) يعقوب (عشاء) في أمسية أحد الأيام (يبكون) وقد
عبر بهذه الكلمة مع أن الذي صدر منهم هو التباكي ، لأن الانسان إذا تباكى
انتهى تباكيه المصطنع بيبكاء حقيقي ، وبيان ذلك : أن الأفكار والخواطر التي تمر
بأذهاننا يتأثر بها جسمنا ، كما بالعكس ، أن عقلنا يتأثر من جسمنا ، فكل عواطفنا
تؤثر في أجسامنا ، وقد يمكننا استحداث العاطفة بتحريك العضو الخاص بها ، فإذله

(١) نسبة الى البحرين احدى مقاطعات الجزيرة العربية الواقعة على الخليج العربي .

تضحكنا مثلاً وليس هناك ما يضحكننا ، فإن هذا التضحك يحدث سروراً عندنا ويتهي بنا الى الضحك الحقيقي ، وإذا تبأ كينا انتهى التباكي المصنوع بيبكاء حقيقي نشعر فيه بالحزن ، ومعنى هذا ان الجسم يؤثر أيضاً في العقل ، هذا هو تحقيق الكلام في هذا المقام الذي غفل عنه المفسرون .

(وجاءوا أباهم . الخ)

— ١ —

وقال الشيخ دخيل الكويتي (١) :

قال يعقوب بعد ذهاب يوسف مع اخوته ومال اخوته بعد لقائه في الحب

لترك يوسف في جبهه ، ونأتي على ما جرى ودار بين يعقوب وأولاده حينما رجعوا اليه بدون يوسف :

بعدما فعلوا فعلتهم ، اجتمعوا ونذاكروا في أمر يتخلصون به من أبيهم ، بحيث يتفقون جميعاً عليه ، لئلا تظهر له دخيلتهم ، فاتفقوا على ما سيأتي ذكره . هذا ما كان من جهتهم ، وأما ما كان من جهة والدهم ، فانه كان في آخر يوم من غياب ولده الحبيب تذكره وتذكر بعمده عنه ، فالتابته الهواجس ، ورآى نفسه في وحشة عليه ، وكأني به قد شرع يقول بينه وبين نفسه : « كم يوماً أنت غائب عني يا يوسف ؟ وكم يوماً بقي لك حتى ترجع ، وأرى نور وجهك ؟ آه ، أنت يا ولدي في سرائك وأنا في ضرائي ، أنت مشغول القلب بالمتزهات الجميلة الرائعة والمناظر الطبيعية ، وأنا مشغول الفؤاد بغيبتك عني ! » .

(١) نسبة الى بلدة الكويت في امانة الكويت العربية على ساحل الخليج العربي .

مثل يعقوب الانتظار ، وقد كان يتوقع أن يرى يوسف حاضراً بالسلامة ،
ممتلئاً سِمْناً ، متفقيئاً شحماً ، مترعرع البدن بسبب وجوده في الصحراء ، يرتع
ويلعب فيها ويستنشق هواءها النقي ، وكان بعد مدة غيب ابنه يوسف بالأيام ،
بل بالساعات .

بينما يعقوب ، وهو في ظلمة البعاد يتطلع لرؤية وجه ولده الساطع ، كما يتطلع
الملاح في ظلمة البحر الى نجمة القطب ،

بينما يعقوب ، قد هاجت بلابله ، وتحركت أشجانه ، وقد جعل يتلفت كأنما
يبحث عن ضائع ، ويُصيح بسمعه ، كأنما يتسمع لأنين طفل يبكي ،

بينما يعقوب ، يتقلب على مثل الجمر من الانتظار ، يقضي بانتظاره كل ليل بطيء
الكواكب ، وكل نهار أطول من فقر أهل الكسل ،

نعم بينما هو كذلك ، إذ في ذات ليلة ، في الهزيع الأول من الليل ، بعد أن
سحبت الغزاة ذنبها الأحمر ، وتكاثفت العتمة ، وخيم الغسق ؛ وسدل الليل قابه
وانغمست جذوة النهار في فحمة الليل ، جلس يعقوب وهو يفكر في أمر وحشته
من يوسف ، وانه كذلك ، إذ حضر أبناؤه (لسيلون) وقربوا من باب فسطاط
آبهم وقد علتهم الأحزان ، واحمرت عيونهم ، وكلل العرق أصدانهم وجباههم ،
وتجول في محاجرهم دموع التماسيح ، يبكون بكاء مر أبكل عين قوية ، وقد شرقوا بدموعهم
وهم يجهدون في بكائهم وقد خنقتهم العبرات ، ولكن دموع بكائهم لم تكن مسخينة ، بل باردة :

إذا اشتبكت دموع في حدود تين من بكى ممن تباكى

فبفت أبوهم ، وصاح : مَهَيِّمٌ ؟ ما وراءكم ... ما خبركم ... ؟ ما خطبكم .. ؟
تكلّموا .. قولوا ..

فأجابوه بما سيأتي في الآية (١٧) .

(وجاءوا اباهم ..)

— ٢ —

وقال ابو غانم الاربدي :^(١)

اختلف القرآن والتوراة في كيف ومتى رجع اخوة يوسف بعد اللقاء في الجب

إذا قرأنا من هنألى قوله تعالى : ﴿ وَجَاءَتْ سَيَّارَةٌ ﴾ ، فأرسلوا واردهم .. الخ ﴿ وتأملنا فيه قليلاً نعلم من نظام ترتيب الآيات أن إخوة يوسف رموه في الجب وفي الحال قبلما تأتي السيارة المذكورة قاموا ورجعوا الى أبيهم ، ونعوا له يوسف وهو أجابهم بما أجابهم ، وبعد ذلك ، وفي حال غيابهم ، جاءت السيارة المذكورة فالتقطت يوسف ونشلته من جبه ، هذا ما تعلمه من الآيات المذكورة فإنه وإن تكن «الواو» لاتفيد ترتيباً لكن المتبادر من نظام الآيات هو ما فهمناه، وانما نقرأ في «سفر التكوين» فنفهم ان «السيارة» جاءت وأخذت يوسف وذهبت به لمصر بحضور إخوته ، بل هم الذين باعوه لها ، ثم بعد أن أتموا ذلك كله، وصاروا آمنين أرسلوا بعضهم بالقميص ينبي يوسف لأبيه . ورأينا في هذا الاختلاف هو انه يمكن الجمع بأن فريقاً منهم ذهبوا بالقميص والنبي لأبيهم ، وفريقاً آخر بقي في دوثان لأجل حفظ يوسف في الجب ، ومراقبة ما سيطرأ عليه ، خوفاً من ثقته بإحدى الوسائط ، فهروبه منه ، فرجوعه لأبيه ، فتبين كذبهم صريحاً ، وعليه فالضمير في قوله تعالى : « وجاءوا » ليس هو ضمير الجميع ، بل ضمير المجموع ، أي للبعض منهم ، فيصدق بواحد أو اثنين أو ثلاثة مثلاً وإنما نسب المحيي بضميرهم

(١) نسبة الى اربد من بلاد الشام (شرق الاردن) .

كلهم ، لأن مجيء البعض كان بمعرفة ورأي الكل ، فلذلك جازت نسبته للكل ، عملاً بقاعدة التضامن والتكافل التي هي معتبرة شرعاً وعليها جرى القرآن الكريم على طول الخط ، كما في قوله تعالى : ﴿ تَمَّ اتَّخَذْتُمْ الْمِجْلَ مِنْ بَدَنِ وَأَنْتُمْ ظَالِمُونَ ﴾ (٢ : ٥١) وقوله : ﴿ وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَى لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى تَرَى اللَّهَ جَهْرَةً ، فَاتَّخَذْنَاكُمْ الصَّاعِقَةَ ، وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ ، ثُمَّ بَعَثْنَاكُمْ مِنْ بَدَنِ مَوْتِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ (٢ : ٥٥ و ٥٦) وقوله : ﴿ وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَى لَنْ نَصْبِرَ عَلَى طَعَامٍ وَاحِدٍ ﴾ (٢ : ٦١) ، وقوله : ﴿ وَإِذْ قَتَلْتُمْ أَنْفُسَ قَادِرَاتٍ فِيهَا ، وَاللَّهُ مُخْرِجٌ مَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ ﴾ (٢ : ٧٢) وقال تعالى ﴿ فَكَذَّبُوهُ فَعَقَرُوها ، فَدَمْدَمَ عَلَيْهِمُ رَبُّهُمُ بِذُنُوبِهِمْ ﴾ (٩١ : ١٤ و ١٥) وما إلى ذلك مما لا يحصى في الكتاب الكريم والاحاديث النبوية والأشعار العربية .

وأما القول بأن مجيء « السيارة » وأخذهم إياه لمصر كان قبل مجيء إخوته لأبيهم عشاء يكون ، وأن الواو في قوله « وجاءوا » لا تفيد ترتيباً — فهو قول أدخل في باب الهراء منه في باب الكلام المقول ، وما يسع رجلاً يحترم نفسه وما وهبه الله من المدارك والمشاعر أن يقول هذا القول .

عذر أقبح من ذنب

آ (١٧) * قالوا: يا أبانا، إنا ذهبنا نستبقُ، وتركنا يوسفَ عندَ متاعنا، فأكله الذئبُ، وما أنت بمؤمنٍ لنا، ولو كنا صادقين * .

افتتحت الجلسة وتليت الآية السابعة عشرة فقام الفاضل الغزي وقال :-
روي أن يعقوب لما سمع صوت أولاده وهم قادمون عليه ، فزع وقال : مالكم يا بني هل أصابكم في غنمكم شيء ؟ قالوا : لا - قال : فما لكم وأين يوسف ! - قالوا : بلسان الغم والكآبة : (يا أبانا ، إنا ذهبنا نستبق) أي نتسابق في العدو أو في الرمي - ومعنى نستبق نتفضل - (وتركنا) أخانا (يوسف) المحبوب في الخيمة - (عند متاعنا) حوائجنا (فأكله) فاختطفه (الذئب) الخبيث (وما أنت بمؤمن) بمصدق (لنا) في هذا النبأ (ولو كنا صادقين) أي ولو كنا عندك من أهل الصدق والثقة لشدة محبتك ليوسف ، فكيف وأنت سيء الظن بنا غير واثق بقولنا؟ أو ولو كنا صادقين في الواقع ونفس الأمر -

(قالوا : يا أبانا ، إنا ذهبنا .. الخ)

- ١ -

وقال الاستاذ اليافي :

افوة يوسف بلفقون لأبيهم كيف افترس الذئب يوسف
يم أبناء يعقوب - ساعهم الله - فسطاط أبيهم ، وقالوا بصوت مرتجف

مضطرب أجش متقطع ، وهم يتلثمون في كلامهم ، وعيونهم تترقق بدموعهم :
يا أبانا المحترم لا نكذبك ، - قال : خيراً لنا شراً لأعدائنا ، تكلموا ، فإني
أراكم بحالة على غير ما أعهد ، أعرف منها وأنكر ، - قالوا : إنا ذهبنا .. نستبق ..
وتركنا ... يوسف ... أخانا المحبوب ... عند متاعنا ... فأكله ... الذئب ... وما
أنت بمؤمن لنا ... ولو كنا صادقين .. فيما قلناه ، - فقال أبوم : ما هذا الذي
تقولون ؟ - فوقف ابن آخر وقال : ذهبنا يسابق بعضنا بعضاً في الرمي ، وتناضل ،
ونشتد ونمدو ، وأوغلنا في الكر والفر ، وتركنا أخانا المحبوب يوسف . - ولما
وصل في حديثه إلى هذا الحد - امتقع لون أبيه الشيخ ، وشخص يبصره لسماع
تمة الحديث قائلاً : ثم ماذا ؟ - قال : يا ليتنا متنا قبل أن ننقل إليك هذا الخبر
السيء ، - قال أبوم : ثم ماذا ؟ أسرع في الكلام - قال : فما عتونا أن بعدنا عنه ،
وشسعت بيننا وبينه المسافة ، فإلبث أن جاء الذئب وبك ودجيه ، وهكذا
أسلمه حظه إلى أنيابه ، أكله (واأسفاه) ذلك الحيوان الأشرس الضاري ،
واستل حياته من يسدي أجله ، ولعله تعرض له في الصبح في أول ما خرجنا
للاستباق ، عند فترة كلابنا ونومها ، لأن الذئب أكثر ما تتعرض لافتراس النعم
في أول ذلك الوقت ، كما هو معروف - ولعل أخانا خافه فهرب منه ، فطمع فيه
فأدركه وقتله .

وربما كان أخونا نائماً ، فجاءه نخدشه بأنيا به في عنقه ، أو أثقله وأثخنه بالجراح
حتى سالت نفسه فقضى نحيبه ، وأما نحن فبعد ما أسفنا وبكىنا عليه بكاءً مرأً فقد
جهزناه ، وواريناه جثمانه التراب . ولم نشأ أن نأتي به أو ببقية جسده ، لئلا يتضاعف
حزنك عليه ، وإنا لا نكذب الله فيما نقول ، ولكن ما العمل والإنسان هدف
للتواهب ، وإنه ليعرض لنا أنك غير مصدق لنا بقلبك على صحة هذه الحقيقة ،
وإن كانت كفلق الصبح ، ولو كنا عندك من أهل الصدق والثقة ، ولماذا ياترى ؟ .
لشدة محبتك ليوسف ، فكيف وأنت سيء الظن بنا ، غير واثق بقولنا !!!

(قالوا يا أبانا، إنا ذهبنا.. الخ)

— ٢ —

قال الشيخ السلفي العنيزي (١) :

ليسمح لي السادة المستمعون أن أبين في هذا الصدد ثنائي نقاط هي من الأهمية بمكان :

المذرة المصطنعة

أولها : — لقد تركز إخوة يوسف على معذرتهم التي قدموها لأبيهم ، لأنها تكفيهم للذود عن أنفسهم في موقف الجدل والمناظرة، وإن كانت كالثوب الشفاف ينم عما وراءه ، وكل أحد يدرك لأول نظرة أنها حيلة مصطنعة ، فهي في ظهور فسادها ، كحيلة الفقهاء في « الربا » التي يسمونها « العينة » وقد قيل : « إياك والعينة فإنها لعينة » . نعم لقد انتحلوا هذا العذر ، وصمموا على حكايته لأبيهم ، سواء أصادفوا منه إصفاً وقبولاً أم لا ، مع أن الشيء الذي اتخذوه عذراً ، ضعيف في العقل جداً ، ولكن ماذا يعملون ؟ .. وهم لا يجدون شيئاً يلجأون إليه سواء ، « ولا بد للكذاب من بارد العذر » .

الاستباق

ثانيها : — يريدون بقولهم « نستبق » يسابق بمعنى بعضاً في الرمي ، بأن يرمي اثنان مثلاً ، ليتبين أيهما يكون أسبق سهماً وأبعد غلوة ؟ ، فعنى « نستبق » نتنصل ونترامي ، فننظر أي السهام أسبق إلى الغرض (قاله الزجاج) ، وقد روى

(١) نسبة إل العنيزة من البلاد النجدية في المملكة العربية السعودية

مسلم في صحيحه عن عقبه بن عامر قال : سمعت رسول الله ﷺ وهو على المنبر يقول : « وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة . ألا إن القوة الرمي ، ألا إن القوة الرمي » وهو سنة ، ولكن يحرم اتحاد الحيوان الحي غرضاً ، فقد روي مسلم في صحيحه أن ابن عمر مرّ بفتيان من قريش قد نصبوا طيراً وم يرمونه ... فلما رأوا ابن عمر تفرقوا ، فقال ابن عمر : من فعل هذا ؟ ، لمن الله من فعل هذا ، « إن رسول الله ﷺ لعن من اتخذ شيئاً فيه الروح غرضاً » .

وقيل معنى « نستبق » نسرع ونعدو على أرجلنا ، ليتبين أين أسرع عدواً ، وقد روي أن النبي ﷺ كما يسابق عائشة (ض) وذلك على نوع من أنواع فن الرياضة البدنية المستحب طياً وشرعاً .

وقيل معنى « نستبق » تتسابق على دوابنا ، ففي البخاري « أن النبي ﷺ سابق بالخيل التي أضمرت ، وسابق بين الخيول التي لم تضمر » ، وزاد مسلم : « وكان ابن عمر فيمن سابق بها » .

المتاع

ثالثها : - قولهم « متاعنا » جمعه أمتعة ، ويرادفه « الثقل » ، كما في ﴿ وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ إِلَى بَلَدٍ ﴾ (١٦ . ٧) أي أمتعتكم الثقيلة ، وكلمة « متاعنا » مفرد مضاف فيعم جميع الأمتعة المعتادة لأمتهم في البر ، المؤلف من خيام وعدول وأصواف وسمن وزبد وألبان ولحوم مقددة ، وجرار ماء ووسائل للجلوس وأغطية نوم ، واقط وجبن وجلود ونعال ، وما إلى ذلك .

وهنا لنا عليهم ملاحظة ، كما لا بد أن يكون قد لاحظها عليهم أبوهم (ع) . وهي أنهم كانوا قالوا : ﴿ مَا لَكَ لَا تَأْمَنَّا عَلَى يُوسُفَ ؟ وَإِنَّا لَهُ لَنَاصِحُونَ ﴾ .

أرسلتهُ معنا غداً يرتع ويلعب ، وإنا له لحافظون ﴿ ١٧ 〉 ، فإننا نراهم الآن لم يفوا بهذا الوعد ولم يقوموا بما قالوا ، فإنهم بدّلوا يوسف عن « الرتع واللعب » بالحراسة ، فقد جعلوه كحارس لأمتهم ، وتركوه وحده ، ولم يكونوا له من الحافظين ، ! وبهذا يكونوا قد تناقضوا ، ولم يتجاوب أول كلامهم وآخره .

ادعاء اخوة الوجه الذي خاف أبوهم هلاك يوسف بسببه

رابعا : — قالوا : (فأكله الذئب) فسمع أبوهم ذلك النعي السيء ، فأثر فيه تأثيراً كلياً ، فاختلف قلبه أيما اختلاف ، بل شعر كأن صوت هذا النعي اخترق صدره ، حتى وقعت سهامه في قلبه ، ولكنه رجع إلى أمه في ولده ، وصبر صبر الكرام .

وروي انه لما سمع صوتهم فزع ، وقال : « مالكم يا بني ، هل أصابكم في غنمكم شيء ؟ ! — قالوا : لا — قال : فما لكم ؟ وأين يوسف ؟ — قالوا : أكله الذئب » — فاتهمهم ، وقواه على اتهامهم أنهم ادعوا الوجه الخالص الذي خاف يعقوب (ع) هلاك ولده بسببه ، وهو أكل الذئب إياه ، فاتهمهم أن يكونوا تلفقوا العذر من قوله لهم : (وأخاف أن يأكله الذئب) أعني أن يكونوا التقطوا منه تلك الكلمة ، فتمركزوا عليها هنا ، ولا غرو ، فإن الجملة الاعتذارية التي نطق بها أبوهم لهي كالاختبار بامتحان يعطى فيه نص الجواب مع السؤال ، وكثيراً ما تتلقف الأعداء الباطلة من كلام المخاطب المعتذر إليه ، فهم غنموا هذه التكاأة ، ودبروا هذه الحيلة من يوم أن غزوا أباهم لاستلاب يوسف .

الطروق اكل الذئب على الخدش والنهش تجوزاً

خامسها : - للعرب إقدام على التجوز في الكلام ثقةً منهم بفهم المخاطب من أصحابهم عنهم كما جوزوا قولهم : « أَكَلَهُ الْأُسُودُ » ، وإنما يذهبون إلى النهش واللدغ والعض ، كما نقله صاحب فقه اللغة عن الجاحظ ، وهكذا الحال هنا فمعنى « أَكَلَهُ الذَّئْبُ » خدشه وأثخنه بالجراح ، حتى أسلم روحه لربه .

تعدي الالباء وباللام وبعلى

سادسها : - قولهم (وما أنت بمؤمنٍ لنا) معناه وما أنت بقابلٍ لكلامنا ، مصدق لنا ، بل أنت من المرتابين في اخبارنا ، ونظيره ﴿ قُلْ أَذُنٌ خَيْرٌ لَّكُمْ ، يُؤْمِنُ بِاللَّهِ ، وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴾ (٩ : ٦٢) أي يصدق بالله ويقبل كلام المؤمنين الخلتص ، وقوله ﴿ فَآمَنَ لَهُ لُوطٌ ﴾ (٢٩ : ٢٦) أي أن لوطاً صدق كلام عمه إبراهيم وقبله ، وقوله تعالى ﴿ فَمَا آمَنَ لِمُوسَى إِلَّا ذُرِّيَّةٌ مِّنْ قَوْمِهِ ﴾ (١٠ : ٨٣) ، أي صدقوا كلامه ، وقبلوا إخباره ، والخلصة ، أن الايمان تارة يتعدى بالباء مثل آمنت بالله ، فيكون بمعنى التصديق بالذات ، وتارة يتعدى باللام ، مثل آمنت لك ، بمعنى قبلت كلامك ، وتارة يتعدى بعلى ، مثل (هَلْ آمَنُكُمْ عَلَيْهِ) فيكون بمعنى الاثتان .

الصارق من صدق قلباً ولساناً وجماراً

سابعها : - يقولون : (ولو كنا صادقين) ! يرحم الله هؤلاء آباء الأسباط ، فإنهم ما كانوا صادقين ، في بكتهم ، ولا في قولهم إنهم ذهبوا يستبقون وقد تركوا يوسف عند متاعهم ، ولا في قولهم إن الذئب أكله ، فكل ذلك كذب ،

كما أن الدم الذي جاءوا به على قميصه كان كذباً ، فروايتهم هذه التي مثلوها كاذبة من الرأس للعقب ومن الجذر للفرع .

الصادق عند الإطلاق ، والصادق على الحقيقة من صدق قلباً ولساناً وجارحة فلا ينطوي قلبه على كذب ، ولا ينطق لسانه بكذب ، ولا تتحرك جارحة من جوارحه في شيء كذب ، ولا يعمل أعمال كذب ، بل يكون في كل أفعاله وأقواله ظاهراً وباطناً على حق ، ولكن الجماعة لم يكونوا في شيء من هذا ، فالقلب واللسان ليسا بصادقين ، وعمل جارحة اليد وهو تلويث القميص بالدم ، ليس بصادق ، وعمل جارحة العين وهو البكاء ، ليس بصادق .

هم يقولون لأبيهم : (وما أنت بمؤمن لنا ولو كنا صادقين) ، وهم إنما يعبرون بذلك عن إحساس أبيهم عجبت لهم ، يملكون أن ما قالوه كذب سخاق ، وافتراء حنَّبريت ، ويدعون الصدق !! كما قال الشاعر :

ومن البلية أن يسمى صادقاً من وصفه الأولى كذوباً فاري
غفران ربك قلما فَعَمَلَ الفتي ما ليس محوجه إلى استغفار

الخبر مؤجل والشر معجل

ثامنها : - وعد يوسف بالخير مناماً في رؤييه ، ثم يقظة بلسان أبيه ، وهذه الوعود تأخر تحقق مضمونها ، ولم يصل إلا بعد مدة طويلة ، ولكن المصائب التي نصبت فوق رأس الصديق (رض) لم يحصل له فيها وعيد ، وإنما استلها فوراً ، بدأ بيد :

عرفت سجايا الدهر . أما شروره

فنفد ، وأما خيره فوعود !!!

الا إنما الدنيا نحوس لأهلها

فما في زمان نحن فيه سعود

(مرحى مرحى)

(فأكله الذئب)

— ١ —

قال النجم الروسي القازاني (١) :

التوفيق بين خوف يعقوب على يوسف من الذئب وبين رؤي يوسف وبشارته

سادتي :

تقدم في محاورات المؤتمر على الآية (١٣) شرحاً لقول يعقوب (ع) :
﴿ وَأَخَافُ أَنْ يَأْكُلَهُ الذَّئْبُ ﴾ - سؤال ، صورته : كيف يقع هذا التخوف
من يعقوب (ع) مع انه كان سمع رؤيا ولده ، واعتقد صحتها وعرف مرماها ،
وأوصى إليه أن لا يقصها على إخوته ، ثم بشره بقوله : (وَكَذَلِكَ يَجْتَبِيكَ
رَبُّكَ .. الخ) ولا ريب ان هذا لم يكن منه على وجه التكهن أو التفرس أو الألمية
أو حسن الرجاء ، بل كان كما هو الظاهر على وجه انه أوحى إليه به ، لأنه نبي :
﴿ وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ ، إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ ﴾ (٥٣ : ٣) ،
ولذلك ألفتنا غب حادثة الذئب التي زعموها - لا يزال معتقداً بوجود ولده يوسف
وبحياته ، كيف لا وقد قال ﴿ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ أَمْراً ﴾ وقال :
﴿ عَسَى اللَّهُ أَنْ يَأْتِيَنِي بِهِمْ جَمِيعاً ﴾ وقال : ﴿ وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾

(١) نسبة إلى قازان إحدى مدن بلاد الروس .

وقال: ﴿ اذهبوا فَتَحَسُّوا من يوسفَ وأخيه ، ولا تياسُوا من رَوْحِ اللَّهِ إِنَّهُ لا يَبِئسُ من رَوْحِ اللَّهِ إِلَّا القومُ الكافرون ﴾ وقال: ﴿ إنَّني لأَجِدُ رِيحَ يوسفَ ﴾ فمجموع هذه الأقوال الخمسة عطفًا على ما سبق من الرؤيين والبشارِ يرشدنا إلى أن يعقوب (ع) كان على يقين أن ولده موجود بقيد الحياة ، وإلا فكيف كان يخبر عن ولده بمستقبل له كمن ينظر إلى الغيب ، أو إلى اللوح المحفوظ ، ويخبر عنه بأخبار راهنة أكيدة ، ثم يتخوف عليه من افتراس الوحش إياه ؟ هذا ما لا يكون ولا يتفق ولا يعقل قطعاً ، وأما قوله: (وأخاف أن يأكله الذئب) فيحتمل أنه إنما قاله دفعاً لطلب أولاده وحجة يحتج بها عليهم ليصرفهم عن أخذه ، هذه هي صورة السؤال الذي تقدم طبق الأصل ؛ وقد كنت أجبت عنه بثلاثة أجوبة ذكرتُها هناك في محاوره آية (١٣) ، كما تعلمون ذلك ، وتعلمون اني انمطت فأجبت بجواب رابع عرضته على أسماعكم بصورة مختصرة جداً ، بل رمزاً وإشارة فقط ، وقلت لكم أيها السادة الكرام : إن هذا الجواب الرابع وجيه وقوي جداً القوة ، ولكن ليس هذا الموضع محل توضيحه وبسطه .

استعمال الذئب والأكل مجازاً

والآن أيها الأحباء المحترمين أريد أن أبين لكم من هو هذا « الذئب » ، ومنه نعلم الجواب الثاني عن السؤال الآنف الذكر ، وعليه فأرجوكم أن تصيخوا لما أقول : هم يقولون (فأكله الذئب) ونحن نقول : يجوز أن كلمة « الذئب » مجاز عن « شمعون » الذي ناصب يوسف العداً أكثر من سائر إخوته ، وكلمة « الأكل » مجاز عن الإضرار اللاحق بيوسف .

يستعار « الذئب » كثيراً للإنسان المفترس ، وهو مجاز شائع مشهور في اللغتين العربية والبرانية ، فأما شواهد في اللغة العربية فأكثر من أن تحصر ، وهي

معروفة لكل أديب ، وأما شواهدُه بالنسبة للبرانيين ففي سفر اشعيا : « فيسكن الذئب مع الخروف » (أش ١١ : ٦) ، كناية عن اجتماع الأعمى مع الاسرائيلي ، على ما قالوه ، أو كناية عن شدة الأمن والراحة والسلام ، أو اجتماع الطالح مع الصالح واتحاد القوي مع الضعيف ، ومن هذا القبيل : « الذئب والحمل يرعيان معاً » (أش ٦٥ : ٢٥) ، وفي سفر صَفَيْنَا يصف نينوي : « قضاتها ذئاب » (صف ٣ : ٣) ، وفي سفر إرميا نبوءة عن أهل أورشليم : « ذئب المساء يهلكهم » (إر ٥ : ٦) ، يريد من الذئب نبوخذنصر ، أو اسكندر المكدوني ، وفي سفر حزقيال نبوءة عن أورشليم : « رؤساؤها في وسطها كذئاب خاطئة » (حز ٢٢ : ٢٧) .

الذئب مجاز عن شمعون

فأنتم ترون أنه بحسب اصطلاح إسرائيل وبنو إسرائيل كثيراً ما يطلق «الذئب» ويراد به الإنسان المفترس ، المهاجم المعتدي ، فلا غرابة إذا قلنا إن «الذئب» في كلام يعقوب ههنا يجوز أن يراد به أحد أولاده المتألمين على يوسف ، وهو «شمعون» على ما ذكره مفسرو التوراة أنه كان هو المتصدي لمداء أخيه ، وعهدنا في شمعون انه صاحب نزقٍ وثورة فوق اللزوم بزيادة عن المعتاد (انظر تك ٣٤ : ٢٥ - ٣٠) وقد قالوا إن طبع الذئب الشراسة وإنه عديم الأمن ، وقد كان شمعون كذلك ، كما يستفاد من سيرته في كتب تاريخ قومه ، (انظر تك ٣٤ : ٢٥ و ٢٦ و ٤٩ : ٥ - ٧) ، ولا بدع في نحو قولنا : إن الذئب مجاز ، فكتاب الله تعالى هو أجمع الكتب لصنوف التشبيهات البديعة ، والاستعارات الدقيقة ، والأمثال الرشيدة ، والمجازات الرائعة ، والكنائيات المستطرفة ، وما إلى ذلك من أبلغ الكلام وأفصحه وأعلقه بالنفوس ، وآخذه بالألباب ، وأملكه للمواطن والمشاعر ، وأمثال تيك بما لا ينطق به الناطق في أكثر مناحيه ومنازعه ، إلا عند ذهابه مذهب الخيال

الشعري ، وهذا ما دعى العرب إلى أن يسموا النبي ﷺ الذي بعثه الله إليهم « شاعراً » ، وما أتى به من الله تعالى « شعراً » شُبِّهَ لهم ، غُمَّ عليهم ، فزعموا ما زعموا ، وما هو بشاعر ، بل هو نبيٌ يوحى إليه ، وما كتابه بشعر ، وإنما هو وحي يوحى .

الأكل مجاز عن النهش والعض والأضرار

ويستعار « الأكل » للنهش والعض واللدغ تجوزاً من العرب في كلامهم ثقة منهم بفهم المخاطب كما نقله صاحب فقه اللغة عن الجاحظ ، ولذلك يقال للسكين « آكلة اللحم » وهي إنماتجرح أو تقطع فقط ، ومنه في القرآن : ﴿ وما أكل السبع ﴾ (٥ : ٤) أي جرح ، بدليل قوله : ﴿ إلا ما ذكيتتم ﴾ (٥ : ٤) ، ويطلق الأكل في كلام العرب على أوسع من ذلك ، فيقولون : « ما أكل حمير خير من آكلها » ، أي رعيها خير من واليها ، وقال المزني للنعمان : فإن كنت ما كولاً فكن خيراً آكلٍ وإلا فأدر كني ولما أمزق فقال النعمان : « لا آكلك ولا أوكلك غيري » ، وقال الخليل : « الواو في مرثي أكلتها الياء لأن أصله مرثي ، وعقدت لفلان عهداً فسليم ولم يؤكل ، ومن هذا القبيل ما نقل عن علي كرم الله وجهه أنه قال : « إنما أكلت يوم أكل الثور الأبيض » ، ومنه : « تأكل الرعية » ، واستأكلتهم ، إذا ظلمهم وصادروهم ، وقال الشاعر :

لمعري لنعم الحي يدعو صريحهم
إذا الجار والمأكول أرقه الأكل

تفسير كلمة « يأكله » بكلمة « يتولى أمره » ويتصرف فيه ،

فكل هذا ونحوه يصحح لنا أن نفسر كلمة « يأكله الذئب » وهو « شمون » ،
« يتولى أمره » ويتصرف فيه ، ويفعل فيه ما يشاء وما يريد ، على نحو ما تقدم من
الأمثلة السبعة .

وقبل الختام لا بد لي أن أنبه حضراتكم بأن ما قلته لا يعبر إلا عن
رأبي الخاص الذي يتحمل كاتبه وناشره مسئوليته والله أعلم .
وما أن انتهى النجم الروسي القازاني من خطابه ونزل عن منبر الخطابة
حتى عتبه الشيخ الزبيدي الصنعاني وقال :

« تسبيك الفول بأن « الأكل » هو الاستيلاء والإضرار وبأن « الذئب »

هو شمون في المجاز .

بينما ألقى النجم الروسي القازاني يخطب فينا مبنياً ما هو « الأكل » ، ومن هو « الذئب »
في هذه الآية ، سمعته رنة صوت من خلني من بعض الاخوان الحاضرين يقول :
« إن هذا البيان عما هو الأكل ومن هو الذئب ، بيان « مسلوقة » يحتاج « للتسبيك »
ولذلك ترون اني قمت بين أيديكم لتسبيكه قائلاً : إن « الأكل » كثيراً ما يطلق
في الكلام على معنى مجازي ، كما في قوله تعالى : ﴿ وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَهُمْ إِلَى
أَمْوَالِكُمْ ﴾ (٤ : ٢) ، و ﴿ لَيْسَ كَلِمَاتُ الْإِنْسَانِ بِالْبَاطِلِ ﴾ (٩ : ٣٤) ،
وقول بعض العرب : « أكلوني البراغيث » فهذا وأشباهه لم يقصد به حقيقة
الأكل ، وإنما قصد منه الاستيلاء والإضرار والأذى .

ثم « الذئب » مجاز عن « شمون » ، وشمون معناه « سمعان » ، حتى أن العرب

ينطقون به كذلك ، وسمعان صفة مبالغة ومعناه كثير السمع ، ولا يوجد في الانسان من يسمع مثل الذئب ، فقد قالوا : « إن الحيوان أرقى منا حاسيات حيوانية ، فالإنسان لا يشم مثل الكلب ، ولا يسمع كالذئب ، ولا ينظر كالنسر والهدهد . فإذن يجوز أن يكون معنى « يأكله الذئب » يسطو عليه « الجبار المبرقع » ويضره الحيوان اللابس لباس الإنسان ، وقد يوجد اليوم في بعض أفراد الإنسان ما يشبه بعض أفراد إنسان الغابات والأحراش بالأمس ، وقد قيل : « من شأن الذئب أكله أخاه » ، وقال أبو العلاء الميري :

يفدو على خله الإنسان يظلمه كالذئب يأكل عند الغيرة الدنيا
فشمعون أنجمع مع إخوته أمره على إلقاء أخيه في غيابة الحب ، ثم كان هو
القائم بهذا الأمر ، وبظني ان أبا العلاء الميري يشير لذلك في قوله :

ولكن من أعطاهم الخبر افتري وألفي مثل السيد أجمع وافترًا
فالسيد : الذئب ، وأجمع اتفق مع إخوته على الإلقاء وافترًا أبدى أسنانه .

رد القول بأن الأرض التي كانوا يرعون فيها مذأبة

قالوا : « إن الأرض التي يرعى فيها إخوة يوسف كانت مذأبة » ، وهو بعيد مخالف للعامة ، لأن العادة أن الرعاة يبعدون عن الأرض التي تكون مذأبة لغيرها « وأرض الله واسعة فلاها » .

ومما قرره علماء التاريخ المحققون كابن الأثير وسواه ، ان سن يوسف كانت إذ ذلك (١٧) سنة ، وصدر به الطبرسي في جمع البيان نقلاً عن الحسين ، وظاهر أن من كان كذلك لا يخاف عليه من الذئب الحقيقي ، ولكن من الذئب المجازي ، وهو الرجل القوي الشرس ، فتكون معرفة المخاطبين بعمر يوسف قرينة على

هذا التجوز ، كيف لا والذئب ضعيف في نفسه على حسب ما تعلمه من قول الشاعر ،
يصف ضعف نفسه ، وما آل إليه كبر سنه وهرمه :

أصبحت لا أحمل السلاح ولا أملك رأس البعير إن نفرا
والذئب أخشاه إن مررت به وحدي ، وأخشى الرياح والمطرا

قالوا : خص الذئب بالذكر ، لأنه ضعيف .

رد قول الطبرسي بأن الأرض التي كانوا يرعون فيها مذأبة

ولكن « الطبرسي » في (مجمع البيان) أجاب عن هاتين الملاحظتين بقوله :
« قيل كانت أرضهم مذأبة ، وكانت الذئاب ضارية ، في ذلك الوقت ، وقد علمت
أننا بما حققنا في غنية عن هذه التخربات ، « وإذا جاء نهر الله بطل نهر مقل » .
هذا وكثيراً ما يطلقون لفظ الذئب على الرجل الذي يختطف أو يسلب الشيء ،
قال سيف الدولة بن حمدان في « الحندوثاني » وهو أحد وجوه المعرة وأعيانها ،
وكان سلاباً نهاباً :

ذئب تراه مصلياً فاذا تمثل لي ركم
يدعو وجلّ دعائه ما للفريسة لا تقع

على ان معنى قول العلماء : « الأصل في الكلام الحقيقة ، ولا يصار إلى المجاز
أو الكناية إلا بدليل وقرينة » ، هذا القول لا يريدون به ان كل ما يمكن أن
يراد به الحقيقة ، يحمل عليها مطلقاً ، فان من الكلام ما يجزم سامعه عند سماعه ،
انه مجاز أو كناية ، مع إمكان إرادة المعنى الحقيقي .

هذا هو رأي عطفاً على رأي أخي النجم الروسي القازاني حفظه الله ، فان

أصاب الحزب فيها ونعمت ، وإلا فما أنا أول سار غره قمر ، فكم من مثلي يخطيء ،
ويرحم الله أبي آدم .

من أنكر على مفسر رأياً فطأته أنكر على جميع المفسرين تفاسيرهم

على أنني أنا « لم اخترع البارود » - وهو مثل يقال لمن يأتي أمراً مسبوqاً إليه -
بل إنني كنت رأيت قريباً مما ذكرت في تفاسير السيد « الألو سي » والسيد « حسن
صديق » و « الطبرسي » في (مجمع البيان) ، وعلى كل حال فاني لا أريد أن أحكمكم
أيها السادة على رأيي ، كما أنني أرجوكم أن لا تحملوني جبراً على رأيي غيري من
المفسرين ، فإن أنكر عليّ منكر ، لأنني خالفت المفسرين ، فليعلم انه يجب عليه
أن ينكر أيضاً على جميع المفسرين تفاسيرهم ، لأنه ما من مفسر متأخر ، إلا قد
خالف في مواضع كثيرة رأي جميع المفسرين قبله ، فالخالفه أمر مشترك بيني وبين
كل مفسر قبلي دون استثناء ، فالتسليم لهم لمجرد أنهم أموات ، دون التسليم لي
لمجرد كوني حياً أُرزق ، ليس من الإنصاف في شيء ، على أنكم أيها السادة
سمعت أن الأخ النجم الروسي القازاني ، قد سبقني إلى هذه الفكرة ، وأنا لست
إلا مؤيداً له فيها ، والله تعالى يقول الحق ، وهو يهدي السبيل ، والسلام عليكم .
ثم نزل الشيخ الصنعاني عن المنبر ، فقام إليه النجم الروسي وصافحه ، وشكره
على مناصرته لرأيه .

وتكلم بعد ذلك العلامة الندمري ^(١) فقال :

جواز كون الذئب ذئباً معهوداً غائباً أو حاضراً

كنا سمعنا يعقوب (ع) يقول : (وأخاف أن يأكله الذئب) ، فيجوز أن

(١) نسبة الى بلدة تدمر من بلاد الشام (سوريا)

يكون أراد من « الذئب » ذئباً معهوداً عهداً ذهنياً بينه وبين مخاطبيه ، فالالف واللام فيه نظيرها في : (إذْ هُمَا فِي الْغَارِ) (٩ . ٤١) ، أو معهوداً عهداً حضورياً فالالف واللام فيه نظيرها في قوله تعالى : ﴿ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ ﴾ (٥ : ٤) ويجوز أن المعهود على كل هو « شمعون » المتجوز إليه بلفظ الذئب ، فإن كان شمعون غائباً وقت مكالمة إخوته لأبيه ، فالعهد ذهني ، وإن كان حاضراً في الجلسة ، فالعهد حضوري ، يقول : ﴿ وَأَخَافُ أَنْ يَأْكُلَهُ الذَّئْبُ ﴾ ، ولكنه ليس من ذئاب العالم الناطق ، ولا من الذئاب الساكنة في الآجام ، وإنما هو من سكان الخيام . وكأني بلسان حال يعقوب (ع) يقول : (وَأَخَافُ أَنْ يَأْكُلَهُ الذَّئْبُ) الذي تقمص صورة الإنسان ، وتمثل في جسم طويل القامة يمشي على رجلين فقط ، وأي غرابة في أن أتحميل ذلك التقمص ما دام ذلك الابن والذئب سواء في حب الشر والميل إلى الأذى ؟ . . . وما دامت الصورة الجثمانية لا قيمة لها في جانب الأعراض الذاتية ، والصفات المقومة للماهية ؟ . . . إن العشرات من الذئاب ، لا تريق في عشرات من السنين من دم الانسان مقدار ما أراق هذا الابن من دم أهالي مدينة شكيم على نمة التوراة (تك ٢٤ : ١ - ٣١) ، قد يكون الذئب الحقيقي في قتله الانسان والشاة ، أجل مقصداً من الانسان الذي له روح الذئب ، لأن الأول يطلب عيشه ، وهذا طريقه الطبيعي الذي لا يعرف سواه ، ولا يستطيع أن يدبر لنفسه غيره ، وأما الثاني فإنه يريق دماء الناس للتشفي والحسد وكبرياء النفس !

هذا هو المعنى المجازي لكلمة « وَأَخَافُ أَنْ يَأْكُلَهُ الذَّئْبُ » ، ولقد كان كامناً في نفسي منذ القديم ، الى أن ذاكرت فيه بعض الناس ، فصادفت منهم جموده أعقبوه ججوداً فاصطدمتُ بمعارضات شديدة من جراء جمودهم وججودهم ،

فسكت ، وبقيت هذه الفكرة مستترة في ضميري الى هذا اليوم الذي اتحفني فيه
الدهر بالتشرف بكم ايها السادة ، وتذكرت قول القائل :

وقد وجدتُ مجالَ القولِ ذا سَمَةٍ فإنَّ وجدتَ لساناً قائلاً فَتَقَلِّ

فأبرزت ذلك الضمير المستتر لحيز الوجود ، لا سيما وأني أرى روح التفاهم
سائداً بيننا ، وقد رأيت بعض الاخوان المحققين سبق ونطق بما ثلثت به عليهما ،
وضممت به صوتي لصوتها .

كيف فات المفسرين الذهب للمعنى المجازي في الأكل والذئب وشواهد على ذلك :

وأذكركر هنا أن سألتني سائلاً قائلاً : إن جميع المفسرين أو أكثرتهم الساحقة
لم يفهموا من كلمتي « الذئب » و « أكله » سوى المعنى الحقيقي ، وأما المعنى المجازي
فلم يحظر لهم على بال ، فلو كان المعنى المجازي مراداً لاقتزن بقربنة معينة ، وعلى
الأقل مانعة ، فكان المفسرون اهدوا اليه ، فكيف يقال بجواز الذهب للمعنى
المجازي ؟ فاجبته بأن هذا ليس بدعاً في نوعه .

فأولاً — حكى المؤرخون أن ليلي الأخيلية دخلت على الحجاج ، فمدحته ،
بأبيات بليغة ، وقمت لديه موقع الاستحسان ، وسُرمها أيمًا سرور ، حتى قال :
« قاتلها الله ! ما أصاب صفتي شاعر منذ دخلت المراق غيرها » ثم قال « يا غلام ،
اذهب الى فلان — يريد وكيل خرجه — فقل له اقطع لسانها » ، قال فأمر باحضار
الحجام ، فالتفتت إليه وقالت : « ثكلتك أمك ! أما سمعت ما قال ؟ ! إنما أمرك أن
تقطع لساني بالصلة » — فبعث اليه يستثبته ، فاستشاط الحجاج غضباً ، إذ هم بقطع
لسانه ، وقال : « ارددها » ، فلما دخلت عليه قالت : « كاد — وأمانة الله — يقطع
مقولي » ، فأعطاها الحجاج مئة ناقة . (كذا في مصارع المشاق الجزء التاسع) .

ثانياً - ورد في الحديث : « أسرُ عكُنَّ لحاقاً بي أطولُ لكنْ بدأ » ، فصار الأزواج الشريفات يقسن أذرعهن ، ليعلمن من سمتوت بعد النبي ﷺ ، فحيث جاز على نساء النبي ﷺ أن لا يفهمن المعنى المجازي ، وهو طول اليد بالصدقة إلا بعد موت صفية (ص) ، وحيث وكيل الحجاج العربي الصميم لم يفهم المعنى المجازي من كلام الحجاج يجوز للمفسرين أن لا يتنبهوا للمعنى المجازي الذي قلنا تجوز إرادته من لفظ (يأكله الذئب) ، لاسباب والقربنة ليست لفظية ، بل حالية ، وهي من الخفاء بمكان .

ثالثاً - هذا « عدي » بن حاتم الطائي من صميم العرب في عصر تنزل القرآن لم يفهم المراد من « الخيط الأبيض والخيط الأسود » فحملها على المعنى الحقيقي لا المعنى المجازي ، وهو الليل والنهار ، ففي البخاري في صحيحه انه أخذ عقلاً أبيض ، وعقلاً أسود ، حتى كان بعض الليل نظر فلم يستبيننا ، فلما أصبح قال : « يا رسول الله ، جعلت تحت وسادتي عقالين ، - قال : إن وسادك إذا لمريض ، أن كان الخيط الأبيض والخيط الأسود تحت وسادك .. » .

رابعاً - لم يفهم بعض الصحابة كيفية التيمم من آيته ، فمسح جميع بدنه بالتراب ، كما حكاه البخاري أيضاً ، فاذا كانت الصحابة - وهم من العرب الأولى - لم يفهموا بعض ما في الكتاب الكريم ، فهل يستغرب على المفسرين أن لا يفهموا المعنى المجازي من الذئب وأكله ؟

وسياتي في المحاورات على الآية (٩٣) ما يزيد هذا الموضوع وضوحاً وتأيداً ، هذا ما أفهمه هنا موافقة الأخوين الفاضلين النجم الروسي القازاني والشيخ الصنعاني ، وما هو جدير بالسرور ان كـثيراً من شبان بلدنا « تدمر » الكرام استحسن هذا التفسير استحساناً عظيماً ، وعدته من المواهب الربانية ، التي تحدث بها علماء هذه

الأمة الحمديّة ، فالحمد لله على ذلك ، على انكم أيها السادة ، قد سمعتم هذا المعنى اللطيف من أخويّ الكريمين ، فانا لست بأبي عذرتي :

ولكن بكت قبلي فبيح لي البكا بكاها فقلت : الفضل للمتقدم وههنا نزل العلامة التدحيري عن المنبر في وسط عاصفة من التصفيق الشديد ، وكلمات الاستحسان والاعجاب .

ثم علق رئيس المؤتمر على خطاب العلماء الثلاثة قائلاً : « أنا لا أريد أن أثبت هذا القول أو أنفيه ، وللقارىء أن يميز بين الغث والسمين ، وله وحده الرأي الأخير . »

قبيص العلامة:

آ (١٨) ﴿ وَجَاءُوا عَلَى قَمِيصِهِ بِدَمٍ كَذِبٍ ﴾ ، - قَالَ :
بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ أَمْراً !! فَصَبْرٌ جَمِيلٌ ،
وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَى مَا تَصِفُونَ ﴾ .

افتتحت الجلسة وتليت الآية الثامنة عشرة فقام العلامة البيروتي وقال :

(وجاءوا على قميصه) أي فوق قميصه (بدم كذب) أي ذي كذب ، ووصف بالمصدر مبالغة ، كأنه نفس الكذب وعينه ، كما يقال للكذاب : هو الكذب بعينه والزور بذاته ، ونحوه : « فمن من جود وأتم من بخل » ، (قال) أبوهم بلسان الرد والإنكار : إن الذئب لم يأكله ، (بل سولت) من السول ، وهو الاسترخاء أي سهلت (لكم أنفسكم أمراً) عظيماً ارتكبتموه من يوسف وهو تمويه في أعينكم ولقد أعتقد ان تحت الرماد شيئاً هذا دخانه ، فأتم قد عملتم معي ومع

ولدي عملاً سرياً يأيد خفية تلعب من وراء الستار ، وترمي الى غاية بعيدة ، ولأمر ما جدد قصير أنفه :

لي حيلة فيمن ينم وليس في الكذاب حيلة
من كان يخلق ما يقول فحيلتي فيه قليلة

(فصبر جميل) وهو الذي لا شكوى فيه الى الخلق ، وقيل أراد : لا أعايشكم على كآبة الوجه ، بل أكون لكم كما كنت ؛ (والله المستعان على) احتمال (ما تصفون) من هلاك يوسف والصبر على الرزء فيه ، أو : والله المستعان على كشف حقيقة ما تصفون واتضح جلية الحال في المستقبل ، ولا يخفى ما في هذا الخطاب من روح هزينة كثيفة ، وحتى ليستطيع القارىء أن يلمس إحساس يعقوب . هذا وقد استدلل على فعلهم به بما كان يعرف من حسدهم له ، وما قواه على اتهامهم أنهم ادعوا الوجه الخاص الذي يخاف يعقوب عليه السلام هلاكه بسببه ، وهو أكل الذئب إياه ، فاتهمهم أن يكونوا تلفقوا العذر من قوله لهم : (وأخاف أن يأكله الذئب) ، فكأنه لقتهم العلة ، والبلاء موكل بالمنطق ، ولا بد أن يعقوب عليه السلام قد تذكر ههنا وعدم له بحفظ يوسف فردد في ضميره معنى قول القائل :

أما الوفاء فشيء قد سمعت به وما وجدت له عيناً ولا أثراً
فمن تعصم في الدنيا أخا ثقة فإنه بشر لا يعرف البشر

(وجاءوا على قميصه .. الخ)

- ١ -

وقال العلامة الطرابلسي :

القميص والدم

كان اخوة يوسف نزعوا عنه قميصه الملوّن الذي عليه ، وأخذوه وطرحوه في

البئر وذبجوا تيساً من المعزى ، وغمسوا القميص في الدم ، وقد صنعوا كل هذا في « دونان » ثم قاموا منها الى « سيلون » حيث أبوم ، وقالوا له ما تقدم من معذرتهم الملققة ، وختموها بقولهم : مع إننا نتكلم معك يا أبانا بحقيقة وثيقته معها ، وتلك الوثيقة هي هذا الذي تراه — قالوا ذلك ، وأبرزوا قميص يوسف ملوثاً بالدم ، وقلوبهم تخفق لما يتوقعونه من عدم تصديق أبيهم لهم ، وهم يفتكرون ماذا عسى يكون وراء هذا العمل الرهيب — وأما أبوم فلما رأى ذلك حزن حزناً لا يميزه إلا أب على ابن له يتفرس في مستقبله كل رقي ونجاسة ، وصار كأنما صب فوق رأسه ماء غالباً .

وهنا لا بد لي أن أسمعكم بعض الحواشي المتعلقة بهذا البحث :

القميص

الحاشية الاولى — إن هذا القميص الذي كان على يوسف هو قميص ملون قد صنعه له أبوه خصيصاً لأنه أحبه أكثر من سائر بنيه ، إذ كان ابن شيخوخته ، وقد قصد يعقوب أيضاً بذلك « الثوب » ان يوسف سيكون رئيس آلِه ، وانه سيكون كاهنهم بدلاً من البكر « رأوبين » فضلاً عن معنى الإكرام ، لأن الثياب الملونة كانت من ملبوسات المكرمين من الفلسطينيين ، كما ظهر ذلك من الرسوم على قبور بني حسان .

دم القميص

الحاشية الثانية — هذا الدم الذي كان على قميص يوسف كذب ، فليس هو كالدم الذي جاء به « معاوية » لأهل الشام على قميص « عثمان » (ض) بل كان ذلك الدم ، دم عثمان حقيقة ، وقد قتل بيد أئمة حقيقة ، ولكن في حادث يوسف

ادّعي زوراً أن يوسف افترس ، افترسه سبع ، وأراق دمه على قميصه ، وأن هذا الدم الذي على القميص دمه ، وكل ذلك لم يكن !!

لسان حال يعقوب عندما رأى قميص يوسف ملطخاً بالدم

الحاشية الثالثة - كأني بكلام ابناء يعقوب قد وقع على أذن أبيهم كوقع النار على سويداء القلب ، وكأني به قد أخذ القميص وجمل يقبله وينظر إليه ، ولسان حاله يردد معنى قول الشاعر :

ليت السباع لنا كانت مجاورة وليتنا لا نرى عن نرى أحدا
إن السباع تهدأ عن فرائسها والناس ليس بهاد شرهم أبدا

وكان هذا القميص هو الذي عناه بعضهم بهجو بخيلاً بقوله :

كأن كل سؤال في مسامعه قميص يوسف في أجفان يعقوب

حجة القميص التي لهم صارت عليهم

الحاشية الرابعة : - قيل إن يعقوب (ع) أغرب في التأمل ، فرأى القميص غير ممزق ، فقال : « يا للعجب ! هل يمكن للذئب أن يأكل ولدي بدون أن يمزق شيئاً ما في القميص !؟ » فهم اعتبروا ان هذا القميص الملوث بالدم ، هو كوثيقة بيدهم ، يعتمدون عليها في صحة دعواهم ، ويتمركزون عليها في دفع الشبهة عنهم ، ولكنهم حفظوا شيئاً وغابت عنهم أشياء ، إذ لم يمزقوا القميص ، فبعدما حسبوه حجة لهم ، صار حجة عليهم ؛

إذا لم يكن عون من الله للفتى فأول ما يقضي عليه اجتهاده

البرهان الباطل

الحاشية الخامسة : - جاءوا على قميصه بدم كذب « كشاهد » يفتون به زعمهم ، ولكنه شاهد زور ، و « كرهان » يصححون به دعواهم ، ولكنه برهان باطل ، و « كوثيقة » يعتمدون عليها ولكنها وثيقة مزيفة .

حقاً إن هذا العمل مما يضحك الانسان في ساعة يجب فيها البكاء ، لأنهم باقائهم على القميص وعدم تمزيقهم له ، لم يحسنوا سبك هذه الأ كذوبة ، فكان فطهم هذا أوجب للحجة عليهم من الحجة لهم .

مناجاة يعقوب للذئب الحقيقي والمجازي

الحاشية السادسة : - كأن من يحملون « الذئب وأكله » على معناه الحقيقي سموا بأذان قلوبهم يعقوب (ع) يصرخ بهذه المناجاة :

مسكين أنت أيها « الذئب » ، يلصق بك بنو الانسان ما أنت منه بريء ، يتهمونك وهم المتهمون ، نعم إنك حيوان أعجم ، ولكن تلك العجمة خير من النطق الكاذب ، ما أصدق عجمتك ! وما أ كذب نطق الناس ! نعم ان الله تكفل بأنه ما من دابة في الأرض إلا عليه تعالى رزقها ، لكن هل كتب الله التضحية بولدي في سبيل رزقك؟! ... كلا ... وحوادث الزمان المستقبل ستكشف لنا عن جلية الأمر ، فان الزمان كشاف ، ثم لكأنه خاطب نفسه بقوله :

ستبدي لك الأيام ما كنت جاهلاً ويايتيك بالأخبار من لم تزود

ثم لكأن من يحملون « الذئب وأكله » على المعنى المجازي سموا بأذان قلوبهم يعقوب (ع) يصرخ بهذه المناجاة :

أيها الذئب المستأنس ، قطعت الرحم ، أسأت إلى نفسك وسيرتك ، وضعت في تاريخك نقطة سوداء ، أسأت للأب والأخ ، وللخالة في قبرها ، فهي لذلك تتوجع عند « إفراتة » ، وتصرخ وتقول عند « بيت لحم » ، أيها الذئب الضاري ، الذي تستره الصورة البشرية ، لماذا تفترس هذا الحمل الوديع ؟ لماذا أيها الذئب « الأصفر » تنقض على هذا الحمام « الأبيض » ؟ - لأيِّ هذه الشراسة والإخلال بأمن المستأنس ؟ أما يكفيك افتراسك كل ذكر من أهل شكيم (تك ٣٤ : ٢٥) آه ، صدق من قال : من الناس من إذا كشف لك عن أنيابه رأيت الدم الأحمر يتفرق فيها ، أو عن أظافره رأيت تحتها مخالب حادة لا يسترها إلا الصورة البشرية ، أو عن قلبه ، رأيت حجراً صلباً من أحجار الصوان ، لا يبضّ بقطرة من الرحمة ، فهو لاء الناس سباع مفترسة ، وذئاب ضارية ، يأكلون من دنا منهم ، أو وقف في طريقهم غير حافلين به ، ولا آسفين عليه ، أصلح الله حالهم ، وحمائنا من أن يتم علينا محالهم ، آه ... إلى الماء يمضي من يغص بلقمة ، إلى أن يمضي من يغص بماء ؟

الدم نفس أو جسد

الحاشية السابعة : - يقال للدم « نَفْسٌ » ويقال لليابس منه « جَسَدٌ » ، ومنه قول الفقهاء : « وَيُعْفَى عَمَّا لَا نَفْسَ لَهُ سَائِلَةٌ أَي دَمٌ ، وَقَوْلُ بَعْضِهِمْ وَهُوَ مِنْ هَذَا الصَّدَدِ الَّذِي نَحْنُ فِيهِ :

سبيل إبطاله أصبحتُ مسبوباً
براءة الذئب من نفس ابن يعقوباً^(١)

يا ويلهم ! قد رموني بالذي أنا في
برئت منهم ومما قد رميت به

(١) أي من دمه . والنظم لرئيس المؤتمر .

السجع والترسل في القرآن

الحاشية الثامنة : - جملة « وجاءوا على قميصه بدم كذب » (تذييل مرسل) الآية السابقة المسجوعة ، وهذا أسلوب لطيف كثير الوقوع في كتاب الله ، كأنه تعالى يُخَيِّرُ القارىءَ بين أن يراعي طريقة السجع ، فيقف على رأس الفقرة المسجوعة وبين أن يراعي طريقة الترسل ، فيقف حيث يتم الكلام ، ولو لم يكن سجع .

وفي القرآن الكريم شواهد كثيرة على ذلك، إذ علم سبحانه وتعالى أن قوماً يحبون طريقة السجع ، وآخرين يميلون لطريقة الترسل ، فأزل كتابه بصورة تحتمل الطريقتين ، وتكفل كلا المذهبين ليختار القارىء لنفسه ما يحلو في ذوقه ، ومن هذه الشواهد ما يلي :

١ - ما في قوله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ، كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ ، كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ ، لعلكم تتقون ، أياماً معدودات ﴾ (٢ : ١٨٣ و ١٨٤) .

٢ - ما في قوله تعالى : ﴿ كذلك يُبَيِّنُ اللهُ لَكُمْ الآياتِ لعلكم تفكرون ، في الدنيا والآخرة ﴾ (٢ : ٢١٩ و ٢٢٠) .

٣ - ما في قوله تعالى : ﴿ أَلَمْ نَسْرَ إِلَى الَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ : كُفُّوا أَيْدِيَكُمْ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ ، فلما كُتِبَ عليهم القتالُ إذا فريقٌ منهم يَخْشَوْنَ النَّاسَ كَخَشْيَةِ اللهِ أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً ؟ وَقَالُوا : رَبَّنَا لِمَ كُتِبَتْ عَلَيْنَا الْقِتَالُ ؟ لَوْ لَا أَخَّرْتَنَا إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ ؟ - قل : متاعُ الدنيا قليلٌ ، وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ لِّمَنِ اتَّقَى ، وَلَا تُظْلَمُونَ فَتِيلًا ، أَيْنَا تَكُونُوا بَدْرَ كُفْرِكُمْ الْمَوْتُ ، وَلَوْ كُنْتُمْ فِي بَرُوجٍ مُّشِيدَةٍ ، وَإِن تَصْبِرْهُمْ حَسَنَةً يَقُولُوا : هذه

مِنْ عِنْدِ اللَّهِ ، وَإِنْ تُصِيبَهُمْ سَيِّئَةٌ يَقُولُوا: هَذِهِ مِنْ عِنْدِكَ ، - قُلْ : كُلُّ
مِنْ عِنْدِ اللَّهِ ، فَمَا لَهُؤُلَاءِ الْقَوْمِ لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثًا ؟ ﴿
(٤ : ٧٦ و ٧٧) فقولهُ : ﴿ أَيْبَا تَكُونُوا يَدْرِكُكُمُ الْمَوْتُ ، وَلَوْ كُنْتُمْ فِي بَرُوجٍ
مَشِيدَةٍ ﴾ هُوَ مِنْ ذِيُولِ مَا قَبْلَهُ ، فَهُوَ مُرْتَبِطٌ بِهِ ، فَمَنْ شَاءَ مَرَاعَاةَ الْمَعْنَى وَالْجُرْيِ
عَلَى مَذْهَبِ التَّرْسَلِ وَقَفَ عِنْدَهُ ، وَمَنْ شَاءَ مَرَاعَاةَ السَّجْعِ وَقَفَ عِنْدَ رَأْسِ
الآيَةِ « فْتِيلاً » .

٤ - مَا فِي قَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ وَأَذَانٌ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى النَّاسِ يَوْمَ الْحَجِّ
الْأَكْبَرِ أَنَّ اللَّهَ بَرِيءٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ، وَرَسُولُهُ ، فَإِنْ تُبْتُمْ فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ
الْخِ ﴾ (٩ : ٣ و ٤) فقولهُ ﴿ وَرَسُولُهُ ﴾ هُوَ ذَيْلٌ لِلآيَةِ الثَّلَاثَةِ الْمَسْجُوعَةِ ،
وَلَكِنَّهُ مَكْتُوبٌ مَعَ الْآيَةِ الرَّابِعَةِ ، فَإِذَا نَظَرْنَا الْمَعْنَى ، أَحْقَنَاهُ بِمَا بَدَأَهُ
وَكَانَا سَاجِدِينَ .

٥ - هَكَذَا كَلِمَةٌ : « مِنْ دُونِهِ » فِي قَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ قَالَ إِنِّي أُشْهِدُ اللَّهَ ،
وَاشْهَدُوا أَنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ ، مِنْ دُونِهِ ، فَكَيْدُونِي جَمِيعًا ، ثُمَّ لَا
تَنْظُرُونَ ﴾ (١١ : ٥٣ و ٥٥) .

٦ - وَمِثْلُهُ كَلِمَةٌ : ﴿ كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا فِيهَا ﴾ مِنْ قَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ وَأَخَذَ
الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةَ ، فَأَصْبَحُوا فِي دِيَارِهِمْ جَائِعِينَ ، كَأَن لَّمْ يَسْتَفْزُوا
فِيهَا ، أَلَا إِنَّ تَمُودَ كَفَرُوا رَبَّهُمْ ، أَلَا بُعْدًا لَتَمُودِ ﴾ (١١ : ٦٧ و ٦٨) .

٧ - وَمِثْلُهُ كَلِمَةٌ : ﴿ مَنْ يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَمَنْ هُوَ كَاذِبٌ ﴾ مِنْ
قَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ وَيَا قَوْمِ اعْمَلُوا عَلَى مَكَانَتِكُمْ ، إِنِّي عَامِلٌ . سَوْفَ تَعْلَمُونَ ،
مَنْ يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَمَنْ هُوَ كَاذِبٌ ، وَارْتَقِبُوا إِنِّي مَعَكُمْ رَقِيبٌ ﴾
(١١ : ٩٣ و ٩٤) .

٨ - كلمة « زُخْرُفًا » في قوله تعالى : ﴿ وَلَبِئْسَ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴾ ، وزُخْرُفًا ، وإن كل ذلك لما متاع الحياة الدنيا ، والآخرة عند ربك للمتقين ﴿ (٤٣ : ٣٤ و ٣٥) .

٩ - كلمة « وبالليل » في قوله تعالى : ﴿ وَإِنَّكُمْ لَسَمُرُونَ عَلَيْهِمْ مُصْبِحِينَ ، وبالليل ، أَفَلَا تَعْقِلُونَ ؟ ﴾ (٣٧ : ١٣٧ و ١٣٨)

إلى غير ذلك مما هو كثير في كتاب الله الكريم ، فارجع إليه إن شئت المزيد .

القصد من ذكر القرآن لقصة يوسف

الحاشية التاسعة : - قص الله علينا ما أجراه بنو إسرائيل من الخيل على أيهم ، وبعضهم على بعض ، لتكون على بصيرة من أعمالهم معنا ، وعلى حذر من حيلهم علينا ، لأنهم إذا كانوا يفعلون هذه الأفعال مع أصولهم وحواشيهم الأقربين فماذا عسى أن تكون أعمالهم مع من لم يكن من عنصرهم ؟؟! وأقرب الشواهد على حيلهم ، ودهائهم ما أجروه من الكيد للنبي ﷺ في الحجاز ، بل كانوا يكيدون في جميع بقاع الأرض غير الإسلامية ، حتى كان ما كان بكيدهم وختلهم من هدم صروح البابوات والملوك المستعبدين لهم في أوربا ، وإدالة الحكومات المدنية من حكم الكنيسة ، وقد كادوا ولا يزالون يكيدون لهدم نفوذ الديانة النصرانية من دول أوربا ، باسم الحرية والمدنية ، كما أن بكيدهم جعلوا الدولة الفرنسية ككرة اللعب في أيديهم ، إذ أخذوا يسعون في إزالة سلطة الكنيسة عنها ، وحملها على عقوقها ، بعد ما كانت فرنسة تدعى « بنت الكنيسة البكر » ثم

حملوها على الظلم الجائر القبيح في الجزائر! مع أنها الدولة التي تفاخر الأمم بالعدل والمساواة والمدنية وقد كانت لهم يد في الانقلاب العثماني، وتدخلوا كثيرًا مع «الاتحاديين» من العثمانيين، ثم أيام «الحرب العالمية» تدخلوا مع الحكومة الانكليزية وساعدوها بالمال، ليكون لهم «وطن قومي» في «بيت المقدس» ويقيموا فيه «ملك إسرائيل» ويجعلوا «المسجد الأقصى» معبداً خاصاً لهم، والخلاصة إن شأن هؤلاء الناس الدهاء والختل والتمحال دائماً وأبناً وجدوا، وعلى كل من عدام!!!

لذا علينا أن نأخذ من هذه الأعمال موعظة تنفعنا اليوم في معاملتنا مع أبناء العم!! الصهيونيين في فلسطين!! وهي أنه إذا لم يوجد من هؤلاء الاخوة العشرة رحمة وعطف لأبيهم وأخيمهم، بل إذا لم يسلم أبوم وأخوم من شرورهم، فكيف نرجو أن نسلم نحن (العرب) اليوم من كيدهم!!

يمناً — ولا حاجة لليمين — إن من فسدت فطرته، حتى صار لا خير فيه لأبيه وأخيه، لا يرجى منه خير للبعء والأبعدين، ويمناً إن من لا خير فيه لأصله وحاشيته الأقربين، فلا خير فيه لأبناء عمه الأبعدين.

انتقاد دعاة النصرانية اعتقادنا بنبوة يعقوب والرد عليهم

وإني بهذه المناسبة — والشيء بالشيء يذكر — ذاكر للقراء الكرام انتقاداً كان ورد عليّ من بعض «دعاة النصرانية» وهو قوله: (إننا نحن المسيحيين كاليهود جميعاً لا نقول بنبوة يعقوب، ولعمري لو كان نبياً ورسولاً كما تقولون أيها المسلمون الأعزاء لكان على الأقل أثر الهداية والطاعة والتقوى في أولاده، العشرة الصليبيين).

هذه ملاحظة ذلك البروتستانتى ، وأما الفقير فإني أحبته بأن الرسل (ع) لم يرسلوا إلا مبشرين ومنذرين ، ما عليهم إلا تبليغ دين الله وإقامته ، وليس لهم من الأمر شيء ، ولا يملكون لأحد ضراً ولا نفعاً ، وليس عليهم هدى أحد ولا رشده بالفعل ، وإنما عليهم هداية التعليم والحجة ، فلا يهدون فعلاً من أحبوا ، ولا من كان من أقاربهم ، ولا يفتنون عنه من الله شيئاً ، وإن كان أقرب الناس إليهم في النسب ، وأحبهم إليهم في المعاملة ، والديوية ، فالأنبياء هداة لا جبارون ، وأدلة خير لا قاهرون . هذه قاعدة التوحيد الهادمة لقاعدة الوثنية ، بالفصل بين ما هو لله وما هو لرسوله ، وأما قاعدة المسيحيين - بعد ابتداعهم في الدين اعتباراً من تاريخ مقررات بزنطية - فهي كقاعدة وثنية العرب من اتخاذ أولياء من العباد كالسيح وأمه وسائر كبار رجال الدين ، يزعمون أنهم وسطاء بين الله وبين عباده في شؤون الخلق والإيجاد ، والإشقاء والإسماع ، والسلب والإمداد ، لا في مجرد التبليغ والإرشاد ، قياساً على ما يهدون من الأقربين والمقربين عند الملوك المستبدين .

مخاطبة يعقوب لأولاده عند سماعه الخبر السوء منهم

الحاشية العاشرة - كآني يعقوب (ع) بعد ما سمع الخبر السوء عن ولده المحبوب شعر برعشة ملأته من قمة رأسه إلى أخمص قدميه ، ثم سكن على أثر ذلك سكوناً لا تطرف له فيه عين ، ولا ينبض له عرق ، ولا يخفق له فيه قلب . ولا يتحرك له فيه خاطر ، ثم لكآني به قد التفت لأولاده وقال: آه . لقد آلمتموني في أعز شيء لدي : إني لأعجب لكم ، تأخذون ابني في جرة النهار ، وتأتون تمنونه إليّ في بخرمة الليل ؟ ، وأعجب من هذا أنكم تبكون ، كأن عبرات العيون

ملك إرادتكم ! وأعجب من هذا وهذا أنكم أخذتموه بحجة أنه « يرتع وبلعب ، وما أرى ذلك إلا قد صار وقفاً عليكم ، وأما هو فقد استخدمتموه عندكم كحارس ، يكون قعيد خيمتكم ، وجليس فسطاطكم لا يفارقه ، شأن كل من تسندله هذه الوظيفة الفاتقة !! وأعجب من هذا كله جيئتكم بثوبه ملطخاً بالدم ، تدعمون بذلك صحة دعواكم ؛ كأن الله القدير لم يخلق دماً سوى دم يوسف ، وكأنكم تظنون أن البلدة قد بلغ من تخاطبونه مبلغه من الناس ، حتى أردتم تناجرون بعقول العقلاء ! غريب والله أمركم ، تحملون على عاتقكم حفظه قائلين . « إننا له لحافظون » ، ثم توجهون عليه وظيفه « محافظ » لكم ، لا محافظاً عليه من جانبكم .

غريب والله ، تسجلون على أنفسكم الخسران إن أكله الذئب وأنتم عصبة ثم اليوم تقولون « أكله الذئب » ، فكيف رضيتم لأنفسكم هذا التسجيل ؟ ..!

لفظ القميص في القرآن

الحاشية الحادية عشرة — لم يذكر لفظ القميص في كتاب الله تعالى إلا في هذه السورة ، والغريب أنه ذكر فيها في ستة مواضع ، من مواضع القصة الهامة ، الأمر الذي يخيل إلينا أن « القميص » ركن من أركان هذه السيرة .

هل مفعول يعقوب صفة افتراسي الذئب ليوسف

الحاشية الثانية عشرة — إذا قيل لماذا لم يطلب يعقوب من أولاده ما بقي من جسد يوسف عند قولهم له : « فأكله الذئب » ؟ فالجواب : يحتمل أنه لم يرد أن يشدد عليهم بهذا الطلب خوفاً أن يذهبوا ويقتلوه فعلاً .

هذه هي محاضرة العلامة الطرابلسي ، وكان الحاضرون يصرخون عند كل حاشية من هذه الحواش بكلمة : موافق ، موافق ، وكانت علامات القبول والاستحسان بادية على وجوههم .

(قال : بل سوت لكم ... الخ)

- ١ -

قال نور الهدى الصيداوي :

ما نزع يعقوب النفسية بعد سماعه نعي ولده يوسف

كانوا حملوا لأبيهم نعي ولده ، وتأبطوا شراً بذلك الخبر السيء ، فما أتوا على تمام حديثهم (الموضوع) حتى انقبضت نفسه وانقعد حزنه ، وتمقر وجهه ، وتولاه الكدر ، وأخذ الدهول منه مأخذه ، فلبث صامتاً هنيئاً ، كأنه أصيب بصدمة ، وأطرق إلى الأرض وسكن في إطراقه سكوناً عميقاً ، لا تتخلله حركة ولا نائمة ، ثم صار يصعد نظره فيهم ويصوبه ، وأخيراً نظر إليهم نظرة كشف بها أسرار قلوبهم ، كما يكشف الإشعاعي (١) بأشعة « رونتكن » ما وراء الجوامد ، نظر إليهم نظرة وقد أدرك أن في الأمر سرّاً ، جعله يقف تجاه أخبارهم موقف المرتاب ، نظر إليهم نظرة وهو يتنفس الصعداء وينظر إلى وجوههم ويراعي حركاتهم ، نظر إليهم نظرة وقال : سواء على أجتّم بهذا الثوب الملطخ بالدم ، أم لم تميثوا به فلا أصدقكم ، إذ ليس لكلامكم نصيب من الصحة ، بل هو خارج من مصنع التزوير ، وقصتكم كلها في وجوهكم ، وليس أدل على كذبكم من هذا القميص

(١) الإشعاعي العالم الاخصائي بن الأشعة .

غير الممزق ، ألم اقل لكم : إني « ليحزنني أن تذهبوا به ؟ . . » ، فما أنذا وقت
فيما تخوفت منه ، تتركون الناقة بحملها ، وترجعون إليّ بنحني حنين ، « بئس الموض'
من جمل قنيدته »

(قال : بل سولت لكم ... الخ)

— ٢ —

وقال الشيخ الرشيدى (١) :

عدم انطلاء الكذبة على يعقوب

لم يصدقهم أبوم لأنه يعرف رؤيا ابنه وتأويلها . ويعلم أن الله سيجتبيه ويعلمه
من تأويل الأحاديث ويتم نعمته عليه ، كما أتمها على أبويه من قبل إبراهيم وإسحق
وشيء من هذا لم يحصل بعد ولكنه يحتاج إلى وقت مديد وعمر طويل ، ولذلك
فخيلتهم لم تنطل عليه ، بل قال لهم : إنه يلوح إلى أن أنفسكم سهلت لكم أمراً ،
أزلموه بيوسف ضحية حي له ، ولولاي ولولا حي إياه ما رأى هذا البلاء الذي
أحاق به .

صبر يعقوب الجميل

لقد صبر يعقوب (ع) صبراً جميلاً على تلك المصيبة ، فلم يصيح ، ولم يمزق
ثوبه ، ولم يشك أمره مخلوق ، ولم يجزع ، ولم يملأ الدنيا بكاء وعويلاً ، كما ظنه
حشويوا المفسرين ، لأن ذلك كله ينافي ما أخذه على عاتقه من « الصبر الجميل »
ويناقض ما حكاه الله عنه في قوله تعالى « فهو كظيم » .

(١) نسبة الى بلدة رشيد من البلاد المصرية .

لتي يعقوب من الهم والحزن ما لا يستطيع أن يحتمله غيره ، ولكنه استطاع أن يني بوعده الذي أخذه على عاتقه من «الصبر الجميل» ، لأنه نبيّ حليم ، ومن كان مثل يعقوب نبياً وصفيّاً ، فهو أهل لهذا الصبر الجميل ، والله تعالى أرحم من أن يبعد عنه ابنه المحبوب ، ويبعد عنه المرءاء .

يعقوب يغمز من قناة اولاده فيما ذكروه عن يوسف

يقول يعقوب عليه السلام : ﴿ والله المستعان على ما تصفون ﴾ يريد بذلك غمز قناتهم ، ثم يحتمل ان معناه : على كشف حقيقة ما تصفون ، أهو صدق أم كذب فإني في ريب من صحة ما تزعمون ، ولست أتبين الحقيقة إلا من حوادث الدهر التي يحدثها الله تعالى ، والمستقبل كشاف ، ولذلك سأنتظر ما يجيء به القدر : ﴿ وهو الله في السموات وفي الأرض ، يعلم سرّكم ووجهكم ، ويعلم ما تكسبون ﴾ (٦ : ٣) ، ﴿ لكل نبياء مستقر ، وسوف تعلمون ﴾ (٦ : ٦٧) ، وقد استجاب الله دعاءه هذا ، فإنه تعالى كشف حقيقة الحال وبين الواقع ، بحيث يظهر أن كلامهم الآن كذب ، وليس من الصدق في شيء ، ولكن هذا كان بعد نحو (٢٣) سنة .

ويحتمل أن المعنى : والله المستعان على تحمل أو احتمال ما تصفون ، وقد استجاب الله له هذا النوع من الدعاء أيضاً ، حيث ثبت على صبره الجميل ثبوت الكرام ، ولم تبد منه كلمة ولا فعلة تنافي ذلك .

ويحتمل أن المعنى أيضاً : والله المستعان على كفاية شر أو تعديل ما تصفون

فهذا كل ما أملك اليوم ، ولا تنسوا أنكم كنتم قلم لي « وإنا له لحافظون ، ، فإنا الآن لا أنسى أن أقول لكم : ﴿ وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ ، كَرَامًا كَاتِبِينَ ، يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ ﴾ .

وقد اقتصر يعقوب (ع) على هذه الكلمة وهي قوله (والله المستعان على ما تصفون) اختصاراً وإيجازاً لأن حال الحزن يتطلب ذلك ، أو إشارة إلى أنه غير عاجيء بالخبر المصنوع الذي أتاه به أولاده .

مواعيد الله في يوسف خففت من وطأة مصيبة يعقوب فيه

رأى يعقوب (ع) نفسه وقع في شبه مصيبة ، فالتمس لنفسه تعليلاً يريح باله على ولده ، والمرء ميال إلى التماس مثل ذلك التعليل ، والناس يتفاوتون في مقدرتهم على ذلك ، فبعضهم إذا وقع في مصيبة ، هان عليه تطبيق عواطفه على تلك المصيبة ، فيجمل لنفسه مخرجاً من سوء عواقبها ، ومنهم من يزيد الافتكار قلقاً ولكنه لا يلبث وإن طال قلقه أن يصل إلى حل يتوكل عليه ، ريثما يرى ما يأتي به القدر ، ومن هذا القبيل يعقوب (ع) ، سيما ومعرفته بمواعيد الله له في ولده ومرمى رؤياه ، قد خفف عليه وطأة تلك النازلة .

انتقاد يعقوب على تقرب يوسف والرد عليه

كأنني بسيدنا يعقوب عليه السلام ، بعد ما قال لأولاده ما قال ، اعتزلهم ، وخلا في خيمته وحده ، فتخيل له أن هاتفاً يقول : « بذاك أوكتا وفوك نفخ ، ذلك لأنك أنت السبب الأول فيما جرى ، أنت الذي زلت مختاراً على إرادة أولادك أنت الذي انساق لمشيئتهم وانصاع لميولهم ، رغماً عن كونك تعرف درجة المداء الذي يضمرونه لأخيه ، كيف لا ... وقد كنت قلت له : (لا تقصص رؤياك

رؤياك على إخوتك فيكيدوا لك كيداً ، ؟ وقد كنت تعرف أن البرية التي فيها أولادك مذابة ، وكيف لا ... وقد قلت أيضاً : (وأخاف أن يأكله الذئب) ثم كنت لا تأمن من إخوته عليه ، بل تخافهم ، كما يرمي لذلك قولهم : (ما لك لا تأمنا على يوسف ؟) وكننت متهماً لأولادك في أمره كما يشعر به قولهم : (وما أنت بمؤمن لنا ولو كنا صادقين) هذا ما كان يعقوب (ع) سمعه بأذني قلبه من فم الهااتف ، وكأني به قد أجابه بقوله !

أيها الروح الطاهر ، اسمع معذرتي التي أتلو عليك : إنني استرسلت لأولادي لأنهم حلفوا لي مرتين ، إذ قالوا : (وإنا له لناصحون - وإنا له لحافظون) والمؤمن السليم القلب إذا سمع صدق ، فلذلك هان علي الاسترسال معهم ، وأيضاً مما خفف عني وطأة الخوف عليه ما أعلمه فيه من المواعيد المستقبلية ، فلماذا جرى ما جرى ، ليقض الله أمراً كان مفعولاً ، والله غالب على أمره ، ولكن أكثر الناس لا يعلمون .

حال اخوة يوسف عندما عرض أبوهم بهم بأنهم كاذبون

حينما سمع أولاد يعقوب قول أبيهم لهم : (والله المستعان على ما تصفون) فهموا ما وراءه من الإشارة لتكذيبهم ، ففرقوا عنه ، وهم سكوت صامتون لا يبدون حراكاً ، ولا يندثون بينت شفة ، سمعوا كلام أبيهم فسكتوا عليه ، ولم يتبرأوا عما أشار إليه ، فتحقق أنهم غير صادقين في نبأهم ، وردد في نفسه عندئذ معنى قول القائل :

ليس الفبي بسيد في قومه

لكن سيد قومه المتفابي

الغمز من قناة شمعون

لو كنت محل يعقوب (ع) لكنت أعطيت ذلك القميص للمقدام «شمعون»!!
القائد الكبير في تلك المعركة عملاً بشريعة : « من قتل قتيلاً فله سلبه » ، لأن
الأحوال تجعلني أظن أن ذلك « الذئب » هو هذا البطل !!

انتقاد يعقوب (ع) على عدم محبة عن ولده يوسف والرده عليه

وكأني يعقوب (ع) قد شبه له أنه سمع صوتاً يقول: يا يعقوب ، ما هو هذا
« الصبر الجميل » ؟... أتصبر على ظلم الظالمين ، وتسكت عن مكر الماكرين
وتسمى ذلك صبراً جميلاً ؟... مع إن إزالته واجبة عليك ، لا سيما في الضرر
العائد إلى الغير ! ولم تصبر على ذلك ؟!... وكيف يجوز لك أن تصبر؟!... وأنت
تعتقد كذب أولادك ولم لا توغل في التفتيش ، وتبالغ في البحث ، سعيًا منك في
تخليص يوسف من البلية والشدة ، إن كان في الأحياء على ما تعتقد ، أو في إقامة
القصاص إن صح أنهم قتلوه ، ولم لم تطلب منهم جثانه ، أو بقيته - على الأقل -
حتى تصل إلى جلية الواقع وتقف على شخصية ما عملوا؟!... هاهي المسافة بين
« سيلون » وبين « دوثنان » قريبة ، لا تزيد عن بضعة أميال ، وأنت رجل رحالة ،
متعود على الأسفار ، فلم لا تعمل لأجل تمحيص هذا الحادث الجلل ما هو اللازم؟!..
وعلى كل لعمرنا إن الصبر في هذا المقام مذموم ، بل هو صبر قبيح ، هو صبر مبني
على عدم العناية ، ومؤسس على القسوة . فكيف تسميه « صبراً جميلاً » ، وكيف
تسمى نفسك محباً لولدك المظلوم الذي ضاع حقه بين ظلم الأعداء وكسل
المجبن ؟! ...

أنت لم تنس رؤي ولدك ، ولم تنس أن الله أوحى إليك فيه ، أن الله سيحببه

ويملكه ويتم نعمته عليه ، وليس مطلق إتمام ، بل كما أتمها على الإمامين الكبيرين إبراهيم ، وإسحاق ، فبحكم هذه البشائر السماوية، أنت ترى أنه حي يرزق ، فلذلك وبالنتيجة كان يجب عليك أن تسعى في طلبه ، لا سيما أن مكانتك الشخصية ، ومكانة آباءك وبيتك ، مما يساعدك على ذلك الفحص ، فأهل العالم يعرفونك ويكبرونك ويمظمونك ، فلو تبالع في الطلب والفحص ليظهر لك أمره ، وينجل فيه اللغز والأشكال ، ويزول وجه التلبس ، فكيف تسكت عن كل هذا ؛ وأنه غير جائز ، والغريب أنك تسميه « صبراً جميلاً » ؟!... يا يعقوب ، أنت تعلم أن كثرة البحث عن الأمور تحقق الحق وتبطل الباطل ، ولذلك فالحقيقة بنت البحث وأن النار أخفيت في الحجارة ، فلا تستخرج منها إلا بالمعالجة والقيدح ، وأن طلبك لولدك من الواجبات ، فالصبر عنه ذم ، عقلاً وشرعاً وعادة وشهامة ، فكيف تدعو سكوتك هذا « صبراً جميلاً » ؟!...

أين ذكائك الذي كنت تعامل به أباك إسحاق وأخاك عيسو ، ثم خالك لابان ؟! هلا استعملت جانباً منه في هذه الحادثة ، حتى يتبين لك الخيط الأبيض من الخيط الأسود ، وحتى تكون قد قمت ببعض الواجب في البحث عن ابنك ؟!..

هذا ما كآني يعقوب (ع) كان يسمعه بأذني قلبه ، وكان يُحَدِّثُ به من حين لآخر .

وكآني به بعدما سمع هذا السؤال ، سكت هنيهة ، ثم قال بينه وبين نفسه ، أو على قدر ما يسمع الهاتف :

أولاً « إن أولادي أقوياء ، فلا يمكنوني من الطلب والتفحص ، وأني لو أبحث وأفتش لربما يقدمون على إيذاء يوسف وقتله ، تحقيقاً لدعواهم ، فنقع فيما هو أشد وأشد .

ثانياً — إني أعلم وأتأكد أن الله يصون ولدي عن الهلاك ، وأن أمره
أخيراً سيُعظم ، وسيكون له شأنٌ ذو بال .

ثالثاً — إني لا أريد هتك أسرار أولادي ، ولا أَرْضى بالقائهم في السنة الناس
تلوكهم الأفواه كأنهم مضغة .

رابعاً — قريباً — وكل آت قريب — تتغير الوضعية ، ويظهر من الغيب لطف .

خامساً — ماذا أصنع؟ والجرح في الكف ، ومصيبة الجزاء كمصيبة الجرم
كلاهما فوق رأسي ، آه وأواه ! أنا اليوم في حيرة ، لأن أولادي تمدوا على أخيم
وأنا ولي الجميع ، و« لابان ، خالٌ للجميع ، وبذلك وقعت في حيص بيص ،
فإن لم أتقم احترق قلبي على ولدي المظلوم ، وإن انتقم احترق قلبي على هؤلاء
الأولاد فماذا أصنع وجرحي في كفي؟... والضربة على كل حال في رأسي ، وصدق
قول الشاعر :

قومي هموا قتلوا أميتهم أخي فاذا رميت بصيني سهي

ولإن عفوت لأعفون جلاً ولإن سطوت لموهن عظمي

وأخيراً لما وقع هذا الحادث تفكرت ملياً ، فرأيت أن الأصوب الصبر
والسكوت ، لا أقل ولا أكثر ، لأنني لا أقدر على أكثر من الصبر ، الذي
هو ملجأ الضعيف ، ولهذا بحق لي أن أدعو صبري « صبراً جميلاً » .

المشاركون ليعقوب في حزنه على فقد يوسف

لم يكن يعقوب (م) هو الذي حزن على فقد يوسف فقط ، بل شاركه في
ذلك « إسحاق » لأن يوسف كان حفيده المنظور ، وموضع رجائه في مستقبل الأيام
والحازم من صبر على مضمض الحياة .

وحزنت عليه أيضاً « بلهة » جارية أمه ، وكافلته بملها ، وحاضته في خيمتها .

وبكاه بحق أخوه الأكبر « رأوبين » الذي كان يريد أن يرد له لأبيه ، وكان غائباً حينما أخرجه « السيارة » من الجب وسافروا به لمصر ، ورجع إلى الجب ، وإذا يوسف ليس فيه ، فمزق ثيابه ثم رجع إلى إخوته وقال : « الولد ليس موجوداً وأنا إلى أين أذهب ؟ » (تك ٣٧ : ٣٠)

وبكاه أخوه الأصغر « بنيامين » لأنه شقيقه ، وتمزيته الوحيدة بعد موت أمه ، وأنيسه الوحيد في خيمة الجارية بلهة .

وبكاه كل من عرف أدبه من أهالي فلسطين ، ولا سيما من كانوا اعتنقوا « دين التوحيد » بدعوة أبيه وجده عليها السلام . وعلى ذلك فقد وجد مشاطرون لأبيه في حزنه وهمه ، ولكن كان يعقوب قد أخذ من ذلك بالسهم الوافر .

(قال : بل سولت .: الخ)

— ٣ —

وقال اللوذعي الدمياطي :

السول والأمر والصبر

أيها السادة الأحبة : لي على هذه الآية بضع كلمات : راجياً سماعها :

معنى السول

الكلمة الأولى — إن لفظة « سولت » لطيفة لينة ، ولكن المعنى الذي فيها

جارج فهو كما يقول بعض المعاصرين في نظيره : « الكلام أتى والمعنى ذكراً » ،
يقال سوّات له نفسه كذا : زينت وسهلت ، وسوّل له الشيطان : أغواه ، من
« السوّل » محرّك ، وهو الاسترخاء ، وقد سوّل كفرح ، والأسول من في
أسفله استرخاء . وسوّل له : سهّل له ركوب العظام ، ومن غرائب الاتفاق أن
هذه المادة لم تسند في كتاب الله إلا لثلاثة :

- ١ - للسامري الوثني ، وذلك في قوله تعالى : ﴿ وكذلك سوّلت لي
نفسِي ﴾ (٢٠ : ٩٦) .
- ٢ - لأخوة يوسف العشرة ، وذلك في قول يعقوب لهم : ﴿ بل سوّلت
لكم أنفسكم أمراً ﴾ (١٨ و ٨٣) .
- ٣ - للشيطان « في قوله تعالى : ﴿ الشيطان سوّل لهم وأملى لهم ﴾ ،
(٤٧ : ٢٥) .

احساس يعقوب بمكيدة أولاده اجمالاً

الكلمة الثانية - نرى أباهم قال لهم : (بل سوّلت لكم أنفسكم أمراً) فكأنه
كان يرى أنهم عملوا معه مكيدة ولا بد ، ولكن كان لا يراها إلا إجمالاً ، لأنها لم تعين
عنده صورتها ، إذ اشتبه في نظره شكلها واختلط ، وغمّ عليه أمرها واستعجم .

التنكير في لفظ « أمراً »

الكلمة الثالثة - التنكير في « أمراً » إما للتنظيم والتفخيم ، كأنه يقول :
أمراً عظيماً ارتكبتموه من يوسف ، وهوته عليكم نفوسكم ، أمراً ذابال ، أمراً
من نوع الدهاء والخبث ، أمراً فيه دسيسة ومكر .

أو للابهام ، فكأنه يقول : أمراً من الأمور المستورة، أمراً تحت طي الكتمان
أمراً لا يعلمه إلا أنتم ويوسف .

معنى الصبر والصبر الجميل

الكلمة الرابعة — معنى « الصبر » تلقي المكروه بالاحتمال ، وكظم النفس عليه
مع الروية في دفعه ، ومقاومة ما يحدثه من الجزع ، فهو مركب من أمرين ، دفع
الجزع ومحاولة طرده ، ثم مقاومة أثره حتى لا يغلب على النفس ، وإنما يكون
ذلك مع الإحساس بألم المكروه ، فمن لا يحس به لا يسمى صابراً ، وإنما هو فاقد
للإحساس فيسمى بليداً ، وفرق بين الصبر والبلادة ، فالصبر وسط بين الجزع
والبلادة ، وهو من أم الفضائل ، إذ يجعل الانسان ثابتاً لا يتملل ، فيسليه عن
الهم ويخفف ألم مصيبته ويبدني منه بعيد الأمل ، قال تعالى : ﴿ وَالْمُؤْمِنُونَ
بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا ، وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ ﴾
(٢ : ١٧٦) وقد ذكر الصبر في القرآن الكريم خمساً وتسعين مرة ، ولم تذكر
في القرآن فضيلة أخرى بهذا المقدار من العدد ، الأمر الذي يدلنا على عظمة
الصبر ، ومعنى كون الصبر « جميلاً » أنه لبق ، أديب ، محتشم ، لائق ، أو هو
الذي لا جزع فيه ولا فرج ، وليس فيه شكاية لمخلوق .

الباب الثالث

الفصل الأول

فروج يوسف من الحب

آ (١٩) * وَجَاءَتْ سَيَّارَةٌ ، فَأَرْسَلُوهَا وَارِدَهُمْ ،
فَأَدْلَى دَلْوَهُ .. قَالَ : « يَا بَشْرَى ! هَذَا غُلامٌ » ، وَأَسْرَوْهُ
بِضَاعَةً ، وَاللَّهُ عَليمٌ بِمَا يَعْمَلُونَ *

انتحيت الجلسة وتليت الآية التاسعة عشرة ، فقام الشيخ
الكرملي^(١) وقال :

(وجاءت) من قبل المشرق (سيارة) ، رفقة تسير لمصر في سبيل التجارة
نزلوا قريباً من « دوتان » (فأرسلوا واردم) وهو رجل يقال له « مالك بن ذعر
الخرزاعي » ليطلب لهم الماء - والوارد هو الذي يرد الماء ليستقي للقوم - جاء للجب
(فادلى) أرسل بواسطة ارشاء (دلوه) فتعلق يوسف ، فلما خرج (قال) الوارد
بلسان الفرح والسرور (يا بشرى) ، فادى البشرى كأنه يقول: تعالي فهذا أوانك ،
رآه جميلاً كأحسن ما يكون فقال يا بشرى (هذا غلام) - والغلام الطار أي

(١) نسبة الى الكرملي قرب مدينة حيفا (فلسطين)

النايب الشارب ، والكهل ضد ، أو من حين يولد إلى أن يشب ، وغلِّمَ كفرح
 غلِّمًا وغلِّمة بالضم وغلِّم غلِّب شهوة ، والغلِّمة شهوة الضراب ، وغلِّم هاج من
 ذلك « القاموس » - ثم ذهب به لأصحابه (و) تمصصهم شيطان الظلم والقساوة حيث
 (أسروه) أي الوارد وأصحابه ، أخفوه عن الرفقة ، حال كونه (بضاعة) أي
 متاعاً للتجارة (والله عليم بما يعملون) لم تخف عليه أسرارهم - وهو وعيد لهم
 حيث استبضعوا ما ليس لهم على حسب عوائد الهمجج في استرقاق الأحرار -
 وسافر معهم يوسف عليه السلام إلى مصر ولسان حاله يردد قول القائل :

وما بعض الإقامة في ديار يهان بها الفتى الإبلاء
 وكل شديدة نزلت بمرء سيأتي بعد شدتها رخاء
 ولم أر كامرئ يدنو لحسف له في الأرض سير والتواء

(وجاءت سيارة .. الخ)

- ١ -

ثم قام الشيخ القليلي وقال :

القافلذ تخرج يوسف من الحب وتقوده معها الى مصر

لا يظنن القارئ أنا نسينا أحزان يوسف وهمومه ، ولم نبالك بما يقاسيه وهو
 في جبه من الوحشة والخوف ، فإننا لم نتركه إلا موقتاً ، ولذلك انترك الآن
 يعقوب ومن عنده من أولاده في « سيلون » ، ولتعد إلى « دوثلان » إلى الحب
 الذي فيها ، لئرى ماذا تم ليوسف بعد إلقاءه في الحب ، وسفر فريق من إخوته
 عنه ، ورجوعهم لأبيهم :

كانت القوافل التي تأتي من الشام لمصر قديماً تجتاز « الأردن » جنوب بحيرة

طبرية ، فألى « بيسان » الى « جنين » الى « دوتان » الى « السامرة » وهي سبسطية الى « جلجولية » الى « يافا » الى « غزة » وقسد لا تأتي إلى يافا ، بل تذهب من جلجولية إلى « اللد » إلى غزة إلى « العريش » إلى صحراء « التيه » إلى أن تصل « مصر » .

وبعد بيان ما تقدم تقول إن إخوة يوسف بعد أن طرحوه في الجب ، ذهب فريق منهم إلى « سيلون » يحملون نبأ أكل الذئب إياه وقيصه الملوث بالدم إلى أبيهم وبقي فريق في « دوتان » يراقبون حركاته ، وماذا عسى أن يطرأ عليه ، وهؤلاء جلسوا لياً كلوا طعاماً ، فلم يمض غير قليل من الساعات ، حتى رفعوا عيونهم ، فبصروا بقافلة من العرب أو المديانيين أو الكنعانيين ، وقد أقبلت تلك القافلة تقطع الصحراء من وجه المشرق من « جلعاد ^(١) » ، وجمالهم حاملة صمناً ويلساناً ولادناً ، ذلهين لينزلوا بها إلى مصر ، فزلت تلك السيارة قريباً من ذلك الجب ، فليستريحوا وتستريح دوابهم ، ولم يمض إلا دقائق بعدد الأنامل حتى أرادت العناية الإلهية أن ترفه عن يوسف ، فسخرت له من ليس من عرقه ، فأرسلوا من اتدبوه للسقيا ليرد على الجب ويأتي لهم بالماء لشربهم وشرب دوابهم ، فأدلى الوارد دلوه فتملق به يوسف ، فسجبه وأصعده من الجب ، ولما نظره رأى فتى كعمود الصبح فقال (يا بشرى هذا غلام) لعمرى قد صدت بحبلي ظيباً ، جاءني عفواً ، فرجع أدراجه ، وأتى رفقاءه ، وهو مشرق الوجه ، إشارة إلى فوزه بالعثور عليه (وأسروه بضاعة) إذ لم يكونوا - طبعاً - يعرفونه ، ولم يسألوه من أنت ؟ وهو - طبعاً - لم يكن رأيهم من قبل ، ولم يخبرهم من هو ، فشأنه معهم شأن كل شخص غريب يُعثر عليه أو يخطف أو يقتصب ويدعى أنه عبد ويبيع كما هو الشائع الكثير في تلك العصور المظلمة ، ثم رحلوا به وساروا

(١) جلعاد - موضع يشرفي الأردن .

يطوون البيداء ، ويتيممون العراء ، ووجهتهم مصر ، وقد حصل كل ذلك بين سمع وبصر إخوته الذين بقوا في « دوثنان » قريباً من الجب ، كما كان ذلك كله بين سمع الله وبصره ، فقد كانت سبحانه مراقباً لسلسلة أعمالهم من مصادرتة - إلى جعله كسلة - إلى استرقاقه - إلى بيعه كأبي عبد زنجي غامض النسب ، فكان كل ذلك بمعرفته وعلمه وسماحه ، لحكمة قدرها وأرادها .

وأما يوسف فارتضى أن يسير معهم ، بدون أدنى مقاومة أو حيلة ، تخلصاً من إخوته الذين هم أشد خطراً أو أعمق جرحاً من مصيبة بعه عن وطنه ، فالغربة مرة المذاق ، ولكن شر إخوته وكيدهم له أدهى وأمر ، والمثل يقول : « سئل واحد : ما الذي أحوجك إلى المرء ؟ - فأجاب : الذي هو أمرٌ منه » ، ولذلك فهو يصدق عليه قول القائل :

محبتي تقتضي مُقامي وحالتي تقتضي الرحيل

هذا ما كان من شأن يوسف وأفكاره ، وأما ما كان من شأن إخوته وأفكارهم ، فانهم فرحوا بما أخذ لمصر فرحاً شديداً ، واعتقدوا أن قضيتهم ناجحة موفقة قد استجمعت كل عناصر الفوز والظفر .

الرد على من اعترض على يوسف بعدم تملصه من القافلة ولحاقه بأبيه

ورب معترض يقول : إنه كان يمكن ليوسف أن يتملص من هذه القافلة لأنه كان من جهة ابن (١٧) سنة ، ومن جهة أخرى كان ولم يزل في وسط بلاده الفلسطينية ، بين معارفه ومعارف أبيه وجده وأسرته ، ولكن الذي يظهر انه كان يتخوف من عمله على الهروب لأبيه أن تلحق به إخوته ضرراً أعظم وكيداً أشد ، وأن عيشته بين إخوته كانت مهددة بالأخطار وليست بالعيشة الراضية ، فلما حصل هذا الحادث خضع له ولم يعمل أدنى مقاومة .

حرص يوسف على انتهاز الفرص وشواهد عليه

والذي يظهر أيضاً أن يوسف كان حريصاً جداً الحرص على انتهاز الفرص متى منحت له ولنا على ذلك الشواهد الآتية :

الشاهد الأول — هذه الحادثة التي نحن بصددتها، فهو حينما أخرج من الجب وأخذ كأسير، لم يأت من المقاومة شيئاً ، بل انتهز فرصة البعد عن إخوته المناوئين له المتألمين عليه ، وفضل الجلاء عن فلسطين بلاد البسداوة والتوحش إلى بلاد الحرية والتمدن والأمن ، فاستخذأ « للسيارة » ورافقهم لمصر لا يلوي على شيء (ع ١٩) .

الشاهد الثاني : — لما سأله الفتيان عن رؤياهما فقبل أن يعبر لهما ، انتهز الفرصة وشرع يدعوها للتوحيد ، ويمعظهما في الدين (ع ٣٧ — ٤٠)

الشاهد الثالث : — بعدما عبر رؤيا رئيس السقاة ، بما فيه سلامته وقرعة عينه ، ثم أراد الرئيس أن يخرج من معتقله ، تقدم إليه يوسف بالرجاء أن يشفع له عند الملك « الريان » ، وفعلاً إن رئيس السقاة نفعه وخدمه ، ولكن بعد حين (ع ٤٢ و ٤٥) .

الشاهد الرابع : — لما سئل يوسف عن تعبير رؤيا الملك ، وأدى واجبه بالجواب عن الرؤيا ، افترض الفرصة ، فأتى بما لم يسأل عنه ، وعرفهم ماذا يجب أن تعمل الحكومة الهكسوسية ، وبين لهم طريق السياسة وسبيل الاقتصاد (ع ٤٧ — ٤٩) وكان هذا لأجل أن يصير له شأن وذكر حسن لدى ملك مصر ورجال بلاطه ، وقد كان .

الشاهد الخامس : — لما جاءه سفير الملك آمراً له بالخروج من معتقله وأحسن

بأن الملك أحبه وتوجه عليه بالنظر ، ووثق به ، افترق أن توجه الملك عليه لا بد أن يكون قد حكي في قصور أمراء مصر ، وأن كل من كان كذلك ، كان حقيقاً بأن يكون مهيب الجنب ، بحيث لا يتكلم فيه بسوى الحقائق — فنظراً لهذا كله — انتهز الفرصة فأبى الخروج من المعتقل إلا بعد التحقيق ، وبعد سؤال السيدات المصريات ، لأنه بتوجه نظر الحكومة عليه ، يكون قد أمن غائلة هؤلاء النسوة ، فلا يتكلمن فيه إلا بالحق ، فيخرج من المعتقل ناصع الجبين (ع ٥٠) .

الشاهد السادس : — حينما مثل بين يدي الملك ، ورمى الملك له تلك الإشارة ورمز له بذلك الرمز ، الذي يشير إلى أن الملك أزمع على إسناد منصب ما ليوسف في البلاط ، فاكسب الفرصة وتوأم تقدم إلى الملك بتعيين وتشخيص المنصب (ع ٥٤ و ٥٥) .

الشاهد السابع : — لما جاءه أخوته لمصر للمرة الأولى انتهز الفرصة وعمل معهم كل الأعمال التي تقتضي رجوعهم لمصر بأخيه بنيامين (ع ٥٨ — ٦٢) الأمر الذي هو كل ما يتمناه ، لا أقل ولا أكثر .

الشاهد الثامن : — لما رجعوا بأخيه بنيامين ، اكتسب الفرصة وعمل تلك المكيدة التي تقتضي بقاء بنيامين عنده (ع ٧٠ — ٧٢) .

الشاهد التاسع : — طلب إتيان إخوته وأهليهم أجمعين لمصر منتهزاً الفرصة بذلك ، لكي يكونوا تحت نظره ، ويعيشوا تحت رعايته ، بعكس ما فعلوا معه سابقاً منذ ٢٣ سنة ، وليس يوجد أذى للنفس وأشهى للقلب من ذلك العمل ، وأيضاً لكي يظهر لهم من مكارم أخلاقه مقدار ما أظهروا له من سوء أخلاقهم ، وثالثاً احتساباً لوجه الله وصلة للرحم ، ومقابلة للسيئة بالحسنة ، وبضدها تمييز الأشياء .

وعلى الجملة فيوسف أجرى ما أجرى من هذه الأمور التسعة ، إما مهاشة للطبيعة الاسرائيلية ، لأن الاسرائيليين ، عموماً منذ القدم إلى اليوم هم حريصون على انتهاز الفرص ، قال الشاعر :

وانتهز الفرصة إن الفرصة
تصير إن لم تنتهزها غصة

وإما لكون ما أجراه هو مقتضى العقل والكياسة ، وبالأجمال إن يوسف كان قوي الإرادة في كل شيء أراده ، وكبير النفس في كل شيء رام أن يتعاطاه ، وكان يوسف بعدما خرج من سجنه ، وجلس على أريكة وزارة المال بمصر صار السعد خادماً له فكان يميل إرادته على الزمان ، والزمان يواتيه ويفعل ما عليه عليه.

(وجاءت سيارة .. الخ)

— ٢ —

وقال الاستاذ راشد البعلبكي :

يوسف بين يدي « السيارة »

بينما يوسف يفكر في ضيقه ، وما أشكل من أمره ، إذا فرج الله له على طرف التمام ، وأقرب إليه من ظله ، فقد وردت « سيارة » سخرها الله تعالى لتكون الواسطة الوحيدة في إخراجه من الجب ، وكانت هذه القافلة قد جاءت من المشرق لأنه كان يوجد اتصال تجاري واقتصادي بين الأمم الشرقية والمملكة المصرية الجنوبية ، فكثروا غير بعيد ، وللحال أرسلوا واردهم ليأتي لهم بالماء ، وبينما يوسف ساكت ساكن ، يفكر في حاله ، سمع وقع أقدام وصوت إنسان ، فوجه انتباهه إليه ، وجعل قلبه يخفق بشدة وسرعة ، إذا بصدى ذلك الصوت يتماظم شيئاً فشيئاً ، ويقترّب نحو الجب ، فتطاول يوسف لباب الجب ، فنظر وارداً يرد الماء

ليستقي لقومه ، أرسل رشاء فيه دلو ، فتعلق به يوسف قائلاً : يا رجل : انشلي رحمك الله ، فنشله ، فرآى صبياً قد أبرقت أسارير وجهه ، فكان هذا الوارد كموسى ، (ع) ذهب ليأتي بقبس من النار ، فأتى بنور النبوة ، فاستبشر وارد القوم استبشاراً يمازجه استغراب وجود فتى جميل كهذا الفتى في وسط الجب الذي هو في صحراء قفراء ، لا يمر بها أحد إلا الرعيان والقوافل ، وصرخ بنعمة الظافر : يا بشرى وألف يا بشرى (هذا غلام) في ربيع العمر ومقبل الشباب ، أنا سعيد به اليوم — ثم أخذه الوارد واسمه مالك بن ذعر الخزاعي ، ورجع به لقومه — ولما صار بين يدي هؤلاء «السيارة» التجار ، نظروه فاعجبوا به ، وكأني بهم قد أدنى بعضهم فمه من أذن الآخر قائلاً بصوت خافت : لعل هذا الغلام من أبناء الملوك ، وقال آخر : لعله من أبناء التجار المنغمسين في الترف والرفاهية ، وقال ثالث : بل لعل هذا الفتى من المالكين الذين يجلبون من بلاد الكرج ، وقال البعض منهم : كأن هذا الخلق ملك على ملائكة السماء ، ولأمر ما نزل الى الأرض وأخذ صورة بشر ، ثم اتفقوا على أن يجعلوه من جملة العروض التي يريدون بيعها في مصر بشكل سري خوفاً من عرقة مرامهم من يمينه ، لو أظهروا أمره للناس الذين معهم في القافلة ، وكانت هذه الطريقة ، وهي جعل القوافل كل ما وقع تحت يدها من الغرباء الضعفاء سلعة يبيع — تقول كانت طريقة مسلوكة لهم قديماً ، كما وقع «لسليمان الفارسي» رضي الله عنه .

وكأني بيوسف قال لهم عند ذلك : « كل ما قلمتموه لم يكن ، ولكني من فلسطين ، جيء بي الى هذا الجب ، فأوقعتني الاقدار الإلهية في غياهبها ، فصبرت على قضاء الله وقدره ، حتى أتاح الله سبحانه مروركم ، واستقواءكم من الجب ، فرأيتموني فنشلتموني ؛ هذه حادثتي بصورة مختصرة ، وأما أنتم فما شتمت فافعلوا معي ، فإن الفعالم هو «الألوه شدائي» (١) ، وقد رضيت بكل ما يأتي علي .

(١) لفظة عبرانية معناها «الإله القوي»

ما أبرمه سبحانه في سابق علمه ، لا أعتزكم ولا أتعاصي عليكم ، فقد صرت بين أيديكم كأسير ، والله الأمر من قبل ومن بعد .

ولم يطلق يوسف لنفسه العنان في بيان ترجمة حاله الشخصية والعائلية ، إذ رأى أن لا فائدة له من ذلك لأنهم أعراب أو مديانيون أو كنعانيون ، لا يهتمون بأمر يعقوب ولا إسحق ، ولا يقدرّون هذه الأسرة الاسرائيلية حق قدرها ، ولا يتعرفون إليها ، ولأنه يعلم أنه لو سعى في رجوعه لأبيه لعامله إخوته بما هو أشد وأنكى ، وربما قضاوا على حياته ، ففضل البراح والبعد عن البيئة التي تجمه باخوته ، وفضل الغربة على الاقلمة في الوطن ، إذا كان فيه تخوف على النفس والحياة ، كالفائل :

رُبَّ هجر يكون من خوفِ هجرِ وفراق يكون خوفَ فراقِ
أو كالفائل :

لا تصبون ^١ إلى وطن ^٢	فيه تضام وتتمت ^٣
وارحل عن الدار التي	تعلي الوهاد ^٤ على القنن ^٥
واربأ بنفسك أن تقيم ^٦	بحيث يخشاك الدرن ^٧
وجب البلاد فأيتها	أرضاك فاختره ^٨ وطن ^٩

أو كالفائل :

وإن نبت^١ بك أوطان^٢ نشأت^٣ بها
فارحل^٤ فكل^٥ بلاد^٦ الله أوطان^٧
وإن جفاك^٨ أخ^٩ قد كنت^{١٠} تألفه^{١١}
فاطلب^{١٢} سواه^{١٣} فكم في الأرض^{١٤} إخوان^{١٥}

لسان حال يوسف مودعاً وطنه وأهله وهو مع «السيارة»

وعلى ذلك ذهب يوسف معهم ساكتاً ساكناً واجماً ، تنطق دموعه بما صمت عنه لسانه ، يعالج الداء بالداء ، ويفر من هم إلى هم ، ومن قضاء إلى قضاء ، فقاموا راحلين به للديار المصرية ، وكأني به حينما صار بين حدود فلسطين وحدود مصر قريباً من « رَفَح » التفت شمالاً فرآى فلسطين ماثلة أمامه ، فألقى عليها نظرة واجمة ، ثم قال :

إن مجاورة الأعداء المتألبين ، ومخالطة الخصماء المناوئين ، غدر بالنفس حتى ولو كان الوطن طيباً والعيش نضراً ، فكيف والوطن بادية ، ومدار معيشتنا رعي الغنم ، وإن العاقل هو حقيق أن تكون همته مصروفة إلى ما يحصن به نفسه من نوازل المكروه ، ولواحق المذور ، وإلى ما يدفع الخوف لاستجلاب المحبوب ، وإن معاشرة الحسدة والمصاحب لهم ، هو كراكب البحر ، إن هو سلم من الفرق ، لم يسلم من المخاوف ، وإننا لنرى أن الدواب قد خُصت في طبائعها بتوقي المكروه ، واكتساب ما فيه المنفعة ، ولذلك لم نرها تورد أنفسها مورداً فيه بوارها وهلكتها ، وأنها متى أشرفت على مورد مهلك لها ، مالت بطبائعها التي ركبت فيها ، شحاً بأنفسها وصيانة لها إلى النفور والتباعد عنه .

ثم استقبل « دوتان » وقال :

الوداع أيها الإخوة الذين طردوني وشردوني من بينهم ، وأبعدوني عن أبي الشيخ الجليل ، وعن أخي الوحيد اللطيم ، ولم يزودوني لقمة واحدة أتبلغ بها في طريقي ، ولا كلمة طيبة آنس بها في مطارح غربتي ، وإنكم قد أقيتموني هذه المرة في الحب ارتكاباً لأخف الضررين المناسب لِسْنِي ، فأخاف لو رجعت وبقيت على ما أتم عليه من العداة والمناوأة أن تلجأوا لاستمهال أشد الضررين !

ثم استقبل « سيلون » وقال :

الوداع أيها الوالد المحب المخلص ، الوداع أيها الشيخ الجليل ، فقد كنت محباً لي جدّاً الحب ، ولكنتك متقلب عليك من أولادك المستبدين ، فالسكنى معك مخوفة بالخطر ، فالسباق السباق لمصر ، والاحقاق الاحقاق لدار الحرية والأمنية ، والسلام عليك ورحمة الله .

قال ذلك ، ثم سار مع الراكب ، وقد أبفض فلسطين واجتواها وفارقها نائماً على أهله وأهلها ،

وكأنني بهذا الراكب حينما دخلوا مصر إلى « سوق بيع الرقيق » أجلسوه مع ذكران العبيد من بيض وسود وحمير ، فعرف إذ ذاك أنهم أزمعوا على بيعه ، ففزع إلى ربه ، ودعاه أن يمينه على أمره هذا « الجديد » ويجعل نصيبه عند رجل أمين .

وما فعلته « السيارة » من أخذ يوسف معهم كرقيق سنة قديمة عند جميع الأمم ، فقد كان التجار وغيرهم من الروم والقوط يسطون على قبائل البربر ، فيخطفون الأطفال والغلمان ويحملونهم إلى الآفاق يتجرون ببيعهم ، كما كانوا يتجرون ببيع الغلمان البيض ، من أهل اسبانيا وغيرها .

المشاهون لحالة يوسف (ع) في الرق

ويسرني أيها السادة قبل أن أختم خطابي هذا أن أقول ما أشبه حال يوسف « بدانيال » عليها السلام ، فيوسف أسر من فلسطين لمصر سنة ٢٣٢١ ق.ن ثم عبر رؤيا ملك مصر سنة ٢٣٣٤ ق.ن ، وكانت وفاته بمصر سنة ٢٤١٤ ق.ن ، ودانيال أسر من فلسطين لبابل سنة ١١٧٥ ق.ن وفسر رؤيا نبوخذ نصر سنة

١١٧٢ ق. ن ثم كانت وفاته بالعراق ، وكما تذكر يوسف حادثة دانيال قبله ، فإننا نتذكر به أيضاً حادثة (ياقوت الحموي) بعده ، أعني صاحب «معجم البلدان» فإنه نشأ أسيراً ، أسر من الروم ويبيع في بغداد فاشتراه تاجر يعرف بـ (عسكر الحموي) واليه تُسبب فقيل : ياقوت الحموي ، قرأ شيئاً من النحو والصرف وولع بالأسفار في سبيل التجارة ، فبرز ونبغ في علم «تقويم البلدان» الذي يعبر عنه أهل اليوم بالجغرافية .

وتذكر بحادثة يوسف أيضاً ، حادثة (سلمان الفارسي) حيث ادعى بعض المسافرين معه استرقاقه ، فباعوه في المدينة المنورة ، ثم أسلم واشترى نفسه ممن تملكوه ، وصار من أفضل الصحابة المحترمين .

(وجاءت سيارة .. الخ)

— ٣ —

وقال الأديب الحلبي (١) :

ليسبح لي السادة أن أوضع معنى بعض مفردات هذه الآية الكريمة :

معنى «السيارة»

١ — معنى «سيارة» ركب ، ويقال عنها «قافلة» ، ومعنى الألفاظ الثلاثة رفقة سائرون ، هذا هو المعنى المعروف قديماً وحديثاً لهذه اللفظة ، وما زال معروفاً لم تنكره الحياة الحاضرة ولم يندثر بعد ، ولكن الذين يعرفون شيئاً عن الحياة

(١) نسبة الى الحلة من بلاد العراق .

الصوفية يعرفون «السيارة» بمعنى الطائفة من أهل طريقهم تسير وأمامها علمها
..وأما عند أهل اليوم المتمدنين فيطلق لفظ «السيارة» على ما يدعى بالانجليزية
«اوتوموبيل» .

معنى «الوارر»

٢ - كان اسم هذا «الوارد» فيما قيل «مالك بن ذعر الخزاعي»، قالوا:
هو رجل من العرب دميم الخلقه قذر الثوب، تقذى به التواظر وتتقزر منه
النفس، فسبحانك اللهم ما أخفى حكمتك، قرد يصيد غزالاً!!! ولممري لولم
يفعل هذه الفعلة السوأى لم يعلم به أحد، ولو لم يرد على هذا البئر، لم يكن في
ورود ولا صدر، ولكن هذا العمل الخبيث هو الذي أتج هذه الشهرة، فمثل
كمثل رجل من غمار الناس، ليس له اسم، حَجَّ فأحب أن يكون له شهرة
وصيت، فجاء وبال في بئر زمزم بمرآى من الواقفين، وقال لهم أنا فلان، فطار
اسمه في الآفاق، والله في خلقه شؤون!

فاء السرعة في قوله «فأرسلوا»، «فأدلى»

٣ - التعبير بالفاء في قوله «فأرسلوا» وقوله «فأدلى» يشير إلى السرعة في
هذا الأمر، بمعنى أنهم جاءوا وتوياً أرسلوا واردهم، ولم يتأخروا عن إرساله
فوقاً، وهو ذاهب توياً إلى الجب وأدلى دلوه، ولم يتأخر عن إدلائه فيه فوقاً،
وهذا من لطف الله تعالى بيوسف، إذ سخر له عبيده، واستخدمهم في سرعة
إخراجه، وإذا أراد الله بعبد لطفاً، فسرعان ما يسخر له كل الأسباب التي تلتطف
ما حلَّ به من المقدور، رحمة منه تعالى .

« يا بشرى »

ع - قوله « يا بشرى » أسلوب من أساليب الكلام العربي والبراني ، يعبر به الانسان عن شعوره واغباطه بما رآه ، ولم يكن وارد القوم أكثر سروراً بيوسف ممن سواه من كل من رآه فيما بعد .

اللقاب يوسف

ه - لفظة غلام في قوله « هذا غلام » هو أول لقب لُقِّب به يوسف في بدء غربته وهو في دوثان ، لقبه به مالك بن زعر الخزاعي . وقد لقب بعده بألقاب عدة ، منها لقب « مُخْلِص » لقبه به المولى عز وجل وهو في مصر إذ قال : ﴿ إنه من عبادنا المُخْلِصين ﴾ ومنها لقب « فتى » لقبه به النسوة المصريات إذ قلن : « تراود فتاها عن نفسه » وذلك قبل أن يرَبِّئَنَّهُ ، ومنها لقب « ملك كريم » لقبه به أيضاً نسوة المدينة بعدما رأينَّه .

ومنها لقب « الصديق » لقبه به رئيس السقاة ، وهو في سجنه . ومنها لقباً « مكين أمين » لقبه بها ملك مصر الريان ، بعد براحه السجن .
ومنها لقباً « حفيظ عليم » وقد لقب هو نفسه بها ، ترجمة حال نفسه عند الحكومة .

ومنها لقب « العزيز » لقبه به إخوته ، تبعاً للحكومة المصرية التي — طبعاً — لا بد أن تكون قد وجهت عليه هذا اللقب ، فكان « عزيز مصر » تحت سلطة مليكها الريان .

فيكون أول لقب وجه على يوسف في بدء محنته « غلام » وآخر لقب وجه عليه في بدء إشراق سعده « عزيز مصر » .

الدلو

٦- لم يذكر لفظ «دلو» في كتاب الله تعالى إلا هنا ، كأن الله جل جلاله إنما أزل «الدلو» في هذه السورة مساعدة ليوسف ، حتى يتعلق به ويخرج من جبه .

الفصل الثاني

بيع يوسف (ع)

آ(٢٠) (وَشَرَوْهُ بِثَمَنٍ بَخْسٍ!!! دَرَاهِمَ مَعْدُودَةٍ!
وكانوا فيه من الزاهدين!).

افتتحت الجلسة وتليت الآية العشرون فقام السيد جمال العكاري^(١) وقال:

(و) لما وصلوا مدينة «منف» وذلك سنة ٢٣٢١ ق. ن (شروه) أي باعوه فيها لعزير مصر (بثمن) اسمي (بخس) مبخوس ناقص عن قيمة يوسف نقصاناً ظاهراً ، أو زيف ناقص الميار (دراهم) لا دنائير (معدودة) قليلة تعد عدداً ، ولا توزن ، لأنهم كانوا لا يزنون إلا ما بلغ الاوقية ، وهي الأربعمون ، ويمدون ما دونها ؛ وقيل للقليلة «معدودة» لأن الكثيرة يمتنع من عدّها لكثرتها ، ومن التعبير بالقلّة عن المدد الدعوة المأثورة على الكفرة : «اللهم أحصهم عدداً» ، وقيل كانت عشرين درهماً (وكانوا فيه من الزاهدين) ممن يرغب عما في يده فيبيعه بما طف من الثمن ، لأنهم التقطوه ، والمثلث لاشيء متهاون به ، لا يبالي بم باعه ، ولأنه يخاف أن يعرض له مستحق ينتزعه من يده ، فيبيعه من أول مساوم.

(١) عكار احدي بلاد الشام (لبنان)

بأوكس الثمن ؛ فإخوة يوسف وقموا في الجريمة وتحت غضب أبيهم ، ويوسف ذاق من جراء ذلك الصاب والملقم ، وعزيز مصر الأجنبي أخذه لقمة سائفة أته دون تب ولا نصب .

(وشروه بشن نجس ... الخ)

— ١ —

وقال الشيخ اسماعيل الصيداوي^(١) :

ليسمح لي السادة الأفاضل أن أذكر نبذة عن أسواق الرقيق في تلك العصور قبل الكلام على الآبة الكريمة فأقول :

اسواق الرقيق

كان يوجد قديماً في الممالك الكبيرة كمصر أسواق تسمى « أسواق الرقيق » يأتون فيها بالرقيق الأبيض والأصفر والأحمر والأسود من الجوارى والغلمان على اختلاف القدود واللغات والألسان ، يستجلبونهم من أقاصي بلاد الترك والروم والكرج والخزر وطبرستان وخراسان والسند والمغرب والبربر والحبس ، يأتي بهم النحاسون أولاً ، إما بطريق الغزو أو بطريق الشراء من والديهم أو بعض أقاربهم بثمان زهيد ، ثم يبيعونهم لتجار الرقيق ، هؤلاء التجار يسوقونهم كالأنعام إلى « سوق الرقيق » مشدودي الأيدي بعضهم يبيع بالأمراس لبيعوهم بدورهم أيضاً ، وهذه « السوق » هي سوق عمومية يجتمع إليها الناس من أقاصي البلاد ،

(١) نسبة الى بلدة صيدا من بلاد الشام (لبنان) .

لشراء الرقيق أو اشتراؤه أو للبادلة والمقايضة ، وحول هذه السوق سور ، بعضه من الخشب ، وبعضه من الأحجار ، فيدخل التجار السوق مع الرقيق ، ويقفون بابه ، وحينئذ يحلون أيدي الأرقاء من الأمراس ، ويجعلون الذكور في جهة ، والانات في جهة ، وربما أفردوا من يكونوا صغير السن جميلاً ، فيخصونهم بحبة على حدة ، فيأتي المشترون فينظرون اليهم ويفحصونهم ، يأمرؤهم بفتح أفواههم ، فتفحص أسنانهم ورائحة حنكهم ، وينظرون في عيونهم وآذانهم وأنوفهم ، وأيديهم وأرجلهم ، ويسومونهم ، ومتى تمت صفقة البيع ، أخذوا العبد واستخدموه فيما يشاؤون ؛ من رعي غنم أو حرث أو زرع أو غرس ، أو خدمة في بيت ، إلى غير ذلك ، وكان تجار الرقيق قديماً ، إذا وقفوا على جارية جميلة ، أو غلام جميل ، أنفذوا بعض السامسة إلى دار الحاكم أو الأمير أو فلان الثري ، يسعون في ترويح تلك السلع ، وكثيراً ما يكون الوسيط بالسامرة بعض المقرين من بطانة الحاكم أو الأمير ، ممن يحبون الكسب من هذا السبيل ، ولعل وقوع يوسف بيد « عزيز مصر » المدعو « فوطيفار » كان يعض هذه الوسائط .

يوسف في سوق الرقيق

حينما أخذت «السيارة» يوسف من الحب وأسرتته بضاعة ، ساروا به بطون البيداء ، لا يلوون على شيء ، حتى وصلوا مصر ، ولم يصبروا إلا فواقياً ، حتى دخلوا به «سوق الرقيق» وكان لابساً أحمالاً بالية ، ولا نخاله عند ذلك إلا قد «تكهرب» وتألم وحزن حزناً شديداً ، وحيث رأى نفسه بين الزوج . فكان جالساً بهيئة محزنة مؤثرة ، تستثير الأشجان ، وتستدرف الدموع ، ولو لا علمه بمواعيد الله له ، لفضى أسمى من وقوفه ذلك الموقف . وقد كان ليوسف إذ ذاك

فكرتان تتصارعان ، فكرة حاله الظاهرة ووقوفه موقف الذل والهوان ، وفكرة حاله الباطنة ، ومواعيد الله له بالرقى إلى الأوج الأعلى ، فكان عند الفكرة الأولى يجيش صدره ، ويبكي بعينيه ، وعند الفكرة الثانية يضحك في قلبه ويطمئن .
 وبينما هو كذلك ، إذ بالقافلة تسلمه لنهار « عزيز مصر » الذي اشتراه منها ، فنزل حادث الشراء على نفسه ، نزول الجرة على تامور القلب ، وتخييل عندئذ كأنما سهم رائش أصمى كبده ، إلا أنه تماسك ريثما يخار الله له ما يشاء من الفرج ، فسلم أمره لله ، وذهب لبيت « عزيز مصر » يعالج داء بداء ، وينتقل من ذل إلى ذل !

ابضاح مفردات الآية

وبعد ذكر ما تقدم سأبين لكم معنى قوله تعالى «شروه» ثم عود الضمير في «شروه» والتحقيق عن من باع واشترى يوسف ثم معنى «ثمن بخس» وكم هو هذا الثمن .

معنى «شروه»

١ - فعنى قوله تعالى «شروه» باعوه ، وتنازلوا عنه وبذلوه ، ضد «اشروه» التي تفيد معنى الأخذ ، قال تعالى ﴿ وَلَبِئْسَ مَا شَرَوْا بِهِ أَنْفُسَهُمْ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴾ (٢ : ١٠٢) أي باعوها ، وقال تعالى : ﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَن يَشْرِي نَفْسَهُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاةِ اللَّهِ ﴾ (٢ : ٢٠٧) أي يبيعها ويبذلها في الجهاد ، وقيل : يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر حتى يقتل ، وقال تعالى : ﴿ فَلْيُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يَشْرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بِالْآخِرَةِ ﴾ (٤ : ٧٣) أي يبيعونهم وقال الشاعر العربي :

شريتُ بُرداً ولولا ما تكنتني

من الحوادثِ ما فارقتُهُ أبداً

ومنه تسمية (الخوارج) الذين خرجوا على الإمام عليّ كرم الله وجهه
(الشراة) أي الذين باعوا أنفسهم - في زعمهم - لله ، ويقال في اللغة : جَدَّه
وشراه ، بمعنى شق أذن عبده وباعه .

عود الضمير في «شروه» والتفصيص عن من باع واشترى يوسف

٢ - الضمير في «شروه» هل هو عائذ على إخوته ، أو عائذ على السيارة ؟
في الأمر قولان : الأول مروى عن ابن عباس (ض) ، ومعناه أن إخوة يوسف
باعوه للسيارة ، وأصل ذلك في سفر التكوين (تك ٣٧ : ٢٨) وليس من مصدر
آخر لهذا القول غير توراة اليهود التي بين أيديهم ، ولا يوجد حديث صحيح في
هذا الموضوع يؤيد رواية التوراة أو يضعفها .

والقول الثاني يتبين من ظاهر الآية :

أ - إن الضمير في «شروه» عائذ على السيارة ، لأنها
أقرب مذكور ، وإنا أعاد الضمير عليها مذكراً ، لأنها بمعنى الجمع
أو القفل أو الرجال المسافرون ، وما يؤيد رجوع ضمير «شروه» للسيارة ،
رجوع الضائر قبله إليها في قوله « فأرسلوا » وقوله « وأسرّوه » فعود الضائر مرة
على السيارة ، ومرة على الإخوة ، يوجب تعقيداً في التركيب ، وبالنتيجة يجب
المشي مع الظاهر ، وإهمال هذه الرواية عن ابن عباس ، والله أعلم .

ب - إن الله تعالى يقول (شروه ، واشتروه) ، فإذا الصفقة واحدة

لا ثاني لها .

ج - إن الله تعالى علم أنه سيأتي قوم يفهمون غلطاً تبعاً لتوراة اليهود ، فيقولون
إن الذين شروه هم إخوته : شروه للسيارة ، وبالطبع اشترته منهم السيارة وكانت
صفقة هذه المقايضة في فلسطين ، فلأجل دفع أو رفع هذا التوهم ، أقحم الله تعالى
اللفظ (من مصر) ، ليدلنا على أن الحادثة واحدة ، لم يُشترَ ولم يُشترَ إلا مرة

واحدة ، فالشارون هم جماعة السيارة ، والمشتري هو عزيز مصر ، والحادثة لم تكن في فلسطين بل في الديار المصرية ، فهذه قرائن ثلاث تدلنا على صحة ، بل تعيين ، ما فهمنا (والحمد لله) وتبعد أو تحيل ما فهمه المفسرون ، وإن عزوه لابن عباس .

التمن البخس وما هو وكم هو

٣ - ومعنى « تمن بخس » أي تمن نزر ، تافه ، مألوت ناقص ، وإنما قنعوا بالتمن البخس لأنهم لم يدفعوا في مشتراه فلساً واحداً :

ومن أخذ البلاد بغير حرب يهون عليه تسليم البلاد

ولخوفهم من هروبه وتملصه منهم ، ولكونهم لا يعرفون قدره ومنزلته ولا ابن من هو ، فكانوا كالرجل الجاهل الذي سرق ياقوتة ، وكان لا يعرف ما هي ، وكان خائفاً من أصحابها ، فباعها بخرزة لا تساوي إلا دراهم يسيرة ، مع أن الياقوتة ثمينة ، لو وقعت في يد عارف بها لأصاب بثمانها غنى الدهر .

٤ - ما هو هذا التمن البخس وكم هو ؟ كان « دراهم معدودة » ويعلم أنها كانت أقل من أربعين ، وذلك لأن الناس في ذلك الزمن كانوا يتبايعون ، بالأواق ، وكانت الوقية أربعين درهماً ، فما قصر عن الوقية فهو بالعدد .

أو يقال « معدودة » كناية عن كونها قليلة ، ومن التعبير عن القلة بالعدد الدعوة الماثورة على المشركين « اللهم أحصهم عدداً » فالمدعو به وإن كان إحصاؤهم عدداً في الظاهر ، إلا أن هذا ليس مراداً ، لأن الله تعالى أحصى كل شيء عدداً ، وأحاط به علماً ، فلا بد من مقصود وراء ذلك ، وذلك المقصود هو — لازم العدد وهو القلة ، فلما كان كل قليل معدوداً وكل كثير غير معدود ، دعاهم

بالقلة معبراً عنها يلزمها وهو الإحصاء، هذا ما قاله العلماء وقرره أحمد الاسكندري في حواشيه على الكشاف، وهو جيد، ولنا في ذلك وجه آخر، وهو أن هذه الدراهم كانت مقصورة الأطراف، لأنهم كانوا قديماً (كما هو اليوم) يتعاملون بالدراهم عدلاً لا وزناً، فكان يوجد مجال كبير لتقليبي الأمانة (وكثير ما هم) أن يأخذوا من أطراف الدراهم، كما أن أهل عصرنا الحاضر يسحبون، والدنانير، والناس عند ذلك يحرصون على المعاملة بالمد دون الوزن، لأنه أربح لهم، فيكون المعنى الذي يرمي إليه اللفظ، انه ياليت أن هذه الدراهم التي يبيع بها يوسف، كانت صحيحة سليمة من النقصان حتى توزن وزناً، بل كان يغلب عليها النقصان، ولهذا عدت عدلاً.

وقد كانت هذه الدراهم عشرين درهماً من الفضة، وكان الدرهم يساوي إذ ذاك (١٧) غرشاً، فكانت قيمة ذلك نحو (٣٤٠) غرشاً، وهي قيمة بخسة زهيدة جداً بالنسبة لأثمان العبيد والجواري الذين كانوا يباعون ويشترون بقيم تبلغ أضعاف أضعاف قيمة يوسف، سواء في تلك العصور أو فيما بعدها، ولو أردنا سرد أثمان العبيد والجواري في عهد الدولة العباسية والأموية لطال بنا الشرح والبيان، وقد كانت الفضة في تلك الأيام أثنى منها اليوم، ومع قلة هذه القيمة، فبائنوا يوسف رأوا أنهم بهذا البيع وهذا الثمن فازوا بصفقة رابحة، فواضيعتهاء ! يا يوسف !

(وشروه بثمن بخس ... الخ)

— ٢ —

وقال الشيخ محمد أحد علماء أم درمان (السودان) :

الاسترقاق قبل الاسلام وفي الاسلام

قضي على البشر أن يستعبد بعضهم بعضاً من قديم الزمان، فلم تخل أمة من

الاسترقاق ، حتى في شريعة موسى عليه السلام ، وليس هذا فقط ، بل كان الناس يخطف بعضهم بعضاً للتجارة، فكانوا متى التقطوا شخصاً غريباً استأسروه واسترقوه ، وقد عومل الرقيق في سائر الشعوب بضروب من القسوة، تنفطر منها الانسانية، وهكذا قضت المسيحية البولصية ، ببقاء أحوال الأرقاء على ما كانت عليه من قبل ، إذ لم يرد في المسيحية كلمة واحدة عن تحرير الرقيق ، وإنما الذي ورد فيها ، هو أمر الأرقاء أن يطيعوا مواليهم مع الخوف والرعب والرعدة ، كما يطيعون المسيح عليه السلام (أف ٦ : ٥) وأن يبائعوا بحسن القيام بخدمة ساداتهم ، تمجيداً لتعاليم المسيح ، كما يقوله القديس بولص في (كو ٣ : ٢٢) وفي (تي ٢ : ٩) وقد وافق على ذلك القديس بطرس الحواري ، حيث أوصى العبيد بأن يخضعوا لساداتهم ويخشعوا (ابط ٢ : ١٨) وهكذا بقي هذا الحال ، إلى أيام الإسلام ، فلما أتى الإسلام ، رق لحال الأرقاء ، كما كان شأنه لجميع الضعفاء ، فتمنع الاسترقاق بتاتا ، إلا أن يكون في حرب شرعية ، مع قوم من غير المسلمين ، لم يؤمن أذاهم ، أعني انه إنما أباح الأسر في الحرب الدينية فقط ، وعذر الإسلام في ذلك ، أنه قد وجد النوع الإنساني ، قد تأصلت فيه عادة الأسر ، فأباح أسر الأجانب فقط ، في مقابلة أنهم بأسروا أهل الإسلام ، إذ لو حرم أسرهم على المسلمين ، لا تقرض المسلمون جميعاً ، إذ كانوا في الحرب بأسرهم غيرهم إذا غلبهم ، وهم إذا غلبوا لا بأسروا أحداً ، وفي ذلك شر عظيم على أهل الإسلام ، وهلاك مبيد ، فلهذا أباح أخذ الأسرى ، وبهذه القاعدة ، سدّ تفشي الاسترقاق وانتشاره ، وغلق أبواب الظلم والمدوان ، ثم أمر بالإحسان إلى الأرقاء ، وبمعاملتهم بالرفق واللين ، كما قال جل ثناؤه : ﴿ وبالوالدين إحساناً ، وبذي القربى - إلى أن يقول - وما ملكت أيمانكم ﴾ (٤ : ٣٥) ورغب في العتق ، وجعل بين المعتق والعتيق ولاءً ومودة ، وإن شتم أقرأوا قوله تعالى ، ﴿ فلا تقتحم العقبة ؟ وما أدراك

ما العَقَبَةُ ! فَذِكُّ رَقَبَةٍ ، أَوْ إِطْعَامُ فِي يَوْمِ ذِي مَسْجَبَةٍ ، يَتِيمًا ذَا مَقْرَبَةٍ ، أَوْ مِسْكِينًا ذَا مَتْرَبَةٍ ، ثُمَّ كَانَ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا ، وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ وَتَوَاصَوْا بِالْمَرْحَمَةِ ، أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ ﴿٩٠ : ١١ - ١٨﴾ فَاللَّهُ تَعَالَى ، أَوَّلُ مَا قَالَ فِي هَذِهِ الْآيَةِ « فَك رَقَبَةٌ » ، إِذْنُ فَكِ الرَّقَبَةِ ، أَمُّ مَا تَقْتَحِمُ بِهِ الْعَقَبَةُ ، وَذَكَرَ بَعْدَهَا الْإِيمَانَ ، مَعَ الصَّبْرِ وَالْمَرْحَمَةِ . وَنَهَى الْإِسْلَامُ عَنِ لَطْمِ الْمَمْلُوكِ وَضَرْبِهِ وَجَمَلَ كَفَّارَةَ ذَلِكَ عِتْقَهُ ، حَيْثُ قَالَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ : « مَنْ لَطَمَ مَمْلُوكَهُ أَوْ ضَرَبَهُ ، فَكَفَّارَتُهُ عِتْقُهُ » ، وَلَيْسَ هَذَا فَقَطْ ، بَلْ قَالَ : « إِخْوَانُكُمْ خَوْلَانُكُمْ ، جَعَلَهُمُ اللَّهُ تَحْتَ أَيْدِيكُمْ ، فَمَنْ كَانَ أَخُوهُ تَحْتَ يَدِهِ ، فَلْيُطْعِمْهُ مِمَّا يَأْكُلُ ، وَلْيَلْبِسْهُ مِمَّا يَلْبَسُ ، وَلَا تَكْلِفُوهُمْ مَا يُغْلِبُهُمْ ، فَإِنْ كَلَفْتُمُوهُمْ مَا يَنْظِمُهُمْ فَأَعْيِنُوهُمْ » ، بَلْ قَالَ : « لَا يَقْبَلُ أَحَدُكُمْ : عَبْدِي ، أُمَّتِي - وَلْيَقْل : فَتَايَ ، وَفَتَايَ وَغَلَامِي ، وَحَثَّ عَلَى تَهْدِيهِمْ وَتَعْلِيمِهِمْ ، فِي مِثْلِ قَوْلِهِ : « مَنْ كَانَتْ لَهُ جَارِيَةٌ ، فَعَلَّمَهَا وَأَحْسَنَ إِلَيْهَا وَتَزَوَّجَهَا ، كَانَ لَهُ أَجْرَانِ » ، هَذَا وَقَدْ أَمَرَ اللَّهُ تَعَالَى بِتَزْوِيجِهِمْ فَقَالَ : ﴿ وَانكحوا الأيامى منكم ، وَالصَّالِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِمَائِكُمْ ، إِنْ يَكُونُوا فُقَرَاءَ : يُغْنِيهِمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ ﴾ (٢٤ : ٣٢) ، ثُمَّ إِذَا افْتَرَشَ السَّيِّدُ أُمَّتَهُ ، فَوَلَدَتْ لَهُ ، كَانَ الْأَوْلَادُ أَحْرَارًا ، وَيَرِثُونَ مِنْ آبِهِمْ ، وَهِيَ تَمْتَقُ بِذَلِكَ ، إِلَى غَيْرِ ذَلِكَ ، مِنَ الْقَوَاعِدِ الْعَادِلَةِ ، الَّتِي لَمْ تَأْتِ بِهَا شَرِيعَةُ قَطْ وَلَيْسَ هَذَا هُوَ كُلُّ مَا جَعَلَهُ الْإِسْلَامُ ، مَسَاعِدَةً لِأَوْلِيَاءِ الضُّعْفَاءِ ، بَلْ جَمَلَ تَحْرِيرَ الرِّقَابِ ، كَفَّارَةً لِكَثِيرٍ مِمَّا يَقَعُ مِنَ الْإِنْسَانِ ، مُخَالَفًا لِلدِّينِ ، حَتَّى فِي أَسْطِ الْمَسَائِلِ كَالْحَثِّ فِي الْإِيمَانِ : ﴿ لَا يُؤَاخِذُكُمُ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ ، وَلَكِنْ يُؤَاخِذُكُمْ بِمَا عَقَّدْتُمُ الْإِيمَانَ ، فَكَفَّارَتُهُ - إِلَى أَنْ قَالَ - أَوْ تَحْرِيرُ رَقَبَةٍ ﴾ (٢ : ٢٢٥) ، وَلَيْسَ هَذَا فَقَطْ ، بَلْ أَمَرَ بِجَمْعِ الْأَمْوَالِ - الزَّكَاةِ - مِنَ الْأَغْنِيَاءِ وَصَرَفَ جُزْءَ مِنْهَا فِي تَحْرِيرِ الرِّقَابِ : ﴿ إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ - إِلَى

قوله - وفي الرقاب ﴿٩ : ٦١﴾ وكور حث ذوي اليسار ، على ذلك ، المرة ،
بمد المرة : ﴿ليس البر أن تولثوا ووجوهكم قبيل المشرق والمغرب ،
ولكن البر من آمن بالله - إلى أن قال : - وآتسى المال على حبه ، ذوي
القربى - إلى أن قال : - وفي الرقاب ﴿٢ : ١٧٧﴾ إلى غير ذلك مما يطول
شرحه ، فإذن نسأل أهل الإنصاف ونقول : أليس ما أتى به القرآن والدين
الإسلامي منذ قرون ، هو ما تفتخر به المدنية الحديثة وتبته به إعجاباً ؟ !

استفارة الرقيق عند المسلمين

لقد جاء في كتاب للأستاذ الكريم الشيخ عبدالقادر المغربي قوله : ليس
الغرض من الاسترقاق عندنا ، مجرد استغلال الأرقاء والامتفاع بخدمتهم ، كما
ينتفع بالدابة ، وإنما الغرض نفع الرقيق نفسه ، ونفع البشرية ، بنشر تعاليم الإسلام
بين أبنائها ، فإننا نأخذ الأرقاء في الحرب أسرى وندخلهم في بيوتنا ، ونمزجهم
بمائلتنا ، كي يتخلقوا بأخلاقنا ، فيدخلوا أخيراً في ديننا ، ويكثر بهم سواد
أمتنا ، وربما كان ثلث المسلمين اليوم ، هم من سلالة أولئك الآباء ، الذين دخلوا
في الإسلام من طريق الرق ، فالرق في نظر العالم المسلم الاجتماعي ، ضرب من
ضروب الاستعمار ، أو ما يسميه سواس هذا العصر (التجنس بالتبعية) ..

استرقاق الشعوب في اوربا وامريكا

وجاء في كتاب لأمير البيان الأستاذ شكيب أرسلان مانصه :
وإذا قيل إن الرق قد وجد في الإسلام ، فالجواب إنه لم يوجد فضيلة حث
عليها الإسلام بصريح القرآن ، ومتواتر السنة أكثر من تحرير الرقيق ، على أن
النصرانية لم تنكر الرق ، كما ظهر من كلام بولس الرسول .

وإن كانوا في أوربا قد اتفقوا مؤخراً على إلغاء الرق فلا يجوز أن ننسى أن الشعب الروسي إلى زمان الامبراطور بولس كان رقيقاً لأمرائه ، وأن النبيل إذا باع قرية يملكها ، يبيعها مع الأهالي الذين فيها ، لا يملكون لأنفسهم أمراً ، بل حكمهم كان حكم الحيوانات التي في القرية ؟ هذا كان شأن الأمة الروسية ، منذ ١٥٠ سنة لا زيادة ، ولا يجوز أن ننسى أن الفرنسيين بعد أن تمكنوا من طرد المسلمين من جنوبي فرنسا ، استعبدوا البقية التي بقيت من المسلمين واعتصبوا أملاكهم ، واستعملوهم خولاً وخدماء مدة طويلة ، حتى اندمجوا في غمار الأمة الفرنسية وتوسيت أصولهم ، ولا يجوز أن ننسى أن الحرب قامت في أميركا من سنة ١٨٦٣ م إلى سنة ١٨٦٦ م من أجل تحرير العبيد ، وأن الأميركيين سكان جنوبي الولايات المتحدة ، حاربوا سكان شمالها مدة سنوات عديدة من أجل إصرارهم على استعباد السود ..

حكم الاسترقاق الشائع عند بعض المسلمين قديماً وحديثاً في الشرع

وأما حكم الاسترقاق الذي كان شائعاً في العصور السابقة فهو غير شرعي ، سواء ما كان منه في بلاد السود ، وما كان منه في بلاد البيض ، كبنات الجراكسة اللواتي كن يبعن في الأستانة جبراً من عصر قديم إلى ما قبل الدستور العثماني ، وكلهن حرائر من بنات المسلمين الأحرار ، ومع هذا كنت ترى العلماء ساكتين عن بيعهن والاستمتاع بهن بغير عقد نكاح ، وذلك من أعظم المنكرات ، حتى لو سألت عن حكم المسألة بعد شرحها له لأفتاك بأن هذا الاسترقاق محرّم إجماعاً . وربما قال لك : (وإن مستحل ذلك ~~ب~~كفر ، لأنه لا يعذر بالجهل) . وعلل ذلك بما يملون به مثله ، وهو أنه يجمع عليه ، معلوم في الدين علماً . يشبهه الضروري .

وكما كان يوجد هذا في الاستانة ، فهو قد كان يوجد في الحجاز أيضاً ، أعني انه كما كان يوجد في عاصمة الإسلام المدنية ، فكذا كان يوجد في عاصمة الإسلام الدينية ، والمسؤول عن هذه الفملة الشنعاء والغلطة القبيحة هم العلماء والأمراء الذين كانوا معاصرين إذ ذاك . والحق إن الاسترقاق يحتوي على مفسد كثيرة ، وإنه مناف لمحاسن الإسلام وحكمته العالية ، ولكنه قد كان مما عمت به البلوى بين الأمم ، فلذلك لم يمنع الإسلام منعاً باتاً ، ولكنه خفف مصائبه ، ومهد السبيل لئنه ، حتى إذا جاء وقت تقتضي فيه المصلحة العامة منعه ، مع عدم وجود مفسدة تعارض المنع وترجع عليه ، كان لأولي الأمر منعه ، فإن المصلحة أصل في الأحكام السياسية والمدنية ، يرجع إليه في غير تحليل المحرمات ، أو إبطال الواجبات .

زعم دعاة المسيحية بشأن تحرير الرقيق والرد عليه

زعم دعاة المسيحية ، بأن ما قام به الأوربيون في الزمن الأخير ، من « تحرير الرقيق » ، هو من آثار دينهم فيهم ، ولكن الحقيقة إن ذلك نتيجة الاشارات الرمزية ، التي وردت في القرآن ، وشجرة مكبرة ناجمة عن النواة التي غرسها القرآن ، في حقل حياة الإسلام ، وإلا فلماذا قضوا القرون العديدة ، في استعباد الناس ، على أشنع الأحوال؟! وقد علمت فيما مر ، أقوال رؤساء النصرانية في حق الأرقاء ، وأين هي من أقوال القرآن والأحاديث؟ وأين هذا من ذلك؟ ولم يهتم الدين المسيحي بشأن العبيد ، ويعطف عليهم ، كما عطف عليهم الإسلام؟ لم يأمر باستعمال الرقيق بهم واللين معهم ولو بجملة واحدة؟

سيقولون : إنه لم يأت ليسن شرائع ، أو ينسخ ما كان موجوداً منها - ونقول

في تنفيذ جوابهم : لِمَ حَرَّمَ الطلاقَ والتزوجَ بالملققة والتمدد في الزوجات ؟
أما كان يمكنه أن ينهى الناس من استعماك القسوة على الأقل مع أولئك الضعفاء ؟

هذا ، والحق يقال إن ما أتى به الاسلام في شأن الرقيق لم يأت بمثله دين على وجه البسيطة ، وإن « تحرير الرقيق » الذي اتفق عليه ملوك أوربا ، كان الإسلام قرره قبلهم ، لأن الرقيق الموجود اليوم ، ليس هو مضروباً عليه الرق ، في حرب دينية ، حتى يوافق عليه الاسلام ، بل هو من قبيل الاختطاف ، كما وقع مع يوسف عليه السلام ، وهذا النوع لا يقول به الإسلام ، ولو كان المسلمون في درجة الأوربيين مدنية وعلماً وقوة ، لكانوا أولى من ملوك أوربا ، في إظهار ما يعتقدون ، من تحريره ، ولأنه في عقيدتهم ، ليس رقيقاً شرعياً ، ولكن هكذا قضي أن يكون المسلمون حجة على دينهم .

وما أن نزل الشيخ محمد عن منبر الخطابة حتى تعالت الهتافات والتكبيرات في المؤتمر استحساناً لما قال .

الفصل الثالث

وصية عزيز مصر لامرأته يوسف

آ (٢١) : ﴿ وَقَالَ الَّذِي اشْتَرَاهُ مِنْ مِصْرَ لَامْرَأَتِهِ !
 « أَكْرَمِي مَثْوَاهُ ، عَسَى أَنْ يَنْفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا » ،
 وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ ، وَلِنُعَلِّمَهُ مِنْ
 تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ ... وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَى أَمْرِهِ ، وَلَكِنَّ أَكْثَرَ
 النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ... ﴾

افتتحت الجلسة وتليت الآية الحادية والعشرون فقام أمين الدين

الجرشي (١) وقال :

(وقال الذي اشتراه من مصر) المسمى « فوطيفار » ، وهو العزيز الذي كان
 على خزائن مصر ، في عهد الريان بن الوليد المالقي الهكسوسي ، قال (لامرأته)
 « زليخا » بلسان الالتباس (أكرمي مثواه) اجعلي منزله ومقامه عندنا كريماً ،
 أي حسناً مرضياً ، بدليل قوله : « إن ربي أحسن مثواي » ، والمراد تفقديه بالاحسان
 وتمهديه بحسن الملكة ، حتى تكون نفسه طيبة في صحبتنا ، ساكنة في كنفنا ،
 (عسى أن ينفعنا) إذا تدرّب وراض الأمور وفهم مجاريها ، نستظّر به على بعض
 ما نحن بسبيله ، فينفعنا فيه بكفائته وأمانته ، (أو نتخذه ولداً) نتبناه ونقيمه

(١) نسبة إلى جرش من بلاد الشام (شرقي الاردن) .

مقام الولد ، لأنه قيل إن فوطيفار كان عقيماً لا يولد له ، وقد تفرس في يوسف الرشد فقال ذلك . (وكذلك) الذي تقدم من إنجائه وعطف قلب العزيز عليه — والكاف في كذلك منصوب تقديره : ومثل ذلك الإنجاء والعطف — (مكنا ليوسف في الأرض) أي كما أنجينا وعطفنا عليه العزيز ، مكنا له في أرض مصر ، تمكيناً يليق بصلاحيته ما دام عند فوطيفار ، أي تمكيناً مقيداً بالتصرف في ممتلكات فوطيفار وأطيانه وعقاراته ، لأن يوسف صار وكيلاً مفوضاً عن فوطيفار في كل ماله ، أي وكيل دخل وخرج ، يتصرف في ذلك بأمره ونهيه ، فكان فوطيفار لا يعرف شيئاً إلا الخبز الذي يأكله ، كان ذلك لفوائد كثيرة تعود بالخير على يوسف (ولنعلمه) بإقامته ومكثه بمصر (من تأويل) أي مرامي ونتائج (الأحاديث) عموماً ، لأن مصر هي دار العلم والاستبصار بحيث من أقام بها ترقى واستنار قلبه ، وحصل ما لم يحصله في مثل فلسطين (والله غالب على أمره) على أمر نفسه ، لا يمنع عما يشاء ولا ينازع ما يريد ويقضي ، أو غالب على أمر يوسف ، يدبره ولا يكله إلى غيره ، قد أراد إخوته به ما أرادوا ، ولم يكن إلا ما أراد الله ودبره (ولكن أكثر الناس لا يعلمون) أن الأمر كله بيد الله .

(وقال الذي اشتراه من مصر لامرأته أكرمي مثواه)

— ١ —

وقام الشيخ الرمّي (١) وقال :

دخول بالفاري، الى المملكة المصرية الركبوسية

فوطيفار عزيز مصر

ينقسم تاريخ يوسف في غربته إلى قسمين : الأول تاريخ عبوديته ، والثاني

(١) نسبة الى الرمة من بلاد الشام (شرقي الاردن)

تاريخ حكمه على كل مصر . ونشرع الآن في القسم الأول :
أزل يوسف إلى مصر فاشتراه « فوطيفار » بواسطة بعض بطائه ، وكان من
رجال البلاط .

و « فوطيفار » هذا هو رئيس شرطة مملكة مصر ، وكان بالنسبة للملك
كوزير الدولة ، أو كنائب الملك ، وكان يلقب بـ « عزيز مصر » (آ ٣٠) وهذا
الاسم يدل على أن الرجل من المصريين الوطنيين الأصليين لأنه مركب من كلمتين
قبطيتين بتغيير قليل ، والأصل (فوطي فارغ) أي « مختص بالشمس » أو « موقوف
للشمس » والشمس هي من معبودات المصريين ، ومع ذلك فقد نصّ قدماء المؤرخين
على أنه كان مصرياً أي قبطياً ، لأنها لفظان مترادفان ، والفلاحون ينطقون بهذه
اللفظة بأصح مما نكتبها ، إذ يقولون « جبطي » أي (إيجيتي) أو مصري ، ومن
هذا الاسم اشتق الإفرنج كلمة (إيجيت) وهي لفظة يونانية في الأصل ، وعلى ذلك
فقوله تعالى « من مصر » يظهر أنه نعت « للذي » أو حال منه ، وهو الأرجح ،
لأن الجمل وما شابهها بعد المعارف أحوال .

ومن ألقاب هذا الرجل أيضاً « خصي » الملك ، ولفظة خصي تدل على وظيفة
لا على حالة شخصية ، لأنه كان متزوجاً ويعد في الخصي الحقيقي أن يتزوج ، وإغما
هذا اللفظ يطلق على من يكون رئيساً في البلاط وناظراً للحرم ، لأن الذين كانوا
يستخدمون لذلك جرت العادة أن يكونوا خصياناً حقيقة ، وقد كان عزيز مصر
ناظراً للحرم أيضاً ، ومما لا يجب أن ننساه أن اصطلاح حكومة مصر قديماً تسمية
جميع المأمورين فيها « عبيداً » لفرعون ، مع أنهم أحرار ، وكذا « خصياناً » مع
أنهم ليسوا مجبوين ، فكما أن تسميتهم « عبيداً » لا تنفي أنهم أحرار ، فكذا
تسميتهم « خصياناً » لا تنفي أنهم كاملوا الخلقة فأفهموا ...

(وقال الذي اشتراه من مصر لامرأته أكرمي مثواه)

- ٢ -

وقال الحافظ الترماني (١) :

حياة يوسف المادية:

كان فوطيفار قد عرف بوجه الإجمال أن هذا العبد عبراني ، من نزل فلسطين ، ولكن لم يعرف ابن من هو؟ ولا السلالة التي ينتسب إليها ، وأيضاً هو لم يسأله عن ذلك ، لأن هذا الأمر لا يهيمه كثيراً ، لأن العبرانيين كانوا في فلسطين جماعة غرباء نزلوا ، وهم على دين التوحيد ، الذي يغير دين الوثنية الذي كان إذ ذاك دين أهل مصر ، وأيضاً فقد كان يوسف في ذلكم الحين صغيراً ، وإذا فلا مناسبة بين يوسف وبين فوطيفار لا في الوطنية ولا في العنصر ، ولا في الدين ولا في السن ، ولا في الجاه ولا في المركز الاجتماعي ، فلهذه العلل ونحوها لم يعثر فوطيفار في التعمق والبحث عن حاله .

فلما اشتراه أدخله على عقيلته وكان اسمها « زليخا » على المشهور ، أو « راعيل » على ما قيل ، وكان والدها من أولاد ملوك القبط — قال لها فوطيفار : « يا أمة الله ، لقد عثرنا على ضالتنا المنشودة ، إذ اشترينا هذا الغلام العبراني الوديع الحديث السن ، وإني أقترح عليك شيئاً ، لي ولك فيه فائدة ، أكرمي مثواه ، واجعلي له امتيازاً خاصاً فوق ما لسائر العبيد الذين في خدمتنا ، وليكن عندك ضمن البيت تحت جناحك مرفهاً مسروراً ، ولا تخرجيه ، عسى أن ينفعنا غداً ، وإن غداً لناظره قريب ، أو نتخذة ولداً في مستقبل الأيام ، فها هو عمره نحو (١٧) سنة ،

(١) نسبة الى بلدة ترمانيين من البلاد السورية .

وعما قريب ينظم في سلك الشبَّبة فيصلح لتعزيدنا، فاعطني وتحدي عليه، وعامله بالدائمة والبشاشة .

وإنما قال لها ذلكم ، لأنها هي صاحبة الحول والطول في البيت ، وهي الآمرة الناهية ، وقد قالوا : إن عقيلة الرجل في البيت تعتبر كناظر داخلية ، ضمن دائرة الآداب والاخلاق الشرعية ، كما يعتبر هو كناظر خارجية بالنسبة لأشغاله البرانية، وعلى هذا الوجه — من تقسيم الاعمال — تم الفائدة ، وتستتب الراحة للزوجين معاً .

لذلك هو يقول لها : « انعميه اليوم ينفعنا غداً ، لا نغني عنه شيئاً من نوالك ، بل اجعلي له في البيت المقام الأول بين عبيدنا ، وهيتيه وأهليه للقيام بمصالحنا في المستقبل ، وأديه وأرشديه ، لما يكفل له النبوغ والثقافة، نعم نحن فزنا بأشترائه ، ولا سيما بذلك الثمن الذي لا يذكر ولا يساوي حذاء نعله ، لكن الفوز الأكبر إنما يكون بثقيفه وتأديبه وتأهيله أن يكون عضواً عاملاً معنا ، وساعداً قوياً لنا في المستقبل ، فهذا هو الذي يضمن لنا الفوز بكل معنى الكلمة » .

وأما هي فقالت في نفسها : (نِعِمًا فعل ، وحبذا ما قال) لأنها لما رأت يوسف أحبته حباً لا مزيد عليه لما رأت فيه من جمال الخلق والنفس . فهذه الآية تفيد أن عزيز مصر 'عني به ، وقدم له كل ما يلزم للصغير جسدياً وأديباً ، حتى وصل لسن الرشد ، وقوله تعالى بعد ذلك ﴿ ولما بلغ أشده آتيناها حكماً وعلماً ﴾ (آ ٢٢) يفيد أن يوسف حينما بلغ مبلغ الرجال ، أرشده الله ووفقه لكل ما فيه غموه روحياً ، فرمى مجموع الكلام أن الأرض والسماء 'عنيبتا بيوسف ، عنيت الأرض بكفالاته وتربيته وتثقيفه وغموه ، مادياً وأديباً ، وهذه هي المدرسة الابتدائية التي تعلم فيها العالم الابتدائية منذ ما كان عمره (١٧) سنة الى أن بلغ أشده ، ولما بلغ أشده 'عنيبت السماء بإرشاده وتوفيقه وتعليمه الحكمة والعلم وغموه روحياً ، وهذه هي

المدرسة الثانوية ، التي تعلم فيها العلوم العالية ، وأما مدرسته عند أبيه ، فكانت عبارة عن « بستان أطفال » .

مصر أيام يوسف

وأما مصر أيام يوسف ، فهي مدينة « صوعن » ويقال لها « تانيس » ، وهي التي كانت عاصمة المملكة للسلالة السابعة عشرة من سلاسل الهكسوس الثالث ، وهي في بحرية مصر الحالية ، ويسمى اليونان « طانس » وتسمى اليوم « صان » ، وكانت على فرع النيل الطائي ، وإلى شرقها سهل متسع يسمى بلاد « صوعن » ، وهذا السهل هو البلاد الشرقية ، بلاد « جاسان » التي سكنها بنو اسرائيل ، (فصوعن) هي عاصمة مصر السفلى ، أيام الرعاة ، وبسط المقام إن كلمة « مصر » بحسب الأصل عبارة عن وادي النيل ، وقد تطلق هذه الكلمة ويراد بها خصوص العاصمة ، وعاصمة مصر السفلى في ذلك العصر الهكسوس كانت (صوعن) فإذا أريد من كلمة « مصر » في هذه الآية خصوص تلك العاصمة ، كان اللفظ مجازاً ، من قبيل تسمية الجزء باسم الكل ، وهذا كما يطلقون اليوم كلمة « مصر » على خصوص « القاهرة » عاصمة مصر اليوم ، وكلمة « الشام » على « دمشق » عاصمة الشام اليوم .

ومما يجب أن يعلم أن « مصر القاهرة » إنما بنيت ووجدت أيام « معز الدين الفاطمي » (سنة ٣٥٠ ب. هـ) بيد جوهر الرومي القائد .

(حسن جداً)

(وقال الذي اشتراه من مصر لامرأته أ كومي مشوا٥٥)

- ٣ -

وقال السيد الكلسي (١) :

شيء جديد عن حياة يوسف

انتقل يوسف الآن إلى طور آخر من أطوار الحياة ، ولم يعد ذلك الإنسان المبهين المثوى ، ذلك الانسان الجالس في « سوق الرقيق » ذلك الانسان المزهود فيه ، لا .. لا .. بل صار ذلك الانسان الكريم المثوى ، ذلك الانسان المقيم في قصر « العزيز » مرغوباً فيه ، محبباً مرجوئاً .

وبهذه المناسبة يخالج نفسي بضع مقولات لها علاقة بهذا البحث أرجو أن تلقى أذنأ صاغية من حضراتكم :

مصر مهبط الأنبياء والأولياء

المقولة الأولى — بمناسبة رحلة يوسف الصديق إلى مصر. نقول إن مصر كانت مهبط الأنبياء والأولياء من القرون الأولى ، إليها قدم إبراهيم الخليل وزوجه سارة في فجر التاريخ ، وفيها بلغ يوسف شأوه الأعلى وتولى خزائن البلاد ، وإليها هاجر أبوه يعقوب ومعه أسرته جميعاً ، وفيها تكاثرت بنو إسرائيل ، وفيها ولدت هرون وموسى ، وإليها قدم المسيح في طفولته مع أمه ورجلها يوسف النجار — فيما يقولون — وفيها مراقد آل البيت النبوي الشريف — حسب المشهور —

(١) نسبة إلى كلس وهي اليوم في بلاد الأتراك ..

وفيها أثر النبي موسى في كنيس الاسرائيليين بمصر القديمة ، فان الاسرائيليين يعتقدون أن النبي موسى أدى فرائض الصلاة في هذا المكان ، وفيها الامام الليث ابن سعد ، والامام محمد بن إدريس الشافعي ، فأرضا غنية بتلك الذكريات الدينية والآثار المقدسة..

منزلة المرأة عند قدماء المصريين وعند الشرقيين

المقولة الثانية - يظهر من الآية الكريمة أن المصريين في ذلك العصر - وهم شوقيون - كانوا يحترمون (المرأة) ، ويعتبرون أنها ذات الحول والطول ومصدر العمل البيتي ، وأنها ليست في بيتها متاعاً لا قيمة له ، ولا أنها في البيت (أداة) غير عاملة ، ولا أنها فيه تحت رحمة زوجها ، مسلوبة الحرية والإرادة ، بل إنها كانت عاملة آمرة ، ذات سلطان ، ولها قيمة معترف بها ، نعم . نعم . لقد كان للمرأة عند المصريين القدماء مقام ممتاز ، فكانت تعقد العقود ، وتقوم بالأعمال التجارية ، وتنتهك في الأمور السياسية ، ويقول بعض العلماء : « إن الله عندما أراد أن يخلق حواء من آدم ، لم يخلقها من عظم رجله ، لئلا يدوسها ، ولا من عظم رأسه ، لئلا تسود عليه ، ولكن خلقها من ضلع من أضلاعه ، لتكون مساوية له ، قريبة من قلبه » ، وقال آخر : « المرأة حلقة عظيمة في سلسلة الحياة الوطنية ، وهي أعظم شأناً وأهم عملاً من الرجل المدرّب ، ومن مدير الأعمال العظيمة ، ومن الاستاذ في العلوم والفنون » وقال ثالث : « المال كله من الرجل ، ولكن كله للمرأة » .

وغني عن البيان أن فوطيفار شرقي ، وقد لفظ بالوصاة الأنفة الذكر إلى قربنته زليخا ، التي تشف عن لعتبار (المرأة) ، ومن ههنا نعلم أن الغربيين يظلمون الشرقيين في زعمهم أن الشرقي كان ولا يزال ينظر إلى المرأة نظرة استخفاف أو إهانة ، فإننا نرى هذه الآية تفيد عكس ما يزعمون ، فهي تشير إلى أن (الشرقي)

كان يحترم المرأة ويراعي عواطفها ، وربما أكثر من الغربي ، فالغربي ، اليوم معها بلغ من احترام المرأة ، ومهما حرص على مراعاة إحساساتها ، لا تراه يتنازل لدرجة أنه إذا استأجر خادمة مثلاً يقول لامرأته : « أكرمي مثواها » ولو فرض أنه تنازل وقال لها ذلك ، فهو يقوله قولاً جامداً جافاً خالياً من بيان العلة ، ولا يرى نفسه في حاجة أن يذكر لزوجته علة إكرام تلك الخادمة ، كما فعل هذا الشرقي فوطيفار .

منزلة المرأة عند العرب

وهكذا كانت معاملة أكثر العرب للمرأة ، إذ أن من أسمائها عندهم (أم المثنوى) ، وفي الحديث الشريف : « المرأة سيدة بيتها » و « رفقا بالقوارير » يعني النساء « والمرأة في بيت زوجها راعية وهي مسؤولة عن رعيتهما » ، وإننا إذا أردنا أن نستقي معاملة رجال العرب لنسائهم ، وجب علينا مراجعة أشعارهم التي هي ديوان أخبارهم ، فنرى أنهم كانوا ينظرون إلى المرأة نظراً احترام ، فقد كان الرجل إذا أراد أن يتمدح بما له في نظر العرب من المقام السامي ، ومن الكرم والشجاعة لم يكن يخاطب في أكثر أوقاته إلا (المرأة) التي إن ترقى في نظرها ، فقد رضي عنه كل الناس ، وترى ذلك واضحاً جلياً في أشعار حاتم الطائي شيخ الكرام ، وعترة العبيسي شيخ الشجعان ، ثم انظر إلى أي شجاع من العرب هل كان يفتخر إلا محدثاً امرأة من قومه بأنه المدافع عن الشرف ، الحامي للحقيقة ؟ ترى العربي إذا عدلته المرأة على السرف ، وأشارت عليه بالقصد ، يجيها بأرق ما يجيب به مخالف في الرأي فيقول :

ألم تعلمي يا عمرك الله - أني كريم على حين الكرام قليل

ويقول المفتخر بالشجاعة :

هلاّ سألتِ الخيلِ يا ابنة مالك إن كنتِ جاهلة بما لم تعلمي ؟

أو لا ترى أن جميع الشعراء إذا بدأوا قصائدهم التي بها يفتخرون بمحامد قومهم ، وعظيم أعمالهم ، لا يذهبون إلى شيء من ذلك حتى يعطوا (المرأة) قسطها مما تحب من النسب أو الغزل ، ويرون أن شعرهم بدون ذلك يفقد الطلاوة المقبولة . وتراهم حيناً يخاطبونها . وهي ذات زوج يلقبونها بخير الألقاب ، فيقول أحدهم :

ياربة البيت قومي غير صاغرة ضمي إليك رجال القوم والقربا!

فإعطاؤها هذا اللقب الجميل يشعر بما كان لها في النفس من سمو الدرجة .
ويقول الآخر لزوجها :

سلي الطارق المتز - يأمّ مالك - إذا ما أتاني بين قدرى ومجزري
أيسفر وجهي وهو أول للقرى وأبذل معروفى له دون منكري

فلا يناديها إلا بكنيتها ، وهذا من سمات التشريف في عرفهم .

وقال ابن الميث :

لا تعذليّ فيما ليسَ ينفَعُني إليك عني جرى المقدار بالقلم
سألتف الحالَ في عُسروفي يُسر إن الجواد الذي يعطى على العدم

وبالجملة فإن المتبع لأشعار العرب لا يشتم منها رائحة الصغار والإهانة للمرأة بل بالعكس يجد فيها علائم التجلة والتشريف وتراهم يفتخرون بنسبتهم إلى أمهاتهم ، كما يفتخرون بنسبتهم إلى آبائهم ، وترى الواحد منهم يتكفى بأول مولود يرزقه ، لا يفرق بين ذكر وأُنثى ، وقد عرفنا كثيراً في عرب « بئر السبع » ممن يتكفى باسم بنته ، فيقال له « أبو زنب » ، ويقال لآخر « أبو مبروك » ، وكانت المرأة عند

العرب ، إذا أرادت فرقت ، وإن شاءت جمّعت ، وإن اتجهت عواطفها للسلام سمعت إليه ونجحت ، وإن كانت وجهتها لإرادة الانتقام والشر ، أشعلت النار بين الأحياء .

وإليك هذه الحكاية التاريخية التي هي عجيبية في بابها ، وعجيبية جداً :

قال «الحارث بن عوف المرثي» ، «لخارجة بن سنان» في إبان الحرب بين عبس وذيان : «أتاني أخطب إلى أحد فيردني ؟ - قال : نعم ، «أوس بن حارثة الطائي» - فقال الحارث لعلامه : هيء لي مركباً ، ثم ركب هو و غلام ، ومعها «خارجة» حتى أتيا «أوساً» ، فوجداه في داره ، فلما رأى (الحارث) رحب به ، وسأله عن مجيئه ، فقال : جئتك خاطباً - فقال «أوس» : لست هناك ، فانصرف الحارث ولم يكلمه ، ثم دخل أوس على امرأته مفضباً ، وكانت من «عبس» ، فقالت له : من الرجل الذي وقف عليك فلم تطل ولم تكلمه ؟ - قال : ذاك سيد العرب «ابن عوف» - قالت فما لك لم تستزله ؟ - قال : إنه استحمق ، جاءني خاطباً - قالت : أفتريد أن تزوج بناتك ؟ - قال : نعم - قالت : فإذا لم تزوج سيد العرب فمن ؟ - قال : هكذا كان ، - قالت : «فتدارك ما كان منك ، فالحقه وقل له : إنك لقيتني ، وأنا مفضب ، وكنتني بأمر لم تجعل له بساطاً قبل ذلك ، فلم يكن عندي من الجواب إلا ما قد سمعت ، فارجع إليّ ، ولك عندي كل ما أحببت ، فإنه سيوافيك ، ففعل ذلك «أوس» ، ورد «الحارث» ، فلما وصلوا إلى بيت أوس ، قال أوس لزوجته ، ادعي لي فلانة ، لكبرى بناته ، فأنته ، فقال : يا بنية ، هذا «الحارث بن عوف» ، سيد من سادات العرب ، وقد جاءني طالباً خاطباً ، وقد أردت أن أزوجه منك ، - فقالت : لا تفعل ، لأنني امرأة في وجهي ردة (١) ، وفي خلقي بمض المهددة (٢) ، ولست بابنة عمه ، فيرعى رحمي ، وليس

(١) الردة بثور فيها قبح (٢) المهدة ضعف في العقل .

بجارك في البلد ، فيستحي منك ، ولا آمن أن يرى مني ما يكره فيطلقني ، فيكون عليّ في ذلك ما فيه . — قال : قومي بارك الله فيك ، ثم دعا الوسطى ، فأجابته بمثل جوابها ، وقالت : إني خرقاء ، وليست بيدي صناعة ، ولا آمن أن يرى مني ما يكره فيطلقني ، فيكون عليّ في ذلك ما تعلم ، ثم دعى الثالثة ، وهي صفراهن ، فلما عرض عليها قالت : « أنت وذاك » ، فأخبرها بإبائه أختها ، فقالت : « لكني والله الجميلة وجهاً ، الصناع يداً ، الرفيعة خلقاً ، الحسبية أباً ، فإن طلقني فلا أخلف الله عليه بخير » ، فزوجها الحارث ، وهيئت إليه في بيت أبيها . فلما خلاها ، وأراد أن يمد يده إليها ، قالت : « مه » أعند أبي وإخوتي ؟ هذا والله مالا يكون ؛ فارتحل بها حتى إذا كان ببعض الطريق ، أراد قربانها ، فقالت : أكا يفعل بالأمّة الجليلة ، أو التسيّة الأخيذة ؟ . لا والله حتى تنحر الجزر ، وتذبح الغنم ، وتدعو العرب ، وتعمل ما يعمل لمثلي ، فرحل حتى إذا وصل ديار قومه ، أعدّها لها ما بعد لمثلها ، فلما أراد قربانها قالت له : أتفرغ لنكاح النساء ، والعرب تقتل بعضها ؛ اخرج الى هؤلاء القوم ، فأصلح بينهم ، ثم ارجع الى أهلك ، فلن يفوتك ؛ فخرج « الحارث » مع « خارجة بن سنان » ، فأصلحا بين القوم ، وحملوا الديات ، وكانت ثلاثة آلاف بعير ، مقسطة على ثلاث سنين .

فهذه الحكاية تدل على مكانة (المرأة) في نظرهم ، ومشاركتها لهم في جميع أمورهم ، وتبين كيف كان الرجل لا يزوج بناته ، إلا بعد أن يستشيرهن ، ثم يقف عند إرادتهن ، نعم ، نحن لا يمكننا أن ندعي أن هذا كان أمراً عاماً عندهم ، بحيث تكون (المرأة) محترمة الجانب في جميع الطبقات ، تعامل هذه المعاملة من جمهور الأمة ، ولكن الذي يمكننا أن نقوله : هو إن ظهور هذه المعاملة على السنة الشعراء الذين هم بمثابة لسان حال الأمة من غير أن يقابلوا بالكبير ، يدل على أنه لم يكن عندهم بدعاً من العمل ، بل كان شيئاً معهوداً لا تنفر منه طباعهم .

يوجد بيننا حقيقة من يحترم المرأة احتراماً جماً ، ولكن لا يجسر أن يخالف التقاليد العامة يوماً ما ، فيكتب في إحدى الجرائد : قلت لامرأتي ، واستشرت امرأتي في زواج بنتي ، فكان مني ومنها كيت وكيت ، ولا يجسر أحد أن يقول على صفحات الجرائد : لا تلوميني يا امرأتي على بذلي الأموال لأتني طبعت على الكرم ، أو يقول : قومي ياسيدة بيتي مرجوة غير مأمورة ، هيئي لنا الطعام مثلاً . كما وقع كل هذا من العرب ، فنحن نعلم يقيناً أن شخصاً لو قال شيئاً من هذا القبيل ، لقابله النفوس بالاستنكار ، لأنه ليس من مألوفات عادات القوم ، ومن ذلك يمكننا أن نقول : إن المرأة الشرقية كان لها من حرية الإرادة ونفاذ القول القسط الوافر .

منزلة المرأة في الاسلام

والشريعة الاسلامية هي الشريعة الوحيدة التي رفعت شأن النساء وأعطتهن حقوق الاستقلال التام في التصرف بأموالهن ، وساوت بينهن وبين أزواجهن في أكثر الاحكام بالمعروف ، إلا رياسة المنزل وزعامة الأسرة ، وقد هتف القرآن بمجد المرأة قائلاً : ﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا ، لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا ، وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً ﴾ (٣٠ : ٢١) وان كلمة وجيزة من كلمات القرآن الحكيم في ذلك ، لأبلغ من كثير من الأسفار التي الفت في المطالبة بحقوق النساء أو ما يسمونه « تحرير المرأة » ، الا وهي قوله عز وجل : ﴿ وَلَهُنَّ مِثْلُ الَّذِي عَلَيْهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ ﴾ (٢ : ٢٢٨) وأما قوله : ﴿ وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ ﴾ (٢ : ٢٢٨) فإنما هي درجة القوة ورياسة البيت التي أعطيت للرجل بحق ، لأنه أقدر على الكسب والحماية ، وهو المطالب بجميع النفقة ، وقال تعالى : ﴿ وَعَاشِرُوهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ ﴾ (٤ : ١٨) .

كما ذكر في آية أخرى ساوى بينها وبين الرجل في جميع الأوامر والنواهي الدينية : ﴿ إن المسلمين والمسلمات ، والمؤمنين والمؤمنات ، والصادقين والصادقات ، والصابرين والصابرات ، والخاشعين والخاشعات ، والمتصدقين والمتصدقات ، والصائمين والصائمات ، والحافظين فروجهم والحافظات ، والذاكرين الله كثيراً والذاكرات - أعد الله لهم مغفرةً وأجرًا عظيماً ﴾ (٣٣ : ٣٥) ، وقال جل ثناؤه : ﴿ إني لا أضيع عمل عامل منكم من ذكرٍ أو أنثى ﴾ (١٩٥ : ٣) فعلم الرجل أنها مثل له في الآخرة ، كما هي في الدنيا ، ولا امتياز بينها في ذلك ، ويقول تعالى في الزوجين : ﴿ فإن أرادا فصلاً عن تراضٍ منها وتشاورٍ ، فلا جناحَ عليهما ﴾ (٢ : ٢٢٣) . إذ اعتبر في إرضاع الولد وفظامه تراضي الوالدين وتشاورهما ، ولم يكتب برأي الزوج فقط ، ولا يخفى ما في هذه الآيات الكريمة وغيرها من اعتبار المرأة واحترام حقها ، ومعاملتها بالاحسان والمعروف ، وقد اهتدى كثير من الأمم ، بيمض هدي هذه الشريعة ، في هذه المزية ، ولم يبلغ أحد منهم شأوها ، ولكن أهلها قصرُوا في إقامتها ، حتى صاروا - مع الأسف - حجة عليها عند من يجهلها .

وفي الحديث الشريف : « أكمل المؤمنين إيماناً ، أحسنهم خلقاً ، وألطفهم بأهله » وفيه « خياركم خياركم لنسائكم » ، وفيه أيضاً « استوصوا بالنساء خيراً » وفيه « المرأة راعية في بيت زوجها ، وهي مسؤولة عن رعيتها » ، وفي لفظ « المرأة سيدة بيتها » .

ومن أعجب المصادفات أن ينمقد بجمع « ما كون » في « فرنسة » في زمن النبي ﷺ أي في سنة ٥٨٦ ميلاد المسيح ، ويبحث هل المرأة إنسان ؟ .. هل لها نفس ؟ ... ثم قرر ان لها نفساً وانها إنسان ، لكنها خلقت لخدمة الرجل ، ولم يكذب صدر قرار الجمع هذا ، حتى نقضه النبي ﷺ في الحجاز ، ورفع صوته

قائلاً: «إنما النساء شقائق الرجال» وقائلاً: «يغلبن كريماً ويغلبن لثيم» ثم لم يكن احترامه ﷺ للنساء والحض على احترامهن بالقول فقط، بل دعم ذلك بالفعل، إذ أنه كان ﷺ يضع ركبته على الأرض، لتضع زوجته عليها رجلاًها إذا أرادت أن تركب، وهذا أبلغ ما يكون في الاحترام وحسن المعاملة.

وحكى لنا المؤرخون ومنهم ابن جرير، أنه استأذن رجل على «عمر» (ض) فدخل بيته وقت الغداء، فقال عمر: (يا أم كلثوم غداءنا)، فأخرجت إليه خبزة بزيت، في عرضها ملح لم يدق فقال: يا أم كلثوم، ألا تخرجين إلينا، تأكلين معنا من هذا؟.. - فقالت: إني أسمع عندك حس رجل - قال: نعم ولا أراه من أهل البلاد - قالت: لو أردت أن أخرج إلى الرجل لكسوتي، كما كسا (ابن جعفر) امرأته، وكما كسا (الزبير) امرأته، وكما كسا (طلحة) امرأته - قال: أو ما يكفيك أن يقال: أم كلثوم بنت علي بن أبي طالب، وامرأة أمير المؤمنين عمر؟ ثم قال للرجل: «كُلْ»، فلو كانت راضية لأطعمتك أطيب من هذا.

فهذه الحادثة تبين كيف كانت (المرأة) في صدر الإسلام، فقد كانت أم كلثوم صاحبة الرأي الأعلى في بيت أمير المؤمنين، وكانت المرأة تتكلم في شأن نفسها، كما يتكلم أعظم الرجال نفساً، ولي الشرف أن أقول ذلك كشرقي يدافع عن شرفه بأنه يحتقر المرأة والعاذ بالله.

(تصفيق حاد من المقصورة التي فيها السيدات)

أخطاء فوطيفار

المقولة الثالثة - طلب فوطيفار من زليخا العناية بيوسف، لأن للمرأة في بيتها - الذي هو مملكة صغرى - إدارة وزارة الداخلية والمعارف، كما ان للرجل

إدارة وزارة المالية والأشغال العامة والتجارة والحريية والخارجية - مع الرئاسة العامة - ، المرأة رقيقة وصابرة على التربية ، فلذلك يجب أن تكون هي مدبرة المنزل ، ومع كون المرأة هي الكافلة للطفل أو العبد الصغير ، فالرجل هو الكافل للمرأة ، وهو سيد المنزل الأعلى ، لقوة بدنه وعقله ، وكونه أقدر على الكسب والدفاع ، ولذلك زاه الآن هو (الأمر) للمرأة .

وبعد هذا كله ، واستندرا كآ على ما مرّ ، فنحننا أن فوطيفار أخطأ فيما عمل من ثلاثة وجوه :

أولاً - إحالة إكرام يوسف على تلك المرأة الناعمة حليلة زوج لا يأتي النساء ، بحال أن هذا العبد العبراني ، كان أبدع سطر خطته يد القدرة الالهية في لوح الوجود ، ولم تنمقد المناطق على مثل قوامه رشاقة واعتدالاً ، ولا اشرفت الشمس على مثل وجهه حسناً وبهاء ، فكان ينبغي لفوطيفار ، إحالة إكرام مثواه للخدمات والقهرمانات اللاتي في القصر ، وفي وصية « علي بن أبي طالب » كرم الله وجهه لابنه « محمد بن الحنفية » : « لا تمكن المرأة من الأمر ما يتجاوز نفسها ، فان المرأة ربحانة ، وليست بقهرمانة » .

ثانياً - مسألنا السفور والاختلاط الموجودين في القصر فيها أساسات كل بلاء .
ثالثاً - إباحة الخلوة ، فمجموع هذه الأمور الثلاث شكّل سبباً نشأ عنه سهولة مراودتها له عليه السلام .

وهنا أتذكر ما كان أنشد فيه صديقي السيد حبيب العبيدي مفتي الموصل قال:

أولو العلم خانوا ، واستبد أولو الأمر

وظنت جيلاً جهاربه الخدر

ثلاث جرائم عبثت بأمة

وقفن بها طبعاً على حافة القدر

ولو أن أمراء المصريين ، ومنهم فوطيفار ، ولو أن علماء مصر ، ومنهم كهنتها رجال الدين ، ولو أن نساءها ومنهن زليخا امرأة العزيز - لو أن هؤلاء الجرائم الثلاث ، التزموا طريق الهدى ، وقاموا بواجبهم في مثل هذه الحادثة ، فمنعوا استرقاق الأحرار واستخدام الشبان داخل البيوت ، لما وقع هذا الحادث وأمثاله .

المثوى

المقولة الرابعة - المثوى والثواء والمحلّ والمأوى والمغنى والمنتدى والمتبوء أو المباءة والمكان والمرس والمقام والنزل والسكن والنادي والتديّ - كلها تقريباً بمعنى واحد ، فمعنى « أكرمى مثواه » اجعلي منزله ومقامه عندنا كريماً ، أي حسناً مرضياً ، بدليل قوله : « إنه ربي أحسن مثواي » والمراد تفقديه بالإحسان وتعديده بحسن الملكة حتى تكون نفسه طيبة في صحبتنا ، ساكنة في كنفنا ، ويقال للتزبل : كيف أبو مثواك وأم مثواك ؟ يُسأل بذلك أصحاب البيت الذي نزل فيه يراد هل طابت نفسك بثوائك عندهم ، وهل راعوا حق نزولك بهم ؟

مرادفات كلمة مصر

المقولة الخامسة - يقال لمصر « أم خنثور » والخنور الداهية والنعمة ضد ، و « الكنانة » ، و « مصرايم » أخذاً من مصرايم بن حام ، ويقال لها « أرض حام » و « رهب المتكبر » ، وأما اسمها القبطي فهو « خيمي » أي أسود ، أخذاً من لون تربتها .

وأما كلمة « ايجيت » اللاتينية ، فأخوذة من لفظ « القبط » أو بالعكس .

(مرحى مرحى)

(هي أن ينفعنا أو نتخذه ولداً)

— ١ —

قال حمدي باشا الانطاكي (١) :

وصية فوطيفار لزوجته

تقرس فوطيفار في يوسف فوجد أن له غنَاء فيما يسند إليه ، وكفاية فيما يقلد إياه ، فكان يتنازعه عاملان ، قائمان عنده مقام الاحتمال ، فهو يتراوح بينهما ، وهما فكرة اتخاذ يوسف كخادم ممتاز ، وفكرة تبنيه ، فلذلك يوصي زوجته زليخا به قائلاً : ما أحوجتنا إلى خادم كهذا الغلام ، وما أحوج هذا الغلام إلى أناس مثلنا ، ليس لهم ولد ، يعيش عندهم بالراحة والرفاه ، وتعلمين إنه لا تتكون أخلاق الفتي في عهد طفولته . أو في عهد شيخوخته ، بل في عهد شبابه ، فإذا رببته تربية حسنة ، وكفلتِه كفالة صالحة ، وهذبته تهذيباً حسباً أريد منك ، بعد قليل من الزمن نجد فيه عبداً خادماً أميناً ، يقوم بمصالحنا ، ويحمل عنا شيئاً من أعباء هذه الحياة ، أو نجد فيه لنا ولداً مطيعاً ، نكون بجانبه كأب وأم ، ويكون لنا قرة عين في الحياة ووارثاً وذكرأ بعد المات ، بحيث يحسب من أسرتنا ، وله ما للولد من الإرث والنصر والمحبة ، وعلى أولاد الصلب السلام .

ويلاحظ أن فوطيفار لم يكتف بتوصيته زوجته وصية مجردة عن الحكمة والعلّة ، بل أردفها بأن بين لها السبب الدافع له على هذا الأمر ، وهو لطف منه

(١) نسبة الى انطاكية من بلاد الشام (سورية).

ينبئ عن أن المصريين - ولا سيما كبارهم - كانوا أهل لطف مع أزواجهم ، أهل لين ورفق ، حتى إذا أرادوا منهن شيئاً ، لم يقتصروا على الأمر الجاف اليابس ، سواء أَوَفَيْهِنَّ حِكْمَةً أم لا ، بل كانوا يبينون لهن علته وثمرته ، وهذا من الواجبات الأدبية الاجتماعية .

يوسف وكيل فوطيفار

وقد تمّ ما توّسه فوطيفار في يوسف بأجلى مظاهره فإن يوسف نفع فوطيفار نفعاً عظيماً ، فنجح في بيت سيده نجاحاً باهراً ، وكان الله معسه في كل ما يفعل ، بالتوفيق والسداد ، وكان علة بركة ونجاح لسيدته ، فوكتله على جميع أمور بيته ، ودفع ليده كل ما كان له ، فحصلت من جراء ذلك البركات في واردات فوطيفار ، وتدفقت لأجل يوسف الخيرات ، ثم نفعه وعقيلته بساوكه معها بالأمانة والشرف والطهارة ، وعدم خيائته له في عقيلته ، ثم إنه قام بنفع عام حينما أسند لهديته « نظارة بيت المال » بمصر ، وصار « عزيزاً » يخدم بذلك مصر والمصريين ، وأخيراً نفع المصريين بما أجرى الله على يديه من هداية وارشاد ، إذ أرسله الله إليهم نبياً ورسولاً (٤٠ : ٣٤) .

امرأة العزيز تنفذ وصية زوجها يوسف

وأما زليخا زوجة فوطيفار ، فقد عملت بوصاة سيدها ، وأكرمت يوسف أيها الأكرام ، ورفهته أيها ترفيه ، ولكن ربما كان في ذنبك الإكرام والترفيه ، يد خفية للفرام المنبعث في أنحاء نفسها ، سيما لأنها حينما نظرت إلى يوسف ، وقع من نفسها ، وملك عليها جميع مشاعرها ، وحل من قلبها محلا لم يحله أحد من قبل ، نظرته فاذا هو حسن الصورة بحيث ما كانت تظن أن الأرض تنبت مثله ، نظرته

فإذا هو صبيح مع جاذب وحلاوة بندران في البيض ، ولهذا وقع كلام سيدها في أذنها وقوع الماء على قلب الظمآن ، برداً وسلاماً ، وكأني بها قالت له : ليك ليك أمرك مطاع ، ووصاتك نافذة .

وقد اغتبطت زليخا بتلك الصلة التي نشأت بينها وبين هذا الفتي العبراني ، بوجوده في قصرها كعبد وخدام لها ولسيدها ، وبودها لو استحالت تلك الصلة إلى صلة أخرى غيرها ، أدنى إلى نفسها وألصق بفؤادها . ولكن لطهارة هذا الفتي العبراني وعفته لم يتم لها ما أرادت .

وهنا لا بد لي من الجهر قبل مغادرة هذا المنبر الحر بأن أخالف بعض إخواني المحاضرين في كلمة ، وهي أن تسليم سياسة الخدم والعبيد لسيدة البيت هو أساس التعب والبلاء ، وعندني أن المسئول عن حادثة « زليخا » المشؤمة والسبب لها ابتداء هو سيدها « العزيز » وهكذا يخطيء ذوي البيوتات الكبيرة في إباحتهم اختلاط خدمهم وعبيدهم لا سيما البيض بنسائهم فهو أمر مخالف للدين والشرف والمروءة ، رضوا بهذا التعبير أم غضبوا ، فرضاؤهم شرف وغضبهم شرف !!

(عسى أن ينفعنا أو نتخذه ولداً)

— ٢ —

وقام عبد الكريم الادلي (١) وقال :

سأقتصر الكلام هنا على أمرين :

المقصد من استعمال حرف «أو» في قوله «أو نتخذه ولداً»

الأمر الأول - هو ان حرف (أو) في قوله «أو نتخذه ولداً» ليس لمنع

(١) نسبة الى ادلب من بلاد الشام (سورية)

الجمع ، بل لمنع الخلو ، كما في قولك : « جالس الحسن أو ابن سيرين » ، أي لا يخلو من أحد هذين الأمرين ، فلا ينافي أنه يجوز اجتماعها فيه في آن واحد ، فقد ينفعهم مع اتخاذهم إياه ولداً .

الظهار والتبني عند المصريين وفي الإسلام

والأمر الثاني - هو أن عبارة « أو تتخذه ولداً » ظاهرة في أن التبني كان مشروعاً عند المصريين ، كما كان عند العرب قبل الإسلام ، وفي صدر منه ، ثم نهى عنه الإسلام وحرمه ، قال تعالى : ﴿ مَا جَعَلَ اللَّهُ لِرَجُلٍ مِنْ قَلْبَيْنِ فِي جَوْفِهِ ، وَمَا جَعَلَ أَزْوَاجَكُمُ اللَّائِي تُظَاهِرُونَ مِنْهُنَّ أُمَّهَاتِكُمْ ، وَمَا جَعَلَ أَدْعِيَاءَكُمْ أَبْنَاءَكُمْ ، ذَلِكَ كَقَوْلِكُمْ بَأْفْوَاهِكُمْ ، وَاللَّهُ يَقُولُ الْحَقَّ ، وَهُوَ يَهْدِي السَّبِيلَ ، ادْعُوهُمْ لِآبَائِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِنْدَ اللَّهِ ، فَإِنْ لَمْ تَعْلَمُوا آبَاءَهُمْ فإِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ وَمَوَالِيكُمْ ، وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ فِيمَا أَخْطَأْتُمْ بِهِ ، وَلَكِنْ مَا تَعَمَّدَتْ قُلُوبُكُمْ ، وَكَانَ اللَّهُ غَفُوراً رَحِيماً ﴾ (٥٥٤: ٣٣) .

فالآية تنص على أنه كان يوجد عند العرب شيئاً آن : الأول الظهار ، والثاني التبني ، فالكتاب يقول : إن قلباً واحداً لا يمكن أن يتصور أن أنثى واحدة هي في آن واحد زوجة وأم لشخص ما ، لأنه تناقض ، وكذا يستحيل أن يتصور القلب الواحد أن غلاماً هو عبد وابن في آن واحد ، لأنه تناقض ، وبناء عليه فهذا القول إما هو قول لساني لا قلبي ، أي لا يمكن للإنسان أن يعتقد بقلبه ، إذ لا يجمع في القلب بين المتناقضين ، نعم ، لو كان للإنسان قلبان ، لأمكن أن يعتقد كل قلب بعقيدة تضاد العقيدة الأخرى ، فقوله تعالى : ﴿ مَا جَعَلَ اللَّهُ لِرَجُلٍ مِنْ قَلْبَيْنِ فِي جَوْفِهِ ﴾ ليس معناه أن العرب كانوا يعتقدون هذه

العقيدة .. لا .. وإنما يؤتى بهذا القول في بدء الكلام ، إذا كان بعده شيء متناقض
لا يمكن أن يدخل في العقل الواحد . (حسن)

(وكذلك مكنا ليوسف في الأرض)

— ١ —

وقام فضل الله الاسكندري (١) :

تمكين يوسف الأول

أولاً - تعليقاً على قوله « وكذلك مكنا ليوسف في الأرض » فيه إشارة إلى ما تقدم من إنجاء يوسف وعطف قلب العزيز عليه ، والكاف من (كذلك) منصوب تقديره : ومثل ذلك الانجاء والعطف ، مكنا ليوسف في هذه الحياة الجديدة ، حياة وجوده كملوك في بيت عزيز مصر ، لأنه أصبح أثيراً عند فوطيفار وزليخا ، مكث عندهما في مأمن من الفوائل والحسدة ، مرتاح الضمير ، وملك ثقة سيده ومحبة سيده ، وهذا هو عصره الفضي ، وكان هذا التمكين لأول مرة عشر سنين ، من حين أن كان عمره (١٧) سنة إلى أن بلغ من السن (٢٧) سنة ، وأما عصره الذهبي ، فإنا ابتداء بمد جلوسه على كرسي « وزارة المالية » وعهد مليك مصر له بالوكالة المطلقة .

كان في عصره الأول ، وهو موضوع حديثنا الآن قرير العين ، رفيع الجنب ، قد دفع كل شيء ليده ، مع أنه وجد في بلاد غربة ، ومملكة غير مملكته ، وعند قوم لا يعرف سؤلتهم ولا شيمتهم ، مع افتراق الأديان وتباين الأشكال ، ومنافرة المذاهب ، ومع كل هذا كان النجاح في أعماله ، ألصق به من ظله ، وأسرع إليه من الماء إلى منحدره .

(١) نسبة إلى الاسكندرية من البلاد المصرية .

كان هذا التمكين الأول. آخر عهد يوسف بحياته القديمة ، وأول عهده بحياته الجديدة ، وحياته القديمة هي حياته في حضن أبيه في بادية فلسطين ، مرؤوساً بين إخوته ، وحياته الجديدة هي حياته في قصر فوطيفار في حاضرة مصر ، رئيساً بالوكالة عنه في كل أشغاله .

ثانياً — رب سائل يقول ما هذا التمكين الذي كان عبارة عن وجوده عبداً في بيت فوطيفار ثم تلته محنة ، ثم تلاه السجن بضع سنين؟ فالجواب هو رب محنة في وسطها منحة ، فلولا هذه العبودية لما كان مجال للمحنة ، ولولا هذه المنحة لما كان هذا السجن ، ولولا هذا السجن لما عرفه رئيس السقاة ، ولولا رئيس السقاة ، ما عرفه ملك مصر ، ولولا ملك مصر ، ما صار يوسف على خزائن الأرض ، ولا صار (عزيز مصر) ولا وكيلاً مطلقاً عن مليكها الريان ، فهذه الأدوار كلها حلقات متلاحمة شكلت سلسلة نشأ عنها تمكين يوسف في الأرض .

ثالثاً — يتعدى التمكين باللام وبنفسه ، فيقال : «مَكَّنْ لَهُ فِي الْأَرْضِ» : جعل له فيها مكاناً ، ونحوه : «أَرْضٌ لَهُ» ، جعل له أرضاً ، ويقال : «مَكَّنَهُ فِي الْأَرْضِ» ، أي أثبتته فيها ، والتحقيق أن معنى مكَّنه في الأرض أو في الشيء ، جعله متمكناً من التصرف ، تام الاستقلال فيه ، وأما مكَّنْ لَهُ ، كما في هنا وكما في قوله تعالى في ذي القرنين : ﴿ إِنَّا مَكَّنَّا لَهُ فِي الْأَرْضِ ﴾ ، (١٨ : ٨٥) فهو على تقدير المفعول المحذوف ، كأن يقال : مكنا ليوسف ولذو القرنين في الأرض جميع أسباب الاستقلال في التصرف ، ونظيره قوله تعالى : ﴿ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ ﴾ ، (٢٤ : ٥٥) وقوله تعالى ﴿ أَوَلَمْ نُمَكِّنْ لَهُمْ حَرَمًا آمِنًا ؟ ﴾ (٢٨ : ٥٧) ومعناه أنه يمكن لهم جميع شعائر دينهم ، يتظاهرون بها كما يشاؤون ، ويمكن لهم جميع جهات الحرم يشون في أي جهة

أرادوا ، ففي هذا التعبير من المبالغة والاتساع ما لا يوجد في التعبير الأول ، وقيل : ان مكنته ومكن له كوهبه ووهب له ، وقيل أبو علي : اللام زائدة ، كرف له .

رابعا — وقمت جملة « وكذلك مكنا ليوسف في الأرض » في هذه السورة مرتين ، فقيلت فيه أولاً ، باعتبار وجوده في بيت العزيز وكيلاً عنه في أشغاله ومحبوياً منه جد الحب ، وقيلت فيه ثانياً ، باعتبار وجوده في البلاط ناظر مالية ، ومحبوياً جد الحب من الملك الريان ، فالتمكين الأول خاص ، وبطريق التبعية لعزيز مصر فوطيفار ، لأن نَفَس العبد من نَفَس سيده ، فكان يوسف يتجول في مستعمرات سيده ، ويأمر الزراع وينهاهم ، ويحل ويربط ، على حساب سيده (العزيز) وبهيمته ونفوذه .

تمكين يوسف الثاني

واما التمكين الثاني فقد كان عاماً في كل المملكة الهكسوسية ، وبطريق الاصاله ، ولذلك أتبعه بقوله تعالى : « يتبوا منها حيث يشاء » لأنه هو بذاته صار « العزيز في مصر » مع « وزارة المالية » ومع الوكالة المطلقة عن الريان ، وههنا نكتة يجب الانتباه اليها ، هي أن التمكين الأول ، كان ناشئاً عن إلقاء الله محبة يوسف في قلب « عزيز مصر » ، وأما التمكين الثاني ، فكان ناجماً عن إلقاء الله محبة يوسف في قلب « ملك مصر » ، فالأول تمهيد للثاني ، والثاني أقوى وأمن من الأول ، واسع جداً وأطلق حرية ، وإن شئت قلت : إن التمكين الأول كان نواة لشجرة التمكين الثاني ، « وأول الفيث قطر ثم ينهل » .

(ولتعلمه من تأويل الأحاديث ...)

-١-

قال الشهاب الحيفاوي^(١).

تعليم يوسف

كأنّ العناية الإلهية رأت أن يوسف بحسب السنن الجارية يحتاج في تعلمه علوم الاجتماع ، والعلوم الكونية ، والعلوم السياسية ، والعلوم المدنية ، ومبادلة الكلام ، والأخذ والرد ، والقبول والرفض ومصائر الكلام ومراميه وعواقبه و .. و .. الخ الخ ، فحضر سبحانه وتعالى الأسباب التي اقتضت ذهابه لأرقى مملكة في العالم إذ ذاك . ليتعلم فيها ما ذكر وما إليه مما تتوقف معرفته على وجود الانسان في محيط راق .

ومما لا مشاحة فيه أن كل إنسان يكتسب العلم من ثلاثة بناييع الارث والمحيط والتجارب ، فعلم يعقوب وفرط ذكائه وقوة مداركه قد انتقل شيء منه لولده يوسف بطريق الارث ، فأخذ منه نصيباً مفروضاً ، ووجود يوسف في محيط كعصر أ كسبه مبلغاً عظيماً من الفهم والنبيل والثقافة المصرية ، لأن مصر إذ ذاك كانت أرقى الممالك المجاورة لها ، كالكلدان واليونان وأشور وآرام ونحوها ، وقد حكى لنا التاريخ أن اليونان تلاميذ مصر وعالة عليها في المدنية ، والرومان تلاميذ اليونان . ثم صار العرب تلاميذ الرومان واليونان والفرس ، وصارت أوروبا تلميذة للعرب ، فاساس المدنية والرقى والمعارف هو مصر ؛ وتجارب يوسف واحتكاكه

(١) نسبة الى حيفا من بلاد فلسطين

بذاك المجتمع الراقي زاده فضلاً على فضل ، وجعله يضم الى التالذ طريفاً ، تقوله تعالى : ﴿ ولتعلمه الخ ﴾ معناه لنضم لعلمه المطبوع ما يزيد من العلم المسموع ، وما لبث سبحانه أن وفي بما وعد فعلته من تأويل الأحاديث ما تطرب اليه أكباد الابل ، كما قال تعالى ﴿ ولما بلغ أشده آتيناه حكماً وعلماً ﴾ ولولا هجرته لمصر لانهصر فضله في الحصنة التي وصلت اليه من طريق الارث ، فإله القدير الذي لا يخرج فعله عن السنن الكونية ، ولا يتجاوز ربط المسببات بأسبابها ، أرسله لمصر ، ومكن له فيها ليزيده من فضله ، بزيادة الأسباب التي هي أيضاً من وضه سبحانه وتعالى .

فوائد الارتمحال والسفر

لا يسع أحداً أن ينكر أن الارتمحال من إقليم لإقليم أكبر ، والانتقال من بلد لبلد أعظم — من شأنه زيادة العلم ونمو مادته ، خصوصاً إذا كان الاقليم أو البلد الذي ذهب اليه متحضراً وراقياً أكثر فأكثر ، ﴿ الأعراب أشد كُفراً ونفاقاً ، وأجدر أن لا يعلموا حدود ما أنزل الله ﴾ (٩ : ٩٨) ، وفي الحديث « ساكن الكفور كساكن القبور » .

وقد سافر « ابن البيطار » إلى بلاد الأغرقة ، لجمع غريب النبات وتدوينه ، وسافر الامام « البخاري » لجمع صحيحه ، وساح كل من « الأسد الافريقي » و « البيروني » و « الشريف الادريسي » في آسية وأفريقية والجزر ، واكتشفوا تلك البقاع ، ووصفوا لنا تلك المواطن ، كما ساح « ابن بطوطة » وأخبرنا بالمجائب . ولذلك سن الشارع لنا السياحة ، واستشراف أحوال الأمم ، وتعرف قوايس الخليقة والعمران ، والنظر في الكون ، وتنوير أسرار الكائنات ، حتى قال عن

السياحة لأجل النظر في عواقب الأمم : ﴿ قَدْ خَلَّتْ مِنْ قَبْلِكُمْ سُنَنٌ ، فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ ، فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكذِّبِينَ ﴾ (٣ : ١٣٧) وقال عن السياحة لأجل النظر في تبدلات الدول والشعوب والموايد : ﴿ قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ ، فَانظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ ، ثُمَّ اللَّهُ يُنشِئُ النَّشْأَةَ الْآخِرَةَ ﴾ (٢٩ : ٢٠) ، وقال عن السياحة لأجل العلم والحج وصلة الرحم والجهاد : ﴿ التَّائِبُونَ الْعَابِدُونَ الْحَامِدُونَ السَّائِحُونَ ﴾ (٩ : ١١٢) وقال : ﴿ تَائِبَاتٍ عَابِدَاتٍ سَائِحَاتٍ ﴾ (٦٦ : ٥) ولكن الرجال للقتال ، والنساء لخدمة الجيش وتمريره ، وقال تعالى عن السياحة لأجل التعقل واستخراج النتائج من الأقبسة : ﴿ أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا ، أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا ، فَانْهَاجُوا تَعْمَى الْأَبْصَارُ ، وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ ﴾ (٢٢ : ٤٦) تشير هذه الآية إلى أن السياحة تكسب الانسان تعقلاً وفهماً وادراكاً ، أكثر وأكثر جداً مما لو بقي في بيته وبلده ، فالسياحة تزيد في سعة المدارك ، وتشرّف بالانسان أسرار العالم ، وعلى نواميس الممران والحراب في الأمم ، وعلى أسباب المدنية والوحشية في الشعوب ، وتجعل للانسان فكرة عامة على معنى الحياة الانسانية الصحيحة ، وهذا يعلو بالعقل والفكر ، ويسمو بها درجات متوالية على أقدار محسوسة ، فيحصل ما يسمونه « الترقى في الهيئة الاجتماعية » .

العلم الكسي والعلم الوهي

وغني عن البيان أن العلم نوعان ، كسي ووهي : فالكسي يتوسل اليه بما يقرؤه الانسان في الكتب السماوية ، وما يؤثر عن الأنبياء وما يسمعه من آثار أصحاب الأنبياء ، وكذا من علماء الأمصار . وما يستفيدة من دقائق اللغة وأساليبها ، ومن

علوم الكون ، وشؤون البشر ، وسنن الله في الخلق ؛ وأما العلم الوهي فيكون
زيادة الفهم في أسباب العلم الكسبي وعلو المدارك في ينابيع هذا العلم .

العطف على محذوف في القرآن

والواو في قوله « ولنعلمه » للعطف على محذوف تقديره : « مكنا ليوسف في
الأرض لأغراض شتى ولنعلمه .. الخ » ، وهذه طريقة قرآنية ، وأسلوب عربي
لطيف ، ضابطه عطف مذكور على محذوف ، للايدان بأن المصلحة في إيجاد
يوسف بمصر وتمكينه فيها ليست بواحدة ، بل المصالح في ذلك كثيرة ، منها
ما لا تحويه العبارة ، ومنها تعليمه من تأويل الأحاديث ، ولهذا شواهد ومثل
كثيرة في كتاب الله تعالى : منها قول إبراهيم وإسماعيل (ع) : ﴿ رَبَّنَا ...
وَاجْعَلْنَا مُسْلِمِينَ لَكَ ﴾ (٢ : ١٢٨) أي ياربنا اجعلنا كذا وكذا واجعلنا
مسلمين لك ، أو كأنها يقولان : وفي النفس حاجات وفيك نباهة ، وعلمك بها ينفي
عن ذكرها ، ولكننا نصرح الآن بواحدة منها ، وهي أن تجعلنا مسلمين لك ؛ ومنها
قوله تعالى : ﴿ يَرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ ... وَلِتُكْمِلُوا
الْعِدَّةَ ، وَلِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَى مَا هَدَاكُمْ ، وَلِتَعْلَمَ أَنَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾
(٢ : ١٨٥) ومنها قوله تعالى : ﴿ وَكَذَلِكَ نُنْزِلُ الْآيَاتِ .. وَلِيَقُولُوا
دَرَسْتَ ﴾ (٦ : ١٠٥) ، ومنها قوله تعالى : ﴿ إِنَّ يَمَسُّنَكُمُ قَسْرٌ فَقَدْ
مَسَّ الْقَوْمَ قَسْرٌ مِثْلُهُ ، وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ .. وَلِيَعْلَمَ
اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا ، وَيَتَّخِذَ مِنْكُمْ شُهَدَاءَ ، وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ ﴾ (٣ : ١٤٠)
ومنها قوله تعالى : ﴿ قُلْ لَوْ كُنْتُمْ فِي بَيوتِكُمْ لَبَرَزَ الَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقَتْلُ
إِلَى مَضَاجِعِهِمْ .. وَلِيَبْتَلِيَ اللَّهُ مَا فِي صُدُورِكُمْ ، وَلِيُمَحِّصَ مَا فِي قُلُوبِكُمْ
وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴾ (٣ : ١٥٤) .

ومنها قوله تعالى : ﴿ وَالْقَيِّمَاتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِنِّي ... وَلِتُصْنَعَ عَلَى عَيْنِي ﴾ (٢٠ : ٣٩) .

ومنه حديث : « أخوك البكريُّ ... ولا تتأمنه » .

وقول الأبوصيري :

يارب.. واجعل دعائي غير منعكس لديك واجعل رجائي غير منحرم

وإنما أكثرنا من شواهد هذا النوع ، لأن بعض المفسرين تكلم هنا

بكلام غير صحيح ، فكان حقاً علينا أن نذكر ما ذكرنا من الشواهد :

ولو كان هذا موضع العتب لاشتفى فؤادي ، ولكن للعتاب مواضع

هذا وأما الكلام في شرح « تأويل الأحاديث » بصورة مسهبة ، فقد كفانا

فيه المؤونة أخونا الشيخ مضيوف اليافي في محاضراته على قوله تعالى ﴿ وليعلمك

من تأويل الأحاديث ﴾ (آ : ٦) فليرجع إليه . (أحسنت)

(والله غالب على أمره)

— ١ —

قال السعيد الدوماني (١) :

الله غالب على امر نفسه او على امر يوسف

إن الله سبحانه وتعالى غالب على أمر نفسه ، لا يمنع عما يشاء ، ولا ينازع فيما

يريد ويقضي ، أو إن الله تعالى غالب على أمر يوسف ، يدبره ، لا يكلاه إلى غيره ،

قد أراد إخوته به ما أرادوا ، ولم يكن إلا ما أراد الله ودبره .

(١) نسبة إلى قصة دوما قرب دمشق (سورية)

فالله تعالى غالب على أمره الذي يريد من سلامة يوسف وحياته ، ورسوخ قدمه في أرض مصر ، وتعليمه فيها من تأويل الأحاديث ، معزراً مكرماً ، فمحاولة إعدامه وزلزله وإهاتته وإذلاله عبث وضرب من المحال ﴿ كَتَبَ اللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي ، إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴾ (٥٨ : ٢١) .

والله غالب على أمره ، غضباً عن الفلك ، فلا بد من تمكين يوسف ولا ندحة عن تعليمه . وكل ما أراد الله له واقع لا محالة ، ولا خيرة في الواقع ، رغم حسد الحاسدين ، وكيد الكائدين .

والله غالب على أمره ، فيوسف كان أصيب بموت أمه راحيل ، ثم بحسد إخوته له ومناواتهم إياه ، ثم بإلقائه في غيابة الجب ، ثم بأخذ المديانيين له واسترقاقه كملوك ثم بوجوده في بيت فوطيفار كخادم ، ثم بالتهمة الباطلة في ذلك البيت ، ثم بالاعتقال ظلماً ، فكان قضاء حياته معمل لنوازل الدهر وحوادثه ، ولكن رغباً عن هذا كله ، فقد كانت عاقبته الترقى لأوج الملا .

وبعبارة أخرى إن الله غالب على أمره فيما غبر ، وفيما حضر ، وفيما يأتي من الزمان ، لأنه فعال لا يريد ، لا دافع لقضائه ولا مانع لحكمه في أرضه وسماؤه ، فلقوة يوسف أرادوا به كل سوء ومكروه ، والله أراد به الخير ، فكان كما أراد الله تعالى ، احتالت إخوته عليه ، فأوقعوه في البلاء الشديد ، فجعل تعالى وقوعه في ذلك البلاء سبباً في وصوله لمصر ، اتهمته امرأة فوطيفار ؛ وسعت في اعتقاله ، فكان سبباً في تعرفه برئيس السقاة في السجن ، الأمر الذي نجم عنه أن هذا الساقى أخبر بيوسف ، حتى صار « عزيزاً » في مصر ، صار عزيزاً بعد أن كان ذليلاً ، صار مليكاً بعد أن كان مملوكاً ، صار حراً بعد أن كان عبداً ، صار فوق العرش ، بعد أن كان تحت الأرض ، فهذا المعنى ونحوه قال تعالى : ﴿ والله غالب على أمره ﴾ .

(ولكن أكثر الناس لا يعلمون)

— ١ —

قال عبد المنعم السلطي (١) :

جهل أكثر الناس أن الأمر كله بيد الله

أولاً — أكثر الناس في كل عصر ومصر لا يعلمون أن الأمر كله بيد الله تعالى وحده .

ثانياً — أكثر الناس لا يعلمون ، أي لا يدركون حكمته في خلقه ، وتلطفه وفعله لما يريد ، أو لا يعلمون ما الله به صانع .

ثالثاً — وردت هذه الفقرة في القرآن إحدى عشرة مرة ، ووردت بصيغة ﴿ وَلَكِنْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ تسع مرات ، والجملة عشرون مرة ، أنزلها الله من السماء تنفي العلم عن أكثرية الناس من وثنيين ويهود ونصارى ومسلمين .

شهادة الله ليوسف بالحكم والعلم والاحسان

آ (٢٢) ﴿ وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا ،
وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴾

افتتحت الجلسة وتليت الآية الثانية والعشرون فقام الشيخ عمن
الصيداوي (٢) وقال :

يقول الله تعالى (ولما بلغ) يوسف (أشده) أي مبلغ الرجال (آتيناه حكماً)

(١) نسبة الى السلط من أعمال بلاد الشام (شرقي الاردن) .

(٢) نسبة الى بلدة صيدا من بلاد الشام (لبنان) .

منعاً لنفسه من المعاصي وإلزاماً لها على الطاعات (وعلماً) لدنياً ، قال تعالى : ﴿ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ اللَّهُ ﴾ (٢ : ٢٨٢) وقال تعالى : ﴿ وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجاً ﴾ (٢ : ٦٥) وإذنا قال تعالى : ﴿ وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴾ تنبيهاً على أنه كان محسناً في عمله ، متقياً في عنفوان شبابه ، وأن الله آتاه الحكم والعلم جزاء إحسانه ، وعن الحسن (رض) : « من أحسن عبادة ربه في شبابه آتاه الله الحكمة في ا كتهاله . والعلم علماً : علم لدني يحصل بمحض فضل الله تعالى على العبد ، لكن بسبب إخلاصه وتقواه ، وعلم كسبي وهو ما يكون بالسر والتعب ، وإلى هذا القسم الثاني يشير بعضهم بقوله :

لو كان نور العلم يدرك بالني ما كان يبقى في البرية جاهل
اجهد ولا تكسل ولا تك غافلاً فندامة العقبي لمن يتكاسل

(ولما بلغ أشده)

— ١ —

وقام الشيخ عبدالحلي الجولاني (١) وقال :

بلوغ يوسف الأشر

قضي الأمر ، وعاش يوسف في بيت فوطيفار ، عزيز مصر ، وهو متمتع بحياة طيبة ، محفوفة بالهناء والراحة ، لا يفكر إلا فيما يعود عليه بالسرور ، كأن لسان حاله يقول : أريد أن أنعم بالحاضر ، وأعد الماضي نسياً منسياً ، غير أنه كان في وسط هذه المسرات يتذكر أباه الشيخ الجليل ، فتفيض نفسه ، لبعده عنه ، وعدم

(١) نسبة الى الجولان احد أفضية بلاد الشام (سورية) .

تمتعه برؤيته ، زد على ذلك أنه كان يعتقد أن أباه في غمرات من الأحزان لأجله ، ولعله كان يفكر أن يكتب لأبيه كتاباً عن حياته ومكان وجوده وكافة أحواله الحاضرة والماضية ، ولكنه كان يخاف من إخوته العشرة أن يلحقوا به كيداً ، فيقنعن عن العمل بهذه الفكرة لوقت مناسب .

ومضى « بلغ أشده » بلغ قوته ، وخرج من سن الصبوة ، قال « أبو نخيلة »
يمدح « هشاماً » :

طُوِّقَتْهَا مُجْتَمَعُ الْأَشْدِّ فَانْهَلَّ لَمَّا قَمَتَ صُوبَ الرَّعْدِ

أي نلت الخلافة ، وأنت مجتمع القوة مكتهل ، فانفتحت أبواب الخير .

أو تقول « بلوغ الأشد » عبارة عن بلوغ السن الذي يخرج به عن كونه ضعيفاً ، وقد اختلف أهل اللغة في هل هو مفرد ، أو جمع لا واحده ، أو له واحد ؟ ... قال في اللسان : (الأشد) مبلغ الرجل الحنكة والمعرفة ، ونُقل عن ابن سيده : بلغ الرجل أشده إذا اكتهل ، وقال علماء اللغة أقوالاً في معناه كثيرة ، ولكن لها طرفان ، أدناها الاحتلام الذي هو مبدأ سن القوة والرشد ، ونهايتها سن الأربعين ، حين تجتمع للمرء حنكته وتتمام عقله ، فبلوغ الأشد ، محصور الأول ، محصور النهاية ، غير محصور ما بين ذلك .

وقال الأزهرى : الأشد في كتاب الله على ثلاث معان : أما في قصة يوسف فبلوغه مبلغ الرجال ، وكذا في اليتيم : حكمه أن يحفظ عليه ماله حتى يبلغ أشده ، وبلوغه أشده أن يؤنس منه الرشد ، مع أن يكون بالغاً ، وأما قوله تعالى في قصة موسى ﴿ وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَاسْتَوَى ﴾ (٢٨ : ١٤) فقرن بلوغ الأشد بالاستواء ، وهو أن تجتمع قوته ويكتهل ، وذلك عن ثمان وعشرين إلى ثلاث

وثلاثين سنة ، وذلك منتهى الشباب ، وأما قوله تعالى : ﴿ حتى إذا بلغ أشده وبلغ أربعين سنة ﴾ (٤٦ : ١٥) فهي نهاية بلوغ الأشد .
ورأيت في خطبة الحجاج العراقية : « أخو خمسين مجتمع أشدّي » .

الرشد والرشد في القرآن

ويقول العبد الحقير ، يوجد في القرآن الكريم كلمتان : « أشد » و « رُشد » فكلمة أشد تعني النمو في الجسم والخروج من سن الصبوة . وكلمة الرشد تعني النمو في العقل وإصلاح أمور الدين والدنيا ، وهذه تكون من الأولى ، وتارة على إثرها ، وقد يوجد الأشد ولا يوجد الرشد ، بسبب عارض ، كما إذا عرض له إسراف وتبذير أو جنون أو قلة دين ، قال تعالى : ﴿ ولما بلغ أشده واستوى آتيناه حكماً وعلماً ﴾ (٢٨ : ١٤) وقال تعالى : ﴿ وابتلوا اليأسى حتى إذا بلغوا النكاح ، فإن آنسستم منهم رُشداً فادفموا إليهم أموالهم ﴾ (٥ : ٤) ويمكن أن يكون قوله : « حتى إذا بلغوا النكاح » هو سن الأشد الذي يتقدم الرشد أو يقارنه ، فلا رشد إلا بعد تحقق الأشد ، وقد يوجد الأشد ولا يوجد الرشد إلا بعد مدة ، ولكن يوسف (ع) من حين أن بلغ الأشد أوتي الرشد بإيتائه الحكم والعلم .

(أحسنت)

(آتيناه حكماً وعلماً)

— ١ —

قال العلامة المعري (١) :

ابناء يوسف الحكمة العملية والحكمة الفكرية

أصل « الحكم » الإلزام والمنع ، وسميت (حَكَمَة) الدابة بهذا الاسم

(١) نسبة الى معرة النعمان من بلاد الشام (سورية)

لأنها تمنع الدابة عن الحركات الفاسدة ، و « الحكم » ملكة في النفس بها يقرر الإنسان أن يحكم نفسه ، بحيث يلزمها الطاعات ، وينمها من المعاصي ، و « الحكم » بهذا المعنى هو « العصمة » التي تكون في الأنبياء ، ويجب علينا اعتقادها فيهم ، ولهذا كثر ذكر إتياء الحكم لهم في القرآن الكريم بهذا المعنى ، والحكم بهذا المعنى تصدر عنه العلوم الدنيوية والمعارف الوهبية ، التي تكون في الدرجة الأولى للأنبياء عليهم الصلاة والسلام ، ولهذا ذكر العلم هنا بعد الحكم .

ورأى بعض المحققين أن معنى « حكماً وعلماً » حكمة عملية ، وحكمة فكرية ، ويقال لمن أوتي الحكم أو الحكمة (حاكم وحكيم) ويقال لمن أوتي العلم (عالم وعليم) . فيوسف أوتي العلم العملي ، المدعو تارة بالحكم وتارة بالحكمة ، وأوتي العلم الفكري الذي هو معرفة الأشياء ، وبعبارة ثانية: يوسف أوتي الحكم الذي فيه استخدام الجسم والحواس ، والعلم الذي فيه استخدام العقل والروح ، وبعبارة ثالثة: أوتي حكم النفس بالنفس ، أي منبها عمالاً ينبغي (وهذا المعنى يدخل فيه ما يدعون به بالعصمة والشفقة أو الحفظ) ، وأوتي العلم اللدني الذي لا يصل إليه الإنسان إلا بتلك المجاهدات ، فالثاني هو نتيجة الأول ، كما قال تعالى : ﴿ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ اللَّهُ ﴾ (٢ : ٢٨٢) ، وقال تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَتَّقُوا اللَّهَ يَجْعَلْ لَكُمْ فُرْقَاناً ﴾ (٨ : ٢٩) ، وفي الحديث الشريف : « مَنْ عَمِلَ بِمَا عَلَّمَهُ رَزَقَهُ اللَّهُ مَا لَمْ يَعْلَمْ » .

لا ينشأ الحكم عن العلم بل عن الدين

وأذكر انه اعتفاني أحد الطلبة يوماً من الأيام ، فاستفتاني قائلاً : نرى الله جل

جلاله قد أتبع كلمة « الحكم » بكلمة « العلم » في كتابه الكريم أربع مرات ، كما قال تعالى في شأن يوسف : « ولما بلغ أشده آتيناها حكماً وعلماً » وقال تعالى في شأن لوط : ﴿ ولوطاً آتيناها حكماً وعلماً ﴾ (٢١ : ٧٤) وقال تعالى في شأن موسى : ﴿ ولما بلغ أشده واستوى ، آتيناها حكماً وعلماً ﴾ (٢٨ : ١٤) وقال تعالى في شأن داود وابنه سليمان : ﴿ وكلاً آتينا حكماً وعلماً ﴾ (٢١ : ٧٩) قال : فلماذا نراه تعالى يذكر العلم بعد الحكم حينما يذكرهما معاً ، مدحاً وثناءً على أنبيائه الكرام عليهم الصلاة والسلام ؟... فأقبيته بقولي : إن الله تعالى علم أنه سيوجد أناس في مستقبل الأيام يسمون (بالفلاسفة) يقولون : (إن الحكم فرع عن العلم ، فمتى كان الانسان عليمًا كان حكيماً ، لأن علمه يحكمه ويعينه من ارتكاب ما لا ينبغي ، ويدفعه لعمل ما ينبغي ، ومن هؤلاء « ابن رشد » من فلاسفة الاسلام فيما حكى عنه ... ، وقد قالوا : « إن الدين إنما تقصد به منفعة العامة فقط ، أما العلماء ففي غنى عنه بعلمهم » ، وقلت له : فلذلك سبق الله تعالى وذكر العلم بعد الحكم ، ليشير إلى أنه ليس الحكم ينشأ عن العلم ، ولكن عن الدين ، فلا غنى لأحد مطلقاً عن الدين ، سواء أكان عالماً أم جاهلاً ، نعم يوجد قبل الحكم علم يقال له علم الشريعة أو علم الفقه ، ويوجد بعد الحكم علم يقال له العلم اللدني ، ويقال لأولهما كسبي ولثانيهما وهبي ، وليس الفقه ، بمعنى معرفة الأحكام ، هو المراد من كلمة « علم » في هذه الآيات ، بل المراد منها العلم اللدني الوهبي ، وتسبب العلم الوهبي عن الحكم ظاهر ، بخلاف تسبب الحكم عن العلم الكسبي الذي هو الفقه ، « فكم من فقيه ، يتبلغ المأذنة في فيه ... » .

فظهر مما قررنا ان لفظ « الحكم » هنا مرادف للفظ الحكمة ، لا فرق بينهما ،

أبداً ، يقال : « الصمتُ حُكْمٌ » أي حكمة ، على حد ما في قول المتنبي :

إن بعضاً من القريض هراءٌ ليس شيئاً وبعضه أحكامٌ

فأحكام جمع حُكْم مراداً منه الحكمة ، ومعنى آتيناها حكماً وعلماً ، أنعمنا عليه برتبتين : : رتبة « حكيم » ورتبة « عليم » ، بل وحققناه بذلك ، فكان يتصرف في كل أموره بحكمة ودراية .

تفسير العلم بالمعرفة

هذا وقد قال بعض الأصدقاء : إن لفظ (العلم) في القرآن أينما وجد هو بمعنى المعرفة بأوسع معانيها ، وهو بهذا المعنى يطلق حتى على المعارف الدنيوية كما ورد على لسان (قارون) : ﴿ قَالَ : إِنِّي أوتَيْتُهُ - أي المال - عَلَى عِلْمٍ عِنْدِي ﴾ (٣٩ : ٤٩) أي معرفة بطرق كسب المال ، ومنه قوله : ﴿ وَيُعَلِّمُكَ مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ ﴾ على قول المفسرين إن معناه تفسير المرآة المنامية ، ومن علمه الدنيوي أيضاً انه بعد ما عبر ودو في السجن رؤيا (الملك) التي جاء بها (الساقى) أتبعه بتدبير (اقتصادي) وهو قوله : « تزرعون .. الخ » وعلم الاقتصاد من العلوم الدنيوية . وبعد ، فأكثر ما يستعمل (العلم) في المعرفة التي توصل إلى الهداية كما يوجد ذلك في أكثر آيات القرآن .

(آتيناها حكماً وعلماً)

— ٢ —

وقالت السيدة قوت القلوب المصرية :

إيتاء يوسف قوة الإرادة ونور العقل

أوتي يوسف « الحكيم » بحيث صار يحكم نفسه عما لا يليق ، لأنه قوي الإرادة وهذا هو الحد الفاصل بين الفضيلة والرذيلة ، لأن الناس يتشابهون في ميولهم

البدنية ، وفي تمييزهم بين الفضيلة والرذيلة ، وإغا يتفاضلون بقوة الإرادة على كبح الشهوات ، والعمل بما يقتضيه الشرع ويوجبه الضمير ، ففي مثل ذلك الموقف يتفاضل الناس ، وأقربهم إلى الفضيلة أقوام إرادة، فأهل النزاهة والعفة لا يفضلون سواهم بالتمييز بين الخير والشر ، ولا يفهمون من معنى الفضائل والرذائل أكثر مما يفهم سواهم ، ولكنهم يفضلونهم باقتدارهم على ضبط عواطفهم ، فإذا استطاعوا ضبطها حفظوا كرامتهم طول العمر ، وعاشوا في راحة وسعادة ، يدلك على ذلك ان الذين يعجزون عن كبح شهواتهم ، ويستسلمون لأهوائهم ، لا يلبثون أن يندموا حين لا ينفع الندم .

ثم أوتي يوسف « العلم » الذي هو نور العقول ، وحياة النفوس ، وحسبنا في تعريف فضله قوله تعالى خطاباً لخاتم الأنبياء صلى الله عليه وسلم : ﴿ وَقُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْمًا ﴾ (٢٠ : ١١٤) ، وقوله صلى الله عليه وسلم : ﴿ إِذَا أَتَى عَلِيٌّ يَوْمٌ لَا أَزْدَادَ فِيهِ عِلْمًا يَقْرَبُنِي إِلَى اللَّهِ تَعَالَى ، فَلَا بُورِكَ لِي فِي طُلُوعِ شَمْسِ ذَلِكَ الْيَوْمِ ﴾ .

والعلم خير من المال ، لأنك أنت تحرس المال ، ولكن العلم يحرسك ، والمال بلا علم صائر للزوال :

إذا لم يكن علم يزان به الفتى فقال الفتى جهل عظيم بشينه
لعمرك إن المال داعية الهوى إذا هو لم يُصحب بعلم يصونه

يمكن رفع الانسان وخفضه في كل وقت ، والآلة الرافعة والخافضة له هي العلم أو الجهل ، وعلة العلل في ارتقاء الانسان وانحطاطه هي العلم أو الجهل ، وما عدا ذلك فأسباب ثانوية ، والعلم هو أهم سلاح تسلح به يوسف للانتصار على العزيز وامراته ، ثم للرفق إلى البلاط الملكي ، ثم للانتصار على إخوته ، فعمله وهو « فرد »

انتصر عليهم ، وهم « عصابة » هو فزع إلى القوة العلمية ، وهم فزعوا إلى القوة الجسمية ، والجاهل ولو قوياً بالجسم ، مع العلم ولو ضعيفاً بالبدن ، كالأعزل مع المدجج بالسلاح .

وبعد ، فيظهر لنا ان إيتاء الله يوسف - وهو في بدء سن الأشد - الحكمة والعلم هو من قبل الإرهاص لنبوته المزمعة أن تصير ، فهو بايتائه « الحكم » يكون قد ملك نفسه وهواه ، وبايتائه « العلم » يكون قد انتقل من دور التقليد لدور معرفة الحقائق كما هي .

ورد في الحديث الشريف : « الشباب شعبة من شعب الجنون » ، وقال بعض الشعراء :

إن الشباب والفراغ والجِدَّة مفسدة للمرء أي مفسده

فالعادة ان الانسان في شرح شبابه ، تكمل فيه قوة الشهوة الحيوانية ، فيميل مع هواه ، وينزل على إرادة عواطفه ، حتى انه ليستغرب حال من يخالف هذه العاطفة ، كما في حديث : « عجب ربكم من شاب ليس له صبوه » ، ولكن في نحو هذا الوقت أوتي يوسف مايؤتاه الشيوخ الكبار ، من العفة والطهارة والعلم الوهبي . فهذا القول : « ولما بلغ أشده آتيناها حكماً وعلماً » ، وكذلك نجري المحسنين . كالتמיד الاستدراكي أو كالاتدراك التمهيدي قبل قوله : « وراودته التي... الخ » . فكان الله تعالى يقول : قبلما تراوده تلك المرأة عن نفسه هو كان قد ترقى إلى الدرجات العلوية ، وصار كأهل الملا الأعلى ، طهارة وصفاء وقداسة ، وأحرر عن آتاه الله (الحكم والعلم) أن يكون طاهر النفس ، وتقي الثوب .

(حسن وحسن جداً)

(آتيناہ حکماً وعلماً)

— ٣ —

وقال السيد محمد الجاوي (١)

سبب تقديم الحكم على العلم

قدم الله الحكم على العلم ، مع ان العلم مقدم على الحكم ، لأن الانسان أولاً ، يعلم ثم يعمل ، ليسر دقيق لا يعقله إلا من وفقه الله تعالى لفهم دقائق أسرار كلام الله العزيز جل جلاله وذلك انه لا يلزم من العلم الحكم ، فكم وكم من عالم لا يقف عند حدود علمه ولا يعمل به ، كما انه لا يلزم من الحكم العلم ، فكم وكم من حاكم لنفسه تقليداً لغيره ، مع جهله وقلة علمه ، فلا يقع فيما نهى الله عنه ، ولكن لا عن علم بل عن تقليد ، وعلى هذا فلا ملازمة بين الحكم والعلم ، فقد يكون حكم بدون علم ، ولكن عن تقليد ، وقد يكون علم بدون حكم ، وهو الذي لا يعمل بعلمه ، وهما مصيبتان كبيرتان ، وفتناتان عظيمتان ، ولكن أيها أكبر من أختها ؟ لا شك ان الثانية أكبر من الأولى ،

وعالم بعلمه لم يعمل معذب من قبل عباد الوثن

فالحاطي عن جهل ، أخف جرماً من الحاطي بعد العلم ، والجاهل التقي ، خير من العالم الشقي ، إذ أفتقوى مع الجهل ، خير من الشقوة مع العلم ، وبذلك صار الحكم أهم من العلم ، وان المهم المقدم ، وقد أخبر تعالى أن اتباع الهوى ، وهذا يكون بترك الحكم ، يضل عن سبيل الله ، ولم يخبرنا بأن عدم العلم كذلك ، فقد يكون الانسان سالكاً سبيل الله تقليداً ، لا علماً كما قرئناه ، قال تعالى : ﴿ يادأود إنا جعلناك خليفة ﴾

(١) نسبة الى جزيرة جاوة من بلاد اندونيسيا .

في الأرض ، فاحكم بين الناس بالحق ، ولا تتبجيع الهوى ، فيضلِكَ عن سبيلِ الله ، إنَّ الذين يَضلُّونَ عن سبيلِ الله لهم عذابٌ شديدٌ بما نَسُوا يومَ الحسابِ ﴿ (٣٨ : ٢٦) ﴾ ولم يرد وعيد كهذا للجاهل ، ولا تنس ههنا ان أهل الفترة الناجون ، وان المقضوب عليهم أقبح من الضالين ، وان الفواة أرباب الشهوات ، أقبح من الضلال أصحاب الظنون والشبهات .

(و كذلك نجزي المحسنين)

— ١ —

قال مولانا عمر البيلافي (١)

إن لي على هذه الآية الكريمة خمسة تعاليق :

الاجماع على احسان يوسف

التعليق الأول: — نسمع هذه الآية في هذه السورة ترن على آذاننا كثيراً، فمرة نسمع الله يقول في شأن يوسف : ﴿ وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴾ (آ ٢٢) ، ثم نسمع الفتيين السجينين يقولان له : ﴿ نَبِّئْنَا بِتَأْوِيلِهِ ، إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ ﴾ (آ ٣٦) ، ثم نسمع إخوته يقولون له : ﴿ فَخُذْ أَوْحَدَنَا مَكَانَهُ إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ ﴾ (آ ٧٨) ، ثم سمعناها من فم يوسف نفسه متحدثاً بنعمة ربه يقول : ﴿ إِنَّهُ مَنْ يَشْقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ ﴾ (آ ٩٠) ، وهذا من قبيل توارد الخواطر ، الذي يفيد تحقق مورده ، فالرب والعبد ، والأقارب والأباعد نطقوا بنعمة واحدة ، هي ان يوسف كان محسناً ولا بد .

الجزء على السب لى النسب

التعليق الثاني : — لم يقل : وكذلك نجزي أولاد الأنبياء ، أو يقل : وكذلك

(١) نسبة الى يلان من بلاد الشام (سورية)

نجزي ذوي البيوتات المريقة في المجد ، بل جعل هذه المجازاة أثراً من آثار إحسان يوسف في أعماله وأقواله وأفكاره وسيره وسيرته، لأن الله تعالى لا ينظر للأنسب والأحساب ولكنه ينظر الى الأعمال والنوايا ، فالمرء بأعماله ، لا بأمله ، وبسببه ، لا بنسبه ، وبطي لسانه ، لا بطيلسانه ، وبأصغريه ، قلبه ولسانه ، وبمحنانه ، لا بمجنانه .

اركان الاحسان

التعليق الثالث : — رب سائل يسأل : ما هو هذا الاحسان الذي كان يوسف متحلياً به ، حتى استحق المكافأة عليه ، وصار به خليقاً لا يتاء الله إياه (الحكم) وجديراً أن يسدي الله اليه موهبة (العلم) اللدني ؟

فنجيب قائلين : الاحسان يقوم بثلاثة أركان ، الركن الأول — العقيدة ، وهي الايمان بالله تعالى وكتبه ورسله واليوم الآخر ، والركن الثاني — الأعمال البدنية والمالية ، وهي الصلاة والصوم والحج والزكاة والصدقة وما إلى ذلك ، والركن الثالث — الآداب مع الله والناس ، والأخلاق الفاضلة ؛ وذلك يقوم بسلامة القلب ، وحسن النية ، وطهارة الوجدان ، وصلة الرحم ، ونفع أهل الجوار ، والنصيحة والارشاد ، والصبر عن وعلى ، والوفاء بالوعد ، والثبات على العهد ، والصدق في القول والعمل ، والوداعة ومحبة الخلق ، والتفكر في آلاء الله تعالى ومصنوعاته ، وآياته المجيبة ، وطاعة الوالدين ، والعفو عن المسيء ، والصفح عن الزلات والحلم والأناة ومقابلة السيئة بالحسنة وخدمة الإنسانية وخدمة المصالح العامة ، والكف عن الضرب والقتل والسرقه ، وزجر النفس عن الكبرياء والغضب ، والرجوع إلى الحق بعد ظهوره ، وتنزيه القلب عن الحقد والبغض ، وصون اللسان وسائر الأركان عن الكذب والبهتان ، وترك الغيبة والنميمة وكل أمر مكروه ، وعدم البغيان على أي إنسان ، ومزاولة الأشرار .

اركان الاحسان في القرآن وتحلي يوسف بها

قال تعالى وفيه صراحة بالأركان الثلاثة ﴿ ليس البر أن تولثوا
وجوهكم قبل المشرق والمغرب ، ولكن البر من آمن بالله واليوم
الآخر والملائكة والكتاب والنبيين ؛ وآتى المال - على حبه - ذوي
القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل ، والسائلين وفي الرقاب ، وأقام
الصلاة وآتى الزكاة ، والموفون بعهدهم إذا عاهدوا ، والصابرين في البأساء
والضراء وحين البأس . أولئك الذين صدقوا ، وأولئك هم المتقون ﴾
(٢ : ١٧٧) ، ولقد كان يوسف متحلياً بهذه الأركان الثلاثة التي منها إيتاؤه
المال ذوي القربى ، إذ أنه أمر فتياه أن يجعلوا بضاعة إخوته في رحلهم ، فهم
لما فتحوا متاعهم وجدوا بضاعتهم ردت إليهم ، ومنها صبره في البأساء والضراء
كصبره في غيابة السجن وصبره على أخذه لمصر وبيعه وخدمته في بيت العزيز
كعبده . وصبره عن سوء والفحشاء ، وفي غيابه الحبس وصبره عن شفاء غليله
من إخوته .

وقال تعالى وفيه عشرة أسهم من أسهم الدين : ﴿ التائبون العابدون -
الحامدون السائحون الراكعون الساجدون ، الآمرون بالمعروف والناهون -
عن المنكر ، والحافظون لحدود الله وبشر المؤمنين ﴾ (٩ : ١١٣) ، ولقد
كان يوسف (تائباً) راجعاً في كل حين إلى ربه ، (عابداً) له بأركانها
وجنانه (حامداً) له أيام حريته وأيام رقه (سائحاً) بهجرته من بلاد الهوان إلى
بلاد الإطمثان (راکماً ساجداً) لمولاه (آمراً بالمعروف ناهياً عن المنكر) كما
وقع منه مع الفتين السجينين ، إذ نهاهما عن الوثنية ، وأمرهما بالتوحيد ، (حافظاً
لحدود الله) إذ لم ينزل على إرادة امرأة العزيز ولم يخن سيده في أهله وعرضه .

وقال تعالى : ﴿ قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ ، الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ ،
وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ ، وَالَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَاةِ فَاعِلُونَ ، وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ
حَافِظُونَ ، - إلى أن يقول - وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ ،
وَالَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَوَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ ، أولئك هم الوارثون ؛ الَّذِينَ يَرْتُونَ
الْفِرْدَوْسَ ، هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴾ (٣٣ : ١ - ١١) وبديهي أن يوسف كان
(مؤمناً) بالله (خاشعاً في صلاته) لمولاه (معرضاً عن اللغو) كما ظهر ذلك جلياً
في إعراضه عن لغو إخوته حينما قالوا له : ﴿ إِنَّ يَسْرِقَ فَسَقَ أَخٌ لَه
مِنْ قَبْلٍ ، فَآسَرْنَا يَوْسُفَ فِي نَفْسِهِ وَلَمْ يُبَدِّهَا لَهُمْ ﴾ (مزكياً) كما
آنس منه إخوته ذلك إذ قالوا له : ﴿ وَتَصَدَّقْ عَلَيْنَا إِنَّ اللَّهَ يَجْزِي الْمُتَصَدِّقِينَ ﴾
ولا بد أن يكون قد صدق ظنهم فيه (حافظاً لفرجه) ، (مراعيّاً لأمانته) كما
ظهر ذلك بأجلى مظاهره في حادثة سيدته معه .

فما اشتملت عليه هذه الآيات الكريمة هو قوام الإحسان الذي وصف به
يوسف عليه السلام ، ولذا كان خليقاً بما أنعم الله عليه من الوسامين المرصعين ،
وهما وساما (الحكم) و (العلم) مكافأة له على إحسانه . وفي قوله تعالى : ﴿ وَكَذَلِكَ
نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴾ تقريظ ليوسف ، بأنه لم يؤت ما أوتيته مجاناً أو محابة ،
لا . لا . بل لسابق إحسانه في أقواله وأعماله ونواياه وسرايره ، أي أنه تعالى
وجه عليه وسامي (الحكم والعلم) لأنه محسن ، فهو فن بذلك ، وهكذا هو
تعالى مجزي سائر المحسنين .

الجزء يكون في الدنيا كما في الآخرة

التعليق الرابع - قوله تعالى : ﴿ وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴾ يريد به الجزء
الديني ، لأن هذا الجزء الذي عجل ليوسف هو كان في الدنيا ، كما سيأتي قوله

في موضع آخر: ﴿ وكذلك مَكْنَةً لِيُوسِفَ فِي الْأَرْضِ ، يَتَسَبَّوْا مِنْهَا حَيْثُ يَشَاءُ ، نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَنْ نَشَاءُ ، وَلَا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ ، وَلَا أَجْرَ الْآخِرَةِ خَيْرٌ لِلَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ ﴾ (آ ٥٦ و ٥٧) .

فكثيراً ما يصيب الإنسان في الدنيا صنوف من الخير ، جزاء على أعماله الصالحة ، وصنوف من الشر ، عقاباً له بما اجترح من الأعمال السيئة ، كما يظهر لمن تدبر سنة الله في خلقه ، ودرس توارىخ الأمم الخالية والأمم الحاضرة ، فليس الجزاء على الأعمال الصالحة ، والأعمال السيئة مقصوراً على الآخرة فقط ، بل يكون في الدنيا كما في الآخرة ، ولكن لكل دار ما يناسبها من الجزاء .

(فالحكم والعلم) الذي أوتيته يوسف هو من الجزاء الذي يستحقه على إحسانه ، جزاء معجلاً في الدنيا ، فهو من قبيل : ﴿ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ اللَّهُ ﴾ (٢ : ٢٨٢) ، ومن قبيل : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ، إِنَّ تَشَقُّقُوا اللَّهَ يَجْعَلْ لَكُمْ فُرْقَانًا ﴾ (٨ : ٢٩) ومن قبيل : ﴿ ذَلِكَ بِمَا عَلَّمَنِي رَبِّي ، إِنِّي كُنْتُ مِنَ الْكَاذِبِينَ ﴾ (٣٧ : ٣٧) الخ حيث جعل تعليم ربه له ثواباً على ترك الوثنية واتباع التوحيد .

فيوسف أحسن أعماله وأقواله ونواياه ، فأحسن الله إليه ، لأنه : ﴿ هَلْ جَزَاءُ الْإِحْسَانِ إِلَّا الْإِحْسَانُ ﴾ (٥٥ : ٦٠) وهذه قاعدة جارية في الدنيا والآخرة ، لأن كلام الله تعالى فيها مطلق ، نعم هو في الدنيا مطرد في الامم ، وغير مطرد في الأفراد ، وأما في الآخرة فهو مطرد للجميع .

الله يؤتي الحكم والعلم لكل من اتصف بالاحسان

التعليق الخامس — نتعلم من هذه الآية ان إبتاء الله (الحكم والعلم) ليس هو عطية شخصية ، ولكنها عطية وصفية ، وأريد أن أقول إنها ليست عطية خاصة

بشخص يوسف ، ولكنها عامة لكل من اتصف بالاحسان ، وهكذا العطيبة في قوله تعالى : ﴿ وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ ، يَتَّبِعُوا مِنْهَا حَيْثُ يَشَاءُ ، نُنْصِبُ بِرَحْمَتِنَا مَنْ نَشَاءُ ، وَلَا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ ﴾ (آ ٥٦) فتعلم منه ان كل من كان محسناً ، مكّنه الله في الأرض ، وأصابه برحمته ، فليس هذا العطاء متعلقاً بالشخص ، ولكنه منوط بالوصف ، يدور معه حيثما دار ، وهكذا نتعلم من قول يوسف الآتي : ﴿ قَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا ، إِنَّهُ مَنْ يَتَّقِ وَيَصْبِرْ ، فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ ﴾ (آ ٩٠) ، فمِنَّة الله على عباده بالنعم الوافرة ليست مرتبطة بأشخاص مشخصين ، ولكنها مرتبطة بوصفي التقوى والصبر ، فأينما وجدت التقوى والصبر ، وجدت نعم الله .

الوعد يتناول الناس بحسب اوصافهم

نأخذ من المثل السابقة وأشباهاها قاعدة ، هي : الوعد لا يكون قاصراً على أشخاص وآحاد معينين ، بل إنه يتناول الناس بحسب أوصافهم ، واليكم بعض الأمثلة على ذلك من غير سورة يوسف :

(١) - ﴿ وَوَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ، لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ ﴾ (٣٤ : ٥٥) فالوعدودون بالاستخلاف في الأرض ليسوا هم أشخاص الصحابة فقط ، بل كل من اتصف بالإيمان والعمل الصالح .

(٢) - ﴿ إِنْ تَنْصُرُوا اللَّهَ يَنْصُرْكُمْ ﴾ (٢٧ : ٧) فهذا الوعد ليس خاصاً بشخص الصحابة ، بل هو عام لكل من اتصف بنصر الله .

(٣) ﴿ رَبَّنَا ... وَأَاتِنَا مَا وَعَدْتَنَا عَلَى رُسُلِكَ ، وَلَا تَخْزِنَا

يَوْمَ الْقِيَامَةِ ، إِنَّكَ لَا تُخْلِفُ الْمِعَادَ ، فاستجابَ لهم رَبِّهِمْ ﴿ الخ (٣ : ١٩٤ و ١٩٥) فهذه الاستجابة ليست خاصة بأولئك الصحابة أولي الألباب ، الذين كانوا يذكرون الله قياماً وعوداً وعلى جنوبهم، ويتفكرون في خلق السموات والأرض، ثم يتلون هذا الدعاء ، وليست هذه الاستجابة منوطة بأفراد بحسب ذواتهم ومشخصاتهم ، بل هي عامة لكل من اتصف بتلك الأوصاف ، لأن فضل الله ليس قاصراً على شخص دون شخص ، ولكنه منوط بالأعمال والأوصاف ، فأبنا وجدت الأعمال والأوصاف ، تحقق وعد الله تعالى ، فالله تعالى لا يراعي ولا يجابي الأشخاص ، ولا ينظر إلى الوجوه ، ولكنه ينظر إلى العمل التقي ، فينوط به الجزاء الألهي .

الله يؤتي كل محسن حكماً وعلماً على قدر احسانه

وعلى هذا فيمكننا أن نقطف من قوله تعالى : ﴿ وكذلك نجزي المحسنين ﴾ قاعدة كلية مطردة ، وهي ان كل محسن يؤتيه الله حكماً وعلماً ، على قدر احسانه ، ممن كان وممن هو كائن ، وممن سيكون وسوف يكون . فليعتبر بذلك القارئون والسامعون .

المرآة

آ (٢٣) * وَرَأَوَدَتَهُ الَّتِي هُوَ فِي بَيْتِهَا عَنْ نَفْسِهِ ،
وَعَلَّقَتِ الْأَبْوَابَ ، وَقَالَتْ : هَيْتَ لَكَ ! - قَالَ : مَعَاذَ
اللَّهِ ! إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ ، إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ . *

افتتحت الجلسة وتليت الآية الثالثة والعشرون وما كاد المقور ينهي
من تلاوتها حتى سمع جلبة من مقصورة النساء المؤتمرات كلا ممن تريد
التكلم على هذه الآية فقامت أولاهن وهي السيدة انصاف الدمشقية وقالت :
في يوم من الأيام دخل يوسف القصر ليقوم ببعض الخدم والملاحظات
والترتيبات على حسب عادته ، فانهزت امرأة سيده فرصة خلو المكان من كل
أحد ما عداها ، فاقتربت منه (وراودته) أي كلمته (التي هو في بيتها) وهي السيدة
زليخا - والمرآة مفاعلة من راد يروء : إذا جاء وذهب ، كأن المعنى خادعته -
(عن نفسه) أي فعلت ما يفعل الخادع لصاحبه عن الشيء الذي لا يريد أن يخرج
من يده ، يحتمل أن يغلبه عليه ويأخذه منه ، وهي عبارة عن التمثل لمواقفته إياها
(و) لما لم تفد المرآة الكلامية وقام بها تهيج جنسي شديد (غلقت الأبواب)
أي كل مالمقصود من أبواب ، حذراً من هروبه ، وخوفاً من مجيء إحدى الخادعات
على غفلة ولئلا يسمع أحد كلامها ، إذ الأبواب والنوافذ آذان البيت ، (وقالت)
له بصريح العبارة وبلسان الغرام والحب (هيت) أي أقبل ، فسألها لمن قولين
هذا الكلام ؟ - فقالت (لك) - (قال) بلسان العظمة والنفور : برحمتي ، لا

يكون ذلك دون أن يبيض الفار ويجتمع الليل والنهار ، أنا أخون مولاي العزيز في عرضه ؟؟؟!! .. (معاذ الله) أي أعوذ بالله معاذاً (إنه) أي الشأن والحديث (ربي) سيدي ومالكي وهو فوطيفار ﴿ أَحْسَنَ مَثْوَايَ ﴾ حين قال لك : ﴿ أَكْرَمِي مَثْوَاهُ ﴾ ، فما جزاؤه أن أخلفه في أهله سوء الخلافة وأخونه فيهم ﴿ إِنَّهُ لَا يَفْلَحُ الظَّالِمُونَ ﴾ الذين يجازون الحسن بالسيء .

(وراودته التي هو في بيتها)

— ١ —

وقالت السيدة علية المكية (١) :

المرآودة من زليخا والترفع من يوسف

جعلت زليخا تفكر فيما مر بها من الأهوال منذ عرفت يوسف ، وما رآته من حوادث الحب وهو اجسه ، وتذكرت حلها قبل قدوم يوسف إليها ، وأنها كانت خلية الببال ، لا تعرف الهواجس ولا الأفكار ، وكان السبب في ذلك كله الحب ، ذكرت يوسف وجماله فطارت عجباً ، ثم ذكرت أنه فتاها ورهين إشارتها فرقص قلبها طرباً وسهل عليها ما ينتابها من الشواغل والحب ، ظنت أن في وجوده عندها بصفته عبداً لها مؤتمراً بأمرها تعزية لها ، تنسيها الهموم وتخفف عنها الأحزان ، وتهون عليها أمر حبها له ، فانتعشت جوارحها وثابت إليها آمالها . وانجلى صدرها وانبسطت نفسها ، وكانت عادة في مقتبل العمر ، وشرح الفتوة ، جميلة الطلعة ، قد أشرق وجهها بماء الشباب ، وقد تعبدت له وسلمته قلبها . لأن المرأة

(١) نسبة الى مكة المكرمة من البلاد الحجازية .

تفوق الرجل في بعض القوى العاقلة ، كالإدراك عن طريق الحواس ، المعروف بالشعور ، وكسلامة البداهة والذوق العقلي ، فلذلك مات إليه كثيراً . ومع كل هذا لم تكن ترى منه ميلاً وانعطافاً فلبثت أياماً تتردد بين اليأس والرجاء ينقبض صدرها تارة ، وينبسط أخرى ، فبالفت في تعزية نفسها عنه ، ولكنها لم تنمز ، فغلب الحب على عواطفها ، واستحوذ الضعف الطبيعي وسلطان الهوى على مشاعرها وعيل صبرها ، فغضمت أمواطفها ، ورفخت لأميلها ، فانتهزت فرصة دخوله البيت ليصلح بعض شأنه ، كما هو العادة كل حين ، فلم يرِم مكانه حتى دنت منه ، وجملت تنظر إليه نظرات الحب والشفق ، وتفضي إليه من طريق الصمت والسكون ، بما تخجل عن الإفشاء به من طريق الكلام ، ولما لم يفد معه ذلك ولم تطق هي صبراً استجمعت قواها فراودته ويا للخجل !!! ... فاقشعر بدنه ووقف شعره ، وقال مستهجنأ مستغربأ : ماذا تقولين يا امرأة؟! ...! لقد ابتغيت بيض الأنوف ، وطلبت المستحيل ، إني ولدت شريفاً ، وعشت شريفاً ، هو ذا دم الشرف والأصالة جار في عروقي ، وهامي ذي العفة العقويبة سارية في كل جروحي ، فبعد ذلك هل أسمع للتاريخ أن يسجل عليّ فعل الفحشاء؟ ... لا والذي نفسي بيده وبعد فهل لهذا غلقت الأبواب ، وتنازلت مي في الخطاب اللين ، فوالله ما أحسنت في القول ، ولا أجملت في الفعل .

الكبرياء

إنه لأمر غريب أمر هذه المرأة ! فقد كانت تحسب مراودتها إياه منة وتكرماً عليه ، وكانت تظنه لا يلبث إن علم بعيلها أن يطير فرحاً ، لأن حاله اللنيوي منقط عن حالها كثيراً ، فهو فتاها وعبدها ، وعبراني غريب ، وهو في نظرها من السوق ، ومن سائر الناس ، وهي سيدته وقرينة سيده ، وأميرة من أميرات

البلاط الملكي ، ومن سلائل الفراعنة فلذ لكم كانت تتوقع منه قبول اقتراحها ،
والنزول على إرادتها بما لها من دالة السيادة والنفوذ .

المرأة العتيقة الجديدة

وغنى عن البيان ، أن هذه المرأة من قديميات النساء المصريات وهو ظاهر ،
لأن بينها وبين الإسلام ما يقرب من (٣٧٠٠) سنة قمرية فهي بحسب
الزمان من نوع « المرأة القديمة » ولكنها بحسب مسلكها وأفكارها . هي من نوع
« المرأة الجديدة » ، إذ كانت لها السيادة المطلقة في المنزل ، بدليل قول العزيز لها :
« أكرمي مثواه » ، وكانت تبغض الحجاب بغض الشريقات للسفور ، بدليل أنها
راودته عن نفسه وغلقت الأبواب وقالت : « هيت لك » وكانت متهتكة لا تبالي
بشيء ، بدليل أنه لما هرب منها لحقته الى الباب ، وهي متملة نبيهة مدافعة كأ كبير
المهامين ، بدليل قولها للعزيز ، وهي في أخرج المواقف وأذهبها للألباب : « ماجزاء
من أراد بأهلك سوءاً الا أن يسجن أو عذاب أليم » ، وقولها للسيدات المصريات :
« هذا الذي لمتني فيه » تقيم عليهن الحججة ، وكانت تعرف كل شيء ، إلا واجب
عرضها وواجبات زوجها ، بدليل أنها خاتمه في نفسها أولاً ، ثم لم تمثل أمره ثانياً ،
وكانت لها المهارة في الخداع والتغلب على عقل الزوج ، بدليل أنها نفذت وعيدها
ليوسف بالسجن ، فاقنعت زوجها بذلك ، فسجنه حتى حين ، وأخيراً كانت ذات
بيان واقتدار فصيحة وخطيبة بليغة ، بدليل النطق الذي فاهت به أمام مندوب
التحقيق من طرف الملك ، إذ قالت : « الآن حصحص الحق » الى آخر الآيات
الثلاث ، فهي بأوصافها هذه تعد من نوع « المرأة الجديدة » بكل معنى الكلمة .

المرأة أعف من الرجل

وقبل الختام ليسمح لي السامعون الكرام أن أتصر للمرأة ولهم عليّ أن لا أتكلم إلا بما يوافق العقل والمنطق وبما هو مدون في بطن كتب التاريخ :

إن هذا النوع من بدء المرأة بمرأودة الرجل نادر ، وقليل جداً ، ومن المسلم به أن المرأة تقل عن الرجل فساداً وشدوذاً ، وتزيد عليه فضلاً وعفة ، انظر إلى أيّ بلد شئت من البلاد الكبيرة ، وتطلع فيها إلى « دور الفسق » تجد في كل بلد يعد أهله الخمسين ألفاً من السكان ، ألفاً من النساء من تلك الطبقة « الشاردة » وتجد من يرتادون هذه الدور من الرجال عشرة آلاف ، أي أن كل واحدة من « الشاردات » يقابلها عشرة من « الشاردين » وهذا تقدير تقريبي ، ولكننا نظن أنه صحيح في الأغلب ، بالنظر للبلاد الكبيرة ، التي دخلتها المدنية الموجهة ، وأما البلاد المتوسطة « فالساقطات » فيها ، هن واحدة في المئة ، وأما البلاد الصغيرة « فالساقطات » واحدة في الألف ، وربما شذ في بعض العائلات واحدة بينها أولاً يشذ منها أحد مطلقاً من النساء ، ولكن يكون قد خرج عن قانون العفة فيها جمع من الرجال ، وهذا أمر مشهود يعرفه جميع الناس ، ويعترفون به سرّاً ، إذالم يكن جهرّاً ، وها نحن أولاً نلاحظ أن المرأة في الشارع أكثر حشمة ووقاراً من الرجل ، ويندر أن تتحرش امرأة برجل ، حتى ولو كانت من « الشواذ » إلا قليلاً ، ولا نرى المضايقة تأتي إلا من قبل الرجال ، بما فيها من كلام لطيف أو خشن .

وظاهر ان للمرأة رجحاناً في كفة العفاف على الرجل ، وهذه ميزة لها ، يجب علينا الاعتداد بها والافتخار ، وترويض النفوس على الاقتداء بما فيها .

وأما حادثة «امرأة العزيز» مع يوسف «فشاذة» بسبب أن تلك المرأة اندهشت بجماله العبراني ، فلم تمد تمالك ، ومما سهلها كثرة اختلاطها به ، وأنه تحت أمرها ويوسف أبي عليها بما أوتي من عفة وطهارة ، فهذه حادثة نادرة في بابها ، فما كل النساء «زليخا» ولا كل الشباب «يوسف» .

وما أريد من هذا البحث إلا رفع الغرور من رؤوس الذين يتبعجون بفضائلهم وردل المرأة واحتقارها لهفوتها ، وبظني إن مراودة امرأة لرجل أندر من الكبريت الأحمر ، ولذلك ذكرت هذه المراودة في التاريخ الذي لا يذكر فيه إلا الشيء النادر ، ولو كان يعنى في التاريخ بذكر فواحش الرجال ، لكانت صحفه مملوءة أكثر مما هي اليوم مرتين ، ولا أحسبكم إلا مسلمون لي في هذا الاعتقاد على طول الخط .

مقابلة بين زليخا وبين بعض نساء العرب

وتابعت السيدة عليه المكية خطابها قائلة :

والآن ليسمح لي السادة المؤتمرون أن أجري مقابلة بين امرأة العزيز «زليخا» وبين بعض نساء العرب الفضليات اللواتي سطر التاريخ فضلهن وعفتن ورجاحة عقلمن بمداد من الفخار والشرف فأقول :

١ — أين هذه المرأة (زليخا) من السيدة (خديجة بنت خويلد) ، زوج النبي وأم المؤمنين ، فانها لما رغبت في النبي ﷺ أرسلت إليه عجوزاً تشوقه في خطبتها من وليها ، فالنبي ﷺ بعد مشورة أعمامه ، خطبها من أبيها ، فاقرن بها .

٢ — بل أين هذه المرأة (زليخا) من (هند بنت عتبة) التي أراد أبوها أن يزوجها من أحد رجلين ، رجل ذي ثروة وجمال رائع .. ورجل ليس عنده

شيء من ذلك ، ولكنه منظور إليه في الحسب والنسب ، فمدلت عن صاحب الثروة والجمال ، واختارت الثاني فكان هو (أبا سفيان بن حرب) « فولدت منه معاوية مؤسس دولة بني أمية ، وأحد نجباء العرب ودواهيهم .

٣ - وأين هذه المرأة (زليخا) من الفتاة (بيته بنت أوس) الطائي التي لما زفت إلى (الحارث المري) وأراد ان يدخل إليها ، نسيت لنتها وشهوتها وقالت له : « أنفرغ للنساء ، والعرب يقتل بعضها بعضاً !!! » تشير إلى حرب ظلت مستمرة نحواً من أربعين سنة ، بين بني عبيد و بني ذبيان ، ولم يتفكر أحد في إطفائها إلا هيهة ، فقال لها وهي بين ذراعيه . « ماذا تقولين ؟ » . قالت : « اخرج إلى هؤلاء القوم ، فأصلح بينهم ، ثم ارجع إلي !!! » ، فقام من عندها وخرج ومشى بالصلح ودفع الديات ، ثم رجع إليها وحظي بها ، فلا ريب أن مسلك هؤلاء النسوة كان خيراً جداً وأشرف مما سلكته (امرأة العزيز) التي كان معظم اجتهادها النظر إلى شهوتها ولذتها .

٤ - وأين هذه المرأة (زليخا) من (معاذة الباهلية) التي نزل بها رجل من العرب ، وليس زوجها عندها ، فأكرمه وفرشت له ، فلما لم ير عندها أحداً سامها نفسها ، فأخذت مديّة فأخفتها ، فلما ثار إليها ، ضربته بها في نحره ، فسقط ميتاً (مصارع العشاق ج ٣) .

٥ - وأين هذه المرأة (زليخا) من (أسماء ابنة رويم) التي كانت من نساء العرب العاقلات الحكيمات الولودات والتي كانت تسمى أولادها بأسماء الوحوش الضارية ، قيل أنه مرّ بها يوماً (وائل بن ساقط) فرآها منفردة في خباتها ، فراودها عن نفسها فقالت : « والله لئن قربت مني ، لأدعون أسبمي » - فقال : ما أرى سواك في الوادي ، فصاحت بينها : « يا كلب يا ذئب ، يا فهد ، يا سبع ، يا دب ، يا ضبع ، يا غمر » فجاءوا يتعادون بالسيوف ، فقال وائل : « ما هذا إلا

وادي السباع ، فلزم هذا الإسم ذلك الوادي ، وقالوا لها : « ما شأنك ؟ » - قالت :
« إنه نزل بنا ضيف فأحببت أن تكرموه » فأكرموه إكراماً زائداً وانصرف
وهو يتعجب من ذريتها ومن حضور بديتها ، لتحمل العذر الذي أبدته
لأولادها !! .

هذا قليل من كثير أيها السادة ولو أردت أن أسرد جميع ما كتب في التاريخ
من أمثال ذلك لاحتجت إلى مئات من الصفحات .
« وما أن أتمت السيد عليه خطابها حتى دوت في قاعة المؤتمر عاصفة حادة من
التصفيق وكلمات الاستحسان » .

(وراودته التي هو في بيتها)

— ٢ —

وقالت الآنسة أسماء المقدسية :

المزاودة من طرف واحد

كانت زليخا أولاً فارغة من حب يوسف وسواه ، ولكن لما وُجد يوسف
عندها على ما هو عليه من الصبابة ، ومقبل الشباب ، وشرخ الفتوة ، وتكررت
(طبعاً) رؤيتها له صباح مساء ، علفت به من حيث لا تشعر ، ومن غريب أمر
الحب أنه يقع على الناس وقوع السبات ، من حيث لا يعلمون .

أحبت يوسف ، وباليتهما اقتصرت على الحب فعمفت وصبرت ، ليكون ظاهراً ،
بل أرادت تلويثه بما فعلت ! إذ تآقت نفسها وشرهت ، وألحّ عليها الغرام
ونازعتها الميول الجسدية واستولى عليها سلطان الحب فأنساها سلطانها ،

وسلطان سيدها ، الذي كان رئيس الشرط ، وناظر الحرم ، وعزيز مصر ،
والحب نافذ الكلمة ، ماضي القضاء ، غالب على كل سلطان ، يستذل الملوك ،
ويحطّم سيوف القادة .

علقت زليخا بيوسف ، وأرادت قضاء وطرها منه ، فجعلت تفكر هل تطيع
قلبا وتعصي زوجها ؟ وهل سيكون عند يوسف مثل ما عندها ؟ وهل يمكنها
الوصول لذلك بدون أن يشعر بها أحد من خدمة قصرها ؟ وهل يمكن ليوسف
أن يدوس إرادتها تحت أقدامه ولا يمثل أمرها ، وهي سيدته النافذة ؟ وهل سيخفي
هذا الأمر أو يفضّيه .

قضت في ذلك أياماً وليالي ، وهي تطوف في عالم الخيال ، ثم تعود إلى حيث
بدأت ، حتى لم تعد تستطيع الصبر ، ولم تتمالك السكوت ، فتغلبت عواطفها على
عقلها ، واستسلمت لشیطان شهوتها ، وانقادت لميولها الحيوانية ، وآثرت اللذة الفانية ، على لذة
الشرف الباقية وتنزلت عن عرش أنفها وعزة نفسها ، وتزافت له بالدو طاب من لطيف الخطاب
ولم تكن ترجو الوصول لمطلوبها بسهولة ، افكرت أن هذا الأمر يحتاج إلى روية
وتهديد ، فابتدأت في مناغمة يوسف ومناغشته بالسمّة الخفية ، فلم تجد منه سوى
الجد والإغضاء والصلابة ، ولم تر في شيء من حركاته وأقواله ما يفتح لها نافذة من
الأمل ، ولكن الحب كان يعترض عوامل اليأس فيها ، وكانت أميالها وآمالها
تقوى شيئاً فشيئاً ، — والخلاوة — كما يقولون — رقية الفحشاء — ، كما ان
— الجمال عزيزة الحب — فراودته جانية ذاهبة وذاهبة جائية ، ولكن هو لم
يراودها ، فالفاعلة من واحد ، كخطابة الدائن ، ومهاطلة المديون ، ومداواة الطبيب
ونظائرهما ، مما يكون من أحد الجانبين بالفعل ، ومن الجانب الآخر سببه ، ومنه
قوله تعالى : ﴿ وَقَاتَمَهُمَا ﴾ (٧ : ٢٠) أي حلف لهما ، ولم يحلفا له ، كما قاله
البخاري ، ومنه كلمة : فقطاع كلامه .

وإنما وقعت المرادة منها فقط لأن الفريزة النوعية فيها أكثر عملاً وأقوى فعلاً ، فضلاً عن أن عواطفها تغلب على عقلها بعكس الرجل الذي يتغلب عقله على عواطفه ، فهي أحس بالجمال من الرجل وإن كانت أضيقت له فهماً ، ولا تنس ما ليوسف عليه السلام من عفة دينية ، لا يزغرها جمال ولا جبال .

(وراودته التي هو في بيتها عن نفسه)

— ٣ —

وقال الامام الفاهري لي على هذه الفقرة التعليلات التالية :

الحكمة من ذكر حديث المرادة

١ — لا بد لسائل يسأل عن الحكمة في ذكر حديث المرادة فنقول إن في ذلكم هي العبرة للقارئ ، ليحذروا لأنفسهم فلا يقتنوا في بيوتهم الفتيان والمهاليك وإذا اقتنوهم لم يسوغوا لهم الخلوة بنسائهم فإنهم إن فعلوا هكذا يمزقون أعراضهم بأيديهم ، ولا يحسبون أنهم يحسنون صنعا ، إذ ليس كل فتى هو يوسف ، وليس كل مملوك كهذا الملك الكريم . كما إن الحكمة في ذكر حديث المرادة الصادر من امرأة العزيز وذكر تهتك النسوة المصريات وعشقهن ايوسف واستغراقهن في جماله وتقطيعن أيديهن وتفزلهن في محاسنه ، هو للزم في أهله بصورة تبغضه وتنفر عنه ، وتوجب الانتهاء عما نهى الله عنه ، والبغض لما يبغضه ، وتبين سوء عاقبة أهله ثم تبين عفة يوسف وطهارته ، وحسن عاقبة المتعفين ، وسوء عاقبة الساقطين ، هذا وقد قص الله تعالى علينا في القرآن الكريم قصص الأنبياء والتقنين وقصص الفجار والكافرين ، لنعتبر بالأمرين ، فنحب الأولين وسبيلهم ونقتدي بهم ، ونبغض الآخرين وسبيلهم ، ونجتنب فعالهم .

والحكمة أيضاً في ذكر قصة المراودة هي تعليم الاناث ان عاقبة مراودة الشابات للشبان إنما هي الخزي والعار وسوء السمعة وانها مهما اجتهدت في قلب الحقيقة وستر الفحشاء ، فلا بد أن الله تعالى يظهر الحق ويدافع عن الأبرياء الأعفاه وإن الانثى الساقطة قد يكون أبوها أو أخوها أو غيرها من أهلها من المقاومين لها ، كما اتفق أن الرجل الشاهد من أهل زليخا كان من أعظم المقاومين لها وكذا زوجها العزيز ، وكذلك صديقاتها النسوة المصريات ، وإن العاقبة للأعفاه الطاهرين ، وفيه أيضاً تعليم أن سقوط المرأة أو محاولتها السقوط ربما يسبب نزول محنة بزوجها ، كما وقع لزواج زليخا فانه أنزل عن وظيفة عزيز مصر ، بسبب أعمال زوجته ، فظهر أن في قراءة هذه القصة أو هذه السورة فائدة كبرى للرجال والنساء .

وأما ما يرويه بعض المفسرين من حديث : « لا تعلمون من سورة يوسف ، علموهن سورة النور » فهو من الموضوعات ، وماذا يقول من يروي مثل هذه الأخبار الموضوعية في قوله تعالى : ﴿ إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾ (آ : ٢) هل هذا التعقل خاص بالرجال؟! وما يقول في قوله تعالى : ﴿ نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ ﴾ (آ : ٣) فهل أحسن القصص هذا مخصوص بالرجال؟! وماذا يقول في قوله تعالى : ﴿ لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ ﴾ (آ : ١١١) فهل هذه العبرة هي منحة ومزية للرجال فقط؟! وما القصد من قوله تعالى : ﴿ ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ ﴾ (آ : ١٠٢) فهل القصد نوحيه إليك لتبلغه للرجال فقط وتكتمه عن النساء أو لتبلغه للجميع كما هو مقتضى عموم قوله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ ، بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ ، وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ ﴾ (٥ : ٧٠) وهل القرآن نازل لأجل الرجال فقط أولهم وللنساء؟ وهل تبليغ الرسول لما أنزل من ربه خاص

بناس دون ناس ، وبشيء من القرآن دون شيء ؛! سبحانه هذا بهتان عظيم ، وإذا كنا منبهين عن تعليم نساتنا سورة يوسف لما فيها من ذكر قصة امرأة العزيز ، فلم لانتهى عن كل قصة يوسف مع إخوته لما فيها من ذكر قطع الرحم والعقوق ، والختل .. والخ والخ .

فالخلاصة ان رواية النهي عن تعليم النساء سورة يوسف هي كاذبة محضة وفرية على الله ورسوله والله أعلم .

مواضع استعمال المرادة في القرآن

٢- لم تقع هذه المادة « المرادة » في القرآن الكريم إلا في موضوع الإحتيال والدهاء ، فحينما استعملت في مفاوضة (امرأة العزيز) ليوسف الصديق ، كما هنا وحينما استعملت لدى مفاوضه أبناء يعقوب لأبيهم في إرسال بنيامين معهم لمصر عند رحلتهم الثانية ، وذلك في قولهم : ﴿ سَرَّوْدُ عَنْهُ أَبَاهُ ﴾ (آ : ٦١) وحينما استعملت في مفاوضة السدوميين لني الله لوط (م) بشأن ضيوفه الملائكة ، وذلك في قوله تعالى : ﴿ وَقَدْ رَاوْدُوهُ عَنْ ضَيْفِهِ ، فَطَمَسْنَا أَعْيُنَهُمْ ﴾ (٥٤ : ٣٧) فهذه مواضع ثلاثة وردت فيها هذه المادة ، ولم ترد في غيرها ، وكلها من نوع التحيل والاستدراج كما قلنا .

اختلاط الرجل بالمرأة

٣- نعلم حق العلم أن الذي سهل على زليخا (امرأة العزيز) مراودة عبدها العبراني (يوسف) إنما هو المخالطة والخلوة ، ولو لا ذلك لما حصل شيء مما ذكر .

قيل لأعرابية : « لم زيت ببيدك ، ولم زن بحري ، وما أغراك به ؟ » -
 قالت : « طول السواد ، وقرب الوساد » فما يرق السهم من الرمية كمروق السيدة
 للباطل ولماذا كرهها الذي تحتلي به بلا رقيب ولا ملاحظ ، بخلاف ما إذا لم
 تكن هناك مخالطة ولا خلوة ، فإن وصولها لهذا الأمر لبعيد جداً .
 فاختلاط الرجل بالمرأة فيما إذا كان (مثلاً) زائراً أو خادماً كما هنا
 لهوا اختلاط محفوف بالخاوف .

وبدعة الاختلاط ، وبالأحرى بدعة المفاوضات السرية الدنيئة ، موجودة
 (غالباً) في الطبقات العليا من الناس ، وإنما قلنا (غالباً) لأننا نعرف أنه يوجد
 في الطبقة العليا من هن أعف وأشرف من كل من عداهن ، وحكم الطبقات الدنيا
 كحكم العليا ، وأما الطبقات الوسطى ، فهن أبعد عن أمثال هذه البدعة
 من الطبقتين .

وكما كان الاختلاط والخلوة من أسباب سهولة المراودة في العصور القديمة
 فهو من سموم العصور الحاضرة الحقاء ، ومن دواعي السفور والخلاعة والاستهتار ،
 وقد أثبت كتاب أوربا وكاتباتها - ان سبب سقوط أكثر النساء عندهم هو
 اختلاط المرأة بالرجل في البيوت والمعامل والمخازن والأسواق وغيرها من
 أبواب الحياة .

ولذلك جاءت الشريعة المحمدية بالحجاب الحقيقي الشرعي ، وهو يتجلى في
 كل ما يمنع الفتنة ، قال تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ ، قُلْ لَأَزْوَاجِكُمْ وَبَنَاتِكُمْ وَنِسَاءَ
 الْمُؤْمِنِينَ : يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِنْ جَلَابِيبِهِنَّ ذَلِكَ أَدْنَى أَنْ يُعْرَفْنَ ، فَلَا يُؤْذَيْنَ ،
 وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا ﴾ (٥٩ : ٣٣) وقال تعالى : ﴿ وَقُلْ لِلْمُؤْمِنَاتِ :
 يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ ، وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ ، وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ
 إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَلَا يَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ ، وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ
 أَوْ آبَائِهِنَّ أَوْ آبَاءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ أَبْنَائِهِنَّ أَوْ أَبْنَاءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ إِخْوَانِهِنَّ أَوْ
 بَنِي إِخْوَانِهِنَّ أَوْ بَنِي أَخَوَاتِهِنَّ أَوْ نِسَائِهِنَّ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُنَّ أَوْ التَّابِعِينَ
 غَيْرِ أُولِي الإِرْبَةِ مِنَ الرِّجَالِ أَوِ الطِّفْلِ الَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُوا عَلَى عَوْرَاتِ النِّسَاءِ ،

ولا يَضْرِبَنَّ بِأَرْجُلَيْهِمَا ، لِيُعْلَمَ مَا يُخْفَيْنَ مِنْ زِينَتِهِنَّ ، وَذُوبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعاً أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ ، لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ . ﴿٣٤ : ٣١﴾ ، ومعلوم أن يوسف لم يكن مملوكاً لامرأة العزيز ، بل لسيدها ، ولم يكن من غير أولى الأربه ، بل من أصحابها .

هذا وإن الشرع الشريف ، يحرم الخلوة بالمرأة الأجنبية ، وكذلك مكالتها للأجنبي مع الخلوة دون المأ ، وأما مكالة المرأة الرجال في المأ ، فجازة ، كما كان يقع ذلك من نساء النبي (ص) مع الأجانب ، وهن اللاتي أُمرن بالمبالغة في الحجاب ، وقد ورد : « أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يكلم إحدى أزواجه « زينب » في باب المسجد ، فمر رجلان ، فأسرعا في المشي ، فقال لهما : على رسلكما ، إنها فلانة . ففي هذا تنبيه للمسلمين ، الى أنه لا يجوز للرجل أن يخلو بامرأة ، مهما كان صالحاً ، هذا في الشريعة الاسلامية ، ولعل الشريعة الابراهيمية — العبرانية — كانت تبيح كلاً من الخلوة ، والمكالة في الخلوة ، كما وقع من يوسف ، أو لعل يوسف كان يرى نفسه مقهوراً على ذلك ، حيث انه عبد .

وقد أباح علماء المسلمين رؤية الوجه واليدين ، قائلين إنها ليسا بعورة ، ومن قال إنها عورة أباح رؤية الوجه ونحوه إذا مست الحاجة ، وذكروا من ذلك تحمل الشهادة والمتاجرة مع المرأة والتطبيب والحاسبة وما إلى ذلك ، وبالجملة : فالمدار عندهم على الحاجة كائنة ما كانت .

وجه اضافة البيت الى زليخا

٤- كثيراً ما أضيف البيت إلى النساء باعتبار انهن القائمات بمصالحهن أو الملامات له ، كما يقول الكتاب : ﴿ وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ ﴾ (٣٣ : ٣٣) و ﴿ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ أَهْلِ بَيْتٍ تَكْفُلُونَهُ لَكُمْ ؟ ﴾ (٢٨ : ١٢) و ﴿ إِنَّمَا

يريدُ اللهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمْ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ ﴿٣٣ : ٣٣﴾ * ولا تَخْرُجُوهُنَّ مِنْ بُيُوتِهِنَّ ﴿٦٥ : ١﴾ هذا وجه ، ووجه آخر ، وهو انه قد يكون لنساء المحكام والأمراء ، وذوي البيوتات الرفيعة بيت خاص بهن ، لزيارة النساء ، كما يكون للرجال بيت خاص بهم ، لاستقبال الرجال ، ويكون بيت ثالث قريب من الباب يسمى بهواً .

وكلمة « في بيتها » ، أريد بها أمران ، الأول الستر عليها ما أمكن ، بعدم التصريح باسمها ، والثاني الإشارة إلى استهجان هذه المراودة بكون (امرأة العزيز) إنما راودت عبداً ، هو من خدمة القصر ، وعن حوامم القصر للخدمة .

وفي تبيان أن يوسف « في بيتها » ثم تغليق الأبواب ، واستعدادها له - إعلاء شأن يوسف ، لأن كونه في بيتها أدعى إلى موافقتها ؛ وتغليق الأبواب ، أدعى وأدعى ، فان المستر لا سيما مع من يملك أمره - يفعل ما لا يفعله الذي يستبين فعله ويظهر حاله ، وقد راودته من تملك أمره ، وتملك نفعه وضره ، فالعفة مع هذه الأحوال أرقى ما وصل إليه أهل العفة .

لذا عبر بكلمة « عن نفسه »

٥- وأما كلمة « عن نفسه » فمعناها خادعته عن نفسه ، فدعى بـ « عن » لتضمنه معنى الخادعة ، أي فعلت ما يفعل الخادع لصاحبه ، عن شيء لا يريد صاحبه إخراجه من يده ، وهو يحتال أن يأخذه منه ، والكلمة عبارة عن التمجيل في مخالطته إياها .

عمر يوسف وزليخا حين المراودة

٦- نعلم أن يوسف لما اشتراه (عزيز مصر) كان ابن ١٧ سنة وأما كم كان عمره وعمر زليخا حينما حدثت تلك الحوادث ، حوادث المراودة فذلك سؤال لا يمكننا الإجابة عنه ، غير ان الظاهر من التاريخ ، ان عمر يوسف حين المراودة كان يتراوح غالباً بين ٢٦ و ٢٧ سنة ، كما أننا نقدر أن نستنتج من حال امرأة العزيز وشيقها وشغفها وحبوتها انها كانت نصفاً أو إلى الشباب أقرب .

(وغلقت الأبواب ..)

- ١ -

وقالت السيدة لطيفة العامرية :

أبواب قصر العزيز

لما دخل يوسف يوماً على جاري عادته قصر سيده العزيز ، انتهزت زليخا فرصة تلك الخلوة ، فأرادته ، فأبى ، وهكذا ما زالت تؤزه أزاً ، وهو لا يزداد إلا ترفماً ، حتى اضطرها إلى أن قامت بسرعة وغلقت الأبواب ، ومنعت كل دخول وخروج منها ، وقالت : الآن اختر الحائط التي تريدها واخرج منها .
والأبواب هذه ، هي كما جرت العادة من القديم إلى الآن أن يكون لقصور الأمراء والكبراء عدة أبواب ونوافذ من الجهات الأربع ، أو أن يكون لكل قصر أبواب متتامة بعضها وراء بعض خارجة وداخلة ووسطى ، وقد جرى «أبو حيان» في «البحر» على الاحتمال الأول إذ قال : « هي أبواب ليست على الترتيب باباً باباً بل هي في جهات مختلفة ، وكلها منافذ للبيت الذي كان فيه ، ، وقد قلنا شأن بيوت الأمراء والكبراء أن يكون للقصر الواحد عدة أبواب في عدة نواح للدخول

والخروج ، كما يكون فيها عدد من النوافذ لتبادل الهواء ودخول النور ، فقل
تلك المرأة أوصدت كل ذلك وقوله فيما يأتي : ﴿ واستبقا الباب ﴾ بالإفراد يؤيد
الاحتمال الأول .

المرآة وتعليق الأبواب

وعندنا أن تعليقها الأبواب كان لأحد ثلاثة أسباب أو لجميعها :

الأول — التقدم لتلك الفعلة الشنعاء التي ترخى على مثلها الستور ، وتسد
النوافذ ، وتقام من حولها الدعائم والجدران .
الثاني — خوف أن يدخل أحد من الخدم والجواري الذين اعتادوا الدخول
فيه بلا إذن ، ليعملوا عملهم ، أو خوف أن يبتغهم العزيز نفسه إذا جاء على حين
غرة وفي غير وقت مجيئه المعتاد .

الثالث — خوفها أن يأبى يوسف عليها ، ويركن إلى الهروب من بين يديها
ورب سائل يسأل : لماذا لم تغلق الأبواب قبل المرآة . مع أن فيه احتياطاً
واحتفاظاً أكثر ، ثم أليست حكاية المرآة تكفي عن ذكر أنها قالت له « هيت
لك » ؟ لأنها شيء واحد ؟ فالجواب هو أن هذا السؤال مبني على أن ما ذكر في
كلام الله تعالى هو حادثة واحدة ، وهو ما درج عليه المفسرون ، وعندنا أنه يحتمل
أنها حادثتان ، فالحادثة الأولى هي أن « امرأة العزيز » كانت رفعت عينها إلى
يوسف يوماً ما وراودته فأبى ، ثم كلمته يوماً آخر ولاحقته على أن
يضطجع معها ، ولكنه لم يسمع وأبى إباء كلياً ، ثم حدث بعد ذلك أن دخل القصر
ليقوم بما كان عليه من الأعمال والخدم ، باعتبار أنه وكيل البيت ، ونظر حرم ،
فكلمته أيضاً وأرادته على نفسها قائلة : « هيت لك » تعال اضطجع معي في هذه
الكلية ، فقال : « معاذ الله » الخ ما حكاها الله تعالى عنه ، فطلب امرأة العزيز

ليوسف تكرر مراراً ، كما صرح به في (تك ٣٩ : ٧ - ١٣) وقد أشار الله تعالى لذلك بكلمة « راودته » ، وكل لبيب بالإشارة يفهم ، لأن هذه الكلمة تشعر بالذهاب والإياب تكررأ ، كما نعلمه من كتب اللغة ؛ وبهذا التحقيق يظهر أنها حادثتان ، لا حادثة واحدة ، فقوله : ﴿ وراودته التي هو في بيتها عن نفسه ﴾ يشير للحادثة الأولى وقوله : ﴿ وغلقت الأبواب ، وقالت هيت لك ﴾ الخ يشير للحادثة الثانية ، وبهذا يظهر الجواب عن السؤال بشقيه .

ويموز أن تكون راودته بلطف وإيماء ، ولما لم تر منه نزولاً على إرادتها ، قامت وغلقت الأبواب ، وانتقلت من دور اللطف والايحاء الى دور الصراحة والوضوح فقالت : « هيت لك » وعلى هذا فالحادثة واحدة ، والله تعالى أعلم .

ما معنى « غلقت »

و « غلقت » أجافت وأوصدت دونه الأبواب ، وأرتجتها « بالمزلاج » وهو ما يفتح باليد ، ويقال له في عرف اهل الشام « الدقتر » ، حملاً على العوائد القديمة عند أهل المالم ، أو ارتجتها « بالمغلاق » ويقال له « الغلسق » ، وفي العرف « ضبّة » وهذا لا يفتح إلا بالمفتاح ، أو غلقتها « بلاقطة » من خشب سهلة الحركة ، ويقال لها في عرف أهل الريف اليوم « لبقطة » .

وقد عبر « بغلقت » دون « غلقت » ، لأنه لشغلة أو لغنية رديئة متروكة « ولا يقال لباب الدار مغلوق » ، فما بقي إلا غلسق وأغلسق ، ولكن الأول أكثر استعمالاً ، وربما قالوا « أغلق » قليلاً ، والأفصح غلسق ، فلذلك اخترت في كتاب الله هذا التعبير .

(وقالت هيت لك — قال : معاذ الله)

— ١ —

وقالت الحاجة صفة المقدسية :

طلب زليخا الفاحشة من يوسف واباء يوسف

عملت زليخا أمام يوسف كل عزيمة سحرية ، وحرقت بين يديه البخور ،
وقالت بلغة الحب والغرام ، قالت وهي باشة مهللة قالت وهي ترقبه بعينين يشع منها
بريق الأمل ، قالت يا يوسف ، أمتع الله بك ، تعال لتقض من اللذات الأرب ، ثم
ليكن بعد ذلك الطوفان ، يا يوسف ، إني في خطر الموت من حيي لك ، وحياتي
في يدك ، فذهلم إليّ ؛ يا يوسف ، هذا صوتي ، فاسمني صوتك ، وهذه رغبتني ،
فأرني رغبتك ، وهذا حيي ، فأرني حبك ، وهذه إرادتي ، فأرني طاعتك ...
وهكذا أقبلت به وأدبرت واجتهدت ، وفي لحن كلامها وملاحظها ما يدل على شدة
تواضعها وتراحمها ، بنية الوصول لهذا الأمر ، وكانت قد أخفت صوتها لئلا يسمها
أحد ، وجملت تتطلع من النوافذ خوفاً من تجسس بعض الجوارى أو القهرمانات.
سمع يوسف خطابها فتمعّر وجهه ، حتى صار كالصّرف ، وقال أيّ هنتاه ، لمن
تقولين هذا القول ؟ — قالت لك وإياك أعني ، — قال هل غرك أني عبد لك ؟ ،
« وأنكٍ مها تأمري القلب بفعل ؟ ، حاشا لي من ذلك ؛

فكررت عليه القول وكرر عليها الإباء مبيناً لها حرمة الطلب وشناعة
اللمس ، ولما رأت منه ذلك أخذت تحظر في القصر وقلبها يحظر في صدرها ، ثم
أعدت عليه الطلب ملححة ملحفة وأخذت تتبعه بنظراتها ، لتفحص صورة نفسه

المرتسمة على وجهه ، فما رأته إلا أنه قد ارتدّ ، وعلاه لون الكدر والكمد وقال لها بملء فيه : ' برحى ' برحى ' ، معاذ الله ، وألف مرة معاذ الله حاشا لي أن أقدم على هذه العظيمة التي فيها العار والشنار ، وفي الآخرة النار .

وما زالت امرأة العزيز تستعطفه باللين تارة ، وتعمده بالسعادة تارة أخرى كما أنها لم تترك وسيلة من الوسائل إلا اتخذتها للوصول الى غرضها منه ولكن يوسف كافع كفاح الاسود وصبر عما أرادته صبر الرجال ، وثبت على قداسته وطهارته . ويظهر لنا ان استنكاف يوسف عن مس تلك الأميرة يعد من قبيل الإرهاص لبنونه ، لأن تعفف شاب من الشبيبة ، عن قربان سيدة أميرة ، تطلب منه وترغب اليه أن يعرفها ، حال كون هذا الطلب كان وهو في قصرها ، ليس عليها رقيب ولا ملاحظ ، ولا محلّ لخوف يوسف منها أو من زوجها ، لأنها هي المتزلفة المتهاقفة ، فهذا الامتناع في مثل هذه الحال ، هو نادر في بابها جداً ، ويعد من الأولياء كرامة ، ومن سيكونون أنبياء إرهاباً .

(انه ربي أحسن مشواي)

— ١ —

ووقف الشيخ أحمد من علماء « ليبيا » ليلقي خطاباً حبرته يد السيدة هصبة بالنيابة عنها فقال :

اعتراف يوسف بالجميل

يقول يوسف ان فوطيفار رباني في عهد الثقافة بنعمته ، وكلائي برعايته ، فتح لي صدره ومنازله ، فيجب عليّ أن أحفظ كرامته ، أباح لي التصرف في بيته ،

واني إذالم أحسب له حساباً ، يجب عليّ أن أحسب لفضله وخيره ألف حساب .
ألقي الي مقاليد أموره ، وهو صاحب نعماي ، وقد أمتني على عرضه ، ولا
إيمان لمن لا أمانة له ، ولا دين لمن لا عقل له ، فلا ندحة من أن أحفظ بمعروفه ،
لأن لي شرفاً أحب أن أبقي عليه . أكثر ما أُبقيّ على متاع الدنيا ولذاتها .

إني فقدت وطني وأهلي ، وخسرت أبوي وإخوتي ، ولم يبق لي إلا شرفي ،
فهو كل ما أصبحت أملكه ، من بعد ذلك كله ، فهل يسوغ لي أن أعدمه أيضاً ،
وألحقه بتلك الخسائر؟! .. حاشا لي من ذلك ...

نعم إنه ربي أحسن مثواي ، وجدأ أحسن مثواي فيما درج من الأيام ، وبذل في سبيل راحتي
كل مرتخص وغال ، ورَفَدني وأفضل عليّ ، ولا يُقدم على هذا الأمر ، إلا كل ناس
أو متناس للاحسان ، ميت الضمير ، لا زمام له يزجره ، ولا عقل يعقله ، وإن لي
بحمد الله ضميراً حياً يؤنبني ، وعقلاً عاقلاً يعقلني .

هو جعل لي في قصره ، بل وفي قلبه ، المقام الأول ، وكلني على بيته ،
وائتمني على عقيلته وحرمة ، فيجب أن تكون حقوقه عندي مقدسة ، فإن كان
منلي بخون ، فرحمة الله على الوكلاء ، وسلام على الأبناء ، إن ماسألتي إياه محظور
من وجهين : وجه ديني ، ووجه أدبي ، فلو لم أدع هذا تأثماً ، لتركته تأدباً ، وإذا
كانت الشرائع تقول : « لا تخن من خانك » فكيف أخون أنا من أمتي؟! وإذا أراد
الله بمبد خيراً ، جعل صنائمه ومعروفه في أهل الحِفاظ ، وإذا أراد به شراً ،
جعل صنائمه ومعروفه في غير أهل الحِفاظ ، كما نطقت بذلك الحكيم السماوية ،
فهل تريدن أن أكون من غير أهل الحِفاظ ، هذا هو مرمى كلام يوسف
(م) ومغزاه .

وهنا فوائد :

الاسباب التي تبعد الانسان عن الفحش والمخالطة

الفائدة الأولى — إن ما يبعد الانسان عن الفحش والمخالطة المحرمة ، هو إما سبب صحي يبين الخطر الهائل الكامن في هذا الفعل ، أو سبب ديني ، يدعو إلى الاتهار بأمر الله والالتفاء بنبيه والخوف من ناره وغضبه ، والرجاء في جنته ورضوانه أو سبب أدبي ، يدعو الى المحافظة على الروءة والشرف ، وحسن السمعة وكرم المجتد ، ومراعاة الامانة .

وظاهر ان الذي منع يوسف الصديق (م) هو السببان الآخران ، الديني والأدبي ، فلهذا عصم نفسه بمصمة الله تعالى إياه .

توبيخ بوسنت لزليغا ضمناً

الفائدة الثانية — كانت كلمة ﴿ إنه ربي أحسن مثواي ﴾ أشد وقعاً على رأس زليغا من الصاعقة ، ولا سمعتها اضطربت لها كل جارحة من جوارحها ، لأنها تذكرها بارتباطها بزوجها الرباط المقدس ، الذي لا يميز لها مرادة سواء بمثل ذلك ، ولا ريب أنه عندما سمعت جوابه ، استاءت وخجلت بتلك الكلمة ، لما تضمنته من التوبيخ والتعنيف ، ولكن مع الاسف رغماً عن كل ذلك ، فما زالت مندفعة بتيار العواطف الرديئة ، حتى كررت عليه الطالب ، فالجأتة الى همه بقتلها فالهرب كما سيأتي .

تعريض يوسف بزليخا

الفائدة الثالثة - يريد بقوله « إن ربي أحسن مثواي » نفسه ، ثم هو أيضاً يعرض به لها ، كأنه يقول : أنا أفكر هذا الفكر ، وأحفظ لسيدي معروفه معي ، وأحافظ على شرفه ، فكان من الواجب عليك أنت أيضاً أن تحفظي لسيدك (الذي أحسن مثواك) حقه ، ولا تظلميه في التعدي على شرفه ، بل إن هذا بك أولى مني ، فليس العبد أولى بحفظ معروف سيده وبالمحافظة على شرفه - من زوجته (شريكه حياته التي هي وهو إنسان واحد) .

المراد بالرب في قوله انه ربي

الفائدة الرابعة - نتعلم من قوله « إنه ربي » أن إطلاق لفظ « الرب » مضافاً للعاقل - على غير الله تعالى كان جائزاً عند يوسف الصديق وفي عصره ، أو بعبارة أصح كان جائزاً في شريعة حده إبراهيم (م) بل إن مثل ذلك وارد في شريعتنا ، ففي صحيح البخاري ، في أشراط الساعة الصغرى : « وأن تلد الأمة ربها » وفي رواية « ربها » ، وربما جاء باللام عوضاً عن الاضافة إذا كانت بمعنى السيد ، قال الحارث بن حنزة :

فهو الرب والشهيد على يوم الحيارين والبلاء بلاء

(مصباح) ومنه ما في صحيح البخاري أيضاً : « إن تداول سليمان الفارسي بضعة عشر من رب إلى رب » ، أي تداولته الأيدي من مالك إلى مالك .

وعليه فيكون المراد ههنا « بالرب » - « عزيز مصر » والرب بمعنى السيد والمولى والمالك .

ومنه فيما أفهم على احتمال ما في قوله تعالى : ﴿ لَوْلَا أَنْ رَأَىٰ بُرْهَانَ رَبِّهِ ﴾ (آ : ٢٤٤) إذ يحتمل عندنا أنه بمعنى سيده ومالكه وهو فوطيفار ، وبرهانه هو إحسانه لثواه . ومنه : ﴿ فَيَسْئَلُ رَبَّهُ خَمْرًا ﴾ (آ : ٤١) أي سيده ومولاه . وهو الريان ملك مصر .

ومنه : ﴿ اذْكُرْنِي عِنْدَ رَبِّكَ ﴾ (آ : ٤٢) ، أي سيدك وهو الريان .

ومنه : ﴿ فَأَنْسَاهُ الشَّيْطَانُ ذِكْرَ رَبِّهِ ﴾ (آ : ٤٢) أي الريان .

ومنه : ﴿ ارْجِعْ إِلَىٰ رَبِّكَ ﴾ (آ : ٥٠) أي الملك الريان .

ومن هذا القبيل — فيما نفهم — ما في قول يوسف : ﴿ إِنَّ رَبِّي بِكَيْدِهِنَّ عَلِيمٌ ﴾ (آ : ٥٠) فربه ههنا فيما نفهم هو سيده ومالكه عزيز مصر ، الذي كان علم بكيدهن ، إذ قال : ﴿ إِنَّ كَيْدَ كُنَّ عَظِيمٌ ﴾ (آ : ٢٨) ، ودليلنا على ذلك أن يوسف يريد الاحتجاج ، ولا تقوم له حجة ، إلا إذا كان المراد من لفظ « ربي » في هذه الآية هو ما فهمناه ، وأما علم الله فلا ينهض حجة عليهم ، لأنه غير مطلع عليه ، بل هو غيب محض ومن اطلاق « الرب » على السيد ما في قول « أبي . نُحَيْلَةَ » ، يدح « هشاماً » :

إلى أمير المؤمنين المجندي رَّبِّ مَعْنَى وَسُوِّ مَعْنَى

تعالم الاسلام في كلمة الرب

الفائدة الخامسة — إطلاق « الرب » على غير الله تعالى اصطلاح عتيق ، كان جرى عليه الأشوريون والكلدان والسوريون والمصريون واليهود والنصارى — تبعاً لهم — والعرب في الجاهلية ، وبعض شعراء العرب في الاسلام ، الذين ما كانوا يتقيدون بالدين ، ولكن الاسلام يعلمنا أن لا نطلق كلمة « الرب » على غير

الله تعالى أدباً مع الله ، واحتياطاً في باب التوحيد ، ولهذا قال ﷺ : « لا يقولن أحدكم : عبدي ، أمّتي ، ولا يقل المملوك ربي ، ليقبل المالك فتاي وفتاتي ، وليقل المملوك سيدي وسيدي ، فانكم المملوكون ، والرب هو الله عز وجل » ، رواه الشيخان ، وهذا الأدب اللطيف أخذه النبي ﷺ من القرآن من نحو قوله تعالى ﴿ فَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ مِنْ فَتْيَانِكُمُ الْمُؤْمِنَاتِ ﴾ (٤ : ٢٤) ، وقال لفتيانه : اجملوا بضاعتهم في رحلهم ﴿ (آ ٦٢) ، تراود فتاها عن نفسه ﴿ (آ ٣٠) ، ﴿ ولا تُكْرِهُوا فَتْيَانَكُمْ ﴾ (٢٤ : ٣٣) ، والصواب أن يمنع في غير ما ورد النص به فيما إذا كان معرفاً بأل ، أو مضافاً لما قل عام ، وهذا نظير السجود ، أعني سجود إنسان لإنسان على جهة الاحترام والترسم ، فانه كان جازراً في العصور السابقة ، ولكنه منع في شريعتنا المحمدية منعاً مطلقاً ، احتياطاً في باب التوحيد ، والله تعالى أعلم .

هل كان العزيز خصياً حقيقة أو مجازاً

الفائدة السادسة — قيل : « كان العزيز خصياً ، فكانت امرأته ترسل اللمعة إثر اللمعة ، وتتأبها لوعة بعد لوعة ، كما استعرضت حياة الزوجية الكاملة ، التي تكفل اللذة والولد ، ولكنها لم تزل خلواً من طفل محبوب تناغيه ، وطفلة جميلة تلاعبها ، لذلك فهي لا تفتأ تطلب الذرية ، وتسعى لها سعيها ، والآن قد سمت ذلك السعي المعلوم ، ترمي بذلك حجراً لتصيد به صيدين ، أي لتحصل على استكمال الشهوة البدنية واللذة الجسمانية ، ولتكون أما وبصير « العزيز » أباً ، ولكن على حساب سيدنا يوسف ، حماء الله وعصمه » .

ولكن الصحيح إن فوطيفار « عزيز مصر » لم يكن خصياً حقيقة لنووية ، بل

كان خصياً حقيقة عرفية ، جرى عليها عرف حكومات المصريين والأشوريين والكلدانيين ، وربما بل كشيئاً ما يسمون المأمورين في التاريخ عبيداً ، والحقيقة أنهم أحرار وكاملو الخلق ، ومن لم يقف على هذا الاصطلاح الذي جرى عليه قدماء المؤرخين تبعاً لاصطلاح تلك الحكومات دخل عليه من الغرور ما جرّاه أن يقول إن فوطيفار عزيز مصر كان خصياً حقيقة لغوية ، كما اغتر بنحو ذلك من المفسرين « ابن جرير ، رحمه الله ، وأما قول عزيز مصر لامرأته « أكرمي مشواه عسى أن ينفعنا أو نتخذه ولداً » (آ ٢١) فلا تقتضي أنه كان خصياً مقطوع عضو الرجال ، إذ يجوز أن يكون عدم وجود ولده ناشئاً لمانع من جانب زوجته أو لمانع من جانبه غير قطع المعضو كالمقم أو الارتخاء أو العنة أو نحو ذلك مما بسطه علماء الطب ، فافهموا ..

(انه لا يفلح الظالمون)

— ١ —

صعد على المنبر الشيخ حسين العاملي (١) وقال :

أيها الاخوان هذا خطاب السيدة سلمى بنت الحاج حسين الصيداوي فأرجوكم أن تصفوا اليه .

الظالم لا يفلح

يقول يوسف : إن سيدي خلق لك ، وأنت خلقت له ، فبعد ذلك هل يجوز لي أن أظلم سيدي وأتعدى على ما خصته الشريعة به ؟ — حاشا — إنه لا يفلح الظالمون .

(١) نسبة الى جبل عامل في بلاد الشام (لبنان) .

أنا كما لي يد تتناول إحسان سيدي ، فلي قلب يحس بواجب شكره ، ويشهر
بِحفظ معروفه ، ويُقدّر إنسانيته معي حق قدرها ، فهل يسوغ لي التناضي عن ذلك
الحس والشعور ؟ حتى أكون بذلك قد ظلمت قلبي وحسه وشعوره — حاشا —
إنه لا يفلح الظالمون .

أنا لا أمتنع من هذا العمل خوفاً من القانون ، فالقانون في هذا البلد مدني
لا أدبي ، ولا خوفاً من الحكومة ، فالحكومة (بالنسبة اليّ) هي أنت ، وأنت
هيه ، ولا خوفاً من أيك وولي أمرك ، فانها لا يملان من حالنا شيئاً ، ولكي
أخاف من ضميري يوبخني ، فان ربي فوطيفار أحسن مثواي ، وأخاف من (الألوه)
أن يكتبني في ديوان الظلمة ، الذين لا يفلحون ، حيث يجازون الحسن بالسيء .
إن هذا العمل ، ظلم لسيدي العزيز ، ظلم لحقوقه وشرفه وعرضه ، ظلم لنعمته وخبره
وملحه ، ظلم لنفسي ، ظلم للشريعتين ، شريعة الطبع وشريعة السماء ، واني أخاف إن
عصيت ربي عذاب يوم عظيم .

بدء المعركة بين زليخا ويوسف

آ (٢٤) * ... وَلَقَدْ ... هَمَّتْ بِهِ وَهَمَّ بِهَا ، لَوْلَا أَنْ
رَأَى بُرْهَانَ رَبِّهِ ... ، كَذَلِكَ ، لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ
وَالْفَحْشَاءَ ، إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ . *

افتتحت الجلسة وقلت الآية الرابعة والعشرون فتسابت السيدان
أيضاً الى الكلام على هذه الآية ، فقامت السيدة نزار المرصلية وقالت :
(ولقد) كان انه لما لم ينجع مع « يوسف » الطلب باللين والرفق ، ولم ينجع مع

« زليخا » الرد بالعظة الحسنة ، ولم تجدي عند صدى غرامها به ، وقد أخذ الشبق منها مأخذاً قوياً ، كما أخذ التفيظ منه مأخذاً قوياً أيضاً ، (همت به) ضرباً أو لكماً أو قتلاً (و) هو أيضاً (همّ بها) كذلك ، وكاد أن يقع ذلك منها ، لولا أن تراخت هي عن تنفيذه ، بالنظر لما هو معلوم طبعاً من ضعف المرأة ، و (لولا أن رأى) هو ، أي استحضر أو تصور أو تخيل في نفسه (برهان ربه) وهو الدفع بالتي هي أحسن أو التملص متى أمكن (كذلك) - الكاف منصوب المحل - أي مثل ذلك الثبیت ثبتناه - أو مرفوعة أي الأمر مثل ذلك (لنصرف عنه السوء) وهو الزنا أو مقدماته ، بدليل قولها فيما بعد :

« ما جزاء من أراد بأهلك سوءاً ، ثم قول النسوة : « ما علمنا عليه من سوء » ، (والفحشاء) القتل (إنه من عبادنا المخلصين) الذين قلنا فيهم إنهم : ﴿ ولا يقتلون النفس التي حرم الله إلا بالحق ولا يزنون ﴾ (٢٥ : ٦٨) وقلنا فيهم : ﴿ إن عبادي ليس لك عليهم سلطان ﴾ (١٥ : ٤٢) وورد فيهم : ﴿ فبِعِزَّتِكَ لأَعْتَبِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ ﴾ (٣٨ ، ٨٢ و ٨٣) ؛

هذه كلتي ابتعثها الألم ، فسطرها القلم ، وهذا هو التفسير الذي يطير رؤوس غلطات المفسرين عن أبدانها لأن المعنى الذي قرروه شيء لا وجود له في الواقع وإنما هو من مخلوقات الخيال ، ليس إلا ... !! وإنه ليمز علينا أن تناقش المفسرين هذه المناقشة الشديدة ، ولكن دفاعنا عن مقام نبي الله ورسوله « يوسف الصديق » نحدو بنا لمثل ذلك والسلام .

(ولقد همت به وهم بها ...)

— ١ —

وقالت السيدة مبيونة الحلبي (١) :

همت به جلياً وهم بها وقماً

أعظمت زليخا إباء يوسف ، وهالها جفاء جوابه ، ورات أنه لم ينفع فيه الكلام الهاديء الناعم المرن ، فأخذت تغلظ له في القول ثم قامت « فهمت به » ، جلياً ، وتقاتت طلباً ، واستماتت رغبة ، في سبيل الحصول على شهوتها والوصول إلى رغبتها ، واجتهدت على هذا بكل حواسها وعواطفها النفسية ، وأما هو (ع) « فهم بها » ، دفماً ، واستماتت منماً في سبيل المحافظة على شرفه وطهارته ، والاحتفاظ بدينه ، واجتهدت على ذلك بكل حواسه وعواطفه العقلية ، وهكذا قامت القيامة بينها ، وشتت الغارة وأعلنت الحرب .

برهان ربه هو حجة الله التي تخفي عليه بالرفع بالتي هي أسماء

أراد يوسف أن يدفعها بشدة وعنف « لولا أن رأى برهان ربه » القاضي عليه بالدفع بالتي هي أحسن ، فاستدرك وشرع يحاول دفعها باللطف ، عملاً بالقانون السماوي المذكور ، ولئلا يعرض نفسه للخطر لأنه عبدها وفتاها و « برهان ربه » هو حجة الله على العبد في تحريم الضرب أو القتل أو الدفع بقسوة وشدة ، مع إمكان الدفع بيسر ولين .

(١) نسبة الى بلدة الحلة من بلاد العراق .

هذا هو المعنى الذي أعثرني الله عليه، وأظنني على مكنونه ، فإن كنت مصيبةً
فذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم ، وإن كنت غخطئة فما ذلك
بأول قارورة كسرت . (مرحى)

(ولقد همت به وهم بها ، لولا أن رأى . الخ) .

— ٢ —

وقالت السيدة خديجة الغزية :

همت بقتله وهم بقتلها

إن رأي في هذين الهمين هو أن يوسف رأى نفسه مع تلك المرأة في حالة أخذ
ورد ، ورغبة وإباء ، وأنه صار في موقف خطير ، فاحتمم الدم في وجهه ، فكررت
الطلب بإلحاح وشدة ، وكرر هو الإباء بأشد ، فصارت هي في حالة غير اعتيادية ،
وهاجت عواطفها أكثر من ذي قبل ، « همت » به أن تقتله أو تبطش به أو
تضربه ، أي أنها لجأت إلى الطلب اليابس الجاف ، ولكن خوفها منه اعترض مجرى
أفكارها ، فتوقفت ، ورأى هو نفسه أن موته أهون ، ولئن مات مات شهيداً الطهر
والمغاف ، ولكنه أخيراً لم يرد أن يستسلم لها ، بل أراد الدفاع ، فصار في حالة غير
اعتيادية « وهم » بها أن يقتلها أو يبطش بها أو يضربها ، إذ لم يجد مخلصاً سوى ذلك
لسان حاله يقول : « إن الموت في سبيل حياة الشرف ، خير من الحياة في سبيل
موت الشرف ، وإنه لا محيص من الصدر أو القبر » ، ولكن برهان سيده منعه من
إتمام ذلك . وحوادث الفرام والحب مخلوعة من ذكر القتل أو إرادة الإقدام عليه
تارة من جانب الحب إذا استولى عليه الحب وملك عليه حواسه ، وطوراً من
المحبوب إذا كان شريفاً ، وحينئذ من الجانبين عند اختلافها في الفكرة كما هنا ،

وهذا هو المعتاد في مثل هذه الحال بمقتضى الطبع البشري ، وله شواهد تقع دائماً والعبارة تدل عليه دون غيره ، فإن المقام مقام خلاف ومغاضبة ، ولا يقال : « هم بالشخص » في هذا المقام إلا إذا أريد بهم الضرب أو ما مثله أو فوقه من الأيذاء ، وأيضاً لا يقال : « إن المرأة همت بالرجل » بالمعنى الذي جرى عليه المفكرون ، لأن المهم إنما يتعلق بالعمل دون الشخص ، وهي في المباشرة موآتية لا عمل لها .

البرهان في قوله « لولا أن رأى برهان ربه »

وأما رأيي في هذا البرهان فهو أنه لما حمى الوطيس بين يوسف وزليخا وانتقل الكلام من الجدل الى الجلاد ، ومن المقال الى القتال ، أراد أن يتأدى هو على ذلك « لولا أن رأى برهان ربه » وهو شعوره بثقل فضل سيدته عليه ، وثقل فضل سيده فوطيفار ، ولكونه تربي في بيتها ونعمتها وكفالتها ، ورآى في هذا البيت عزاً وراحة .

ويجوز أن يكون الرب هنا هو الله سبحانه ، وبرهانه هو أن الضرر لا يزال بالضرر ، كما ورت ذلك من أبيه يعقوب وجديه إسحاق وإبراهيم ، من أنه لا يجوز قتل النفس التي حرم الله إلا بالحق ، وأنه يجب الدفاع بالتي هي أحسن ، قال الشاعر :

ليس الشجاع الذي يحمي فريسته عند القتال ونار الحرب تشتمل
لكن من كف طرفاً أو ثنى قدماً عن الحرام فذاك الفارس البطل

وجواب « لولا أن رأى برهان ربه » محذوف ، تقديره : لولا أن رأى برهان ربه

لقتلها أو ضربها أو صفعها ، لأن قوله « هم بها » يدل عليه ، كقولك : « همت به أي بقتله ، لولا اني خفت الله » ، أي لولا أن خفت الله لقتلته .
 هذا هو المعنى الذي يشف عنه اللفظ ، شغوف الكأس الصافية عن الشراب ، وتفسير هذه الآية بتغير نحو ما قدمنا ، هو من قبيل تفسير الكلام بالمعنى المركوز في نفس السامع ، لا من قبيل تفسيره بالمعنى الذي أراده القائل ، ولعمري إن ما قالوه في تفسير هذه الآية لا يقبله إلا من يأخذ برواية « مسيلة » عن « فاختة » ، وبأيت الأعلام التي كتبت تلك الروايات لم تنب بعد ، ولعمري إنني أول ما قرأته أصابتي نوبة ذهول شديدة ، صرعتي أكثر من عشر سنين ، ولم أفق منها إلا بعد ما رأيت الفيلسوف الشيخ محي الدين بن عربي يقول « همت به » ، جلباً « وهم بها » ، دفماً ، ثم رأيت العلامة ابن حزم يقول : « همت به » ، قتلاً « وهم بها » ، كذلك ، فسرت بذلك كثيراً والحمد لله .

الرؤية في قوله (لولا أن رأى) هي رؤية علمية

والرؤية هنا علمية ، كما في قوله تعالى : ﴿ أَوَلَمْ يَرَ الْإِنْسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِنْ نُطْفَةٍ ، فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُبِينٌ ﴾ (٣٦ : ٧٧) ، وقوله تعالى : ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّا أَرْسَلْنَا الشَّيَاطِينَ عَلَى الْكَافِرِينَ تَؤْزُهُمْ أَزْوَاجَهُمْ ؟ ﴾ (١٩ : ٨٤) ، وقوله تعالى : ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ؟ ﴾ (٥٨ : ٧) وقوله تعالى : ﴿ وَإِنْ يَرَوْا سَبِيلَ الرُّشْدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا ﴾ (٧ : ١٤٥) وقوله تعالى : ﴿ إِنَّهُمْ يَرَوْنَهُ بَعِيدًا ، وَزَاهٍ قَرِيبًا ﴾ (٧٠ : ٧ و ٦) وما إلى ذلك مما هو كثير في كتاب الله وسنة رسوله ، وفي شعر العرب ، ولكن القافية ضاقت على فريق من المفسرين فحملوه على الرؤية البصرية ، وفهموا غلطاً أن ما رآه كان كتابة في حائط ، أو في صورة برزت منها ، إلى آخر ما فهموا ...

ولو كان المعنى على حسب ما ذكره هذا الفريق من المفسرين ، لم يكن في قوله سبحانه « همت به » فائدة جديدة ، لأن ههما به — بالمعنى الذي تصوره — قد عرف تماماً من سابق قوله « وراودته التي هو في بيتها عن نفسه وغلقت الأبواب وقالت : هيت لك » ، فلو قال قائل : إن قوله ، ولقد همت به تأكيداً لما سبق من مراودتها وتغليقها الأبواب وطلبها إياه ، — قلنا إنه لأمر معلوم أن التأسيس خير من التأكيد كما هو معلوم أن المؤكد يجب أن يكون من درجة المؤكد ، حال كون « الهم » هنا — بالمعنى الذي تخيلوه — ليس هو من درجة المرادة وتغليق الأبواب وطلبها إياه ، بل ليس من درجة « العزم » الذي هو أعلى من الهم ، كما قال الناظم اللغوي الفقيه :

مراتب القصد

مراتب القصد خمس : « هاجس » ذكروا

« فخطر » « فحديث النفس » فاستمما

بليبه « هم » « فمزم » كلها رُفِعَت

سوى الأخير ففيه الأخذ قد وقما

هكذا كنت رأيت منذ القديم أو نحواً منه ، في كلام الفيلسوف الشيخ عبيد بن الأري ، وكلام العلامة ابن حزم . (مرحى)

استعمال كلمة الهم في كلام العرب والقرآن والحديث

وتفسيرنا هذا الهم ، وهذا الهم بما قلنا هو الذي يستدعيه الأسلوب العربي ،

قال الشاعر :

همت ولم أفعل وكدت وليتي تركت على عثمان تبكي حلاله

(١٩٨) ، وإن هذا من الجاهلين ، فوالله ما جاوزها عمر ، حين تلاها عليه ، وكان وقافاً عند كتاب الله .

(ولقد همت به وهم بها ، لو لا أن رأى برهان ربه)

— ٣ —

وقالت الأنسة ربيعة المقدسية :

الرد على من طعن في عفاف يوسف بقوله إنه هم بمخالطة امرأة العزيز

هذه كلمة يجب التكلم عليها برفق وأناة ، وهي قبل التأمل فيها « شبهة » لمن طعن في عفاف يوسف ، وقوله ﴿ إنه من عبادنا المخلصين ﴾ مع ملاحظة قوله : ﴿ إن عبادي ليس لك عليهم سلطان ﴾ « حجة » لمن قام يناضل عن يوسف ، وقد فسر الخطباء من قبلي « الهم » بما سمعتم ، فلا تكونوا ممن يتمسك « بالشبهة » وينفض نظره عن « الحجة » ، فإن قوماً من المفسرين ذكروا في هذا المثل ما يهوي برأس الحقيقة الى عقبها ، ولعمري إنهم لطخوا عرض يوسف بما هو براء منه ، وأرادوا أن يكسبوا تاريخه لونا قائماً ، قد كادوا له كيداً أعظم جداً من كيد إخوته له ، فإن من يسقطك عن درجة الأعتاء الأطياب ، يسيء اليك أكثر ممن يلقيك في غياهب الجباب .

وعندنا إن كلام هؤلاء المفسرين الذين أرادوا تشويه تاريخ يوسف (ع) متصل بالمعمل الذي خرجت منه تلك « الأسفار » التي لا تزال تنال من عفة الأنبياء الأطهار .

أي أن بعض المفسرين نقلوه عن جهلة اليهود الذين اعتنقوا دين الإسلام لأمر ما ، مع أن نفس تلك الأسفار اليهودية وإن تكن قد حشيت بالطعون الفاحشة في أنبياء الله ، لكنها خلت عن الطعن بيوسف (ع) .

وظالما دافعت بلساني وقلبي عن يوسف (ع) في هذا المقام ، وإني أود أن يكون لي لسان ثان ، وقلم آخر ، لأستخدمها في سبيل الدفاع عن هذا النبي الصديق (ع) .

فأنا الحقيرة أؤمن بأن يوسف نبي ورسول (٤٠ : ٣٤) وصديق (١٢ : ٤٦) وأنه لما بلغ أشده ، آتاه الله حكماً (١٢ : ٢٢) يحكم به نفسه عن الهمم بمخالطة وعن كل سوء ، وأنه من عباد الله المخلصين (١٣ ، ٢٤) الذين ليس لا بليس عليهم سلطان بحكم قول القرآن : ﴿وَلَا غُورَ يَنْهَمُ أَجْمَعِينَ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ﴾ قال : هذا صراط علي مستقيم ، إن عبادي ليس لك عليهم سلطان ﴿ (١٥ : ٣٩ - ٤٢) وبالتالي والنتيجة أؤمن بأن يوسف إنما همم ، بدفعها بشدة أو بضرها أو بقتلها ، لولا أن رأى برهان ربه ، الذي أرشده للدفع بالتي هي أحسن ، وأما من صدق بهذه الآيات الكريمة مع قوله : إن يوسف همم بمخالطتها فقد آمن بشطر دون شطر ، أو نقول إنه آمن بالمقدمات دون النتيجة ، أو بالفاظ الكتاب دون معانيه .

حقاً إنه ليصعب علينا أن نمتد ما قاله القائلون ههنا ، مما يلوث شرف السيد الصديق ، مما يخالف ما أخذ على نفسه تحقيقه ، وهو حفظه معروف ربه ، وإن الظالم لا يفلح أبداً .
(مرحى مرحى)

(كذلك ، لنصرف عنه السوء والفحشاء)

— ١ —

قال الشيخ اسعد البناوي (١) :

السوء والفحشاء

الكاف في كذلك منصوب المحل ، أي مثل ذلك التثنية ثبتناه ، أو مرفوعه ، أي الأمر مثل ذلك (الكشاف) .

« والسوء » هو كل ما يُغْم الإنسان من الأمور الدنيوية ومن الأحوال النفسية والبدنية والخارجية ، من فوات مال وفقد حميم ، وفعل قبيح ، وهو اسم من ساء ضد سره ، والسوء ضد الحسن ، وهو في قوله تعالى : ﴿ إِنَّ الْخِزْيَ الثُّيُومَ وَالسُّوءَ عَلَى الْكَافِرِينَ ﴾ (١٦ : ٢٧) بمعنى الغم ، وفي قوله تعالى : ﴿ مَنْ يَمْعَلْ سُوءًا أَوْ يُجْزَ بِهِ ﴾ (٣ : ١٢٢) بمعنى القبيح ، فالسوء كل عمل قبيح بسوء فاعله إذا كان عاقلاً سليم الفطرة كريم النفس أو يسوء الناس .

« والفحشاء » هي والفحش والفاحشة الفاظ ثلاثة معناها واحد ، وهو كل ما عظم قبحه من الأفعال والأقوال ، وفحش الرجل صار فاحشاً ، قال الشاعر :

أرى الموتَ يَعتام الكرام ويصطفي عقيلة مال الفاحش المتشدد

يعني به العظيم القبح في البخل ، وفي الحديث : (إن الله يبغيض الفاحش المتفحش) ، فالفاحش : ذو الفحش في كلامه وأفعاله ، والمتفحش الذي يتكلف ذلك ويتممه ، وكل ما يشتد قبحه من الذنوب والمعاصي تطلق عليه هذه الألفاظ

(١) نسبة الى بنها من البلاد المصرية .

ومنه الحديث : (قال لعائشة : لا تقولي ذلك ، فإن الله لا يحب الفحش ولا التفاحش)
 أراد بالفحش التعدي في القول والجواب ، والتفاحش تفاعل منه ، وقد يكون
 الفحش بمعنى الزيادة والكثرة ، ومنه حديث بعضهم ، وقد سئل عن دم البراغيث ،
 فقال : (إن لم يكن فاحشاً فلا بأس) وقوله تعالى : ﴿ وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ
 الشَّيْطَانِ ، إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ، إِنَّمَا يَأْمُرُكُمْ بِالسُّوءِ وَالْفَحْشَاءِ وَأَنْ
 تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ (٢ : ١٦٩) « فالسوء القبيح ، والفحشاء ،
 ما يتجاوز الحد في القبح (كشف) .

وكل واحد من القتل والزنى يقال له سوء وفحشاء ، قال تعالى : ﴿ وَلَا
 تَنْكِحُوا مَا نَكَحَ آبَاؤُكُمْ مِنَ النِّسَاءِ ، إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ ، إِنَّهُ كَانَ
 فَاحِشَةً وَمَقْتًا وَسَاءَ سَبِيلًا ﴾ (٤ : ٢١) وقال تعالى : ﴿ وَلَا تَقْرَبُوا
 الزَّانِيَ إِذْهُ كَانَ فَاحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلًا ﴾ (١٧ : ٣٢) وقال : ﴿ مَا كَانَ
 أَبُوكَ امْرَأًا سَوْءًا ﴾ (١٩ : ٢٨) أي زنى ، وقال : ﴿ وَلَا تَمْسُوْهَا بِسَوْءٍ ﴾
 (٧ : ٧٣) أي قتل ، وقال : ﴿ يَسْؤُمُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ ، يُدَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ ﴾
 (٢ : ٤٩) وقال : ﴿ فَإِنْ أَتَيْنَ بِفَاحِشَةٍ فَعَلَيْهِمْ نِصْفُ مَا عَلَى الْمُحْصَنَاتِ
 مِنَ الْعَذَابِ ﴾ (٤ : ٢٤) .

فاذا تقرر هذا فحاصل المعنى لنصرف عنه ما ينعمه ويمجزنه وكل أمر قبيح
 وكل ما يتجاوز الحد في القبح ، أو لنصرف عنه الصغيرة والكبيرة ، أو لنصرف
 عنه الكبيرة والكبرى من المعاصي ، فلعله أراد : لنصرف عنه ما يسوءه ، وهو
 حياته لسيدته ، والفحشاء وهو قتله لسيدته ، أو السوء ما لا حد فيه وهو قتله
 لسيدته دفاعاً عن عرضه ، والفحشاء ما فيه حد وهو الزنى ، أو لنصرف عنه
 السوء وهو مقدمات الفاحشة من التقبيل والضم ونحو ذلك والفحشاء وهي الزنى أو
 القتل ، أو السوء هو الزنى والفحشاء هي القتل ، وهذا الأخير هو الأقرب عندنا
 بدليل قوله تعالى : ﴿ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوءًا ﴾ أي زنى ، و ﴿ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ

من سوء ﴿ أي زنى ، و ﴿ إن النفس لأمارّة بالسوء ﴾ أي الزنى ، فكلمة سوء في هذه الآيات الثلاث في هذه السورة مستعملة في الزنى ، فليكن لفظ «السوء» في قوله ﴿ لنصرف عنه سوء ﴾ مراداً منه الزنى ، وإذا ثبت هذا «فالفحشاء» هي القتل الذي كان حاوله يوسف ثم رأى غيره أحسن منه وهو الفرار ، ومع كل هذا فنحن لا نمنع أن يسمى كلا فعلي الزنى والقتل سوءاً وفاحشة . هذا ما فهمته ذكرته لكم والله تعالى أعلم .

(انه من عبادنا المخلصين)

— ١ —

قال العلامة الجيزاوي (١) :

(اخلاص يوسف لله واخلاص الله ليوسف)

هذا هو حجر الزاوية في عفة يوسف وطهارته ، فيوسف كان من عباد الله الذين قال فيهم : ﴿ وعباد الرحمن الذين يمشون على الأرض هوناً — الى أن يقول — ولا يقتلون النفس التي حرم الله إلا بالحق ، ولا يزنون ﴾ (٢٥ : ٦٣ — ٦٨) ، كان يوسف من عباد الله الذين قال فيهم : ﴿ إن عبادي ليس لك عليهم سلطان ﴾ (١٥ : ٤٢) كان يوسف من عباد الله الذين ورد فيهم : ﴿ قال فبعضتك لأعور بينهم أجمعين ، إلا عبادك منهم المخلصين ﴾ (٣٨ : ٨٣ و٨٢) .

فيوسف بانصرافه عن الزنى والقتل تم فيه قوله تعالى : ﴿ ولا يقتلون النفس التي حرم الله إلا بالحق ولا يزنون ﴾ (٢٥ : ٦٨) وباعراضه عن

(١) نسبة الى الجيزة في البلاد المصرية

مراودة امرأة العزيز إياه وقولها له « هيت لك » ثم فيه قوله تعالى : ﴿ وَإِذَا
 كَرِهُوا بِاللَّغْوِ كَرِهُوا كَرَامًا ﴾ (٢٥ : ٧٣) وبرؤيته برهان ربه والعمل
 بمقتضى ذلك البرهان تم فيه قوله تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ
 لَمْ يَخِرُّوا عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمْيَانًا ﴾ (٢٥ : ٧٣) .

وهنا تنمة للكلام مهمة جداً ، وهي أن كلمة « مخلصين » في القرآن
 الكريم تقرأ بالفتح والكسر ، بمعنى أن الانسان لما أخلص دينه لله أخلصه الله
 لطاعته ، ومن خواص الاخلاص انه لا يعلمه مملك فيكتبه ، ولا عدو فيفسده ،
 ولا يعجب به صاحبه فيعطله . فامرأة العزيز كانت مشركة ، فوقعت مع زوجها
 فيما وقعت فيه من سوء ، وأما يوسف (ع) فمع عزوبيته ومراودتها له واستمعاتها
 عليه بالنسوة ، وتهديدها له بالحبس ، فقد عصم نفسه ، فعصمه الله باخلاصه لله .

قبيص الشهادة

آ (٢٥) ﴿ وَاسْتَبَقَا الْبَابَ ، وَقَدَّتْ قَبِيصَهُ مِنْ دُبُرٍ ،
 وَأَلْفَيَا سَيِّدَهَا لَدَا الْبَابِ ... قَالَتْ : مَا جِزَاءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ
 سُوءًا إِلَّا أَنْ يُسْجَنَ أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ .

افتتحت الجملة وتليت الآية الخامة والعشرون فقام الشيخ
 الدنوشري^(١) وقال :

(واستبقا الباب) أي تسابق يوسف وزليخا الباب البراني الذي هو المخرج
 من الدار والمخلص من العار ، لأنها ضابقتة وضغطت على حريته ، وشددت عليه .

(١) نسبة الى دنوشر في السودان .

وأخرجته، ولما كانت شدة الضغط تولد الانفجار، ولما كان الإخراج يؤدي إلى الإخراج، نفر منها فأسرع يريد الباب ليخرج، وأسرعت وراءه لتمنعه الخروج، (وقدت قيصه من دبر) اجتذبه من خلفه فانقد أي انشق قيصه حين هرب منها إلى الباب وتبعته تمنعه، وما كان منه إلا أن نزعه عن جسمه ليسهل عليه التخلص منها فأخذته ملفوفاً في يدها (وألفيا سيدها) وصادفاً بطها فوطيفار (لدا الباب) مقبلاً يريد أن يدخل وقيل كان جالساً مع ابن عم المرأة، فما تصورت إلا كأنها أفاقت من سبات، وقد رجعت إليها حواسها، فراعها ذلك، والتمست مخرجاً أرادت أن تلهب به عليه سيدها (فقالت) بلسان المشتكي المظلوم: الله أكبر، ما هذا؟ «إن البغاث بأرضنا يستنسر»، لله أكبر «حاميا حراميا» جثنا بالبيد لكي يجرسوننا فإذا هم الخائنون! صدق من قال: «من اشترى المدون بالمدون، كان هو المغبون»، قالت وجرس صوتها يمين عليها (ما) أي ليس (جزاء) عقاب كل (من أراد بأهلك) بزوجك (سوأً) زناً (إلا أن يسجن أو عذاب أليم) كالضرب بالسياط مثلاً أو تشفيل بأشغال شاقة، ويجوز أن تكون «ما» استفهامية بمعنى أي شيء جزاؤه إلا السجن، ولو كان حبها شريفاً، لم تقل ذلك ولا أثرته على نفسها، ولكن حبها إياه كان حباً شهوانياً، وأما يوسف، فنظن انه لما سمع هذا السباب تأفف جد التأفف ولكنه صبر، وردد في نفسه معنى قول القائل:

إذا ما كنت في قوم غريباً فعاملهم بعقل يستطاب
ولا تحزن إذا فاهوا بفحش غريب الدار تنجسه الكلاب

(واستبقا الباب)

- ١ -

قالت الأنسة معصومة النابلسية (١) :

هرب يوسف من زليخا ولحاق زليخا به

كانت زليخا لم تأل جهداً في استئزال يوسف على مرادها ، وهو لم يأل جهداً في ردها عما ترغب اليه فيه ، فتشا كساوهم كل بالآخر ، وبتمبير آخر لما حمي الوطيس بينها ، أرادت ضربه أو لكه أو قتله ، وأراد ضربها أو لكها أو قتلها ، ثم رجح هو عن هذه الفكرة ، بحكم البرهان الذي رآه ، القاضي عليه أن يدفع بالتي هي أحسن ، وعندئذ رأى نفسه عاجزاً أمامها ، وأن ليس له سلاح يتسلح به سوى الفرار من بين يديها ، فولى وجهه شطر الباب ، فر هارباً وللنجاة طالباً ، فلطمت يداً بيد وضربت صدرها ، وما عتمت أن لحقته ، فذهبا يتسابقان نحو الباب ، وهما بين هارب وطالب ، طريد هارب ، وصائد طالب ، تسابقا تسابقاً يمينا المصور أن يراه في رسمه ، لكي يرسم صورة الطهارة والعفة في ذلك اسباب الشريف ، ويرسم صورة الخيانة والدناءة في تلك المرأة الساقطة .

هو يستبق لباب الجنة ، وهي تستبق لباب جهنم ، هو يستبق لباب الطهارة ، وهي تستبق لباب الدنس ، هو يستبق لباب الشرف والعلو ، وهي تستبق لباب الدناءة والانحطاط — كل منها يريد الباب ، ولكن لأمرين مختلفين ، كل منها يريد الباب ، وهو عمل في ظاهره واحسد ، ولكنه في باطنه مختلف أيما اختلاف ، صورة هذا العمل واحدة ، ولكن الروح مختلفة ، هو استبق الباب ليخرج منه ،

(١) نسبة الى نابلس من بلاد فلسطين .

وهي استبقت الباب لتمنعه من الخروج ، هو استبق الباب ليفتحة ، وهي استبقت الباب لتسده في وجهه ، هو استبق الباب ليفر بدينه ومروءته ، وهي استبقت الباب لتهدم دينها ومروءتها .

هذا ياسادتي ما أردنا التعليق به على كلمة (استبقا) ، وأما تعليقنا على كلمة (الباب) فيظهر أن هذا الباب هو أحد أبواب القصر الداخلية التي تحوطه من جهاته ، وكانت قد غلقتها كما تقدم ذكره ، وكان الباب في طريقه ، فقصده ليخرج منه ، وكان مغلقة (بالزلاج) أي السقطة ، على حسب العوائد القديمة ، وليس هو الباب الخارجي الذي يؤدي إلى الطريق السلوكة ، إذ يبعد أن تعمل هي هذا العمل ، اللهم إلا إذا كانت الحركة حركة حب جنوني ؛ هذه كلتي في هذا الموضوع ، والله أعلم .

(وقدت قميصه من دُبر)

— ١ —

وقالت السيدة فريدة الحمصية (١) :

قد القميص

هرب منها يريد الخروج من باب القصر ، وعدت خلفه لتجذبه إلى نفسها ، فتبادرا إلى الباب ، يجتهد كل واحد منها أن يسبق صاحبه فإن سبق يوسف ، فتح باب القصر ونجا لأنه بصير بين جمهور من الخدم ؛ وإن سبقت هي أمسكت

(١) نسبة إلى بلدة حمص من سورية

الباب لثلاث مخرج ، ولكن يوسف سبقها إلى الباب ، وأراد الخروج وهي تعدو خلفه ، فلم تصل إلا إلى دبر قميصه فأمسكت به وجذبتّه فانشق والغالب ان هذا كان طولاً ، لأن أكثر استعمال « القد » في الشق طولاً ، وأما عرضاً فيقال له « قط » وفي وصف سيدنا علي (رض) « إنه كان إذا اعتلى قدّه ، وإذا اعترض قط » ، ولم تزل المرأة متمسكة بالقميص ، نزع يوسف وتركه بيدها وبقي مثابراً على الحرب ؛ وهنا دقيقة قد أغفلها جميع أهل التفسير ، ولكن نحن لا بد لنا من التنبيه عليها وهي :

هل بقي يوسف لابساً قميصه بعد قدّه

هل بقي يوسف لابساً قميصه بعد قدّه ، حتى ألقى « سيدها » لدى الباب ، أو هو لا رآها قد تمسكت به فانقدت ، وكانت لا تزال متمسكة به ، تضابق منها فترعه عن جسده وتركه لها ، إمعاناً في سرعة التخلص منها كما أشرنا إليه سابقاً ؟

هذا هو السؤال الذي لم نجد من المفسرين والمؤرخين من تخيله فذكره في أثناء هذه القصة ، وجوابنا بطلان الشق الأول من هذين الاحتمالين ، لأنه لو بقي لابسه ، وهو واقف مائل أمام تلك الهيئة المؤتلفة من « عزيز مصر وامرأته والشاهد من أهلها » لكان الأمر ظاهراً ، وكان القدّ محسوساً منظوراً للجميع ، فلا يكون هناك مجال للشك والتردد وتطريق الاحتمالات ، وثانياً لو كان لا يزال لابسه لجاز « لإمرأة العزيز » أن تدافع عن نفسها وترد كلام ذلك « الشاهد من أهلها » قائلة له : « إنك متحيز لهذا العبد لأمر ما ، وإنك حاقد عليّ لسابقة بيني وبينك » ، فأنت لا رأيت القميص غير مقدود من قبّل ، اعتقدت بالضرورة أنه مقدود من دُبُر ، فلذلك تحيزت لهذا العبد ، وحكمت بهذا الحكم الجائر .

ولكنها لما لم تحتج على « الشاهد من أهلها » ولم تنتقد على حكمه بشيء بل سلمت له تسليماً ، تبين أن يوسف لم يكن لابس القميص ، كما هو الواقع ، بل كان القميص ملفوفاً بيدها ، فلما فتش وجد أن قدّه كان من دبر ، هذا هو الصواب الذي يجب أن يقال في هذا المقام ، والله تعالى أعلم ..

(وألفيا سيدها لدا الباب)

— ١ —

وقالت الحاجة سالحة الموصلية (١) :

مفاجأة فوطيفار زليخا ويوسف عند الباب

ولم يكن إلا كلعج البصر حتى وجدا عزيز مصر عند باب القصر ، وقد انقلب من دار الحكومة للغداء أو لبعض شؤونه ، واذا هو بين ظهرانيها ، وكأنما كان يسمع صدى عدوها حينما قربا منه ، وكان كل من زليخا ويوسف متهيجاً ، يخرج منها نفْس مرتفع متواتر ، وعند ذلك تحشت الغمزات والاشارات في أفواه الجوّاري والعبيد وعيونهم ، وعقّدت أنظارهم نطاقاً حول ذلك المنظر المدهش . ويا لهول ذلك الموقف ! موقف يترك في النفس حسرة ، وفي القلب لوعة ، موقف يندى له الجبين خجلاً ، وتشمز منه النفوس الطاهرة .

ألفيا سيدها لدا الباب ، ويا شرّ ما ألفيا ، وبعبارة أصحّ يشرّ ما ألفت هي فقط وأما يوسف فكان ذلك له — بحسب النتيجة — فرجاً ومخرجاً ، ألفيا سيدها لدا الباب ، فاعترت الأشخاص الثلاثة حالة غير اعتيادية ، فأما يوسف فبغت بهذا

(١) نسبة الى الموصل من بلاد العراق .

الاتفاق ، ولكن سر فؤاده وفرح به قلبه ، لأنه رأى انه قد تخلص من شرها ، بحضور سيدها ووقوفه على واقعة الحال ، وقد تبدل حاله من وجل الى خجل ، وتخيل كأنها يد القدر كانت قد خبأت عزيز مصر خلف الباب ، ثم أبرزته حين اللزوم ، نعم ، لا يخلو ان يوسف في بدء ما رأى عزيز مصر ، تقرر في نفسه لأول وهلة ، قائلاً : « ههنا المطرقة والسندان ، وأنا بينها » ، ولكنه ثاب الى أمنه أخيراً ، لأنه يعتقد في نفسه البراءة ، وأن البريء لا يخاف ظلماً ولا رهقاً ، فلذلك اطمأن بالله ، وسكت راجياً من الله الخلاص .

وأما فوطيفار فبُهِتَ وشُدِّدَ ، وألقى عليها نظرة التعجب ، ورا به منظرها ، وخيل اليه أن ذلك العبد آبق ، أو سارق أو هارق ، فدارت به الأرضُ الفضاءُ دورة كاد يُصمق فيها ، وتمثل له أن صرح راحته ومسرته بذلك العبد الكنعاني قد خرّ بين يديه دفعة واحدة ، فثار لذلك ثأره ، واكفهر وجهه واربد ، وتَفَصَّدَ عرقاً .

رأى فوطيفار من الأمور المدهشة المحزنة ما لا عين رأت ، ولا أذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر ، فرا به أمرها ، وقال ما لكما ؟ إنى أراكما في أمر مريب ثم التفت لامراته ، لفتة استفهام بتغيظ وتحرق واستغراب . وأما زيلخا فراعها ذلك ، فتضمضت واستخذت ، واستطير عقلها ، خوفاً ورعباً ، فولوت وجلت وصاحت ، وتبرّمت وضاحت بذلك ذرعاً ، ودق قلبها دقات متسارعة ، وظهرت البقعة على وجهها ، وارتعدت فرائصها ، كأنها أمسكت نضيدة (١) كهربائية قوية ، وأوجست في نفسها خيفة ، وانتشبع لونها وامتنع . واكتنفا ما لبثت أن عادت الى

(١) بطرية كهربائية .

نفسها واستجمعت قواها ، وخاطبت سيدها بلهجة يابسة ونفمة جافة ، كأنها تزيد بذلك « ستر السموات بالقبوات » (١) .

هذا خطابي المختصر ، أقيته على مسامعكم الشريفة ، ولا ندحة لي قبل الختام من أن أتكمم كلمتين :

ايضاح لفظ السيد في اللغة والقرآن والتوراة

الكلمة الأولى : — إطلاق كلمة « سيد » على الزوج هي لفظة المصريين ، وشائعة بينهم الى اليوم ، حكاهها القرآن الكريم جرياً على اصطلاحهم ، وأما العرب فيسمون شريك الحياة « زوجاً » قال تعالى : ﴿ قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا ﴾ (٥٨ : ١) وربعاً سموه « رجلاً » كما قال تعالى : ﴿ الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ ﴾ (٤ : ٣٣) ، و« بعلًا » كما قال تعالى : ﴿ وَبُعُولَتُهُنَّ أَحَقُّ بِرَدِّهِنَّ ﴾ (٢ : ٢٢٨) و« حليلاً » كما يستفاد بالمقابلة من قوله تعالى : ﴿ وَحَلَائِلُ أَبْنَائِكُمُ ﴾ (٤ : ٢٢) و« صاحباً » كما تتعلمه بالمقابلة من قوله تعالى : ﴿ وَصَاحِبَاتِهِ ﴾ (٨٠ : ٣٦) وقد ورد : « المرأة سيدة بيتها ، والرجل سيد بيته » .

الكلمة الثانية — لم يطلق لفظ « السيد » في كتاب الله تعالى إلا على شخصين فمرة على نبي الله « يحيى » (م) في قوله جل من قائل : ﴿ وَسَيِّدًا وَحَصُورًا وَنَبِيًّا مِنَ الصَّالِحِينَ ﴾ (٣ : ٣٩) وثانية على « عزيز مصر » في هذه الآية : ﴿ وَأَلْقَا سَيْدَهَا لَدَا الْبَابِ ﴾ ، ومن غريب الصدف أن الأول (م) لم يتزوج قط ،

(١) القبوات احشاء الحيوانات من كرش ومصارين وهو مثل عامي يضرب لمن يريد ستر أمر مفضوح .

والثاني كان غنياً على أشهر القولين ، وورد في الأسفار الالهية ، إطلاق لفظ « السيد » على عيسى المسيح (م) وهو أيضاً لم يتزوج ، فإطلاق لفظ « السيد » على هؤلاء الثلاثة خاصة ، الذين ليس للنساء حظ منهم ، إن لم يكن له سر ، فهو من عجائب المصادفات وأخشى أن يكون من معاني « السيد » من لم يخضع لشهوة النكاح فهو من هذه الجهة سيد على الحقيقة ، وأما من كان خاضعاً لتلك الشهوة ، فهو من هذه الوجهة « عبد » على الحقيقة ، قال الشاعر :

صاحب الشهوة « عبد » فاذا ترك الشهوة أصبح ملكاً

(قالت ما جزاء من أراد بأهلك سوءاً إلا أن يسجن أو عذاب أليم .. ؟)

— ١ —

قالت الأنسة سهر المصرية :

المرافعة والاثام

رمت زليخا بهذا الحجر ، لتصيد صيدين ، أي لتبرر نفسها أمام زوجها ، وتوغر صدره على عبده ، فتشفي غليلها منه بسجنه أو عذابه ، لأنه لم يقض لها شهوتها .

نطقت بهذا الحكم القضائي بكل عين قوية لما تعلم من داتها عليه ، ولتهيج من ثورته ، وتشعل من نار غضبه على عبده وفتاه العبراني وقالت بصوتها يرتعش ، وركبتها تصطكان ، ولسانها يتلثم ، وكلامها يتقطع مما لحقها من التعب بسبب الجري ، أو مما لحقها من الخزي والحجالة وحراجة الموقف :

« ما جزاء .. م ن أراد .. بأ ... ه ... لك ... »

سـ... وأ... وافض... يح... تاه ! إلا... أن... يس... جن
أو ع... ذاب أ... يم... وا خج... لك... اه ! ،

هكذا نظن ان نعمة كلامها كانت متقطعة ، كأننا قد أصيبت في مخيلتها بمرض عصبي في دماغها تقول : بماذا يحكم على من ربيناه كظلي ، فاذا هو نمر ضاري ، يريد أن يبتهم فريسة القصر بين أنيابه ، ولا يخشى بأس الأسد حارس القصر وعزيز مصر ؟ .. إذ قد تزلف لي وغازلي ، ثم أرادني وراودني ، فانتك حرمة بيتك ، وعبث بشرفك .

رأت أنها وقعت في الشرك ، فتسلحت بالكذب ، لتتخلص من الشرك الذي وقعت فيه وكان صوتها متزعزعا مضطربا ، مع أن اليهود فيه ان يكون رخيما مطربا .

صرخت باكية شاكية ، لكي تدفع عنها الشبهة ، كما قيل : « وسيلة المرأة في هجومها دموعها ، ووسيلتها في دفاعها صراخها ، والنكبة الحقيقية تظهر جلد المرأة ، بينما الهموم الصغرى تظهر ضعفها ، فلماذا انقلبت من « غزاة » وديعة ، إلى « وحش » ضار مهاجم ، حاولت إخفاء عواطفها الشهوانية أمام سيدها وعكست الآية ، وشوهت الحادث ، وقلبت المسألة رأسا على عقب ، وكانت كما تقول العامة : « ضربني وبكى وسبقني واشتكى » .

تقول في تصاغر كله كبرياء : ليس جزاء من حاول الفحشاء مع حرمك ، وهن في عقر دارهن ، واقتسرن على ما أراد اقتساراً ، واعتسرن عليه اعتساراً ، إلا السجن في المطبق ، أو أن يسام الخسف والجور والإذلال ، وكل ما فيه ألم وأذى ، فيجب أن يبدان بأحد هذين الأمرين ، ولا أحسبك إلا مسلماً لي ذلك على طول الخط ، لأن فعلته هذه خيانة وكفران بالنعمة ، وجرأة على « عزيز مصر » .

هذا ما رمت اليه في مقالها التي استعدت بها على يوسف البريء جبارة الأرض وزبانية جهنم ، نطقت بذلك لا بلهجة الصاغرة المشدوهة ، بل بلهجة المستكبرة المتأمرة ، وبلسان سليط .

ولنا هنا احدى عشرة ملحوظة :

التناقض في حكم زليخا على يوسف

الملحوظة الأولى — رأيناها تقول هنا : « ما جزاء من أراد باهلك سوءاً إلا أن يسجن أو عذاب أليم » وسنراها تقول : « ولقد راودته عن نفسه ، فاستعصم ، ولئن لم يفعل ما أمره ، ليسجنن وليكونن من الصاغرين » فجعلت الجزاء على جريمة الفحش (المزعومة) والجزاء عن التزاهة عن تلك الجريمة واحد !!! فما أبعد إنصاف الانسان !!! وما أشد تناقضه خدمة لأغراضه الشخصية !!! ...

ارتباب العزيز في أمر زوجته منذ بدء نكاحها

الملحوظة الثانية — أدرك سيدها من هيئتها وغمّة صوتها ، وجعل حالها أنها هي الطالبة وهي الراغبة وهي التي أرادت السوء ليوسف وان حالها تم عن مكنون صدرها ، إذ قد قرأ في صفرة وجهها وملاحظها ان في الأمر دسيسة ، وانها مفترية « ويكاد المرئيب يقول خذوني » ، ولذلك لم يجاوبها بشيء ، ولم يظهر له أقل عناية . وبعبارة أبسط من ذلك : سمع سيدها كلامها ، فأدرك أنه ليس فيه شيء من من النعيط والحنق ، كما هو الواجب لو كانت صادقة ، وليس فيه شيء من الشدة والغلظة التي يجب أن تكون نتيجة للتمدي على شرفها ، بل بالعكس فيه ما يشف عن الرأفة بيوسف ، وذلك لأنها راعت في كلامها دقيقتين ، فأولاً بدأت بذكر

السجن ، واخرت ذكر العذاب ، لأن الحب لا يبادر إلى السمي في إيلام المحبوب ، ولطفت امر السجن بقولها : « إلا أن يسجن » ، لأن هذه العبارة تصدق بسجن أي مدة ولو قلت ؛ فأما السجن الدائم ، فانه لا يعبر عنه بهذه العبارة بل يقال مثلاً « إلا ان يكون من المسجونين » .

وثانياً لم تصرح باسم يوسف ؛ بل ذكرت ذلك ذكراً مرسلأ ، صوناً له عن الذكر بالسوء والألم .

ادرك سيدها العزيز هاتين الدقيقتين في طي شكاتها ، فساء فيها ظنه ، واتخذ ذلك علامة انها هي الماكرة الخاتلة ، وحفظ الأمر عليها .

ما المراد بكلمة « اهل »

المحوظة الثالثة — المراد بكلمة « الأهل » ههنا الزوجة ، كما في قوله تعالى : ﴿ فَلَمَّا قَضَىٰ مُوسَى الْأَجَلَ وَسَارَ بِأَهْلِهِ ﴾ (٢٨ : ٢٩) فاهله هنا هي زوجته « صفورة » ، وقوله تعالى للنبي (ﷺ) : ﴿ وَإِذْ غَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ تُبَوِّئُ الْمُؤْمِنِينَ مَقَاعِدَ لِلْقِتَالِ ﴾ (٣ : ١٢١) اراد من اهله عائشة (ض) لأن غدوه الى أحد كان من حجرتها ، وقوله تعالى : ﴿ فَرَاغَ إِلَىٰ أَهْلِهِ ﴾ (٥١ : ٢٦) ، اراد من اهله هنا ساراي وهاجر خاصة ، لأن ولده اسماعيل كان اذ ذاك ابن ١٢ سنة ، وابن اخيه لوط كان ساكناً في شرقي الأردن ، بخلاف ابراهيم ففي غريبه في فلسطين ، فالأهل ههنا في هذه الآيات الأربع انعام الزوجات .

زليفا تضيف نفسها الى زوجها اعظاما للخطب

المحوظة الرابعة — في إضافة نفسها إلى العزيز في قولها : « بأهلك » ، إعظاما للخطب ، وإغراء على تحقيق ما تتوخاه ، بحكم الغضب والحمية .

زليخا تبادر بالكلام خشية ان يسبقها فيه يوسف أو زوجها
 الملحوظة الخامسة — رأت نفسها قد وقعت في مأزق حرج ، فخافت ان
 يتكلم يوسف قبل ان تتكلم هي ، او خافت ان يبادرها « سيدها » بالسؤال عن
 هذا الحال ، فبادرت في التكلم وسبقت قبل ان تسأل .

اطانة زليخا الكلام في الشكوى

الملحوظة السادسة — لم تعتمد في كلامها الى الاختصار الذي فيه البلاغ إذ كان
 يكفيها أن تقول : « هو راودني عن نفسي » ، كما اكتفى يوسف بمثل ذلك إذ قال :
 « هي راودتني عن نفسي » ، ولكن أنى هذا وقد قال العلماء : « إن حذق فن
 الكلام والبراعة فيه ، مع طول وكثرة واطناب ، هو شيء تحتكره النساء من
 دون الناس أجمعين » .

عقاب محاوره فعل الفاعلة في الشريعة المصرية

الملحوظة السابعة — قولها : « ما جزاء من اراد بأهلك سوءاً إلا ان يسجن
 أو عذاب أليم » هو من مواد الشريعة المصرية ، وهذه المادة توافق شريعتنا المحمدية
 لان كلاشي هذه المادة من انواع « التعزير » الذي هو عقاب من حاول فعل
 الفاحشة ، وبعبارة اخرى ، الذي يكون في المعصية التي لا حد فيها .

انقار زليخا اسم يوسف عند الانهاص

الملحوظة الثامنة — لو قال قائل : « كيف لم تصرح في شكاتها بذكر يوسف ،
 وانه هو الذي اراد بها سوءاً » — قلنا قصدت العموم ، وان كل من اراد بأهلك
 سوء افحقه ان يسجن او يعذب لأن ذلك ابلغ فيما قصدته من تخويف يوسف ، او
 يقال : إنها اظهرت بهذا الإجمال الحياء والحشمة ان تقول لبعليها امام ذي رحمة :
 « هذا اراد بي سوءاً » ، ولذلك ايضاً كُنْتُ بالسوء عما أضمرته من الهناة ، مبالغة
 في المكر والكيد ، وابعاداً للتهمة عنها ، بتوقي ما يشعر منها بالتبرج والقحة .

القميص المفرد طاه دناراً

الملحوظة التاسعة — تتعلم من قوله : « وقدت قميصه من دبر ، مع ما روى التاريخ من انه خلع ثوبه في يدها ، أن هذا القميص كان دناراً لا شعاراً ، وإلا لزم ان يوسف صار عرياناً لا شيء على جسده ، وتعلم ايضاً أن يوسف كقدماء المصريين المعاصرين له انه لم يكن يلبس ألبسة كثيرة ، على قبيل ما هو حاصل اليوم من تقطيع الثياب الى قطع كثيرة ، بل كان يلبس ثياباً طويلة بحيث تكون قطعة واحدة ، كما هو المعروف عند قدماء العرب والاسرائيليين .

سبب عدم ذكر القرآن اسم العزيز واسم امرأته

الملحوظة العاشرة — قالوا : لم يصرح القرآن الكريم باسم العزيز وامرأته سراً عليها ، ولـكـننا نحن ذكرناهما باسمها وهو العلم الشخصي ، لأننا نعتقد أنها اليوم مجهولان جداً ، بحيث لا يمكن لأحد ما أن يعرفها من هنا ، ولأنهم قالوا يجوز التصريح في مقام التعليم ، على أن القرآن الكريم لم ينبه علينا بعدم ذكر اسمها اختصاراً حسب عادته ، فلذلك نحن في حل من التصريح باسمها على هذا المنبر .

الثأر هو الدافع للتهمة

الملحوظة الحادية عشرة — هي قالت : « ما جزاء من أراد بأهلك سوءاً إلا أن يسجن أو عذاب أليم » ، فتراها بحسب الظاهر حولت العاطفة من القلب الى السجن ، أو الى العذاب الأليم ، أصحح إنه يوجد حب يؤدي لمثل ذلك؟ والجواب نعم إن الحب إذا لم يكن طاهراً يؤدي لمثل ذلك ، ولأعظم من ذلك كالقتل ونحوه ، وثانياً يخيل إلينا أن المسألة مسألة كبرياء وأنفة ، وتحويل جريمة من شخص لشخص آخر ، وان الدافع لهذه التهمة إنما هو الثأر لعدم امتثال الأمر. (مرحى)

المحاكمة

آ (٢٦) * - قال : « هِيَ رَاوَدَتْنِي عَنْ نَفْسِي » ،
 وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِنْ أَهْلِهَا : إِنْ كَانَ قَيْصُهُ قُدَّ مِنْ قَبْلِ ...
 فَصَدَقَتْ ، وَهُوَ مِنَ الْكَاذِبِينَ * .

آ (٢٧) * وَإِنْ كَانَ قَيْصُهُ قُدَّ مِنْ دُبُرٍ ... فَكَذَبَتْ ،
 وَهُوَ مِنَ الصَّادِقِينَ * .

افتتحت الجلسة وتليت الآيات السادسة والعشرون والسابعة والعشرون

فقام الشيخ عبد الفنى الانطاكي وقال :^(١)

لما أغرت زليخا يوسف وعرضته للسجن والعذاب ، وجب عليه الدفع عن نفسه ، فقال بل (هي راودتني عن نفسي) ولولا ذلك لكرم عليها (وشهد شاهد) أي وقال قائل من (أهلها) قيل كان ابن عم لها ، قال بلسان الحاكم العدل (إن كان قيصه قد من قبل) أي شق من أمام (ف) قد (صدقت وهو من الكاذبين) لأنه يكون قد هجم عليها فدفعته عن نفسها فقدت قيصه من قدامه ، وإنما ألقى الله الشهادة على لسان من هو من أقاربها ، لتكون أوجب للحجة عليها وأوثق لبراءة يوسف وأنفى للتهمة عنه (وإن كان قيصه قد) شق (من دبر) أي من خلف (ف) قد

(١) نسبة الى انطاكية من بلاد الشام (سورية) .

(كذبت) في رميها له (وهو من الصادقين) في أنها هي التي راودته ، لأن شن قبيصه من خلفه يدل على أنه كان هارباً ، وهي لاحقة له .

قيل هو الذي كان جالساً مع زوجها لدى الباب ، ويجوز أن يكون بعض أهلها كان في الدار فبصر بها من حيث لا تشعر ، فأغضبه الله ليوسف بالشهادة له والقيام بالحق ، وسمى قوله شهادة ، وما هو بلفظ الشهادة ، لأنه أدى مؤدى الشهادة في أن ثبت به قول يوسف وبطل قولها ، وانه ليصدق على هذا « الشاهد ، المثل السائر » ربّ أخ لك لم تلده أمك .

(قال هي راودتني عن نفسي)

- ١ -

وقالت الآنسة رحمة الناصرية (١) :

دفاع يوسف

تلمون أيها السادة أن يوسف كان أولاً سمع من زليخا مراودتها إياه ، ثم رأى هماً بضربه إن لم يوأتهما ، ثم بلحوقها إياه حينما هرب منها ، ثم الآن رآها تُسمع (٢) به زوراً وبهتاناً وتهمه وتلصق به العيب ، فشعر بالدم يغلي في عروقه ، ولكنه تماسك وتمالك ، ولم يكن يحجزه عن المبادرة لاظهار الحقيقة إلا ما لبثت العزيز عليه من الاحسان واكرام المثوى ، فاقصر عن الدفاع عن نفسه بأخصر عبارة وأوجز كلمة ، قائلاً « هي راودتني عن نفسي » مؤملاً أن الواقع سيتكلم عنه طويلاً ، وان ميزان العدل سيكون له القول الفصل بالبحث عن القرائن والاستشهاد بالامارات .

(١) نسبة الى الناصرة من بلدان فلسطين .

(٢) سمع بالرجل اذاع عنه عيباً وندد به وأشهره وفضحه وسمع الناس اياه .

قال كلمته الموجزة هذه مفصلاً فيها نوع الاكتفاء ولم يطلق لسانه العنان في الدفاع عن نفسه بأن يقول مثلاً : « هي راودتني عن نفسي ، وأرادتني على السوء ، فلم أزل على إرادتها ، وهي غلقت الأبواب ، لتحصرني وتكرهني على الأمر الشنيع ، وهي همت بالابقاع بي ، جلباً وحملأ على مرغوبها ، وهي لحقتني إذ هربت منها ، وبالنتيجة هي شقت ثوبي من خلني ، عندما أرادت أن تمسكني ، نعم ، لم يطلق لسانه العنان ببيان ذلك كله ، بل تجاهل عن أكثر ما حصل منها ، واختصر الكلام في الهامة عن نفسه اختصاراً ، لأن خير الكلام ما قل ودل .

قال يوسف كلمته وأمارات العفة والطهارة ظاهرة على وجهه ، ودلائل الصدق لاثمة على محياه ، وهو رابط الجأش ، ثابت الجنان ، يقرأ الناظر في إثراق وجهه وملاحه آية النزاهة والشرف فكانت دعواه كما قال القائل :

سَبَّوحٌ لَهَا مِنْهَا عَلَيْهَا شَوَاهِدُ

وأما « العزيز » فكأنني به كان مصغياً لجوابه ، وعيناه شاخصتان فيه ، يتفرس في حركاته وسكناته ، ليستطلع مقدار ما في كلامه ، فرآى الصدق ظاهراً على كل حرف من حروف جملة المختصرة .

وأما « امرأة العزيز » فتخيّل أنها لما فرغت من كلامها التفتت لجهة يوسف ونسعت ما عسى أن يبدو منه ، وكانت تتوقع استيائه وكدره ، ليندفع ببذيه الكلام ، فيشفي ما في نفسها ، ولكن يوسف لم يزد على كله « هي راودتني عن نفسي » ، معرضاً عن اهانتها له بتلك الافتراءات والأبعاد ، فزاد استيأؤها وبلبالها ، لأن من يتعمد إهانتك إذا لم يرَ قوله قد أغضبك . يرى أن تلك الإهانة رجعت إليه ، وشق ذلك عليه .

(مرهى مرهى)

(وشهد شاهد من أهلها : إن كان ...)

— ١ —

قالت الأنسة سميرة الدومانية (١) :

الشاهد والتحقيقات

كان رجل من أهلها حاضرًا ومشاهدًا للحادث وكأني به قد افتتح جلسة المحاكمة في هذه المحكمة المختلطة ، ... بقوله : ﴿ الله شهيدٌ بيني وبينكم ﴾ (٦ : ١٩) ، ﴿ وإذا قلم فاعدلوا ولو كان ذا قرى ﴾ (٦ : ١٥٢) ، ﴿ يا أيها الذين آمنوا إن جاءكم فاسقٌ بنبأٍ فتبينوا ... أن تصيدوا قومًا بجهالةٍ ، فتصبحوا على ما فعلتم نادمين ﴾ (٤٩ : ٦) ، ﴿ يا أيها الذين آمنوا ، كونوا قوامين لله ، شهداء بالقسط ، ولا يجر منكم شأنٌ قَوْمٍ على أن لا تعدلوا ، اعدلوا هو أقرب للتقوى ، واتقوا الله ، إن الله خيرٌ بامتثالكم ﴾ (٥ : ٩) ، ثم قال مخاطباً يوسف وزليخا : كلا كما يدعي وليس بيده سلطان ، وكلا منكما يريد هدم ما عند خصمه من العفاف والطهر ، فهذه بهجومها تريد هدم عفاف هذا العبد وطهره ، بدون إثبات ولا برهان ، وهو بدفاعه يقصد هدم عفاف هذه السيدة وشرفها ، بغير مستند ولا حجة وما هكذا يدلى بالتهم ، ولا سيما في باب الأعراض ، ولذلك وحيث لا يوجد مع كل شهود تثبت له صحة دعواه ، فما علينا إلا أن نلتجئ إلى الأمارات ، ونحكّم العلامات ، ونستطلع حقيقة الأمر من الدلائل المحسوسة ، فأطلقوا اللساني الحرية لأقول كلمة - فقال له صهره العزيز : « اقض ما أنت قاضٍ » - فقال : أيها العزيز « أحبُّ الجهاد إلى الله تعالى كلمة حقٍ » .

(١) نسبة إلى بلدة دوما من ضواحي دمشق الشام (سورية) .

تقال لإمام جائر^(١) ، حاشاك ، أيها العزيز ، أنا أ كفيك أمر هذا المشكل ،
وأكشف لك عنه النقاب .

وعندما وصل إلى هنا اشترأبت أعناق كل من الحاضرين ، من عزيز وامرأته
ويوسف ، وأصاخوا لما سيقوله هذا الرجل « الشاهد » وتولام جميعاً
سكوت عميق .

ثم قال : « أيها العزيز ، أنت تعلم ان الدعاوي لا ينصرها إلا الدليل ، وعليه
فالدليل الممكن هنا الذي يصلح لكشف وجه هذه المعركة ، والبرهان الذي ينبغي
التعويل عليه ، ولا ينبغي التعويل على غيره .

والذي نقيمه مقام الشهود ، هو أن نتأمل في هذا القميص الملفوف المحمول
بيدها ، الذي يقولان عنه إنه قدّ - هل هو مقدود من أمام ، أم من خلف ؟
فإن رأينا مقدوداً من قُبُر ، فهي صادقة في دعواها ، وانه كان تابعها وهاجماً
عليها ، وانها هي دافعتة عن نفسها فقدت قيمه من قدامه بالدفع ، وان رأينا
مقدوداً من دُبُر ، فهي كاذبة ، بل تكون هي التي تبعته واجتذبت ثوبه
اليها فقدته . »

هذا مرمى كلام ذلك « الشاهد » وكان هذا الشاهد رجلاً شهياً عاقلاً فبها؟
مثلاً للمدالة والانصاف .

فصن ذلك صارت الهواجس تتقاذف المتداعيين وأخذت الخواطر تتضارب في
نظر هذين المتدافعين ، بين يأس وأمل ، وخوف ورجاء .

ولا بد انه قبلما سرد الشاهد حكمه ، كان الأمل والرجاء يغلبان على امرأة

(١) رواه احمد في سنده من حديث أبي امامة .

العزیز ، لكون « الشاهد » من أهلها ، وان حال يوسف كان بالمعكس ، لأن غايته انه خادم وغريب ، ولكن بعدما أصدر « الشاهد » حكاه ، انعكست الآية ، وصار يوسف في غاية الأمن والرجاء ، ولا تسل عما خامر فؤاده من الامتان لذلك « الشاهد » وحكاه عفواً ، خدمة للعقل والوجدان الطاهر ، وهو وان لم يشكره بلسانه ، اكتفى بشكره بقلبه ، ومن القلب إلى القلب دليل ؛ أما امرأة العزیز فلا تخال إلا انه قد وقع حكم « الشاهد » عليها وقوع الصاعقة على الخشبة اليابسة .

وقف هذا « الشاهد » وقد تمثلت في كلامه روح العدالة ، ولم يكن ليريد الدفاع عن واحد من هذين الخصمين بعينه ، وإنما يريد الانتصار للحق والحقيقة ، ولكنه ما كأنه إلا وقف وقفة مدافع عن يوسف ، كحمام قدير وقف للذب عن موكله ، فالله تعالى هو الذي سخر هذا « الشاهد » للانتصار للواقع وخدمة يوسف من حيث لا يشمر هو ولا يوسف .

بمثل هذا الرجل صاحب العبقرية البارزة الذي لا يخشى في الحق لومة لائم - تتجلى العدالة في أجلى مظاهرها ، وتعلم أنه كان يوجد في مصر في ذلك التاريخ المظلم أفراد أفذاذ هم ذوو إنصاف وضمير حي .

رجل وقف كحاكم وهو من ذوي قربي امرأة العزیز ، وبالتالي هو صهر لنفس العزیز ، وقف على منصة الحكم ، وتلا ذلك الحكم المادل ، الذي لم يراع فيه قرابته لتلك السيدة الأميرة ، ولم يحاب فيه صهره الوجيه ، ولم يغدر فيه بذلك العبد المبراني الغريب ، ولكن نطق بالصدق ، ولم يشطط عن جادة الصواب ، فطينا نحن ان وسد الينا أمر الحكم مها كان نوعه ان لا تراعي الوجوه ولا نحاي ولا تغدر بالضعيف ، لكي يسطر لنا التاريخ صفحة بيضاء بمداد الفخر ، كما سطر لهذا الرجل المنصف .

وهنا لا بد من قلم كاتب ماهر ، به يمكن الكشف عما كان يخالج نفسى يوسف « الصديق » وزليخا « المفترية » ، وهما واقفان بين يدي « العزيز » و « الشاهد » وما يحيط بالجميع من الجواري والقهرمانات والخدم ، لا شك انها كانتا فريسة الهواجس والخاوف وكيف انها لا يكونان كذلك و « امرأة العزيز » تعرف نفسها ، والخائن خائف ، ويوسف يعرف ان الانصاف في الدنيا قليل ، وانه غريب وحيد مملوك ، وان خصماءه هم حكامه ؟ ..

ولكن كان هذا بالنسبة ليوسف في الابتداء ، وأما أخيراً فقد تجلت له أمانة هذا « الشاهد » وظهرت له عدالته وانصافه ، فصار من الأمن بمكان هذا ما يسره الله لي من القول في هذا الموضوع ، والله تعالى بالحقيقة اعلم .

(وشهد شاهد من أهلها ..)

—٢—

وقالت السيدة مليحة اليافية :-

لي على هذه الآية عدة فرائد :

شهد شاهد بمعنى أخبر حاضر أو حكم حاكم

الفريدة الأولى — « شهد » بمعنى أخبر ، كما في قوله تعالى : ﴿ وَمَا شَهِدْنَا إِلَّا بِمَا عَلَّمْنَا ﴾ (آ : ٨١) ، و « شاهد » حاضر ، كما في ﴿ لَيْشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ ﴾ (٢٢ : ٢٨) ، ﴿ وَلَيْشْهَدُوا عَذَابَهُمْ ﴾ (٢٤ : ٢) ، ﴿ وَمَا شَهِدْنَا مَنَلِكَ أَهْلِهِ ﴾ (٢٧ : ٤٩) ، ويقولون : « صَلَّيْنَا صَلَاةَ الشَّاهِدِ » وهي صلاة المغرب ، لأنها لا تقصر ، بل يصلها الغائب كما يصلها الشاهد ، أي الحاضر (أساس) .

إذا تقرر هذا فيجوز أن يكون بعض أهلها كان في الدار ، فبصر بها من حيث لا تشمر ، فأغضبه الله ليوسف ، والاتصار لهذا العبد المظلوم .

فكل من أخبر بشيء فقد شهد به ، وان لم يتلفظ بلفظ « أشهد » فلا يشترط في صحة الشهادة ذكر لفظ أشهد ، بل متى قال الشاهد : رأيت كيت وكيت ، أو سمعت أو نحو ذلك ، كانت منه شهادة ، ولا يتوقف إطلاق لفظ الشهادة لفة ولا شرعاً على قول « أشهد » قال تعالى : ﴿ قُلْ هَلْمْ شَهِدَاتِكُمْ الَّذِينَ يَشْهَدُونَ أَنَّ اللَّهَ حَرَّمَ هَذَا ، فَإِنْ شَهِدُوا فَلَا تَشْهَدُ مَعَهُمْ ﴾ (٦ : ١٥٠) ، ويشهدون يخبرون ، فلا تشهد معهم : فلا تخبر כאخبارم ، أي لا تسلّم لهم ما شهدوا به ولا تصدقهم ، لانه إذا سلم فكأنه شهد معهم مثل شهادتهم ، وكان واحداً منهم ، وقال تعالى : ﴿ لَكِنَّ اللَّهَ يَشْهَدُ بِمَا أَنْزَلَ إِلَيْكَ ﴾ (٤ : ١٦٥) ، ومعنى شهادة الله بما أنزل اليه ، إخباره بآيات صحته ، ولكن هذا الاخبار ليس كلامياً ، بل فعلياً باظهار المعجزات كما تثبت الدعاوى بالدلائل المحسوسة المشاهدة ، وقال تعالى : ﴿ وَلَا يَمْلِكُ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ الشَّفَاعَةَ ، إِلَّا مَنْ شَهِدَ بِالْحَقِّ ﴾ (٤٣ : ٨٦) أي أخبر بالحق وهو توحيد الله ، وهو يعلم ما يخبر به عن بصيرة .

ويجوز أن يكون معنى « وشهد شاهد » : وحكم حاكم ، والنكته في المدول عن جملة « حكم حاكم » الى جملة « شهد شاهد » الاشارة الى أن هذه الأمانة هي قائمة مقام « الشاهد » فكأنها شهادة ، لأن معنى قول النبي (ﷺ) « البينة على المدعي » : ان عليه أن يظهر ما يبين صحة دعواه ، فاذا ظهر صدقه بطريق من طرق الأمارات والعلامات والقرائن حكم له (١)

(١) الطرق الحكيمة لابن القيم .

موجبات الحكم

لم يوجب الله على الحكام أن لا يحكموا إلا بشاهدين ، وإنما أمر صاحب الحق أن يحفظ حقه بشاهدين ، أو بشاهد وامرأتين ، وهذا لا يدل على أن الحاكم لا يحكم بأقل من ذلك ، فقد حكم النبي ﷺ بالشاهد واليمين ، وبالشاهد فقط ، ويجوز للحاكم أن يحكم بالنكول ، وباليمين المردودة ، وبالقرعة ، وبالقفافة ، وبالقسامة ، ويجوز له أن يحكم بشاهد الحال ، إن تداعى الزوجان والصابغان متاع البيت والدكان ، ويجوز له أن يحكم بوجوده الآجر في الحائط ، فيجمله للمدعي إذا كانت الى جهته (١) .

من هو الحاكم

فلو سأل سائل وقال : هل كان هذا الرجل قاضياً حتى يحكم ؟ .. قلنا : كل من حكم من ولاية الأمور ، أو من أهل الفهم والعلم فهو حاكم ، سواء سُموا قضاة ، أو ولاية الأحداث ، أو ولاية المظالم ، أو حكام صلح ، أو حاكماً منفرداً ، أو كانوا من أهل الفضل ، أو كانوا محكّمين ، أو حكاماً إداريين ، أو غير ذلك من الأسماء العرفية ، والألقاب الاصطلاحية ، فإن كل واحد من هؤلاء يعتبر حاكماً ، ولو لم يسم عند الناس بهذا الاسم ، ويعتبر قاضياً ولو لم يستحق هذا اللقب في اصطلاح القوم ، ولكنه يستحقه بحسب اللغة ، لأن الحكم والقضاء ، والحاكم والقاضي واحد ، وأن الفلاحين أهل الأرياف ، والبدو أهل الخيام ، يسمون اليوم كل من حكم لهم من رؤسائهم « قاضياً » ، فالحكم ليس مختصاً بناس دون ناس

(١) الطرق الحكيمية لابن القيم .

ولا يتوقف على نصب من طرف الحكومة ، قال تعالى : ﴿ لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ ، وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ ، لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ ﴾ (٥٧ : ٢٥) ، وقال جل جلاله : ﴿ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا ، وَإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ ﴾ (٥٧ : ٤) ، وقال جل من قائل : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْتُلُوا الصِّدْقَ ، وَأَنْتُمْ حُرْمٌ ، وَمَنْ قَتَلَهُ مِنْكُمْ مُتَعَمِّدًا ، فَجَزَاءٌ مِثْلُ مَا قَتَلَ مِنَ النَّعْمِ ، يَحْكُمُ بِهِ ذَوَا عَدْلٍ مِنْكُمْ ﴾ (٩٨ : ٥) .

مرادفات الشاهد

الفريدة الثانية - الشاهد والضمين والعريف والقيب واحد ، كما في القاموس في مادة « قب » ، فعمل ذلك « الشاهد » كان من أهل العلوّ والرئاسة ، حتى أنه لممكننا أن نفسر كلمة « شاهد » برئيس .

نفي كون الشاهد كان طفلاً

الفريدة الثالثة - قيل كان هذا الشاهد « طفلاً » ، وعندنا أن هذا القول بعيد جداً لوجوه :

أولاً - لو كان الحال كذلك لم يحسن التعبير بعبارة « شهد شاهد » التي تفيد أن ما قاله هو من قبيل الشهادة أي من قبيل الاخبار عن مشاهدة ، ولو كان « طفلاً » لحسن أن يقال : « ونطق طفل في مهده » .

ثانياً - لو كان ذلك صحيحاً ، لم يحتاج لتقوية هذه الشهادة بكونه من أهلها ، لأن هذا « الطفل » لو كان من هنود أميركا أو من هندوس الهند لقبلت شهادته ، قال الجبائي : لو كان « طفلاً » لكان قوله معجزاً لا يحتاج معه إلى البيان .

ثالثاً — لو كان ما روى صحيحاً لم يحتاج الى التطويل ، والاتجاء الى تقرير هذه الملامة ذات الوجين ، بل كان يكفي من هذا « الطفل » الرضيع أن يقول : « يوسف صادق » أو « امرأة العزيز كاذبة » ، ثم يرجع لطبيعته ويسكت ، ويكون حينئذ قد ظهرت براءة يوسف ليس بملامة فقط ، بل بأوضح دليل في العالم ، لأن نطق الطفل الرضيع في مهده ، يعد معجزة ، أو إرهاباً خارقاً للعادة ، وهادماً لناموس الطبيعة .

تحريم الدفاع عن الخائن والمجرم

الفريضة الرابعة — نحن لا نسمنا إلا أن تقدم لهذا « الشاهد » كل شكر وثناء ، يليق ان بمدائه وإنصافه ، حيث تكلم بما أوجبه عليه ضميره ، ولم يراع قرابته لزيخا ، ولم يدلّس ، لأنه صهر للعزيز ، بل نطق بما أوحاه اليه الإنصاف قال تعالى : ﴿ وَلَا تَكُنْ لِلْخَائِنِينَ خَصِيماً ﴾ (٤ : ١٠٤) ، فلا يجوز للمحامي أو للحاكم أن يخاصم البراء لأجل الخائنين ، وقال تعالى : ﴿ وَلَا تَجَادِلْ عَنِ الَّذِينَ يَخْتَانُونَ أَنْفُسَهُمْ ، إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ مَنْ كَانَ خَوَّانًا أَثِيماً ﴾ (٤ : ١٠٦) ، فلا يجوز للمحامي ولا للحاكم أن يدافع عن الذين يخونون أنفسهم بالمصيبة كما في حادثة زليخا ، فهذا القول يحرم المهامة عن المجرمين ، والدفاع عن الخائنين .

لم يكن الشاهد شاهراً بالمعنى المصطلح عليه عند الفقهاء

الفريضة الخامسة — لو سأل سائل : « إن الرجل الذي يشهد ولم يُستشهد ، ويحلف ولم يُستحلف مذموم ، كما ورد في الحديث في سنن ابن ماجه وغيرها ، ومع ذلك فالشاهد الواحد لا يكفي ، بل لا بد من اثنين ، والجواب : هو أن شهادة هذا « الشاهد » ليس من قبيل الشهادة الواردة في الحديث والمصطلح

عليها عند الفقهاء ، ولكن معنى « شهد شاهد » : قال حاضر ، فشهد مضمّن معنى قال ، ولذلك جازت حكاية الجملة الشرطية بعد فعل الشهادة و « شاهد » بمعنى حاضر كما قال الشاعر :

ما علموا أني لكم حافظ شاهداً ما كنتُ أو غائباً
أو « شهد شاهد » بمعنى حكم حاكم ، أو أخبر مخبر ، كما تقدم آنفاً .

تغلب الحق على القوة

الفريدة السادسة — كان هذا الرجل « الشاهد » من أهل امرأة العزيز ، ودمه من دمها ، ولكن الأخلاق والطباع متباعدة :

أبوك أبي والأصل لا شك واحد ولكننا صنوان ورد وخروج
ولكونه من أهلها ، وبالتالي لكونه صهراً « لقوطيفار » كان له دالة عليه ، فأطلق لسانه بين يديه ، وتكلم بحرية تامة ، ونطق بحكمه المادل وبفضل هذا الحكم تغلب يوسف على امرأة العزيز من قبيل تغلب الحق على القوة .

مشابهة الشاهد لبعض الحكماء والحكماء

الفريدة السابعة — ما أشبه هذا « الشاهد » في فراسته بالنبي سليمان (ع) وعمر بن الخطاب (رض) وعلي بن أبي طالب (رض) والقاضي أياس بن معاوية ، والقاضي شريح ، والقاضي أبي حازم ، وغيرهم من حكام العرب وحكائهم ، فجميع هؤلاء مع مشاركة سواهم في العلم والحكمة قد اختلفوا بالفهم وامتازوا بالاستدلال بالأمارات وشواهد الحال ، وهذا الذي فات كثيراً من الحكام الجامدين ، فأضاعوه كثيراً من الحقوق ، وأحيوا كثيراً من الباطل .

جواز الحكم بالقرائن والاستدلال بالأمارات

الفريضة الثامنة — أخذوا مما فعله هذا الرجل « الشاهد » أن للحاكم أو الوالي أن يحكم بالقرائن التي يظهر له فيها الحق ، وأن يستدل بالأمارات ، ولا يقف عند خصوص البيئات والاقراءات .

اختصم رجلان الى « أياس » قاضي البصرة ، في قطيفتين حمراء وخضراء ، فقال أحدهما : « دخلت الحوض لأغتسل ووضعت قطيفتي ، ثم جاء هذا ووضع قطيفته بجانب قطيفتي ، ثم دخل واغتسل ، فخرج قبلي ، وأخذ قطيفتي فتبعته ، فزعم أنها قطيفته » — فقال أياس : ألك بينة ؟ — قال : لا — قال : اثبوني بمشط فأثني به ، فسرح رأس هذا ثم هذا ، فخرج من رأس أحدهما صوف احمر ومن رأس الآخر صوف أخضر فقضى بالأخضر لصاحب الأخضر ، وبالأحمر لصاحب الأحمر .

ولا تنس في هذا الموضوع حكاية نبي الله سليمان (ع) مع المرأتين اللتين ادعتا الولد ، فحكم به داود (ع) للكبرى ، فقال سليمان : « اثبوني بالسكين أشقه بينها » فسمحت الكبرى بذلك ، وقالت الصغرى : « لا تفعل رحمك الله ، هو ابنا ، فاستدل برضى الكبرى بشقه وامتناع الصغرى من الرضا بذلك — على انها أمه ، وان الحامل لها على الامتناع من الدعوى ما قام بقلبها من الشفقة والرحمة التي وضعا الله في قلب الأم ، فاتضح هذه القرينة عنده حتى قدمها على إقرارها ، فانه حكم به لها مع قولها : هو ابنا .

وهنا في هذه السورة الكريمة نرى ذلك « الشاهد » من أهل امرأة العزيز توصل بقدر القميص الى تمييز الصادق منها من الكاذب ، وهذا « لوث » في دعوى « المرض » وقد حكم به .

وقد يكون « اللوث » في دعوى « المال » فيحكم بموجبه، وهذا مذكور في سورة المائدة في دعوى المال ، في قصة شهادة أهل الذمة على المسلمين ، في الوصية في السفر ، في قوله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ، شَهَادَةُ بَيْنَكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ حِينَ الْوَصِيَّةِ اثْنَانِ ذَوَا عَدْلٍ مِنْكُمْ ، أَوْ آخَرَانِ مِنْ غَيْرِكُمْ ، إِنْ أَنْتُمْ ضَرَبْتُمْ فِي الْأَرْضِ ، فَأَصَابَتْكُمْ مُصِيبَةُ الْمَوْتِ ، تَحْبِسُونَهُمَا مِنْ بَعْدِ الصَّلَاةِ ، فَيُقْسِمَانِ بِاللَّهِ إِنَّ آرْتَابِنَا لَشَرٌّ لَكُمْ مِنَ الْغَيْبِ ، وَإِنَّا إِذَا لَمِنَ الْآثِمِينَ ﴾ (٥ : ١٠٩) .

وقد يكون « اللوث » في « الدماء » ، فقد حكم النبي ﷺ بموجب اللوث في القسامة ، وجوز المدعين أن يحلفوا خمسين يمينا ويستحقوا دم القتل .

وقد حكم أمير المؤمنين عمر بن الخطاب (رض) والصحابة منه بجرم المرأة التي ظهر بها حمل ، ولا زوج لها ولا سيد ، وحكم عمر وابن مسعود بوجوب الحد برائحة الخمر من فم الرجل ، أو قيئه خمرأ اعتماداً على القرينة ، ولم يزل الأئمة والخلفاء يحكمون « بالقطع » إذا وجد المال المسروق مع المتهم ، وهذه القرينة أقوى من البينة والإقرار .

وهل يشك أحد رأى قتيلاً يتشحط في دمه ، وآخر قائم على رأسه بالسكين أنه قتله ؟ ولا سيما إذا عرف بمداوته ، وكذلك إذا رأينا رجلاً مكشوف الرأس وليس ذلك عادته ، وآخر هارباً قدامه ، بيده عمامة ، وعلى رأسه عمامة ، حكناله بالعمامة التي بيد الهارب قطعاً ، وجزمنا بأنها يد ظلمة غاصبة ، بالقرينة الظاهرة ، التي هي أقوى بكثير من البينة والاعتراف .

وهل القضاء « بالنكول » إلا رجوع إلى مجرد القرينة الظاهرة ، التي علمنا بها

ظاهر أنه لو لا صدق المدعي لرفع المدعى عليه دعواه باليمين ؟ فلما نكل عنها ، كان نكوله قرينة ظاهرة دالة على صدق المدعي ، فتقدمت على اصل براءة الذمة (١) .

وبالجملة فان ما قاله وما حكم به ذلك « الشاهد » هو من قبيل الاعتماد على « الأمانة » وانها تقوم مقام البينة ، وله نظائر كثيرة ، فمن ذلك ان النبي (ﷺ) أمر المنتقط أن يدفع اللقطة الى واصفها ، وأمره أن يعرف عفاها ووعاها ووكاها ، كذلك ، فجعل وصفه لها قائماً مقام « البينة » ، وقد سئل الإمام احمد عن المستاجر ومالك الدار ، تنازعا « دفيناً » في الدار ، فكل واحد منها يدعي انه له ، فقال : « من وصفه منها فهو له » .

وكذلك اللقيط إذا تداعاه اثنان ووصفه أحدهما بعلامة خفية في جسده حكم له به عند الجمهور ، ومن ذلك أن ابني عفراء لما تداعيا قتل أبي جهل ، فقال النبي (ﷺ) : « هل مسحتما سيفيكما ؟ - قالوا : لا - قال : فأرياني سيفيكما ، فلما نظر فيها ، قال لأحدهما : هذا قتله ، وقضى له بسلبه » .

وعلى الاجمال « فالبينة » اسم لكل ما يبين الحق ويظهره ، ومن خصتها بالشاهدين ، لم يوف مسأها حقه ، ولم تأت « البينة » قط في القرآن الكريم مراداً بها الشاهدان ، وإنما أتت مراداً بها الحججة والدليل والبرهان ، وكذلك قول النبي (ﷺ) : « البينة على المدعي » المراد به أن عليه ما يصحح دعواه ليحكم له ، والشاهدان من البينة ، ولا ريب أن غيرهما من أنواع البينة قد يكون أقوى منها كدلالة « الحال » على صدق المدعي ، فانها أقوى من دلالة إخبار الشاهد ، والبينة والدلالة والحجة والبرهان والآية والتبصرة والعلامة والأمانة والسلطان والمستند

(١) ملخصاً من الطرق الحكيمة لابن القيم .

والقرينة — ألفاظ متقاربة المعنى ، فالشارع لم يبلغ القرائن والامارات ودلائل الأحوال ، بل من استقرى الشرع ، في مصادره وموارده ، وجده شاهداً لها بالاعتبار ، مرتباً عليها الأحكام ، وقد مدح الله سبحانه الفراسة وأهلها في مواضع من كتابه ، فقال تعالى ﴿ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّمُتَوَسِّمِينَ ﴾ (١٥ : ٧٥) ، وهم المتفرسون الآخذون بالسياء ، وهي العلامة ، يقال : تفرست فيك كيت وكيت وتوسمته ، وقال تعالى : ﴿ وَلَوْ نَشَاءُ لَأَرَيْنَاكُمْ كَيْفَ فَلَمَّ تَفَرَّقْتَهُمْ بِسِيَماهُمْ ﴾ (٤٧ : ٣٠) ، وقال تعالى : ﴿ يَحْسَبُهُمُ الْجَاهِلُ أَغْنِيَاءَ مِنَ التَّعْقُفِ ، تَعْرِفُهُمْ بِسِيَماهُمْ ﴾ (٢ : ٢٧٣) ، وفي جامع الترمذي مرفوعاً : (اتَّقُوا فِرَاسَةَ الْمُؤْمِنِ ، فَإِنَّهُ يَنْظُرُ بِنُورِ اللَّهِ) ثم قرأ : ﴿ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّمُتَوَسِّمِينَ ﴾ (١)

وقد ذكر الفقهاء ان الدعوى إن كانت من قبيل تهمة ، وهي أن يدعي إنسان على إنسان فعل محرم ، مثل قتل أو قطع طريق أو سرقة أو غير ذلك من العدوان الذي يتعذر إقامة البينة عليه في غالب الأحوال ، فهذا القسم إن أقام عليه المدعي حجة شرعية فذاك ... وإلا فالقول قول المدعي عليه يمينه ، لا روى مسلم في صحيحه عن ابن عباس قال ، قال رسول الله (ﷺ) : (لَوْ يُعْطَى النَّاسُ بِدَعْوَاهُمْ ، لَادْعَى نَاسٌ دِمَاءَ رِجَالٍ وَأَمْوَالَهُمْ ، وَلَكِنِ الْيَمِينَ عَلَى الْمُدْعَى عَلَيْهِ) (٢) .

فلهذا وحيث ان يوسف رفض الدعوى عليه رفضاً مجرداً عن اليمين ، وان المرأة المدعية لم تأت ببينة تثبت دعواها ، احتيج الى الاستناد الى أمانة تؤيد واحداً من المدعى والمدعى عليه ، فقيل : إن كان .. وإن كان ...

(١) الطرق الحكيمة لابن القيم

(٢) الطرق الحكيمة لابن القيم .

وهذا من قبيل نصب العلامة على الحق المشروع ، وقد نصب الله سبحانه على الحق الموجود والمشروع علامات وأمارات تدل عليه وتبينه ، قال تعالى : ﴿ وَأَلْقَى فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَنْ تَمِيدَ بِكُمْ ، وَأَنْهَاراً وَسُبُلًا لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ، وَعَلَامَاتٍ ، وَبِالنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ ﴾ (١٦ : ١٥ و ١٦) ، ونصب على القبلة علامات وأدلة ، ونصب على الإيمان والنفاق علامات وأدلة ، قال النبي (ﷺ) : (إذا رأيتم الرجل يمتاد المساجد فاشهدوا له بالإيمان) ، فجعل اعتياد شهود المسجد من علامات الإيمان ، وجوز لنا أن نشهد بإيمان صاحبها ، مستندين الى تلك العلامة ، والشهادة إنما تكون على القطع ، فدل على أن الأمانة تفيد القطع ، وتوسع الشهادة ، وقال (ﷺ) : (آية المنافق ثلاث : إذا حدث كذب ، وإذا وعد أخلف ، وإذا أؤتمن خان) .

وقد نصب تعالى الآيات دالة عليه وعلى وحدانيته وأسمائه وصفاته ، فكذلك هي دالة على عدله وأحكامه ، والآية مستازمة لدلولها ، لا تنفك عنه ، بحيث وجد اللزوم وجد لازمه ، فاذا وجدت آية الحق ثبت الحق ، ولم يتخلف ثبوته عن آيته وأمارته ، والحكم بغيره يكون حكماً بالباطل ، وقد اعتبر النبي (ﷺ) وأصحابه من بعده العلامات في الأحكام ، وجعلوها مبينة لها ، كما اعتبر العلامات في اللقطة ، وجعل صفة الواصف لها آية على صدقه وأنها له ، وقال الجابر : « خذ من وكيبي وسقاً ، فإن التمس منك آية ، فضع يدك على رقوته » ، فنزل هذه العلامة منزلة البينة ، التي تشهد انه أذن له أن يدفع له ذلك ، كما نزل الصفة للقطعة منزلة البينة ، بل هذا نفسه بيّنة ، إذ البينة ما بين الحق ، من قول وفعل ووصف ، وجعل الصحابة رضي الله عنهم الحَبَل علامة وآية على الزنا ، فحدّوا به المرأة ، وان لم تقر ولم يشهد عليها أربعة ، بل جعلوا الحَبَل أصدق من الشهادة ، وجعلوا راثمة الحجر ، وقيته لها آية وعلامة على شرها ، بمنزلة الإقرار والشاهدين ، وجعل النبي

(عليه السلام) كثرة المال وقصر مدة إنفاقه آية وعلامة على كذب المدعي أنه ذهب في النفقة والنواب ، في قصة «حي بن أخطب» واعتبر العلامة في السيف وظهور أثر الدم به في الحكم ، بالسلب لأحد المتداعين ، فنزل الأثر منزلة البينة ، وجعل الحيض علامة على براءة الرحم من الحمل ، واعتبر العلامة في الدم الذي تراه المرأة ويشتبه عليها ، هل هو حيض أو استحاضة ، واعتبر العلامة فيه بوجوه ولونه ، وحكم بكونه حيضاً بناءً على ذلك ، وهذا في الشريعة أكثر من أن يحصر وتستوفى شواهد ، فمن أهدر الأمارات والملاحظات في البرع بالكلية ، فقد عطل كثيراً من الأحكام ، وضيع كثيراً من الحقوق (١)

ولولا العلامة التي اتخذها الشاهد ، دليلاً على التمييز بين الحق والمبطل هنا لحكم على يوسف ، أو على الأقل لكان حال يوسف مشكوكاً فيه .

سبب تأخير أمانة صدق يوسف على أمانة صدق امرأة العزيز

الفريضة التاسعة — إن كان «الشاهد» بمض أهلها كان في الدار فبصرها من حيث لا تشعر ، فأغضبه الله ليوسف بالشهادة له ، كما ذكره الزمخشري احتمالاً ، ونحن درجنا عليه في تقريرنا — إن كان كذلك كان من حقه أن يصرح بما رأى ، فيصدق يوسف ويكذبها ، ولكنه أراد أن لا يكون هو الفاضح لها ، ووثق بأن انقداد قيمته كان من دبر ، فنصبه أمانة لصدقه وكذبها ، ثم ذكر القسم الآخر ، وهو قدمه من قبل ، على علم منه بأنه لم يتقدم من قبل ، حتى ينفي عن نفسه التهمة في الشهادة ، وقصد الفضيحة ، وينصفها جميعاً ، فيذكر أمانة على صدقها المعلوم نفيه ، كما ذكر أمانة على صدقه المعلوم وجوده ، ومن ثم قدم أمانة صدقها

(١) الطرق الحكيمة لابن القيم .

على أمانة صدقه في الذكر ، إزاحةً للتهمة ووثوقاً بأن الأمانة الثانية هي الواقعة ، فلا يضره تأخيرها ، وهذه اللطيفة بعينها — والله أعلم — هي التي راعاها مؤمن آل فرعون في قوله : ﴿ وَإِنْ يَكَادُ يَكْذِبُ أَفَعَمَلَيْتَهُ كَسَدِّبُهُ ﴾ ، وإن يكُ صادقاً يُصِيبْكُمْ بَعْضُ الَّذِي يَعِدُكُمْ ﴾ (٤٠ : ٢٨) ، فقدم احتمال الكذب على احتمال الصدق إزاحةً للتهمة التي خشي أن تنطرق إليه في حق موسى (م) ووثوقاً بأن الاحتمال الثاني وهو صدقه ، هو الواقع ، فلا يضره تأخيره في الذكر لهذه الفائدة ، ومن ثم قال : « بعضُ الذي يَعِدُكُمْ » ، ولم يقل : : « كَلُّ مَا يَعِدُكُمْ » ، تعريضاً بأنه معهم عليه ، وأنه حريص على أن يخسه حقه .

وينحو هذا النحو تأخير يوسف (ع) لكشف وعاء أخيه ، لأنه لو بدأ به لفظنوا أنه هو الذي أمر بوضع السقاية فيه ، والله أعلم ، فقصده هذا « الشاهد » الأمانة الأخيرة فقط ، وأما الأمانات الأولى فليست مقصودة ، وإنما ذكرها توطئة وهي من قبيل الفرض والتقدير ، وكأنه قال : إن كان قميصه قد من قبل فهي صادقة ، لكنه يعلم انتفاء الأمانة المذكورة ، فعلق صدقها على محال ، وهو ثبوت قدّه من قبل حالة عدمه .

هذا هو التقرير الصواب ، والحق اللباب . وهنا قام السيد رئيس المؤتمر وقال :
حقاً ان هذه الفرائد هي فرائد درية وفريدة في بابها ، لأنها مفعمة بالابحاث الاجتماعية والدينية الدقيقة ، فبارك الله في الخطيبة .

(وإن كان قميصه قدّم من دبر .. الخ)

— ٢ —

وقالت السيدة صباح النابلسية :

سأقتصر كلامي على هذه الآية بكلمات ثلاث :

هل كان يوسف لابساً القميص المقدود حين التداعي

الكلمة الأولى : — قوله في الآية السابقة : « إن كان ... الخ » وقوله هنا : « وإن كان ... الخ » ، هذا التشقيق والتشكيك يفيدنا أن يوسف لم يكن لابساً القميص إذ ذاك ، بل كان منزوعاً عنه ، كما قالته اختنا السيدة فريدة الحمصية في محاضرتها ، على موضوع « قد القميص صحيفة ٥٤٨ » ، لأنه لو كان إذ ذاك لابساً القميص المقدود لكان القدّ ظاهراً ملموساً ، واقماً تحت حس ونظر الجميع ، إذ كيف يعقل أن يخفي القدين هو ، هل هو في جهة الأمام أو في جهة الخلف ، ويوسف لابسه وواقف قدام تلك الهيئة ، فلا ريب إذاً ان يوسف لم يكن لابساً القميص آتئذ ، بل كان ملفوفاً مستوراً ، بحيث لا يعلم قده في أي جهة كان ، أمن قبل أو من دبر ، والظاهر من كلام « الشاهد » ومن احتماليه اللذين حكاهما بقوله : إن ... وإن ... ، أن القميص لم يكن ملبوساً حين التداعي ، هذا ما فهمته في هذه الآيات القرآنية الكريمة ، ولا أظنه إلا الصواب الذي لا محيد عنه ، وعليه فالصحيح ان امرأة العزيز لما جذبت قميص يوسف انشق طولاً ، فسهل على يوسف ان ينزعه عن بدنه ويتملص منه ، فتركه لها في يدها ، ومضى في حال سبيله مستمراً في فراره ، حتى وصل الباب ، وهذا الذي فهمناه من ان القميص كان منزوعاً وكان في يد امرأة العزيز هو المذكور صريحاً في (تك ٣٩ : ١٢ - ١٨) .

احتقار الشاهد «لامرأة العزيز» رغم مقامها

الكلمة الثانية — قال ذلك «الشاهد» أمام تلك السيدة «امرأة العزيز»: «فكذبت» ولم يحترم مقامها، لأن الرجل الحر يقدر الناس بفضائلهم لا بمناصبهم. ثم إن ما ظنه في يوسف من الصدق قد أظهرت الحادثة تحققه؛ وسيأتي لرئيس السقاة أن يصفه بالصدق حيث يقول له: «يوسف، أيها الصديق»، كما سوف سيأتي لنفس عدوته امرأة العزيز أن تصفه بالصدق، إذ تقول: «وإنه لمن الصادقين» فهذا من قبيل توارد الخواطر الذي يفيد تحقيق مورده.

قد القميص من قبل دليل الاقبال وقده من دبر دليل الادبار

الكلمة الثالثة — لو كنت حاضرة محاكمة يوسف وزليخا أو لو رفعت إليّ دعوى تشبه دعواهما لكانت خلاصة حكي الجملة المختصرة التالية: «إن قد القميص من دبر دليل على إدبار يوسف عن زليخا بظهره، وقد القميص من قبل دليل على إقباله عليها بوجهه والسلام»، هذا ما أحب أن يسجل التاريخ ويحفظه غني علماء الحقوق...

— بخـ بخـ —

وثيقة البراءة

آ (٢٨) * فلما رأى قبيصه قد من دبرٍ ، قال : إنه من
كيدٍ كن ، إن كيدكن عظيم . *

افتتحت الجلسة وتليت الآية الثامنة والعشرون فقام الشيخ عبدالجواد
السلطي^(١) وقال :

فتش العزيز قبيص يوسف الذي بقي في يد زوجته زليخا (فلما رأى) سيدها
(قبيصه) أي قبيص يوسف الذي بيدها قد (قد من دبر) علم براءة يوسف
وصدقه وكذبها ، ثم (قال) آتتذ بلسان الغاضب الماقت : كل هذا يجري تحت
جناحي وفي عقر داري !.. (إنه) أي إن قولك : « ما جزاء من أراد بأهلك
سوءاً .. الخ » ، أو إن هذا الأمر — وهو طمعها في يوسف ، أو إن هذا
الالصاق والتجريم ، بغير حق (من كيدكن) يا بنات حواء (إن كيدكن
عظيم) بالنسبة لكيد أبناء آدم ، لان النساء أطف كيداً وأنفذ حيلة ، ولهن في
ذلك نيفة^(٢) ورفق ، وبذلك يغلبن الرجال .

وفي هذه الآية الكريمة تعليم للملوك ومن دونهم أن ينزلوا على حكم القضاة
ويعملوا بقضائهم ، كما فعل « العزيز » ، إذ نزل على حكم الحاكم « الشاهد » .

(١) نسبة ال بلدة السلط من البلاد الاردنية .

(٢) النيفة اسم من التوق وهو الرفق والأناة .

(فلما رأى قميصه ... الخ)

— ١ —

قال الحاج صالح الاسكندروني (١):

تبرئة يوسف وتجريم زليخا وتوبيخها

لما أتم « الشاهد » خطابه الذي به (قطعت جبهة قول كل خطيب) استطابه « العزيز » ، ووزل على حكمه ، ثم طلب نشر القميص ليُفتش ، فلما رآه مقدوداً من دبر ، فهم المدسيسة ، فضرب يداً بيد ، وحوقل وندب حظه ، وقرع سنه ، وأضمر بين جنبيه لوعة وأسى ، وكاد قلبه يذوب بين أضالعه ، ذوب السيكة في البوتقة .

نعم ، نعم ، انه دهش دهشة عظمى ، وعض على شفته السفلى ، وورد عليه مطار بليه ، وأخذ عليه أنفاسه ، فصمت لحظة ثم التفت يمنة ويسرة ، وبعد لأي ما استطاع أن يقول بصوت منخفض ، لئلا يسمعه أحد من المبيد والخدم :
عَقْرَى حَلَقَتِي — إن آفة الحديث الكذب — إن طمعك في هذا العبد ، وقولك ما جزاء من أراد بأهلك سوءاً إلا أن يسجن أو عذاب أليم — إن هذا العمل وهذا القول من كيد كن الذي تُعدِّدنه للناس ، وسوف يرتد لنحور كن ، إنه من مصائد كن التي تنصبها لمن تردن وقوعه في الشرك ، إنه من ختلكن يابنات آدم الذي لا يعدو كن ، إنه من دهائكن الذي لا يتجاوز كن يا حباائل الشيطان ، آه ...

(١) نسبة الى اسكندرونة من بلاد الشام (سورية)

إن من غره النساء بود بعد هذا لجاهل مفرور

فالآن - وقد رأينا القميص - فقد دفع الحق الباطل ، وظهر الصبح الذي عينين ، وزالت الرغوة وبدا الصريح ، يمينا لقد ظهرت الحقيقة ، ووثقتها معها ، و (على نفسها جنت براقش) ، يمينا لقد تبين أن «السوء» الذي الصقته يوسف هو واقع منك ، ولا خيرة في الواقع ، وماله من دافع .

« إن كيد كن ، يا فصيلة (الجنس اللطيف) «عظيم» ، بخلاف فصيلة (الجنس القوي) فالغالب فيهم حقارة كيدم .

« إن كيد كن ، الذي يدبر من جهتك «عظيم» ، فقد ظهر لي الآن أني ما كنت أعرفك إلا معرفة مطوسة (١) ، كنت لا أعرف منك إلا السذنب ، ولكن اليوم عرفت منك الدماغ ، وماحوى من خبث وطيش .

« إن كيد كن عظيم » ، فأنتن مَعْشَشَ الشياطين ، ووكرك الباطل ، ومرسى دعائم الفتنة ، اللهم إلا قليلاً .

« إن كيد كن عظيم » لا سيما فيما يتعلق باللبس والأزياء وأمر الاستمتاع بالشهوة والحب ، فهناك رحمة الله على الأمانة ، رحمة الله على المغاف والشرف .

نعم انه «عظيم» من معازم الشؤون المنكرة ، ومن عظام الصفات المستقبحة وأي عزيمة أقبح من الختل؟ وأي كبيرة أفحش من المحال (٢) .

عجبت لك كيف تهين هذا المبد بهمة باطلة؟! ... كبرت كلمة تخرج من فيك ، ان تقولين إلا كذباً .

(١) مطوسة متصورة أو متخيلة.

(٢) المحال بكسر الهم الكيد والمكر

قال العزيز ذلك ، وعلى وجهه دلائل البتة والاندھاش ، وفي ملاحظه أمارات الخجل من هذه المرأة ، قال العزيز ذلك موجهاً الخطاب لزيخا ، وتفرس فيها يسر حالها ، فاذا لونها محتق ، وإذا الارتباك ظاهر على وجهها : قال لها ذلك ، وهو ينظر اليها بعين تتجلى فيها الحدة .

وأما هي ، فكانت واقفة وقوف الصنم ، وقد حمد اللصم في عروقها ، واصطكت ركبناها ، وانماث (١) قلبها ، كما يثاثلج في الحر ، وعقرت (٢) حتى كادت تقع الى الأرض ، بل كأنما خرت من السماء في مكان سحيق ، وأخيرا أطرقت برأسها إطراق من ترى ان بطن الأرض خير لها من ظهرها .

وأما يوسف ، فلما سمع هذا القياس الذي أنتج هذه النتيجة ، أفرخ روعه ، وأمن جنائبه ، وأحس كأنه قد ألقى عن ظهره حمل ثقيل ، وحمد الله تعالى ، وشكر في نفسه هذا الرجل ، وقال : « رب أخ لك لم تلده أمك » .

هذا ما اردت قوله على هذه الآية الكريمة ولا بد لي من إنهاء حديثي بترفيلات (٣) نسع :

رب محنة في وسطها منحة

الترفيلة الاولى — كان في مصيبة يوسف بقدر قميصه فأنذرة له كبرى ، وهي براءته مما نسب اليه ، ورب محنة في وسطها منحة :

من عرف الله أزال التهمة : وقال : كل فعله لحكمة

(١) انماث ذاب (٢) عقرت : فجأها الروح فلم تقدر أن تتقدم أو تتأخر (٣) الترفيل التذليل .

حفظ القميص المقدود للعبرة والذكرى

الترفيلة الثانية - لو كنت مكان يوسف لادخرت هذا القميص في «صوان»^(١) وحده ، وأوصيت أن يكون أثراً من بعدي ، يحفظ في «دار الآثار» المصرية ، تذكراً لهذه الحادثة التاريخية المؤلمة السارة ، ولأنه من الأزياء التاريخية .

تبادل التهنته والشكر

الترفيلة الثالثة - كأني «بالشاهد» بما ظهرت براءة يوسف ، أخذ يهنئه ويمسحه ، وكأني بيوسف ، أخذ يجتزى «الشاهد» خيراً ، ويقدم له التحيات والشكران .

مرادفات الكبير

الترفيلة الرابعة - الكيد والمِحال والخداع والختل والفدر والتمحل والحِب والمكر والدهاء والخلافة - تقريباً واحد .

الكبير والمكر من صفات الضعفاء والبهود

الترفيلة الخامسة - الكيد والتقلب والرياء والنفاق والخداع والخيانة والمكر والتدبير الخفية والألغاز المجهولة - كل هذه هي من الصفات المشتركة بين الرجل والمرأة ، غير ان المرأة لما كانت أضعف من الرجل ، رأت نفسها مضطرة الى الالتجاء لهذه الصفات اكثر من الرجل القوي الجبار القاهر ، فلذلك اشتهرت النساء

(١) الصوان وعاء الثياب .

هذه المعاني أكثر من الرجال ، ويوجد الختل والمكر في النساء عموماً ، وفي اليهود ، من الرجال وغيرهم ، وسببه الذل والمسكنة لان الرجال ظلموا المرأة وأهانوها وأذلوها ، وكذا حال « اليهود » بين الناس ، من حين أن هاجروا من العراق إلى سورية وفلسطين ، ف عاشوا غرباء بين تلك الأمم المتوثنة ثم حين أن عاشوا بمصر بمعد يوسف فأذلهم الفراعنة وسخروهم وذبحوا أبنائهم واستحيوا نساءهم ، ثم - بعد رجوعهم لسورية وفلسطين - من حين أن استولى عليهم الكلدان فالفرس فاليونان فالرومان ، فبعض قساة ملوك الاسلام .

كيد المرأة

الترفيلة السادسة - يريد بقوله : « إنه من كيد كن » ، إنه من كيدك ، ولكنه عبر بصيغة الجماعة ليشير الى أن الكيد طبيعة مدفونة في قلب جميع النساء ، فجعل النساء في الخدعة والميغال كزليخا ، وزليخا في الختل والحيلة صورة صادقة لجل النساء .

وبعبارة اخرى : هو لا يصف ما جال في نفس امرأته فحسب ، وما حاك في صدرها فقط ، من ختل وخب ، إنما هو يصف العادة الطبيعية لكل امرأة ، ويخبر بالحال النفسية لكل أثنى ، فهو يمثل النوع بأن ديدنه كما ذكر ، فالكيد هو خلق لهن عريق فيهن :

ولا تحسبن هنداً لها الغدر وحدها سجية نفس ، كل غانية هند

وبعبارة ثالثة : لم يقع الكيد إلا من واحدة ، ولكن لما كان الكيد من نفسية « الجنس اللطيف » نسبه لذلك الجنس ، ونظيره قوله (ص) : « إنكن لأنتن » صواحب يوسف ، يريد أن الإلحاح والمكر من نفسية هذا الجنس النسائي ، قاله صلى الله عليه وسلم حفصة ، إذ كانت قالت عائشة (رض) : (إن أبا بكر رجل أسيف ،

إذا قام مقامك ، لم يسمع الناس ، من البكاء ، فر عمر فليصل بالناس) فلم يقبل
 ﷺ ، ثم قالت له ذلك حفصة ، فلم يقبل ، وإذا رآهن قد ألحجن ، قال ذلك .

هذا وان سبب اتصاف المرأة بالكيد أكثر من الرجل هو انها لما أضلت
 حربتها في ظلمات الأجيال الماضية ، وفقدت استقلالها وعزها ، وادركها المعجز عن
 تناول ما ترغب اليه بالطرق المسنونة ، بسبب ظم الرجل لها ، اضطرت الى استعمال
 الحيلة ، وأخذت تعامل الرجل — وهو سيدها وولي أمرها — كما يعامل المسجون
 حارس سجنه والحفيظ عليه ، وغت فيها ملكة المكر الى غاية ليس وراءها متزع ،
 فأصبحت ممثلة ماهرة ، ومشخصة قادرة ، تظهر في الظاهر المتضادة ، والألوان
 المختلفة ، في كل حال بحسبها ، وذلك لا عن عقل وحكمة ، وإنما هي حيل الثعالب ،
 وعذرها في ذلك انها ليست حرة مع ولي أمرها ، من أب أو زوج مثلاً .

الكيد موجود في الرجال والنساء ، إلا ان النساء أطف كيداً ، وأقذ حيلة ،
 ولهن في ذلك نيقة ورفق ، وبذلك يظن الرجال ، ومنه قوله تعالى : ﴿ ومن
 شر النفاثات في المقد ﴾ (١١٣ : ٤) ، والقصريات من بينهن معهن من البوائق
 ما ليس مع غيرهن .

ولعل الحال في بلاد « التبت » بالعكس ، لأن الأمر والنفوذ والإرادة والسيادة
 هي هناك — كما يقال — « للنساء » ، وأما الرجال عندهم بخدمة مستعبدون لهن في
 كل شيء بلا استثناء ، فالمرأة هناك أقوى جداً من الرجل ؛ فإذا لا ندحة من أن
 رجالهم هم أصحاب الكيد والتقلب والرياء والختل .

سئل الشاعر الانكليزي « ميلتون » : لماذا يسمحون « لولي العهد » عندكم
 بأن يتولى الملك في الرابعة عشرة من عمره ، ولا يسمحون له بأن يتزوج قبل

الثامنة عشرة؟.. فقال : « لأن سياسة البلاد على مافيا من رعايا كثيرين ، أسهل مراساً من سياسة الزوجة » :

وقال بعضهم : « إن النساء لو تدربن على السياسة ، لكن أعظم سائسي العالم ».

كتب أحد الأغنياء على بابهِ : « يا باب ، لا يدخلك سوء » ، فلما قرأه « ديوجينس » قال : « وامرأتك من أين تدخل ؟ »

إذا رأيت أموراً منها الفؤاد تفتت

فتش عليها تجدها من النساء تأتت

قال نابليون : « إن المرأة التي تهز المهدي يمينها ، تهز العالم بيسارها » ، وقال

بعضهم : « إنني لا أخشى في الحياة سوى تلك التي ملكت قلبي ، إذ هي وحدها

قادرة على أن تمنحني السعادة والشقاء » ، وقال فولتير : « إذا كانت المرأة هي التي

أفقدتنا النعم ، فهي وحدها تستطيع أن تميده إلينا » ، وقال بلزاك : « لقد درست

طبائع النساء طويلاً ، وإنني لأفاخر بأني لم أضع وقتي كله ، فقد عرفت الآن أنني

لا أعرفهن » ، وقال « سنت جوست » : « لا يمكنك أن تتصور ما يتولد في قلب

المرأة الضعيف من القوة والإقدام حال ما تحب » ، ومن الأمثال اليابانية : « النساء

يفهم الرجال ، ولكن لا يفهم النساء إلا النساء » ويقولون أيضاً : « الرجل يضحك

بقلبه ، أما المرأة فتضحك بفمها فقط » ، وقال الفيلسوف شوبنهاور الألماني :

« يسألوني عن الأفعى اللينة الملمس ، وهي أمامهم في كل وقت ، بل في كل لحظة ،

وهي المرأة » ، وقال أيضاً : « لتكن المرأة ملاكاً طاهراً ، أو شيطاناً رجيماً ،

فمألناؤها ؟ أجازنا الله من شرها وأذاها » ، وقال سنت بوف : « المرأة

شيطان محسن » .

فضل المرأة

الترفيلة السابعة — جرت المقادير ، وقضى الأمر على « المرأة » أن تكون أضعف من الرجل في الجسد والقوة والسيطرة ، فلذلك التجأت للتسلح « بالتدابير الخفية » والأفكار الباطنية ، لكي تقوى بذلك على الدفاع عن نفسها ، وتارة على الهجوم عند الاقتضاء . غير أن هذا لا يتنافى أن « المرأة » أحسن من « الرجل » في الفضل الأدبي ، والتهذيب الفطري ، والعفة ، وعمل الخير ، وما إلى ذلك من أمثال وفضائل ، فهذه ما لا يقدر الرجل أن يجاري المرأة فيها ، وهي من هذه الوجهة أفضل من الرجل وأسمى منه ، في كل آن ومكان ، على اختلاف الأجناس والأديان .

انظر إلى الرجل أولاً من جهة قوته الجسدية وشدته ، تجد أن قوته هذه أدت في جميع أدواره إلى ارتكابه الجرائم ، كبيرة وصغيرة ، من السرقات ، إلى قطع الطرق على السابلة ، ونهب أموالها ، إلى تأليف العصابات وإيقاد الثورات ، والانتقام من بعض إخوانه في الانسانية ، وربما في الدين والوطن ، هذا عدا ما في إثارة الحروب ، وتقتيل البشر — مزاحمة على حطام الدنيا — من نبذ لكل شريعة ومدنية .

فكل ما جرى ويجري في هذه الدنيا من الفجائع والاستبداد والاستعباد واستعمار البلاد وإرهاق أهلها ، إنما يفعله الرجل ، نعم أن الرجل هو القائم بكل هذه البليات ، ولم يعرف لا في عصرنا ، ولا في العصور الماضية أن النساء ألتفنن من بينهن عصابات للسرقة والقتل والسلب ، ولا تَجَمَعْنَ لجرمة ، أو • أعنَّ عليها ؛

ولا يقدر في هذا أنه وجد في التاريخ نساء دعون إلى مثل هذا ، وبشرته
بأنفسهن ، « كوقعة الجمل » ، وأعمال « جاندارك » و « غزالة » الخارجية ،
و « زنوبيا » ملكة تدمر ، و « الزباء » إلى غير ذلك من الشواذ ، فما كان الدافع
إلهم إلا حب تأييد عقيدة ، رسخت في تلك النفوس ، لا حباً بسفك الدماء ،
والتغلب على الأعداء ، ولا يدحض أيضاً ما هو معلوم عن مساعدة النساء لرجالهن
في الحروب ، فهو إنما اضطرت إليه « المرأة » لتخفف من ويلات الحرب عن
الرجال ، بدافع الكرامة القومية ، لا بقصد قتل الأعداء .

ونعلم ان كثيراً من جرحى الحرب الذين يؤسرون ويدخلون مستشفيات أعدائهم
— كانوا يلقون من عطف « المرأة » وحنانها مثل ما كان يلقي أهلها وقومها ، إذاً
فما كان وجودهن في تلك الساحات قديماً وحديثاً إلا لتلطيف هذه المصائب .
بجنانهن ورقة إحساسهن ، فهن محسنات بالطبيعة ، والروح الأدبية فيهن أقوى
وأسمى مما هي في الرجال .

أراك يعلو صوتك ، وتندفع الرد عليّ قائلاً : إن أكثر الحروب والمداوات
الشخصية ، والجرائم المتعددة ، التي ذكرتها ، إذا دقت في أسبابها ، تجدها آتية
من طريق « المرأة » ، وهو أمر مشهور وبرهانه ساطع ، لا يقبل الرد — إذ اقلت
هذا فإني أجيبك ان السبب ليس هو « المرأة » ، أي أن المرأة لم تدفع الرجال إلى
هذه الخمازي ، ولا حرّضتهم عليها ، ولكن الرجال بأنانيتهم ، وجهم للآثرة ،
ومزاحمة بعضهم لبعض ، وما في رؤوسهم من مطامع يندفعون إلى هذه الشرور ،
تنفيذاً لمآربهم ، فلا ذنب « للمرأة » في هذا .

وهل شهدت أو سمعت إلا نادراً ان امرأتين اقتتلتا ، أو قتلت إحداها الثانية
من أجل الوصول للرجل؟ — وهي أولى منه بذلك لما فيها من قوى ثائرة، وعواطف

متهيجة - أو أثارت جنسها أو ناحيتها أو قومها من أجل الحصول على رجل؟ هذا ما لا وجود له إلا في القليل النادر، وخاصة فيمن كان في حياتهم العائلية شيء من الشرف ..

وهل تعتقد أن الزانيات في النساء يبلغن عشر عشر الزانين من الرجال؟ - كلا -، وهل تعتقد أن شاربات الخمر من النساء يساوين جزءاً من ألف من شاربي الخمر الرجال؟ - كلا -، وهل تعتقد أن المرايات من النساء يساوين جزءاً من ألف جزء من مرابي الرجال؟ - كلا - .

هذا ما عدا ما « للمرأة » من التأثير على الرجال بإبمادم عن تلك المآزق الحرجة، وما عدا ما لها من الفضل في نشر السلام، فهي رسوله الصادق الأمين، وهذا ما يدعو كل منصف بصير أن يعترف « للمرأة » بهذه الحسنات الكبرى، وبعدها عن الأعمال القاسية .

ثم إذا استعرضت « الرجل والمرأة » في ملاعب الميسر تجد أن الرجل يأخذ من هذه البلية القسط الأوفر، والبلاء الأعظم، ولا ينال « المرأة » منها إلا جزء صغير، إذ « للمرأة » أبعد من الرجل عن المخازي الفتاكة بالهيئة الاجتماعية، والمنهكة للأجساد والأرواح، الدافعة للناس - بين بأسهم ورجائهم - إلى اقتراف السرقة والقتل .

ولننظر إلى « الرجل والمرأة » من حيث الدماثة واللطف ورقة العواطف والشعور والحنان، فهذه الأخلاق تفضل فيها « المرأة الرجل » .

ولا أحسبك إلا مسلماً لي في هذا الاعتقاد على طول الخط... وفوق ما اتصفت به من تلك الأخلاق وتفوقها فيها، فهي مخصصة للقيام بمبء عظيم، من أعباء هذه

الحياة ، إذالم تقل أعظمها ، وهو الحمل والولادة والرضاع وتربية الأطفال
التربية الأولية .

نعم لا ننكر ان الرجل يفضل المرأة بأشياء هي جوهرية وذات قيمة كالمقل
الثابت في مقابلة عاطفتها المضطربة ، والقيام بالواجبات الاقتصادية والسعي والإنفاق
في مقابلة كونها لا تقوم بشيء من ذلك ، والدفاع عن الوطن والشرف والمال في
مقابلة كونها ليس فيها أهلية لذلك ، والثبات على المبدأ في مقابلة تناقضها في أعمالها
وأقوالها ، فهذه الأشياء وأمثالها فَضَّلَ الرجلُ المرأةَ .

كيد النساء وكيد الشيطان

الترفية الثامنة — قال بعض الناس : إني أخاف من النساء أكثر مما أخاف من
الشيطان، لأنه ورد في النساء: ﴿ إِنَّهُ مِنْ كَيْدِ كُنْ إِنْ كَيْدِ كُنْ عَظِيمٌ ﴾ (٢٨: ١٢)
وورد في الشيطان : ﴿ إِنْ كَيْدَ الشَّيْطَانِ كَانَ ضَعِيفًا ﴾ (٤ : ٧٥) .

وفي كلام هذا البعض نظر ، لأن كيد الشيطان مذكور في الآيات مقابلاً
لكيد الله تعالى ، فكان ضعيفاً بالنسبة إليه ، ألا ترى أول الآية : ﴿ الَّذِينَ آمَنُوا
يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ، وَالَّذِينَ كَفَرُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ الطَّاغُوتِ ،
فَقَاتِلُوا أَوْلِيَاءَ الشَّيْطَانِ ، إِنْ كَيْدَ الشَّيْطَانِ كَانَ ضَعِيفًا ﴾ (٤ : ٧٥) فصدر
الآية متضمن لكيد الله تعالى ، وعجزها متضمن لكيد الشيطان ، وكيد الشيطان
ضعيف بالنسبة لكيد الله تعالى ، وأما قوله « إِنْ كَيْدِ كُنْ عَظِيمٌ » فهو بالنسبة
لكيد الرجال ، أي ان كيد زليخا وأمثالها من النساء عظيم بالنسبة لكيد يوسف
وأمثاله من الرجال .

وأيضاً فإن الكيد الذي يتعاطاه النساء وغيرهن مستفاد من الشيطان بوسوسته،

وتسويبه ، وشواهد الشرع قائمة على ذلك ، فلا يتصور حينئذ أن يكون كيدهن أعظم من كيده .

قميص يوسف والقميص الذي وضع فيه الحجر الأسود

الترفية التاسعة — كآني بهذا « القميص » المقدود هو أشبه شيء « بالقميص » الذي وضع فيه « الحجر الأسود » حين بناء قريش الكعبة ، فهذا القميص المذكور هنا كان سبباً لرفع الخلاف بين يوسف وزليخا ، وذلك « الشاهد » بسبب حكته كان الواسطة الكبرى لعمل طريقة أزال بها الخلاف ، كذلك كان « القميص » الذي أمر النبي ﷺ قريشاً أن يأتوا به ليضع ﷺ « الحجر الأسود » فيه ، كان هو الواسطة العظمى لازالة الشقاق العظيم بين قبائل قريش وكان هذا بسبب حكمة النبي عليه الصلاة والسلام . هذا ... وإذ قد تم خطابي فاني أقدم أسمى احتراماتي لحضرات إخواني أعضاء المؤتمر المحترمين ، وأختم هذه الجلسة بأعراب عن تشكراتي وتقديم اسمي التحية لهم لحسن إصغائهم إليّ والسلام عليكم . (مرحى)

نتيجة الحكم

آ (٢٩) « يُوسُفُ ، أَعْرِضْ عَنْ هَذَا ، وَاسْتَغْفِرِي لِذَنبِكِ ، إِنَّكَ كُنْتَ مِنَ الْخَاطِئِينَ .. »

افتتحت الجلسة وتليت الآية التاسعة والعشرون فقام الأستاذ العلامة البغدادي (١) وقال :

قال العزيز بلسان الرجاء إلى يوسف يا (يوسف) لأجل خاطري (أعرض

(١) نسبة الى بغداد من القطر العراقي العربي .

عن هذا) الأمر ، واكتمه ولا تحدث به ، (و) قال بلسان النصيحة لزوجته زليخا (استغفري) أنت (لذنبك) الذي ثبت عليك ، واصدلي الستار على هذه المأساة (إنك كنت من) جملة القوم (الخاطئين) المتعمدين للذنب .

ولما سمعا هذا القول ، امثل يوسف وعادت أمور إدارته في القصر لجراها الطبيعي ، غير أنه كان فيما نظن بعيداً عن امرأة العزيز والخلوة بها ، وأما امرأة العزيز فجلست في كسر بيتها يحفها الخجل ويجوطها الذل والهوان .
(يوسف أعرض عن هذا ..)

— ١ —

وتابع العلامة البغدادي قوله :

طلب الاعراض من يوسف

جمل « العزيز » يتطلع حواليه ، ويلتفت يمنة ويسرة ، لئلا يسمعه أحد من الخادمت والحواري ، وقال مخاطباً يوسف بصوت منخفض ، ونفس صغيرة :
يوسف :

لله أنت ، ولله أبوك ، لا فض فوك ، ولا عاش من يشنوك ، هنيئاً لبطن حواك ، وثدي سقاك وحجر آواك ، فقد نظقت بالحق ، وتكلمت بالصدق ، بورك فيك من عفيف شريف ، ومن شاب نشأ في طاعة ربه ، حقاً أنت من يستظلون بظل العرش يوم القيامة .

يوسف :

كن مطمئناً ، تهناً بمرءتك وشرفك ، فقد ظهر لنا جلياً أنك أظهر من الزهرة المطلولة ، وأنقى من القطرة الصافية :

يوسف :

كفاك افتخاراً انتصارك على المواطف البشرية ، وحسبك شرفاً ، اتصالك على هذه « المرأة » ، برجل من أهلها ، فلا تفكر في هذا الشأن ، وافرض أن هذا الكائن لم يكن ، « أعرض عن هذا » الحادث ، وقدره كأنه ما كان ، ولا تخطره لك على بال ، اضرب عنه صفحاً ، وأعرض عنه إغراض الكرام ، واغض عنه إغضاء ذوي السر والمروءة :

وقد علمت وغيري علم تجربة أن الكياسة خبء السرف في خيس (١)

فاكم حديثك لا يشعر به أحد : من رهط جبريل أو من رهط ابليس ، أعرض عنه ، ريثما تسكن هذه السيرة المنتنة ، وتلاشى من نفسها ، بل أعرض عنه مطلقاً ، وانتزع رسمه من خيالك ، واجعله نسياً منسياً ، فلا تذكره لأحد ما ، حتى لا يفشو ويشيع وينتشر بين الناس ، ولا تكثرت بهذا الأمر ، ولا تهتم به ، فقد بان عذرك ، واتضحت براءتك .

هذا مغزى كلام « العزيز » ، وهذا هو معناه الروحي ، الذي يجب أن يكون قد أراده « عزيز مصر » في خطابه ليوسف .

وأما يوسف فكأنني به حينما سمع كلام « العزيز » ، قال له : ليك ليك ، سمعت لك مأموراً مطاعاً ، لأن الذي يجب أن تشيع الفاحشة ملعون في الدنيا والآخرة . ثم ربض يوسف في مكانه في بيت العزيز على حاله ، وآثر الصمت ، واعتصم بالأناة ، واستمسك بتناسي كل ما وقع ، وهذا الحادث — والحمد لله — لم يقلل من شرف يوسف ، بل بالعكس زاده قيمة واعتباراً .

(مرحى)

(١) الخيس بالكسر - موضع الاسد .

(واستغفري لذنبك)

— ١ —

وقالت السيدة رشيدة البيروتية :

طلب الاستغفار من زليخا وعظما

من انصاف « العزيز » أنه أعدى يوسف على زوجته ، وحكم له عليها ، نظر فيها نظرة كأنها وقع السهام ، نظر اليها نظرة ملؤها الكره والهوان . وقال لها : وأما أنت ، فلا إخالك إلا مفترية على هذا البريء الطاهر ، وكأني بك قد سميت إلى حتفك بظلفك ، أقلمي عن كل ما تقدم ، وابغضي حالتك الأولى بغض الأرض للدم ، اقرأ سورة التوبة ، وعليك بسرعة النية والأوبة ، أسمى السماء صوت توبتك ، قبل أن تسمعي منها صوت العذاب الأليم ، الذي سيحقيق بك إذا لم تؤوبي وتوبي ، وتقرعي سن الندم ، على ما فرط منك في حق هذا العبد العبراني من الرغبة إليه ، ثم الفرية عليه ، فذنبك مزدوج ، ولذلك فأنت قد أصبحت مخروطة في سلك الخاطئين ، الذين إذا عدوا فأنت — واخجلناه — معدودة ، وإن حدوا كنت — وآسفاه — محدودة ، فليتك قبل هذا كنت مؤودة .

« استغفري لذنبك » ، فليست العفة عفة الخدر والخباء ، ولكنها عفة النفس والضمير ، وأنت مسؤولة عن ذنوبك وآثامك أمام نفسك وضميرك ، فضميرك هو الذي يتولى بنفسه محاسبتك على جميع أعمالك ، وهو المراقب على حركاتك وسكناتك ، لأنه أعظم سلطاناً وأقوى يداً من جميع الوازعين والمسيطرين ، فأصلحي ما بينك وبين من خلقك ، الذي يعلم السر وأخفى ، أنا لا أريد أن أرهقك ، ولا أن أدينك ، لأنك ربما ترين أنك لست مسؤولة أمام رجلك ،

ولكنك مسؤولة في الدنيا أمام ضميرك ، وفي المعقب تسألين أمام هيئة المحكمة المدلية الكبرى المؤلفة من الملائكة ، تحت رئاسة الديان العظيم .

يسوءني أن أصرح باسمك ، وأناديك بلقبك الرسمي في هذا المقام ، مقام صدور الحكم عليك ، ولكني أكني عنك فقط ، فيا أمة الله ، يا هنتاه ، بل يا عدوة نفسها ، يا قرّنة الفتنة ، قد هببت ، فاستغفري لذنبك ، وسبعين مرة استغفري لذنبك ، واشطبي جميع حسابات الحب الماضية ؛

خليق بك أن تستغفري الله ، فقد أسأت وظلمت ، ﴿ وَمَنْ يَعْمَلْ سُوءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ ، ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ اللَّهَ ، يَجِدِ اللَّهَ غَفُورًا رَحِيمًا ﴾ (٤ : ١٠٩) .

ثم جمل « فوطيفار » ينظر الى يوسف ، نظر عناية واعجاب ، موصيه أن يتغاضى عن هذا الحادث الأليم ، راغباً اليه أن يجعله تحت طي الكتمان ، وجعل ينظر الى « زليخا » شذراً وتنفس نفساً وصل اليها حرّة ، وأمرها بالتوبة والاستغفار وطلب العفو من المولى الغفار عن « ذنبها » الذي هو مجموع المرادة باللسان ، وتغليق الأبواب باليد ، وهما بالقلب أن تبطش به إذا لم يوأتمها ، فقد زنت بلسانها ويدها وقلبا ، لأن الزنا كما يكون بالفرج ، فكذا يكون بالجوارح ، وهو الزنا الأصغر ، وهو (طبعا) دون الأول ، وفي البخاري عن أبي هريرة : « فزنى المين النظر ، وزنى اللسان المنطق ، والنفس تتمنى وتشتهي ، والفرج يُصدّق ذلك كله ويكذبه » .

سمعت « زليخا » خطاب سيدها لها ، فودت لو تفتح الأرض وتبتلعها ولا يراها أحد ، ولم تفه بينت شفة في تبرير فعلها ، ورجعت لقصرها وهي كاسفة البال مسرولة بالخزي والمار . قبعت في كسر بيتها ، تُصعد الزفرة تلو الزفرة ، وترسل

العبرة فالعبرة ، وباتت محطة من آثار معركة التحقيق . ولكأني أراها حينئذ قالت
بيننا وبين نفسها : يأمرني بالاستغفار !! أسأل الله العافية ، لقد أدخل يده في
الجراب ، فأخرج أشد ما فيه وأصعبه ، وإلا .. فمن ماذا استغفر ؟ .. استغفر
من حب يوسف ؟ .. استغفر من حرصي على قربه ؟ ؟ .. استغفر من تمتعي بحاسنه ؟ .
استغفر الله العظيم !!! ثم قالت متمثلة :

ما ذا لقيتُ من الهوى وعذابه طلعتُ عليّ بليّةً من بابه

مرحى

(واستغفري لذنبك)

— ٢ —

وقالت الأنسة ثريا الاذفانية :

سوف لا أتكلم في هذا المقام إلا عما تضمنته هذه الآية الكريمة من
نكات دقيقة لا ندحة لي من التذبية عليها :

بعض فضليات النساء في التاريخ

النكتة الأولى — لقد ذكر التاريخ كثيراً من السيدات الفضليات ، مثل
السيدة « مريم » بنت عمران ، من بنات إسرائيل ، ومثل « بلقيس » ملكة سبأ .
من بنات قطان ، ومثل « زنوبيا » ملكة تدمر ، من صميم العرب ، ومثل « تماضر
الخنساء » أفضل شاعرة من شواعر العرب ، ومثل السيدة « خديجة » بنت خويلد ،
زوج النبي ﷺ ، والسيدة « عائشة » وأختها « أسماء » بنتي أبي بكر الصديق ،
من بنات قريش ، ومثل « كليو بطرة » ملكة مصر ، من بنات الرومان ، ومثل
« جاندارك » من بنات الفرنسيين ، وغيرهن .. وغيرهن .. وقد حفظ التاريخ

لهؤلاء وأشباههن ذكريات نغمة ، غير أن هذه « المرأة القبطية » ، زليخا ، مع الأسف ، لم يرو لنا التاريخ عنها إلا أسوأ الذكري .

لماذا لم يعاقب العزيز امرأته بصرامة

النكته الثانية — لا ريب أن « فوطيفار » كان اعتبر أن هذه الحادثة نكبة من أعظم النكبات التي حلت به وبأسرته ، وبأسرة زوجته أيضاً ، ولكنه لم يؤاخذها بأكثر من العظة ، حتى قيل عنه : « إنه كان رجلاً فسلاً^(١) ، لامرودة له ، وكان ضعيف الغيرة » ، وقيل عنه : « إن هذا الرجل ، جبان هيابة ، رعديد رعشيشة ، قنذع ، طسيع^(٢) » وقيل عنه : « إنه كان خوار العود ، رخو المكسر » ، وعندنا أن هذا الرجل لم يقاص امرأته ، ولم يعاملها بشيء من الصرامة ، ولم يطلقها ، ولم ... ولم ... الخ ... لوجوه عديدة ، وكلها وجهة إن شاء الله .

بدا فوطيفار أوكتا وفوه نفخ

أ — لأنه هو الذي وضع هذا « الحمام الوديع » يوسف ، بين مخالب هذه « اللبوة الشرسة » زليخا ، هو الذي جمع بين هذا « الشاب » الفاتن وبين تلك المرأة القوية الشعور ، هو الذي غرس بيده هذه الشجرة ، شجرة الحب في قلب امرأته ، وهو الذي « بداه أوكتا وفوه نفخ » ، قال تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا خُذُوا حِذْرَكُمْ ﴾ (٤ : ٧٠) ، وقال تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ، قُوا

(١) الفسل : الضعيف المسترذل الذي لا مروءة له .

(٢) الرعيد : الجبان الكثير الارتداد . والرعشيشة : الجبان الكثير الارتعاش . والقنذع :

الذي يفض ما يرى من زوجته . والطسيع : عديم الغيرة .

أَنْفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَاراً ، وَقَوْدُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ ، عَلَيْهَا مَلَائِكَةٌ غِلَظٌ شِدَادٌ ، لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ ، وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ﴿٦٦ : ٦﴾ .
 فنحن أن « العزيز » لم يعاقب امرأته بما يلزم من العقاب ، ولم يقاصها ، ولم يعاملها بشيء من الصرامة ، لأنه افترق فرأى أن الذنب كل الذنب عليه ، لأنه هو الذي جلب يوسف إليها ، وجعل لها عليه سلطاناً ودالّة ، إذ قال لها « أكرمي مثواه » وسوّغ له الدخول في أيّ وقت في بيتها الخاص بها . كما يدل عليه قوله : « في بيتها » ، فإذا كان هذا ، وكان يوسف من الجمال كما وصفه سفر التكوين . والقرآن الكريم والحديث الشريف ، فهل يستطيع أقدر « محام » في الأرض أن يدافع عن « العزيز » ؟ وهو السبب الوحيد في هذه الفتنة التي حدثت في قصره ، وهو الوسيلة الكبرى في هذا الخطر الذي أحرق بامرأته ، وهل يستطيع ذو مسكة أن يتصور خطراً على امرأة العزيز ، وعلى عفتها وطهرها . أعظم من هذا الخطر ، الذي عرضها له سيدها العزيز ؟ .. كلا ..

فإذا الضرر كل الضرر إنما جاء من جانبه ، ولذلك ولكونه يوجد عنده شيء من الانصاف ، لم يقاص زوجته بما يجب من القصاص ، ولم يعاقبها بطلاق أو غيره .. ثم الغريب أنه أخطأ في التسبب في وجود يوسف عندها في القصر وفي بيتها ، وعرف أنه مخطيء ، وتبين له عاقبة خطئه ، ولم يتدارك الأمر ، بل بقي مصرأً على خطئه ، إذ لم يبعدها عن يوسف ، أو يبعد يوسف عنها ، نعم لا ننكر أنه لما تقام الشر ، واتسع الخرق على الراقع ، بسبب حادثة النسوة ، وتقطيعن أيديهن في قصره ، بدا له أن يمتقله وقد فعل ، ولكن بعد خراب البصرة ..

والخلاصة أن « العزيز » هو الذي هباً الوقود لنار هذه الفتنة بيده ، إذ أتى بيوسف بين يدي زوجته ، وأطلق لها الحرية أن تجتمع به ، بلا رقيب ولا ملاحظ . كما أطلق الحرية ليوسف في خدمة القصر ، والدخول والخلوّة بلا مهيمن ولا

مسيطر ، فيوسف قدر الله أن يكون معصوماً بتوفيقه تعالى ، لكن تلك المرأة « زليخا » لم يقدر لها ذلك ، فوقعت في الشرك ، ولو أن « سيدها » أراد معاقبتها لكانت تقدر أن تقول له « يداك أوكتا ، وفوك نفخ » .

فلذلك نحن نرى أنه لم يعاقبها ، مع أن عملها جريمة ، لأنه باهماله وتفريطه شاركها في ارتكاب الجريمة ، فقد سهل لها الاجتماع والخلوة بفتاه وعلوكه الجميل فرط في واجبات اعتزال زوجته عن الغير ، فحق عليه القول : « المفرط أولى بالخسارة » .

احتمال اتصاف العزيز بشيء من فساد الاخلاق

٢ — ربما كان « عزيز مصر » من الأمراء الذين لم يترفعوا عن بعض أنواع الفحشاء ، فكان يحاسب نفسه بنفسه ، ويقرر مبدأ المساواة بين الرجل والمرأة ، ويقول في نفسه : ليس من العدل أن يفضب الزوج من خيانة زوجته إذا كان هو يخونها ، فلذلك لم يحاسبها على ما صدر منها بأكثر من العظة والنصيحة ، وقد روى الحاكم من حديث أبي هريرة : « وليردك عن الناس ما تعلم من نفسك » .

وحيث أن إيضاح المقام يحتاج إلى بسط في الكلام نقول :

إنه لأمر معلوم أن « عزيز مصر » كان تهاون في صون امرأته وحجابها عن الخدمة ، وبناء عليه ، فيحتمل أن هذا الرجل كان عنده شيء من فساد الأخلاق والتطلع إلى الأجنبية ، بمقدار ما كان عند زوجته من ذلك ، ولذلك لم ينكحها ، من قبيل : « افتضحوا فأصلحوا » و « إن الطيور على أشكالها تقع » و « إن هذا الكعك من هذا العجين » و « الجنس للجنس يميل » ، قال تعالى : ﴿ الخبيثات للخبيثين ، والخبيثون للخبيثات ، والطيبات للطيبين ، والطيبون للطيبات ﴾ (٢٤ : ٢٦) ، وقال تعالى : ﴿ الزاني لا ينكح إلا زانية أو مشركاً ،

والزانية 'لا يَنْكِحُهَا إِلَّا زَانٍ أَوْ مُشْرِكٌ' ﴿٣:٢٤﴾ ، ومعنى الآية الأولى أن الغالب أن الطيب لا يقترن إلا بالطيبة ، والطيبة لا تقترن إلا بالطيب ، ومعنى الآية الثانية أن الغالب في المائل الى الزنا أنه لا يرغب في نكاح الصوالح ، والزانية لا يرغب فيها الصالحاء ، فالمشاكله على الألفه ، والمجالسة من دواعي الانضمام ، والمراد « بالزاني » ولو بالنظر أو اللسان أو قسني القلب ، فان تحول الأخلاق الاجتماعية في النساء ، ينشأ من تحول الأخلاق الاجتماعية في الرجال ، لأن الرجل مرآة المرأة ، كما ان المرأة مرآة الطفل ، ولذلك لما فسدت أخلاق أكثر شباننا ، بدأ فساد أخلاق أكثر النساء ، بما يتناسب مع هوى الرجل .

حقاً إن العوامل التي تفسد المرأة ، وتحول أخلاقها هذا التحويل المشوم ، ترجع كلها إلى تحول أخلاق الرجل ، فاذا صار هو فاسقاً ، فلا ينتظر أن تكون هي العفيفة ، وإذا هو هدم المسجد ، فلا يعقل أن تبني هي المأذنة ، وإذا كان هو مهتكاً ، فلا يمكن أن تبقى هي حييّه مصونة . هذه هي القاعدة الاجتماعية (الغالبه) ، وما خرج عنها فهو شاذ ، وقليل مام .

ولا نعلم هل هذا العزيز « فوطيفار » ممن قد انخرطوا في سلك هذه « القاعدة » أم هو من الأفراد الشاذة التي خرجت عنها ؟ ، ولذلك قلنا : إن فساد أخلاق « فوطيفار » « من المحتمل » ، وليس من « الأمر المحق » .

احتمال خوف العزيز من أسرة زوجته وضعفه تجاهها

٣ - لعل «عزيز مصر» سكت عن تأديب زوجته بأكثر من التأييب الكلامي لأنها كانت بنت رجل عظيم في البلاط ، يخاف « العزيز » من إفساده قلب ملك مصر عليه ، لو أهان أو فارق بنته ، والتزوج أو التزويج في سبيل التجارة ، عادة قديمة بين العظماء ، ومستمرة إلى اليوم ، فكم من رجل يتزوج امرأة لملها أو لأملأها ، أو لجاء ونفوذ أبيها ، أو لمنصبه ومكاته في الحكومة ، عسى أن ينال الزوج من مالها شيئاً ، أو يعيش تحت ظل والدها .

ويظهر لنا مما سبق من قول « سيدها » لها : « أكرمي مثواه ، عسى أن ينفعنا أو نتخذه ولداً » ، ومن اقتراحها إذ قالت : « ما جزاء من أراد بأهلك سوءاً إلا أن يسجن أو عذاب أليم » ، ومن جرأتها فيما سيأتي إذ تقول أمام النسوة : « ولقد راودته عن نفسه فاستعصم » ، ومن استبدادها حين تقول : « وَلَئِن لَّمْ يَفْعَلْ مَا آمُرُهُ ، لَيُسْجَنَنَّ وَلَيَكُونًا مِنَ الصَّاغِرِينَ » ، ومن الإجمال والابهام ، وعدم تخصيصها بالكلام حينما يقول يوسف : « رَبِّ ، السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ » ، ومن أن يوسف أهمل التصريح باسمها ، مكتفياً بالتلويح إليها فيما يقول : فاسألهُ ما بالِ النسوةِ اللاتي قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ ، إنَّ رَبِّي بِكَيْدِهِنَّ عَلِيمٌ » ، ومن صراحتها المدهشة وعدم خوفها من سيدها ، إذ تقول أمام مندوب التحقيق : « آ لَانَ أَحْصَحَّصَ الْحَقُّ ، أَنَا رَاوَدْتُهُ عَنِ نَفْسِي ، وَإِنَّ لِمَنْ الصَّادِقِينَ » — يظهر لنا من مجموع ذلك ان امرأة العزيز كانت (كما روى) من سلائل العائلة القبطية ، التي كانت مالكة ، أو على الأقل كانت من قوم مدلين بأنفسهم وبوفرهم وراثتهم ومكانتهم في الهيئة الاجتماعية ، أو كانت شخصياً ، لها مال أو جمال ، نافذة ، مستبدة ، جريئة ، محفوظة — الأمر الذي يكشف لنا سر ضعف « سيدها » الذي تجلّى في قوله لها : « واستغفري لذنبك ، إنك كنت من الخاطئين » ، حيث جعل عقابها على خطئها مجرد الاستغفار .

احتمال عدم وجود طلاق في زمن العزيز عند المصريين

٤ — يقول بعضهم : لماذا لم يطلقها ؟ — ونحن لانعلم المانع له من طلاقها تماماً ، لأننا لم نقف على نظام « الأحوال الشخصية » عند هؤلاء المصريين القدماء ، ثم إنني لقد رأيت في شرح سفر التكوين أنه كان للمرأة عند المصريين أن تستولي على كل ما يملكه الرجل إذا تركها ، كما علم مما نشر من أخبارهم ، على ما قال الدكتور

« بين سميت » ومع ذلك فلم له لم يطلقها ، لأنه ليس في شريعتهم طلاق البتة ، كما هو عند الكاثوليك ، ويحتمل أن الطلاق لا يجوز عند المصريين إلا في صور وحوادث معلومة صعبة التطبيق والاثبات ، كما يقول بعض المؤرخين ، وكما هو مذهب « الأرثوذكس » .

احتمال حرص العزيز على ستر حادثة زوجته

هـ — من المحتمل ان « فوطيفار » لم يكن سريع الانفعال ، متكهرب الأعصاب ، كان بعيداً عن خشونة الأخلاق ووعورتها ، فلذلك اكتفى بعظمتها وتثويتها ، ولم يؤدها بالسجن أو الضرب ونحوها ، لأن المرأة التي لاتحافظ من تلقاء نفسها على شرفها ، فعبثاً أن يؤمل منها الخير بالضرب أو السجن ونحوها ، كما انه من العبث أن تحاول صيانتها بوضعها تحت المراقبة ، والتضييق على حرمتها ، ولهذا قيل : إن هذه الطريقة التي جرى عليها فوطيفار هي منه عقل ، وحرص على ستر هذه الحادثة ، والماقل من ستر إهانة نفسه .

والتاريخ حافل بأمثال ذلك ، إذ أن « الحجاج » في عتوه ، لم يتعرض « لابن غير » في تشبيهه « بزینب » أخته ؟ مخافة أن يكون ذلك سبباً للخوض في ذكرها ، فيزيد زائد ، ويكثر مكثر ، وكذلك « معاوية بن أبي سفيان » ، لم يتعرض « لعبد الرحمن بن حسان بن ثابت » ، وكان يتشبيب بابنته .

ولدى التأمل العميق يرى القاريء ان ما فعله « عزيز مصر » خير مما فعله « هرون الرشيد » مع أخته « العباسة » ، فانه كان عقد عليها لوزير « جعفر بن يحيى البرمكي » ، عقداً شرعياً صحيحاً ، وأذن لهذا الوزير بالدخول على كل أهل بيته وأخته ، وأمرها أن لاتمنعه من دخول البيت ، في أي وقت شاء ، ليلاً أو نهاراً .

أجرى ذلك العقد مستوفياً لشروطه الشرعية ، لأجل أن يحل لوزير « جعفر » النظر والاجتماع والخلوة والمكالمة ، وكل شيء ما عدا النكاح ، ولكن الوزير « جعفر » كان دخل عليها سرّاً ، ورزق منها ولدين ، سماها الحسن والحسين ، ولما بلغ « الرشيد » ذلك ، حرق أسنانه ، واشتد غضبه ، وقتل أخته « العباسة » والوزير « جعفر » ، مع انها لم يفعلوا إلا ما أحله الله ، وأذن فيه ، ثم قتل الغلامين الصغيرين المعصومين ، وقتل عشرات من الغفلة والحالمين والحفارين الفقراء ، الذين أطلعوا على هذا القتل ، ارتكب هذه الكبائر الفاحشة بداعي الكبرياء ، ودعوى أن « جعفر » البرمكي ليس كفواً « للعباسة » وأراد بقتل أخته وولديها ، ومن نقلهم وحفر لهم ودفنهم من الغفلة الفقراء إخفاء هذا الأمر ، وجمله في طي الكتمان ، مع انه قد تناقلته الألسنة ، وكتبه المؤرخون ، ولم يغادروا من هذه الحادثة صغيرة ولا كبيرة إلا سطروها ، فالذي عمله « فوطيفار » أفضل مما عمله « هرون الرشيد » ، ولو عمل « فوطيفار » كما عمل « الرشيد » لكان قتل « يوسف » وقتل زوجته « زليخا » و « الشاهد » الذي من أهلها ، وقتل جميع من اطلع في قصره على هذه الحادثة ، من الجواري والقهرمانات ونحوهم ، ولكان بثما عمل ، ولكن أنتى للرجل ذي الأناة والرصانة راجح الحكم ، ثابت التؤدة أن يعمل ذلك ؟

معصية امرأة العزيز عقوبتها التعزير

٦ - المعاصي ثلاثة أنواع : نوع فيه « الحد » وذلك كالزنا والسرقه وشرب الخمر ، ونوع فيه « الكفارة » وذلك كالجماع في الإحرام وفي نهار رمضان ، والحنت في اليمين ، ونوع لا حد فيه ولا كفارة ، بل فيه « التعزير » ، وذلك كسرقة مالا قطع فيه ، واليمين الغموس ، والنظر إلى الأجنبية بشهوة ، ومحاولة ارتكاب الفاحشة وأخذه في أسبابها وإقامة الدعوى الباطلة على أهل الفضل والدين كما وقع من « امرأة العزيز » لما راودت يوسف ، ثم لما افترت عليه ، فهذا النوع الثالث فيه التعزير فقط ، والتعزير أنواع : منها التشهير وتغيير الهيئة وحلق اللحية ،

ومنها الضرب ، كما في حديث أبي بردة بن نيار في الصحيحين وغيرهما انه سمع النبي ﷺ يقول : « لا يجلد فوق عشرة أسواط إلا في حد من حدود الله » ، ومنها الحبس ، إذ حبس ﷺ رجلاً في تهمة ، يوماً وليلة ؛ ومنها الربط ، إذ ثبت أن عمر (ض) أمر أبا عبيدة بن الجراح أن يربط خالد بن الوليد بعمامته ، لما عزله عن إمارة الجيش ، كما في كتب السير ، وسبب ذلك أنه استنكر منه إعطاء شيء من أموال الله ؛ ومنها إقامة الانسان من المجلس ، ومنها النفي كما فعله ﷺ بالثلاثة الذين تخلفوا ، حتى ضاقت عليهم الأرض بما رحبت ؛ ومنها السب الذي لا فحش فيه ، كقول موسى للاسرائيليين الذي استنصره أولاً ، واستصرخه ثانياً : ﴿ إِنَّكَ لَنفَوِيٌّ مُّبِينٌ ﴾ (١٨:٢٨) وقول النبي ﷺ لأبي ذر ، لما سمعه يسب امرأة : « إنك امرؤ فيك جاهلية » كما رواه البخاري ، ومن هذا القبيل قول « العزيز » لامراته « زليخا » : « إنك كنت من الخاطئين » مع سابق قوله : « إنه من كيدكن إن كيدكن عظيم » يعتبر توبيخاً وزجراً « لزليخا » لأن تعزير كل إنسان بحسبه وعلى قدر منزلته ، ورب امرأة غير زليخا إذا افترت افتراءها تستحق الضرب ، واخرى تستحق الحبس ، الى غير ذلك ؛ فكل واحد يعُزَّر بما يليق بمقامه ومركزه بين الناس .

عقاب المراودة في الشريعة الاستتابة مع التعزير

لا يوجد في الشريعة في مثل حادثة « امرأة العزيز » مع يوسف ، أعني حادثة المراودة ، سوى الاستتابة مع التعزير ، والتعزير — كما سبق — يكون لكل شخص بحسبه ، وواحدة مثل امرأة العزيز يكفي في تعزيرها ما خاطبها به سيدها لا أكثر ، سيما أنه لم يثبت عليها عند زوجها انها راودته وطلبت اليه الفحشاء من طريق البرهان الجلي ، ولكن من طريق « اللوث » ، طريق الأمانة والعلامة ، وقد ذكر الفقهاء في باب « اللعان » : أن الزوج إذا رمى زوجته بالفحشاء ،

وجبت عليه البيعة ، وإلا أقيم عليه الحد ، فإن لم تكن بيعة ، وأراد الزوج تبرئة نفسه من الحد أتى بالإيمان المؤكدة ، وعند ذلك يثبت « اللوث » عليها ، فتحبس لأجله ، ويضيق عليها به ، فإن دافعت عن نفسها بالإيمان المؤكدة ، سقط عنها الحد ، وفرق الحاكم بينها .

هذا ما ذكره في باب « اللعان » ، وهذا الباب مبني على أن الزوج رمى امرأته بالزنا ، ولكن هنا لا يوجد رمي من الزوج بالزنا ، وإنما كل الموجود ينحصر في أن « امرأة العزيز » تدعي أن يوسف راودها ، وبالمقابلة يدعي يوسف أن المراودة وقعت منها لامنه ثم بالبحث وجدت قرينة تدل على أن المراودة والرغبة صدرت من امرأة العزيز ، فاذا تقرر هذا فما هو الحكم يترى في هذه الحادثة ؟ والجواب ، انه لا حكم سوى ما فعله « سيدها » ، من استتابتها واستغفارها لا غير .

نعم ، ينبغي طلاق المرأة التي يصدر منها ما يغير المروءة والشرف ، كما إذا ثبت عليها انها راودت رجلاً أجنبياً عن نفسها ، لأن المرأة مأمورة أن تعاشر زوجها بالمعروف ، ومن يصدر منها ذلك ليست من هذا القبيل ، كما ورد في صحيح البخاري عن عبد الله (ض) أنه قال عن زوجته : « لو صدر منها نحو الوشم ، ما جامعنا » ، أي ما اجتمعت معنا في بيت واحد ، بطريق العشرة الزوجية ، ولا تنس ما تقدم من أن الفراق عند المصريين كان يوجد له مانع كبير ، وهو استيلاء المطلقة على كل ما يملكه الزوج ، بل نفى بعضهم الطلاق عن المصريين بالمرّة .

هذا ما حضرني الآن في الجواب عن « عزيز مصر » ، والله تعالى أعلم .

(إنك كنت من الخاطئين)

- ١ -

وقالت الانسة سلمى البصرية :

العزیز یحییٰ، زوجته و یونجھا

كأني بالعزیز بعد أن طلب من امرأته أن تستغفر لذنبا ، أخذ یونجھا و یعزرها
فأثلاً لها : أيتها السافرة المتبرجة ، تقدمين على عمل هو من العار والندالة بمكان ! ،
تقدمين على هذه المرادة مع عبد أنت سيدته ؟! ؟! هاه . هاه .

الموض على الله في أخلاقك وآدابك ، حقاً (إنك كنت من الخاطئين) خطأ
مزدوجاً ، إذ راودت يوسف الطهور ، ثم همت بالابقاع به ، ثم رميته بارادة
السوء : « وَمَنْ يَكْسِبْ خَطِيئَةً أَوْ إِثْمًا ، ثُمَّ يَرْمِ بِهِ بَرِيئًا ، فَقَدْ احْتَمَلَ
بُهْتَانًا وَإِثْمًا مُّبِينًا » (٤ : ١١١) ، وقد أخطأت في حق سيدك وأهلك ، وفي
جانب الله تعالى ، وقد أخطأت للهيئة الاجتماعية بمصر ولكل بنات مصر ، فأنت
إذاً من الخاطئين ، حقاً أيتها المتحفزة للخلوة ، الجاحدة للواقع ، إن وجهك يتكلم ،
وعينك تترفان ، وحالك ينطق بما ينكره اللسان ، فتبصري وانظري في أمر
نفسك ، بعين غير عين الحب ، فانها دائماً حولاء ؛

حقاً لقد أوقعت ذاتك في مهواة لا منقذ لك منها سوى الاستغفار ، وأوردت
نفسك موارد لا صدر لك منها بغير التوبة الى الكريم الغفار .

هذا هو مغزى كلام سيدها معها ، وهذا هو المعنى الروحي الذي اراده من

خطابه لها .

ولكن « زليخا » سكنت على مضض إذ لم تنجح فيها هذه العظة ، بل زادت بها .
تأججاً وثوراناً ، وكان من الواجب المعقول على سيدها ، بدلاً من هذه العظة ،
أو بمد هذه العظة ، أن يعمل على التفرقة بينها ، بأن يعتق يوسف ويطلقه من
قصره ، ليذهب حيث يشاء ، أو يرجعه الى وطنه فلسطين ، إذ لا أنفع لزوال
الغرام من ابعاد المحب عن محبوبه ، أو ابعاد المحبوب عن محبه ، ولو فعل « العزيز »
ذلك من أول الأمر ، لما حدثت حادثة « نسوة مصر » ، وتقطيع ايديهن ، ولما
ثارت زوجته ثانية ، رغبة الى يوسف بالنزول على حكمها (تكراراً) ، ولما احتاجوا
لاعتقاله ظلماً ، ولكن هكذا صار ، ليقضي الله أمراً كان مفعولاً .

معنى الخطء

هذا وأختم كلمتي بلحوظة لغوية وهي : يقال للمتعمد : خطيئ فهو خاطيء ،
والمصدر الخطء ، قال تعالى : ﴿ إِنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ خِطْئًا كَبِيرًا ﴾ (٣١ : ١٧)
والاسم منه الخطيئة ، ويقع على الصغيرة ، كما في قول ابراهيم (م) : « أَنْ يَغْفِرَ
لِي خَطِيئَتِي يَوْمَ الدِّينِ » (٨٢ : ٢٦) ، وعلى الكبيرة كما في : « وَأَحَاطَتْ بِهِ
خَطِيئَتُهُ » (٨١ : ٢) ويقال فيمن لم يتعمد الفعل : أخطأ وكذا لمن اجتهد ولم
يوافق الصواب ، لحديث « إذا اجتهد الحاكم فأخطأ فله أجر ، وإنما أوجب له
الأجر على اجتهاده في إرادة إصابة الحق ، لا على الخطأ الذي يكفي صاحبه أن
يعذر فيه ، ويرفع عنه مأثمه ، والفاعل من أخطأ : « مخطيء ، والاسم الخطأ ، قال
تعالى : ﴿ وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ أَنْ يَقْتُلَ مُؤْمِنًا إِلَّا خَطْئًا ﴾ (٩١ : ٤)
وقال الحريري :

- لا تخطون الى خطء ولا خطاء من بعدما الشيب في فوديك قدوخطا
- فأي عذر لمن شابت مفارقه إذا جرى في ميادين الهوى وخطاء

كل سر جاوز الاثني شاع

آ (٣٠) « وقال نسوة في المدينة : امرأة العزيز تراود فتاها
عن نفسه ! ، قد شغفها حباً ! ، إنا أنراها في ضلالٍ مبينٍ . * »

افتتحت الجلسة وتليت الآية الثلاثون فقامت ست اخوتها اللدية (١)

وقالت :

انتقل الخبر لقصور الأميرات بواسطة بعض الخدم والجواري ، ووقع هذا
النبأ عندهن موقماً سيئاً ، (وقال نسوة) جماعة من النساء ، وكن خمساً : امرأة
رئيس السقاة ، وامرأة رئيس الخبازين ، وامرأة صاحب الدواب ، وامرأة صاحب
السجن ، وامرأة الحاجب ، (في المدينة) وهي صو عن عاصمة المملكة العمليقية
الهكسوسية ، - قلن بلسان المكر (امرأة العزيز) فوطيفار - والعزير في اصطلاح
المصريين من قديم وحديث هو نائب الملك (تراود) تخاتل (فتاها) عبدها العبراني
يوسف (عن نفسه) ليقرب منها لأنه (قد شغفها حباً) خرق حبه شفاف قلبها
حتى وصل الى الفؤاد ، والشفاف حجاب القلب ، وقيل جليدة رقيقة يقال لها
لسان القلب ، وقد اصطلاح عليها اليوم بأنها جليدة رقيقة تبطن جوف القلب ، فيميناً
بآلهة مصر المقدسة (إنا أنراها في ضلال مبين) في خطأ وبعد عن طريق الصواب
- وقد وجهوا اليها هذا النقد مبطناً بالزراية - .

(١) نسبة الى اللد من بلاد فلسطين .

(وقال نسوة في المدينة)

— ١ —

وقالت السيدة مديحة الديرية (١):

وصول خبر السوء الى نساء الأمراء الخمس

إن « حادثة » يوسف وزليخا، لم تظل مكتومة في قصر « العزيز » بل ذاعت وشاعت ، حتى وصلت الى قصور الأمراء ، ودخلت في آذان سيدات تلك القصور ، وإن الداخلة الى غرف الأميرات المصريات إذ ذاك ، يجد أحاديث الغيبة والانتقادات قد أخذت مأخذها فيها ، ويرجع السبب في ذلك اما الى « القيّمات اللاتي أطرن الحادثة الى بيوت الأميرات ، أو إلى « المواشط » صواحب النفوذ في بيوت الكبراء ، لأن الأميرات يفضين الى « الماشطة » بأسرارهن ، ويعتمدن عليها في المهام العظام ، فإذا كانت من أهل الذكاء والدهاء ، ملكت زمام القصر ، ووقفت على جميع حوادثه . فتصبح « خزانة أسرار » وجمعة حوادث ، أو يرجع الى بعض « القهرمانات » ، و« الجوارى » لأنهن أكثر الناس رغبة في نقل الأحاديث ، وأنتم من الصبح في إفشاء السر ، وأسرع من البرق في حكاية ما يسمعن ، وخصوصاً إذا كان من هذا القبيل .

سئل « ديوجنيس » : « أي فعل يمسر على الانسان ؟ — فقال أن يعرف نفسه ويخفي سره » ، وقال أبو العلاء المعري :

تلقي الفتى كالريح إن أودعتَه

سراً ، أذيع ، فصار كالزمار

(١) نسبة الى دير الزور من بلاد الشام (سورية) .

والشمس أكنتم للسريرة في الضحى

من قهرمانه دمية وجواري

وربما يكون الحادث بلغين بواسطة « الخاديات » ، بل ربما أن يكون بعض الخاديات مُقامة في قصر العزيز « رَصَدًا » لبعض نساء الأمراء ، تأتين بالحوادث التي تحدث في قصر العزيز .

وهذه عادة قديمة ومستمرة ومطردة في قصور الأمراء ، فقد كان « للأمين ابن الرشيد » ، جارية في بيت الوزير « جعفر » البرمكي ، أهداها له ، لتكون رَصَدًا عليه ، ترأب حر كاته ، وتنقلها للأمين ، كما كان « لزيدة » زوج الرشيد « جاسوس » عند « العباسة » أخت الرشيد ، يطلعها على ماجريات العباسة ، وهكذا نعلم أنه كان للسلطان عبد الحميد العثماني « جواسيس » من جواري ورجال في كل قصر من قصور الأمراء في « الأستانة » .

وربما أن النبأ اتصل ببيوت هؤلاء النسوة بواسطة أناس من أهل بيت العزيز ، فإن امرأته كانت نادت أهل بيتها ، وكنتم قائلة : « انظروا قد جاء سيدي العزيز الينا برجل عبراني ، ليداعبنا » (تك ٣٩ : ١٤) ، وكل سر جاوز الاثنين شاع . وبالجمل : تناهى الخبر الى قصور الامراء ، وتساقطت هذه الحادثة الى سطة السيدات المصريات ، واستطار ذلك النبأ الى سرب من عقيلات رجال البلاط ، واتصل بسجيرات زليخا ، وهن من بطانة الملكة وسراوات السيدات ، ومنهن امرأة حاجب الملك الذي كان رئيس التشريفات ، فطرق آذانهن ، وحام حول قلوبهن ، وذلك رغماً عن أن يوسف أعرض عن ذكر هذا المصاب ، وتكنم امرأة العزيز فيه ، فصرن يصحن تلك « المرأة » بكل عيب حتى صارت مضغة في أفواههن ، ونبذنها من نفوسهن نبذ النواة ، لأنهن استفظمن هذا الأمر ، وهالهن

هذا العمل اللذيء من سيدة شريفة من شريفات مصر وكبرياتهن ، وبدأن يحاولن التوفيق بين نظرتي الشرف والدناءة ، وكدن أن لا يصدقن الخبر ، لولا تكرر الروايات المؤكدة لوقوعه ، وليس بين الأحاديث حديث أسير ولا أذيع من حديث سوء .

ولكن .. كم كنا نتمنى لهؤلاء « النسوة » — وبالأسف — أن يبقين ثابتات على فكرة انتقادهن تلك « المرأة » ، إذ سرعان ما رأيناهن قد تغير فكرهن ، حينما وقع نظرهن على يوسف وجماله ، (كما سيأتي) ، وهكذا شأن مخضوبات البنان ، ليس لهن ثبات على حال ، اللهم إلا على حال القلب والدهاء .

وتشعر كلمة « المدينة » أن « النسوة » كن « مدنيات » من سيدات مصر ، من مدينة « صوعن » أو « منفيس » عاصمة المملكة الهكسوسية في ذلك العصر ، ومثلن 'يصغى لقولهن ، لوقوفهن على الحوادث الاجتماعية ، وهن من سحيرات وخليطات امرأة العزيز ونظيراتها ، فلا ريب أنها تتأثر بيلوغ الحادثة لهن ، ثم بانتقادهن ، بخلاف مالو كن من « البادية » أو « الأرياف » فقولهن لا يفيظ ، ولا يجد آذانا صاغية .

(امرأة العزيز تراود فتاها عن نفسه)

— ١ —

وقالت السيدة ماهتاب الكابلية (١) :

انتشار حديث سوء

لما بلغ خبر المراودة إلى سيدات « صوعن » أخذن في لومها وتضليلها ، قائلات ما هو في معناه :

(واأسفاه) امرأة العزيز « تراود فتاها عن نفسه » ، مع أنها مقترنة بزوج ،

(١) نسبة إلى كابل عاصمة الأفاستان .

وأى زوج؟؟؟! فلا عذر لها ، وكان يجب حسب العادة أن تكون المراودة منه فالشبان هم الذين يراودون النساء ولا عكس ، لمكان الحياء الشديد الذي يمنهن من المراودة ، وبإلحاح ! فإنها لو أرادت أميراً من أمراء البلاط من سجناء سيدها لكان لها بعض العذر ، ولكنها لم تراود إلا عبداً من العبدان !

امرأة العزيز — سليلة المجد ، ربيبة النعمة والنعمة ، مالكة الدور ، ساكنة القصور ، ذات المال الوفير والخير الكثير ، ربة التاج والحلبي الوهاج ، تراود عبدها عن نفسه ، لأنها علقت بحبه !!! امرأة العزيز — يغفر الله لها ، من البيوتات الشريفة ! وسيدها من علية القوم وجلتهم ، فانها أرادت خادمها لنفسها ، لتشبع لذتها الحيوانية ، فانا لله ، وإنا اليه راجعون ؛

امرأة العزيز — تراود خادمها (المبراني) عن نفسه ، تريده على الفعل الشنيع عنوة وقسراً ، ومراغمة وقهراً ، لا يلفتها عن ذلك شيء ، ومن العجب الماجب أن تستبيح سيده كزليخا مثل هذا الفعل ، الذي يتردد صداه في القصور ، وهي من اللاتي يؤخذن بأعمالهن أمام ضميرهن ، وأمام الناس .

نسبة زليخا الى زوجها في حديث السوء واغفال اسمها

وهنا لا بد للمدقق في هذه الآية الكريمة أن يبحث في الدقائق التالية :

أولاً — ان « النسوة » قد دعون زليخا « امرأة العزيز » للاشعار بأنها شريفة وماجدة ، إذ لو لم تكن كذلك ، ، لما اقترن بها ، كما أنهم قد دعون يوسف « قتي » لها ، للايدان بأنه عبد من عبيدها ، وخادم من خدامها ، وكل ذلك لاظهار ما بينها من التباين البين ، وأيضاً ليظهر أن « زليخا » هي امرأة عزيز مصر ، أي امرأة رجل عظيم ومقترنة به بالفعل ، قصدن بذلك الاشباع في لومها ، فان من لا زوج لها من النساء ، أولها زوج دنيء قد تعذر نوعاً في مراودة الأخدان ، لا سيما إذا كان فيهم شيء من علو الجنب ، وأما التي لها زوج ، وأي

زوج هو؟ هو عزيز مصر، فلمعري إن مرأوتها أغيره، لا سيما لعبدتها الذي لا كفاءة بينها وبينه أصلاً - بحكم الظاهر - وتماديها في ذلك، فهي غايّة الغي، ونهاية الانحطاط.

هذا، ويحتمل أنهم أردن من هذه الاضافة (امرأة العزيز) نسبة العار والعيب للعزيز، باضافة هذه المرأة الساقطة اليه، نسبها له، لا لأهلها، لأنه هو السبب فيما حدث، فهو الموم دون سواء من أهلها، ولذلك لا يجب نسبتها لواحد من أهلها، ولكن لزوجها.

إن التهاون الذي يبدو من الزوج في شأن زوجته، قد يكون له سوء مغبة، ليس في جانب الزوجة فقط، أو في جانبها وأهلها فحسب، بل إن سوء المغبة قد يلحق الزوج، لا سيما إذا كان هو المتسبب.

انظر (يارعاك الله) إلى هؤلاء النسوة المصريات، عندما أردن ذكر زليخا بالاقذاع، لم يسميها باسمها الشخصي، بأن يقلن: «زليخا تراود فتاها عن نفسه»، بل نسبها إلى زوجها، قائلات: «امرأة العزيز تراود فتاها عن نفسه»، وتناسين اسم أبيها وأسرتها، كأنها «حواء» ثانية، خلقت من ضلع من أضلاع زوجها اليسرى، فهو أبوها وهو عصبها.

فلماذا ياترى هذه النسبة؟ قلنا إنها للإشارة لنسبة العار والعيب للعزيز نفسه، بنسبة هذه الساقطة اليه، ولماذا هذا ياترى؟ قلنا لأنه هو الذي تسبب، فهذا جزاء كل زوج يتساهل في حفظ زوجته مما يخاف منه العار،

نحن لانلوم عزيز مصر في إطلاق يد فتاه في سائر أموره الاقتصادية ورؤيته الصادر منها والوارد اليها، ورؤيته سائر أحوال البيت، ولكن ما هو عذره في السماح لزوجته زليخا أن تدخل على فتاه في غرفته الخاصة به وبأشغاله؟ وما هو عذره في

أمره ليوسف أن يدخل القصر في أي وقت شاء لرؤية بعض اللوازم ؟ سواء .
 أكانت العزيزة زليخا في القصر أم لا ، لا فرق في ذلك ، حتى ولو كان هناك
 خلوة ، فلا منع ولا حظر أصلاً ، وهل يجمع بين النار والحطب ؟
 نعم ، صادف أن هذا العبد (من حيث لا يعلم العزيز) ، ذو دين وشرف
 وعصمة ، ولماذا ؟.. لأنه يوسف وكفى ! ولكن ليس كل الفتيان يوسف ، فإذا
 يجب علينا المحافظة على صوابنا وبناتنا كل حين ، والله خير حافظاً ، وهو
 أرحم الراحمين .

تسمية العبد فتي

ثانياً — إن هذا الأدب الذي كان يمشي عليه المصريون الأقدمون في تسمية العبد
 « فتي » ، هو نعمّ الأدب ، في الحديث الشريف : « لا يقل أحدكم عبدي وأمتي ،
 وليقل : فتاي وفتاتي » ، والفتى من الناس : الشاب ، ويستعار للمملوك أو التابع أو
 الخادم أو المستخدم للحكومة « قال تعالى : ﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِفَتَاهُ ﴿١٨﴾ (٦١:١٨) »
 لأن يوشع بن نون كان تابعاً لموسى عليها السلام ، وقال تعالى : ﴿ وَدَخَلَ مَعَهُ
 السِّجْنَ فَتَيَانٍ ﴿٣٦﴾ (آ ٣٦) لأن رئيس السقاة المسمى « نَبُو » ورئيس الخبازين
 المدعو « مَجَلَّتْ » ، كانا مستخدمين في حكومة المكسوس ، وقال تعالى :
 ﴿ وَقَالَ لِفَتَيَانِيهِ ﴿٦٢﴾ (آ ٦٢) لأن هؤلاء أيضاً كانوا مستخدمين عند
 يوسف أيام عمالته بمصر .

تسمية حاكم مصر عزيزاً

ثالثاً — إن تسمية حاكم مصر الذي يكون تحت أمر وسلطة فرعون « عزيزاً » ،
 هو اصطلاح للمصريين ، ونظيره تسمية حاكم مصر سابقاً « خديوي » ما دام تحت
 نفوذ وإمرة السلطان العثماني بالآستانة ، بل إننا أدركنا العصر الذي كان يسمى

فيه الخديوي بكلمة « عزيز مصر » ، وأما ملك مصر الأكبر ، ملك القبط قديماً فكان اسمه الرسمي « فرعون » كما أن اسم ملك الفرس كسرى ، والروم قيصر ، والترك خاقان ، واليمن تبّع ، والحبشة نجاشي ، وفلسطين أبي مالك ، فهذه كلها ألقاب حكومية رسمية ، يلقب بها الملك من جانب الرعية يوم تتويجه ، وهي غير الأعلام الشخصية التي يسمي بها هؤلاء الملوك من جانب آبائهم يوم سابع ولادتهم ، وكما أن الرعية تعطي الملك لقباً خاصاً يوم إجلاسه على العرش ، فكذلك هو يعطي رجال دولته ألقاباً رسمية مثل: عزيز ، خديوي ، وزير بلاط ، رئيس تشريفات ، صدر أعظم ، الخ .. الخ ..

(قد شففا حباً)

— ١ —

وقالت السيدة سكيمة العدنية (١) :

شفف الحب

يقول سيدات «صوعن» : إن امرأة العزيز تراود عبدها العبراني لأنه « شففا حباً » بحيث لو بحث بين جوارحها ، وقتشت قلبها ، لما رأت فيه غير يوسف ، وغير جماله ووجه ودلاله « شففا حباً » حتى قهرها سلطان الهوى وأحاط حبه بقلبها كاحاطة الشفاف بالفؤاد .

وإننا لنعجب ، وتأخذنا الدهشة ، كيف أنه « شففا حباً » مع أن المادة الغالبة ، ان الشباب هم الذين يشغفون بحب النساء ، وإن عشق الكواعب للشباب ، أندر من الكبريت الأحمر ؛

ما هذا العشق الذي تمكن من قلبها ، واستبد بفؤادها ، واستقل بميوها

(١) نسبة الى عدن عاصمة مقاطعة عدن جنوب المملكة اليمنية .

وعواطفها ، اللهم لا شك انه عشق خال عن جادة الصواب ، وإلا فكيف يسوغ
لأميرة مصرية ، قرينة أمير مصر الوحيد ، وأول رجل بعد الملك ، أن تتنازل
لبعد من عبيدها !!!

وليسمح لي السادة والسيدات والآنسات أن أنهي خطابي هذا بالتعليقتين التاليتين:

أمثلة من غرام النساء بالرجال

التعليقة الأولى — إن كتب التاريخ تذكر لنا عدة أمثلة من غرام « الجنس
اللطيف » « بالجنس الخشن » منها :

١ — حب الأنسة « قارعة » بنت ثابت ، « لبعد الرحمن » بن الحارث المخزومي
حتى قالت فيه :

يا خلي نأبني سهدي	لم تم عيني ولم تكدي
فراي ما أسيغ وما	أشكي ما بي إلى أحد
كيف تلحوني على يفع	أنس تلتذه كبدي ؟
مثل ضوء البدر طلقته	ليس بالزئمة النكدي
نظرت عيني فلا نظرت	بعده عيني إلى أحد

٢ — حب « علية بنت المهدي » لفلانها « طل » ، وقد حرم عليها أخوها
« هارون الرشيد » أن تتشبه به ، فكان من نتيجة ذلك ، أن تشبهت بجارتها
زينب ، وجعلتها كناية عن « طل » .

٣ — أحب امرأة من الأوس شاباً من الخزرج ، كان تقياً باراً بأبيه ، قد
كفاه جميع ما ينيه ، فأرسلت إليه تشكوله جها ، وتسأله الزيارة ، وتريده على
نفسها ، وكانت ذات بعل ، فأرسل إليها :

إن الحرام مبيح لست أسلكه ولا أمر به ما عشت في الناس
ألغى العتاب فإني غير متبوع ما تشتهين وكوني منه في ياس
فكتبت اليه :

دع عنك هذا الذي أصبحت تذكره

وصيرني إلى حاجتي يا أيها القاسي

دع التنسك إني غير ناسكة وليس يدخل ما قد قلت في راسي
فأمسك عنها وأهملها ، فأرسلت اليه : « إما أن تزورني وأما أن أزورك » -
فأرسل اليها : « إربعي أيتها المرأة على نفسك ، ودعي عنك هذا الأمر ، واكتفي
بعرسك » (مصارع العشاق ج ١٤) .

٤ - قيل إنه كانت جارية اسمها « سَلَامَة » اشتراها « يزيد بن عبد الملك »
بثلاث مئة دينار ، وكان يوجد في زمنها فتى صالح تقي ، اسمه « عبد الرحمن » بن
أبي عمار من عباد أهل مكة ، ولقب « بِالْقِسِّ » لكثرة عبادته ، وكان شاباً
جميلاً ، رآته تلك الجارية فأحبهته ، وشغفت به ، كما هو بها ، وصار بينهما تخالل
وتواد ، فقالت له يوماً على خلوة : « أنا والله أحبك » - قال : « وأنا كذلك » -
قالت : « أحب أن أقبلك » - قال : « وأنا كذلك » - قالت : « أحب أن
أصادرك وأخاصرك » - قال : « وأنا كذلك » - قالت : « فيها يمنعك » - قال
قوله تعالى : ﴿ الْإِخْلَاءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا الْمُتَّقِينَ ﴾
(٤٣ : ٦٧) ، وأنا أكره أن تؤول خلقتنا إلى عداوة ، ولذلك اشتهرت
هذه الجارية باسم « سَلَامَة القِسِّ » (أخبار النساء لابن قيم الجوزية) .

٥ - روي أن جارية من الجوارى القِيَان : كانت على غاية المشق لشاب من
أهل الأدب والظرف ، اسمه « العلاء التظلي » فكانت تتودد إليه ، ولا ترى منه
سوى الجفاء والاباء ، ولم يزالا على ذلك ، حتى مرضت الجارية من حبها له فماتت .
(مصارع العشاق ج ٨) .

العشق بين الرجل والمرأة وبالعكس

التعليقة الثانية — العشق بين الرجل والمرأة وضع سماوي ، فتارة يكون من الطرفين ، وطوراً يكون من أحدهما ، والغالب على الهندوس الوثنيين أن العشق يكون من جانب المرأة للرجل ، وسببه أن المرأة في دينهم ، لا تتزوج إلا زوجاً واحداً فقط فحظ عيشتها منوط بحياة الزوج ، حتى انه إذا مات تحرق نفسها معه ، وتنام الحظ يكون بجمال الزوج وصحته ونشاطه ، وهذا بخلاف العرب والهنود الموحدين ، فالأكثر أن العشق يكون فيهم من طرف الرجل للمرأة (حسن صديق) .

(إنا نراها في ضلال مبين)

— ١ —

قالت السيدة سعيدة الكويتية :

تلوُّم السبرات الخمس على امرأة العزيز صبرها ليوسف

لم يكثف النسوة الخمس ، بترداد حديث السوء ، حديث المرادة ، بل حكى على « زليخا » بأن حبها هذا للعبد العبراني ، هو حب أحق ، حب ضال عن محجة الصواب ، وها هن يقلن انه إذا كان لها نفس تحملها على انتهاز اللذات ، ألم يكن لها عقل يعقلها عما فيه سوء السمعة وسوء المغبة ، وإذا كان لها جسد حيواني يطالبها بارتكاب الشهوات ، ألم يكن لها روح شريفة زكية ، تربأ بها عما فيه خسة ودناءة ، وإذا كان فتاها جميلاً ، ألم يكن لها من المنصب والمركز والجاه ما هو أجل وأجل ، فاذاً ويمينا « بأبيس » المقدس إن فكرتها لفكرة جنونية ، يمينا ، ولسنا بالحاتثات في يمينا ، إنما ذات ضمير ميت ، وخلق سيء ، وصاحبة وجدان غير طاهر . مسكينة هذه المرأة ، فقد تنابعت في عمائتها ، ولحست في غلوائها ، وإن مرادة سيدها مثلها ، لعبد من عبدانها ، وشغف قرينة « عزيز مصر » بالإغرام بخادم من

خدامها ، أمران مستهجنان جداً وكل واحد منها منفرداً ، خليق أن يشين بسمعتها ، فكيف وقد اجتمعا ! إن هذا ليس فعل الحراثر ، ولا أهل المروءة والدين ، فتباً له من عمل ، يورث العار والشنار ، ويخفض الرأس ، ويُفمِضُ الأبصار .

إن هذه المرأة قتلت شرفها ، وقاتل الشرف أخس من قاتل النفس ، لأن قاتل النفس يحول احتقار الجمهور إلى ذاته فقط . أما قاتل الشرف ، فيحول ذلك الاحتقار إلى الأسرة جميعها ، هي كانت سابقاً « قرينة العزيز » ولكنها اليوم (قرينة الذل والصغار) ، لتسقط وتتنزل إلى أسفل سافلين ، ونحن لم يصدر منا هذا الحكم مجازفة أو عن تقليد ، بل عن علم ورأي ، وإنا بحمد الله متزهات مترفات عن أمثال ما هذه المرأة عليه من السقوط والانحطاط ، « وإلى المنتقى إن كبرت » .

هذا مرمى كلامهن ، ومعناه الروحي ، قلن هذا الكلام بلهجة الإنكار والانتقاد والتلوم عليها ، وكن في هذا القول ما كرات أولاً ، ومقتابات ثانياً .
(مرحى مرحى)

تذييل : — إن ما قاله هؤلاء المحاضرات الأربع هو الصحيح ، وما عداه لا يستحق النظر مما قاله بعض المفسرين .

اقامة الحجّة على النسوة الخمس

آ (٣١) ﴿ فَلَمَّا سَمِعَتْ بِمَكْرِهِنَّ أَرْسَلَتْ إِلَيْهِنَّ ...
 وَأَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَكَأًا ، وَآتَتْ كُلَّ وَاحِدَةٍ مِّنْهُنَّ
 سِكِّينًا ، وَقَالَتْ : « اخْرُجْ عَلَيْنَّ » ، فَلَمَّا رَأَيْنَهُ أَكْبَرْنَهُ
 وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ ، وَقُلْنَ : « حَاشَ لِلَّهِ ، مَا هَذَا بَشَرًا ، إِنْ
 هَذَا إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ » . ﴿

افتتحت الجلسة وتليت الآية الحادية والثلاثون فقامت السيدة فاطمة
 اليوغوسلافية ورجت أحد الأعضاء المؤتمرين لقراءة خطبها فقال :

وأما زليخا (فلما سمعت بمكرهن) واغتيابهن وسوءفالتن ، وقولهن : امرأة
 العزيز عشقت عبدها الكنعاني ، فقمتها وأجفل منها أيما إجحاف - وسمى الاغتياب
 مكرًا ، لأنه في خيفة وحال غيبية ، كما يخفي الماكر مكره ، وكثير من الألفاظ
 في هذه السورة استعملت في غير معناها الحقيقي وذلك مثل (وشهد شاهد) وقد
 مر الكلام عليه ، ومثل (قلن حاش لله) وسيأتي الكلام عنه - ، أقول لما سمعت
 زليخا ذلك قالت أنا أعلم أن لكل حادث حديثاً ، وأن هؤلاء النسوة معذورات
 لأنهن لم يرين جمال يوسف ، ولذلك (أرسلت اليهن) تدعوهن ضيوفاً عندها لكي
 يرينه فيمذرنها ، فلبين الدعوة وأتين ودخلن عندها في البهو (وأعدت لهن متكأ)
 أي مجلس طعام - لأنهم كانوا يتكثون عند الطعام والشراب والحديث كعادة
 المترفين ، وقيل المتكأ الطعام أو المائدة التي عليها الطعام - (وآت) أمرت بأن

يؤتي الخدم (كل واحدة منهن مسكيناً) ليعالجن بها ما يأكلن من فواكه وغيرها، على حسب العادة الجارية عند المترفين في تلك الأزمنة من الأكل بالسكين ، (و) بعد ما انتظم الجمع وقدمت أنواع الأطعمة اليهن وشرعن يأكلن ، وبيناهن في ذلك قالت: ما الذي بلغني عنكن؟ - قلن هو الذي بلغك - تحاشياً منهن عن الكذب فعند ذلك أرادت أن تقيم عليهن الحجّة ليعذرنها، فرفعت رأسها و(قالت) بلسان الافتخار والابتهاج، لعبيدها العبراني (اخرج عليهن) ، ولا بد انه لم يكن في البدء عندهن ، بل كان جالساً في مكتبه أو نحوه من الغرف ، وربما انه لم يكن شاعراً بشيء من هذه الترتيبات ولا سبق له بها علم ، لأن الحادثة ليست إلا حادثة ضيافة يقصد بها التوصل لرؤيتهن يوسف وجماله فيعذرنها ، هذا كل ما كانت ، لا أقل ولا أكثر ، وأما يوسف فلم يسهه إلا امتثال أمرها والنزول على إرادتها ، لأنه عبدها ورهين إشارتها ، فخرج ومثل بين أيدي هؤلاء السيدات الجالسات حول المتكأ ، (فلما رأيته أكبرنه) أعظمته وهين ذلك الحسن الرائع والجمال الفائق (وقطعن أيديهن) أي جرحنها وشطبها - كما تقول : « كنت أقطع اللحم فقطعت يدي ، تريد جرحتها ، وقد يطلق تقطيع الأيدي على فصلها وإزالتها جملة ، كما في قوله تعالى : ﴿ السارقُ والسارقةُ فاقطَعُوا أَيْدِيَهُمَا ﴾ (٥ : ٤١) فلفظ التقطيع أو القطع مرن يمكن تضييقه وتوسيعه ، إنما قطعن أيديهن وانشغلن به عن الطعام، لأنهن في ذلك الوقت لم يكن منهن منهن منهن وأحشائهن ، بل بحواسهن وأذواقهن، فكاننهم النظر والذوق منهن ، أشد من نهم المعدة والأحشاء - (وقلن) بلسان الاندهاش والتنزيه (حاش لله) وهي كلمة تفيد معنى التنزيه والبراءة ، فمعنى حاش لله : براءة لله وتنزيه له ، وكان هذه الكلمة من جملة الكلمات التي عرف معناها المراد من غير أن يدل عليه اللفظ ، لأن المقصود هنا التعجب من جهال يوسف لا غير (ما هذا بشراً) نَفَيْنَ عنه البشرية لغرابة جهاله ، ومباعدة حسنه لما عليه محاسن

الصورة (إن) أي ما (هذا إلا ملك كريم) نزل من السماء «سفيراً»، ليمثل الملكة الملائكية السماوية، في المملكة البشرية الأرضية، فابتعن له الملكة وبتتَنَ بها الحكم، لأن الله ركز في الطباع أن لا أحسن من الملك، كما ركز فيها أن لا أقبح من الشيطان، وركز أن لا أجمع للخير من الملائكة، كما ركز فيها أن لا أدخل في الشر من الشياطين، قامت عليهن الحجة لأمرأة العزيز.

(فلما سمعت بمكرهن ...)

— ١ —

وقالت السيدة وفائيه الدمهورية (١) :

بلوغ امرأة العزيز اغتياها النسوة لها

وصل النبأ الى امرأة العزيز بأن نساء رجال الدولة من الوزراء والعظماء قد بلغن حادثها مع يوسف وانهن أخذن في لومها واغتيابها، شامتات، منافسات، حاسدات، نعم «سمعت بمكرهن» بواسطة جواربها أو ماشطاتها أو قهرماناتها أو غيرهن، وربما كان الذي نقل عنها الخبر الى النسوة هو الذي نقل خبر لوم النسوة ومكرهن واغتيابهن اليها...، «سمعت بمكرهن» الذي منه قولهن: «قد شغفها حباً» وانهن أرجفن وخضن، فثارت حفيظتها وبدأت تمتعض ويحبش صدرها من الفيظ، ويفلي دماها من الخنق، ورأت أن ماملتن لها كعاملة «الجبان المبرقع»، لغريمه، فافتكرت أن تحول دفتن عن جهة لومهن إياها، إلى جهة معذرتن لها؛ «سمعت بمكرهن» وتألبن عليها. وعرفت أنهن يسخرن بها في أعماق نفوسهن، ونيلن بلسانهن من شرفها، «سمعت بمكرهن» وسقط اليها أن السيدات المصريات تآزرن وتكاتفن على تنقيضها، وتضافرن على تضليلها، وأصبحن

(١) نسبة الى دمنهور من البلاد المصرية.

حرباً وألباً واحداً عليها ، فقالت في نفسها : إن هؤلاء السيدات الغافلات ليس لهن سلاح ، إلا القيل والقال ، ثم حسبت لذلك ألف حساب ، وافتكرت فرأت أن تظلمهن على يوسف ليعذرنها ، أو لكي توقعهن في الشرك الذي وقمت هي فيه ، فيشاركنها في عواطفها وبلاياها ، حتى يصدق عليهن جميعاً المثل القائل : « افتضحوا فأصطلحوا » وتكون بذلك قد طوقت مكرهن ، وأجهزت عليه وهو في مهده .

وجه تسمية الغيبة مكرراً

ملحوظة - سميت الغيبة مكرراً ، باعتبار أساسها ومنشأها ، لأن الغيبة التي هي من هذا القبيل المذكور هنا ، إنما تنشأ عن اختلاس أسرار الناس ، واستطلاع ما يدور في البيوت من الحوادث بواسطة البحث والتنقيب مع الجوارى والعجائز ونحوهن ، وهذا مكر بمن يبحث عنهم ، وينقب عن أحوالهم وخفاياهم ، ولا ريب أن هذا أمر منكر ، لما فيه من عدم احترام تلك الأسرار ، وعدم الاغضاء عن استطلاعها وتجسسها ، عملاً بالآداب العامة ، ووجه ثان في تسمية هذه الغيبة مكرراً : وهو أنهم كن يتمنين يوسف ويشتهينه لأنفسهن ، لأن المرأة كالسياسي سواء بسواء ، تقول بلسانها ما ليس في قلبها ، والله أعلم بما تكتمه ، ولذلك لم يُسمه غيبة بل مكرراً ، فهن بقولهن : « تراود فتاها عن نفسه » يتمنين أن تكون الأسباب قد سهلت لهن مثل هذه المرادة ، وبقولهن « قد شغفها حباً » يشتهين أن يكون هذا الشغف لقلوبهن ، ولما قلن : « إنا انراها في ضلال مبين » أردن انها في هداية ظاهرة حيث اهدت لحبة هذا الشاب الوحيد في صباحته ، عديم النظر في ملاحظته ، فلاحظتهن على امرأة العزيز ، ملاحظة غبطة وغيره ، ملاحظة لا يقصد منها معنى آخر ، يعرفه وتعرفه امرأة العزيز ، ويعلمه الله الخبير ، الذي سمي هذه الغيبة « مكرراً » .

ووجه ثالث : كن قلن ما قلن تحت تأثير عاطفة « المكر » بدليل إنهن لهن غائبات عنها ، ولم ينصحنها وجهاً لوجه ، وإلاّ فهن لو أردن النصح لاجتمعن

بها وقد من لها ما يعود عليها بالفناء ، فسماء « مكرراً » ، لأنه من قبيل التحكك بشخصية تلك المرأة وتنقصها ، وليس من قبيل العظة والنصيحة التي تكون بالمواجهة .

ووجه رابع : سميت هذه الغيبة « مكرراً » ، لأنها طمن لم يرتكز على مستندات قوية ، لأن هذا الذي وقع منهن ، وإن استند على إخبار الوصائف أو القهرمانات أو العجائز ، إلا أنه غير جائز ، إذ يجب أولاً التثبت والتبين ، لأنه يغلب على هؤلاء المخبرات الفسق والفساد والكذب ، وقد قال تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ، إِنْ جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَأٍ فَتَبَيَّنُوا .. أَنْ تَصِيبُوا قَوْمًا بِيَهَالَةٍ ، فَتُصِيبُوا عَلَى مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ ﴾ (٤٩ : ٦) ويجب على العاقل أن يظن باخوانه وأخواته ظناً حسناً ، كما قال تعالى : ﴿ لَوْلَا — إِذْ سَمِعْتُمُوهُ — ظَنَّ الْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بِأَنفُسِهِمْ خَيْرًا ؟ وَقَالُوا : هَذَا إِفْكٌ مُّبِينٌ ﴾ (٢٤ : ١٢) ، لأنه ليس من دليل بصدقه ، والأصل في الرجال والنساء العدالة ، والسلامة من الطعون ، وحيث لم يقم عند هؤلاء النسوة — على تلويث تلك المرأة — دليل مقنع ، كان الواجب عليهن حسن الظن بها ، ورد ذلك الاخبار السيء ، قال تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ، اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِّنَ الظَّنِّ ، إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ ﴾ (٤٩ : ١٢) ، ويقول النبي (ﷺ) : « إياكم والظن فإن الظن أكذب الحديث » ، والانسان ينهى عن تلقي مثل هذا ، كما قال تعالى : ﴿ إِذْ تَلَقَّوْنَهُ بِأَلْسِنَتِكُمْ وَتَقُولُونَ بِأَفْوَاهِكُمْ مَا لَيْسَ لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ ، وَتَحْسَبُونَهُ هَيِّئًا ، وَهُوَ عِنْدَ اللَّهِ عَظِيمٌ ، وَلَوْلَا — إِذْ سَمِعْتُمُوهُ — قُلْتُمْ : مَا يَكُونُ لَنَا أَنْ نَتَكَلَّمَ بِهَذَا ، سُبْحَانَكَ هَذَا بُهْتَانٌ عَظِيمٌ ﴾ (٢٤ : ١٥ و ١٦) وقال تعالى : ﴿ وَلَا تَفْفُؤْا مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ ﴾ (١٧ : ٣٦) .

وكان يجب على هؤلاء النسوة المصريات ، أن يسكنن حين سمعن هذا الخبر السيء ، كما قال تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يُجِبُّونَ أَنْ تَشِيعَ الْفَاحِشَةُ فِي الَّذِينَ آمَنُوا لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ، فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ ﴾ (٢٤ : ١٩) ، وهو ذم لمن يتكلم بالفاحشة ، أو يخبر بها حسداً أو بغضاً ، وكان الذي هون على هؤلاء النسوة القبطيات أن يصدقن خبر هؤلاء الخبريات ، ان امرأة العزيز كانت من المشركات ، وأن مراودة أهل التوثن الناس عن أنفسهم ، أمر معهود وقريب جداً ، بل قد عهد مراراً من أهل الشرك الوقوع في الفاحشة ، وذلك لأن الزنا والشرك أخوان ، قلما يوجد شرك إلا ومعه زناً ، وقلما يوجد زناً إلا ومعه شرك ، كما يعلم ذلك من الاطلاع على تواريخ الأمم المتعينة .

هذا ما ظهر لنا في تحليل تسمية هذه الغيبة « مكرراً » ، فان صادف قبولا عند أولي النظر ، فذاك من فضل الله علينا بصحة تحليلنا ، وعليهم لحسن ظنهم ، وسلامة طويتهم ، وأما الرجعيون فعليهم أن يرجعوا الى ما قاله غيرنا في هذا المقام .

(أرسلت اليهن ..)

— ١ —

وقالت الأنسة رؤوفة الحمصية :

دعوة امرأة العزيز للنسوة

تضافرت الأخبار في قصور الأميرات المصريات ، عن هذه الحادثة الأليمة ، وانتشرت فيهن ، رغماً عن كل الاحتياطات والتحفظات وبالتالي طفقن ينتقدنها ويسلقنها بالأسنة حداد ، فنجي الخبر باشاعة ذلك عند هؤلاء النسوة الى زليخا ،

فظنت انها تقدر أن تدرأ انتقادهن بما ستتخذهن من التدابير الصامته ، التي يرجى أن تكون ناجحة ، في سبيل تسكين غيبتن ومكرهن ، وتدير نفسها عندهن ، في حبها إياه ، بما سيرين من جماله الفائق ، ومنظره الجاذب ، فلذلك « أرسلت اليهن » ، وللمفسرين ههنا كلام غير هذا الكلام ...

« أرسلت اليهن » برسم الدعوة لقصرها ، على سبيل الضيافة ، مع الإعزاز والاكرام ، لتحتج عليهن بما سي شاهدن من جمال يوسف وكاله ، احتجاجاً صامتاً ، ولتقلّم ظفر انتقادهن ، وتشذب من لومهن ، وقد هيأت لهن مظاهر الزينة والنعم ، ومجالي السرور والتكريم ، وأما هن فصدعن بجرامها ، ولبيّنين وحضرن ، عملاً بسنة « من دُعي فليجب » أو امتثالاً لأمرها ، لما لها عليهن من الدالة ، بكونها امرأة العزيز .

ولنا ههنا كلمة - وهي بدلاً من هذه الدعوة النسائية ، كان يجب على امرأة العزيز حينما سمعت بوصول النبأ لقصور الأميرات أن تتدارك حصره قبل شيوعه ، وتلافي طيه قبل نشره ، بطريقة غير طريقة هذه الدعوة النسائية ، طريقة تكفل كتمانها عن غير هؤلاء السيدات ، وتضمن إخفاءه عما عداهن من قبيل حصر النار قبل انتشارها في سائر البيوت ، لأن دعوة هؤلاء النساء توسع دائرة الفتنة ، ولكن أبي الحب إلا أن يترك في نفس الحب نوعاً من الجنون ، وأبي الشموخ الذي في أنف امرأة العزيز ، وأبت الفطرسة التي في رأسها ، إلا أن تعمل عملاً من شأنه توسيع الخرق على الراقع ، ومن طبيعته أن يزيد الطين بلة ، فرأت بحسب اجتهادها أن تعتذر لهن اعتذاراً صامتاً ، وبعبارة أصح أن تحتج عليهن احتجاجاً أحرص .

وقد كان الأحرى بها اختصار هذه الحوادث ، ويكفي ما وقع سابقاً من الممارك ، بينها وبين يوسف ، ثم المحاكمة بمعرفة سيدها والشاهد من أهلها ، فهي بتلك الدعوة

النسائية ، مع ما نجم عنها من تقطيع الأيدي والفراغ ، وبما صدر عنها من الاعتراف أمام السيدات ، ثم توعدها ليوسف توعداً مشتملاً على القحّة وقلة الحياء وعدم المروءة ، قد زادت الفتنة اشتعالاً ، وبذلك انتقلت الحالة من ردىء الى أردأ ، ومن سيء الى أسوأ ، فيا للفضيحة .. ويا لامار .. ويا للجهالة .. ويا للحب يُعمي ويصم ...

(وأعدت لمن متكأ ...)

— ١ —

وقالت السيدة زهراء النجفية :

المطعم الصائد — المتكأ

لما أرسلت زليخا تدعو النسوة الى قصرها أعدت وهيات لمن متكأ يكفل أنواع الأطعمة اللذيذة ، من لحوم أرضية وسماوية ومائية ، ومن فواكه وأثمار مختلفة الألوان والأجناس ، وأمرت بفرش الطنّافس ، وترتيب المجالس ، واستحضرت مياه النيل المروّقة المزوجة بماء الزهر ، والمطوية بالبخور ، وقد أمرت بنصب ذلك في روضه من رياض القصر يجري من تحتها النيل ، قد غرست بالوان من الأشجار اليانعة الثمار . واكتست أرضها بسندس النبات ، ومختلف الورود والرياحين ، فطاب هواؤها ، ورق مأؤها ، وتطارت عصفيرها ، وانطلق نسيمها ، فاختلط حفيف الأشجار بتغريد الأطيّار ..

هناك أشارت بترتيب المائدة ونصبها ، فكانت هذه الروضة كالجنة ، وكان هؤلاء السيدات المصريات فيها كالخور العين ولم ينقص تلك الجنة الا الولدان، فلذا

أمرت يوسف بالبروز لهن (كما سيذكر) ليم بهاء ذلك المنظر الجميل ، وتكمل
الذات من جميع الوجوه .

وهنا نتذكر الملحوظات التالية :

معنى أعتدت

الملحوظة الأولى — يقال عتد الشيء عتاداً : حضر ، عتد وعتيد ،
ويتعدى بالهمزة والتضعيف ، فيقال : أعتده صاحبه وعتده إذا أعدته وهياه ،
ويقال : أخذ للأمر عتاده ، أي ما أعدته من السلاح والدواب وآلة الحرب ،
أعتد وأعتدته ، مثال زمان وأزمن وأزمنة ، وفي حديث : « إن خالداً جعل
رفيقه وأعتده حُباً في سبيل الله » (المصباح) ، وفي البخاري « وأعتدت » :
أعدت ، « أعتدنا » : أعددنا ، أفلنا من العتاد .

معنى المتكأ

الملحوظة الثانية — يطلق المتكأ على نفس الطعام ، وعلى نفس المائدة والخوان ،
وعلى نفس ذلك ومحلته ، وعلى النارق والوسائد ، كل ذلك جائز ، وصحيح في اللغة
والاصطلاح ، وفي البخاري « المتكأ : ما اتكأت عليه لشراب أو حديث أو طعام » ،
ولكن التعبير بالاعداد والتهيئة والتحضير ، قرينة واضحة على أن المراد هنا نفس الطعام
الذي يؤكل ، لأن هذا الذي يحتاج عادة للاعداد والتهيئة ، بحيث يجلب حيناً فحيناً ،
وشيثاً فشيثاً ، وأما نفس الخوان أو المكان أو النارق ، فتبعد إرادته هنا ، لأنه
موجود ، متوفر في بيوت الأمراء والمترين على الدوام .

ومع ذلك فقد فسر بعضهم « المتكأ » هنا بالمجلس يجلسن عليه أو الكراسي
يقعدن عليها متكآت على ظهورها ، فكلمة « متكأ » هي مثل كلمة « نزل » ، فان

النزل يطلق على ما يعد للضيف من الطعام وعلى المحل الذي فيه الطعام ، ويقال للمتكأ بمعنى الطعام : « سؤر » بلغة الفرس ، وفي الحديث : « يا أهل الخندق ، إن جابراً صنع لكم سؤراً ، فخيّ هلاً بكم » رواه البخاري في صحيحه ، وقد فسره شراح البخاري بالضيافة أو الطعام ، ويسمى عند العرب « مأدبة » وهو طعام الدعوة .

وقال بعض العلماء : الاتكأ الجلوس مع التمكّن والقعود مع تمايل متمدأ على أحد الجانبين ، وتوكأ على عصاه ، اعتمد عليها ، وقال تعالى : « وسروراً عليها يتكشون » يجلسون ، والعامّة لا تعرف الاتكأ إلا الميل في القعود متمدأ على أحد الشقين ، ويقال اتكأ : أسند ظهره أو جنبه إلى شيء متمدأ عليه ، وكل من اعتمد على شيء ، فقد اتكأ عليه ، ويقال : أتتكأته : أعطيته ما يتكئ عليه ، أي ما يجلس عليه ، وضربته حتى أتتكأته ، أي سقط على جانبه ، والاسم التّكأة مثل رُطبة . وإعداد « المتكأ » للطعام هو عادة للمترفين ضد إعداد « الحصرة » للطعام الذي هو عادة للفقراء ؛

ويطلق « المتكأ » على مائدة مؤلفة من ثلاث قطع ، على طرفي الواحدة منها الاثنان الآخران ، على وضع قائم معها ، فتشبه الثلاث مربعاً زعت إحدى أضلاعه ، فيكون بذلك فيها مدخل لموزعي الطعام ، وكانوا يضعون حول الجوانب الخارجة للمائدة أسرة ، تتكئ عليها الأكلة ، ورؤوسهم مسندة على أكفهم اليسرى ، متجهة الى المائدة ، وأرجلهم منفرجة الى الورا .

هذه هي صورة « المتكأ » عند المصريين واليهود قديماً ، وكان « متكأ » صاحب الوليمة في الصدر ، مقابل مدخل المائدة ، ومحل الشرف عن يمينه ، وهو المقعد الأول ، لأعظم الضيوف وأوجههم « فالتكأ » إذا آلة خشبية للأكل ، بديعة عالية يستعملها الأغنياء والأمراء في الولائم ، في عشائهم أو غذائهم .

هذا وقد قرأ بعضهم « مُتْكَأً » بضم الميم وسكون التاء، وتونين آخره بلا همز، وذكر « المفضل » أنه المائدة أو الحجر، في لغة « كندة »، وكان بعض أصحابنا تعجبه هذه القراءة مع تفسير « المِيتُك » بالحجر، ويقول: « إنه يسهل حينئذ على من يكون أجنبياً عن الدين هضم القول: بتقطيع الأيدي — فقلت له: « أليس القصد وجود السكر، حتى يهضم الأجنبي حادثة تقطيع الأيدي؟ » — قال: نعم — قلت له: فالجمال نوع من السكر، فقد ذكروا أن للسكر سبعة أنواع: سكر الشراب، وسكر الشباب، وسكر المال، وسكر الجمال، وسكر المنصب، وسكر القوة البدنية، وأخيراً سكر الموت، فالسكر على كل حال حاصل، فالرجوع للقراءة المشهورة أولى، لاسيما وقد حدثت حوادث كثيرة للعشاق، تشبه هذه الحادثة (١).

(وَأنت كل واحدة منهن سكيناً)

— ١ —

وقالت السيدة تماضر الحضرموتية (٢):

سكين الطعام

بعد أن استقر المقام بقليات الأمراء والوزراء في قصر امرأة العزيز أمرت جواريتها بأعداد الطعام وأعطت هي بيديها كل واحدة من هؤلاء المدعوات سكيناً لتأكل بها، مبالغة في الاحترام، ويحتمل أنها أمرت الجواري بذلك، على جاري العادة، فقد كان من عادة المصريين أن يأكلوا اللحم والفواكه بالسكين (الخازن)

(١) راجع مصارع العشاق ج ٢ و ٨ و ١٠ و ١٢ و ١٤ و ١٨ .

(٢) نسبة إلى حضرموت عاصمة إحدى مقاطعات الجزيرة العربية الجنوبية .

وكذا كان من عادة العرب أكل اللحم بها ، كما كان يفعل النبي (ﷺ) (١) ، بل وبالشوكة ، أعني شوكة النخل ، التي يقال لها مسلة النخل (٢) ، تكون طول شبر تقطع وتشذب وتقرز في اللحم ، أمام كل واحد سكين مربوطة بسلسلة في الجفنه وشوكة من سلاتي النخل ، إذ لم يكونوا يستعملون الصابون ولا غيره ، مما يزيل الدهن .

وأهل اليوم يأكلون بالسكين والشوكة والملقعة ، المصنوعة من المعدن .

وامرأة العزيز لم تأمر باعطاء كل سيدة سكيناً ، توصلاً لما لعله يقع ، وذريعة لما ربما يصير ، من قطع السكين اليد حاملتها ، لا .. لا .. لأنها لم تكن تتوقع منهن ذلك ، ولم يبق عندها احتمال قط أنه ستزل بهن تلك الفاجعة . ولكن هي أمرت الخاديات وأشارت على مرتبات المتكأ أي المائدة ، بأعداد السكاكين ، جرباً على القاعدة عند الكبراء ، ومشياً مع العادة في بيوت الأمراء ، من وضع السكاكين على « الخوان » ، لأجل تقطيع ما عليه من خبز ولحم وفاكهة ، فتقطيعهن لأيديهن كان حصل بالعرض وعن طريق الصدفة ، لا أكثر ولا أقل .

ويقال للسكين مديّة ، حتى ان بعض العرب لا يعرف إلا الاسم الثاني ، وقد روى أن أبا هريرة ، لما قدم من دنس عام خبير ، لقي النبي (ﷺ) وقد وقعت من يده السكين ، فقال له : « ناولني السكين » ، فالتفت أبو هريرة يمنة ويسرة ، ولم يفهم ما المراد باللفظ ، فكرر له القول ثانية وثالثة ، ثم قال : « آلمدية تريد؟ » وأشار إليها ، « فقيل له نعم » — فقال « أو تسمى عندكم السكين؟ » — ثم قال : « والله لم أكن سمعتها إلا يومئذ » .

(١) شمائل الترمذي (٢) شعرائي .

(وقالت اخرج عليهن)

—١—

قالت السيدة إنصاف الدمشقية : —

اجتماع الحب والحبيب والمواذل

إن طعن أولئك السيدات في شرف امرأة العزيز وعقلها ، ترك أثراً سيئاً في نفسها ، فأرادت أن تمحو انتقادهن باحتجاج صامت أخرس ، فقدمتهن للمائدة ، فشرعن يأكلن ، وأنشأن يتساقطن الأحاديث والأخبار ، في سرور وضحك ، وفيها هن في ذلك قالت لهن : « ما الذي بلغني عنكن ؟ — قلن : هو الذي بلغك » ، تمحاشياً منهن عن الكذب ، فمئذ ذلك أرادت أن يرين ما كن سمعن من جمال يوسف وصباحته ، لأن الرؤية فوق السماع ، « وما راا كمن سِمعاً » ، أعني أرادت أن تقيم عليهن الحجة الصامته ليعذرنها ، فوجهت وجهها شطر المكتب الذي هو فيه وقالت منادية : أنت ، يوسف ، اخرج ، اخرج من مكتبك على ضيوفنا هؤلاء السيدات المواذل ، اخرج عليهن لأدلي لهن بأن رأبي في هواك هو عين الصواب ، وانتي لم أكن في ضلال مبين كما قلن ، اخرج عليهن وعلى إحساسهن السلام ، وعلى عقولهن رحمة الله ؟

فلما سمع يوسف هذا الطلب من سيدته ، تمرمر في داخله ، وكرب وضاق ذرعاً ، وأوجس خيفة مما قد يتلوه من اقتراحات ، لا يمكنه تنفيذها أو من أعمال لا يروق له أن يراها ، أو من سفور . وإبداء زينة وتبرج جاهلي ، لا يمكنه أن يبصر على رؤيته ، بدون أن يتكدر ويتنقص ، وأخيراً لما سمع إلحاحها ، لم يجد بداً

من الامتثال لأمرها ، لأنه لم يكن وهو في بيت العزيز ذا جاه وشوكة ، بحيث يسوغ لنفسه عصيان سيده ، والاستبداد عليها فيما تأمر ، ولذلك زاه نزل على إرادتها ، وترك دفاتره ومحاربه وخرج من مكتبه على السيدات وهو خائر النفس ، وقلبه يخفق ، لما يتوقع من مغازلة له منهن ، ومداعبة تصدر عنهن ؟

برز لهن كبد التمام ، وباله من موقف غرام ، ووله وهيام ، موقف دهشة وحيرة وارتباك ، موقف ذهول ، وسكر عقول ، وغيبة عن الإحساس !!! لاسبها وانه لما رأى نفسه وسطين ، اعترته حمرة الخجل ، وأسبل جفنيه حياء وعفة ، فزاد بذلك بهاء وجمالاً ، وأنف أن يتبع نظره اليهن ، فلم تزد الأنفة إلا حسناً وكلاً ورواء .

وأما السيدات فلما سمعن من امرأة العزيز كلمة اخرج عليهن ، أتلمن بأعناقهن ، وشخصن بأبصارهن ، ينتظرن طلوعه عليهن ، التي كن سمعها ، والتي كن حزن فيها ، وهن يتناولن لرؤية محيا يوسف الباهر ، ويستشرفن للقياء ، ويشتقن لمشاهدة طلعمته ، فلما مثل بين أيديهن ، شرعن ينظرن اليه ، نظر المنجم إلى الكوكب ، الخافق في أفق السماء .

وأما زليخا فانما اختارت خروجه عليهن وهن على المتكأ ، لأن هذه الحال حالة صفاء وسرور ، فأرادت حضور فتاها الجميل ، لتكمل لهن اللذة بمشاهدته ، وبذلك تكون جمعت لهن بين تمتع البطن بالأكل من صنوف الطعام ، وتمتع العين والأذن بنظرهن لذلك الجمال الباهر ، وسماع كلامه الرخيم .

(فلما رأينه أ كبرنه ...)

— ١ —

قالت الأنسة أسماء من كلكتا (١) :

انقلاب العوازل محبين

لما خرج يوسف عليهن (رأينه) كأنه آية الجمال المحكمة ، التي لا تقبل تبديلاً ولا تغييراً ، فظهرت على وجوههن الدهشة ، (رأينه) فرأين ما يبهر النظر ، ويستوقف البصر ، وقرآن في صحيفة محياه « سورة النور » ، (رأينه) فانفتحت له قلوبهن ، وفرحت به أفئدتهم ، واختلط فرحين بأمارات البغته ، وبهتن كأن على رؤوسهن الطير ، (رأينه) لأول مرة ، فأعقبت تلك النظرة ألف حسرة وحسرة ، وسرعان ما ذهبن وغبن عن أنفسهن ، (رأينه) فبغتن ودهشن ، ودخل عليهن رعب شديد ، ولم تبق جارحة من جوارحين لم يتصورن فيها « صورة أبي مسلم » ولا تسل عن حالهن في تلك الجلسة الرهيبة ، من الاضطراب والذعر الحارثين (رأينه) ودرسن صحيفة وجهه ، وقرآن فيها آيات الصفاء القلي ، رأين مالا عين منهن رأت ، وسمعن مالا أذن منهن سمعت ، وظهر لهن ما لم يخاطر على قلوبهن يوم اعتراضهن على « زليخا » ، (رأينه) فرأين نزهة النفس ، وريبع القلب ، وعددن يومين هذا « يوم عيد كبير » ، وودن لو أن هذا اليوم يكون « يشوع » ، يطول عن باقي الأيام بارتداد الشمس فيه بعد الغياب ، فلما رأينه (أ كبرنه) — وأجللن جماله وأعظمن حسنه ، وكدن أن يقمن اليه ويجذبنه ، ولكنهن رأين في عينيه هية أوقفتهن عند حدهن ، فاكتفين بالكلام ، (أ كبرنه) وصار موضوع

(١) كلكتا احدى مدن الهند .

إكبارهن وإجلالهن ، ومركز دائرة إطرائهن وتقريظهن ، وأحلامنه المحل
الأعظم من نفوسهن وألسنتهن ، (أكبرنه) وغدوت مسبوهات (ذاهبات)
العقول ، مشردات الأفكار ، مبلبلات النفوس ، وامتلأت به قواهن ومشاعرهن ،
وصرت به صرعى الهيام ، ومشت الرعدة في أجسامهن ، مشي المدام في أدمغة
أهل الغرام . (أكبرنه) ما أن رأينه ، فاذا هوفي نواظرهن ، أكبر مما كان في
خواطرهن ، أي أنهن وجدن مخبره ، أسنى جداً من خبره ، وأن
« ليس الخبر كالبيان » . (أكبرنه) لأنهن رأين عليه نور « النبوة » وسبها
« الرسالة » وشاهدن فيه مهابة ملكية ، وهي عدم الالتفات الى الطعام والنساء ،
وعدم الاعتداد بكل ذلك ، فتعجبين من تلك الحالة ، فلا جرم إنهن أجللنه (١) .
وههنا تمتان :

عدم رؤية النسوة ليوسف قبلاً

التتمة الأولى : — يظهر من قوله : « فلما رأينه أكبرنه » مع قولها : « هذا
الذي لمتني فيه » أنهن لم تسبق لهن رؤيته ، رغمًا عن أنه كان مضى عليه في (قصر
العزيز) نحو عشر سنين ، وإن بيت العزيز كان في ذلك العصر كعبة الرائدات ،
ومنتدى الصديقات النبيلات ، فلذلك نظن ان امرأة العزيز كانت تحرص على إخفاء
يوسف ، وإبعاده عن هذا « الجنس اللطيف » غيرة منها عليه وأمثال ذلك كثير
في التاريخ ...

اهترام النسوة لأقضي يوسف

التتمة الثانية — إن الذي صدر من هؤلاء النسوة حينما رأين يوسف هو

بجموعة مركبة من ثلاثة أركان : ركن قلبي ، وهو اكبارهن له ؛ وركن عملي ، وهو تقطيعهن أيديهن ، وركن لساني ، وهو قولهن : « حاش لله ، ما هذا بشراً ، إن هذا إلا ملك كريم » ؛ فقد ظهر احترامهن ليوسف في مظهره الثلاث ، في الجنان والأركان واللسان ، على حد قول الشاعر :

أفادتكم النعماء مني ثلاثة يدي ولساني والضمير المحجّباً
وهذا أقصى أنواع الاحترام ، هذا ما حضرني الآن فما قولكم فيه ؟
(مرحى وأحسنت)

(وقطعن أيديهن)

— ١ —

وقالت الآنسة وصفية الديربند :

جرح النسوة المدعوات أيديهن

بينما النسوة المدعوات يأكلن ، وقد مسكت كل واحدة منهن سكيناً في يدها اليمنى وأهوت بها لتقطع الطعام ، من لحم أو فاكهة ، وهو مُمسك بيدها اليسرى إذ دخل عليهن يوسف ، تلبية لأمر امرأة العزيز ، فلما رأينه تأثرن بجياله تأثر أرائدماً ودهشن اندهاشاً عظيماً ، وذهلن به عن شعورهن ، وأصبحن كأن قوى الاحساس المتنوعة المتفرقة على أعضائهن ، قد توحدت واجتمعت كلها وانحصرت في عيونهن ، فلم يمد في أيديهن حس ولا إدراك ، أو كأن في اندهاشهن بجيالة قوة التخدير الموضعي لأيديهن ، فبدلاً من أن يقطعن الطعام أو الفاكهة بالسكين قطعن أيديهن ، بأن جرحنها وحززنهن من حيث لا يشعرن بألم ، ولا يعلمن أنهن يصنعن شيئاً ، لفرط ما قد تولاهن من الدهشة والذهول ، حتى يكاد الناظر اليهن في تلك الساعة

يمتقد أن هناك منزلة وسطى بين الحياة والموت ، تنبعث فيها الحواس في سبيلها ، ولكنها لا تعود الى الدماغ بشيء مما تحس به ؛

أو يحتمل أن يكون المنى أنهم قاربن ذلك ، كيف لا وقد ورد قوله تعالى : ﴿ وَإِذَا طَلَقْتِ النِّسَاءَ فَبَلَغْتِ مِنْ أَجَلِهِنَّ ﴾ (٢ : ٢٣١) (ومثله في ٦٥ : ٢) ، أي إذا شارفته ، كما يقال : بلغ البلد إذا شارفته وداناه ؛ ويقال : وصلت ولم يصل وإنما شارف (الكشاف) .

وأما امرأة العزيز فلم تدهش ولم تذهل لرؤيته معين ولم تقطع يدها ، لأنها قد تعودت رؤيته من قبل ، وتكرر لقائه ، إذ أنها أول ما رآته كان ابن ١٧ سنة ، أي صغير السن ليس محلاً لمحبة الإناث إياه « فضلاً » عن أنه « فتاها » وعبيدها ، وتحت يدها ، وإن مشاهدته مبذولة لها في كل حين ، بخلاف النسوة فإنهن لم يكن قد تعودن رؤيته من قبل ، وإنهن حيناً رأينه لأول مرة كان بالغاً مبلغ الرجال ...

ويمكن أن نقول وجهاً آخر في تفسير ذلك ، وهو أن زليخا قدمت للنسوة مع الطعام « مُتَسَكِّئاً » الذي هو « الخمر » في لغة « كندة » على ما فسر « المفضل » رحمه الله ، فلما أكلن وشربن ومسكرن ، ضاعت عقولهن ، وضل إحساسهن ، فلم يعدن يميزن بين الطعام وبين أيديهن ، وعند مباحثتهن بخروج يوسف عليهن ، واندهالهن بحاله وقده مسكرن مسكر الهوى ، فاهوين بالسكين على أيديهن بدل الطعام فجرحنا وشطبنا ، ولما صحون من سكر الخمر وسكر الهوى ، أدركن حالهن ، فرأين الدم يسيل من أيديهن ، فجعلن يمسحنه بمناديلهن ، ثم أتى لهن بمناديل أخرى ، عصبن بها جروحن وضمدنها .

ولنا هنا بضع ملحوظات :

وقع جرح النسوة أيديهن على امرأة العزيز

الملاحظة الأولى — كأني بامرأة العزيز وقد نظرت إلى هذا الحادث الأليم المدهش ، حادث تقطيع النسوة أيديهن ، ووقفت أمامه وقفة التحير ، ولسان حالها يقول : « ما هذا الاتفاق الغريب ؟! إنني إنما أمرت بالسكاكين لهؤلاء السيدات لأجل أن يقطعن بها طعامهن الذي على المتكأ (طبعاً) ، لا ليقطعن بها أيديهن ، ولكن حقاً ، إن لي من هذه الصدفة العجيبة حجة بينة على هؤلاء اللوامي ، بها يكون لي عندهن من العذر الواضح » .

هي افكرت أن تدعوهم في قصرها ضيوفاً ، وقت غداء أو وقت عشاء ، فريضة لجمعين بيوسف ، ورؤيتين جماله الفائق ، حتى يمذرنها في إغرامها به ، وسميها في وصاله .

هذا كل ما أرادت ، وهذا جميع ما قصدت لا أقل ولا أكثر ، وقد حصلت على ما أرادت وقصدت ، ولكن ليس العجب حصولها على هذا الذي قصدت اليه ، وسعت فيه ، فانه أمر عادي ، ليس فيه ما يقتضي العجب ، ولكن إن تعجب فعجب كونه حصل شيء (عن عرض) هو فوق مرامها ، وهو تقطيع أيديهن ، لشدة دهشتن وذهولهن وغيتن عن إحساسهن ، حتى بذلك تسنى لها بكل سهولة الاحتجاج على ثريين عليها احتجاجاً صامتاً أخرس ، ولكنه أنطق من اللسان .

اضئال جرح النسوة أيديهن في عدة مواضع

الملاحظة الثانية — من المحتمل أن التشديد في « قَطَّعْنَ » هو لكون الأيدي متعددة كما قالوه ، ويحتمل عندنا أن معنى التشديد ، هو أن كل واحدة

جرحت يدها جروحاً عدة في مواضع من يدها ، ويشير له ابن جرير بقوله :
« حزنن بالسكين في أيديهن حزاً حزاً » .

أمثلة للنسوة اللاتي جرحن أيديهن في التاريخ

الملاحظة الثالثة — ليست حادثة تقطيع النسوة أيديهن بالحادثة الأولى في التاريخ ، بل هناك أمثاله كثيرة ومنها ، الحوادث التالية :

١ — دخلت « عَزْزَة » على « كَشْتِير » وهو يبري سهاماً ، فجعل ينظر إليها ، ويبري ساعده ! فدنّت منه ومسحت الدم بثوبها (١) .

٢ — روى ابن « الحارث بن حِلْزَة اليَشْكُورِي » ، أشد معلقته بين يدي « عمرو بن هند » الملك ، وهو متوكيء على قوسه ، وقد زعموا انه حين إنشادها ، اقتطع (٢) كفه من الغضب ، وهو لا يشعر .

وقال ابن السِّيد في « أدب الكاتب » : كان متوكئاً على عَزْزَة (٣) ، فارتزت (٤) في جسده ، وهو لا يشعر .

٣ — كان بالكوفة شاب حسن الوجه ، نظرت اليه فتاة ، ذات جمال وعقل ، فشفت بحسنه ، ولم تأل جهداً في أن تحظى به ، وهو يأبى عليها ، ولم تجد لذلك سبيلاً ، فجعلت تبكي بكاء مرأ ، وتحزن حزناً شديداً ، ولم تزل كذلك ، حتى مرضت ولم تلبث أن بليت بيلية في جسمها ، فكان الطبيب يقطع من لحمها أرتالاً ، ولما كان قد عرف حديثها مع الفتى ، كان إذا أراد أن يقطع من لحمها ، يحدثها

(١) الدر المنثور .

(٢) قطع .

(٣) رمح صغير لاسنان له وفي أسفله زج أي حديدة .

(٤) ارتزت .

بحديث الفتى ، فما كانت تجد لقطع لهما الماء ، ولا كانت تتأوه ، فاذا سكت عن ذكره تأوهت ، ولم تزل كذلك حتى ماتت كمدأ (١) .

٤ — كان شاب يقال له « مسافر » يجب جارية من أهل مكة ، وكان غائباً بالحيرة ، فسأل عنها ، فقيل له : تزوجت ، فشقي ومات في مكانه (٢) .

فإذا كان خبر زوجها أثر على جميع جسمه وروحه ، فأسلم روحه توأ ، فهل من غير الممكن أن تؤثر رؤية يوسف فقدان الاحساس من أبدي هؤلاء السيدات اللاتي شغفن به ، وبوعثن برؤيته ؟ .. كلا ..

٥ — حكى أن فتى علق بجارية من القيان ، فاشتراها بستة آلاف دينار ، فلما حصلت عنده وملكها ، قالت له : « أيها الفتى لم اشتريتني ؟ وما في الأرض أبغض إليّ منك ، وإني أرى نظري اليك عقوبة ، فاسترد مالك ، فلا متعة لك بي ، مع بغضي إليك ، ورأى منها بغضاً وإعراضاً شديدين ، فبذل لها كل ما يبذله الناس ، فما ازدادت إلا عتواً ، واعتزلت في بيت ، لا تأكل ولا تشرب ، وإنما كانت تبكي وتضرع ، حتى ضعف صوتها ، وأحس منها بال موت ، وكان كل يوم يجيء إليها ، ويبذل لها الرغائب ، ولا ينفع ذلك ، ولا تزداد إلا بغضاله ، مكثت على ذلك ثلاثة أيام ، فلما كان اليوم الرابع ، ذهب إليها ، فرآى منها شيئاً من الاقبال ، فسألها عما تشتهي ، فاشتتهت عليه « حريرة » ، فحلف لا يعملها أحد سواه ، فأوقد النار و نصب القدر ، وبقي يمرس ما جعل فيها ، والنار تعمل وتتقد ، وقد أقبلت عليه تشكو

(١) مصارع العشاق ج ٢ .

(٢) مصارع العشاق ج ٨ .

ما مرّ بها من الآلام ، في هذه الأيام ، وبينما هو يمس الحريرة بيده على النار ، إذا
 يده قد انسمطت (١) بالحريرة ، فصارت مشلولة (٢) وهو لا يدري ، ولا يشعر ،
 لولا أن دأته جاءت فرأت ذلك ، فأخبرته ، فأخرج يده ونظرها ، فإذا
 هي مشلولة (٣) .

٦ — قال ابن حزم في كتابه « طوق الحمامة » : حدثتني امرأة أثق بها ، أنها
 شاهدت فتى وجارية ، كان يجد كل واحد منها بصاحبه فضلاً وهدماً ، قد اجتمعا
 في مكان على طرف ، وفي يد الفتى سكين يقطع بها بعض الفواكه ، فجراها جراً
 زائداً ، فقطع إبهامه قطعاً لطيفاً ، ظهر فيه دم ، وكان على الجارية غلالة قصب
 خزائنية ، لها قبة ، فأخرجت منها فضلة شديداً إبهامه .

حمل التقطيع على التجزير والتشطيب

الملحوظة الرابعة — لقد حمل تقطيع الأيدي على تشطيبها وتجريحها وتجزيرها
 وهو أمر ظاهر ، وعليه درج ابن جرير وسواه من محققي علماء التفسير ، ومما مرّ
 لي في بعض كتب التاريخ أن « المبرد » دخل يوماً على « عبيد الله بن طاهر » ،
 وقد فصد ، فظن أن ذلك لعملة ، فدعاه بالشفاء ، فقال عبيد الله : « خفص عليك
 أبا العباس ، فليس ذلك لعملة ، وانظر ما تحت طرف البساط » ، فنظر ، فإذا رقعة فيها :

حلف الظريف بقطعه يده إذ مس من يهواه بالألم
 حتى إذا ضاق الفضاء به جعل الفصاد تحلة القسم

فقال المبرد : « حسن أيها الأمير فما سببه ؟ » ، قال : مددت البارحة يدي إلى
 بعض الجوارى بالضرب فأبأتُ ما نالها من الألم ، فحلفت بقطع يدي ، فاستفتيت اليوم

(١) ذهب شعرها من شدة الحرارة .

(٢) يابسة متكتمة .

(٣) مصارع العشاق ج ١٠٤ .

فأُفْتِتُ بالفصد ، ففعلتُ ، قالوا : لأن الله تعالى قال : « قطعن أيديهن » مريداً التشطيب والتجزيز .

كتمان حادث تقطيع النسوة ايديهن عن ملك مصر

الملحوظة الخامسة — رب سائل يسأل ، لم لم يظهر لتقطيع هذه الأيدي سيرة في البلاط ، بل طوي هذا الحادث عن ملك مصر ، كأنه لم يحدث ، مع أنه عمل مهم ومفيظ ، ولماذا حصل هذا التكم يا ترى ؟ — فنجيب أن المصريين القبط هم أصحاب البلاد ، وهم الوطنيون الأصليون ، فكانوا يكرهون هؤلاء المهالقة المستعمرين ، فلأجل كراهتهم لملك مصر « الريان » المستولي على البلاد بالقهر والغصب ، — كانوا يطوون أخبارهم وحوادثهم عنه ما أمكن ، ولا يريدون أن يوقفوه على أحوالهم الداخلية ، لا سيما حادث كهذا يمس بشرف عزيز مصر وامراته وهؤلاء السيدات المدعوات ، وبالجملة يمس بشرف عموم القبط الوطنيين ، فلذلك طويت هذه الحادثة عنه كأن لم تكن ، بل طويت عن سمع التاريخ وبصره بالمره ، حتى أذن الله أن تقص علينا في كتابه الكريم .

صالح يوسف

الملحوظة السادسة — ذكر البغوي بسنده المتصل أن النبي ﷺ قال : « أعطي يوسف شطر الحسن » ، ويقال إنه ورث ذلك الجمال عن جدته « سارة » وكانت قد أعطيت سدس الحسن ، وقال محمد بن إسحاق : « ذهب يوسف وأمه بثلاثي الحسن » (١) ، وقال عكرمة : « كان فضل يوسف على الناس في الحسن ، كفضل القمر ليلة البدر على سائر النجوم » ، وروى أبو سعيد الخدري (ض) قال قال رسول الله ﷺ : « رأيت ليلة أُسري بي إلى السماء يوسف كالقمر ليلة البدر » ، وورد في سفر التكوين أنه قد « كان يوسف حسن الصورة وحسن المنظر » (تك ٣٩: ٦).

وتحرير المقام أن يقال :

يوسف هو ابن يعقوب من زوجته راحيل، ويعقوب هو ابن اسحاق من زوجته رفقة، واسحق هو ابن ابراهيم من زوجته ساراي، فابراهيم كان جميلاً وكذا زوجته ساراي فقد جاء في سفر التكوين «أنا حسنة جداً» (تك : ١٢، ١٤) فهذان الزوجان ورثا الجمال لولدهما إسحق، وهو تزوج برفقة التي جاء في سفر التكوين انها «كانت حسنة المنظر» (تك ٢٦ : ٧)، وهذان الزوجان أيضاً ورثا الجمال لولدهما يعقوب، وهو تزوج براحيل التي جاء في سفر التكوين أنها «كانت حسنة الصورة وحسنة المنظر» (تك ٢٩ : ١٧) ثم هذان الزوجان ورثا الجمال لولدهما يوسف، الذي وردت في جماله النقول الكثيرة، فهو ورث الجمال من أبيه يعقوب وأمه راحيل، وأما يعقوب فكان ورث الجمال من أبيه إسحق وأمه رفقة، وأما اسحق فكان ورث الجمال من أبيه إبراهيم وأمه ساراي، فيصدق على يوسف أنه الجميل بن الجميل بن الجميل بن الجميل، من زوجات أربعة جميلات، فلذلك وردت في حسنه الروايات المتعددة، ونظمت في ذلك الأشعار، وضربت الأمثال، وهذا المقدار من حسن يوسف، كاف لأن يدهش هؤلاء السيدات المصريات، ويأخذ بأفتنتهن، بل ويذهب بإحساسهن، لاسيما وانهن ما خرجن عن كونهن من سلالة حام، وغني عن البيان ان كل أفراد هذه السلالة الحامية سواء أكانوا رجالاً أم نساء، هم (كما ذكر المؤرخون وعلماء الجغرافية) فطس الأنوف، متجمدو الشعر، طوال القفا، ذوو رؤوس مفلطحة، ووجنات بارزات العظام، وأفواه واسعة كبيرة، وشفاه غليظة، وألوان سوداء، لأنهم من «العرق الأسود» أحد عروق البشر الأربعة، وأما يوسف فكان كغيره من العبرانيين من سلالة سام أي من «العرق الأبيض» الذي من مميزاته انه أبيض الجلد ناصعه، دقيق الأنف، رقيق الشفة، سبط الشعر ناعمه. فالقارىء الفهيم إذا لاحظ هذا وهذا، ولاحظ ثالثاً ان النساء عموماً، والأفريقيات منهن خصوصاً، رقيقات الشعور، شدييدات الحس، سريعات التأثر بالجمال والمحاسن، — إذا استحضرت ما ذكرنا كله سهل عليه اعتقاد ان هؤلاء النسوة المدنيات قد قطعن أيديهن .

هذا ما فتح به الوهاب ، في هذا الخطاب ، وهو تعالى أعلم ، واتباع
الحق أولى وأسلم .
(حسناً حسناً)

(وقلن حاش لله !)

— ١ —

قالت الأنسة ست إخوتها الكوفية (العراق) -

النسوة المدعوات ينزهن يوسف عن البشر

من المعلوم ان النسوة المدعوات كن في ذهول عميق ، أو في سكر متغلب
على العقل ، ولكن لما أفقن من ذلك ، ونجون من غلابه ، ورجعن لأنفسهن شرعن
يهتفن بجمال يوسف ، ويمجبن من محاسنه ، نعم ، كن مسكن سكتة استغراق في
في محاسنه ، ثم رأين أن يتكلمن كلمة يخرجن بها من هذا الدهول والاستغراق ،
قلن « حاش لله » أي براءة لله ، وتنزيهاً لله ، — أصله حرف جر وضع موضع
التنزيه والبراءة ، فهو مفعول مطلق ، كقولك : « سقياً لك » والمعنى تنزيه لله تعالى
— أن يكون هذا الشاب من العالم الأرضي ، بل هو من العالم السماوي ، وكلمة
« حاش » يختص استعمالها بالله تعالى ، فلا تقل : « حاش لك ، بل حاشاك ،
وحاشي لك » والمقصود من كلمة « حاش لله » تنزيه يوسف عن أن يكون بشراً ،
فهذه الكلمة من قبل الكلمات التي استعملت في غير معناها ، ومنه قول النبي ﷺ
في أبي بكر (ض) : « والله يغفر له » ، وقوله (ﷺ) في عتبة بن أسيد : « ويل أمه » ،
وقوله ﷺ لأم سلمة « تربت يداك » ، وقولهم « لا أم لك » ، وقول الكتاب : ﴿ أرأيتك
هذا؟ ﴾ (٦٣:١٧) وقوله : ﴿ أرأيت الذي يكذب بالدين ﴾ (١:١٠٧) ونحو ذلك .
والغريب ان كلمة « حاش لله » لم ترد في القرآن المجيد إلا في هذه السورة ، ثم

لم تحك هذه الكلمة في هذه السورة إلا عن فم هؤلاء النسوة المصريات ، في مقام تنزيه يوسف عن أن يكون بشراً مرة ، وفي تنزيهه عن السوء مرة أخرى (آ: ٥١) .

(ما هذا بشراً)

وقالت الأنسة زبيدة الفزبية .

المقالة طبيعة في المرأة

جعل النسوة يتأملن في وجه يوسف ، ويتفرسن في ملامحه ، تارة يستفرقن في النظر لوجهه ، وطوراً يطرقن متأملات، يبحثن في ذاكرتهن : هل سبق انهن رأين إنساناً يشبهه في الحسن ؟ .. أجهدن فكرتهن في تذكر أهل المحاسن والجمال ، فلم يهتدين على أحد يشبهه ، أو يقاربه في صباحته وملاحته ، فعند ذلك قررن انه ليس من عالم البشر ، بل هو من عالم أرقى جمالاً ، وأعلى بهاء ، وأسمى نوراً ، نعم إن الصورة وإن تكن صورة إنسان أرضي ، لكن النفس التي يحملها بين جنبيه ، هي نفس ملك سماوي .

هنّ كنّ ظننّ قبل أن يرينه أنه جميل الصورة فقط ، حسب العادة المألوفة ، أي انه ليس فيه إلا جمال الجسم ، وقسامة الوجه ، ونحو ذلك .

أما الآن ، وقد رأينه ، وتأملن وتفرسن فيه ، وعلمن ما عنده من طهرونزاهة وجمال نفس ، ونورانية روح — فقد عرفن شيئاً كنّ يجهنه من قبل ، فقد امتزج في نظرهن جمال صورته بجمال نفسه ، فاستحالتا الى صورة واحدة ، هي يوسف ! حتى انه لو نزلت به كارثة ، من كوارث الدهر أفقدته جمال صورته ، لبقى معشوقاً للقلوب ، تتشربه النفوس ، وتهفو له الأحلام ،

بما فيه من الجمال النفساني ، الذي هو أعلى قيمة جداً من الجمال الجثماني ، فكيف وقد اجتمع فيه الجمالان ، فاذا هو نور على نور .

إن هؤلاء النسوة ، ولا ريب ، كن يعتقدن أنه بشر ، ولكن المغالاة طبيعة نسائية ، قال « غونكور » : « أظهر أخلاق المرأة حب المغالاة في كل شيء ، لاسيما إذا لاحظنا أن أفكارهن هذه شمرية بحتة .

عجبت لهؤلاء النسوة ، لا يشغلن شأن عن شأن ، ولا يمشن على طريقة من قال : « حال المريض دون المريض » ، فهن مع ما أصابهن من الجراح تراهن يتلاهين بتقريظ يوسف ، وإطراء ماله من جمال وجلال ، وطبع النساء معادة الصمت في حالي الحزن والفرح ، ومحبة الكلام ، وهن بين الحسرة والغبطة .

(إن هذا إلا ملك كوريم)

— ١ —

وقالت السيدة ماهتاب البنجابية :

النسوة اللاتمات ينقلبن الى متغزلات مادحات

عجيب وايم الله ذلك الذي أحدثه هذا الاتفاق الغريب الأطوار !! فالنساء اللاتي كن لاتمات أصبحن متغزلات مادحات عاشقات ، ووقعن في شرك الحب كما وقع غيرهن ، وصار لسان كل واحدة منهن ينشد :

وعذلتُ أهل العشق حتى ذفته فعجبت كيف يموت من لا يعشق
وعذرتهم وعرفت ذنبي أنني عيرتهم فلقيت منه ما لقوا

انهن نظرن شاباً في ريعان الشباب ، جميل الصورة ، له منظر جذاب يغري الرائيين ويعجب الناظرين ، يدل على الجلال والمظمة ، فهتفن بهذه الجملة الامتداحية

يوهي : « إن هذا إلاملك كريم » بجمال ذاته وكمال نفسه ، وطهارة ضميره ، بحيث لم يبق فيه من صفات البشر إلا الاسم واللقب ، بأن نقول عنه ؛ « يوسف فتى امرأة العزيز » ، فهو بشر ، بحسب ذلك اللفظ فقط ، وأما فيما عدا ذلك ، فهو من نوع سكان السموات ، المنشأين من النور .

ورغماً عما أصابنا من هذه الكارثة ، فإننا اليوم سعيدات ، برؤية هذا الفتى مثلوجات الصدر ، بمشاهدة وجهه الصبيح ، الله أكبر ! إنه لجميل ! وجميل جداً . إنه زهرة سماوية ، ونفس ملكية . كلامن هذا هو من قبيل الغزل بجمال يوسف ، المبني على استحسانن له ، واستكبارهن لظرفه ، ومن قبيل المدح بالزاهة والطهارة ، والدليل على أن تشبيهن له « بالملك » غزل ومدح ، استعملن الشعراء قديماً وحديثاً . ذلك التشبيه في مقام الغزل بمحاسن المحبوب ومدح كماله ، وشواهد ذلك أكثر من أن تحصر ، وأشهر من أن تسطر .

نفين عنه البشرية ، لغرابة جماله ، ومباعدة حسنه لما عليه محاسن الصور ، وأثبتن له الملكية وبتتن بها الحكم ، وذلك لأن الله عز وجل ركز في الطباع أن لا أحسن ولا أكمل من الملك ، كما ركز فيها أن لا أقبیح ولا أنقص من الشيطان .

فهذا بدء التغير الفكري الذي جدّ لهن ، وأعظم دليل على تغير فكرهن عن ذي قبل ، هو اندهاشن وغيبوتهن عن الحس ، حتى قطعن أيديهن ، من حيث لا يشعرن ، ولا يحسسن ، فهذا هو دليلنا على انهن اندهشن بجماله وجلاله .

ذاب فكرهن الأول الانتقادي فيما صرن إليه من هذا الفكر الجديد ، فانقلبن عما كن فيه ، فكنن من قبيل من قيل فيهم : « يملونه عاماً ويمجرونه عاماً » ، أو « الحرام ما حرّموه ، والحلال ما حلّ بأيديهم » ، وكان « الشغف حباً » ، وإنما يعد « ضلالاً مبيناً » ، لغيرهن ، وأما لهن فهو الهدى الساطع !!!...

كنّ سرقن لحمها وأكلنه ميتاً ، فقطعت أيديهن وهن في قيد الحياة ، مكرن بها قولاً ، فكرت بهن فعلاً ، حكمن عليها بالضلال ، فضللن عن تقطيع طعامهن إلى تقطيع أيديهن ، دعون يوسف قبل أن يرينه « فتى امرأة » ، فلما رأينه دعونه « ملكاً كريماً » .

هذه الانقلابات والتطورات هي نتيجة من نتائج الاندهاش بالجمال ، فسبحان مقلب قلوب النسوة ، قبل قلوب الرجال ، وبهذا صرّ من « مريدات » امرأة العزيز ، المحبذات لغرامها وحبا ، بعد ما كن سابقاً من اللوامي المنتقدات ، والمواذل المنكرات ، فانقلبت حالهن ، وتغير فكرهن ، وشاطرنها في شغفها ، وهذا كل ما أرادت وسعت إليه .

كان جمال يوسف من أكبر المؤثرات على دقائق قلوبهن ، وكان كماله من أقوى السلطات النافذة لأفئدتهم ، فقلن ذلك القول مع اعتقادهن أنه بشر ، فبن يعبرن بذلك عن شعورهن ، وشدة سرورهن وإعجابهن بيوسف ، نظير قول القائل :

محمد بشر ما كان كالبشر بل كان ياقوتةً والناس كالحجر

والنساء يحكمن بمقتضى الشعور والوجدان ، أكبر مما يحكمن بمقتضى العقل والبرهان ، أو انهن قلن ذلك على الطريقة الشعرية ، أو على وجه المبالغة في الوصف وعلى كل ، فلعمري ما أبعدن المثل ، ولا تجاوزن القياس ..

قال بعض الحكماء : « الملائكة روح وعقل ، والبهاائم نفس وهوى ، والانسان يجمع صفات الملائكة وصفات البهاائم ، فان غلبت روح الانسان وعقله على نفسه وهواه ، كان أفضل من الملائكة ، وإن غلبت نفسه وهواه على روحه وعقله ، كانت البهاائم أفضل منه » .

لوم واعتراف ووعيد

آ (٣٢) * قالت : فَذَلِكَ الَّذِي لُمْتُنِّي فِيهِ ، وَلَقَدْ
 رَاوَدْتُهُ عَنْ نَفْسِهِ فَاسْتَعَصَمَ ، وَلَثِنَ لَمْ يَفْعَلْ مَا أَمَرَهُ
 لِيُسْجَنَنَّ ، وَلِيَكُونَ مِنَ الصَّاعِرِينَ * .

افتتحت الجلسة وثليت الآية الثانية والثلاثون فقامت السيدة هدى

اليانية وقالت :

رأت « امرأة العزيز » أن النسوة بما صدر منهن من فعل وقول قد قامت عليهن
 الحجة ، فمذ ذلك (قالت) لهن بلسان الاحتجاج (فذلكن) الفتي الرائع في
 الجمال الفاتن في الحسن ، أو فذلكن العبد الكنعاني الذي صورتن في أنفسكن ثم
 (لمتني فيه) ولم تخظرن على بالكن قول بعض الحكماء : « لعل لها عذراً وأنت
 تلوم » و « ليس من العدل سرعة العذل » ، تعني انكن لم تصورنه بحق صورته
 ولو صورته بما عابتن لمذرتني في الافتتان به ، ولذلك وما صار لكن أحتج عليكن
 في انتقادكن علي ، ثم قالت بلسان الاعتراف : (و) السر عندكن اني (لقد
 راودته عن نفسه فاستعصم) — والاستعصام بناء مبالغة يدل على الامتناع البليغ
 والتحفظ الشديد ، كأنه في عصمة وهو يجتهد في الاستزادة منها ، ونحوه استمسك
 واستوسع الفتق واستجمع الرأي واستفحل الخطب ، وهذا بيان ما كان من
 يوسف عليه السلام لا مزيد عليه ، وبرهان لا شيء أنور منه على أنه بريء مما
 أضاف إليه أهل الحشو الذين لا يفقهون — ثم قالت بلسان الایعاد والارهاب :
 (و) قسماً بأبيس وبتاسيح النيل (لئن لم يفعل ما أمره) به (ليسجنن) في المطبق
 (وليكوناً من الصاعرين) الأذلاء .

(قالت : فذلكن الذي لمتني فيه)

- ١ -

قامت الآنسة زينب العدنية وقالت :

لوم زليخا للنسوة

بعد ما احتجت امرأة العزيز عليهن احتجاجاً صامتاً قالت لهن بلسان اللوم والعتاب : « ذلكن » الشاب الفتي الذي برؤيته لم تتبين لكن حقيقة معذرتي.. هو « الذي لمتني فيه » ، وهل أنا في حاجة إلى أن أعتذر لكنّ ، وقد رأيت ما حل بكنّ ، مما لم يكن في الحسبان ؟.. هل أنا في حاجة إلى أن أعتذر لكنّ ، وقد صرتن به مغرّبات ، بعد ما كنتن فيه عواذل ؟.. هل أنا في حاجة إلى أن أعتذر لكنّ ، وقد جنّ جنونكنّ في حبه ، فزدتنّ فيه عليّ أضعافاً مضاعفة ؟..

« ذلكن الذي لمتني فيه » ، وماذا عساي أن أعمل ؟.. وأنا قد وُلدت « امرأة » ضعيفة الارادة ، ودبيت « امرأة » لطيفة الشعور ، وشببت « امرأة » رقيقة الاحساس ، ونشأت « امرأة » تتغلب عليها العواطف ، ثم الدم النسائي اللطيف جار في عروقي ، والميول النسائية المتقلبة سارية في كل جوارحي ، وهذا الفتى قطعة من الجمال ، خلق من معمل اللطف والحسن ، خلق فتنة للعباد ، وهو عبدي وتحت يدي ، أفمن العجب بعد هذا كله أن أستسلم لجماله ، وأسلم له عقلي ؟!؟..

« ذلكن » الفتى الأديب الذي أكبرُته وقطعتن بمجرد النظر اليه أيديكن ، هو « الذي لمتني فيه » ، والآن مع اني من جهة آسفة جداً ، لما أصابكن من هذه النازلة ، لاصبا وأنتن في بيتي وضيافتي ، لكنني من الجهة الثانية أحمدالله ، إذ شعرتن بثقل الحب وشدة سلطانه ، وإني لأرجو أن كل ما صدر مني وسيصدر لا يقلل من قيمتي شيئاً

عند من رأت جمال الفتى ، وكانت ذات إنصاف ، فأنا لست من غير طينتك ، بل أنا مثلكن من لحم ودم .

أتئن كنتن لمتني فيه ، ساحمكن^١ الله ، فابحثن الآن في ذات أنفسكن ، هل ترين ضميركن^٢ يشهد ان حبي إياه عبث ، أو انه في غير محله ؟ ..

أتئن كنتن لمتني فيه ، وأراكن هذه الساعة قد شفقتن^٣ به حباً ، فهل ألومكن أنا الآن فيه ؟ .. كلا . لأن من جرب الحب لا يلوم فيه أحداً :

بالأثمى في الحب ذق طعم الهوى فاذا عشقت فبعد ذلك عنف

فاذن نحن الآن قد تفاهمنا جميعاً ، فلا تمكرن بي ولا تنتقدني .

ملحوظة — لقد تقدم انها كانت سمعت بلومهن لها ، وانتقادهن عليها ،

فتنازعها العوامل التي تتنازع عادة كل محب انصب عليه لوم اللاتمين ، ونيل من شرفه وعرضه ، فتارة كان يدفعها « عامل الكبرياء والنظرسة » لرد لومهن بحمو وشدة ، زاعمة انه ليس من شأنهن البحث والسؤال عما في قصر العزيز ، وان كل تدخل من فريق ثالث في الشؤون التي بينها وبين عبدها تدخل غير ودي .

وحيثما يدفعها « عامل الذل » — ذل المحبين المغمرين — للاعتذار بهدوء

وسكينة ، ومرة يدفعها « عامل الاعتدال » للجواب عما يخالج ضميرهن ، بما يكفل عزتها ويرفع بلطف لومهن ، كانت تتجاذبها هذه العوامل ، وتنتابها هذه الأفكار المختلفة ، ثم حسن في عينها أن تعمل عملاً أهم من هذه كلها ، وهو أن تبث اليهن على سبيل الضيافة في قصرها ، حتى يرين يوسف ، فيشاطرنها في حبه ، ويقمن في الشرك الذي ارتطمت هي فيه ، او على الأقل يرين جماله فيعذرنها ، وبذلك تكون قد مدت لهن معذرة محسوسة ، بارزة ، صامته ، ذلك كل ما قصدته من الارسال اليهن ، وأما ما حصل في تلك الجلسة ، من تقطيع النسوة ايديهن ، واعترافها الصحيح أمامهن ، وتوعدها ليوسف إن لم يوأتمها ، فلم يكن شيء من ذلك مقصوداً

لها ، ولم يخطر على بالها ان هؤلاء السيدات ، سيستغرقن في حبه ، ويندهشن
بجماله ، لدرجة أن يغبن عن أنفسهن وإحساسهن ، فيقطعن ايديهن ، وأما هي فلما
حصل منهن ، ولما قيل : « حبك الشيء يعمي ويصم » ، سوغت لنفسها أن تبوح
لمن بكل صراحة انها (نعم) مشغوفة به حباً ، وانها كانت أرادته فأبى ، وانها
حتى اليوم والى الغد باقية على هذا الحب ، وعلى هذا الشغف ، وعلى هذا الشيء
الذي سمينه (ضلالاً) ، لا يهدأ لها بال ، ولا تروق لها معيشة ، الا بالحصول على
غرضها ، أحب يوسف أم كره ، وبقين هن على لومهن ، أم أقلعن عنه .

هذا ما سمح به الوقت أن ألقيه على مسامعكم ، والسلام عليكم ورحمة الله .

(مرحى)

(ولقد راودته عن نفسه فاستعصم)

قالت السيدة لطيفة المراكشية

— ١ —

اعتراف زليخا للنسوة

لقد أرادت امرأة العزيز أن تبرهن للنسوة ثقتها بهن فقالت لهن : أريد أن
أدلي اليكن بحديث خطير ، أرجو أن يكون سراً ، تحت طي الكتمان ، فأنتن
لستن بمن يتاجر بالاسرار النسائية ، نعم سأعلمكن بجملة الواقع ، مما كان مني
ومنه ، فأما ما كان مني ، فهو اني كنت سلت أمري لمواطني فراودته عن نفسه ،
وأما ما كان منه ، فإنه سلم أمره لعقله لذا فقد استعصم ، متعللاً بأن سيدي « العزيز »
أحسن مثواه ، مع ان إحسان سيدي العزيز لمثواه كان بواسطة ومباشرتي ، ونحن

إنما أحسننا له وأكرمنا مثواه ، ليكون طوع إرادتنا ، فما تصورناه نحن (سيباً) ،
تصوره هو (مانعاً) ! فيا للعجب من هذا العبد المتعبد ! ولا بدان أضحى كل افكاري
وتدايري وقواي في سبيل الوصول الي رغبتى منه .. الخ مالها من قول هراء
كما سيأتي .

ولنا هنا ملحوظات أربع :

زيادة فحة زليخا

الملحوظة الاولى — جرت عادة بعض العشاق أن يبوح بسرهم لبعض خلصائه ،
ولكن مقتصرأ على ما يجوز ذكره شرعأ ومروءة ، امثالأ لقول القائل :

لا تخف ما فعلت بك الأشواق و اشرح هواك فكلنا عشاق
إنما هذه المرأة زادت في الفحة ، فنفضت لمن جملة حالها ، فذكرت ما الأفضل
عدم التصريح به ، إذ ينبغي لمن ابتلي بشيء من هذه المعاصي أن يستتر بستر الله ،
كما ورد في الحديث الشريف .

عدم صبر النساء على حفظ الاسرار

الملحوظة الثانية — كانت سمعت أن النسوة المصريات وقفن على حادثتها ، ثم
دعتن فرأت اندهاشهن بتقطيع أيديهن ، وحكمهن على يوسف بأنه ليس من نوع
البشر ، بل من نوع الملائكة ، فعلمت من هذا انهن صرن شريكات لها في حبه ،
ولا بدان يكن قد عذرناها في شفقتها به . وأخيراً رأأت أن تلك الجلسة السرية ، انتقلت
من جلسة ضيافية الى جلسة غرامية ، وهي قديماً تعرف ان المصدر يرتاح لبث شكواه
لمن يخفف عنه لذا رأأت أن سلسلة هذه الاشياء ، تصلح أن تشكل سيبأ يسوغ
« اعترافها » بالحب أمام هولاء النسوة ، فصارت عواطفها تتراوح بين « الاعتراف »

بما كان صدر منها ، وبين البقاء على التكم ، وأخيراً فضلت أن تبوح لمن بما كان ، وقد اعترفت لمن بذلك ، لأن النساء أقل صبراً على حفظ أسرارهن وأسرار سواهن من الرجال ، ذلك بما فطرن عليه من ضعف المزاج ، وخصوصاً فيما يتعلق بالحب وأسبابه ونتائجه ، ويغلب أن يكون إفشاؤهن السر على سبيل المسارة ، والانسان إذا أعجزه أمر . أحس بميل شديد الى مكاشفة بعض أخصائه به ، فامرأة العزيز لما أعيأها أمر يوسف ، أرادت أن تكاشف به هؤلاء السيدات ، لعل أن يكون عندهن ما يسهل عليها الوصول لفرضها منه .

اعتراف فاسقة لفواسق

الملحوظة الثالثة - إن قولها للنسوة (ولقد راودته عن نفسه فاستعصم) هو « اعتراف » منها بالخطيئة ، ولكنه ليس « اعترافاً » أمام رجل دين مسلم ، توصلاً للتوبة عن يده إلى الله ، ولكي يخبر ذلك الرجل الديني المعترف بالكفارة التي تجب لهذه الخطيئة ، كما أنه ليس « اعترافاً » لرجل دين مسيحي ، توصلاً لمفردته تلك الخطيئة ، وإنما هو « اعتراف » فاسقة لفواسق لا تترتب عليه فائدة دينية أبداً .

الاعتراف السري

الملحوظة الرابعة - لا نشك في أن اعتراف زليخا للنسوة بمرادتها ليوسف وباستمصامه كان ضمن دائرة الأسرار ، وتحت طي الخفاء ، عن كل ما عدا هؤلاء النسوة المدعوات ، لأنه سيأتي اعترافها جهرأ بهذه الحوادث في جلسة التحقيق ، على يد مندوب الملك ، كما سيأتي الكلام عليه إن شاء الله تعالى في الكلام على الآية (٥٢) .

(ولئن لم يفعل ما أمره ليدسجنن وليكوناً من الصاغرين)

— ١ —

قالت الخاتون ماهتاب الشيرازية (١) :

انذار يوسف ووعيده

تعلمون أن امرأة العزيز كانت أولاً راودته ، فرأت منه كل الآباء والامتناع
فتركته وتناست هذه الفكرة ، ولكن شهوة النفس وعواطف أمثال هذه المرأة ،
وعزة المنصب وعبودية يوسف في بيتها — أمور دفعتها لتعليل نفسها بالأمل ، وسهولة
حصولها على رغبتها ، لا سيما إذا سمعته إرعاداً وإبراقاً ، والحب يهون على صاحبه
كل عسير ، حتى يريه القصور مبنية في الهواء ، فلذلك هي تقول الآن موجهة خطابها
للنسوة ، وعلامات الاهتمام ظاهرة على وجهها يمازجها شيء قليل من الحياء : لئن لم
يفعل ما أمره به ، ولم ينزل على حكمي وارادتي عاجلاً أو آجلاً ، ليكون عرضة للجزاء
الصارم بالاعتقال في (المطبق) والاهانة والذل ، حتى ولو كان هذا الجزاء مخالفاً لقانون
الجزاء المصري ، الذي هو بالعكس يمتثل ويهين من يفعل ذلك ، فأخر الدواء الكمي ،
وإنني لقديرة أن أرغم هذا الفتى بالقوة ، وأصل إلى ما أريد منه بالقسر بدون
احتياج إلى ترغيب وتشويق ، كما قال الشاعر :

من أطاق اغتنام شيء غلاباً واغتصاباً ، لم يفتنمه سوا آلا
فكم مرمر معيشتي بدم انصياغه لميولي ، فان هو بقي مصرأ على إباته ، ولم يحتم
رواية حيي له بما أريد ، فإني سأعامله بالمثل ، وأمرمر معيشته ، بسجنه وصغاره .
ثم قالت وصوتها يرتجف ، وجوارحها ترتعش ، أنا والله لست بمغلوبة لمن هو .

(١) نسبة الى شيراز احدى مدن ايران .

في يدي ، وتحت أمري ، وضمن قصري ، وقد اشترى بدراهمنا ، وغذني بخيراتنا فهو أصغر من أن يثابر على مخالفتي ، وأنا أكبر من أكون مقهورة باستبداده .
ولاني سوف لا أستصعب أمراً في سبيل الحصول على غرضي من هذا الفتى العبراني ، فخلاصه من دخول الحبس ، وشموله بالضغار معقود بتنفيذ ما أريد منه وإلا عوقب بيد منبسطة ، ولسان منطلق .

هذا مرمى كلامها الروحي مع هؤلاء النسوة ، وهكذا قضين سحابة ذلك اليوم . وهن في أحوال متناقضة ، في أفراح وجراح ، في عتاب وتراض ، في اندهاش وانتعاش ، في إرعاد وإبراق ، ووعيد وتهديد ، في أمل وبأس ، ثم ختمت تلك الجلسة النسائية ، فتحفزنا للقيام ، وودعن امرأة العزيز ، وهن يحسبن بألم سهم الفراق . وقبل أن أنهى خطابي أذكر الدقيقتين التاليتين :

وعيد زليخا ليوسف دون وعده

الدقيقة الأولى - ترى أن زليخا أوعدت يوسف بشقاوة مستقبله إن لم يمنع لأمرها ، بقولها : « وإن لم يفعل .. الخ .. » ، ولكنها لم تعده بسعادة مستقبله ، إن أطاعها وطاعها ، لأنه من جهة حاصل في بيت « العزيز » على كل سعادة ، تليق بواحد مثله ، ومن جهة ثانية ، هي تعلم ترفعه عما عساه أن يصل إليه من السعادة على يدها ، فرأت أنه لا يجدي معه وعدها ، بل وعيدها ، وأنه لا تؤثر عليه بشارتها ، بل انذاراتها .

ولائل نفوذ زليخا وشمورها

الدقيقة الثانية - كانت « امرأة العزيز » شديدة الذهباب بنفسها ، مُدلة بجاهها ونفوذها ، متشددة في آرائها وأفكارها ، متغلبة على سيدها ؛ ألا ترى الى

ضراعتها لها بقوله: « أكرمي مثواه ، عسى أن ينفعنا أو نتخذه ولداً » ؟
 ألا ترى إلى شدة وطأة انتقادها على سيدها بما ورد في سفر التكوين من قولها:
 « قد جاء الينا برجل عبراني ليداعبنا » ؟ (تك ٣٩ : ١٤)

ألا ترى إلى أنها لحقتها لما هرب ولم تبال برؤية الجوارى ونحوهن لها وافتضاح
 أمرها عندهن ؟

ألا ترى إلى ثقل اقتراحها واستبدادها أمام سيدها ، إذ قالت له كحاكم مستبد:
 « ما جزاء من أراد بأهلك سوءاً إلا أن يسجن أو عذاب أليم » ؟

ألا ترى إلى سيدها ، حينما ثبت عليها « الجرم » لم يقاصها إلا بقوله: « إنه
 من كيدكن إن كيدكن عظيم » ، وقوله: « استغفري لذنبك إنك كنت
 من الخاطئين » ؟

ألا ترى إلى قبحها إذ قالت بمسمع ومرآى من السيدات المصريات ، وربما كان
 واقفاً عندئذ بعض الجوارى: « ولقد راودته عن نفسه فاستعصم » ؟

ألا ترى إلى استهانتها بوصاة سيدها واستبدادها في الحكم إذ قالت: « ولئن
 لم يفعل ما أمره ليسجنن ، وليكوناً من الصاغرين » ؟ تتوعده بما كانت هي
 حقيقة به ؟

وأخيراً ألا ترى إلى صراحتها واعترافها أمام مأمور التحقيق ، المندوب من
 جانب الملك ، إذ قالت: « الآن حصحص الحق أنا راودته عن نفسه » ، ثم قالت:
 « وما أبريء نفسي » ؟

فهذه المواضع التسعة تعلمنا أن هذه المرأة كانت شاحخة مستبدة .

المناجاة

آ (٣٣) ﴿ قَالَ : رَبِّ ، السَّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ ، وَإِنْ لَا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ ، أَصْبُ إِلَيْهِنَّ ، وَأَكُنْ مِنَ الْجَاهِلِينَ . ﴾

افتتحت الجلسة وتليت الآية الثالثة والثلاثون فقامت الأنسة سليمة

البلبكية وقالت :

سمع يوسف كلام « امرأة العزيز » وتهديدها له ، فالتجأ إلى ربه ، و (قال) يا (رب) الذي إليه التجيء وبه اعتم (السجن أحب إلي مما يدعونني إليه) أي أحب إلي من ركوب المعصية — لأنه وإن يكن زول السجن مشقة على النفس شديدة ، وما دعونه إليه فيه لذة عظيمة ، لكن تلك المشقة آثر عنده نظراً لحسن الصبر على احتمالها في وجه الله ، ونظر القبح معصية ، وعبر بكلمة « يدعونني » على إسناد الدعوة إليهن جميعاً ، لأنهن سكتن على كلام امرأة العزيز ، والسكوت رضاً ، بل كن بحالة من يدعو إلى الفحشاء ، ورب حال أفصح من مقال ، ومن استحسن عملاً قبيحاً فكأنما عمله — ثم قال يوسف أدعوك يا مولاي أن تصرف عني كيدهن صرفاً متأسلاً دائماً ، بحيث إذا قبر اليوم لا يبعث غداً ، (وإلا تصرف عني كيدهن) بألطافك الإلهية ، وعصمتك الربانية (أصب) أي أميل (إليهن) — والصبوة الميل إلى الهوى — فإني لا أملك من القوة إلا معوتك (وأكن من الجاهلين) الذين لا يعملون بما يعلمون ، لأن من لا جدوى لعلمه ، فهو ومن لا يعلم سواء ، أو من السفهاء ، والحكيم لا يفعل القبيح .

(قال : رب ، السجن أحب الي مما يدعونني اليه)

— ١ —

قالت الأنسة جهينة المحصية :

مناجاة يوسف ربه لصرف كيد النسوة عنه

رأى يوسف تلك الحفلة النسائية الخطيرة ، وسمع فيها كلام « امرأة العزيز » وتهديدها وإنذارها الشديد ، ومالأة « النسوة » لها عليه بسكوتهن على ما قالته ، فعلم أنها تريد أن تبث مسألة « المرأودة » من قبرها ، رغماً عن نهي « العزيز » لها فرأى نفسه انه على شفا حفرة من التهمة ، وأنه ليس بينه وبين وقوع « الكيد » عليه ، من هؤلاء الكواعب إلا كلفتة الجيد ، فقال في نفسه : ليت شعري أراجع مَنْ مِنْ أهل البلاط في شأنها ، واقتراحاتها الساقطة ؟.. فهل أراجع سيدها عزيز مصر ، وأخبره بأنها لم تسمع صوت أمره لها ، ولم ترسخ لنصحه ؟.. أو ياترى أراجع ملك مصر « الريان بن الوليد » ، وأحيطه علماً بسلسلة هذه الحوادث ، التي جرت وتجري في مملكته ، بغير علم له بها ؟.. ومَنْ لي بأن أقف مائلاً بين يديه ، حتى أنفض له جميع ما في صدري ؟.. لا .. لا .. لا لزوم لمراجعة عزيز مصر ، ولا ملك مصر ، ولكني أراجع العزيز الحقيقي المطلق ، عزيز كل الأمصار ، وملك الملوك الحقيقي الأكبر ، ملك الأرض والسموات ، وهو « الله » سبحانه وتعالى ، فيارب ، يا الله ، إليك أتوجه بعرض حالي ، وإليك أضرع بمقالي ، يارب ، أبعث عني هذه الفتنة العمياء ، وغير قلوب هؤلاء النسوة ، ليرجمن إلى طاعتك ، ويشعرون بفضاعة الأمر ، الذي هنّ عازمات على ارتكابه .

يارب ، أرشدني إلى سبيل أنجو به من هذه الأشرار ، واحفظ عبدك يوسف

من دهائهن وختلن ، تمنن يا رب على هذا المسكين الغريب ، هذا المسكين الذي ليس له ملجأ إلا لك ، أنت ملجأ البائسين الضعفاء فاحفظني من كل سوء وتجربة ، وحقاً إنني أفضل المتقّل المظلم على القصور المتلألئة بالأنوار ، فإن كان لا ندحة عن الإعتقال ، فلهو خير لي مما يرغبن إليّ فيه ، ولو قضيت فيه سحابة عمري ، ولا يهمني مفارقة القصر المنير ، إلى سجن مظلم ، فقد عافت نفسي القصور ، وما يحف بها من أسباب الفتن والفجور .

هذا ما حدثتُ به أيها السادة، ان هذه المعاني حاكت في صدر يوسف (ع) فجعل ينجي بها ربه سبحانه وتعالى .

(قال : رب ، السجن أحب إليّ مما يدعونني إليه)

— ٢ —

وقالت الأنسة خيرية الريحاوية (١) :

سبب سكوت يوسف في حفلة النسوة المدعوات

تتلم من كتاب الله تعالى أن يوسف في تلك الحفلة النسائية السابقة ، كان ساكناً ، لم يتبادل الحديث ، لا مع النسوة المدعوات ، ولا مع امرأة العزيز صاحبة الدعوة ، ونعلم أن ذاكم السكوت زاده رفعة في أعينهن ، وزاده هيبة في قلوبهن ، فالصمت يرفع منزلة صاحبه ، وكثرة اللفظ تقلل من مهابته ، وهذا في مبادلة الحديث بين رجل ورجل ، فكيف والجليسات في تلك الحفلة اناث لا يليق بذئ المرءة مثل يوسف أن يتبسط في الكلام معهن ، ولكن بصمت عن محادثتهن ، فلذلك وحيث ان العاقل يحتفظ بكلامه إلى حين الحاجة ، بقي يوسف ساكناً ،

(١) نسبة الى اريحا من بلاد فلسطين .

٦٦٢ كيف كانت مشقة نزول السجن أحب إلى يوسف مما يدعوه النسوة إليه (٣٣)

حتى سمع إنذار « امرأة العزيز ، إياه ، فأوجس منها خيفة ، وخشي أن تصيبه من ختلها دائرة ، لأنها تقول وتفعل ، وكابد في نفسه ألماً مفضاً ، لا تستشف مكانه من أعماق قلبه ، غير عين واحدة ، وهي عين الله تعالى ، ففزع إلى مولاه ورفع بصره إلى السماء ، وشخص لجهة العلو ، وقال وفي صوته غنة الضراعة ، والذل :
يا رباه ، يا من يجيب المضطر إذا دعاه ...

(قال : رب ، السجن أحب إلي مما يدعونني إليه)

— ٣ —

وقالت السيدة سعدى العكبية (١) :

كيف كانت مشقة نزول السجن أحب إلى يوسف مما يدعوه النسوة إليه

لي ههنا كلمة مختصرة في هذا الموضوع، يقول يوسف الصديق (م) : « السجن أحب إلي مما يدعونني إليه » وقد استشكلوه بأن نزول السجن مشقة على النفس شديدة ، وما دعونه النسوة إليه لذة عظيمة ، فكيف كانت المشقة أحب إليه من اللذة ؟ وأجابوا عنه بأنه كانت المشقة أحب إليه وآثر عنده ، نظراً في حسن الصبر على احتمالها لوجه الله ، وفي قبح المعصية ، وفي عاقبة كل واحدة منها ، لا نظراً في مشتى النفس ومكروها .

وهو جواب حسن جداً ، ونحن نزيد على ذلك بأن هذا أسلوب عربي مألوف ومنه ما رواه مسلم في صحيحه عن علي (رض) : « إذا حدثتكم عن رسول الله ﷺ فلأن أخير من السماء أحب إلي من أن أقول عليه ما لم يقل » ، مع أن كلاماً من الخرور من السماء والكذب على النبي ﷺ مبعوض للنفس . والشاعر العربي يقول :

(١) نسبة إلى بلدة عكا من بلاد فلسطين .

لنقل الصخر من قِبل الجبالِ أحب إليّ من مَن الرجالِ
 على أن أصحاب النفوس الملكية العالية ، يرون ان الفاحشة مرة الطعم جداً ،
 وعليه فالمعنى : حامض السجن ، أخف عليّ من مرّة الفاحشة ، « حنانك بعض
 الشر أهون من بعض » ، على أن أحد المحاضرين قد بين في خطابه ان في السجن
 فوائد جمة ، لا يستهان بها ، وقد سمعتموه آنفاً ، « وما بالمهد من قدّم » ..

(قال : رب ، السجن أحب إليّ مما يدعونه اليه)

— ٤ —

ثم قامت السيدة عليّة التجنية وقالت :

لماذا نسب يوسف الدعوة لجمع النسوة

نسمع يوسف يقول « يدعوتني » بصيغة الجمع ، مع أننا نعلم أن التي دعتة إنما
 هي واحدة ، وهي مولاته « زليخا » ، ونرى انه كثر في هذه السورة كغيرها ،
 إطلاق الجمع على المفرد ، لعله من العلل المناسبة لكل موضع ، وفي بيان ذلك
 أربع احتمالات :

الاحتمال الأول : ان المراد من قوله تعالى « يدعوتني » هو امرأة العزيز خاصة ،
 لأنها هي التي دعتة للفحشاء ، كما حكاها القرآن الكريم عنها ، ولم يحك ذلك عن غيرها من
 النسوة . وأما ما حكى من أنهم قلن ليوسف : « أطع مولاتك » أو أنهم طلبن منه كما طلبت ،
 أو أن الطلب كان منها خاصة ، وهن ما لأنهن على طلبها ، فهو افتراء على هؤلاء النسوة ، وهتك
 مسترهن ، بما لم يثبت عنهن ، وعندنا ان من نسب إليهن ذلك القول ، قد أقولهن ما لم يقلن ،
 ونسب إليهن ما لا تجوز نسبته إلا بحجة وبينه وقوله تعالى : ﴿ مِنْ بَعْدِ مَا رَأَوْا
 الآياتِ ﴾ (آ : ٣٥) وما رأوا سوى آية واحدة ، وهي القميص ، وقوله تعالى :
 ﴿ أضغاث أحلام ﴾ (آ : ٤٤) وما هو إلا حلم واحد ، وقوله تعالى : ﴿ فأرسلون ﴾

(آ: ٤٥) خطاباً للملك الريان ، وقوله تعالى : ﴿ لعلني أرجع الى الناس ، لعلهم يعلمون ﴾ (آ: ٤٦) والمراد من الناس الملك الريان أيضاً وقوله تعالى : ﴿ إذ راودتُنَّ يوسفَ عن نفسه ﴾ (آ: ٥٦) والتي راودته هي امرأة العزيز خاصة ، فهي التي راودته في بيتها : وهي قالت « أنا راودته عن نفسه » ، ولكن اتى هنا بصيغة الجمع سترأ عليها ، وقوله تعالى : ﴿ اجعلني على خزائن الأرض ﴾ (آ: ٥٥) أي ناظر خزينة ، وهو وزير المالية ، وفي غير هذه السورة قال تعالى ﴿ وَنَحْنُ الْوَارِثُونَ ﴾ (١٥ : ٥٣) وإنما هو إله واحد ، وقال تعالى : ﴿ رَبِّ ارْجِعُونِ ﴾ (٢٣ : ١٠٠) قال (في فقه اللغة) : « من سنن العرب الاتيان بالجمع مراداً به الواحد ، كما قال تعالى شأنه : ﴿ ما كانَ للمشركينَ أنْ يعمُروا مساجدَ اللَّهِ ﴾ (١٨:٩) ، وإنما أراد المسجد الحرام ، وقال عز سلطانه : ﴿ وإذ قتلتم نفساً فادارأُتم فيها ﴾ (٧٢:٢) ، وكان القاتل واحداً أو هكذا قال في (المقد الفريد) ومثله بقوله جل جلاله : ﴿ نادتهُ الملائكةُ ، وهو قائمٌ يُصلِّي في المحراب ﴾ (٣٩:٣) ، والمراد بالملائكة جبريل فقط وقوله سبحانه : ﴿ إن الذين يُناودونك من وراء الحجرات أكثرهم لا يعقلون ﴾ (٤٩ : ٤) وإنما هو رجل واحد من بني تميم .

وفي القاموس إن « المدائن » هي مدينة كسرى قرب بغداد ، وسميت بذلك لكبرها . والخلاصة ان هؤلاء النسوة المرسل إليهن باسم الضيافة ، لم يطلبن من يوسف شيئاً ، مما يقال عنه « سوء وفحشاء » ، كما طلبت امرأة العزيز ، نعم إنهن يتلاقين معها في نقطة واحدة ، هي الابتهاج بحسن يوسف ، والاعجاب بجماله وجماله ، وإنما قال : « يدعوني » بصيغة الجمع ، سترأ على سيدته زليخا ، فهو لم يرد أن يطعن سيدته في صدرها ، ولكنه لمس حاشيتها فقط ، وذلك لأنه لم يذكر شخصاً في دعائه ، بل لفتها في مجموعة النساء وجنسنهن ، والسامع أدري بمراد المتكلم .

الأحتمال الثاني - وهو انه حينما قال : « يدعوتني » ، لا يصف امرأة العزيز فقط ، ولا يحكي عنها فحسب ، ولا يتكلم عن شخصية هذه المرأة ، وطبيعتها الخاصة بها ، ولا ينعت واحدة مخصوصة ، لأن الأشخاص تفنى وتزول ، وإنما يصف « نوع الإناث » الذي يبقى وبدوم ، يصفه ان هذا شأنه . يصف الحياة النفسية لكل شابة ، ويحكي عن الحالة الغرامية لكل ذات هوى ، هو يتكلم عن النوع بأن شأنه ما ذكر ، وهو دعوتهن للشبان ، شنشنة أخدمية ، وعادة كالطبيعة الثانية ، فكل امرأة لا بد أن يملكها الهوى ، وتؤثر عليها عاطفة الغرام ، نقول « كل » ومرادنا الكل المجموعي لا الجمعي ، والا فيوجد في هذا النوع أفراد ، هن كملائكة الرحمة ، طهارة وقداسة ، وما من عام إلا وخصّص ، فأرجو من السيدات عدم موأخذتي .

الاحتمال الثالث - وهو ان امرأة العزيز دعتة بلفظها المسموع بالأذان ، وأما النسوة المصريات ، فدعونه بسكوتهن على طلبتها . نعم كنّ صامتات ، ولكن نفوسهن الصامتة ، كانت تنطق بلسان الحال ، لسان الموافقة ، فهو سمع نفوسهن الصامتة تتطلب سرّاً ، ما تطلبه زليخا جهراً ، ولكن حلّ السكوت محل الكلام ، « ولسان حالي بالشكابة أنطق » ، « ورب حال أفصح من مقال » . امرأة العزيز نطقت بدعوته صريحاً علناً بجرأى ومسمع من النسوة المصريات ، فلم يثرّ بنّها ، ولم يلد منها ، ولم يضللنها ، كما سبق انهن جرين على ذلك في غيبتها قبل دعوتهن عندها ، وقبلما يرين يوسف وجماله ، فسكوتهن على كلامها ، يعد موافقة لها ، فصار ذلك من قبيل الاجماع السكوتي ، فلهذا نسب يوسف الدعوة اليهن ، وعندى ان إنكار نسبة الدعوة للجميع ، مع سكوت النسوة على كلام زليخا ، هو من قبيل الانكار للاجماع السكوتي ، وإلا فما الفرق ؟ امرأة العزيز تكلمت ورغبت وتوعدت ، والنسوة سمعن هذا المنكر وسكتن عليه وقررنه ، هن لم يؤيدن شرعة

العفاف ، ولم ينكرن الباطل ، فجُعِلن بسكوتهن وإقرارهن مشاركات لها في الدعوة للفحشاء ، وصارت هذه الدعوة بجمعاً عليها إجماعاً سكوتياً من هؤلاء النسوة ، جميعاً ، المتكلمة منهن والسامعات .

وعلى هذا المذهب قوله تعالى : ﴿ إِذْ قَالُوا لَيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَىٰ أَيْنَا مِنَّا وَنَحْنُ عُصْبَةٌ أَخِ ﴾ وظاهران هذا القول لم يصدر من كل فرد من إخوته العشرة ، ولكنه صدر من البعض ، وأقره البعض الآخر ، فنسب لجميعهم ، وكذا زى الله تعالى نقل عنهم انهم قالوا : ﴿ أَقْبَلُوا يُوسُفَ أَوْ اطْرَحُوهُ أَرْضًا ﴾ ، ولم يصدر هذا القول إلا من البعض ، قيل إن هذا البعض هو « شمعون » ، قاله وأقره آخرون من إخوته ، ولم يقله جميعهم ، إذ قال يهوذا : « لا تقتلوا يوسف وألقوه في غيابة الجب إن كنتم فاعلين » ، وسبق النقل عنهم انهم قالوا : « يا أبانا ما لك لا تأمننا على يوسف » وانهم قالوا : « يا أبانا إنا ذهبنا نستبق ، وظاهر ان ذلك لم يصدر عن جميعهم ، وسبق ان « نسوة المدينة » لما رأين يوسف « قلن حاش لله ، ما هذا بشراً » وطبعاً لا بد أن يكون هذا القول إنما صدر من البعض ، لا من الكل ، وهكذا يقال فيما سيأتي من قوله : « قالوا أضغاث أحلام الخ .. » وقوله : « سنراوِدُ عنه أباه .. الخ » وقوله : « قالوا يا أبانا مُنِعَ مِنَّا الكيل .. » الى ما لا نهاية له في كلام الله تعالى من هذا القبيل ، ففني عن البيان ان هذه الأقوال عادة وعرفاً إنما تصدر من البعض ويقرها الباقيون ، وبسبب هذا الاقرار ينسب القول للجميع ، لأن السكوت موافقة واعتراف ، فكيف وقد زاد هؤلاء النسوة على المشاركة السكوتية المشاركة الفعلية ، بالحب والغزل ، فلذلك اعتبر يوسف انهم دعونه جميعاً ، فقال « يدعوتني » ذا كراً انهم دعونه ، ونسب اليهن كيدهن إياه ، لأنه يجب على من سمع أو رأى منكراً أن ينكره وينهى عنه ، فاذا قصر في العظة والإنكار ، كان شريك الفاعل فيما هو بصدده .

الاحتمال الرابع — جرت العادة منذ القديم الى اليوم ان كل عمل وقع من فرد من أفراد «أمة» أن ينسب ذلك العمل للأمة ، وكل فعل صدر من فرد من أفراد «نوع» مثلاً أن ينسب ذلك الفعل لكل النوع ، وهكذا ، جريباً على قاعدة التضامن والتكافل ، فما حصل من شخص من بلد نسب ذلك الحاصل لأهل تلك البلد ، وما صدر من انسان من قبيلة ، نسب ذلك الصادر لتلك القبيلة ، وهلم جرا ، وعليه تتخرج آيات كثيرة في كتاب الله تعالى ، وذلك : كقوله تعالى : ﴿ وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْسًا فَادَّارَأْتُمْ فِيهَا ﴾ (٢ : ٧٢) وقوله تعالى . « وَظَلَلْنَا عَلَيْكُمُ النَّهْمَ ، وَأَزَلْنَا عَلَيْكُمُ الْمَنَ وَالسَّلْوَى ﴾ (٢ : ٥٧) ، وقوله تعالى : ﴿ وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَى لَن نَّصْبِرَ عَلَى طَعَامٍ وَاحِدٍ ﴾ (٢ : ٦١) . وقوله تعالى : ﴿ ثُمَّ اتَّخَذْتُمُ الْعِجْلَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَنْتُمْ ظَالِمُونَ ﴾ (٢ : ٥١) ، وقوله تعالى : ﴿ وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَى لَن نَّؤْمِنَ لَكَ حَتَّى نَرَى اللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذْنَاكُمُ الصَّاعِقَ وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ ﴾ ثم بعثناكم من بعد موتكم ، لعلكم تشكرون ﴾ (٢ : ٥٥ و ٥٦) ، الى غير ذلك مما لا يحصى كثرة ، مما نسبه ليهود المدينة المنورة ، المعاصرين لحضرة صاحب الرسالة (ﷺ) ، مع ان هؤلاء اليهود اليرشليميين المعاصرين للنبي (ﷺ) المخاطبين بهذه الخطابات لم يفعلوا شيئاً من ذلك ، وانما الذين فعلوه آباؤهم ونسبة للذرية لأنهم «أمة» متكافلة متضامنة ، مرتبط بعضهم ببعض بالها وما عليها فهؤلاء اليهود في المدينة كما كانوا عرباً أو متعربين ، وكانوا يفهمون الأساليب العربية التي نزل بها القرآن الكريم لم ينكروا على النبي (ﷺ) شيئاً مما سمعوه ، فهيناً لما دعت زليخا يوسف ، نسب الدعاء لموم هؤلاء النسوة ، اللاتي كن حاضرات إذ ذاك ، والله تعالى أعلم .

ولم تكذ السيدة علية النجفية تنتهي من مقالها حتى قامت السيدة لمياء الدمشقية وقالت :

إنني لا أنتقد الاحتمالات الأربع التي جادت بها אחتي المحترمة السيدة علية ، بل

أسلم بها تسليماً ، ولكن عندي احتمال خامس ، جرى عليه المفسرون قبلنا ، وذلك انه يظهر من قوله : « رب ، السجن أحب إليّ مما يدعونني اليه ، وإن لا تصرف عني كيدهن ، أصب اليهن » ، ومن قوله : « فصرف عنه كيدهن » ، وقوله : « فأسأله ما بال النسوة اللاتي قطعن أيديهن ، إن ربي بكيدهن عليم » — يظهر من هذه الأقوال الثلاثة ، ان النسوة المصريات كنّ دعونه لإطاعة مولاته زليخا ، والنزول على إرادتها ، على ما قاله علماء التفسير ، والقرينة على ذلك هذه النسبة في هذه المواضع الثلاثة . ومن المعروف ان المعنى يلتقط من مجموع الجمل ، المتساند بعضها لبعض ، أقول هذا ، راجية من اختي السيدة عليّة أن لا تؤآخذني ، والعلم مائدة مباركة ، تقتضي المشاركة ، وكلنا يصيب ويخطيء ، ويسرع ويبطئ .

(وإن لا تصرف عني كيدهن ، أصب اليهن ، واكن من الجاهلين)

— ١ —

وقالت الأنسة أميمة الحلبيّة :

استغاثة يوسف بربه لحمايته من الانعطاف للنسوة

يقول الصديق (م) : ها أنذا ، سادافع عن ديني وشرفي ومروءتي جهد طاقتي إلى آخر نسمة من حياتي ، ولكن واخيبة من اعتمد على قواه ، تاركاً مولاه ، فلذلك أسألك يارب أن تمدني بالتوفيق ، وتصرف عني بألطافك مكر هؤلاء النسوة . نعم ، إنني لا أبالي بهن ، ولا بجهاظهن وزينتهن ، ولا أحسب لهن حساباً ، ولا أقضي لواحدة منهن وطراً ، ولا أشعر بانعطاف نحوهن ، وميل اليهن ، ومع كل هذا ، فلست اعتمد في السلامة من فتنهن على نفسي ، بل عليك يارب اعتمد ، وبك أتحصن ، وإليك التجيء ، فإنه لا حول ولا قوة إلا بالله .

فلا تتركني لنفسي فواقاً ، ولا لفتة جيد ، بل ولا طرفة عين ، وإغاساعدي
بألطافك الخفية ، وإلا فأنا في خطر من الوقوع في براثن هؤلاء الثعالب .
حل بيني وبين ختلن ، وأزوعني كيدهن ، وإلا ذهبت عفتي أدراج الرياح ،
وقلت قيمتي التاريخية المعنوية ، كما كانت قلت قيمتي الذاتية ، حينما اشترت في هذه
الديار المصرية ..

أنا الآن أسخر من كل القلوب التي تميل مع الهوى ، وأضحك على كل فتى
شاب ، يستسلم لفتاة شابة ، ولكي أخشى على قلبي ، إن لم يكن محفوظاً بألطافك
الربانية ، وأتخوف على نفسي إن لم تكن محوطة بمصمتك الصمدانية ، وفي الحقيقة
أنت عصمتي التي اعتمدت بها ، وأنت حماي من غوائل الصبوة وشرورها .

يا رب ، إن لم تدركني بالعفة أتق وأميد نحوهن ، وأنعطف عليهن ، وإن
لم تسعفني بحمايتك أفنّ فيهن ، ويجنّ جنوني بهن ، وإن لم تحفني بالعناية ، أقع في
غفوخهن ، وأعلق بشباكهن ، ويصرن عثرة في سبيل طهارتي ونزاهتي ، ويتسلطن
على قلبي ، فإنهن انخطر العظيم ، الذي يحيط بالمرء من كل جانب ، فلا يعرف له
سبيلاً إلى الخلاص منه إلا بموتتك ، وهن المغناطيس الجذاب ، الذي يستهوي
قلب الناظر إليهن ، وعقله وجميع حواسه ومشاعره ، إلا إذا أدركته مساعدتك ،
فأصرف عني ختلن ، ، وردّه في نحورهن ، وإلا ... أميد نحوهن ، وأكن
من المأفونين ، الذين لا يعملون بما يعلمون ، لأن دائرة الشغف (بالجنس اللطيف)
مرنة ، تسع كل من لم يلطف به ربه ، ولم يصرف عنه أسباب الهوى والغرام .

يا رب ، أنا إنسان ، لا مملّك ، حساس ، لا جامد ، في شرح الشباب ،
لا هرم ولا شيخ ، مركب من مادة وروح ، لا روحاني فحسب ، قابل للاقتران
والتناسل ، لا خصي ولا عقيم ، والحاصل أنا بشر كسائر الناس ، وغاية الأمر أنني

معصوم ، ولكن هذه العصمة ليست لي ، ولكنها بك يا الله ، فاحفظها عليّ ، بلطفك الخفي ، فأنت الحفيظ اللطيف .

فهذا الالتجاء ، وهذه الضراعة ، هو كل ما أملك اليوم ، فاستجب لي يا رب ولا تردني خائباً ، فوالله لو ددت أن أكون تراباً ، ولا أسمع من هذه المرأة ما سمعت من كلام الفحشاء والمنكر .

هذا مرمى دعاء يوسف واستغاثته بربه سبحانه وتعالى ، دعاه مخلصاً له ، لاجئاً إليه ، بعد أن عمل بما أمر الله به عباده على قدر الطاقة ، وبعد ما استعمل ما يصل إليه كسبه من الوسائل والذرائع ، التي هي وسائل الاستجابة في الحقيقة ، فهو في الحقيقة دعا ربه بلسان مقاله ولسان حاله معاً ، قال الشاعر :

ليس الشجاع الذي يحمي فريسته يوم القتال ونار الحرب تشتعل
لكن من غض طرفاً أو ثنى قدماً عن الحرام فذاك الفارس البطل

الدعاء الى الله تضرعاً وخفية

تذييل أول — كأني بيوسف (ع) نطق بدعائه وهو يخفض صوته ، احتراماً لمقام الربوبية ، وعملاً بالشرائع السماوية ، كما قال تعالى : ﴿ اُدْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعاً وَخُفْيَةً ، إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ ﴾ (٧ : ٥٤) في بعض وجوه التفسير أن المعتدي هو من يرفع صوته في الدعاء ، وقال ﷺ : « أيها الناس اربعوا على أنفسكم ، إنكم لا تدعون أصم ولا غائباً ، إنكم تدعون سميعاً بصيراً ، وهو معكم ، والذي تدعونه أقرب إلى أحدكم من عنق راحلته » .

الجاهلون هم الفاعلون فعل الجهالة

تذييل ثان — « الجاهلين » هنا الفاعلين فعل الجهالة ، لأن من عمل ما يؤدي

إلى الضرر في العاقبة ، وهو عالم بذلك ، أو ظان ، فهو من أهل الجهل ، لا من أهل الحكمة والعلم ، ومنه قول الشاعر :

على أنها قالت عشية زرتها : جهلت على عمد ولم تك جاهلا

وفي الحديث : « ابن آدم ، أطع ربك تسمى عاقلا ، ولا تعصه ، فتسمى جاهلا » .

استجابة الدعاء

آ (٣٤) ﴿ فَاسْتَجَابَ لَهُ رَبُّهُ ، فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴾ .

افتتحت الجلسة وتليت الآية الرابعة والثلاثون فقام الحاج أحمد اللاذقاني وقال :

(ف) لم يكن إلا بمقدار ما صعدت الدعوة إلى السماء كشرر النار ، وخرقت الحجب ، حتى (استجاب له ربه) — وإنما عبر بالاستجابة التي تقتضي تقديم الدعاء عليها لأن قوله : « وإن لا تصرف عني كيدهن .. الخ » فيه معنى طلب الصرف والدعاء باللطف — (فصرف عنه كيدهن ، وإنه) سبحانه (هو السميع) للدعوات المتجئين إليه (العليم) بأحوالهم وما يصلحهم .

وهنا أيها السادة أزمنا على ترك الكلام المتعلق بهؤلاء النسوة ، وسنأتي على تتمته عند قول يوسف « ارجع إلى ربك فاسأله ما بال النسوة .. الخ » .

(فاستجاب له ربه .)

- ١ -

وقال المرزا حسين الأصفهاني^(١):

أَسْطَلَّ الرَّعَاءَ

دعا يوسف مولاه ، باستكانة وضراعة ، فصعدت كلمته من قلبه الطاهر ،
تطير إلى الأجواء العليا ، حتى قرعت صفحة السماء ، فسمعت الملائكة رنينها ،
وعرضتها على ربه (وهو أعلم بها) فاستجاب له ربه دعاه .

والدعاء قد يكون صريحاً ، مثل « اصرف » و « لتصرف » ، وقد يكون
بالثناء والمدح ، كما هنا ، لأن قوله : « وإن لا تصرف عني كيدهن ، أصب اليهن
وأكن من الجاهلين » ثناء يتضمن الدعاء ، وعلى ذلك قول الفقهاء : « دعاء الثناء » ،
وهو : « سبحانك اللهم وبحمدك ، وتبارك اسمك ، وتعالى جدك ، ولا إله
غيرك » ، و « دعاء الافتتاح » وهو : « وجهت وجهي للذي فطر السموات
والأرض ، حنيفاً مسلماً ، وما أنا من المشركين ، إن صلواتي ونسكبي ومحياي
ومماتي لله رب العالمين ، لا شريك له ، وبذلك أمرت وأنا من المسلمين » ،
ومنه حديث : « أفضل دعاء قلته أنا والنبيون من قبلي ، لا إله إلا الله ،
وحدّه لا شريك له ، له الملك ، وله الحمد ، يحيي ويميت ، وهو على كل شيء
قدير » ، وسبب تسمية هذا كله ونحوه دعاء ان الثناء على الكريم يحمله على الاحسان
كما قال الشاعر في عبد الله بن جدعان :

(١) نسبة الى بلدة أصفهان من البلاد الإيرانية .

أذكر حاجتي أم قد كفاني حباؤك إن شيمتك الحياء
إذا أتني عليك المرء يوماً كفاه من تعرضه النساء

وقال تعالى حكاية عن يونس (ع) : « فنادى في الظلمات : أن لا إله إلا أنت ، سبحانك إني كنت من الظالمين ، فاستجبنا له ، ونجيناها من الغم ، وكذلك ننجي المؤمنين » (٢١ : ٨٨ و ٨٧) وقد سماه النبي ﷺ دعاء ، حيث قال : « من دعا بدعاء يونس استجيب له » ، وفي حديث : « أفضل الذكر لا إله إلا الله ، وأفضل الدعاء الحمد لله » ، وقال تعالى : ﴿ وأيوب إذ نادى ربه : أتني مسني الضر ، وأنت أرحم الراحمين ، فاستجبنا له ، فكشفنا ما به من ضر ، وآتيناه أهله ومثلهم معهم ، رحمة من عندنا واذكرنا للعبدين ﴾ (٢١ : ٨٤ و ٨٣) .

(فصرف عنه كيدهن ، إنه هو السميع العليم) .

- ١ -

وتابع المرزا حسين الأصفهاني قوله :

استجابة دعاء يوسف بصرف كيد النسوة عنه

دعا يوسف ربه ، فما هو إلا أن لفظ آخر كلمة ، حتى استجاب له ربه فوراً ، وفي أسرع ما يكون ، بدون أدنى تأخير ، وسرعان ما يستجيب الله للمخلصين من عباده !

فقال الله له : لبيك ، قريباً دعوت ، فصرف عنه كيدهن حسبما طلب ، وحجز بينه وبين جهنم على ما رغب ، وأطفاً الله نارهن التي كن أوقدنها ، لاستمالة هذا

الصديق الكريم ، فأحس يوسف حينئذ كأنه ألقى عن ظهره حملاً ثقيلاً ، ومن ذلك الحين صار يستهزئ بكل حيلهن ، ولقد قيل : « من يهرب من أمام الحب هو الظافر » .

دعا يوسف ربه ، فأحس بانسباط نفسه ، وارتياح ضميره ، وشعر كأن الأخطار قد زالت عنه ، (وقد ألقى اتكاله على الله) ، ومثل هذه الراحة لا يشعر بها غير أهل الايمان الوطيد ، فان أحدم إذا أحذقت به مصائب العالم تحملها بالصبر وأذهب آثارها بالدعاء والتوجه إلى الله تعالى ، كما كان نبينا ﷺ إذا حز به أمر قام إلى الصلاة ، كما رواه البخاري في صحيحه .

إلى هنا انتهت حادثة تجربة يوسف ، وخروجه من تلك التجربة ، شريفاً طاهراً ناصع الجبين ، فاطمأن حينئذ وطاب نفساً ، وقال في نفسه : (أحمد الله على ما حفي بلطفه ، فإن ما تشتره إليه نفوس الناس ، لا يساوي شيئاً في جانب روح الأبد وراحته) ، وأخذ بعد ذلك يخدم في البيت كجاري عادته ، لكن مع التحفظ التام من زليخا ؛

كيف صرف الله كيد النسوة عن يوسف مع انه سجن بعد ذلك

ورب سائل يسأل ويقول : كيف يمكن أن ندعن بأن الله تعالى صرف عنه كيدهن ، مع أنه سجن وصار من الصاغرين ، كما سيأتي على الأثر ، تحقيقاً لإيادها له بقولها : « واثن لم يفعل ما أمره ليسجنن وليكوناً من الصاغرين » ؟ فالجواب عنه ان سجنه لم يكن نتيجة انه لم يفعل ما أرادت منه ، إذ هي ليس لها دخل في سجنه ، كما سيأتي توضيحه وتدليله ، وإنما كان سجنه برأي « العزيز » وآله ، ورأي آل « زليخا » بدون حضورها ولا أخذ رأيها في هذا الشأن ، لأن سجنه كان لأجل إبعادها عنها ، ولأجل إصاق التهمة به عند الجمهور ، فهم عملوا هذا العمل لأمرين ،

كمن رمى حجراً ، فصاد صيدين ، وهذا سيأتي بيانه بما لا مزيد عليه، وأما توعدّها له بأن يكون من الصاغرين ، فلم يقع ، لأن العبرة بالخواتيم ، وهو في الخاتمة كان من الكبراء المحترمين ، والأعزاء المعظمين ، ولا أدل على ذلك من كونه صار « عزيزاً لمصر » . بدلاً من فوطيفار ، ووزير ماليتها ، ووكيلاً عن مليكها . الأمر الذي به سقط « فوطيفار » ، فسقطت زوجته « زليخا » بسقوطه .

— مرحى —

الفصل الرابع

يوسف في السجن

آ (٣٥) * ثُمَّ بَدَأَ لَهُمْ ، مِنْ بَعْدِ مَا رَأَوْا الْآيَاتِ ،
لِيَسْجُنَّهُ حَتَّى حِينٍ ... *

افتتحت الجلسة وتليت الآية الخامسة والثلاثون فقام العلامة
الصندي وقال :

(ثم) بعد حين من الزمن ، بظن أن مقداره نحو ثلاث سنين ، أعني لما صار عمر يوسف نحو ٢٨ سنة ، تفكروا في هذا الحادث المشؤوم الذي حدث في القصر ، وخافوا سوء معرفته ، وأن يفهم الجمهور أن المرادة كانت من طرف زليخا ، لا من جانب يوسف ، فأرادوا تفشيية الأبصار ، وقلب الحقيقة ، و (بدأ) أي ظهر (لهم) أي للعزيز وأهليه وأقارب امرأته وفي مقدمتهم ذلك

الشاهد الذي هو من أهلها ومع الأسف ان ذلك الذي بدا لهم كان (من بعدما رأوا الآيات) وهي الشواهد على براءته ، وما كان ذلك إلا رعاية لمصلحتهم ، وستراً لما حدث من زليخا ، وقلباً للحقيقة (ليسجننه حتى حين) أي سجننا مؤقتاً روعيت فيه مصلحتهم الشخصية ، بينما يسكت عن زليخا الحب والغرام ، أو لبينا تموت تلك السيرة السيئة ، أو حتى يثبت عند الناس ان الجاني هو يوسف لا غير ، وقد سجن كما أرادوا وأراد لهم ظلمهم واستبدادهم ، لأن السياسة ليس لها قلب ، وليس فيها شيء من الانصاف .

(ثم بدا لهم من بعدما رأوا الآيات ليسجننه حتى حين)

— ١ —

وقال الشيخ منصور السوداني :

لماذا سجن يوسف

لندع نساء مصر وقصتهن ، ونشرع في الافصاح عن الفكرة الجديدة التي طرأت « للعزير ، وذويه :

إن المسألة منذ الآن ستنتقل لدور آخر ، وتتطور تطوراً مدهشاً ، لأن « العزير » قنع قناعة تامة ببراءة يوسف ، وكان هو وقريب زوجته من أنصار هذا « الصديق » الكريم ، فكان مقتضى ذلك أن لا تمس كرامته بشيء ، ولعمري إن هذا العمل الجديد من « العزير » بعد أن اتضحت له الحقيقة لهو منكر جداً ، غير أنه افتر ان المصلحة تقتضي سجن يوسف ، لكي يقول من سمع بالحادث ، أنه سجن لأن المرادة كانت منه ، ولأن سجن يوسف يفرق بينه وبين زوجته زليخا التي وصل حبها له لدرجة قصوى ، وبهذا يستريح « فوطيفار » فلا تشتغل

أفكاره فيها وفيه ، فلهذين الوجهين أراد العزيز أن يمسك بالحبل من طرفيه ، فأقدم على سجنه .

نعم أيها السادة لم يكذب يوسف بتوسم الراحة ، ويحجي الأمل ، بالخلاص من المكاره ، والابتعاد عن حوادث الزمان، حتى بنت بادخاله في السجن ، وكان أمر الله مقدوراً ، ولو شاء ربك ما فعلوه .

خلص يوسف من تهمة امرأة العزيز إياه ، ثم خلس من فتنة النسوة المصريات ودعاربه أن يمنع عنه كيد النساء فلبى طلبه ، فهو بعد ذلك كان يحسب أنه قدذلت كل عقبة في سبيل راحته ، ولم يكن يخطر له على بال انه سيدعى يوماً إلى السجن بعد ما تبرأت ساحته ، ولكن الظلم ليس له حدود تعرف ، وأعمال الاستبداد ليس لها غاية تقف عندها ، وما هو إلا أن تلقى تلك المفاجأة المستغربة التي تستفز النفوس بهدوء وسكينة شأن كل عاقل كريم ، أو شأن كل غريب ضعيف بين حكام ظلمة لا يراعون خالقاً ولا ضميراً .



سجن يوسف سجنًا إدارياً ، عداءً وزوراً ، بحجة أنه الذي تقتضيه مصلحتهم وتستدعيه السياسة ، وكثيراً ما ساقَت هذه الفكرة الادارية الأبرياء والأشراف إلى أعماق السجون ، وقضت عليهم بالاعتقال في « الجزر » تارة ، وتحت بطن الأرض أخرى ، كما قضت على يوسف اليوم ، فسجنوه ليبرءوا ساحتهم ، ويظهروا شرفهم ، على حسابيه ، وعلى حساب ظلمه والاساءة اليه .

سجن يوسف حينما رأى « العزيز » نفسه كحجر بين مطرقتين ، فهو من جهة يريد أن يتستر ، ويخفي قباحة زوجته بحبسه يوسف ، ليقال انه هو المجرم دونها ، ومن جهة أخرى ، هو ما زال يعتقد في يوسف البراءة الكاملة ، كما يعتقد ذلك

فيه صهره الرجل الذي هو من « أهلها » ولكنه لم يعدم حلاً لهذا المشكل ، فرآى أن يسجن يوسف ، ولكن ليس في سجن العامة ، بل في سجن الأمراء والأشراف . وليس سجناً مؤبداً ، ولكن سجناً مؤقتاً إلى حين من الزمن ، ثم يعاد إلى القصر أو يفعل الله ما يشاء .

حالة يوسف عند دخوله السجن

كانت حالة يوسف عند دخوله السجن ، مزيجاً من الحزن والفرح ، فأما الحزن : فلكونه سجن ظالماً محضاً ، ولأنه سينجم عن سجنه سمعة سيئة ، عند من لم يكن مطلعاً على الحقيقة ، وهم الجمهور من الناس . وأما فرحه ، فلخروجه من بيت « فوطيفار » بيت الفتنة والآتاب ، إلى بيت العزلة والراحة ، قائلاً في نفسه : « حنانيك بعض الشر أهون من بعض » ، فهو لذلك كان مسروراً (نوعاً) ، لا سيما وان سجنه كان على نوع ما بسبب دعائه وطلبه إذ كان قال : « رب السجن أحب إلي مما يدعونني إليه » (آ : ٣٣) دخل السجن وهو ساكت صامت ، مع ان سجنه كان بدون إقامة دعوى ، ولا إثبات ريبة ما عليه ، ولكنه ماذا يصنع ، وخصمه حاكمه ؟ !



قضي الأمر وسُجن يوسف ! وصبر على هذه المصيبة التي نزلت به ظمناً وعدواناً ، صبر مترقباً من الله فرجاً قريباً ، وخلصاً عاجلاً ، فلا بد من تغير الأحوال ، وان للدهر لدورة ، ولئن سكت الانسان ، فالدهر لا يسكت ، قال الشاعر :

كن حليماً إذا بليت بغيظ وصبوراً إذا أتتك مصيبة
فالليالي من الزمان حبالى كل يوم يلدن كل عجيبة

نتائج سجن يوسف

'قضي الأمر وسُجن يوسف ! ولقد كانوا ظالمين له بسجنه ، ولذلك وقعت عاقبة ظلمهم على رؤوسهم ، فأما « العزيز فوطيفار » فانه نُحّي عن منصبه ، بجلوس يوسف الصديق محله ، بدليل ما نقرؤه في هذه السورة الشريفة، من أخذ يوسف لقب « العزيز » بعد ما كان لقباً لفوطيفار ، حتى أنه بعد ما أعطي يوسف «وزارة المالية » بمصر ، لم يرد ذكر لفوطيفار البتة ، بل أميت اسمه تماماً ، وأما « امرأة العزيز زليخا » فانها اضطرت أخيراً للاعتراف صريحاً أمام « مندوب » التحقيق ، فأعلنت أنها هي التي راودته عن نفسه، فكان في ذلك انكشاف سرها ، واتشاره لدى الجمهور .



قضي الأمر وسُجن يوسف ! وكان سجنه هذا هو « الحلقة الأخيرة » من سلسلة ما انتابه من خطوب ، فمن فقد أم رؤوم ، إلى عيشة بين إخوة حسدة ، إلى إلقاء في غيابة جب ، إلى تشريد واسترقاق ، إلى بيع في سوق الرقيق ، إلى خدمة وعبودية ، إلى تلويث عرض بلا حق ، إلى غياهب السجن . ويمكن أن نعتبر أن سجن يوسف هذا هو « الحلقة الأولى » من سلسلة أسباب رقيه لوزارة المال بمصر ، وانه « النواة » التي أنبتت شجرة شهرته بالعلم ، ثم جاءت « ثمرة » رقيه العظيم .



قضي الأمر وسُجن يوسف ، ولكن كان هذا الاعتقال بحسب النتيجة مفيداً له ، وذلك بسبب تعرفه في معتقله برئيس السقاة الذي أفاده الفائدة العظمى ، والذي كان خروجه من « مطبقة » بسببه ، كما كان بواسطته قد وقف مليك مصر « الريان » .

على ترجمة حال يوسف وفضله ، وأنه سجن عدواناً وهذا بخلاف ما لو بقي يوسف في قصر العزيز « فوطيفار » منعماً مرفهاً ، فإن ذلك لا يفيد شياً ، ولا بقي في القصر ضعف ما لبث في السجن ، واقد صدق من قال : « رب محنة ، ضمنها منحة » فعزير مصر ، وإن يكن باقتصاره على قوله : « يوسف أعرض عن هذا » بدون أن يبعده عن القصر لقصر آخر — يكون قد أساء ليوسف ، لأنه لم ينحه عن مواقف التعب . كما انه بالعكس بفكرة سجنه إياه يكون قد أحسن إليه ، بحسب العاقبة ، وعليه فهو ما أساء إلا حيث ظن الاحسان ، وما أحسن إلا حيث ظن الاساءة .

(ثم بدأ لهم من بعدما رأوا الايات ليسجننه حتى حين)

— ٢ —

وقال السيد عبد المحسن الصيداوي :

لي ههنا ملاحظات تسع :

متى سجن يوسف

الملاحظة الأولى : التعبير بكلمة « ثم » يفيد أنه كان مضى زمن بعد تلك الحادثة المشؤمة ، وكان هذا الزمن ليس بالقصير ، أي بعد ما مضى ما شاء الله أن يمضي من زمن فيه شيء من الطول ، فبدت لهم فكرة الحبس .

مرادفات لفظ « بدأ »

الملاحظة الثانية — من مرادفات « بدأ » : عرض ، ظهر ، خطر ، لاح ، بان ، حدث ، عان ، طراً ، فمن التعبير « ثم » ومن هذه المفردات جميعها التي هي مرادفة

« لبدا » نعلم أن فكرة سجنه لم تكن حاصلة على أثر تلك الحوادث ، ولكن بعدما مضى ربح من الزمن ليس باليسير عرض لهم استحسان سجنه .

من هم الذين « بداهم » سجن يوسف وهل لامرأة العزيز دخل في ذلك

الملاحظة الثالثة — تعلم من كلمة « لهم » ان الذين استحسنا سجنه كانوا جماعة ولعلم فوطيفار وذووه ، ونظن أن فوطيفار جمع ذوي قرابته وقرابة زوجته وذاكرهم في شأن يوسف وسجنه ، فرأوا جميعاً ان المصلحة تقضي ذلك .

ولسائل أن يسأل : هل لامرأة العزيز دخل في سجن يوسف وانما اشتركت معهم في المؤامرة ! والجواب ان جمهور المفسرين أو جميعهم فهموا أن لها ضلماً ورأيا في سجنه ، بل هي التي كانت مهيجة وحاملة عليه ، بقرينة قولها سابقاً : « ولئن لم يفعل ما أمره ليسجنن وليكونا من الصاغرين » .

وأما نحن فيظهر لنا أن لا دخل ولا رأي لامرأة العزيز في سجن يوسف ، وأما توعدا إياه سابقاً بالحبس ، فانما هو من قبيل أقوال العشاق ، الذين هم كالشعراء يقولون ما لا يفعلون .

ولكن هذا الرأي حدث جديداً لنفس فوطيفار عزيز مصر ، ومن اليه من ذوي قرابه ، وذوي قربي زوجته ، ولنا على هذا عدة أدلة :

١ — قوله تعالى « بدا » لأن فكرة سجنه إنما بدأت في ذهن فوطيفار وذويه دون امرأته ، وأما امرأته فان فكرة سجنه لم تكن بدأت جديداً في ذهنها ، بل هي بالنسبة اليها فكرة بعيدة العهد قديمة ، اختلجت في ذهنها مرة ، إذ قالت : « ما جزاء من أراد بأهلك سوء إلا أن يسجن ، أو عذاب اليم » ، وثانية إذ قالت : « ولئن لم يفعل ما أمره ليسجنن وليكونا من الصاغرين » فهذه كانت فكرة شخصية فردية تردت في ذهن زليخا قبل الوقت الذي ظهر لهم فيه استحسان سجنه .

٢ — إن الله تعالى قال : « فصرف عنه كيدهن » ، فحيث أنه أبعد عنه مكر الماكرات ، لا جرم ان امرأة العزيز لا دخل لها في سجنه ، بل هي بهذا الصرف السماوي ، تحولت هي وغيرها من مفسدات على يوسف ، لمسعدات له ، ولذلك سيأتي أنهن لم يتكلمن في شأنه إلا بالجميل الطيب ، حيث قلن ، « حاش لله ، ما علمنا عليه من سوء » ، وتقول امرأة العزيز ، « الآن حصحص الحق ، أنا راودته عن نفسه ، وإنه لمن الصادقين » .

٣ — إن امرأة العزيز بظهور خيانتها سقطت من نفس العزيز ومن اليه ، فكيف فيما بعد يستأمنها ويشار كها في ماذا كرة حبس يوسف ، ولا سيما وأن سجنه كان لأغراض منها إبعاده عنها ؟ . .

فيظهر من هذه الأدلة أن ليس لامرأة العزيز ضلع في سجن يوسف ، خلافاً لما ذكره المفسرون .

هذا ، ومع كل ما ذكر ، يحتمل أن يكون لزيلخا دخل في سجن يوسف ، وأن صرف « كيدهن » عنه إنما هو من جهة ما عيس العرض لا مطلقاً .

سجن يوسف كان بعد حادثة دعوة النسوة وخروجه عليهن

الملاحظة الرابعة — نرى أن العزيز وذويه لم « يبد » لهم أن يسجنوا يوسف بعد الحادثة الأولى التي جرت بين يوسف والتزيه وزليخا الطموحة ، وذلك لأنها حصلت في دائرة السكون وتحت طي الخفاء تقريباً ، وقد « بدا » لهم سجنه في الحادثة الثانية بسبب ما وقع للنسوة ثم لتصميم زليخا بكل شدة على فكرة المراودة — تكراراً — مما كلف الأمر إذ بعد المفاوضة ظهر لهم أن المصلحة العمياء والسياسة الخرقاء تقتضي سجن يوسف ، فسجنوه ، وعلى العدالة السلام ، و « إن من الحسن لشقوة » .

الاستقلال الاداري لامراء ووكلاء الدولة المصرية في عهد مليكها الريان

الملاحظة الخامسة — يظهر من قرائن الأحوال ، ومن أمثال هذا المقال ، أن الأمراء ووكلاء الدولة في مصر ، في ذلك العهد ، كانوا متمتعين بما يشبه « الاستقلال الإداري » ، فكان كل مأمور في الحكومة يجلس ويطلق ، حسبما تسول له نفسه ، ولذلك حبس يوسف بمجرد إرادة فوطيفار عزيز مصر ، فهو فاه بكلمة « ليسجن » فكان مسجوناً ، بدون علم مليك مصر الريان ، وبلا إقامة دعوى وثبوت جرم .

دعوى امرأة العزيز هي من قبيل دعاوى التهم

الملاحظة السادسة — نعلم أن دعوى امرأة العزيز هي من قبيل دعاوى التهم ، ونعلم أن المدعى عليه في هذا النوع ينقسم الى ثلاثة أقسام ، فان المتهم إما أن يكون « برّاً » ليس من أهل أمثال تلك التهمة ، أو « فاجراً » من أهلها ، أو « مجهول » الحال ، لا يعرف الوالي أو الحاكم حاله .

فان كان « برّاً » لم تجز عقوبته اتفاقاً ، ولكن بالعكس ان الذي يعاقب هو المتهم . فيعاقب صيانة لتسلط أهل الشر والعدوان ، على أعراض ذوي البراءة ، وإن كان المتهم معروفاً بالفجور . كالسرقة وقطع الطريق والقتل نحو ذلك ، حُبس ، وكذلك اذا كان المتهم مجهول الحال ، لا يعرف ببر ولا فجور ، فانه يجلس حتى ينكشف حاله ، ويتبين للحاكم أمره ^(١) .

وغني عن البيان أن المدعى عليه هنا وهو يوسف هو من القسم الأول ، أي أهل « البر » الذين لم يعرف لهم عدوان ، فقد مكث في بيت العزيز نحو العقد من

(١) ملخصاً من الطرق الحكيمة .

السنين لم يجترم فيها جريمة قط ، ولم يتهم بخيانة ، فيكون حبسهم اياه — على حسب هذه الشريعة — ظلماً محضاً ، وكان يجب اجراء العكس ، وهو حبس تلك المرأة التي اتهمته زوراً تأديباً لها ولأمثالها الشريرات أن يجسرن على أهل الفضل والدين ، ولكن العزيز وما اليه اعتبروا يوسف من القسم الثالث وهو من كان « مجهول الحال » فسجنوه .

بعض الانبياء والصلحاء الذين سجنوا

الملاحظة السابعة — هذا السجن الذي صار على يوسف يذكرنا بسجن « يحيى الحصور » (ع) لأن سجن يوسف كان بسبب رفضه الزنا ، وكذلك كان سجن « يحيى » بسبب اعتراضه على « هيرودس » لأنه لم يترك خطية الزنا مع « هيروديا » ، ويذكرنا بحبس « أبي حنيفة » أيام « المنصور » وحبس « الامام أحمد » أيام « المعتصم والواثق » وبجس شيخنا « الشيخ عlish » وشيخنا « الشيخ حسن العدوي » في الحادثة العراقية .. والخ والخ

نحس يوسف وهو في السجن

الملاحظة الثامنة — كأنني بيوسف لما سجن أمسى يقول : أوهِ . أوهِ . أوهِ ! اليوم يشاع عني ما لا ينبغي ذكره ، ولا يليق بسمعتي ، فإننا لله ، كانت إخوتي تريد القضاء على « حياتي الجسمانية » والآن وقعت فيما ربما يقضي على « حياتي الأدبية والأخلاقية » ، فما من يوم يمضي الا والذي بعده شر منه ، سلمت من الرماد فوَقعت في ذات الحجر ، فان موت الجسم ، أهون جداً من موت الشرف .

أوهِ . أوهِ . أوهِ ؟ إخوتي في بلهنية وترف عند أيهم ، وأنا أتقل من جب ، لبلاد غربية ، لسوق بيع الرقيق ، لبيت الخدمة والاستعباد ، وأخيراً لأعماق السجون !!! ...

ذو العقل يشقى في النعم بعقله وأخو الجهالة في الشقاوة ينعم

مكان سجن يوسف

الملاحظة التاسعة — قيل كان سجنه في « بوسير » من أرض مصر ، وأعمال « الجزيرة » في أول « الصعيد » من ناحية مصر (١) وأما العاصمة في ذلك العصر ، فهي « صوعن » ويقال لها « تانيس » وهي في بحرية مصر الحالية ، وكانت على فرع النيل الطائي ، وإلى شرقها البلاد الشرقية ، بلاد « جاسان » .

السجن في زمن النبي والصحاب

الملاحظة العاشرة — على ذكر « السجن » — والشيء بالشيء يذكر — تذكر أنه لم يكن الحبس في زمن النبي ﷺ هو الحبس في مكان ضيق مجبول لذلك خصيصاً ، كما هو الحال اليوم ، وإنما هو تعويق الشخص ومنعه من التصرف بنفسه ، سواء أكان في بيت أو مسجد ، أو كان يتوكل الخصم أو وكيله عليه وملازمته إياه ، ولهذا سماه النبي ﷺ « أسيراً » أو باقامة حافظ عليه ، وهو الذي يسمى « الترسيم » ، وهكذا كان الحال في زمن أبي بكر (رض) فلم يكن له محبس معد لحبس الخصوم ، ولكن لما انتشرت الرعية في زمن عمر بن الخطاب (رض) ابتاع بمكة داراً ، وجعلها سجناً يحبس فيها ، وهي دار صفوان بن أمية ، اشتراها عمر بأربعة آلاف درهم وجعلها حبساً (٢) ، وقد اتخذ معاوية بن أبي سفيان السجن سنة (٥٠) هـ ، وأما سجن يوسف . فاسمه في العبرانية « السُّهَر » ومعنى هذه الكلمة برج مستدير كان يسجن فيه ، وكان جزءاً من « الثكنة » التي كان فيها

(١) معجم البلدان .

(٢) ابن القيم

« فوطيفار » بالنظر الى كونه « رئيس الشرط » ، هذا مافتح الله به على عبده
الحقير ، وفوق كل ذي بصارة بصير .
مرحى

ثم بدا لهم ، من بعد ما رأوا الآيات ، ليسجننه حتى حين

— ٣ —

قال العلامة البيروني :

ماهي الآيات التي أدت الى سجن يوسف

رب سائل يسأل ماهي هذه الآيات التي رأوها ؟ وكيف رأوها ؟ فنقول انهم
رأوا بعضها رأي العين وبعضها رأي الأذن وبعضها رأي العقل والتجربة ، فها
رأوه رأي العين كون القميص قدّ من دبر ، وما رأوه رأي الأذن اعترافها أمام
النسوة يوم أن دعتن بانها هي التي راودته عن نفسه فاستصم ، وما رأوه ، رأي
العقل والتجربة هو ماجربوه على يوسف من حسن السلوك وكرم الاخلاق
والأمانة في العمل ، حينما كان في القصر وكيلاً عن العزيز في وارداته ، ومصروفاته ،
فهذه ثلاث آيات ، والآية الرابعة انها لم تدافع حين قال « الشاهد » : « وإن كان
قميصه قد من دبر فكذبت وهو من الصادقين » بان تقول مثلاً : « هذا لا يدل دلالة
قطعية على كذبي وصدقه ، وعلى أنني كنت تابعة له من ورائه ، لاحتمال أنه عثر في
مقادم قميصه حين إسرعه فانقد » أو تقول : « إنه قصدني وطلبني فغضبت عليه ،
فهرب ، فعدوت خلفه وجذبت له كي أضربه ضرباً موجعاً ، فتمزق قميصه من دبر ،
فأنا البريئة وهو المجرم » ، فلما لم تقل ذلك ، تبين أنها هي الطالبة للفحشاء .

والآية الخامسة سكوتها حينما سمعت قول العزيز : « إنه من كيدكن ، إن
كيدكن عظيم » وقوله : « استغفري لذنبك إنك كنت من الخاطئين » ، فسكوتها

وعدم دفاعها عن نفسها حينما سمعت هذا القول هو آية باهرة على براءة يوسف كما قيل « السكوت إقرار » .

والآية السادسة هي ما كان يلوح على وجه امرأة العزيز نحو يوسف من الحب في بحر هذه المدة ، ثم ما كان يلوح على وجه يوسف نحوها من العفة ، قال « لاروشفوكو » : « ليس شيء يستر الحب حيث يكون ، ولا شيء يظهره حيث لا يكون » .

والآية السابعة : قوة شكيمتها بقولها : « ما جزاء من أراد بأهلك سوءاً إلا أن يسجن أو عذاب أليم » ، فقد قالوا : « إن للمبطل صولة وللكاذب دولة » وفي الحديث : من آيات المنافق : « وإذا خاصم فجر » . فهي صالت بهذا القول وفجرت ، ولكن يوسف اقتصر على مجرد قوله : « هي راودتني عن نفسي » ، فتلك الاستطالة وتزويق الطمن مع هذه المدافعة البسيطة الموجزة لهي من الآيات التي تميز المحق من المبطل .

الآية الثامنة : شكل عيونها وهيئتها وقت التكلم ، على حد ما قال عبد الله بن المعتز :

تفقد مساقط لحظ المريب فان العيون وجوه القلوب
وطالع بواده في الكلام فانك تجني ثمار الغيوب
وقول مجنون ليلى :

وكيف يفوت هذا الناس شيء ومافي الناس تظهره العيون

وكثيراً ما كشفت العيون ما حاول صاحبها ستره من الأسرار النفسية ، والقضاة اليوم يستعينون بها على كشف الجرائم وقد قيل : « قلب الانسان في عينيه ، فما عليك إلا أن ترى وتقرأ » وقال بعض الحكماء ، « متى كلمتك المرأة ، فاسمع ما تقوله عينها » .

حكى أنه تقدم للقاضي أياس بن معاوية أربع نسوة ، فقال أياس « أما إحداهن
فحامل ، والأخرى مرضع ، والأخرى ثيب ، والأخرى بكر ، فنظروا فوجدوا
الأمر كما قال ، قالوا : كيف عرفت ؟ - قال : « أما الحامل فكانت تكلمني وترفع
ثوبها عن بطنها ، فعلت أنها حامل ، وأما المرضع فكانت تضرب ثديها ، فعلت أنها
مرضع ، وأما الثيب ، فكانت تكلمني وعينها في عيني ، فعلت أنها ثيب وأما البكر ،
فكانت تكلمني وعينها في الأرض ، فعلت أنها بكر ، (١) .

الآية التاسعة : اصفرار وجهها دون احمراره كما حكاها بعض المؤرخين ، ومعنى
هذا أن المرأة اذا خافت اصفر وجهها ، وهذا يكون حينما تكون مقهورة ، وإذا
لم يكن لها دخل فيما يستحى منه خجلت وهذا فيما اذا لم تكن مقهورة .

الآية العاشرة : حالتها النفسية ، ولا ريب أن الناس يتفاهمون ببواطنهم أكثر
مما يتفاهمون بظواهرهم وإن لاح لنا أن الأمر خلاف ذلك ، لطول عهدنا باستخدام
اللغة في الإعراب عن مرادنا ، فما اللسان إلا الموضع والمفسر لما عساه أن يبهم على
السامع من يحمل سر المتكلم ومما قد تحتويه أفكاره ، ولا يمكن أن تعبر عنه تمام
التعبير ألفاظه ، والحاذاق لا يمول فيما يراه من رضى صاحبه أو غضبه ، ومن صدقه
أو مكره ، ومن أمانته أو خيانتها - على شيء غير ما يتفرس في أسارير وجهه
وغمزات طرفه وحركات أعضائه .

فجملة الآيات هذه ، على حسب ما فهمناه واستخرجناه ، عشرة ، ولهذا أتى
بصيغة الجمع فقال : « من بعد مارأوا الآيات » .

ذلك أن تقول إنها آية واحدة فقط ، هي آية القميص ، وإنما جمعها على طريقة

العرب وسنتهم من الإتيان بالجمع مراداً به الواحد ، كما تقدم مبسوطاً مثلاً موضعاً في خطاب أختنا السيدة علية النجفية حفظها الله، في خطابها على قوله تعالى « يدعوتني إليه ، فانظروا إن شئت .

فالقوم من بعد ما رأوا تلك الآيات ، ومن بعد ما تبين لهم الخيط الأبيض من الخيط الأسود ، واتضح لهم براءة يوسف تماماً ، وارتاح ضميرهم من هذا القبيل — من بعد ذلك كله سجنوه ، ظلماً وعدواناً ، فصدق عليهم أنهم صرعوا البرهان بالسلطان ، وصادموا الحق بالقوة ، وقابلوا الآيات التيرات ، بالسجن في أعماق الظلمات ، كان هذا كله وهم يعلمون أنهم ظالمون معتدون ، ولكن هل تظنهم بعد ذلك أصغوا لنداء ضميرهم؟.. كلا.. فانهم لو صفوا لما تأثروا على اعتقاله ساعة واحدة. على أنك لو سبرت غور قلوبهم لرأيتهم يناجون أنفسهم بشبهة أنهم عمدوا إلى ذلك، ليقال ان المرادة كانت منه لا منها ، ولإخاد ثورة الحب بالتفريق بين الحب والحبوب يناجون أنفسهم بذلك ، ليدفعوا تبكيت ضمائرهم فهذا الاعتقال هو أشبه بما يسمونه اليوم « اعتقالاً إدارياً سياسياً ، يرتكز على القوة ، لا على الحق .

وهم لم ينووا أن يسجن مؤبداً ، ولكن « حتى حين » أي الى زمان انقطاع القالة ، أو إلى أن تزول حرارة الحب ودواعيه ، أو إلى مدة يرون فيها رأيهم ، أو إلى مدة يفعل الله فيها ما يشاء ، وعلى كل فليس هذا من قبيل ما يسمونه اليوم « التوقيف المؤقت » الذي يكون عند ما يكون الحاكم مشغولاً عن تسجيل الفصل بين المتخاصمين ، أو يكون عنده حكومات سابقة ، فيسجن المتهم من حين يُطلب إلى أن يفصل بينه وبين خصمه ، ولكن هو كان للأسباب أو لبعض الأسباب التي قدمناها ، والله تعالى أعلم .

سجن الفتيين ورؤياهما

آ (٣٦) * ودخل معه السجنَ فتيان ، قال أحدهما :
 إنِّي أَرَانِي أُعْصِرُ خَمْراً ، وقال الآخرُ : إنِّي أَرَانِي أُحْمِلُ
 فوقَ رأسي خُبْزاً تَأْكُلُ الطيرُ منه ، نَبَّئْنَا بِتَأْوِيلِهِ ، إِنَّا
 نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ . *

افتتحت الجلسة وتليت الآية السادسة والثلاثون فقام السيد
 الطنطاوي (١) وقال :

لقد تقدم أنهم سجنوا يوسف (و) صادف أنه (دخل معه السجن فتيان)
 عبدان للملك الريان مستخدمان عنده ، وهما رئيس السقاة « نبو » ورئيس الخبازين
 « ملحج » (٢) ، ترقى اليه أنها يسمانه أو أنها دخلا في الموامرة على خلعه ، فحبسا
 ساعة حبس يوسف عليه السلام ، ثم بعد زمن رأى كل منهما رؤيا ، فأرادا أن
 يقصا ما رأيا على يوسف ف (قال أحدهما) وهو (نبو) رئيس السقاة ، بلسان
 المستفهم المستفتي (إنِّي أَرَانِي) في المنام (أعصر خَمْراً) أي عنباً ، تسمية للعنب بما
 يؤول اليه — وقال الزجاج وابن الأنباري : « العرب تسمي الشيء باسم ما يؤول
 اليه إذا وضع المعنى ولم يلتبس ، يقولون فلان يطبخ الآجر ويطبخ الدبس ، وإنما
 يطبخ اللبَنَ والمصير ، وقال قوم إن بعض العرب يسمون العنب خَمْراً ، لقي
 بعضهم أعرابياً معه عنب ، فقال له : « ما معك ، قال خمر » ، وفي قراءة عبد الله :

(١) نسبة الى طنطا من البلاد المصرية .

(٢) وفي رواية يسمى « ملحج » .

« إني رأيتني أعصر عنباً » - (وقال) الفقى (الآخر) وهو « ملحب » رئيس الخبازين (إني أراني أحمل فوق رأسي خبزاً تأكل الطير منه) ، فرجاءً واطفاً (نبثنا بتأويله) ، أي بعاقبة ما قصصناه عليك (إنا نراك من المحسنين) الذين يحسنون عبارة الرؤيا ، أي يجيدونها ، كأنها رأياه يقص عليه بمض أهل السجن رؤياه فيؤولها له ، فقالا له ذلك ، أو رأياه من العلماء ، لأنها سمعاه يذكر للناس ما علما به أنه علم ، أو رأياه من المحسنين لأهل السجن ، فقالا له أحسن إلينا بأن تفرج عنا الغمة بتأويل ما رأيناه إن كانت لك يد في تأويل الرؤيا .

وقد قيل كان يوسف يُطرفهم في السجن بالحكايات النادرة المثال ، ويشنف آذانهم بالعظات ، وإن أصاب بعضهم انحراف صحي عاجله ، فكان عوناً لهم في السجن على المصائب ، ومجنناً يدفعون به أحزانهم ، وبالجملة كان يحتفي بالمسجونين ، احتفاءً يليق بهم ، ويخفف من وطأة سجنهم ، وشدة عنائهم .

إن وجوده في السجن وكدره من الحيف والظلم الذي وقع عليه ، لم يمنعه من اكتساب جميل الذكر ، ولا قطعه عن اغتنام جليل الشكر ، ولا حال بينه وبين استعمال الاحسان إلى أهل السجن ، لا سيما هذان الفتيان اللذان عهد إليه بهما .

وهاتان الرؤيان هما من قبيل الرؤى الصادقة المعتبرة التي لها تأويل ، لأن الرؤيا الصادقة المعتبرة لا تتوقف على دين ، بل تقع لمن يكون وثياً واجهداً وفاسقاً ، ولذلك اعتبرها يوسف وأولها لها .

(ودخل معه السجن فتيان)

- ١ -

قال الامام الدمشقي :

مرهما الفتيان السجينان مع يوسف وما سبب سجنهما

كان « عزيز مصر » صمم على سجن يوسف ، ولكنه - مع ما في الحكومة من الاستبداد والفوضى - كان يتخوف من الملك « الريان » أن يسأله عن سبب سجنه إياه ، فاتفق أن الملك أصدر إرادته بسجن شخصين من مستخدميه أحدهما ساقيه وصاحب شرابه واسمه « نبو » ويقال له « رئيس السقاة » والآخر خبازه وصاحب طعامه واسمه « ملحب » ويقال له « رئيس الخبازين » ، فانهز « العزيز » الفرصة ، وحبس يوسف معها ، وأقامه عندهما ليخدمهما ، وليقوم بمصالحهما في السجن ، فقام بما أسند إليه أحسن قيام ، وعمل كل ما نيط به على أتم الوجوه .

والسبب في سجن الفتيين ، الساقى والخباز ، هو أنه يظن أن زمن الملك « الريان » الذي هو من الهكسوس ، كان زمن اضطراب وضعف في السلالة الخامسة عشرة ، ويظن أن « الملك الريان » كان هو الأخير أو قبل الأخير منها ، وأنه كان حصل تواطؤ بين بعض أشرف مصر الوطنيين ، وبين هذين الفتيين ، لأجل نقل الملك من الغرباء إلى الوطنيين ، أو أن التواطؤ كان حصل بين السلالة السادسة عشرة من الهكسوس وبين هذين الفتيين ، لأجل نقل الملك من فخذ إلى آخر ، أي من السلالة الخامسة عشرة إلى السلالة السادسة عشرة .

وقيل ان « نبو » رئيس السقاة ، اتهم بدس السم في شراب الملك ، وان « ملحب » رئيس الخبازين ، اتهم بدس السم في خبزه ، لذا أمر بسجنهما .

وهنا بدا لي الملحوظتان التاليتان في هذا الصدد :

غاية عزيز مصر من سجنه يوسف مع الفتيين

الملحوظة الأولى — كأني بعزيز مصر رمى حجراً فصاد طيرين ، قصد بسجن يوسف أن يظهر للناس انه سجنه تأديباً له ، لأن المراودة كانت من جانبه لا غير ، كما قصد أن يقوم في السجن بخدمة رئيس السقاة ورئيس الخبازين ، لأنها وطنيان وعزيز مصر وطبي أيضاً ، وهو إذا سئل من قبل الملك « الريان » عن ذلك لا يعدم جواباً مرضياً أن يقول له إنني أرسلته للسجن لأجل أن يكون عيناً على هذين الرجلين اللذين هما ضد الملك .

كما أنه أرسل سهماً فأصاب صيدين ، حينما أمر يوسف بخدمتها في الحبس ، لأنه قصد إذلال يوسف ، وقصد إكرام الفتيين ، لأنها مثله وطنيان ، ولما ذكر كله كان دخول يوسف في المعتقل في الساعة التي دخله فيها هذان الرئيسان ، من بطانة الملك وحاشيته .

« الفتى » « والرب » في اصطلاح المصريين أيام يوسف

وهكم في الشرع الـمـلـمـي

الملحوظة الثانية — نعم من قوله : « ودخل معه السجن فتيان » ومما سيأتي من قوله : « أما أحدكما فيسقي ربه خمراً » ان اصطلاح المصريين الذي كان أيام يوسف ، وجرى هو عليه — هو أنهم كانوا يطلقون كلمة « فتى » على المستخدم في الحكومة كما تطلق على « العبد » كأن المستخدم في نظر الملك عبد من عبيده ، وأنهم كانوا يطلقون كلمة « رب » على « الملك » كما تطلق على « المالك » ، كأن

الملك في نظر الرعية بمنزلة « الرب » أو هو الرب بمعنى المالك أو المربي لرعيته
بضمه وحدوده .

هذا هو عرف المصريين القدماء في عصر يوسف أما تسميتهم المستخدم في
الحكومة أو تسميتهم العبد « فتى » فهو أدب حسن ، أقره الشرع الاسلامي وحسنه ،
وأما تسميتهم الملك أو المالك « رباً » فهي عنه الإسلام في آخر الأمر ، وأرشدنا
أن نسمي الملك كالمالك « سيداً » .

وفي صحيح مسلم من حديث أبي هريرة : « لا يقولنّ أحدكم : عبدي ،
فلكم عبيد الله ، ولكن ليقل : فتاي ؛ ولا يقل العبد ربي ولكن ليقل سيدي »
وفيه أيضاً من حديث أبي هريرة : « لا يقل أحدكم اسق ربك ، أطم ربك ،
وضى ربك ، ولا يقل أحدكم ربي ، وليقل سيدي ومولاي ، ولا يقل أحدكم :
عبدي ، أمي ، وليقل : فتاي ، غلامي » .

(قال احدهما : إني أراني أعصر خمراً ، وقال الآخر : إني أراني أحمل ... الخ)

— ١ —

وقال الاستاذ السامرائي (١) :

رؤيا الفتيين

بعد ما دخل يوسف السجن مع الفتيين ، لم يلبث الفتيان أن رأى كل منها
حلمها في ليلة واحدة ، فدخل يوسف اليها في الصباح على جاري عادته ، لأنه
كان يخدمها بأمر سيده فوطيفار ، فاذا هما مغتبان ، فسألها: ما بالهما ، ولماذا وجهها
مكدان ؟ — فقالا له : « حلمنا حلمنا وليس من يبره » ، قالا ذلك ، لأنه كان في

(١) نسبة الى سامراء من بلاد العراق .

ذلك العصر رجال ، يعلمون تفسير الأحلام ، ويتخذون ذلك عملاً خاصاً ، وكانوا يسمون سحرة وحكماء ، ولم يكن أحد منهم في السجن ، ليُفسر لها حلميها ، ولكن يوسف نفي حصر القدرة على تفسير الأحلام في أشخاص مخصوصين ، وأثبت أن ذلك فضل الله يهبه لمن يشاء ، من أهل الذكاء وأصحاب القياس ، فقال لهما : أليست التعمير لله ؟ ، قصاً عليّ ما رأيتهما - قصص رئيس السقاة « نبو » حلمه على يوسف وقال له : « بأبي أنت وأمي ، نمت الليلة ، فشعرت براحة وسرور ، وهدوء في نومي ، ورأيت أمامي كرمة ، وفي الكرمة ثلاثة أغصان ، وهي مفرخة ، قد طلع زهرها ، وأنضجت عنا قيدها عنباً ، وكانت كأس الملك الريان في يدي ، فأخذت العنب ، وعصرته في كأس الملك ، وسلمته الكأس في يده ، فأفدني تأويله . أمتع الله بك ، وخلاك ذم . »

ثم قص رئيس الخبازين « ملحج » حلمه قائلاً : « نمت الليلة فشعرت بقلق واضطراب وتشنت فكر ، ولم أذق في ليلتي رقاداً هنيئاً ، وبينما كنت نائماً ، رأيتني أحمل على رأسي ثلاثة سلال مملوءة خبزاً حواري ، وفي السلال الأعلى أنواع من الخبز مما يصنع للملك الريان ، والطيور تأكله من السلال عن رأسي . »

هذا منام الساقى والخباز وهذا كلامها ، ثم قال أحدهما ليوسف وهذا ما رأيناه قصصناه على سمك ، فما قولك ؟ فمن فضلك نبئنا تأويل ما رأينا حتى يتبين لنا الخيط الأبيض من الخيط الأسود ، زجوك أخبرنا بسريره ، وعرفنا بما يصير إليه حلمنا ، فقد غمت علينا حاله ، واستغلق مآله ، أنز نفوسنا بتفسيره ، وأفتنا بعبارة ، هذا وقت الحاجة اليك ، وإنا نقرأ آية الاحسان : على وجهك ، فانك لا تخذل من قصدك ، وتعلم ما لا يعلمه غيرك ، وتسخو بملكك ولا تبخل به ، فأضف منتك هذه الى سائر منتك وصل نعمتك علينا بنظرها من نعمك . »

وهنا أبحاث مهمة :

ملوك مصر الاقدمين والحجر

(١) يظهر ان ملوك مصر الأقدمين ؛ ما كانوا يشترون الحجر التي يشربونها من الأسواق أو الحانات ، بل كانوا يتخذون خدماً أخصائين لعملها خصيصاً لهم ، ويرى علماء الآثار في جدران قبور المصريين صور رجال يقطفون العنب ويفرطون من العناقيد حبه ، ويحملون العصير في دنان من فخار يضعونها في المخازن.

اقوال في الحجر ومضارها

(٢) قالوا : « الحجر كالرأبي ، تأخذ من العقل أكثر مما تعطي » ، ولما خرج عبد الرحمن الداخل من البحر أول قدومه الى الاندلس ، أتوه بخمر ، فقال : « اني محتاج لما يزيد في عقلي ، لا لما ينقصه » ، وكان العباس بن علي المنصور يأخذ الكأس بيده ثم يقول : « ها ، أما المال فتبلمين ، وأما المروءة فتخلمين ، وأما الدين فتفسدين » ، وسقى قوم أعرابية مسكراً ، فقالت : « أشرب نساؤكم مثل هذا ؟ » قالوا : « نعم » قالت : « فما يدري أحدكم من أبوه » ... وقيل لمدي ابن حاتم : « ألا تشرب الحجر ؟ » — فقال : « لا أشرب ما يشرب عقلي » ، وترك رجل النبيذ ، فقيل له : « لم تركته » وهو رسول السرور الى القلب ! — فقال : « ولكنه بش الرسول » ، بيعت الى الجوف ، فيذهب الى الرأس » ، وقيل للعباس ابن مرداس : « ألا تشرب الحجر ؟ » — فقال : « لا أرضى أن أصبح سيد القوم ، وأسي سفههم » .

هذا قطرة من بحر ، ودررة من عقد نجر ، مما أثر في الحجر عن عقلاء العرب وغيرهم .

وأما الأطباء فقد اتفقوا على أن الحجر تضر بأجهزة الجسم المختلفة ، إذ تضعف

المعدة وتحدث فيها الالتهاب والتقرح والسرطان ، كما أنها تضر بالكبد فتحدث فيها ضخامة أو ضموراً وتلفاً وتوقفاً عن العمل ، وتضر بالرئتين فينجم منها السل ، وقد قالوا في ذلك : القول (١) يؤدي الى فراش السل ، كما أنها تؤذي القلب وعروق الدم فتحدث فيها أمراضاً شتى تؤدي بصاحبها الى الهلاك البطيء أو السريع وتضر بالكلية وينشأ عنها أمراض مدنفه شتى وتؤدي الخصبين بمحصول الضمور وقلة أو فقد الحيويينات المنوية في النطفة ، كما انها تحدث في الجلد حكاك وأكال ودمامل وبثور وغيرها من الامراض الجلدية ، وأخيراً تضر بالمش والحميخ والنخاع الشوكي والأعصاب ويتجلى ذلك بالصداع والأرق والرجفة في الرأس واليدين وركاكة اللسان والتلثم وفقد الذاكرة ونقص المحاكمة والتمييز ، ثم يصبح الشخص مستعداً للاصابة بداء الصرع والهزيان والعتة الباكروتنغير طباعه فيغدو أفانياً ، مهملأ لواجباته ميالاً للمعاشره الأديباء والسفهاء ، قليل التحسس بصفات الشرف والمروءة .

الخمر عند الامم الغربية وفي كتب الدين المسيحي وفي القرآن والحديث

(٣) وأما عند الامم الغربية ، فقد انشئت في أنحاء العالم المتمددين جمعيات متعددة ، لتحريم الشراب ، وأخذ الشاربيين بالمعقوبة ، تفادياً من المضار التي تنجم عن القول ، وما يجلبه قانون الوراثة ، من خروج نسل ضعيف ، والجنون والسل الرئوي وزيادة معدل الجرائم ،

حقاً إن من آيات العبرة ، ومن الرجوع الى دين الاسلام أن الأفرنج الذين يستبيحون شرب الخمر ديناً ، ويستحسنونه أدباً ومدنية ، ويصنعون منه أنواعاً

(١) ويسميه البعض بالكحول وهو الشراب المسكر .

كثيرة ، يربحون منها ألوف الألوف من الدنانير في كل عام — قد ألفوا جمعيات للنهي عن الخمر ، والسعي لابطالها .

ومن آيات العبرة فيها ان العرب كانوا في الجاهلية يعدون من منافع الخمر الحماسة في الحرب ، وقوة الاقدام فيها ، ولكن ثبت عن الطب أن السكر يضعف الجنود عن القيام بأعباء الحرب ، واحتمل أثنائها ، فقررت بعض الدول إبطال الخمر الوطنية ، الشديدة الزواج في بلادها ، مدة الحرب ، مع ان أكثر انتفاعها المالى منها ، قال تعالى : ﴿ سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ ﴾ (٤١ : ٥٣) ومع هذا كله لا يزال بعض المسلمين (جغرافياً) يتعاملون من تحريم الاسلام للخمر !!!

ومن إحدى العجائب أن كتب المسيحيين الدينية تقول : إن أول معجزة جرت على يد المسيح (ع) حدثت في قرية « قانا الجليل » ، وهي تحويله الماء خمرأ ، وذلك ان المسيح (ع) دُعِيَ هُوَ وَوَالِدَتُهُ وَإِخْوَتُهُ وَتَلَامِيذُهُ لِعَرَسٍ فِي « قَانَا الْجَلِيلِ » وهي قرية على بعد نحو ساعتين على الماشي من بلدة « الناصرة » ، لجهة الشمال الشرقي عنها ، فذهب وجلس مع الناس ، وصار أهل العرس يصبون للمدعوين خمرأ ، وكان ان الخمر التي عندهم فرغت ، قبل أن يشرب كثير من المدعوين ، فوقع أهل العرس في حيرة وخجالة من الناس . فقالت له أمه : « ليس لهم خمر » ، وكان في دار أهل العرس ستة أجران حجرء يسع كل منها نحو ثمان جرار ماء اعتيادية ، فأمر المسيح الخدم أن يملأوا هذه الاجران ماء ، فملأوها حسب أمره الى فوق ، ثم أمر أن يستقوا منها ويقدموا للرئيس المتكأ فامتلوا ، ولما ذاقها الرئيس ، شهد للجودة الممتازة في هذه الخمرة المقدسة ، وأدى شهادته جهاراً بمد أن نادى العريس وشكره ، لتقديمه خمرأ أجود مما شربوا أولاً ؛

وقد نهى نبينا عنها ، إذ ورد عن عقبه بن الحارث انه قال : « جيء بالنعمان أو

ابن النعمان شارباً ، فأمر رسول الله (ﷺ) من كان في البيت أن يضربوا ، قال : فكنت انا فيمن ضربه ، فضر بناه بالنعال والجريد ، رواه البخاري ، وفيه : « لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن ، ولا يشرب الخمر حين يشربها وهو مؤمن ، ولا يسرق حين يسرق وهو مؤمن ، ولا ينتهب نهبة يرفع الناس اليه فيها أبصارهم حين ينتهبها وهو مؤمن » ، وفيه : « كل مسكر حرام » ، وروى الحاكم من حديث ابن عباس : « اجتنبوا الخمر ، فانها مفتاح كل شر » .

وقد نهى القرآن عن الخمر ، لأن العرب كانوا في الجاهلية وصدرا الاسلام يشربونها ، فنزل قوله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ، لَا تَقْرَبُوا الصَّلَاةَ ، وَأَنْتُمْ سُكَارَىٰ حَتَّىٰ تَعْلَمُوا مَا تَقُولُونَ ﴾ (٤ : ٤٢) فحرمها بذلك في الأوقات القريبة من وقت الصلاة ، لأنه نهى عنه قرب الصلاة في حال السكر . فلم يبق للمصر على شربها إلا الاغتياق بعد صلاة العشاء ، وكذا الصبح من بعد صلاة الفجر ، لمن لا عمل له ، ولا يخشى أن يمتد سكره الى وقت الظهر ، ثم نزل قوله تعالى : ﴿ يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ قُلْ فِيهَا إِثْمٌ كَبِيرٌ ، وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ ، وَإِثْمُهَا أَكْبَرُ مِنْ نَفْعِهَا ﴾ (٢ : ٢١٩) ، فشربها قوم لقوله : ﴿ مَنَافِعُ لِلنَّاسِ ﴾ ، وتركها آخرون لقوله : ﴿ إِثْمٌ كَبِيرٌ ﴾ ، ثم نزل قوله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ، إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنْصَابُ وَالْأَزْلَامُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ ، فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ، إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُوقِعَ بَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ فِي الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ ، وَيَصُدَّكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَعَنِ الصَّلَاةِ ، فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْتَهُونَ ؟ ، وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَاحْذَرُوا ، فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَإِنَّمَا عَلَىٰ رَسُولِنَا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ ﴾ (٥ : ٩٣ - ٩٥) نزلت هذه الآيات ، فقال عمر (رض) : « أقرنت بالميسر والأنصاب والأزلام ؟ بعداً

لك وسُحِقاً ، ، فتركها الناس جميعاً ، وروي أن عمر لما سمع « فهل انتم منتهون ، قال « اتهينا، اتهينا » .

والحكمة في تحريم الخمر بالتدريج أن الناس كانوا مفتونين بها ، حتى أنها لو حرمت في اول الاسلام ، لكان تحريمها صارفاً لكثير من المذنبين لها عن الاسلام ، بل عن النظر الصحيح المؤدي الى الاهتداء به ، لأنهم حينئذ ينظرون اليه بعين السخط ، فيرونه بغير صورته الجميلة ، فكان من لطف الله تعالى ، وبلغ حكمته أن ذكرها أولاً في سورة النساء بما يقتضي تحريمها في الأوقات القريبة من وقت الصلاة وإباحتها فيما عدا ذلك ، ثم ثانياً ذكرها في سورة البقرة بما يدل على تحريمها مطلقاً ، لكن دلالة ظنية ، فيها مجال للاجتهد ، ليركها من لم تتمكن فتنها من نفسه ، ثم تركهم الله تعالى على هذه الحال زمناً قوي فيه الدين ، ورسخ اليقين ، وكثرت الوقائع التي ظهر لهم بها إثم الخمر وضررها ، فنزلت آية سورة المائدة بما يدل على تحريمها صريحاً في كل حين .

والخلاصة إن الله تعالى حرم الخمر تحريماً قطعياً في معظم الأوقات ، ثم حرّمها تحريماً ظنياً في باقي الأوقات ، ثم تحريماً قطعياً مستغرقاً لكل زمن .

هل كانت الخمر حلالاً عند المصريين والرعاة في زمن يوسف

(٤) إن قال قائل : هل كانت الخمر حلالاً عند هؤلاء المصريين والرعاة ، حتى كان الملك يشربها علناً بلا نكير ! قلنا إن الخمر محرمة بالسنة جميع الأنبياء عليهم الصلاة والسلام ، على جميع الشعوب والأمم ، فالمصريون والرعاة وغيرهم كانوا يشربونها في حال انها محرمة عليهم ، ويحتمل ان المحرم عليهم هو القدر المسكر فقط ، وان ما دون القدر المسكر حلال ، وهو ظاهر كتب المهديين الموجودة اليوم عند اليهود والنصارى ، فلما كان من حكمة الله تعالى سير أمور البشر كلها

على سنن الترتي التدريجي ، الذي من مقتضاه أن يكون الآخر أكمل مما قبله ، أكمل الله دينه العام بإزالة القرآن الحاوي تحريم الخمر مطلقاً ، لما فيها من الضرر الذاتي .

الخمر عامة هو ما يعصر او ينبذ

(٥) قول رئيس السقاة : « إني أراني أعصر خمراً ، لا يدل على أن الخمر هي ما يعصر فقط ، بل إنما يدل على أنهم كانوا يستعملون هذا النوع ، فلا ينافي أن الخمر قد تكون مما ينبذ نبيذاً أو يقطر تقطيراً ، فاتخاذ المصريين الخمر من العصير ، لا ينافي اتخاذها من غيره ، وليس في كلام رئيس السقاة ما يدل على الحصر ، دع ما يمكن ان يقال : « إن هذا القول محكي عن أعجمي في بيان ما رآه في نومه ، مما هو معهود في بلاده ، فليس بحجة في لغة العرب ولا في صناعتهم وصناعة غيرهم للخمر ، وبالأولى لا يكون حجة في الشرع ، فالخمر لغة وشرعاً ، أعم مما يتخذ من العصير . »

الرؤى الصريحة

(٦) نعلم من صحابي الشيخين وغيرها من الأسفار الصحيحة أن النبي ﷺ كان في بدء الوحي ، لا يرى رؤيا إلا جاءت مثل فلق الصبح ، أي تجيء كما يراها صريحة ظاهرة لا تحتاج إلى تفسير ، قالوا : وهذا هو الغالب في رؤى أهل الخير والصلاح ، فلذلك ولما كان « رئيس السقاة » مسجوناً ظلاماً ، وكان يرى الساحة مما اتهم به ، كانت رؤياه صريحة ، ليست من قبيل الاستعارات والتمثيل ، وهذا بخلاف رؤيا « رئيس الخبازين » التي هي من نوع المجاز والمثال ، لأن الظاهر من الحكم عليه بالموت ، أنه كان غير سليم الساحة ، وإنما قلنا إن رؤياه مجاز ، لأن الخبز الذي رأى أن الطير تأكله هو حياته ، لأن بالخبز حياة

الانسان ، وقوام الأجسام ، ولذلك ناسب تأويله بالرأس ، الذي به حياة ساثر البدن لأنه العضو الرئيسي .

الطرح ضمير المفرد على المثني والجمع في لغة العرب

(٧) إنما قيل « بتأويله » ولم يقل بتأويلها ، لأن من سنن العرب ، أن تجمع بين شيئين اثنين ، ثم تذكر في الضمير أحدهما دون الآخر ، وتريد بالضمير كليهما معاً ، يقولون : « رأيت زيداً وعمراً وسلمت عليه » أي عليها ، قال الله عز وجل : ﴿ وَالَّذِينَ يَكْتُمُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ ، وَلَا يُنْفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ ﴾ (٣٥:٩) وتقدير الكلام ولا ينفقونها في سبيل الله ، وقال تعالى : ﴿ وَإِذَا رَأَوْا تِجَارَةً أَوْلَاهُا انْفَضُّوا إِلَيْهَا ﴾ (١١ : ٦٢) وتقديره انفضوا إليها ، وقال تعالى : ﴿ وَاللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَقُّ أَنْ يُرْضَوْهُ ﴾ (٩ : ٦٣) والمراد أن يرضوهما^(١) ومنه قوله تعالى فيما يأتي : ﴿ قُضِيَ الْأَمْرُ الَّذِي فِيهِ تَسْتَفْتِيانِ ﴾ (آ : ٤١) ، تقديره قضي الأمران اللذان فيها تستفتيان ، وقوله : ﴿ أَفْتُونِي فِي رُؤْيَايَ ﴾ (آ : ٤٣) أي في رؤيائي ، ويوجد من مثل ذلك في كلامهم الشيء الكثير .

امسان يوسف لاهل السجن

(٨) إنما قال له : « إننا نراك من المحسنين » لأنه كان إذا احتاج من أهل السجن إنسان جمع له ، وإذا مرض إنسان في السجن عاده وقام عليه ، وتماهده وداواه ، وإذا انقطع رجاء إنسان في سجنه ، واشتد عليه فيه بلاؤه جعل يقول له : « أبشر واصبر تؤجر ، فإن لهذا أجراً ، ولهذا ثواباً » ، وكان إذا ضاق على أحد المكان أوسع له ، وكان يعزي حزينهم ، ويجتهد لربه في عبادته ، ويعبر لهم أحلامهم^(٢) . فكانه جعل من السجن مدرسة ومستشفى ومعبدا وجمعية خيرية ومجالس وعظ وتذكير .

(١) فقه اللغة .

(٢) جامع البيان

الاعتراف بإحسان يوسف

(٩) كل من كان من أهل الاصلة يُسرّ بأن يقر بالفضل لأهل الفضل ، ويعترف بالإحسان لأهل الاحسان ، كما وقع من هذين الرئيسين . فيظهر أنها كانتا كبيرتي النفس ، أصيلي المحتد ، وهذا بخلاف طائفة من الناس ساءت سريرتهم ، وسفلت طباعهم ، وصغرت نفوسهم ، فهؤلاء ينكرون فضل الفضلاء ، ويجحدون إحسان المحسنين ، بل قد تحملهم الكبرياء على إيقاع الأذى بمن أحسن اليهم ، لا سيما إذا كان هؤلاء المحسن اليهم ممن ولدوا في الفاقة وخفض العيش ، وساعدتهم الأقدار على الارتقاء ، فرجما حدثتهم أنفسهم الأمانة بإنكار إحسان المحسنين اليهم بل بأيديهم بل بإهلاكهم .

نهاية الجزء الأول

* * *

فهرس الجزء الأول من كتاب موتمر تفسير سورة يوسف (ع).

الصحيفة والموضوع :

- ٥ اهداء الكتاب ٧ كلمة سماحة المفتي العام الدكتور ابو اليسر عابدين ٨ هذا التفسير لابن المؤلف الدكتور عبد الحليم العلمي ١٣ تقديم الكتاب لفضيلة الاستاذ محمد بهجة البيطار ١٧ رسالة الاستاذ الامام السيد محمد زشيد رضا: لمؤلف الكتاب ١٨ التعريف بمؤلف الكتاب لفضيلة الاستاذ محمد علي عمار ٢٦ إيضاح الرموز الواردة في التفسير

٣. الباب الأول :

٣. الفصل الأول — في دفع شبهة العجاردة على سورة يوسف ٣٢ بيان بالمناسبة بين سيدنا محمد (ﷺ) مع قريش وبين يوسف الصديق مع إخوته .
٣٦ ايقاف النبي (ﷺ) على طبائع يهود المدينة ٣٧ بيان بالمناسبة بين نبينا (ﷺ) مع اليهود وبين يوسف الصديق مع إخوته .
٤. الفصل الثاني — في هل اخوة يوسف أنبياء
٥١ الفصل الثالث — في شيء عن حياة إبراهيم وإسحاق ويعقوب عليهم السلام .
٥٢ حياة إبراهيم (ع) ٥٥ حياة إسحاق (ع) ٥٧ حياة يعقوب (ع) .
٦١ الفصل الرابع — في زوجات يعقوب (ع) ٦٧ التشاؤم والتفاؤل من اسم يوسف ٦٨ التشاؤم والتفاؤل من الأسماء .
٧١ الفصل السادس — في تقليد المفسرين بعضهم لبعض .
٧٣ الفصل السابع — في أبطال قصة يوسف وأن القصة سورة طبق الأصل .
لحياة الشعب الاسرائيلي .

الصحيفة والموضوع

- ١١٨ (نقص) - سور القرآن التي سميت باسماء حوادث تاريخية ١١٩
الحكمة من سرد الوقائع التاريخية في القرآن ١٢٠ جبريل (ع) هو واسطة
نقل كلام الله الى النبي ﷺ ١٢١ (أحسن القصص) - لماذا عبر بأن
قصص القرآن هو احسن القصص ١٢٢ مقابلة ما بين آيات قصة يوسف
في القرآن وفي التوراة ١٣٨ قصص التوراة ١٣٩ غلط التوراة في قولها
إنه يوجد ليل ونهار قبل ما كانت الشمس ١٤٠ مخالفة التوراة لعلم النشوء
والترقي ١٤١ قول التوراة بان الله ينهى عن العلم واسبابه ١٤٢ غلط التوراة
بقوله إن الحية تقتذي بالتراب ١٤٣ نسبة التوراة السكر لنوح وأنه لعن من لم يسيء
(حاشاه) - نسبة التوراة الدبائة لابراهيم (حاشاه) والرد على ذلك ١٤٦
نسبة التوراة السكر لابراهيم (حاشاه) ١٤٧ غلط التوراة بقولها ان
الملائكة يأكلون ١٤٨ نسبة التوراة السكر والزنى الى لوط (حاشاه) ١٤٩
دعوى التوراة ان إسحاق ديوث كأبيه (حاشاهما) ١٥٠ تعليم التوراة
الكذب والمكر ومحبة الحجره وحب الذات والحسد ١٥٣ تعليم التوراة الخداع
وخلف الوعد والزنا ١٥٤ تعليم التوراة ان الانسان قد يكون أقوى من
الملك ١٥٥ غلطة تاريخية في التوراة - تعليم التوراة الزنا والحباة ١٥٧ تعليم
التوراه اغتصاب الأموال ١٥٨ تعليم التوراة تقديم قربان للشيطان وتسيب
السواائب ١٥٩ تعليم التوراة استئصال الشيوخ والاطفال والنساء في الحرب
١٦٠ تعليم التوراة قتل غير المسيء ١٦١ تعليم التوراة للهو واللعب - التوراة
تنسب الزنا لداود (حاشاه) ١٦٦ التوراة تنسب الفساد والبربرية الى داود
(حاشاه) - التوراة تجازي على الزنا بالزنا ١٦٨ التوراة تقص أقاصيص
الزنا ١٦٩ التوراة تنسب الشرك لسليمان وأنه تزوج بالوثنيات (حاشاه)
١٧١. التوراة تنسب لبعض الأنبياء الكذب في البلاغ ١٧٢ التوراة تثبت

الصحيفة والموضوع

أن الوحي ينزل بسبب آيات الطرب ١٧٣ التوراة تثبت لله التعب
 ١٧٤ التوراة تثبت حياة أخنوخ — التوراة تملل القصاص بالموت — التوراة
 تثبت أن الأصل في الإنسان الشر ١٧٥ غلط التوراة في التاريخ —
 تكرار ذكر حوادث الزنا في التوراة ١٧٦ التوراة تقول بجزاء خارج
 عن المعقول — التوراة تقول بتضييع المال بلا فائدة ١٧٧ مميزات قصة
 يوسف عن القصص الأخرى ١٧٨ (أوحينا) — الوحي الاصطلاحى ١٧٩
 الفرق بين الوحي والالهام — الوحي نوع من التعبير عن الكلام الرباني
 ١٨٠ (هذا القرآن) — سبب إحياء القرآن ١٨١ (لن الغافلين) محمد
 (ﷺ) في طفولته وشبابه ١٨٢ القرآن معلم النبي (ﷺ) ١٨٣ غفلة
 النبي (ﷺ) ليست عيباً يذم به .

١٨٤ الفصل الثالث — بدء الأمر المقصود الذي انعقدت له السورة: آ (٤)
 * إذ قال يوسف لأبيه : يا أبت ، إني رأيت أحد عشر كوكباً ، والشمس
 والقمر ، رأيتهم لي ساجدين * ١٨٥ (يا أبت ..) — استعطاف الابوة
 والفرق بين خطاب يوسف (ع) لأبيه وخطاب إبراهيم (ع) لأبيه
 ١٨٦ إعراب يا أبت ١٨٧ أدب الخطاب ١٨٨ (رأيت) — يوسف في
 رؤياه ، ١٨٩ يوسف يقص رؤياه على أبيه ١٩١ الرؤيا والشرع ١٩٢ رؤيا
 الأنبياء ورؤيا الناس ١٩٤ الرؤيا عند النصارى ١٩٥ الرؤيا المنامية لانتحرم
 حلالاً ولاتحمل حراماً ١٩٦ لماذا لم ير يوسف رؤيا تدل على ماسيئته من شر
 ١٩٧ رؤيا يوسف الحزم الأحد عشر ١٩٨ (أحد عشر كوكباً) — علو
 الرؤيا بعلو النفس ١٩٩ قداسة عدد (١٢) ٢٠٤ (كوكباً) — لماذا
 عبر عن إخوة يوسف بالكواكب ٢٠٥ (والشمس والقمر) — التعبير
 عن الرجل بالشمس وعن المرأة بالقمر في رؤيا يوسف ٢٠٩ هل مسجد

الصحيفة والموضوع

أبوا يوسف له ٢١١ (رأيتهم لي ساجدين) — التطرية في القرآن
٢١٣ اعتراض ثم تسليم — معنى السجود .

٢١٤ لا تقص الرؤيا على العدو : آ (٥) ﴿ قال : يا بني ، لا تقصص رؤياك على

اخوتك ، فيكيدوا لك كيدا ، إن الشيطان للانسان عدو مبين ﴿

٢١٥ (قال يا بني ..) — نصح يعقوب لابنه يوسف بأن لا يقص رؤياه

على إخوته ٢١٧ التفسير في اللغة وأنواعه ٢١٨ بحكم المقتضية من الآية

٢١٩ خطاب الاستعطاف بين الأقرباء ٢٢٠ (لا تقصص ..) بعض العداوات

التاريخية التي تشبه عداة إخوة يوسف له ٢٢٢ وجوب إطاعة الابن للأب

الوصايا العشر في التوراة والقرآن ٢٢٤ (اخوتك) المناوؤن ليوسف من

إخوته والتنافس بينهم ٢٢٥ (فيكيدوا ..) تعريف الكيد ٢٢٧ (إن

الشيطان ..) الشيطان عالم غيبي ضار بالانسان ٢٢٨ إطلاق لفظ الشيطان على

العدو وبعض الأشخاص والجن والإنس ٢٣٠ الشيطان قوة غضبية أو

قوة ذميمة في الإنسان ٢٣١ ليس للشيطان سبيل على الانسان إلا بالاغراء

والوسوسة ٢٣٤ معاهدة سيلان ٢٣٥ سلطان الشيطان على إخوة يوسف

٢٣٦ سعادة الدين تكون باقامته ٢٣٨ انتقاد معاهدة سيلان والرد عليه

٢٤٠ آمال يعقوب في يوسف : آ (٦) ﴿ وكذلك يجتبيك ربك ، ويعلمك

من تأويل الأحاديث ، ويتم نعمته عليك وعلى آل يعقوب ، كما أتمها على

أبويك من قبل إبراهيم وإسحاق إن ربك عليم حكيم ﴿ (وكذلك ..)

بشارة يعقوب ليوسف بثلاث : الاجتباء والتعليم وإتمام النعمة ٢٤٣ فرح

يوسف ببشارة أبيه له ووقوعها حرفاً بحرف ٢٤٤ (يجتبيك) الاجتباء

في اللغة واجتباء الله ليوسف والأنبياء وللإسلام ٢٤٦ نبوة يوسف والانبياء

الصحيفة والموضوع

والمرسلين قبله وبمده ٢٤٨ (ويملك ..) تعليم يوسف ٢٤٩ (تأويل الأحاديث) مقومات الحديث وتأويله ٢٥٣ (الأحاديث) الحديث لفة واصطلاحاً ٢٥٥ (ويتم نعمته ..) اتمام النعمة على يوسف ٢٥٦ (آل يعقوب) - من آل يعقوب ٢٥٧ آل إبراهيم ٢٥٨ النعم التي أتمها الله على آل يعقوب ٢٦٢ (كما أتمها) - النعم التي أتمها الله على إبراهيم وإسحاق ٢٦٣ (إن ربك عليم حكيم) علم الله وحكمته .

٢٦٤ الفصل الرابع - الحكم والمبر في قصة يوسف : آ (٧) ﴿ لقد كان في يوسف وإخوته آيات للسائلين ﴾ ٢٦٧ (لقد كان ..) - التفكير والاعتبار حال قراءة القرآن ٢٦٨ (وإخوته ..) - القرآن يكفي بذكر المهم من الحوادث التاريخية ٢٧١ سلامة قلب الأناث وبعدهن عن حسد أقاربهن ٢٧٢ (آيات ..) - المبر المتضمنة قصة يوسف ٢٧٤ المبر بمقابلة يوسف وإخوته ٢٧٦ (للسائلين ..) - تخصيص الفائدة بمن يبحث عنها .

٢٧٧ مقدمة الموآمرة : آ (٨) ﴿ إذ قالوا : ليوسف وأخوه أحب الى أينا منا ، ونحن عصبية ! ! إن أبانا لفي ضلال مبين ! ﴾ ٢٧٨ (إذ قالوا . .) مفاوضة الاخوة في شأن يوسف ٢٧٩ سبب عداوة إخوة يوسف له ولأخيه بنيامين ٢٨١ أسباب عداوة الاخوة الهامة ليوسف ٢٨٣ تفنيد عداوة إخوة يوسف له ٢٨٤ ضرر تعدد الزوجات ١٨٦ لم يسند الحسد لجماعة معينين إلا لليهود ٢٨٦ الحكمة من ذكر الأعمال السيئة لأقرباء الأنبياء في القرآن ٢٨٩ الدفاع عن حب يعقوب لولديه يوسف وبنيامين ٢٩٠ إسناد القول الى الاخوة العشرة جميعاً ٢٩١ الساكت عن المنكر يكون شريكاً في الاثم لفاعله ٢٩٢ (ونحن

الصحيفة والموضوع

- عصبة . .) - وجه انتقاد الاخوة العشرة لأبيهم على حبه ليوسف وأخيه
والرد عليه ٢٩٣ العصبة في اللغة ٢٩٤ (إن أبانا لني ضلال مبين) - تضليل
الاخوة لأبيهم جهلاً وسفاهة .
- ٢٩٨ الدخول الجدي في الموآمرة : آ (٩) * اقتلوا يوسف أو اطرحوه أرضاً ،
يخل لكم وجه أبيكم !! وتكونوا من بعده قوماً صالحين ! * ٢٩٩ (اقتلوا
يوسف . .) - الاقتراح بقتل يوسف أو إبعاده ٣٠٠ موآمرة قريش على
قتل أو إبعاد أو حبس النبي ﷺ ٣٠١ الطرح أرضاً كالقتل ٣٠٢ الفوائد
المستنبطة من الآية ٣٠٣ لماذا لم يدخلوا بنيامين مع يوسف في موآمراتهم
٣٠٤ من هو صاحب الاقتراح بقتل يوسف أو إبعاده ٣٠٥ الحسد هو
الدافع الحقيقي لإخوة يوسف على إرادة قتله - أنواع الامزجة البدنية
وتطبيقها على إخوة يوسف ٣٠٦ غرابة مشايمة دان وفتالي لآخوتهم في
الموآمرة ٣٠٧ نظائر أعمال أبناء يعقوب العشرة في التاريخ ٣١٣ التستر
وراء الدين للتوصل للمآرب الشخصية ٣١٥ الحسد والغيرة والعداء هي أصل
كل شر ٣١٦ النتيجة عند اليهود تبرر الوساطة معها كانت منحة ٣١٧ إن
أكرمكم عند الله أتقاكم - بعض طبائع الاسرائيليين - ماهي أفكار الصهيونيين
اليوم مع أبناء اسماعيل ٣١٨ الطرح أرضاً في اللغة - كلمة « اطرحوه »
في القرآن - الصلاح وأقسامه ٣١٩ الحسد والغبطة والمنافسة ٣٢٠ عمل
الاخوة مع يوسف هو من الحسد المقوت المشؤوم ٣٢١ سبب اقتصار
الاخوة الحكم على يوسف وحده - ما أشبه الليلة بالبارحة أو حال
الصهيونيين اليوم مع عرب فلسطين ٣٢٢ شواهد من التوراة على صلابة
اليهود وقساوتهم ووحشيتهم ٣٢٤ يهود اليهود متخرجون على مدرسة
اليهود القدماء - غيري جنى وأنا المذبذبة فيكم .

الصحيفة والموضوع

- ٣٢٥: تعديل الحكم: آ (١٠) ﴿ قال قائل منهم: لا تقنلوا يوسف ، وألقوه في غيابة الجب : يلتقطه بعض السيارة ، إن كنتم فاعلين ﴾ ٣٢٦ (قال قائل منهم..)
- طلب تعديل الحكم على يوسف ٣٢٨ من هو « القائل » بتعديل الحكم على يوسف ٣٣٠ القتل والطرح أرضاً سواء في النتيجة ٣٣١ ابتعاد يهوذا عن الانتساب ايوسف دفاعاً عن مصلحة إخوته ٣٣٢ غيابة البئر — الجب وهل هو جب معهود ٣٣٤ التحقيق في تفسير الغيابة — إخوة يوسف لم يبيعوا يوسف ٣٣٥ لماذا لم يبت « القائل » برأيه ٣٣٦ ضلع القائل مع يوسف .
- ٣٣٦: تدبير الخيلة لتنفيذ المؤامرة: آ (١١) ﴿ قالوا : يا أبانا ، مالك لا تأمننا على يوسف ! وإنا له لناصحون !! ﴾ ٣٣٧ (قالوا يا أبانا ..) — التمهيد لتنفيذ المؤامرة على يوسف ٣٣٩ إخوة يوسف بين عاملي الخوف والرجاء عند طلب يوسف من أبيهم — طريقة طلب الاخوة ليوسف من أبيهم تدل على سوء نيتهم — دفع ونفع — وثيقة الاعتماد . ٣٤٠ النصح لغة ومعنى — لسان حال إخوة يوسف هو ترجمان أهوائهم ٣٤١ المتكلم بطلب يوسف من أبيه واحد من الاخوة .
- ٣٤١: السم في الدسم: آ (١٢) ﴿ أرسله معنا غداً يرتع ويلعب ، وإنا له لحافظون ﴾ ٣٤٢ (يرتع ويلعب ..) الاخوة يضربون على الوتر الذي يجبه أبوم لأخيه يوسف ٣٤٣ معنى الرتع واللعب ٣٤٤ فوائد اللعب ٣٤٥ اللعب عند العرب وأنواعه ولعب النبي (ﷺ) والصحابة ٣٤٦ جواز اللعب للكبار كما للصغار ٣٤٧ (لحافظون) — خديعة اخوة يوسف لأبيهم .
- ٣٤٩ خلف الوعد والوفاء به .

- ٣٥٠ تخوف يعقوب من طلب أولاده: آ (١٣) ﴿ قال : إني ليجزني أن تذهبوا •

الصحيفة والموضوع

به ، وأخاف أن يأكله الذئب ، وأتم عنه غافلون ﴿ ٣٥٣ ﴾ (ليحزتي ..) عزو حزن يعقوب لثلاث احتمالات ٣٥٤ (وأخاف ..) خوف يعقوب على يوسف وعلى آماله فيه من الذئب ٣٥٦ التوفيق بين خوف يعقوب على يوسف وبين رؤيا يوسف ٣٥٧ خوف يعقوب على يوسف أمر طبيعي قسري ٣٥٨ جواز عدم وجود اعتقاد جازم عند يعقوب في ولده ينافي خوفه عليه ٣٥٩ جواز عدم قطع يعقوب بأن رؤيا يوسف هي ليوسف بل لغيره من ذوي قرابه ٣٥٩ جواز قصد يعقوب بالذئب وأكله إضرار شمعون بيوسف ٣٦٠ (واتم عنه غافلون) - يعقوب يكشف ما يجول في ذهن أولاده بالنسبة ليوسف ليعلم بماذا يجيبون ٣٦١ يعقوب يصف غفلة أبنائه عن حفظ يوسف ، بأنها أمر ثابت لهم في نفسه .

٣٦٢ جواب المخاتلة والمكر : آ (١٤) ﴿ قالوا : أين أكله الذئب ، ونحن عصبة إنا إذا لخاسرون ﴾ ٣٦٣ (قالوا أين أكله ..) - إصرار أبناء يعقوب على أخذ يوسف من أيه ٣٦٥ تهرب الاخوة من الاجابة على حزن أبيهم ومغالطتهم الجدلية له ٣٦٥ القوة الجسمانية لانكفي وحدها لحفظ يوسف ٣٦٦ اختلاف القرآن والتوراة في هذه الآية ٣٦٦ حال التاريخ قبل الاسلام وبمده ٣٦٧ عناية المسلمين في أول الاسلام بالرواية والرواة ٣٦٧ غلط اليهود في تاريخهم ووقوع الزيادة والنقصان في التوراة .

٣٦٩ الفصل الخامس - تنفيذ المؤامرة : آ (١٥) ﴿ فلما ذهبوا به ، وأجمعوا أن يجعلوه في غيابة الجب .. وأوحينا اليه : لتنبئهم بأمرهم هذا ، وهم لا يشعرون ﴾ ٣٧٠ (فلما ذهبوا به ..) - الأنبياء غير معصومين من تصديق الكاذب ٣٧٢ يوسف مع إخوته في طريقهم الى دوثان

الصحيفة والموضوع

- ٣٧٣ كيف سلم يعقوب ابنه يوسف لاختوته رغم تخوفه عليه منهم
- ٣٧٤ حذف جواب الشرط في القرآن الكريم وشواهد عليه ٣٧٧ يوسف في الجب ٣٧٨ كيف اتفق إخوة يوسف على إلقائه في الجب مع اختلاف مشاربهم وميولهم ٣٧٩ خيبة آمال إخوة يوسف ٣٨٠ «سيلون» و«دوثان» و«الجب» ٣٨١ (وأوحينا إليه . .) - الإيحاء ليوسف وهو في الجب ١٨٣ الوحي لغة واصطلاحاً .
- ٣٨٦ دموع التماسيح: آ (١٦) ﴿وجاءوا أباهم عشاء يبكون . .﴾ ٣٨٧ (وجاءوا أباهم . .) - حال يعقوب بعد ذهاب يوسف مع إخوته وحال إخوته بعد إلقائه في الجب .
- ٣٩١ عذر أقبح من ذنب: آ (١٧) ﴿قالوا: ياأبانا، إنا ذهبنا نستبق، وتركنا يوسف عند متاعنا، فأكله الذئب، وما أنت بمؤمن لنا. ولو كنا صادقين﴾ ٣٩١ (قالوا ياأبانا . .) إخوة يوسف يلققون لأبيهم كيف افترس الذئب يوسف ٣٩٣ المذرة المصطنعة - الاستباق ٣٩٤ المتاع ٣٩٥ ادعاء الاخوة الوجه الذي خاف أبوم هلاك يوسف بسببه ٣٩٤ إطلاق اكل الذئب على الخدش والنهش تجوزاً - تعدي الايمان بالباء وباللام وبملى ٣٩٦ الصادق من صدق قلباً ولساناً وجارحة ٣٩٧ الخير مؤجل والشر معجل ٣٩٨ (فأكله الذئب . .) - التوفيق بين خوف يعقوب على يوسف من الذئب وبين رؤي يوسف وبشائه ٣٩٩ استعمال الذئب والأكل في المجاز ٤٠٠ الذئب مجاز عن شمعون ٤٠١ الأكل مجاز عن النهش والعض والإضرار ٤٠٢ تفسير كلمة يأكله بكلمة يتولى أمره ويتصرف فيه ٤٠٢ تسبيك القول بأن الأكل هو الاستيلاء والإضرار، وبأن الذئب هو شمعون

الصحيفة والموضوع

- في المجاز ٤٠٣ رد القول بأن الأرض التي كانوا يرعون فيها مذابة ٤٠٥ من أنكر على مفسر رأياً فكأنه أنكر على جميع المفسرين تفاسيرهم ٤٠٥ جواز كون الذئب ذئباً مهورداً غائباً أو حاضراً ٤٠٧ وكيف فات المفسرين الذهاب للمعنى المجازي في الأكل والذئب وشواهد على ذلك .
- ٤٠٩ قميص العلامة : آ (١٨) ﴿ وجاءوا على قميصه بدم كذب ، قال : بل سولت لكم أنفسكم أمراً !! فصبر جميد ، والله المستعان على ماتصفون ﴾
- ٤١٠ (وجاءوا على قميصه ..) القميص والدم ٤١١ القميص - دم القميص
- ٤١٢ لسان حال يعقوب عند ما رأى قميص يوسف ملطخاً بالدم ٤١٢ حجة القميص التي لهم صارت عليهم ٤١٣ البرهان الباطل - مناجاة يعقوب المذئب الحقيقي والمجازي ٤١٤ الدم نفس أو جسد ٤١٥ السجع والترسل في القرآن ٤١٧ القصد من ذكر القرآن لقصة يوسف ٤١٨ انتقاد دعاة النصرانية ، اعتقادنا بنبوة يعقوب (ع) والرد عليهم ٤١٩ مخاطبة يعقوب لأولاده عند سماعه الخبر السوء منهم ٤٢٠ لفظ القميص في القرآن - هل حقق يعقوب صحة افتراس الذئب ليوسف ٤٢١ (قال بل سولت ..) - حالة يعقوب النفسية بعد سماعه نبئ ولده يوسف ٤٢٢ عدم انطلاء الكذبة على يعقوب - صبر يعقوب الجميل ٤٢٣ يعقوب يغمز من قناة أولاده فيما ذكروه عن يوسف ٤٢٤ مواعيد الله في يوسف خفت من وطأة مصيبة يعقوب فيه ٤٢٤ انتقاد يعقوب على تفریطه بيوسف والرد عليه ٤٢٥ حال اخوة يوسف عندما عرض أبومهم بأنهم كاذبون ٤٢٦ النمز من قناة شمعون ، انتقاد يعقوب على عدم بحثه عن يوسف والرد عليه ٤٢٨ المشاركون ليعقوب في حزنه على فقد يوسف ٤٢٩ معنى السؤل

الصحيفة والموضوع

٤٣٠ إحساس يعقوب بمكيدة أولاده اجمالاً — التنكير في لفظة (أمراً)

٤٣١ معنى الصبر والصبر الجميل .

٤٣٢ الباب الثالث

الفصل الأول ، خروج يوسف من الجب : آ (١٩) ﴿ وجاءت سيارة ، فأرسلو واردهم ، فأدلى دلوه .. قال : يا بشرى هذا غلام ! وأسروه بضاعة ، والله عليم بما يعملون ﴾ ٤٣٣ (وجاءت سيارة ..) القافلة تخرج يوسف من الجب وتقوده معها الى مصر ٤٣٥ الرد على من اعترض على يوسف بعدم تخلصه من القافلة ولحاقه بأبيه ٤٣٦ حرص يوسف على انتهاز الفرص وشواهد عليه ٤٣٨ يوسف بين يدي « السيارة » ٤٤١ لسان حال يوسف مودعاً وطنه وأهله وهو مع السيارة ٤٤٢ المشابهون لحالة يوسف (ع) في الرق ٤٤٣ معنى « السيارة » ٤٤٤ معنى « الوارد » ، فاء السرعة في قوله : فأرسلوا ، فأدلى ٤٤٥ يا بشرى — ألقاب يوسف ٤٤٦ الدلو .

٤٤٦ الفصل الثاني — بيع يوسف (ع) : آ (٢٠) ﴿ وشروه بثمن بخس !

دراهم معدودة ! وكانوا فيه من الزاهدين ! ﴾ ٤٤٧ (وشروه بثمن ..) اسواق الرقيق ٤٤٨ يوسف في سوق الرقيق ٤٤٩ معنى « شروه » ٤٥٠ عود الضمير في « شروه » والتحقيق عن باع واشترى يوسف ٤٥١ الثمن البخس وماهو وكم هو ٤٥٢ الاسترقاق قبل الاسلام وفي الاسلام ٤٥٥ استفادة الرقيق عند المسلمين — استرقاق الشعوب في أوروبا وأمريكا ٤٥٦ حكم الاسترقاق الشائع عند بعض المسلمين قديماً وحديثاً في الشرع ٤٥٧ زعم دعاة المسيحية بشأن تحرير الرقيق والرد عليه .

٤٥٩ الفصل الثالث — وصية عزيز مصر لامراته بيوسف : آ (٢١) ﴿ وقال

الصحيفة والموضوع

الذي اشتراه من مصر لامرأته : أكرمى مئواه ، عسى أن ينفعنا أو نتخذه
ولداً ؛ وكذلك مكنا ليوسف في الأرض ، ولنعلمه من تأويل الأحاديث ..
والله غالب على أمره ، ولكن أكثر الناس لا يعلمون .. ﴿ ٤٦٠ ﴾ (وقال الذي
اشتراه ..) دخول بالقارىء الى المملكة المصرية الهيكسوسية ، فوطيفار
عزيز مصر ٤٦٢ حياة يوسف المادية ٤٦٤ مصر أيام يوسف (ع) ٤٦٥ ثي
جديد عن حياة يوسف — مصر مهبط الأنبياء والأولياء ٤٦٦ منزلة المرأة
عند قدماء المصريين وعند الشرقيين ٤٦٧ منزلة المرأة عند العرب ٤٧١ منزلة
المرأة في الاسلام ٤٧٣ أخطاء فوطيفار ٤٧٥ المثوى ، مرادفات كلمة مصر
٤٧٦ (عسى أن ينفعنا ..) وصية فوطيفار لزوجته ٤٧٧ يوسف وكييل
فوطيفار : امرأة العزيز تنفذ وصية زوجها بيوسف ٤٧٨ المقصد من
استعمال حرف « أو » في قوله « أو نتخذه ولداً » ٤٧٩ الظاهر والتبني عند
عند المصريين وفي الاسلام ٤٨٠ (وكذلك مكنا ..) تمكين يوسف الأول
٤٨٢ تمكين يوسف الثاني ٤٨٣ (ولنعلمه من تأويل الأحاديث ..) تعليم
يوسف ٤٨٤ فوائد الارتجال والسفر ٤٨٥ العلم الكسبي والعلم الوهبي
٤٨٦ العطف على محدوف في القرآن ٤٨٧ (والله غالب على أمره) الله غالب
على أمر نفسه أو على أمر يوسف ٤٨٩ (ولكن أكثر الناس لا يعلمون)
جهل أكثر الناس أن الأمر كله بيد الله .

٤٨٩ شهادة الله ليوسف بالحكم والعلم والإحسان آ (٢٢) ﴿ و لما بلغ أشده
آتيناه حكماً وعلماً ، وكذلك نجزي المحسنين ﴾ ٤٩٠ (و لما بلغ أشده)
بلوغ يوسف الأشد ٤٩٢ الأشد والرشد في القرآن ٤٩٢ (آتيناه حكماً
وعلماً) إتياء يوسف الحكمة العملية والحكمة الفكرية ٤٩٣ لا ينشأ الحكم

الصحيفة والموضوع

- عن العلم بل عن الدين ٤٩٥ تفسير العلم بالمعرفة ٤٩٥ إيتاء يوسف قوة الارادة ونور العقل ٤٩٨ سبب تقديم الحكم على العلم ٤٩٩ (وكذلك نجزي المحسنين) الاجماع على إحسان يوسف ٤٩٩ الجزء على السبب لا على النسب ٥٠٠ أركان الإحسان ٥٠١ أركان الإحسان في القرآن وتحلي يوسف بها ٥٠٢ الجزء يكون في الدنيا كما في الآخرة ٥٠٣ الله يؤتي الحكم والعلم لكل من اتصف بالإحسان ٥٠٤ الوعد يتناول الناس بحسب أوصافهم ٥٠٥ الله يؤتي كل محسن حكماً وعلماً على قدر إحسانه .
- ٥٠٦ المرادة آ (٢٣) * وراودته التي هو في بيتها عن نفسه ، وغلقت الأبواب، وقالت : هيت لك ! قال : معاذ الله ! إنه ربي أحسن مثواي ، إنه لا يفلح الظالمون * ٥٠٧ (وراودته . .) المرادة من زليخا والترفع من يوسف ٥٠٨ الكبرياء ٥٠٩ المرأة العفيفة الجديدة ٥١٠ المرأة أعف من الرجل ٥١١ مقابلة بين زليخا وبين بعض نساء العرب ٥١٣ المرادة من طرف واحد ٥١٥ الحكمة من ذكر حديث المرادة ٥١٧ مواضع استعمال لفظة المرادة في القرآن ٥١٧ اختلاط الرجل بالمرأة ٥١٩ وجه اضافة البيت الى زليخا في قوله « التي هو في بيتها » ٥٢٠ لماذا عبر بكلمة « عن نفسه » ٥٢١ عمر يوسف وزليخا حين المرادة ٥٢١ (وغلقت الأبواب) ابواب قصر العزيز ٥٢٢ المرادة وتغليق الابواب ٥٢٣ ما معنى « غلقت » ٥٢٤ (وقالت هيت لك . .) طلب زليخا الفاحشة من يوسف وإبائه يوسف ٥٢٥ (إنه ربي أحسن مثواي) اعتراف يوسف بالجليل ٥٢٧ الأسباب التي تبعد الانسان عن الفحش والمخالطة ، توبيخ يوسف لزليخا ضمناً ٥٢٨ تعريض يوسف بزليخا ، المراد بالرب في قوله « إنه ربي » ٥٢٩ (إنه لا يفلح الظالمون) الظالم لا يفلح .

الصحيفة والموضوع

- ٥٣٢ بدء المعركة بين زليخا ويوسف آ (٢٤) * .. ولقد .. همت به وهم بها ، لولا أن رأى برهان ربه .. كذلك ، لنصرف عنه السوء والفحشاء ، إنه من عبادنا المخلصين * ٥٣٤ (ولقد همت به وهم بها) همت به جلباً وهم بها دفعاً ٥٣٤ برهان ربه هو محبة الله التي تقضي عليه بالدفع بالتي هي أحسن ٥٣٥ همت بقتله وهم بقتلها ٥٣٦ البرهان في قوله « لولا أن رأى برهان ربه » ٥٣٧ الرؤية في قوله (لولا أن رأى) هي رؤية علمية ٥٣٨ مراتب القصد ٥٤٠ الرد على من طعن في عفاف يوسف بقوله إنه هم بجالطة امرأة العزيز ٥٤٢ (كذلك لنصرف ..) السوء والفحشاء ٥٤٤ (إنه من عبادنا المخلصين) إخلاص يوسف لله وإخلاص الله ليوسف .
- ٥٤٥ قميص الشهادة آ (٢٥) * واستبقا الباب .. ، وقدت قميصه من دبر .. ، وأفيا سيدها لدى الباب .. قالت : ماجزاء من أراد بأهلك سوءاً إلا أن يسجن أو عذاب أليم * ٥٤٧ (واستبقا الباب) هرب يوسف من زليخا ولحاق زليخا به ٥٤٨ (وقدت قميصه من دبر) قد القميص ٥٤٩ هل بقي يوسف لا بساً قميصه بعد قده ٥٥٠ (وأفيا سيدها لدى الباب) مفاجأة فوطيفار لزليخا ويوسف عند الباب ٥٥٢ ايضاح لفظ السيد في اللغة والقرآن والتوراة ٥٥٣ (قالت : ماجزاء من أراد .. الخ) المرافعة والاتهام ٥٥٥ التناقض في حكم زليخا على يوسف ، ارتياب العزيز في زوجته منذ بدء تكلمها ٥٥٦ ما المراد بكلمة « الأهل » ، ٥٥٦ زليخا تضيف نفسها الى زوجها إعظماً للخطب ٥٥٧ زليخا تبادر بالكلام خشية أن يسبقها فيه يوسف أو زوجها ، إطالة زليخا الكلام في الشكوى ، عقاب محاولة فعل الفاحشة في الشريعة المصرية ، إخفاء زليخا اسم يوسف عند الاتهام

الصحيفة والموضوع

٥٥٨ القميص المقدود كان دثاراً ، سبب عدم ذكر القرآن اسم العزيز واسم امرأته ، الثأر هو الدافع للثمة .

٥٥٩ المحاكمة آ (٢٦ و ٢٧) * — قال : هي راودتي عن نفسي .. ، وشهد شاهد من أهلها : إن كان قميصه قدّم من قبل .. فصدقت وهو من الكاذبين وإن كان قميصه قدّم من دبر .. فكذبت وهو من الصادقين . * ٥٦٠ (قال هي راودتي عن نفسي) دفاع يوسف ٥٦٢ (وشهد شاهد من أهلها ..) الشاهد والتحقيقات ٥٦٥ شهد شاهد بمعنى آخر حاضر أو حكم حاكم ٥٦٧ موجبات الحكم ، من هو الحاكم ٥٦٨ مرادفات الشاهد ، نفي كون الشاهد كان طفلاً ٥٦٩ تحريم الدفاع عن الخائن والمجرم ، لم يكن الشاهد شاهداً بالمعنى المصطلح عليه عند الفقهاء ٥٧٠ تغلب الحق على القوة مشابهة الشاهد لبعض الحكام والحكام ٥٧١ جواز الحكم بالقرائن والاستدلال بالامارات ٥٧٦ سبب تأخير أمانة صدق يوسف على أمانة صدق امرأة العزيز ٥٧٨ (وإن كان قميصه قدّم من دبر .. الخ) هل كان يوسف لابساً القميص المقدود حين التداعي ٥٧٩ احتقار الشاهد لامرأة العزيز رغم مقامها ، قدّم القميص من قبل دليل الاقبال وقده من دبر دليل الادبار .

٥٨٠ وثيقة البراءة آ (٢٨) * فلما رأى قميصه قدّم من دبر ، قال : إنه من كيدكن ، إن كيدكن عظيم * ٥٨١ (فلما رأى قميصه .. الخ) تبرئة يوسف وتجرّيم زليخا وتوبيخها ٥٨٣ رب محنة في وسطها منحة ٥٨٤ حفظ القميص المقدود للعبرة والذكرى ، تبادل التهينة والشكر ، مرادفات الكيد ، الكيد والمكر من صفات الضمفاء واليهود ٥٨٥ كيد المرأة ٥٨٨ فضل المرأة

الصحيفة والموضوع

- ٥٩١ كيد النساء وكيد الشيطان ٥٩٢ قميص يوسف والقميص الذي وضع فيه الحجر الأسود .
- ٥٩٢ نتيجة الحكم آ (٢٩) * يوسف ، أعرض عن هذا ، واستغفري لذنبك إنك كنت من الخاطئين .. * ٥٩٣ طلب الاعراض عن يوسف . ٥٩٥ (واستغفري لذنبك) طلب الاستغفار من زليخا ووعظها ٥٩٧ بعض فضليات النساء في التاريخ ٥٩٨ لماذا لم يعاقب العزيز امرأته بصرامة ، يدا فوطيفار أو ككتا وفوه نفخ ٦٠٠ احتمال اتصاف العزيز بشيء من فساد الاخلاق ٦٠١ احتمال خوف العزيز من اسرة زوجته وضعفه تجاهها ٦٠٢ احتمال عدم وجود طلاق في زمن العزيز عند المصريين ٦٠٣ احتمال حرص العزيز على ستر حادثة زوجته ٦٠٤ معصية امرأة العزيز عقوبتها التعزير ٦٠٥ عقاب المرادة في الشريعة هو الاستتابة مع التعزير ٦٠٧ (إنك كنت من الخاطئين) العزيز بخطيء زوجته ويوبخها ٦٠٨ معنى الخطأ .
- ٦٠٩ كل سر جاوز الاثني شاع آ (٣٠) * وقال نسوة في المدينة : امرأة العزيز تراود فتاها عن نفسه ! قد شغفها حباً ، إنا لنراها في ضلال مبين * ٦١٠ وصول خبر السوء الى نساء الأمراء الخمس ٦١٢ (امرأة العزيز تراود فتاها عن نفسه) انتشار حديث السوء ٦١٣ نسبة زليخا الى زوجها في حديث السوء واغفال اسمها ٦١٥ تسمية العبد فتى ، تسمية حاكم مصر عزيزاً ٦١٦ (قد شغفها حباً) شغف الحب ٦١٧ أمثلة من غرام النساء بالرجال ٦١٩ المشق بين الرجل والمرأة وبالعكس ٦١٩ (إنا لنراها في ضلال مبين) تلوم السيدات الخمس على امرأة العزيز حبها ليوسف .

الصحيفة والموضوع

٦٢١. إقامة الحججة على النسوة الخمس آ (٣١) * فلما سمعت بمكرهن ، أرسلت اليهن .. وأعدت لهن متكأ ، وآتت كل واحدة منهن سكيناً ، وقالت : اخرج عليهن ، فلما رأينه أكبرنه وقطنن أيديهن ، وقلن : حاش لله ! ما هذا بشراً ! إن هذا إلا ملك كريم * ٦٢٣ بلوغ امرأة العزيز اغتياب النسوة لها ٦٢٤ وجه تسمية الغيبة مكرأ ٦٢٦ (أرسلت اليهن) دعوة امرأة العزيز للنسوة ٦٢٨ (وأعدت لهن متكأ) المطعم الصائد ، المتكأ ٦٢٩ معنى أعدت معنى المتكأ ٦٣١ (وآتت كل واحدة منهن سكيناً) سكين الطعام ٦٣٣ (وقالت اخرج عليهن) اجتماع الحب والحبيب والمواذل ٦٣٥ (فلما رأينه أكبرنه) انقلاب المواذل محبين ٦٣٦ عدم رؤية النسوة ليوسف قبلاً ، احترام النسوة الاقصى ليوسف ٦٣٧ (وقطنن أيديهن) ٦٣٩ وقع جرح النسوة أيديهن على امرأة العزيز ، احتمال جرح النسوة أيديهن في عدة مواضع . ٦٤ أمثلة للنسوة اللاتي جرحن أيديهن في التاريخ ٦٤٢ حمل التقطيع على التحزير والتشطيب ٦٤٣ كتمان حادث تقطيع النسوة أيديهن عن مليك مصر ، جمال يوسف ٦٤٥ (وقلن حاش لله) النسوة المدعوات ينزهن يوسف عن البشر ٦٤٦ (ما هذا بشراً) المغالاة طبيعة في المرأة ٦٤٧ (إن هذا إلا ملك كريم) النسوة اللاتمات ينقلبن الى متغزلات مادحات .

٦٥٠. لوم واعتراف ووعيداً (٣٢) * قالت : فذاكن الذي لمتني فيه ، ولقد راودته عن نفسه فاستمصم ، وأئن لم يفعل ما أمره ليسجنن وليكونا من الصاغرين * ٦٥١ لوم زليخا للنسوة ٦٥٣ (ولقد راودته ..) اعتراف زليخا للنسوة ٦٥٤ زيادة قحة زليخا ، عدم صبر النساء على حفظ الاسرار ٤٥٥ اعتراف

الصحيفة والموضوع

فاسقة لفواسق ، الاعتراف السري ٦٥٦ (ولئن لم يفعل .. الخ) انذار
زليخاليوسف ٦٥٧ وعيدزليخاليوسف دون وعده ، دلائل نفوذ زليخاوشموخها .

٦٥٩ المناجاة آ (٣٣) ﴿ قال : رب ، السجن أحب اليّ مما يدعونني اليه ،
وإن لاتصرف عني كيدهن أصب اليهن ، وأكن من الجاهلين ﴾
٦٦٠ (قال رب السجن .. الخ) مناجاة يوسف ربه لصرف كيد النسوة
عنه ٦٦١ سبب سكوت يوسف في حفلة النسوة المدعوات ٦٦٢ كيف
كانت مشقة زول السجن أحب الي يوسف مما يدعوه النسوة اليه ٦٦٣ لماذا نسب
يوسف الدعوة لجميع النسوة ٦٦٨ (وإن لاتصرف عني كيدهن .. الخ)
استغاثة يوسف بربه لحمايته من الانعطاف للنسوة ٦٧٠ الدعاء الى الله تضرعاً
وخفية ، الجاهلون هم الفاعلون فعل الجمالة .

٦٧١ استجابة الدعاء آ (٣٤) ﴿ فاستجاب له ربه ، فصرف عنه كيدهن ، إنه
هو السميع العليم ﴾ ٦٧٢ (فاستجاب له ربه) أشكال الدعاء ٦٧٣ استجابة
دعاء يوسف بصرف كيد النسوة عنه ٦٧٤ كيف صرف الله كيد النسوة
عن يوسف مع أنه سجن بعد ذلك .

٦٧٥ يوسف في السجن آ (٣٥) ﴿ ثم بدا لهم ، من بعد ما رأوا الآيات ،
ليسجننه حتى حين .. ﴾ ٦٧٦ لماذا سجن يوسف ٦٧٨ حالة يوسف
عند دخوله السجن ٦٧٩ نتائج سجن يوسف ٦٨٠ متى سجن يوسف ،
مرادفات لفظة « بدا » ٦٨١ من هم الذين بدا لهم سجن يوسف وهل لامرأة
العزير دخل في ذلك ٦٨٢ سجن يوسف ، كان بعد حادثة دعوة النسوة
وخروجه عليهن ٦٨٣ الاستقلال الاداري لامراء ووكلاء الدولة المصرية
في عهد مليكها الريان ، دعوى امرأة العزير هي من قبيل دعاوى التهم

الصحيفة والموضوع

- ٦٨٤ بعض الأنبياء والصلحاء الذين سجنوا ، تحسر يوسف ، وهو في السجن
- ٦٨٥ مكان سجن يوسف . السجن في زمن النبي ﷺ والصحابة
- (رض) ٦٨٦ ماهي الآيات التي أدت الى سجن يوسف .
- ٦٩٠ سجن الفتين ورؤياها آ (٣٦) * ودخل معه السجن فتيان ، قال أحدهما :
 إني أراني أعصر خمراً ، وقال الآخر : إني أراني أحمل فوق رأسي خبزاً
 تأكل الطير منه ، نبئنا بتأويله ، إنا نراك من المحسنين * ٦٩٢ (ودخل معه
 السجن فتيان) من هما الفتيات السجناء مع يوسف وما سبب سجنها
- ٦٩٣ غاية عزيز مصر من سجن يوسف مع الفتين ، الفتى والرب في
 اصطلاح المصريين أيام يوسف وحكمه في الشرع الاسلامي ٦٩٤ قل أحدهما
 إني أراني .. الخ) رؤيا الفتين ٦٩٦ ملوك مصر الأقدمين والخمر ، أقوال
 في الخمر ومضارها ٦٩٧ الخمر عند الامم الغربية وفي كتب الدين المسيحي
 وفي القرآن والحديث .. ٧ هل كانت الخمر حلالا عند المصريين والرعاة في
 في زمن يوسف ٧٠١ الخمر عامة هو ما يعصر أو ينبذ ، الرؤى الصريحة
 ٧٠٢ اطلاق ضمير المفرد على المتني والجمع في لغة العرب ، احسان يوسف
 لأهل السجن ٧٠٣ الاعتراف باحسان يوسف .

فهرس الآيات والمواضيع التي للمؤلف فيها رأي أو فهم خاص في الجزء الاول
الصحيفة والموضوع :

٣٠ في دفع شبهة المجاردة على سورة يوسف (ع) ٣٦ إيقاف النبي (ص)
على طبائع يهود المدينة . ٤ في هل اخوة يوسف (ع) أنبياء ؟ ٧١ في تقليد المفسرين
بعضهم لبعض ٧٨ نظائر لفظة « الر » في التوراة والانجيل ١٢١ لماذا عبر بأن
قصص القرآن هو أحسن القصص ١٣٨-١٧٧ قصص التوراة ٣٢٨-٣٣٦ قال
قائل منهم .. الخ ٣٧٢ فلما ذهبوا به ... الخ ٣٧٤ فلما ذهبوا به .. الخ ٣٨٦ وجاءوا
أبام عشاء سيكون ٣٩٨ فأكله الذئب .. الخ ٤٤٧ وشروه بثمن بخس .. الخ ٤٦٠
وقال الذي اشتراه من مصر .. الخ ٥٢٥ إنه ربي أحسن مثواي .. الخ ٥٣٤ ولقد
همت به وهم بها .. الخ ٥٤٢ كذلك لتصرف عنه سوء والفحشاء .. الخ ٥٧٨ وإن
كان قبضه قد من دبر .. الخ ٥٩٧ واستغفري لذنبك .. الخ ٦٢٣ فلما سمعت
بجكرهن .. الخ ٦٢٦ أرسلت اليهن .. ٦٣٧ وقطعن أيديهن ٦٨٠ و٦٨٦ ثم بداهم
من بعد ما رأوا الآيات ..

جدول الاخطاء المطبعية وتصويبها في الجزء الاول

التصويب	الخطأ	سطر	صحيفة
سنة ونيف ، وتركه مسوداً بخط يده في بضع وستين كراساً قمت بتبييضها بعد ما نسقت مواضعها وربتها وضبطت الآيات القرآنية ثم وضعت للمواضيع عناوين تناسبها وشرحت بعض الكلمات في الهامش ووضعت فهرس الكتاب وفهرس المواضيع التي انفرد المؤلف في فهمها وقسمت الكتاب الى جزئين الجزء الأول من مقدمة السورة الى الآية ٣٦ والجزء الثاني من الآية ٣٧ الى آخر السورة ، فان ظهر في الكتاب هفوات أو أخطاء فما ذلك إلا من تقصيري وعجزتي ، اذا عصمة لله وحده ، هذا ولم يكن ..	سنة ونيف، لم يكن	١٣	١٢
السيد محمد رشيد رضا . .	السيد رشيد رضا	١٠	١٧
الغزية	الغزلية	١٥	٢٣
تطبيدتها	تطبييقها	١٣	٢٥
عَجْرَد	عَجْرَر	١٠	٣٠
العزير	الفرير	٩	٣١
يمثلون	ويمثلوا	١٩	٣٦
نمود	تعوز	١٢	٦٧
يحضروه	يحضره	٧	٧١
كثير	كثيرة	٦	٧٩

التصويب	الخطأ	سطر	صحيفة
مكاتب	مكاتب	٤	٨٥
كثيراً	كثيراً	١٤	٨٥
زول	مزول	١٥	٩١
عِنْدَ	عند	٣	٩٢
بلاغتها	بلاغتها	١١	٩٩
وفهم	وفيهم	١٣	١٠٠
اللغة	املغه	١١	١٠٤
آ (٢)	آ (١)	١	١١٢
المراقين	المراقين	١٥	١١٨
ومن أجل	أحلامه ومن أجل	٣	١٢٣
ثلاثاً	ثلاث	٨	١٣٧
إذا	إذ	١٦	١٤٣
انما	وانما	٥	١٤٧
إن	أن	٩	١٤٧
فقال ملاك الرب لنوح	فقال الرب	٢١	١٤٧
(ص ٢٠ : ٢)	ص (٢٢٠)	١٤	١٤٩
عند	عند	١١	١٥٢
اسرائيل (تك ٣٦ : ٣١)	اسرائيل، لا يطلع أن	١٠	١٥٥
فقوله : قبلها ملك ملك لبني إسرائيل، لا يصح أن			
(٤ : ٢٨)	(٣ : ٢٨)	١٣	١٥٨
الخطية	الخطيئة	٢	١٥٩
يربعم	يربعم	١٣	١٧٠
الكذب	للكذب	٦	١٧١

التصويب	الخطأ	سطر	صحيفة
وأن الرب	وأمر الرب	٨	١٧١
طارذك	طاردتك	٦	١٧٣
التوراة	التوأة	١٨	١٧٣
فَطَرِ النَّاسِ	فَطُرِ النَّاسِ	١٨	١٧٤
آ (٣)	آ (٢)	١	١٧٧
الا وهو تربية	وهو تربية	١١	١٨١
تحل	نحل	٢	١٩٥
نجساً	بخساً	٦	١٩٦
(رض)	(ص)	١٤	٢٠٣
يا بني إن الله	يا بُنَيَّ إن الله	١٥	٢١٩
ما حدا	ما حدا	١٦	٢٢١
بين يوسف وأبيه	بين وأبيه	١٤	٢٢٢
اشْتَرَوْا	شْتَرَوْا	١٢	٢٣٧
توقير	توفير	٨	٢٣٨
وللاسلام	والالاعلام	١	٢٤٥
أَنْ لَا تَقَاتِلَ	أَنْ تَقَاتِلَ	٩	٢٤٧
بِنِيفُنَّةٍ	ابن يَفْنَه	٨	٢٤٨
لكم مقتبس	لكم حكم مقتبس	١٧	٢٦١
شخصي	شخص	٧	٢٦٢
ووثنبي	ووثنى	٣	٢٦٣
بماقبة	بمقبة	١	٢٧٥
الهامة	المهمة	١	٢٨١
فَتَنَّا	فَتْنَا	٤	٢٨٢
الهامة	المهمة	٩	٢٨٦

التصويب	الخطأ	سطر	صحيفة
اسباب عداة الاخوة الهمة	اسباب عواد الاخوة الهامة	١	٢٨٢
يتخيلون أن	يتخيلون إن	١١	٢٨٢
يظنون أنه	يظنون إنه	١١	٢٨٢
وازدادوا	واذ دادو	١٥	٢٨٢
لحُزْمته	لحزُمته	١١	٢٨٣
وأن	وإن	٤	٢٨٤
فاستطارت	فا استطارت	١٨	٢٨٥
فيبغي	فينبغي	١٤	٢٨٧
قبات	قَبَيَات	٨	٢٨٨
سليمان	سليمان	٩	٢٨٨
ألو	أولوا	١٠	٢٩٢
يَرَوكَ مُحِبًّا	يَرَوكَ : مُحِبًّا	٤	٢٩٥
نَمَّ اتَّخَذْتُمْ	نَمَّ اتَّخَذْتُمْ	١٣	٣٠٤
البدنية	البدنية	١٣	٣٠٥
قيل إنه	قيل أنه	٧	٣١٠
صيدت	صيرت	١٦	٣١٦
مها	فها	١٧	٣١٦
مع أبناء	مع أبناء	٢	٣١٨
الكلمة السابعة	الكلمة السابقة	٦	٣١٨
ويزداد	ويزاد	١٥	٣٢٠
يوسف هو من الحسد	يوسف من الحسد	١٨	٣٢٠
فالصهيونيون	فالصيهونيين	٣	٣٢٢
﴿ قال قائل منهم ﴾	﴿ قال قائل ﴾ منهم	١١	٣٢٥

التصويب	سطر الخطأ	صحيفة
فإن قلم إنه	١٩ فإن قلم أنه	٣٢٧
الجب من	١٧ الجب على	٣٣٢
يدل	١٥ يدل	١٣٤
الكلمة السابقة	٧ الكلمة السابعة وهي الأخيرة	٣٣٥
آ (١١)	١ آ (١٠)	٣٣٧
أحسن	٤ أحسن	٣٣٧
والفتر	١٣ والضر	٣٤٦
أن الكثير	٢ إن الكثير	٣٤٧
لاسمح الله	١٦ لاسمح الله	٣٤٧
خذ الوعد	٨ خذا الوعد	٣٥٠
عليكم أنكم	٢ عليكم إنكم	٣٥٢
إذا لذهب	١٧ إذا لذهب	٣٥٣
كانها جان	٣ كانها جان	٣٥٨
ومعناها أن	١٤ ومعناها إن	٣٦١
معناها ، أن	١٧ معناها ، إن	٣٦١
دوثان	١٢ دومان	٣٦٣
ليس لناقط	١٩ ليس لناقط	٣٦٣
(بالعزيز)	٤ (بالعزيز)	٣٦٨
والدم في	١٨ في والدم	٣٨٠
والإضرار	١ والأضرار	٤٠١
وافتر	١٣ وافتر	٤٠٣
(رض)	٥ (ص)	٤٠٨
والبلاء	١٤ والبلاء	٤١٠

التصويب	سطر الخطأ	صحيفة
الصلبيين	الصلبيين ٢٠	٤١٨
حشويو	حشويوا ١٧	٤٢٢
عود الضمير	عود الضمر ٥	٤٥٠
(شروه، اشتراه)	(شروه، واشتروه) ١٨	٤٥٠
وقد أمر	وقد أمرا ١٣	٤٥٤
وإنّ	فان ٢	٤٦٦
سأتلف المال	سأتلف الحال ١٧	٤٦٨
بينته	باسم بنته ٢٢	٤٦٨
وهو أمر	فهو أمر ١٣	٤٧٨
جهات	جهات ٢٢	٤٨١
الثاني	الثالي ١١	٤٨٢
نواميس	قواميس ٢٠	٤٨٤
آ (٢٢)	آ (٢٠) ١	٤٩١
فيقمنس	فيقمنس ٥	٤٩١
يقدر	يقرر ٢	٤٩٣
خسة	خسة ٩	٤٩٩
القار	الفار ٢	٥٠٧
بهسة	بيهة ٥	٥١٢
السيدة	السيد ٨	٥١٣
بِخْمُرِهِنَّ عَلَى جُيُوبِهِنَّ وَلَا يُبْدِينَ	بِخْمُرِهِنَّ وَلَا يُبْدِينَ ٢٣	٥١٨
بِكَفْلُونَهُ	تَكَفْلُونَهُ ٢٢	٥١٩
وصبوتها	وحبوتها ٧	٥٢١
بالجميل	في الجميل ١	٥٢٥
بالجميل	في الجميل ١	٥٢٦

التصويت	مسطر الخطأ	صحيفة
همت به جلباً وم بها دفماً	١ همت به جلباً وم بها وقماً	٥٣٤
ولسان	١٦ لسان	٥٣٥
المُخْلِصِينَ	١١ المُخْلِصِينَ	٥٤١
(كذلك)	٥ كذلك	٥٤٢
المُخْلِصِينَ	١٦ المُخْلِصِينَ	٥٤٤
عقاب	١٢ عقار	٥٧٧
مفضلاً	٢ مفصلاً	٥٦١
لَدَنَبِكَ	١٦ لَدَنَبِكَ	٥٩٢
فاصلحوا	١٩ فاصلحوا	٦٠٠
يكون يوم « يشوع »	١٦ يكون « يشوع »	٦٣٥
التحزير	١ التحزير	٦٤٢
أخزمية	٧ أخذمية	٦٦٥
ونسبه	١٧ ونسبة	٦٦٧
حوّاري	١٤ حوّاري	٦٩٥
حكاكاً وأكالا	٧ حكاك وأكال	٦٩٧
وبشوراً	٨ وبشور	٦٩٧
المثنى	٤ لمثنى	٧٠٣

وهناك اخطاء اخرى لا تمنحني على القارىء

MOU'TAMAR TAFSIR SOURAT YOUSSEF

**Congrès pour l'explication de la Sourate de Joseph
(Chapitre XII du Coran)**

Met en lumière les caractères des sionistes, montre que les caractères des descendants sont hérités de leurs ancêtres, dévoile la vérité sur les juifs et donne une leçon aux arabes de palestine .

O Arabes de Palestine ! O Arabes et Musulmans de tous les pays Lisez ces conférences sur la sourate de Youssef vous comprendrez ce dont sont capables les sionistes de par leur hérédité .

PAR

CHEIKH ABDALLAH EL - ALAMI

(1862 — 1936)

Professeur, chargé de l'explication du Coran
à la Mosquée des Omayades à Damas

Editeurs

Imprimerie DAR - EL - FIKR
DAMAS

Tous droits réservés

MOÛTAMAR TAFSIR SOURAT YOUSSEF

Congrès pour l'explication de Sourat de Joseph
(Chapitre XII du Coran)

Met en lumière les caractères des Sionistes, montre que les caractères des descendants sont hérités de leurs ancêtres, dévoile la vérité sur les Juifs et donne une leçon aux Arabes de Palestine .

O Arabes de Palestine ! O Arabes et Musulmans de tous les pays ! Lisez ces conférences sur la Sourat de Youssef vous comprendrez ce dont sont capables les Sionistes de par leur hérédité .

PAR
CHEIKH ABDALLAH EL - ALAMI
(1862 — 1936)

Professeur, chargé de l'explication du Coran
à la Mosquée des Omayyades à Damas

Editeurs
Imprimerie DAR - EL - FIKR
DAMAS

Tous droits réservés